كتاب البدء والتأريخ للمطهر بن طاهر المقدسي
الجزء الأول

الفصل الأول

تثبيت النظر وتهذيب الجدل

أقول وبالله التوفيق وَمَن عندَهُ العصمة والتسديد إن معرفة هذا الفصل من أعوان الأسباب على درك الحقّ والتمييز بينه وبين ما يضادّه لاغناء بأحدٍ عن مطالعته والإشراف عليه ليعرف الصدق من نفسه ومن غيره إذْ قد يعترض من الفكر والتخايل والأوهام الفاسدة والخطرات الردئة ما يلتبس معها الحقّ ويتغلّب عندها الظنّ والشكّ وليس ما يميّز بينها ويدلّ على صّحة الصحيح وبُطلان الباطل منها إلاّ النظر وبه يعترف السؤال الساقط من السؤال اللازم والجواب الجائز من الجواب العادل فلنذكر الآن منه لمعاً لهام ما نحن قاصدوه يكون عُدّة للناظر وقوّة للمناظر ثّم من بعد يستقصيه إن شاء الله في كتاب استسناه على هذا النوع وسّميناه كتاب العلم والتعليم ومن عند الله العصمة والتوفيق أقول أنّ العلمَ اعتقادُ الشيء على ما هو به إن كان محسوساً فبالحسّ وإن كان معقولاً فبالعقل والحسّ والعقل أصل ما تردّ إليه العلوم كلّها فما قضَيَا بإثباته ثبت وما قضيا بنَفْيه انتفى هذا إذا كانا سليمّيْن من الآفات برئَيْنِ من العاهات وعوارض النقص غسيلين من عشق عادة الألف والنشو لا يكاد يقع حينيذٍ في محسوسه ومعقوله اختلاف إلا من مخالف أو من معاند لأنهما على ضرورة لا يعترض للحاسّ شكٌّ في هيئة المحسوس وصورته ولا يقدر المضطّر ببديهة عقله أن لا يعلم ما يعلمه ويتيقنه ولا يُصدّق مّنْ يدّعي خلافه ولو كان مضطّر إلى دعواه كما اضطّر في حواسّه لما ظهر من أحد خلاٌف ولا احتيج إلى كسر قوله والكشف عن عُوار كلامه ألا ترى أنّه يستحيل ان تجد الحاسّة النار باردّة والثلج حارًّا في الظاهر كما يستحيل إن يكون المعلوم متحرّكاً ويعلم ساكناً أو يكون في نفسه أبيض ويقع العلم بأنّه أسود ولو جاز هذا لبطلت العلوم كلّها رأساً وفسدت الاعتقادات فساغ لكل قائل ما أراد من ادّعاء السمع البصر والبصر السمع والحيّ ميتاً والميّت حياً وهذا محال لأن العلم إذا كان إدراك الشيء على ما هو به من حدٍ وحقّه ثم لم يُدرك ذاته كما هو لم يكن معلوماً وكذلك الحسّ إذا لم يدرك طبعه طبع ما يقع تحته لم يكن محسوساً وهذا لا خلاف فيه بين المتميّزين العاقلين قاطبةً إلاّ رجلّيْن اثنَيْن أحدهما العامي الذي لا نظر له لإغفاله آخذاً له استعماله ومتى لاح له الحقّ اتبعه وانقطع خلافه لأن قوله ذاك عن حَدْس وظنّ وسماع وتقليد فإذا قرع سمعه ما يشهد بتصديقه قلبه مال إليه وقبله والثاني الجاحد المعاند الذي يسمّيه القدماءُ السوفسطاني وسنذكر فساد مذهبهم في موضعه إن شاء الله تعالى، وضدّ العلم الجهل ومعناه اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به وليس كلّ من لا يعلم جاهلاً بالإطلاق ولكنّ الجاهل في الحقيقة التارك طلب حدّ الشيء وحقّه المعتقد له على غير ما هو به ولولا ذاك لما استحق اللائمة والمذمّة على جهله.

القول في كمية العلوم ومراتبها، أقول أنّ اسم العلم قد يُطاق في الحملة على الفهم والوهم والذهن والفطنة واليقين والخطرة والمعرفة وكلّ ما يحصل منه إدراك شيء ظاهراً أو باطناً ببديهة عقل أو مباشرة حاسّة أو استعمال آلة كالاستدلال والفكرة والبحث والتمييز والقياس والاجتهاد لأن هذه لخصال كلّها آلات إدراك لعلم وطُرُق التوصّل إليه وممّا يصاب من هذه الجهة فروع بالإضافة إلى علم البداية والحواس أ لا ترى أن الإنسان العاقل المميّز مضطرّ إلى شواهد عقله وحسّه غير مضطّر إلى استدلاله وبحثه أو لا ترى أن لا سبيل إلى البحث والاستدلال لمن عرى من عقله أو أصيب بحسه فأوّل العلم الخطرة الصادقة وهو كالبديهة مثلاً كل بقوة البديهة وآخره اليقين وهو استقرار الحقّ وانتفاء الشك والشبهة عنه وإنما اشترطنا في الخطرة الصدق لأنه قد يخطر النفس والهوى والطبع والعادة بم لا حقيقة له فلا يجوز أن نُعد من آخر العلم اليقين الذي يُحيط بالأشياء على وجهها ويدركها بكنهها المعرفة إدراك أينية الشئ وذاته فمن قائل أنها ضرورة آخر أنّها مكتسبة والفرق بينها وبين العلم إن العلم الإحاطة بذات الشيء عينه وحده والمعرفة إدراك ذاته وثباته وإن لم يدرك حدّه وحقيقته فالعلم اعمّ وابلغ لأن كلّ معلوم معروف وليس كلّ معروف معلوماً ألا ترى أنّ الموحّدين يعرفون ربّهم ولا يعلمونه إلا بالإثبات لأنَّ الكيفية والكميّة عن منفيتانِ، والوَهْم اعتقاد صورة شيء محسوس أو مظنون وان كل منفياً وجودُه في الظاهر لأنَّ قوة الوهم في انبساطها تضعُف فلذلك ترى ما لا تراه العيون وكذلك العين إذا امتدت قوّة بصرها وبعدت مسافة المرء عنها رأته على خلاف ما هو به من الصغَر والعظم والصورة واللون وغير ذلك من آلهيات وما خلا عن آلهيات والصفات والحدود كلّها فلا يمسّها الوهم ولا يتصوّر في النفس والفهم هو المعرفة وقوّة الذهن قريبة من قوّة العقل غير أنّ الذهن والفهم تطبّع والفطنة قريبة المعنى من الذهن وانّما احتجنا إلى هذا لأن كثيراً من الناس يولعون بالبحث عن هذه الأسامي ويستفرقون بينها وأما الأسباب التي يتوصّل بها إلى ما خفى من العلم فالفكرة وهي البحث عن علّة الشيء وحدّه الرأي والرويّة والاستنباط انتزاع ما في طي المعقول والمحسوس والاستدلال والاجتهاد وقد عدّ قومٌ ميل العادة والطبع إلا ما يميلان إليه أو ينفران منه علماً فهذه جملة أصول العلم وطُرقها ومحصولها راجع إلى ثلاثة أصناف إلى المعقول بديهةً والمحسوس ضرورة لأن ما يدرك بهما يدرك بلا واسطة ومقدّمات والثالث المستدلّ عليه المستنبط بالبحث والإمارة فهذه يقع فيها الاختلاف والإضطراب لخروجه عن حيّز الحاسة والبديهة وتفاوت قُوى المستدلّين والناظرين وتفاوت أرائهم وعقولهم وهذا يكثر حدّاً وفيه صُنفت الكتب ودُونت الدواوين من علمي الحكمة والملّة مُذ قامت الدنيا على ساقها ولا يزال كذلك إلى انقضاء الدهور وتخرُّم الأيام وكثير من الناس أبوا أن يسمّوا علم البديهة والحسّ علماً على الحقيقة لاشتراك الناس كلّهم فيه واستواء درجاتهم في ذلك ثم هو غير مستفاد ولا مكتسب بل أوجبه الطبع العزيزة وقوّة التمييز والخلقة

القول في العقل والمعقول، أقول أنّ العقل قوّة إلهية مميزة بين الحقّ والباطل والحسن والقبيح وأمّ العلوم وباعث الخطرات الفاضلة وقابل اليقين وقد قيل إنما سمّي عقلاً لأنه عقال للمرء عن التخطّي إلى ما خُطر عليه وقد أكثرت الفلاسفة الاختلاف في ذكره ووصفه قال ارسطاطاليس في كتاب البرهان أن العقل هو القوة التي بها يقدّر الإنسان على الفكرة والتمييز وبها يلتقط المقدّمات من الأشياء الجزؤية يؤلف منها القياسات وقال في كتاب الأخلاق أن العقل هو ما يحصل في الإنسان بطريق الاعتياد من أنواع الفضائل حتّى يصير له ذلك خُلقاً وملكة متمكنة في الناس وقال في كتاب النفس بخلاف هذا وقسّمه إلى ثلاثة أقسام إلى العقل الهيولاني والعقل والفعّال والعقل المستفاد وفسّره لاسكندر فقال إن العقل الهيولاني هو ما يوجد في شخص الإنسان من إمكان التهيؤ لتأثير العقل الفعّال وان العقل المستفاد هو المصوَّر والعقل الهيولاني بمنزلة العنصر وان العقل الفعّال هو المخرج للعقل المسنفاد على الوجوه

بالفعل وزعم بعضهم أن العقل هو النفس وبعضهم يقول هو البارىء جلّ جلاله مع تخليط كثير منهم في هذا الباب ممّا توارثناه عن الأسلاف قولهم العقل مولود والأدب مستفاد وإنما سمّاه بعضهم باسم أفعاله فلا يضايقه بعد أن أتى المعنى المطلوب منه ألا ترى أنه يقال لكتب المنصفين أخبار الأوائل والأسعار أنها عقولهم والمعنى نتائج عقولهم وأذهانهم وقيل ظن الرجل قطعة من عقله فكل هذا على التمثيل والاستعارة ولا يختلف قول القدماء في أن العقل الهيولاني أصفى جوهر النفس وحسّه فوق حسّ النفس ورتبتُه على رتب الجواهر ودون رتبة البارىء جل جلاله وهو أقرب الأشياء منه المسلمون لا يعلمون من العقل إلا ما هو مركب في الإنسان خاصّةً دون سائر الحيوان في العالم السُفلي فأما ما يحكى عن غيرهم فموقوف على الجواز ما لم يردّه العقل أو كتاب الشريعة وقد ذهب قوم أن حجّة الطبع فيما يوجبه ويسلبه أولى من حجّة العقل وادعوا ذلك من جهة اشتياق إلى ما وافقه ويلائمه وإنقباضه عمّا يعافه وينافره وان الله عزّ وجلّ خلقه إذ خلقه كذلك ولا يجوز ان يخلق شيئاً عبثاً أو لغير حكمة وفائدة والعقل مستحسن وهو يستحسن الشيء ثم يستقبحه ويستصوبه ثم يستحطئه والطبع لا يستحلى مُراً ولا يستمر حلواً ولا يجد الشيء عن خلاف ما هو به فأجابهم مخالفوهم أن الطبا ع لا تعرف إلا ما يحسّ وتباشر وقد تغيرها العادات والعوارض عن أصل جلبلتّها فتميل في بعض الأوقات إلى ما كانت تنفر عنه وينفر عمّا كانت تميل إليه وليس من قوّتها التمييز بين الحسن والقبيح بالاستدلال كما في قوّة العقل وقد صحّت طبائع البهائم وسلمت أخلاطها ثم لم يحسن خطابها وامتنا ع الطبع عن استحسان الحسن واستقباح القبيح غير محلى له من الحكمة ولا موجب العبث في خلقه كما أنّ الموات لا تحسُّ بشيء من الأغراض ثمّ لم يخلُ من الحكمة بل دلالته وما تحويه من المنافع والمضار الذي خصّ به جنسه فائدته وحكمته فدلّنا ان موجب العقل هو المعوّل عليه في الاعتبار والاستدلال لإسقاط التكليف ووضع الامتحان على البهائم التي سلمت طباعها وأخلاطها فإن قيل بمّ عرفتم العقل قيل بنفس العقل لأنه الأصل والبديهة وأمّ علوم الاستدلال كما عرفنا الحسّ نفس الحسّ لأنه الطبع ولو كنَّا عرفنا العقل بعقل لأفضى الأمر إلى ما لا نهاية له ولّما كان العقل أصل العلوم ورأسه فإن قيل فَبِمَ يفرقون بين دلالة العقل ودلالة الهوى والعادة قيل بالرد إلى الأصل لأن الفرع يشاكل الأصل ولو لم يشاكله لم يكن فرعاً له ومن الدليل على وجوب حجّة الطبع تعظيم الناس كلّهم العقل وتبجيلهم إيّاه وتفضيلهم مراتب العقلاء ورفعهم أقدارهم واستنامتهم إلى آرائهم واعتمادهم على إشارتهم وتمنّيهم درجاتهم والاستخفاف بمن ذلّ عقله وبدا سخفه ولم يفعلوا ذلك بمن استقامت طباعه وكملت أخلاطه فعلمنا أنه معنى غير معنى الطبع وهو العقل

القول في الحسّ والمحسوس، أقول أنّ الحواس طُرُق وآلات مهيّأة لقبول التأثيرات كما وضعها الله عزّ وجلّ عليه فإذا باشرت الحاسّة المحسوس أثرت فيه بقدر قبوله وقبلت منه بقدر تأثيره فبدرت به النفس وأدّته إلى القلب واستقر فيه ثم تنازعته أنوا ع العلم من الفهم والوهم والظن والمعرفة وبحث عنه العقل وميزه فما حققه صار يقيناً وما نفاه صار باطلاً والحواسّ الخمس أولاً لا يوجد شيء لا يمكن وجوده بشيء من الحواس فيحتاج إلى حاسّة سادسة ويزعم قومٌ أنها أربع ويجعلون الذوق ضرباً من اللمس وبعض يقول ستّ ويعدون فعل القلب حاسّةً سادسةً وهذا سهل واسع بعد أن اقروا بصحة وجود فعل الحواس لأن من الناس من ينكر حقيقة فعلها تتغير أحوالها ويحتج برؤية من يؤدي وجهه في السيف طويلاً وقامته في الماء الذي لا يكون مساحة عمقه كمساحة قامته منكسة ويرى الصغير كبيراً والكبير صغيراً والواقف سائراً وهذا من رأى المعاندين والمموّهين إذ لا توجد هذه التغيرات في غير حاسّة البصر وذلك للعلل العارضة من بُعد المسافة وتكاثف الهواء فيقع الغلط من جهة الكيفية والكمية لأن الحاسّة لا تضبط الهناة إذا بُعدت فأمّا الاينية فلا يقع فيها غلط ما لم يفرط بُعدها فلا تحصر شخصها الحاسّة وأما سائر الحواسّ

التي فعلها بالمضامّة والمباشرة فلا يقع فيها اختلاف ما صحّت وسلمت وأهون ما يقابل به صاحب الرأي إنكار الحواسّ نفسها عروضًا لإنكار فعل الحواسّ وما أعلم أنا عقلاً يشغل بردّ هذا الرأي وإنكاره ولظهور فساده وفُحش خطابه القول في درجات العلوم أقول أنّ الأشياء كلّها في العقول على ثلاثة أضرُب واجبٌ وسالبٌ ومُمكن فالواجب في العقل بنفس العقل واستدلاله كعلمنا بأن البناء يقتضي بانياً والكتابة يقتضي كاتباً ولابدّ لكلّ صنعةٍ من صانع وأن الواحد والواحد اثنان وأن الشيخ كان شاباً والصغير كان رضيعاً وما أشبه ذلك والسالب الممتنع المستحيل في العقل بنفس العقل واستدلاله وهو أن يوجد كتاب بغير كاتب وصنعة من غير صانع فإن هذا لا يوجبه العقل ولا يتصوره الوَهمْ ولا يستقرّ عليه الطبع والممكن الجائز الموهوم في العقل بنفس العقل كما حكى عن القرون السالفة والبُلدان النائية وما يذكر أنه سيكون بعدُ فإن ذلك ممّا يجوز في العقل أنّه كذلك ويجوز أنه ليس كذلك لأنه لا يدل خاطر على تحقيق شيء من ذلك ألا ويجوز أن يدلّ خاطر على إبطاله لدخوله في حدّ الجواز والإمكان فلمّا تكافأت الأدلّة به قصر على حدّ الوقوف فلا شيء ألا وهو معقول معلوم أو معروف أو موهوم أو محسوس

في الحدّ والدليل والمعارضة والقياس والاجتهاد والنظر وغير ذلك، أقول أنّ الحدّ ما دلّ على عين الشيء وغرضه بإحاطة وإيجاز كحدود الدار والأرضيين التي تميز حصّة كل مالك من حصّة صاحبة فيعرف به داره فأرضه والزيادة في الحدّ نقصان والنقصان منه زيادة يبطل الحدّ المطلوب كقولك الإنسان حيٌّ ناطق هذا حدّه فإن زيد فيه شيءٌ أو نقص انتقض لأن الاعتبار صحّة الحدود في الاطّراد بالعكس والقلب فمتى لم ينعكس لم يستقِم هذا الذي اختاره في الحدود وإن كان للناس فيه أقوال ومذاهب لأن من رأى بعضهم أن حدّ الشيء وصفه له في ذاته كالعلّة وعند بعضهم حدّ الشيء من ذاته واسمه واعتبر بعضهم طرده من جانبين كما قُلنا وبعضهم اقتصر في جانب واحد إذا صحّ الطرد وهذا لا يستقيم إلا في باب الشرع والإلزام التي حجب عن الناس عللها الموجبة كقول من زعم مثلاً أنّ حدّ الصلاة أنّها طاعة ثم يقول وليس كلّ طاعة صلاةً فالأولى في هذا أنْ نسميه صفةً لا حداً لأنه لو كان حداً لسلم في الطرفين كما قال أن حدّ الإنسان أن يكون حياً ميتاً ناطقاً فكل حي ميت ناطق إنسان وكل إنسان حي ميت ناطقٌ وقد قيل الحدّ جامع لما يفرّقه بالتفصيل وأقول أن الدليل ما دّل على المطلوب ونبّه على المقصود كائناً ما كان من جميع المعاني. التي تتوصّل بها إلى المدلول عليه وقد يدلّ الدليل على فساد الشيء كما يدل على صحته فإذا دل على صحة شيء فهو دليل على فساد شيء والدليل على فساد الشيء فهو دليل صحّة ضدّه ويدّل الدلائل الكثيرة المختلفة على العين الواحدة كالطُرُق المؤدية إلى مكان واحد وكلّ ما هدى إلى شيء فهو دليل عليه فالبارئ سبحانه وتعالى دليل خلقه والرسول عليه السلام دليل أمته والكتاب دليل والخبر والأثر دليل والحركة والصواب دليل وما أشبه ذلك هذا الذي اختاره في الدليل الذي يستدلّ أهل النظر به وقد زعم بعض الناس أن الدليل هو المستدلّ نفسه فناقضه مخالفة بأنّه لو كان كذلك لجاز للمدّعى إذا طُولب بالدليل أن يقول أنا الدليل وهذا سهل قريب التفاوت لمن تأمّل أن اللغة لا تمنع أن يكون الدليل فاعل الدلالة كالشريب والسمير وأن يكون عين الدلالة والمدلول عليه كالصريع والقتيل يقول المدّعى أنا الدليل إذا أراد فاعل الدلالة غير خطاء وإنما يستحيل إذا أراد به عين الدلالة على ما يطلب به وقد يكون عينه دليلاً على الصانع إذا سُئل لأنه ما من مدلول عليه إلا وهو دليل على شيء آخر وإن لم يكن دليلاً على نفسه وأقول أن العلّة السبب الموجب وهي ضربات عقليّة وشرعيّة فالعقلية الموجبة بذاتها غير سابقة لمعلولاتها كحركة المتحرك وسكون الساكن فالشرعية التي تطرى على الشيء فتغير حكمه ويكون مقدّماً لها معلولاً بعلة قبلها وشرط صحة العلة جريانها في معلولها فمتى ما تقاعست عن الإطراد تمافت ذلك كوجود عين أو حكم لعلة من العلل ثم وجود تلك العين والحكم مع زوال تلك العلّة أو زوال العين والحكم مع

بقاء العلّة وصحّة العلّة كصحّة الحدّ سواء مع أنّ كثيراً من الناس يسمّون العلّة الحدّ وليس ببعيد لاتفاق المعنى وقيل أن العلة ذات وصف واحد وذات وصفين وذات أوصاف كثيرة ولا يصح الحكم بها إلا بإجتماع أوصافها كقولنا في الإنسان أنه حي ميّت ناطق لو اخترلت صفة من هذه الصفات لبطلت أن تكون حدّاً للإنسان وعلّة له وأقول أن المعارضة تصحيح ما رام خصمك إفساده من مذهبك بمثل مذهبه ومعنى المعارضة والمقابلة على السواء والمماثلة فإذا وقعت على خلاف ما يذهب الخصم إليه فهي ساقطة فاسدة وقد أنكر قوم هذا الباب وأبطلوه وزعموا أنه خارج عن حدّ الجواب والسؤال فأجابهم مخالفوهم بأنه ضربٌ من السؤال أو زيادة فيه واستدلّوا بأنّ المعارض مجيب أو مرئي مناقصه ولو جاز أن تمسك المسؤل عن جواب ما سئل إذا السائل مستجير والمعارض مجير ثم نزل المعارضة من صححها أربع منازل يصحّ منها ثلاث ويبطل واحدة وهي معارضة السؤال بالسؤال كسائل رجلاً ما قولك في كذا فيكُرُّ عليه وما قولك أنت في كذا فهذا لأنه ليس فيه شيء من جواب ما سئل والثانية معارضة الدعوى بالدعوى كقائل إن العالم قديم فيقول له الخصم ما الفرق بينك وبين ما يدّعى أنه مُحدث فيلزم مدّعى القدم إقامة البرهان والتفريق بين المدعوين ومتى بطل قول من ادّعى أنه محدث صحت له دعواه في القدم لأنّ في صحّة الشيء

فساد غيره والثالثة معارضة العلّة بالعلّة كقول الموحّد للمجسّم إذا قلت أنّ الباريء جسم لأنك لا تعقل فاعلاً إلا جسماً فَلِمَ لم تقل مركّب مؤلف لأنك لم تَرَ إلا جسماً مركباً مؤلفاً والرابعة معارضة الدليل بالدليل فهو أن يقال إذا كان دليلك كيت وكيت فما الفرق بينك وبين من يزعم أن الدليل شيءٌ آخر غير ذلك فالجواب أنك لا تقابل علّة بعلّة ومطالبتك بالفرق مطالبة بتصحيح الدليل وأقول أن القياس ردّ الشيء إلى نظيره بالعلّة المشاركة ويقال القياس معرفة المجهول بالمعروف وقيل كلّ ما عُلم بالاستدلال من غير بديهة ولا حاسة فهو قياس وقيل القياس التقدير واحتج قائلوه بقول الفرزدقاد غيره والثالثة معارضة العلّة بالعلّة كقول الموحّد للمجسّم إذا قلت أنّ الباريء جسم لأنك لا تعقل فاعلاً إلا جسماً فَلِمَ لم تقل مركّب مؤلف لأنك لم تَرَ إلا جسماً مركباً مؤلفاً والرابعة معارضة الدليل بالدليل فهو أن يقال إذا كان دليلك كيت وكيت فما الفرق بينك وبين من يزعم أن الدليل شيءٌ آخر غير ذلك فالجواب أنك لا تقابل علّة بعلّة ومطالبتك بالفرق مطالبة بتصحيح الدليل وأقول أن القياس ردّ الشيء إلى نظيره بالعلّة المشاركة ويقال القياس معرفة المجهول بالمعروف وقيل كلّ ما عُلم بالاستدلال من غير بديهة ولا حاسة فهو قياس وقيل القياس التقدير واحتج قائلوه بقول الفرزدق

ونحن إلى زفوف مغوّراتٍ ... نقيس على الحصا نطقاً يقينا

وهذه الأقوال قريبة المعاني كأنها في مشكاةٍ واحدةٍ وقد أجاز بعض القائسين القياس على الإسم كما أجازوه على المعنى والقياس الصحيح الذي يوافق المقيس عليه من جميع معانيه أو أكثرها وتسمَّى القياس البرهاني لدخوله في حيّز علوم الإمكان وقد أنكر بعض الناس القياس فلزمه أن ينكر ما فات حواسه وبدائهه ويقر بصحة كل ما جاء من حق وباطل وقضية العقول توجب أن تكون كل مشتبهين واحداً من حيث اشتبها وإلا فلا معنى للاشتباه ألا ترى أنه مستحيل أن توجد نار حارة ونار باردة لاشتراك النيران في طبع الحرارة وهو المعنى الموجب لهما في القضية وأقول أن الاجتهاد هو إمعان الفكرة والاستقصاء في البحث عن وجه الحق الذي لا يصاب بالبديهة ولا بالحس لكن بالطلب والاستدلال وهو مقدمة القياس وكان القضاء بالشيء على التمثيل والاجتهاد طلب وجه ذلك القضاء من أصح وجوهه والتحرز من وقوع الغلط فيه لأن القياس من غير اجتهاد كالقول بالظن من غير استدلال وأقول أن النظر فعل الناظر بقلبه ليرى ما خفي عليه فكما أن العين قد تقع على الشيء ولا يتبينه إلا بعد النظر والتفكر فكذلك القلب قد تعرض له الخطرة فلا يثبتها إلا بعد النظر والتفكر والمناظرة المفاعلة منه وقد تكون من تشبيه

النظر بالنظير فيكون معناه القياس المحض.
القول في الفرق بين الدليل والعلة وأقول أن الدليل ما هدى إلى الشيء وأشار إليه والعلة ما أوجبه وأوجده ويوصل إلى الشيء بدليله لا بعلته لأن علته أيضاً مما يوصل إليها وتعلم بدليل لأن الذي يدل على العالم وقد يزول الدليل ولا يزول عينه ومتى زالت العلة زالت العين وتختلف الأدلة على العين والواحدة ولا تختلف العلة ومحال وجود ما يفوت الحواس والبدائه بغير دليل وغير محال ما لا علة له.
القول في الدليل، أقول أن من الدليل ما يوافق المدلول عليه بوجه أو وجوه كثيرة كرؤيتنا بعض الجسم والبعض يدل على الكل متصلاً كان أو منفصلاً ومنها ما لا يوافق المدلول عليه بوجه من الوجوه وسبب من الأسباب كالصوت يدل على المصوت ولا يشبه والفعل يدل على الفاعل ولا يشبه والدخان يدل على النار ولا يشبهها ويلزم من يزعم أن الدليل لابد أن يوافق المدلول عليه بجهة من جهاته وإن خالفه في أكثرها فإما إذا لم يكن بينهما مناسبة وارتفع الاشتباه ارتفع التعلق وإذا سقط تعلق الدليل بالمدلول عليه بطل أن يكون دليلاً إلا أن لا شيء في الغائب إلا جسم أو عرض لأنه لا يرى في الشاهد غير حدث وإن ينكر ما في العالم الأعلى لأن ما في العالم الأسفل مخالف له فلا يكون دليلاً عليه فإن زعم زاعم أنه كذلك لا شيء في جسم أو عرض أو حدث غير أنه مخالف لما في الشاهد طولب بالفرق لأن المخالفة تقطع التعلق والاشتباه والزم معارضه من عارضه بأن لا شيء في الغائب إلا وهو حادث ولا في الشاهد إلا غير حادث.

القول في الحدود، أقول أن الشيء اسم عام يطلق على الجوهر والعرض وما يدرك بالبديهة والحاسة والاستدلال من جميع ما مضى وانقضى وما هو ثابت في الحال وما سيكون فيما بعد وحد الشي ما يصح أن يعلم أو يذكر أو يوجد أو يخبر عنه فإذا كان هذا حد الشيء فقد ثبت أن المعدوم شيء لأنه يصح الخبر عنه وأنكر قوم أن يكون المعدوم شيئاً وجعلوا حد الشيء أن يكون مثبتاً موجوداً لأن الموجود والمثبت يعمان الأشياء كما يعم الشيء ولا نقيض لهما قالوا فلو كان الشيء المعلوم لوجد له نقيض وهو المجهول وزعم بعضهم أن حد الشيء المثبت لا غير ولا شيء منفي والمعدوم غير مثبت واحتج بعضهم بكتاب الله عز وجل " أَوَلا يَذْكُرُ الإنسانُ أنَّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً " فنفى أن يكون الإنسان قبل أن يخلق شيئاً وبقوله تعالى هل " أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكون شيئاً مذكوراً " والشيء يذكر قبل الوجود ولو لم يكن شيئاً غير المثبت الموجود أوجب أن يكون ما يخبر عنه من أخبار العالم والقرون مذ قامت الدنيا باطلاً هذراً فإن قيل أن ذلك قد خرج مرة إلى الوجود قيل وما يدريك أن ما هو كائن بعد غير خارج إلى الوجود فهو شيء قيل فما خرج عن الوجود فلا شيء فإن قيل محال تقدم الاسم على المسمى قيل ذلك في الخواص فأما العام فغير ممتنع لأنا نقول سيكون في الدنيا أمور وأسباب وحيوان فتقدم أسماءها قبل وجود شخصها وقد كان أبو الهذيل يغايظهم بقوله في المعدوم أنه جسم خياط على رأسه قلنسوة يرقص ونقيض الموجود المعدوم ونقيض المثبت المنفي وليس نقيض الشيء لا شيء لأن المنفي والمعدوم شيئان قد نفى وعدم ولا شيء لا يوصف بالعدم والنفي فإن قيل فجسم هو أم عرض أم حركة أم سكون قيل هو شيء معلوم مقدور عليه لا غير وحد الجسم أن يكون طويلاً عريضاً عميقاً مؤلفاً مركباً من أجزاء وأبعاض شاغلاً للمكان حاملاً للأعراض ولا يوجد بتة خالياً منها أو من بعضها فإن أنكر منكر أن يكون الموصوف بهذه الصفات جسماً سلم له وسوهل في التسمية بما شاء وطولب بالفرق بينه وبين ما لا يوجد بهذه الصفات وكان هشام بن الحكم يزعم في حد الجسم أنه ما قام بنفسه لأنه كان يقول البارئ جل وعز عن قوله جسم فالجسم في اللغة ما غلظ وكثف وكذلك يقولون للجثة العظيمة جسيمة وإنما أطلق هذا الاسم على ما الموصوف به معناه فإن غير اسمه لم يتغير معناه وإنما يتبين الفرق

عند تفصيل الأسماء والأشخاص وحد العرض أن لا يقوم بنفسه ولا يوجد إلا في جسم فإن أنكره منكر قوبل بما يقابل به منكر الجسم وطولب بالفرق بينه وبين غيره ثم كلم على ما أشار إليه من المعنى وقد زعم قوم أن لا عرض في العالم وأن الأشياء لها أعراض مجتمعة متفرقة وحد الجوهر حد بعينه لأنه جسم ولأن ما خلا عن حدود الجسم والعرض والجزء لم يضبطه الوهم ولا يتصور في الظن الذي هو اضعف أجزاء العلوم ودخل في خبر الامتناع وقد يسمى الجوهر الطينة والمادة والهيولى والجزء والعنصر والاسطقس واختلف الناس في الجزء الذي لا يتجزأ من الأجسام فقال كثير من الناس أنه لا يزال مجزأ حتى يصير في الصغر إلى حيث لا يجوز أن يتجزأ ولا يكون له ثلث ولا ربع ولا نصف قالوا ولولا ذلك لما كان للأجسام تناه ولما كان شيء أكبر من شيء ولا أصغر منه ولما جاز لقائل أن يقول أن الله قادر على أن يرفع من الجسم كل اجتماع خلقه فيه فأقل الاجتماع بين جزئين قال ابن بشار النظام وهشام بن الحكم أنه يتجزأ تجزءاً بلا نهاية ولم يتهيأ بالفعل فأنه موهوم واحتجوا بأنه كما لا يجوز أن يخلق الله شيئاً لا شيء أكبر منه فكذلك لا يجوز أن يخلق شيئاً لا شيء أصغر منه وقالوا لو كان قول من قال أن الجزء لا يتجزأ صحيحاً كان في نفسه لا طول له ولا عرض فإذا حدث له ثان حدث لهما طول فلن يعدوا الطول أن يكون لأحدهما دون الآخر أو لهما معاً فلما ثبت أنه لهما علم أنه يتجزأ وقال الحسين النجار الجزء يتجزأ حتى يعود إلى جزء لا يقبله الوهم فيبطل حينئذ وقال قوم لا ندرى كيف القول فيه واختلفوا في جواز الرؤية عليه وحلول الأعراض فيه واختلفوا في جواز الرؤية عليه وحلول الأعراض فيه من اللون والحركة والسكون وغير ذلك فأجازه قوم ونفاه آخرون والقدماء مختلفون في القصل على خلاف قول أهل الإسلام فيزعم بعضهم أنه يرى قبل الاسطقسات الأربعة اسطقسات آخر صاغر الأجزاء غير

متجزئة في غاية الصغر منها تركيب الاسطقسات التي منها تركيب العالم وأما ارسطاطاليس يقول أما التجزئة بالقوة فإنها بلا نهاية وأما بالفعل فلها نهاية وقال بعضهم لا يتجزأ لا يقبل الانفعال مع اختلاف كثير بينهم، وحد الزمان حركة الفلك ومدى ما بين الأفعال هذا قول المسلمين وحكى عن افلاطن أنه يرى الزمان كوناً في الوهم وحكى ارسطاطاليس في كتاب السماع الطبيعي أن جميع القدماء كانوا يقولون بسرمدية الزمان ألا رجلاً واحداً يعنى افلاطن وروى عن افلوطرخس أنه قال جوهر الزمان هو حركة المساء هذا وفاق قول المسلمين وبعضهم يقول أن الزمان ليس بشيء مع اختلاف كثير بينهم وإنما ذكر ما ذكر من مذاهبهم لتطمئن نفس الناظر إلى خلاف القائلين بالعقل والتمييز وليستفيد يقيناً بما يعضده من وفاق قولهم لأن في الإجماع قوة وهو من أوكد أسباب الاستظهار عليهم، وجد المكان ما اعتمد عليه الجسم أو أحاط به أو حله العرض وهذا أراده ارسطاطاليس حيث قال المكان نهاية المحتوى الذي يماس ما يحتوي عليه واختلفوا في الخلاء والقضاء فقال قوم العالم لا خلاء فيه وإن الهواء جسم منتشر بسيط ويمتحن بالآلة التي هي على هيئة الرطل في أسفلها وإذا فتح سال فعقل أن الماء دفعة دافع وهو الهواء الداخل في الكوز وقال آخرون لا يخلو الأجسام من خلاء وهو الفرج بين الأجزاء واستدلوا بالماء الذي يصب على الأرض فيغوص فيها وفرق قوم بين الفضاء والخلاء فقالوا الخلاء هو الفراغ من الجسم والفضاء هو المحتوى على الخلاء بلا نهاية ويزعم قوم أن الخلاء والقضاء شيء واحد ويقول آخرون أنه ليس بشيء وحد المتغايرين ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر وقال بعضهم حدهما ما اختلف أوصافهما وحد الضدين ما لا يجوز وجود أحدهما إلا مع عدم الآخر وحد الموجود ما ثبت علماً أو حساً بالتمييز من جنسه والصفة كالاسم في بعض الأحوال إلا أن خاصية حدها الأخبار عما في الشيء كالعلم في العالم وقد يفرق قوم بين الوصف قول الواصف ذلك وحد الإرادة ما يضطمره الإنسان في قلبه من فعل أو قول أو حركة وحد القول ما يبديه القائل بلسانه وقد يقال للإشارة قول

على المجاز وحد المعنى عقد القلب على ما أبدى بلفظه فزعم ابن كلاب أن معنى القول نفس القول ولو كان كذلك ما سأل السامع القائل ما معنى قولك وحد الحركة زوال وانتقال وهي على ضروب فمنها الحركة الذاتية والمكانية وقد قيل الحركة اختلاف وتغيير وحد السكون لبث واستقرار وزعم بعضهم أن السكون ليس بشيء وحد الجنس ما يجمع أشياء مختلفة الصور كالحيوان والنبات وقد قيل الجنس ما استوعب الأنواع وحد النوع تخصيص النظائر من الجنس والشخص تمييز الذات من النوع والشخص تحت النوع والنوع تحت الجنس وهذا المقدار من هذا الباب لإغناء بأحد عن مطالعته فإنه كالماد للنظر والآلة للجدل.متجزئة في غاية الصغر منها تركيب الاسطقسات التي منها تركيب العالم وأما ارسطاطاليس يقول أما التجزئة بالقوة فإنها بلا نهاية وأما بالفعل فلها نهاية وقال بعضهم لا يتجزأ لا يقبل الانفعال مع اختلاف كثير بينهم، وحد الزمان حركة الفلك ومدى ما بين الأفعال هذا قول المسلمين وحكى عن افلاطن أنه يرى الزمان كوناً في الوهم وحكى ارسطاطاليس في كتاب السماع الطبيعي أن جميع القدماء كانوا يقولون بسرمدية الزمان ألا رجلاً واحداً يعنى افلاطن وروى عن افلوطرخس أنه قال جوهر الزمان هو حركة المساء هذا وفاق قول المسلمين وبعضهم يقول أن الزمان ليس بشيء مع اختلاف كثير بينهم وإنما ذكر ما ذكر من مذاهبهم لتطمئن نفس الناظر إلى خلاف القائلين بالعقل والتمييز وليستفيد يقيناً بما يعضده من وفاق قولهم لأن في الإجماع قوة وهو من أوكد أسباب الاستظهار عليهم، وحد المكان ما اعتمد عليه الجسم أو أحاط به أو حله العرض وهذا أراده ارسطاطاليس حيث قال المكان نهاية المحتوى الذي يماس ما يحتوي عليه واختلفوا في الخلاء والفضاء فقال قوم العالم لا خلاء فيه وإن الهواء جسم منتشر بسيط ويمتحن بالآلة التي هي على هيئة الرطل في أسفلها وإذا فتح سال فعقل أن الماء دفعة دافع وهو الهواء الداخل في الكوز وقال آخرون لا يخلو الأجسام من خلاء وهو الفرج بين الأجزاء واستدلوا بالماء الذي يصب على الأرض فيغوص فيها وفرق قوم بين الفضاء والخلاء فقالوا الخلاء هو الفراغ من الجسم والفضاء هو المحتوى على الخلاء بلا نهاية ويزعم قوم أن الخلاء والفضاء شيء واحد ويقول آخرون أنه ليس بشيء وحد المتغايرين ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر وقال بعضهم حدهما ما اختلف أوصافهما وحد الضدين ما لا يجوز وجود أحدهما إلا مع عدم الآخر وحد الموجود ما ثبت علماً أو حساً بالتمييز من جنسه والصفة كالاسم في بعض الأحوال إلا أن خاصية حدها الأخبار عما في الشيء كالعلم في العالم وقد يفرق قوم بين الوصف قول الواصف ذلك وحد الإرادة ما يضطمره الإنسان في قلبه من فعل أو قول أو حركة وحد القول ما يبديه القائل بلسانه وقد يقال للإشارة قول على المجاز وحد المعنى عقد القلب على ما أبدى بلفظه فزعم ابن كلاب أن معنى القول نفس القول ولو كان كذلك ما سأل السامع القائل ما معنى قولك وحد الحركة زوال وانتقال وهي على ضروب فمنها الحركة الذاتية والمكانية وقد قيل الحركة اختلاف وتغيير وحد السكون لبث واستقرار وزعم بعضهم أن السكون ليس بشيء وحد الجنس ما يجمع أشياء مختلفة الصور كالحيوان والنبات وقد قيل الجنس ما استوعب الأنواع وحد النوع تخصيص النظائر من الجنس والشخص تمييز الذات من النوع والشخص تحت النوع والنوع تحت الجنس وهذا المقدار من هذا الباب لإغناء بأحد عن مطالعته فإنه كالماد للنظر والآلة للجدل.

القول في الأضداد، أقول أن قول من يزعم أن الشيء لا يعرف إلا بضده محال لأن معرفة الشيء بحدوده ودلائله بل شكله ونظيره أسكن من معرفته بضده ونديده لأن الشيء يدل على جنسه ونوعه ما لا يدل على ضده ولكن الضدين لا يجتمعان وعند صحة الشيء فساد ضده ولا يقع التضاد إلا بين الموجودات فبطل قول القائل أن ضد الجسم لا جسم وضد العرض لا عرض وضد الزمان لا زمان وضد المكان لا مكان وضد الشيء لا شيء لأن

الأضداد أشياء متنافية وقل القائل لا جسم ولا عرض لا شيء في الحقيقة فكيف يضاد الشيء بلا شيء ولكن الأجسام والأعراض أشياء مضادة كالأسود ضد الأبيض والقديم ضد المحدث لأن القديم الموجود لا إلى أول والحادث ما يوجد بعد أن لم يكن.

القول في حدث الأعراض، أقول أن معرفة حدث الأعراض من أوائل العلوم القائمة في النفس البديهة وما المنكر لها إلا بمنزلة المنكر للظاهر المحسوس لمعاينتنا تعاقب الألوان المتضادة على الأجسام كالسواد بعد البياض والبياض بعد السواد وكذلك الروائح المتضاد كالكريهة والطيبة وسائر الحالات التي لا يخلو الجواهر منها كالحر والبرد والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والحركة والسكون والاجتماع والاقتران والافتراق والطعوم والملاذ والمكاره وما نجده من أنفسنا من الحب والبغض والإرادة والكراهية والشوق والملامة والجين والشجاعة والقوة والضعف والشبيبة والمشيب والنوم واليقظة والجوع والشبع وما نراه من حال القيام والقعود والقرب والبعد والحياة والموت والفرح والحزن والرضا والغضب وسائر العوارض التي تطرأ على الأجسام وبعد أن لم يكن وتزول بعد أن كانت وهذا باب يستكمل جميع أوصاف العالم وما فيه لو تكلفه متكلف لأنه الدليل على الحدث والكون وقليل الشيء يدل على كثيره فإن زعم زاعم أن هذه الأعراض أجسام طولب بالفصل بين الحامل والمحمول ولابد من التفصيل بينهما ثم من الدليل على أن العرض غير الجسم جواز الاختلاف عليه وعين الجسم باقية كالبسرة الخضراء مثلاً تراها تصفر فتبطل خضرتها ثم تحمر بعد صفرتها وعينها قائمة وكالراضي يغضب فيختلف حاله وعينه لا تختلف والشاب يشيب والحي يموت فلما لم يجز أن يقال لمن قد شاب أنه ليس بذاك الشاب ولمن مات أنه ليس بذاك الحي مع ورود حال وارتفاع حال أخرى عقل أن العرض ليس بجسم ولا بعض الجسم لأنه لو كان كذلك لتغير الجسم كما تغير الأعراض الحادثة فإذا ثبت أن الأعراض غير الأجسام وجب إن ننظر أحادثة هي أم قديمة فلما رأيناها كائنة بعد أن لم تكن وزائلة بعد أن كانت دلنا ذلك على حدوثها وكونها كوجودنا الجواهر متفرقة بعد أن كانت مجتمعة ومجتمعة بعد أن كانت متفرقة ولن يخلو أن تكون مجتمعة بأنفسها أو باجتماع فيها فإن كانت مجتمعة لم يجز وجودها متفرقة ما دامت أنفسها قائمة فعلمنا أنها مجتمعة باجتماع ثم نظرنا أذلك الاجتماع جوهر أو عرض فدلنا أنه لو كان جوهراً لكان مجتمعاً باجتماع آخر ثم كذلك إلى ما لا نهاية فلما بطل ما قلنا علمنا أنه مجتمع باجتماع هو عرض لا جوهر وكذلك القول في الحركة والسكون فإن قيل أن الأعراض كانت كامنة في الجسم ثم ظهرت بعد ظهورها حادث أم غير حادث مع استحالة أن يكون الاجتماع والافتراق والحركة والسكون كامنة في الجسم فيكون الجسم في حال واحدة ووقت واحد ساكناً متحركاً ومجتمعاً متفرقاً فإن التجأوا إلى مذهب من يقول بالهيولى وأنه كان جوهراً قديماً لم يزل خالياً من الأعراض ثم حدثت فيه الأغراض فحدث فيه هذا العالم بما فيه قيل لا يخلو حدوث الأعراض فيه من أن يكون كانت كامنة فظهرت أو كانت في جوهر آخر فانتقلت أو لم تكن بتة فأحدثت فلما استحال كمون الأعراض في الجوهر الذي يزعمونه خالياً من الأعراض أن يكون مثل أجسام العالم أو دونها أو أعظم منها أو يكون جزءاً لا يتجزأ أو كيف ما كان فإن الصغر والكبر والمثل أعراض لم ينفك منها ولم ينفك من الحوادث فحادث، واعلم أن أحكام هذا الفصل من الفرض الواجب والحق اللازم وخاصة معرفة حدث الأعراض وإن الجوهر لا ينفك منها لأنها الدليل الظاهر على الحدث والحادث والاختراع ونسأل الله التوفيق والتسديد وأن يعصمنا برحمته ويزيدنا بصيرة في طاعته.

القول على أهل العنود ومبطلي النظر، أقول أن طائفة من الجاحدين سماهم السوفسطانية معنى هذه اللفظة عندهم المموهون المخروقون وقد سماهم ارسطاطاليس الملحدين أبطلوا العلوم كلها رأساً وزعموا أن لا حقيقة لشيء من

العلوم والمعلومات فأنكروا موجود الحواس ومعقول البدائه ومستنبطات الاستدلال وزعموا أن الأشياء على الخيلولة والحسبان وكما يراه النائم في المنام وقد أعرض كثير من الناس عن مناظرتهم وعيت على من اشتغل بالرد عليهم لأن ما أنكروه ضرورة المشاعر والبدائه التي يستغنى فيها عن الدليل لأنها أصل العلوم ومتى ذهب ذاهب يدل على صحته فقد أوجب الدليل لما لا يحتاج فيه حتى يقوده ذلك إلى ما لانهاية له وناقضهم من ناقضهم مرئي العامة فساد مذهبهم فقال الحس أوجدكم ما تدعون أم النظر قادكم إلى ما تزعمون فإن ادعوا الحس كذبهم العيان وإن ادعوا النظر قالوا لعلكم غالطون في نظر عقولكم ولعل نظر مخالفيكم يدل على خلاف نظركم فإن سلموا الأمر لزمهم أن لا يناظروا مخالفاً ولا يخطؤا مخطئاً ولا يحمدون محسناً ولا يذموا مسيئاً وهذا خلف من القول ووهن في الرأي وإن ادعوا ترجيح نظرهم فقد اثبتوا النظر ونقضوا الأصل الذي بنوا عليه مذهبهم وقد احتبس هذا الرأي صنفان من هذه الأمة مقلد مبطل النظر ومدعي أن لا دليل على النافي فلزمهما من ذلك ما لزم أصحاب العنود وقيل لهم أبنظر وحجة أفسدتم نظر العقول وحججها أم بغير حجة فإن قالوا بنظر فكيف يبطلون النظر وهم يثبتونه وإن زعموا بغير نظر فالسؤال والجواب من النظر ولا يلقى به من ليس من أهل النظر وكل كلام من غير نظر فجحود أو عنود أو سهو أو غلط أو عبث وبمثله يقابل الزاعم أن لا دليل على النافي ثم نفيت الدليل مع أنك مع نفيك ما نفيته أحد المدعيين إذ أنت لو عارضك خصمك بمثل قولك وابطل دعواك ثم إذا طالبته بتصحيح مذهبه أحال على مذهبك فهل غير إثبات الدعويين أو إسقاطهما ولنظار أهل الإسلام وفقهائهم حجاج كثيرة في هذا الباب وليس هذا من غرض هذا الكتاب ومما يستدل به على وجوب النظر أنه لما لم تكن الأشياء كلها موجودة حقاً ولا كلها باطلة حقاً ولكن حقاً وباطلاً ثم وجد الاختلاف فيها شائعاً على النظار إما من عالم معاند أو جاهل عاجز ولم يكن الأخذ به على اختلافه وجب عليه بالنظر الذي يميز بين الحق والباطل وأيضاً لما لم تكن الأشياء كلها ظاهرة لأنها لو ظهرت لما جعل شيء ولا كانت خفية لأنها لو خفيت كلها لما علم شيء وكان منها ظاهر جلي وباطن خفي وجب طلب علم ما خفي منها ولا يوجد ذلك إلا بالنظر.

القول في مراتب النظر وحدوده، أقول أن العلماء الذين وطأوا للنظار سبيل النظر ومهدوا لهم سبيل الجدل أضربوا في ذلك حد من تعداه أو قصر دونه تبين تنكبه وتعسفه وخلل مذهبه وفساد بينته فجعلوا السؤال أربعة أقسام لا يقع فيها صدق ولا كذب لأنها استخبار عن مائية المذهب أولاً ثم عن الدليل ثم عن العلة ثم عن تصحيح العلة وذلك نهاية فصول النظر واستقرار صحة الدعوى وفسادها وقابلوا أقسام السؤال بعددها من الجواب وكلها أخبار تحتمل الصدق والكذب الإخبار عنه بما ليس فيه والسؤال أحد الشيئين إما الجهل به وإما إمتحان المسئول عنه والجواب يوجب القبول والتسليم والرد والإنكار بمعارضة أو مطالبة بالدليل والدليل يوجب العلة والعلة تحقق الجواب إذا طردت صحت وحيثما انتهى الخصم وسلم انتهى الكلام.

القول في علامات الانقطاع، أقول المناقضة والانتقال والعجز عن بلوغ الغاية وجحد الضرورة ودفع المشاهدة والاستعانة بالغير والسكوت للعجز كلها من دلائل الانقطاع وكل سائل مخير في سؤاله متفقهاً كان أو متعنتاً أحق في سؤاله أو أحال وليست كذلك حال المجيب بل عليه القصد للحق وتعريف السائل وجه سؤال من إصابة وإحالة ولا عليه أن يجيبه عن مسئلة هي فرع لمسئلة يخالفه فيها حتى يقرره بإيجابها وتأخذ ميثاقه على القول بها لأن الخلاف إذا كان واقعاً في الأصل لم يطرد القياس في الفرع وذلك في التمثيل كسائل عن الرسالة منكر للتوحيد وإنما تصح النبوة بصحة التوحيد لأنه الموجب لها وكل سؤال يرجع إلى السائل بمثل ما يريد أن يلزمه المسئول فغير لازم لأن المعارضة فيه قائمة فطلي الدليل على الدليل والعلة على العلة إلى ما لانهاية له فاسد لأن محصول الظواهر المحسوس

ومحصول البواطن المعقول وما لانهاية له غير موجود ولا معلوم ولا موهوم وقد يستحسن لابن الهذيل قوله إن صحة الصحيح وانتقاض المنقوض في جميع ما اختلف فيه المختلفون يعلم في ثلاثة أوجه أحدهما إجراء العلة في المعلول والثاني نقض العلة بالتفسير والثالث جحد الاضطرار فأما ترك إجراء العلة في المعلول فكقول الرجل فرسي هذا جواد فيقال ولم قلت ذلك قال لأني أجريته كذا فرسخاً فيقال له أكل فرس جرى في اليوم كذا فرسخاً فهو جواد فإن قال نعم أجرى علته وإن قال لا فقد نقضها وهو يحتاج إلى علة أخرى وأما نقض الجملة بالتفسير فكقول القائل إذا اشتد حر الصيفة اشتد برد الشتوة التي تليها وإذا اشتد برد الشتوة اشتد حر الصيفة التي تليها ثم يقول وقد يشتد حر الصيف ولا يشتد برد الشتاء الذي يليه فيكون قد نقض بهذا التفسير الجملة التي تقدمت لأنها لو صحت لم يشتد حر الصيف إلا باشتداد برد الشتاء أبداً وأما جحد الاضطرار ففي البدائه والحواس وذلك كسؤالنا الدهرية عن شيخ رأيناه على كرسي في هيئته وخضابه أيزعمون أنه لم يزل هكذا قاعداً في مكانه بحالة التي هو عليها من الكسوة والخضاب فإن قالوا نعم جحدوا الاضطرار بشهادة العقول بإبطالهم، وأعلم أن السكوت بعد استقرار الحق أبلغ من الكلام في الذب عنه وزيادة البيان هجنه وربما أورثت فرصة لأن الإفراط نقص وعلم بفلج الحجة ودحوصها أبلغ من إفصاحك بها لأن الشاهد شاهد القلب لا شاهد اللسان وليس كل من لزمه قول مناظره أو عجز عن جوابه في الوقت وجب عليه المصير إلى مذهب خصمه ولكن بعد التبين والتثبيت واستبراء الحال والرجوع إلى الأصول الموطودة والأعلام المنصوبة فإذا انكشف الغطاء عن وجهه وصرح المحض عن زبده وأومض الحق سيره فلا يسع حينئذ غير الإقرار والانقياد له وليس من الحق تكليف الخصم إظهار ما هو خفي في نفسه لأنه غير ممكن كما يمكنه إخفاء ما هو ظاهر في نفسه ولأن ذلك إزالة الشيء عن وجهه فهذه مقدمات قدمناها نظراً للناظر في كتابنا ونصحاً لمن احتاط لدينه وتحرز من تمويه الملحدين وتلبيس المخرقين وخطرات الجان ووساوس الخلعاء الذين أفسد الفراغ فكرهم وأخمدت الكفاية قرائحهم وحلت عن الدقائق عقولهم وعاشت بصنوف الشهوات نفوسهم وملكهم الهزل وركبهم الجهل واسترقهم الباطل وهجرتهم الفكر وعميت عليهم مواقع النظر فاحتالوا في إسقاط التكليف عنهم ليمرحوا في ميادين الشهوات وليركبوا ما يهووه من اللذات بإنكار علوم الأصول من البديهة والحواس والله المستعان وهو خير معين، وبعد فغن لأهل الإسلام أصولاً من لكتاب والسنة والإجماع والقياس عليها ما يقوم لهم الحجة بها بينهم ويقنعون بشهادتها ودلائلها وكذلك أهل كل ملة ودين وكتاب غير أن ذلك لتصحيح فروع دينهم وشرائع ملتهم فلذلك أضربنا عن ذكره صفحاً.

الفصل الثاني

إثبات البارئ وتوحيد الصانع بالدلائل

البرهانية والحجج الإضطرارية

أقول أن الدلائل التي تدل على إثبات الله عز وجل غير محصاة ولا متناهية في أوهام الخلائق لأنها بعدد أجزاء أعيان الموجودات من الحيوان والنبات وغير ذلك مما خفي من الأبصار لأنه ما من شيء وإن صغر جسمه ولطف شخصه إلا وفيه عدة دلائل تعبر عن ربوبيته وتصرح عن إلاهيته تصريحاً ينتفى مع أدناها الشبهة ويزاح العلة وإلى هذا المعنى نظر بعض المحدثين وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد ولن يجوز غير ما قلنا لأنه لما كان هو خالق الخلق وصانع الصنع ومخترع الأعيان ومخرجها من العدم إلى الوجود لم نخل من آثار حلقه واختراعه فهي الدلائل المقترنة بها

الشاهدة على صانعها ومنشئها فمن الدليل على إثبات البارئ سبحانه وتعالى أنه خلاف بين الأوائل والأواخر إن الأرض منها عامر مسكون معلوم وعامر مسكون غير معلوم وخراب مجهول غير مسكون وأن عظم المسكون المعلوم منها العرب وفارس والروم والهند وهم ذوو الآداب والأخلاق من سائر أهل الأرض لهم السير والسنن والآبين والحكمة والهمة والنظر والخصال المحمودة والعلوم المأثورة من الطب والتنجيم والحساب الخط والهندسة والفراسة والكهانة والأديان والكتب وغير ذلك مما يستعملونها في معاملاتهم وموضوعاتهم وما سواهم رعاع وهمج سافلوا الرتبة عن رتب من قدمنا ذكرهم وناقصوا الحظ من حظوظهم إما بهيمي الطبع في قلة التمييز والفطنة وإما سبعية في الجفوة والغلظة حتى أن منهم من ينزو بعضهم على بعض ومنهم من يأكل بعضهم بعضاً لعلل قد ذكرها القدماء ليس هذا موضع شرحها بقول الله سبحانه " ويخلق ما لا تعلمون " ثم إن هذه الأمم المحمودة أخلاقهم مع اختلاف أصنافهم وافتراق ديارهم وتفاوت آرائهم في المذاهب التي ابتجلوا والأديان التي اعتقدوا لم يختلفوا في وجود آثار الصانع الحكيم في هذا العالم وما يشاهدونه في أجزائه وأبعاضه واختلاف طباعه وتعاقب أعراضه فإذا صح وجود البارئ الأزلي القديم الأول السابق ببدائه العقول وشهادة النفوس واضطرار الفطرة والجاء الخلقة بذلك بني تأسيسهم وعليه بني تركيبهم إلا من شد من جاهل أو جاحد مؤوف في نفسه أو مغلوب على عقله إذ غير مفهوم ولا موهوم أثر من غير مؤثر لولا صنع من غير صانع ولا حركة من غير محرك كما يجحد الضرورة وجود كتاب بلا كاتب وبناء بلا بان وصورة بلا مصور فسبحان من لا انتهاء له إذ لا ابتداء له منه البداية وإليه النهاية مبدع القوى وممد المواد وسابق العلل ومنشيء البسائط ومركب العناصر وحافظ النظام ومدبر الأفلاك ومحدث الزمان والمكان ومحيل الأركان الحكيم العدل القائم بالقسط الناظر للخلق البريء من المعائب الغني عن اجتلاب المنافع مدبر الأمور ومدهر الدهور أرخى على الأوهام ستور ربوبيته وضرب على مطالع العقول حب إلاهيته فليس يعرف إلا بما عرف به الخلق نفسه ولا يدرك أحد من صفاته كنهة الأبصار عن بدائع صنعه خاسئة والبصائر عن ملاحظتها نابئة والقلوب في آثار الدلائل عليه حائرة والنفوس مع حيرة القلوب إليه وإلهة والعقول عند محافظة الأشراف عليه مضمحلة متلاشية معبود في كل زمان معروف بكل لسان مذكور بكل اللغات موصوف بتضاد الصفات ليس كمثله شيء وهو السميع البصير نحمده على هدانا ولدينه اجتنابا ونشهد أن لا إله إلا الله نتميز به عن المشركين ونتزيل عدد الجاحدين ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق غير حادس ولا ساحر ولا كاهن ولا شاعر ولا محتال ولا متنب كذاب ولا مريد دنيا ولا قائل بالهدى فأبلغ وأدى وانذر وأهدى وصدع بأمر الله حتى أتاه اليقين فصلوات الله على روحه غادية وبردات رحمته مترادفة على آله أجمعين، هذا التحميد الذي وجب أن نصدر به كتابنا أخرناه إلى حيث قدرنا أنه أولى به وأليق، ومن الدليل على إثبات البارئ سبحانه وله النفوس وفزع القلوب إذا حزبت الحوادث إليه اضطراراً إذ لا يوجد مضطر وقد عضته نائبة ولدغته ناكبة يفزع إلى حجر أو شجر أو مدد أو شيء من الخلائق إلا إليه ويدعوه بما هو معروف عنده من اسم أو صفة هذا مشاهد عياناً كما تفزع النفس عند المكاره المخوفة إلى طلب المهرب والنجاة وكما يفزع الطفل إلى ثدي أمه ضرورة وخلقه كذاك الله في معرفة خلقه إياه لأن أثر الدلالة في الخلق عليه أعظم من أثر الطبع إلى مالا يلائمه وينافره ولا يمكن للملحد المنكر وإن غلا وتعمق في الإلحاد والامتناع في

معرفة الله وإجراء ذكره واسمه على لسانه شاء أم أبى في حال عمده ونسيانه لأن قلبه ولسانه على ذلك الخلق كما أ طبعه على الميل إلى المحبوب والازورار عن المكروه حبل ومن الدليل على إثبات البارئ جل وعز أنه لا يخلو لسان أمة من الأمم في أقطار الأرض وآفاقها إلا وهم يسمونه بخواص من أسمائه عندهم ومستحيل وجود اسم لا مسمى له

كاستحالة وجود دليل على غير مدلول عليه بل المدلول موجب لدليل كذلك المسمى موجب الاسم وما هو في التمثيل إلا بمنزلة الحامل والعرض المحمول فكما يستحيل وجود عرض إلا في جوهر كذلك يستحيل وجود اسم إلا لمسمى فمن ذلك قول العرب له الله مفرداً من غير أن يشاركوه في هذا الاسم بأحد من معبوداتهم لأنه خاص لهم عندهم وكانوا يطلقون على غيره على التنكير وأما الرب بالتعريف والرحمن فلم يكونوا يجيزونه إلا لله تعالى وإنما تسمى مسيلمة الكذاب بالرحمن مضادة لله جل وعز ومعاندة لرسوله عليه السلم ذلك مشهور مستفيض في قوافي أوائلهم قبل قيام الإسلام فمن ذلك قول بعضهم في الجاهلية:رفة الله وإجراء ذكره واسمه على لسانه شاء أم أبى في حال عمده ونسيانه لأن قلبه ولسانه على ذلك الخلق كما أ طبعه على الميل إلى المحبوب والازورار عن المكروه حبل ومن الدليل على إثبات البارئ جل وعز أنه لا يخلو لسان أمة من الأمم في أقطار الأرض وآفاقها إلا وهم يسمونه بخواص من أسمائه عندهم ومستحيل وجود اسم لا مسمى له كاستحالة وجود دليل على غير مدلول عليه بل المدلول موجب لدليل كذلك المسمى موجب الاسم وما هو في التمثيل إلا بمنزلة الحامل والعرض المحمول فكما يستحيل وجود عرض إلا في جوهر كذلك يستحيل وجود اسم إلا لمسمى فمن ذلك قول العرب له الله مفرداً من غير أن يشاركوه في هذا الاسم بأحد من معبوداتهم لأنه خاص لهم عندهم وكانوا يطلقون على غيره على التنكير وأما الرب بالتعريف والرحمن فلم يكونوا يجيزونه إلا لله تعالى وإنما تسمى مسيلمة الكذاب بالرحمن مضادة لله جل وعز ومعاندة لرسوله عليه السلم ذلك مشهور مستفيض في قوافي أوائلهم قبل قيام الإسلام فمن ذلك قول بعضهم في الجاهلية:

ألاَ ضَرَبَتْ تِلكَ الفَتَاةُ هَجِينَهَا ... ألا قَطَعَ الرَّحمنُ منها يَمِينَهَا

فأضاف فعل القطع إلى الرحمن لأنه أراد به الدعاء وعلم أنه لا يجيب الدعاء إلا الله وقول أمية بن أبي الصلت:

والحَيَةُ الحَتْفَةُ الرِّقشاء أخرجها ... مِنْ جُحرها آمنات الله والقَسَمُ

إذا دَعَا باسمه الإنسان أو سَمِعَتْ ... ذَاتَ الإله يُرَى في سَعْيِهَا زَرَمُ

وإنما أتينا بهذا البيت حجة لإثبات اسم الإلاهية لا لرقية الحية وقول زيد بن عمرو:

إلى الله أهدى مدحتي وثنايايا ... وقولاً رصيناً لابني الدهر باقيا

إلى المَلِكَ الأعلَى الذي ليس فوقَهُ ... إلهٌ ولا ربٌّ سواه مُدَانِيا

وقول فارس هرمز وايزد ويزدان ويزعمون أن عبادتهم النار يقرب إلى البارئ عز وجل لأنها أقوى الإسطقسات وأعظم الأركان كما قال مشركوا العرب في عبادتهم الأوثان ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ولا يجوز أن يكون غير هذا حالة من يعبد شيئاً من دون الله لأنه يعلم أن معبوده من خشب أو حجر أو نحاس أو ذهب أو شيء من الجواهر غير خالقه ولا صانعه ولا مدبر أمره ولا محوله ولقد دخلت بيت نار خوز وهي كورة من كور فارس قديمة البناء وسألتهم عن ذكر البارئ في كتابهم فأخرجوا إلى صحفاً زعموا أنها الأبسطا وهو الكتاب الذي جاءهم به زردشت فقرءوا علي بلسانهم وفسروه علي بمفهومهم الفارسية فيكمازهم بهسته هرمز وبشتاسبندان فكمازهم رستخيز قالوا وهرمز فني فقم وقول الأعاجم بلسان الدرية خداي وخداوند وخذايكان وقد سمعت غير واحد قال في تأويله خذست وخوذبوذ منعاه أنه هو بذاته لم يكونه مكون ولا يحدثه محدث وقول الهند والسند شيتاوابت ومهاديو وأسماء كثيرة غير هذه يصفونه بخواص أفعاله وقول الزنوج ملكوي وجلوي قالوا معناه الرب الأعظم وقول الترك بين تنكري بعنون الرب واحد وزعم بعضهم أن تنكري اسم لخضرة السماء فإن كان كما ذكروا فإنهم قد أمنوا بالمعنى المطلوب من الإلهية وإنما شكوا في الصفة وقال بعضهم تنكري هو السماء واسم البارئ عندهم بالغ

بايات معناه الغنى الأعظم وقول الروم والقبط والجبشة وما يدانيها من البلدان بالسريانية لأن عامتهم نصارى لاها ربا قدوسا ولا فرق بين السريانية والعربية إلا في أحرف يسيرة فكأن السريانية سلخت من العربية والعربية سلخت من السريانية وقول اليهود بالعبرانية ايلوهيم ادناي اهيا شراهيا ومعنى ايلوهيم الله وأول التورية برشيت بارا ايلوهيم يقول أول شيء خلقه الله هذا الذي عليه معظم الأمم والأجيال من أهل الكتاب وغيرهم فأما أقاطيع الناس في مجاهيل الأقاليم فمن يحيط بلغاتهم إلا الذي خلقهم وقسم بينهم ألسنتهم وسمعت قوما من برجان يسمونه ادفوا فسألتهم عن اسم الصنم فقالوا فع وسألت القبط من صعيد مصر عن اسم البارئ بلغتهم فزعموا أحد شنق كذا ظني والله أعلم.

ومن الدليل على إثبات البارئ سبحانه هذا العالم بما فيه من عجيب النظم وبديع الترتيب ومحكم الصنع ولطيف التدبير والاتساق والإتقان فلا يخلو من ثلثة أوجه إما أنه لم يزل كما هو وإما أنه لم يكن فكان بنفسه وإما أنه كونه مكون هو غيره فلما استحال أن يكون قديماً لم يزل لمقارنة الحوادث إياها وإن لم يخل من حادث فحادث مثله واستحال أن يكون الشيء نفسه لاستحالة الكائن أن يبقى نفسه فكيف يجوز توهم المعدوم من أن يتركب فيصير عالماً لم يبق غير الوجه الثالث وهو أنّ كوّنه مكوّنٌ هو غيره غير معدوم ولا محدث وهو البارئ جلّ جلاله واعلم أن البارئ عزّ وجلّ ليس بمحسوس فيحصره الحواسّ ولا معلوم بالإحاطة فيدرك كيفيّته وكميته وأينيّته ولا مقيّس بنظير له أو شبيه فُيعلم بأكثر الظنّ والحزر ولا موهوم بصورة من الصّوَر لكنّه معروف بدلائل أفعاله وآيات آثاره موجود في العقول لا غير ولا تُوجَدُ آثاره وأفعاله إلاّ في خَلْقه ومن الدليل على إثبات البارئ سبحانه تفاضل الخلق في الدرجات والطباع والهمم والإرادات والصُوَر والأخلاق وتمايز الأشخاص والأنواع من أجناس الحيوان والنبات فلو أنها مكونة بالطباع لاستوت أحوالها وتكافأت أسبابها وكانت تكون في أنفسها مختارة ولما يُوجَد فيها ناقص ولا عاجز ولا مذموم ولا متأخّر عن درجة صاحبه فلمّا وجدنا الأمر بخلافه علمنا أنّ مدبّراً دبّره ومرتّباً رتّبه وهو البارئ سبحانه، وقد قلنا في صدر هذه المقالة إن عدد الدلائل عليه تعالى وتقدّس غير محصاة ولا متقصّاة لأنّك لو عمدتَ إلى أصغر شخص من أشخاص الحيوان وأعلمتَ فكرك في تعداد ما يوجدك من آثار صُنع الصانع فيه لرجعت حسيراً عَيِيًّا وأعجزتك حُجَج البارئ جلّ وعز وحيّرتْك آثار صُنعه وذلك في المثل كناظر في بَعُوضةٍ أو نملةٍ أو ذُباب كيف بنى البارئ جلّ وعزّ جسمه في لطفه وصغر أجزائه وكيف أطلق له القوائم والأجنحة وكيف ركّب فيه من الأعضاء ما لو فُرِّقَتْ لما كان الطَرْف يدركها ولا الوهم يمسّها ولا الحاسّة تحدها وكيف ركّب فيه من الطبائع ما تمّ به قوام أركانه واستواء نظامه وكيف أودعه معرفة ما فيه صلاحه من طلب منافعه واجتناب مضارّه وكيف سلك في جوفه مداخل غذائه ومنافذ طعامه مع خفّة جسمه وقلّة ذاته وكيف حمل عليه الأعراض وصبغته بألوان الصِبْغ وكيف ركّب الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والصوت والصورة وكيف ركّب فيه العين بل كيف ركّب في عينه البصر هذا في صغار هوّام ما يتولّد وإن كان طبع الزمان علّةً لبعثه وإثارته فإنه لم يتركب هذا التركيب العجيب والنضيد الأنيق إلاّ من تدبير قادر حكيم وكذلك لو نظر إلى أدون نبت من النبات وما جُمع فيه من اختلاف ألوانه من نَورْ وورقه وفرقه وجذعه وعرقه واختلاف طعوم أجزائه ورائحتها ومنافعها ومضارها لدلّ ذلك على تدبير قادر حكيم وكيف لو رجع إلى نفسه فنظر إلى كمال صورته وحسن هيئته واعتدال بنيته مع ما خُصَّ به من الحكمة والعلم والفطنة والبحث والفكرة بلطيف الأُمور وجليلها وحذقه بأنواع الصناعات وحسن اهتدائه إليها وخبرته بالأمور الغامضة واستيلائه على جميع الحيوان بفضل عقله وزيادة فطنته ثم هو مع ما وصفناه به من الكمال والتمام مبني على الضعف والحاجة إلى ما صغير ما في العالم وكبيره مضمن بالنَصَب والتعب عاجز عن دفع ما يحلّ به

من الآفات جاهل بأسباب كونه وتصرفه في نشوه ونمائه وزيادته ونقصانه محتاج إلى ما يقيمه ويعينه لدلّه ذلك على تدبير قادر حكيم وكذلك إذا نظر إلى هذا العالم وما يرى فيه من سواهد التدبير وآثار التركيب في الهيئة والشكل والصُور مع اتّصال بعضه في بعض وحاجة بعضه إلى بعض من اعتقاب الحرّ والبرد واختلاف الليل والنهار واتفاق الأركان وتقاومها على تضادّها وبيانها على أنّه من تدبير قادر حكيم ولو جاز لمتوّهم أن يتوهّم حدوث هذا العالم من غير محدث لجاز لغيره أن يتوهّم وجود بناء من غير بانٍ وكتابةٍ من غير كاتب ونقش من غير نقّاش وصورةٍ من غير مصوّر ولساغ له إذا نظر إلى قصر مشيّد وبناء وثيق أن يظنّ أنّه انساب إلى كومة من الترب مجتمعة لم يجمعها جامعٌ فاختلط بها من غير خالط حتّى التفّت ونديت ثم انسكبت لبناً على أكمل التقدير وآآنق التربيع من غير سابق ولا ضارب ثم تأسّس أساس القصر وتمكنت قواعده وارتفعت ساقاته وأعراقه

حتّى إذا تطاولت حيطانه وتكاملت أركانه وتطايرت اللبن وتراكمت على حواشيها وتناضدت أحسن التراكم والتناضد ثم تساقطت الجنوع والجوائز من أشجارها على قدر البيوت والخطط والمحتطّة للأبنية بلا حاصد لها ولا عاضد ثم انتجرت بلا ناجر وانتشرت بلا ناشر واسفنت بلا سافن فلما تهيّأ منه الكمال واستقام المائل ترفّعت بأنفها فانغرزت في مغارزها وتسقفت فوق بيوتها وفاقت أساطينها تحتها ثم انطبقت عليهما صفائحها وانتصبت أبوابها فانغلقت بذاتها ثم تكلّس القصر وتسيّع وتبلّط وتجصَّص وتنقّش بأنواع التزاويق والنقوش واستوى أمره وشاد بناؤه واجتمع متفرّقه على أحسن التقدير وأكمل التدبير حتَّى لا تعرّى منه ناحية ولا لبنة ولا قصبة إلا ومفهوم للناظر إليه موضع الحكمة والحاجة إليه من غير فاعل فعله ولا صانع صنعه ولا ساعٍ سعى فيه ولا مدبّر دبّره وكذلك لو نظر إلى سفينة مشحونة موقّرة بألوان الحمولات وأصناف السلَع راكدة في لُجّة البحر أو سائرة أنها تركّبت ألواحها وأعضادها وتسمّرت مسامیرها ودُسُرها وانضمّت حتّى اسفنت بذاتها ثم نقلت الحمولة إلى نفسها حتّى امتلأَت ثم ركدت في الماء فسافرت عند الحاجة وكذلك لو نظر إلى ثوب منسوج أو ديباج منقوش أنه انحلج قطنه وخلص قزّه ثم انعزل وانفتل وانصبغ والتأمت الوشائع وامتدّت الأشراع والتفّت إلى منوالها وانضمّت الخيوط بعضها إلى بعض فانتسج وانتقش فإذا لم يجُزْ هذا المتوهّم فكيف يتوّهمه على هذا العالم العجيب النظم الباهر التركيب فإن ذهب ذاهبٌ إلى الفرق بين تركيب العالم وتركيب ما يركبّه الإنسان بأنّ العادة لم تجوّز بابتناء الدور وانتساج الأثواب وانصباغ الأواني ولم يوجد مثل ذلك في الامتحان والطبائع قيل فكيف جوّزتم ما هو أعجب ممّا ذكرنا وأعظم من غير فاعل مختار ولا حكيم قاد فإن زعم أنّ تركيبّ هذا العالم على هذا النظم والتركيب من فعل الطبائع فالطبائع إذاً أحياء قادرة حكيمة عالمة ولم يبق بيننا وبينه من الخلاف إلى تحويل الاسم وتغيير الصفة وإن أنكر حياة الطبعة وحكمتها وقدرتها فكيف يجوز وجود فعل محكم متّقن من غير حكيم حيٍّ قادر فإن زعم بالحدّ والاتّفاق على هذا الاتّساق غيرُ موهوم وإنّما وقوعه في النوادر ولو حاز ذلك لجاز أن من له ساحة ولا بناء فيها ولا عمارة يتّفق اتّفاق ليلة فتُصبح مبنيّة دوراً مغروسة أشجاراً على أحسن الأبنية وأعجب التركيب ولا محيص للحد من حجج الله وآياته فكيف وهو حجّة بنفسه ولغيره وليس نورد من هذا الباب هاهنا إلا ما يضاهي الفصل وما يصّح ويحلّ دون ما يغمض ويدقّ لأن من عزمنا أن نبالغ في الاستقصاء والإيضاح لهذه المسائل في كتاب سمّيناه بالديانة والأمانة شكراً لمن أنعم علينا بالتوحيد ومناضلةً عن الدين وتبصّراً للمستبصرين ومن عند الله التوفيق، واعلم أنّه لو جاز أَنْ يُوجَد شيءٌ من الأَجسام لا من خلق الله لجاز أن يوجد عارياً من دلالة عليه فإذا لم يوجد إلا من خلقه لم يخلُ من دلالة عليه فإن قيل وكيف يعلم أنَّه مصنوع مخلوق قيل بآثار الحدث فيه فإن قيل فما آثار الحدث قيل الأعراض الّتي لا تعرى الجواهر منها من الاجتماع والافتراق والحركة والسكون واللون والطعم والرائحة وغير ذلك فإن أنكر

الأعراض وحلوثها كُلّم بما ذكرناه في موضعه من الفصل الأوّل فبحدوث الأعراض يصحّ حدوث الجسام وبحلوث الأجسام يصح وجود المحدث البارئ لها سبحانه ولقد قرأتُ في بعض كتب القدماء إن ملكاً من ملوكهم سأل حكيماً من الحكماء ما أدلُّ الأُمور على الله فقال له الدلائل كثيرة وأوّلها مسئلتك عنه لأنّ السؤال لا يقع على لا شيء قال الملك ثم ما ذا قال شكّ الشاكّين فيه فإنّما يشكّ فيما هو لا فيما لا هو قال الملك ثم ما ذا قال وله الفطن إليه الذي لا يستطيع الامتناع منه قال الملك زدني قال حدوث الأشياء وتنقّلها على غير مشيّتها قال زدني قال الحياة والموت اللّذان يسمّيهما الفلاسفة النشؤ والبِلَى فلستَ واجداً أحداً أحيا نفسه ولا حيّاً إلا كارهاً للموت ولن ينلْ منهم يعني لا ينجو قال زدني قال الثواب والعقاب على الحسنة والسيئة الجاريان على ألسنة الناس قال زدني قال أجِدُ مزيداً، وجاء في الأخبار أن بني إسرائيل اختلفوا في هذا الباب ففزعوا إلى عالم فسألوه بِمَ عرفت البارئ قال بفسخ العزم ونقض الهمّة وكُتُب الله

المنزّلة مملؤة بدلائل الإثبات والتوحيد تأكيداً للحجّة لأنّه موضوع في نفس الفطرة وخاصّةً القرآن وقال الله لرسوله حيث سُئِل عن الدلالة عليه إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلْك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسحاب المُسَّخر بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون فدلّ على نفسه بخواص أفعاله ومعجزات آثاره التي لا سعى لغيره في شيءٍ منها وقال ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ثُمَّ جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين إلى قوله فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ هل ترى أحداً يدّعى فعل شيء من ذلك وقال أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرض وأَنْزلَ لكم مِنَ السَّماء مَاءً فأنبتنا به حدائقَ ذاتَ بَهْجةٍ ما كان لكم أَنَ تُنْبتُوا شَجَرها أَإِلَهٌ مع الله بَلْ هُمْ قومٌ يَعدِلُون، أَمَّنْ جعلَ الأَرضَ قَرَاراً وجعلَ خِلالَها أَنْهاراً وجعل لها رواسِيَ وجعل بَيْنَ البحرَيْنِ حاجزاً أَإِلَهٌ مع الله إلى آخر الآى الخمس وقوله أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُون، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ، دلّهم على نفسه بصُنعه بإعجازهم في آخر الآيات فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مُدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وتكلّف غير ما في كتاب الله فضل لأنّه معرض ممكن لمن تدبّره وتأمّله وقال وَفِي أنفسكم أفلا تبصرون إنكم توجدوها ولم تحدثوها ولستم تملكون شيئاً من أمرها من الصحة والسقم والشباب وقال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق يعني بما ضمّنها من آثار الصنع وشواهد التدبير ودلائل الحدث ورُوينا في حديث أنّ رجلاً سأل محمّد بن عليّ أو ابنه جعفر بن محمّد يا ابن رسول الله هل رأيت ربّك حين عبدته فقال ما كنت لا أعبدُ ربًّا لم أرَه فقال الرجل وكيف رَأيته قال لم تَرَه العيون بمشاهدة العيان ولكن رأَته القلوب بحقائق الإيمان لا يدرك بالحواسّ ولا يقاس بالقياس معروف بالدلالات موصوف بالصفات له الخلق والأمر يُعزّ بالحقّ ويُذلَ بالعدل وهو على كلّ شَيءٍ قدير وسُئِل عليّ بن الحسين رضى الله عنهما متى كان ربّك قال ومتى لم يكن ربّنا وحُكى عن بعض الحكماء أنّه كان يقصّر الناس على هذا القدر من التوحيد ولم يرخص لهم الخوض في أكثر منه فيقول التوحيد أربعة أشياء معرفة الوحدانيّة والإقرار بالربوبيّة وإخلاص الالهيّة والاجتهاد في العبوديّة وكانت حكماء العرب في كفرها وجاهليّتها يُشيرون إليه في أشعارهم ويمدحونه بالآئهِ ونعمائه فمن ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيلنزّلة مملؤة بدلائل الإثبات والتوحيد تأكيداً للحجّة لأنّه موضوع في نفس الفطرة وخاصّةً القرآن وقال الله لرسوله حيث سُئِل عن الدلالة عليه إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلْك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسحاب المُسَّخر بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون فدلّ على نفسه بخواص أفعاله ومعجزات آثاره التي لا سعى لغيره في شيءٍ منها وقال ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ثُمَّ جعلناه نطفةً في

قرارٍ مكين إلى قوله فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ هل ترى أحداً يدّعى فعل شيء من ذلك وقال أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرض وأَنْزلَ لكم مِنَ السَّماءِ مَاءً فأنبتنا به حدائقَ ذاتَ بَهْجةٍ ما كان لكم أَنَ تُنْبتُوا شَجَرها أَإِلَهٌ مع اللهِ بَلْ هُمْ قومٌ يَعدِلُون، أَمَّنْ جعلَ الأَرضَ قَرَاراً وجعلَ خِلالَها أَنْهاراً وجعل لها رواسِيَ وجعل بَيْنَ البحرَيْنِ حاجزاً أَإِلَهٌ مع الله إلى آخر الآى الخمس وقوله أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُون، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ، دلّهم على نفسه بصُنعه بإعجازهم في آخر الآيات فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مُدِينِينَ تَرْجعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وتكلّف غير ما في كتاب الله فضل لأنّه معرض ممكن لمن تدبّره وتأمّله وقال وَفِي أنفسكم أفلا تبصرون إنكم توجدوها ولم تحدثوها ولستم تملكون شيئاً من أمرها من الصحة والسقم والشباب وقال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق يعني بما ضمّنها من آثار الصنع وشواهد التدبير ودلائل الحدث ورُوينا في حديث أنّ رجلاً سأل محمّد بن عليّ أو ابنه جعفر بن محمّد يا ابن رسول الله هل رأيت ربّك حين عبدته فقال ما كنت لا أعبدُ ربًّا لم أرَه فقال الرجل وكيف رَأيته قال لم تَرَه العيون بمشاهدة العيان ولكن رأَته القلوب بحقائق الإيمان لا يدرك بالحواسّ ولا يقاس بالقياس معروف بالدلالات موصوف بالصفات له الخلق والأمر يُعزّ بالحقّ ويُذلَ بالعدل وهو على كلّ شَيءٍ قدير وسُئِل عليّ بن الحسين رضى الله عنهما متى كان ربّك قال ومتى لم يكن ربّنا وحُكى عن بعض الحكماء أنّه كان يقصّر الناس على هذا القدر من التوحيد ولم يرخص لهم الخوض في أكثر منه فيقول التوحيد أربعة أشياء معرفة الوحدانيّة والإقرار بالربوبيّة وإخلاص الالهيّة والاجتهاد في العبوديّة وكانت حكماء العرب في كفرها وجاهليّتها يُشيرون إليه في أشعارهم ويمدحونه بالآئهِ ونعمائه فمن ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل

وَأَنت الذي من فضل من ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له فأذهب وهارون فادعو ... إلى الله فرعون الي كان طاغيا
وقولا له أأنت سمكت هذه ... بلا عمد حتى استقرت كما هيا
وقولا له أأن سويت هذه ... بلا وتد حتى اسقرت كما هيا
وقولا له من يرسل الشمس غدوةً ... فتصبح ما مست من الأرض صاحيا
وقولا له من ينبت الحي والثرى ... فتصبح منه البقل يهتز راسيا
وكان يقول
وأسلمت وجهي لمن اسلمت ... له الأرض يحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هي سوقت إلى بلدة ... أطاعت فصبّت عليها سجالا

فجعل يصفه بالصفات الّتي يَعجز عنها المخلوقون معرفةً منه باستحالة فعل لا من فاعل وأذكُر أَنّي سألتُ بعضَ الأَعاجم بنواحي سنجار على نواحي المُزاح والمهازلة إذْ كنت أراه جلف الجثّة ثقيل اللهجة ما الدليل على أنّ لك خالقاً قال عجزي عن خلق نفسي فكأنما ألقمت حجراً وما شبّهتُه إلاّ بخبر عامر بن عبد قيس إذ خرج عليه عثمان بن عفّان رضى الله عنه وهو في شَمْلّة اشعث اغبر في زي الأعاريب فقال أين ربّك يا اعرابي قال بالمرصاد فهال ذلك عثمان فارعد له ومن ذلك قول صرمة بن انس بن قيس قبل الإسلام:

وله الراهبُ الحبيس تراه ... رهن يونس وكان ناعم بال
وله هودت يهود وكانت ... كل دين وكل أمر عضال

وله شمس النصارى وقاموا ... كل عيدٍ لهم وكل احتفال
وله الوحش في الجبال تراه ... في حقاف وفي ظلال الرمال
يعني أنّ من مخافته هُودّت اليهود وحبست الرهبان أنفسها في الصوامع ومن دلائله عرفت الوحوش منافعها ومناكحها وليست بذات عقول مميّزة وإنَما يعرفه كلّ واحد بمقدار فهمه وكيفيّة استدلاله وأنشدني النهربيندي في جامع البصرة
ولو حل أقطار السماوات عاقلٌ ... أو احتل في أقصى بلاد تباعد
ولم ير مخلوقاً يدل على هدىً ... ولم يأته وحى من الله قاصد
ولم ير إلاّ نفسه كان خلقها ... دليلاً على بار له لا يعاند
دليلاً على إبداعها واختراعها ... منيراً على مرّ الدهور يشاهد

وفي هذا المقدار مقنَعٌ وبلاغ لمن ناصَح نفسَه وأعطى النَصفة وجانب الجحود والعنود ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نورٍ وإذا صحّ إثبات البارئ ووجود الصانع فلنقُل الآن في صفاتها أقول أن السؤال عن المائيّة والمنيّة والهويّة محالٌ من وجه التفتيش عن ذاته لأنّ الإشارة إلى هذه الأشياء تصوّرها في الوهم ولا يتصوّر في الوهم غير محدود أو نظير محسوس وهذه من صفات الحدث فإمّا أن أراد السؤال عن إثباته وإثبات صفاته فلا وذلك كقائل يزعم أنه قد ثبت عندي وجود البارئ سبحانه فما هو فالجواب الصواب أنه هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن القديم الخالق حتى يُعدُّ جميع أسمائه وصفاته فإن زعم أنه سأل عن هويّة ذاته قيل غير محسوسة ولا موهومة ولا معلومة بالإدراك والإحاطة فإن زعم أن هذا من صفاته اللاَشيَّةِ والبطلان فهذا من وساوس الجهل وهذيان الخطل ويكلمّ في إيجاب الصنعةِ الصانع والفعِل لفاعلَ بما قد سبق ذكره فإن طلب نظيراً أو شبيهاً بهذه الصفات فهذا يكلّفنا أن نتّخذ إلهين اثنين محسوساً وغير محسوس ثمّ نشبّه الغائب بالشاهد ليتحقّقه وما من إلهٍ إلاّ إلَه واحدٌ وليس يحجب علم ما تيقّناه لجهل ما جهلنا ألا ترى أنّا إذا آنَسْنا شخصاً في السواد ولم نعلم ما هو ومن هو لم يجب أن نُبطِل علمنا في ذات الشخص بما خفي علينا من بعض هيئاته كذلك لّما قامت الدلالة أن يستحيل وجود فعل لا من فاعل ثم وجدنا فعلاً لم نشاهد فاعله لم يجب أن نُبطل علمنا البديهيّ بجهلنا وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هويّته فنزل الجواب في صفاته قُلْ هُوَ اللهُ أحد اللهُ الصّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كفواً أحد فأخبر أنّه أحد لا كأحدٍ وصَمَد لا كصمد لم يلد ولم يولد يعني الملائكة وسائر الناس من الخلائق الروحانيّين بقوله ولم يكن له كفؤاً أحد فنفى النظير والشبيه عنه وقال الرسول عليه السلام فيما رُوِيَ لرجل من الأعراب سأله عنه هو الذي إذا مسّك ضرٌّ فدعوتَه أجابك وإذا أصابتك سنةً فدعوتَه امطر السحاب وأنبت النبات وإذا ضلَّتْ راحلتُك بفلاةٍ من الأرض فدعوتَه ردّها إليك فجعل يدلّ على ربّه بدلالة فعله وشهادة الكتاب تُغْنِيْ عن طلب الأسانيد لمثل هذه الأخبار بقول الله تعالى امّن يجيب المضطّر إذا دعاه ويكشف السو وفي رواية المَقْبريّ عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أنّ الشيطان يأتي أحدكم فلا يزال يقول له مَنْ خَلَقَ هذا فتقول الله حتّى يقول فمن خلق اللهَ فإذا سمعتم ذلك فافزعوا إلى سورة الإخلاص فقال أبو هريرة رضى الله عنه فبينا أنا قاعد إذ أتاني آتٍ فقال مَن خلق الخلق قلتُ الله قال فمن خلق الله فقُمْتُ وقلت صدقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولهذا نهى عن التفكّر فيه إذ لا مَطْلَع للوهم والتفكر عليه من طلب ما لا سبيل إليه رجع بأحد الأمرَيْن إمّا شاكًّا وإمّا جاحداً والجحود والشكّ فيه كُفْر وقد قيل تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق لأنّ الخلق يدلّ عليه والخالق لا يُدْرَك ولا أَعلمُ أحداً من أصناف الخلق والأمم إلاّ وهو مُقِرّ بوجود شيء في

الغائب خلاف الحاضر فمن ذلك قول القلاسفة الهيولي وإنه خلاف الأجرام العلويّة والسُّفليّة ومنهم من يقول بحيٍّ ناطق لا يجوز عليه الموت وهو لم يشاهده حيًّا ناطقاً إلاّ ميتاً ومنهم من قال بأنّ جوهرَ الأفلاك من غير الطبائع ومن قال بمواضع من الأرض يبلغ طوال النهار بها أربعة وعشرين ساعة ومواضع يغيب الشمس عنها ستّة أشهر وهو لم يشاهدها ومن قال بأنّ النطفة تنقلب علقةً والعلقة تنقلب مضغةً ولم يشاهدها عياناً ومن قال بأرض لا بتركب منها حيوان ولا نبات ومن قال من الثنويّة بنور خالصٍ في الغائب وظلمة خالصة غير مماسَّيْن ولا ممتزجَيْن وهو لم يشاهد جسماً إلاّ مؤلّفاً مركّباً في أَشْباهٍ لهذا يطول الكلام بذكرها حتّى تعلم أن أقول القائل لا شيء غير ما يعاينه ولا شيء غاب عنه إلاّ كما يشاهده محال باطل وبعد فانّا نجدُ الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والفَرَح والحُزْن واللذّة والكراهية والحبّ والبُغض وغير ذلك من كثير من الأعراض ولا يمكن صفتها بطول ولا لون ولا عَرْضٍ ولا ريح ولا طعم أو صفة من

الصفات ثمّ لم يجب إبطالها لعدم صفاتها وكذلك العقل والفهم والنفس والروح والنوم لا شكّ أنّها أشياء ثابتة ولها ذوات قائمة من الأعراض ثم لا يُحاط بكميتها ولا بكيفيتها غير وجودها فإذا كانت هذه الأشياء قُربها منّا وتمكّنها فينا ونعجز عن الإحاطة بها ولم يجز إنكارها لوحوهها وكيف بمُبْدِعها ومُنْشئها ومُقيمها على مراتبها وكلّ صانع لا شكّ أَعْلى رتبةً من مصنوعاته وأَرفع درجةً فإن قال قائل سَوَّيْتَ بين صفات العقل والروح والنفس وسائر ما ذكرت وبين البارئ الذي يدعونا إليه وتساوي الصفات يوجب تساوي الموصوفات فما ينكر ممّن يزعم أنه هو النفس أو العقل لا من الناس من يقول هو نفس الخلائق ومنهم من يقول هو عقولهم قيل إنما يجب تساوي الموصوفات إذا تساوت حدود الصفات فأمّا الألفاظ فمشتركة والمعاني مختلفة ألا ترى أنّا نقول له هو ولغيره هو ونقول ذاته ولغيره من الحيوان والنبات ذواتها ونقول قال الله وفعل الله فقال فلان وفعل فلان لأنّ الألفاظ سِمَاتٌ للمعاني لا يمكن العبارة إلاّ بها فإذا جِئْنا إلى التفصيل قلنا فِعْلُ الإنسان بجارحةٍ وفِعْله ليس بجارحة وفِعْل الإنسان بآلةٍ وفِعْله ليس بآلةٍ وفعل الإنسان في زمان ومكان وفعل الله قبل الزمان والمكان فهَلْ بقي بين الفعلَيْن من التشابه غير سمة اللفظ وهكذا سائر الأوصاف ثمّ من الدلائل على أنّ البارئ جلّ جلاله ليس بالنفس ولا بالعقل ولا بالروح كما ذهب إليه من ذهب أن الأنفس متجزّئة قد فرّقت بينها الهياكل والأشخاص والتجزّئ تفرُّق والتفرُّق عارض ولا متفرّق إلاّ ومتوهّم تجمعه والتجمّع عارض وقد يعيش عائش ويموت مائت ولا يخلو من أن تبطُل نفسٌ بموت صاحبها أو ترجع إلى كلّيتها أو تنتقل إلى غيره والبطلان والرجوع كلّها أعراض وقد أَوضَحْنا الدلالة على حدث الأعراض وهكذا القول في الأرواح على السواء وكذلك تفاوت العقول واختلافها وما يعرِضُ فيها من الخلل والنقص والسهو والغلط كلّها من دليل الحدث وما العقل في قصور المعرفة إلاّ بمنزلة سَمْع الأذن وبصر العين وشمّ الأنف كلّها موجودة غير معلومة الكيفيّة والكميّة فإن قيل أَلَهُ هُويّة وإن لم نعلمها قيل الهويّة إضافة هو إلى معناه وهو إشارة فإما معنى الهويّة فالذات وأي لعمري له ذات عالمة سميعة بصيرة قادرة حيّة غير معلومة كيفيّتها فإن قيل فهو عالم بذاته قيل له ليس هو غير ذاته فتكون معلومة له غير علمه ويكون له من ذاته علم ومعلوم وقد قال قوم أنه هو الطبائع ومنه حَدّثُ العالم وتركّبه فالطبائع أشياء متنافرة متضادّة مقهورة مجبورة وهذه هي علامات الحدث ثمّ هي غير حيّة ولا عالمة ولا مختارة ولا قادرة فيصحّ منها هذه الأفعال المحكمة المُتْقَنَة فإن أطلقوا عليها هذه الصفات فهي البارئ بزعمهم وإنّما غلطوا في التسمية وإن أَبَوْا في الفعل لا يصحّ إلاّ ممّن هذه صفاتُه واختلف أهل الإسلام في أشياء من هذا الباب فأنكر كثير منهم القول بالأَيْنيّة والمائيّة ولا يخلوان من أن يكونا إياه أو غيره أو بعضه فإن كانا غيره أو بعضه انتقض التوحيد وإن كانا إيّاه فهو إذاً أشياء كثيرة وقال ضرار بن عمرو وأبو حنيفة رضى الله

عنهما له أينيّة ومائيَة لأنّه لا يكون شيء موجود إلاّ وله أينيّة ومائيّة وعلّة الأينيّة غير علّة المائية وذلك أنك تسمع الصوت فتعلم أنّ له مُصوّتاً وتجهل ما هو ثمّ تراه بعد ذلك فتعلم ما هو فعِلْمُك ما هو غير علمك بأينيّته ومعنى المائية عندهما أنه يعلم نفسَه بالمشاهدة لا بدليل كما يعلمه واختلف المُشبّهة فزعمت النصارى أنه جوهر قديم ورغم هشام بن الحكم وأبو جعفر الأحوال الملقّب بشيطان الطاق انه جسم محدود متناهٍ وقال هشام هو جسم مُصْمَتٌ له قدر من الأقدار من العَرْض كأنه سبيكة تلأْلأُ كالدُرّة من جميع أطرافها واحدة ليس بمجوّف ولا متخلخل وحُكى عن مُقاتل أنه قال على صورة إنسان لحمٍ ودمٍ وسُئل هشام كيف معبودُك فأوقد سراجاً وقال هكذا إلاّ أنّه لا ذُبالة له وقال قومٌ جسم فضاء مكان الأشياء كلّها وأكبر من كلّ شيء وقال قومٌ هو علي بن أبي طالب وذهب قومٌ إنّه المسيح وقال قومٌ هو علي بن أبي طالب وذهب قومٌ أنّه المسيح وقال قومٌ هو علي بن أبي طالب وذهب قومٌ إلى أشياء كثيرة متبعّضة مختلفة لقُوَى والفعل إلاّ أنّ بعضها متّصل ببعض وبعضها أعلى

من بعض فأعلاها البارئ سبحانه ويزعمون أنه لا جسم له ولا صفة ولا يُعرف ولا يعلم ولا يجوز أن يُذْكَر ودونه العقل ودون العقل ودون النفس الهيولي ودون الهيولي الأثير ثم الطبائع ويرون كلّ حركة أو قُوّة حسّاسة أَو نَامية منه وسيمرّ بك النقض عليهم مجملاً في باب التوحيد إن شاء الله وأحسنُ ما اختاروه في هذا الفصل أَلاّ يخوض الإنسان في شيء منه إلاّ بإثبات الذات بدلائل الصفات فإمّا ما سِوَى ذلك فيسكت عنه وليقتَدِ نبيّ الله موسى حيثُ قال له الكافر وما ربّ العالمين قال ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مُوقنين هذا طريق السلامة فإن سأل بعضُ مَنْ لا يعلم كيف هو وأين هو وكم هو فإنّ كيف يوجب التشبيه ولا شبه له وكم استخبار عن العدد وهو واحد وأين طل المكان وليس بجسم فيُشْغِل الأماكن. فأعلاها البارئ سبحانه ويزعمون أنه لا جسم له ولا صفة ولا يُعرف ولا يعلم ولا يجوز أن يُذْكَر ودونه العقل ودون العقل ودون النفس الهيولي ودون الهيولي الأثير ثم الطبائع ويرون كلّ حركة أو قُوّة حسّاسة أَو نَامية منه وسيمرّ بك النقض عليهم مجملاً في باب التوحيد إن شاء الله وأحسنُ ما اختاروه في هذا الفصل أَلاّ يخوض الإنسان في شيء منه إلاّ بإثبات الذات بدلائل الصفات فإمّا ما سِوَى ذلك فيسكت عنه وليقتَدِ نبيّ الله موسى حيثُ قال له الكافر وما ربّ العالمين قال ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مُوقنين هذا طريق السلامة فإن سأل بعضُ مَنْ لا يعلم كيف هو وأين هو وكم هو فإنّ كيف يوجب التشبيه ولا شبه له وكم استخبار عن العدد وهو واحد وأين طل المكان وليس بجسم فيُشْغِل الأماكن.

القول في أن البارئ واحد لا غير أقولُ أنّه لما صحّ وجود البارئ بالدلائل العقليّة وجب أن يُنظر الواحد هو أم أكثر لأنّ الفعل قد يفعله الواحد والاثنان وقد يشترك الجماعة في بناء دار ورفع منار ونظرنا فإذا الدلائل على وحدانيّته بأذلاء الدلائل على إثباته وذلك أنّه لو كانا اثنَيْن لم يخلُ من أن يكونا متساوِيَيْن في القوّة والقُدرة والعِلم والإرادة والقِدَم والمشيَّة حتَّى لا يُفْرق بينهما بصفةٍ من الصفات فإن كانا كذلك فهذه صفة الواحد لا يثبت في العقول غيره أّو يكون كذلك فهذه صفة الواحد لا يثبت في العُقول غيره أّو يكون أحدُهما أَقْدم من الآخر وأَقدر فَالإِلَهُ إذاً القديمُ القادر إذ العاجز الحادث لا يستحقّ الإلهيّة أَو يكونا معاً مقاومين مُتضادَّيْن فأذَنْ لا يجوز وجود خَلقٍ ولا أمرٍ لأنّه لو كانا كذلك لم يخْلُقْ أَحدُهما خَلْقاً إلاّ أفناه الآخر ولم يُحْيِ حيّاً إلاّ أماته الآخر فلمّا وجدنا الأمر بخلافه علمنا أنّه واحد قدير وهذا ضمْنُ قول الله تعالى لّوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ لَفَسَدَتَا فسُبْحَانَ اللهَ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ وقال قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُون إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سُبُلاً ولو كانا اثنين لكانا قادرَيْن على التمانع والتقاوم أو عاجزَيْن عن ذلك فإن كانا قادرَيْن لم يتّصل تدبير ولم يتم وجود خَلْق وإنْ كانا عاجزَيْن فوجود الخَلْق عن العاجز

مُحالٌ أَو كان أحدهما عاجزاً والآخر قادراً فهو كما قلناه آنفاً ولو جاز القول باثنين لوجود الشيء وضدّه لجاز القول بعدد أعيان الموجودات لاختلاف أجناسها وأنواعها وأنّها تمام القُدرة جوازها على الشيء وضدّه ففاعل الشيء إذا كان عاجزاً عن ضدّه غير كامل القُدرة والبارئ عزّ وجلّ دلّ على كمال قُدرته بإيجاد الشيء وضدّه ومن هاهنا تفرّقت المجوس والثنويّة والدَهْرية وسائر فرق الضلالة فزعمت المجوس بأنّ فاعل الخير لا يفعل الشرّ وأنّ الشرّير لا يفعل الخير لأنّ الجنس الواحد لا يَقَعُ منه إلا الفعل الواحد كالنّار لا يكون منها إلاّ التسخين والثلج لا يكون منه إلاّ بالتبريد فسمّوا الإله الخير هرمز والشرّير الخبيث آهرمَن وأَضافوا كلّ حُسْنٍ وجميل وفعل حميد إلى الخير وكل قبيح وذميم إلى الشرّير الخبيث المضادّ له ثمّ اختلفوا بعد إجماعهم على أنّ الخير منهما قديم لم يزل وزعم بعضهم أن الشرّير قديم أيضاً كقول الثنويّة بقدم الكونين من النور والظلمة وزعمت طائفةٌ أُخرى انّه حادث ثم اختلف الذين قالوا بحدوث الشرير الخبيث كيف كان حدوثه فزعمت فرقة منهم أنّ القديم الخبير تفكّر فكرةً رديئة فاسدة فحدث من فكرته هذا الخبيث الشرير وهذا نقض أصلهم بأنّ جوهر القديم جوهرٌ خير لا يشوبه شيء من الشرور والآفات وزعم آخرون أنّ الخير هفا هَفْوةً فحدث منه هذا الضدّ بلا إرادةٍ منه ولا مشيّة فجعلوا الخير كالمغود الجاهل الذي لا يملك نفسه وأمره وقد أقرّ هذان الصنفان بوقوع الشرّ من الخير المحمود ووجود جنسَيْن مختلفَيْن منه فما حاجتهما إلى إثبات فاعلَيْن مختلفَيْن فإذا جاز وقوع الشرّ من هذا الخير المحمود فما يؤمنهم وقوع الخير من هذا الشرّير المذموم وزعمت فرقة ثالثة منهم أنه لا يدري كيف حدث هذا الشرّير المنازع للخير القديم فأفصحوا بالحَيْرة ونادَوا على أنفسهم بالشبهة وبم ينفصلون ممّن يعارضهم إذا جاز حدوث شرير فاعل للشرّ لِمَ لَمْ يُجْز حدوث خير فاعل للخير حتّى يكون خالقهم اثنين حادثَيْن وقد زعموا جميعاً أنّ هذا الشرير كايدَ الخير ونازعه الأمر وجمع الخير جنوده من النور والشرير جنوده من أبعاض الظلمة فاقتتلا مدَةً من الدهر طويلة ثمّ توسّطت الملائكة بينهما ودعَوهما إلى الهُدْنة والموادعة إلى أن يضع بينهما مدّة سبع آلاف سنة وهي مدّة قوام العالم فاصطلحا على أنْ يكون أكثر الأمر والحكم والغلبة في هذه المدّة المضروبة للجوهر الشرّير فإذا انقضت المدّة أفضى الأمر إلى القديم الخير فأخذ الشرّير يستوثق منه إلى أن ينقضي عالم الشرّ والفتنة والفساد ويصير الحكم إلى الخير المحض وهذا ظاهر الانتفاض والاختلاف وكيف تطمئن النفس إلى عبادة عاجز مغلوب على أمر وكيف يؤمن الشرير الخبيث على الوفاء بالعهود والمواثيق وهل هي منه ألا أفضل الخير

وأتم الإحسان فقد وجد من جوهره الخير وهو من غير جنسه كما وجد من جوهر الخير العجز والغلبة وهو شر وليس من جنسه واختلفت الثنوية فزعم ماني وابن أبي العوجاء أن النور خالق الخير والظلمة خالق الشر وأنهما قديمان حيان حساسان وأن فعلهما في الخلق اجتماعهما وامتزاجهما بعد أن لم يكونا ممتزجين فحدث هذا العالم من نفس الامتزاج فأقر بحادث حدث في القديم من غير سبب أوجبه ولا إرادة منه فضاهيا المجوس في قولهم أن الخير حدث منه الشر بلا إرادة منه ولا مشية وزعم ديصان أن النور حي والظلمة موات فأحال أشد الإحالة إذ أجاز من الموات الفعل في خلق الشرور والآفات فناقضوا بأجمعهم نفس الامتزاج لأنه لو كان بدأبه النور فقد أساء في مخالطة الظلام وإن كان بدوه من الظلام فقد غلب النور وأفسده وعندهم أن النور لا يكون منه ألا الخير والظلمة لا يكون منها إلا الشر فكل خير منسوب إلى النور وكل شر منسوب إلى الظلمة واكتفى من جوابهم بما يومض عن مناقضاتهم كفاء ما يشاكل كتابنا هذا بعد أن نستقصيه في كتاب المعدلة ونشبع القول فيه بمشية الله وقد سألهم جعفر بن حرب عن مسئلة قليلة الحروف عظيمة الخطر فقال لهم أخبرونا عن رجل قتل رجلاً قال فقد كذب النور والنور عندكم لا يفعل الشر قالوا فهو الظلمة قال فقد صدقت والظلمة لا تفعل الخير وقال هل اعتذر أحد من

شيء قط قالوا نعم والاعتذار حسن جميل قال فمن المعتذر قالوا النور قال فصنع شيئاً يجب الاعتذار منه قالوا فالظلمة قال فقد أحسنت إذا اعتذرت فقطعهم واستعظم قوم القول بإيجاد أعيان لا من سابق فقالوا بقدم البارئ وشيء قديم معه أم الأشياء وآخر الهويات ومادة العالم والأصل الذي حدثت منه الأجسام والأشخاص فأنه جوهر بسيط عار من الأعراض ثم أحدث الصانع فيه أعراضاً من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق فتركب من حركاته العالم بأجزائه فهولاء قد أوجبوا شيئين قديمين مختلفين إلى الذات والصفة أحدهما حي والآخر ميت ودخلوا في مذاهب الثنوية وناقضوا أصلهم بأن البارئ لم يزل يصنع فيه فأبطلوا قولهم بأنه علة والعلة لا تفارق المعلول وجملة القول في الإعتقاد في المعدوم والموجود أن الموجود ما يعقل أو يعلم أو يحس أو يعرف أو يصح منه تأثير أو فيه أو معه أو به فإذا خلا من هذه المعاني فهو المعدوم ولولا ذلك لكان كيف يعتقد المعتقد المعدوم من الموجود فإن قيل فقد اعتقدتم القديم أفعدم هو وأنتم لا تصفونه بشيء من الحدوث والأغراض قيل افنسوون أنتم بينه وبين الهيولى في المعنى أم لا وأنتم لا تصفونها بشيء من الحدود والأعراض ونحن إنما نعتقد وجود البارئ بدلائل صنعه وآثاراه وليس يصح الهيولى أثر ويوجب اعتقاده موجوداً بل لو وصفتموه بأفعال خاصية وجب اعتقاده وسنزيد إيضاحاً لهذه المسئلة في فصل ابتداء الخلق إن شاء الله تعالى،وأتم الإحسان فقد وجد من جوهره الخير وهو من غير جنسه كما وجد من جوهر الخير العجز والغلبة وهو شر وليس من جنسه واختلفت الثنوية فزعم ماني وابن أبي العوجاء أن النور خالق الخير والظلمة خالق الشر وأنهما قديمان حيان حساسان وأن فعلهما في الخلق اجتماعهما وامتزاجهما بعد أن لم يكونا ممتزجين فحدث هذا العالم من نفس الامتزاج فأقر بحادث حدث في القديم من غير سبب أوجبه ولا إرادة منه فضاهيا المجوس في قولهم أن الخير حدث منه الشر بلا إرادة منه ولا مشية وزعم ديصان أن النور حي والظلمة موات فأحال أشد الإحالة إذ أجاز من الموات الفعل في خلق الشرور والآفات فناقضوا بأجمعهم نفس الامتزاج لأنه لو كان بدأبه النور فقد أساء في مخالطة الظلام وإن كان بدوه من الظلام فقد غلب النور وأفسده وعندهم أن النور لا يكون منه ألا الخير والظلمة لا يكون منها إلا الشر فكل خير منسوب إلى النور وكل شر منسوب إلى الظلمة واكتفى من جوابهم بما يومض عن مناقضاتهم كفاء ما يشاكل كتابنا هذا بعد أن نستقصيه في كتاب المعدلة ونشبع القول فيه بمشية الله وقد سألهم جعفر بن حرب عن مسئلة قليلة الحروف عظيمة الخطر فقال لهم أخبرونا عن رجل قتل رجلاً قال فقد كذب النور والنور عندكم لا يفعل الشر قالوا فهو الظلمة قال فقد صدقت والظلمة لا تفعل الخير وقال هل اعتذر أحد من شيء قط قالوا نعم والاعتذار حسن جميل قال فمن المعتذر قالوا النور قال فصنع شيئاً يجب الاعتذار منه قالوا فالظلمة قال فقد أحسنت إذا اعتذرت فقطعهم واستعظم قوم القول بإيجاد أعيان لا من سابق فقالوا بقدم البارئ وشيء قديم معه أم الأشياء وآخر الهويات ومادة العالم والأصل الذي حدثت منه الأجسام والأشخاص فأنه جوهر بسيط عار من الأعراض ثم أحدث الصانع فيه أعراضاً من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق فتركب من حركاته العالم بأجزائه فهولاء قد أوجبوا شيئين قديمين مختلفين إلى الذات والصفة أحدهما حي والآخر ميت ودخلوا في مذاهب الثنوية وناقضوا أصلهم بأن البارئ لم يزل يصنع فيه فأبطلوا قولهم بأنه علة والعلة لا تفارق المعلول وجملة القول في الإعتقاد في المعدوم والموجود أن الموجود ما يعقل أو يعلم أو يحس أو يعرف أو يصح منه تأثير أو فيه أو معه أو به فإذا خلا من هذه المعاني فهو المعدوم ولولا ذلك لكان كيف يعتقد المعتقد المعدوم من الموجود فإن قيل فقد اعتقدتم القديم أفعدم هو وأنتم لا تصفونه بشيء من الحدوث والأغراض قيل افنسوون أنتم بينه وبين الهيولى في المعنى أم لا وأنتم لا تصفونها بشيء من الحدود والأعراض ونحن إنما نعتقد وجود البارئ

بدلائل صنعه وآثاراه وليس يصح الهيولى أثر ويوجب اعتقاده موجوداً بل لو وصفتموه بأفعال خاصية وجب اعتقاده وسنزيد إيضاحاً لهذه المسئلة في فصل ابتداء الخلق إن شاء الله تعالى

القول بإبطال التشبيه أقول أن التشبيه يوجب الاتفاق في الحكم والمعنى على قدر المواقع من الاشتباه وذلك يزعم أن حد الجسم أنه طويل عريض عميق يلزمه أن يقتضي على كل ذي طول وعرض وعمق بالتجسيم لأن الاشتباه بينهما واقع في جميع الوجوه فإذا قال جسم لا كالأجسام وأراد أن يبطل الحدود المضروبة فيه فكأنه يقول جسم لا جسم ويلزمه أن يحكم على كل ذي طول بحد من حدود الجسم لأنه من حيث استحق بعض أوصافه استحق الحكومة به كما أنه إذا حد العرض بأنه لا يقوم بنفسه لزمه القول بأن كل ما لا يقوم بنفسه فهو عرض فإن قيل أليس قلتم أنه شيء لا كالأشياء فما تنكرون من يقول أنه جسم لا كالأجسام أو له وجه لا كالوجوه وجارحة لا كالجوارح فإن الشيء اسم عام للموجود والمعدوم والقديم والمحدث وحده ما قد ذكرناه في موضعه فإذا سمع السامع به لم يذهب به إلى جسم دون عرض ولا إلى قديم دون محدث حتى يفرق به إلى التفسير ما يدل على المراد فإذا سمع بالجسم لم يعقل منه إلا المؤلف المركب فلذلك لم يجز إطلاق أسماء المحدثات عليه لأن استواء أحكام المثلين من حيث تماثلا وإلى هذا المعنى ذهب الناشئ في قوله:

لو كان لله شبه من خليقته ... كانت دلائله من خلقه فيه

قد كان مقتضياً من نشو صانعه ... ما يقتضي النشو من آثار ناشيه

لكنه جل عن أوهام واصفه ... فالحس يعدمه والعقل يبديه

؟؟

الفصل الثالث

صفاته وأسمائه

وكيف يجب أن يعتقد القول والفعل منه سبحانه

أقول أنه إذا ثبت وجود البارئ عز وجل وثبتت وحدانيته بالدلائل التي قامت وجب أن ينظر في صفاته وما يليق به أن يضاف إليه ويعرف به فنظرنا فإذا من صفاته خاص وعام فالخاص ما لا يجوز أن يوصف بضده كالحياة والعلم والقدرة ولا أن يوصف بالقدرة عليها ألا ترى أنه لا يصح القول لأنه بقدر أن يحيا أو يقدر أن يعلم أو يقدر أن يقدر ولا القول بأنه يعلم كذا ولا يعلم كذا أو يقدر على كذا ولا يقدر على كذا لأن ما كان موصوفاً بنفسه ثم وصف بضدها كان الضد راجعاً إلى نفسه ولا تستقيم الإلهية بغير حياة وقدرة وعلم وهذه تسمى صفات الذات والعام ما يجوز أن يوصف بضدها ويوصف بالقدرة عليها كالإرادة والرزق والخلق والرحمة وهي صفات الفعل وللمسلمين ومن قبلهم في هذا الفصل تشاجر كثير واختلاف يدعو إلى ضلال من خالف صاحبه في ذلك فقال بعض الناس لا اسم للبارئ ولا صفة ولا ذكر وإنما ينبغي أن ينسب كل عدل ورحمة وفضل وجود إليه بمعرفة القلوب أنه منه وقالت المعتزلة أن صفات الله أقوال وكنايات وهي كلها من قول القائلين ووصف الواصفين وقال قوم لا معنى لصفات الفعل وإنما المعنى لصفات الذات والصفة ما قامت في الموصوف ولا تباينه ولا يجوز أن يوجد الموصوف مع عدمها قالوا فلم يزل الله خالقاً بارئاً رازقاً مريداً متكلماً رحيماً حتى أتو على آخر صفاته وفرق ناس

منهم بين الوصف والصفة فجعلوا الصفة ما يلاصق الموصوف كالعرض للجوهر والوصف قول الواصف تلك الصفة فصفات الله غير مخلوقة لأنه بها موصوف وهو غير غير مخلوق وهو واحد بصفاته كهلا وصفاته لا هو ولا بعضه ولا غيره واحتجوا بأنها ليست هو ولو كانت هو لكان صفة ولدعي فقيل يا علم يا قدرة يا سمع يا بصر ولما قام بذاته كما أن الصفات لا تقوم بأنفسها ولا هي غيره لأن حد المتغايرين جواز وجود أحدهما مع عدم الآخر فلو كان علمه وقدرته وسمعه وبصره غيره لجاز عدم العلم والقدرة وغيرها مع وجود البارئ فيحصل بلا علم ولا قدرة ولا هي بعضه لأن التبعيض من دلائل الحدث والله لا يوصف بالابعاض والأجزاء وقالت المعتزلة في صفات الذات أنها ليست من غير الذات شيئاً فذات البارئ عالمة حكيمة قادرة سميعة بصيرة وهو عالم بذاته قادر بذاته سميع بذاته بصير بذاته وإنما الصفات ما وصف الله به نفسه أو وصفه العباد بها قالوا ولا يجوز أن يكون علمه وقدرته هو ولا غيره لأنها لو كانت هو لكان أشياء كثيرة مختلفة ولعبدت ودعيت فلو كانت غيره لكانت قدماء كثيرة وإن لم يزل مع البارئ وإن كانت محدثة فكان قبل أحداث العلم غير عالم وقبل أحداث القدرة غير قادر وكذلك سائر الصفات فثبت أن ذاته عالمة قادرة إن كان له علم به يعلم وقدرة بها يقدر ولم يخل من أن يكون هي هو أو غيره وقالوا لا فصل بين زعم أنه هو أو غيره أو بعضه قالوا وقول القائل لا هو هو نفي وقوله لا غيره رجوع عن ذلك النفي وإثبات له فهؤلاء يزعمون أنه لو كان له علم لكان معه غيره ومخالفوهم يزعمون أن لو يكن له علم لكان جاهلاً قالوا وهو موصوف بالقدم والقدرة والعلم فلو كان عالماً بنفسه قديماً لما جاز أن يوصف بنفسه كما لا يصور المصور بنفسه ولا يكتب المكتوب بنفسه ولا يشتم المشتوم بنفسه وإنما يشتم المشتوم ويصور المصور فصح أنه موصوف بصفات والصفات يشتق منها الأسامي فالقديم من القدم والقدير من القدرة والعالم من العلم كما أن الحمرة للأحمر والصفرة صفة للأصفر ثم هو لا هي ولا غيرها قالوا ولو لم يشاهد عالماً إلا بعلم ولا قادراً إلا بقدرة فكذلك ما غاب عنا فقال لهم مخالفوهم أليس الحمرة والصفرة عرضان في الأحمر والأصفر أو ليس العالم منا بعلم علمه عارض فيه فهل إلى تمثيل البارئ بجسم ذي عرض وبم ينفصلون ممن يزعم أنه جسم أو عرض لوجود الفعل منه لأنه لا يظهر الفعل فيما يشاهده إلا من جسم حدث فهل يجب علينا القضاء بأنه جسم ذو أعراض وأبعاض إذا لم نشاهد الفعل إلا من جسم ذي أعراض وأبعاض كذلك لا يجب القضاء بأنه عالم بعلم إذا لم نشاهد عالماً إلا بعلم فإن قيل إذا أجزت عالماً لا يعلم فأجز جسماً لا بصفات الجسم قيل لو لزم ذا للزمك هو بعينه في إجازتك عالماً بعلم لا هو ولا غيره وأما قولهم أن المصور لا يصور بنفسه والمكتوب لا يكتب بنفسه وإنما يصور بصورة ويكتب بكتابة والصورة والكتابة لا شك غيرها وقولهم من الصفات يشتق الأسامي

فالصفات هي الأسامي بعينها ليست أنها أشياء كامنة فيه كالأعراض في الجواهر ولكنه إذا أبدى فعلاً من أفعاله تسمى به أو سماه العباد به والكلام يطول في هذا ويمتد ومتى اعمل الناظر فكره في هذا المقدار تبين له وجه الصواب بحول الله وقوته.الصفات هي الأسامي بعينها ليست أنها أشياء كامنة فيه كالأعراض في الجواهر ولكنه إذا أبدى فعلاً من أفعاله تسمى به أو سماه العباد به والكلام يطول في هذا ويمتد ومتى اعمل الناظر فكره في هذا المقدار تبين له وجه الصواب بحول الله وقوته.

القول في الأسامي أقول أن اختلافهم في الأسامي كاختلافهم في الصفات وعامة المعتزلة على أن الأسامي هي الصفات وأن الاسم غير المسمى وهو قول المسمى وحد الاسم ما دل على المعنى وقالت فرقة أن الاسم والمسمى واحد واحتجوا بقوله تعالى " سبح اسم ربك الأعلى " فلو كان كان الاسم غيره لكان قد أمر بعبادة غيره وقد قال

" سبح لله ما في السموات والأرض " فدل على أن اسم الله هو الله وقال " اذكروا الله " ثم قال في موضع " واذكروا اسم الله " وناقضهم مخالفوهم بأن الاسم لو كان للمسمى لكان إذا غير تغير المسمى وإذا أحرق أو خرق أو غرق أثر ذلك كله في المسمى وكل مسمى سابق اسمه وجائز تبدل الاسم عليه والأسماء مختلفة كثيرة والمسمى واحد غير مختلف وقد قال الله عز وجل " ولله الأسماء الحسنى فأدعوه بها " وما هو له به يدعى وهو غيره لا شك وأجمعت الأمة أنه غير جائز أن يقال له يا حسن على أن يكون حسنه في ذاته وإنما يوصف بحسن القول والفعل وقد أخبر أن له أسماء حسنة في غاية الحسن ونهايته فعقل أنه غير أسمائه وأسماؤه معلومة محدودة معدودة الحروف ولا يجوز إطلاق شيء من ذلك على البارئ سبحانه وتعالى وأسماؤه تختلف باختلاف اللغات فكما أن لغة الفرس هي غير لغة العرب ولغة العرب غير لغة الحبش لقول الله تعالى " واختلاف ألسنتكم وألوانكم كذلك التسمية بها مختلفة فإذا اختلف الاسم وهو واسمه واحد فذاك الاختلاف شائع فيه لا شك اللهم إلا أن ينكر أن لا يكون له غير اسم واحد وأن لا يختلف ذلك الاسم باختلاف اللغات فهذا جاحد ضرورة لا غير وقوله تعالى " سبح اسم ربك الأعلى " أي اذكره باسمه وصفته لأنه غير ممكن ذكر شيء إلا باسمه ثم قوله سبح لله وذاكروا الله واذكر ربك على ما يتعارفه الناس أن الشيء إذا لم يكن ذكراً في نفسه لم سكن ذكره إلا باسمه وقول القائل الله معلوم أنه اسم عربي لمعرفة معناه واشتقاقه وغير جائز القول بأن الله عربي أو عجمي فإن قال قائل إذا كان الأسماء والصفات من أقوال العباد وكناياتهم فلم يكن له اسم ولا صفة قبل الخلق وكان عطلاً غفلاً إلى أن سماه العباد قيل قد قلنا أن صفاته على وجهين صفة ذات فعل فما كان من صفات الذات لم يزل بها موصوفاً وإن لم يصفه بها واصفه كما أنه لم يزل واحداً فرداً وإن لم يكن خلق يوحده وعالماً وإن لم يكن المعلوم موجوداً وقادراً وقديماً فإما القول بأنه لم يزل مدعواً أو معبوداً أو مشكوراً فالشاكر والعابد والداعي ليسوا لم يزالوا وكذلك القول بأنه لم يزل خالقاً رازقاً يقتضي أزلية المخلوق والمرزوق اللهم إلا على جهة القدرة على الخلق والرزق فإنه يستقيم له ذلك وكذلك لو قال لم يزل سميعاً بصيراً على معنى سيبصر وسيسمع وأجمع المسلمون أن الله حي قادر قديم سميع بصير واحد فرد عالم حكيم متكلم جواد فاعل مختار موجود رحيم عدل متفضل غني واختلفوا في تفصيل هذه الصفات وعللها فزعمت طائفة أنه عالم لأن له علماً وزعم آخرون أنه عالم بذاته لأنه يدرك الأشياء كما هي وقد تقدم حجج الفريقين مجملاً وكذلك قولهم في القدم والقدرة فمن أبى القول بأن حد القديم والقادر أن يكون له قدم وقدرة قال حد القديم الموجود لا إلى أول وحد القادر الذي لا يمتنع الفعل عليه باختياره وأجمع هؤلاء أنه موجود بعينه وذاته ولا يوجد لأنه لو كان موجوداً بوجود لم يخل ذلك الوجود من أن يكون موجوداً أو ليس بموجود فإن كان غير موجود فقد دخل باب العدم وإن كان موجوداً فقد وجب أن يوجد بوجود آخر إلى ما لا نهاية والقول بما ليس له نهاية يؤدي إلى قول الدهر وقالت طائفة أنه حي بحياة عالم بعلم وزعم آخرون أن معنى الحي وجود الأفعال منه على اتفاق واتساق واختلفوا في ذاته ألها نهاية أم لا فقال أكثرهم أنه غير متناه لأنه لا بجسم ولا عرض ولا حد له فيقتضي النهاية وهو مبدع النهايات والحدود وزعم هشام بن حكم أنه متناه وكذلك يلزم كل مجسم وقد قال أصحاب القضاء أنه غير متناهي الذات واختلفوا أذاته مرءية أم غير مرءية فمن قال بالتشبيه أو رأى الرؤية العلم قال هو مرءي كما هو موجود معلوم ومن أبى ذلك قال غير مرءي كما هو محسوس ولا ملموس بقى الاختلاف في التوفيق بين الرؤية والعلم واللمس والتفريق بينهما واختلفوا في الكلام فمن قال هو من صفات الذات قال غير محدث ولا مخلوق لأن الله لم يزل متكما بكلام لا هو هو

ولا هو غيره ولا بعضه ومن قال من صفات الفعل قال هو محدث لأن الكلام يقتضي متكلماً واختلفوا في الإرادة بحسب اختلافهم في الكلام واختلفوا في المكان فقال أكثرهم أنه بكل مكان حافظاً مدبراً وعالماً وقادراً وليست ذاته

بجسم فيشغل الأماكن ولا بعرض فيحل الأجسام ومن كان بهذه الصفة فغير محتاج إلى المكان وقال هشام بن الحكم والمشية أنه في كل مكان ذو مكان وذلك مطرد على أصله لم يراه جسماً وقال قوم أنه في السماء فوق العرش بذاته بلا نهاية لا ككون الشيء على الشيء بالمماسة والاظلال وزعم ابن كلاب أنه على العرش لا في فكان وإذا أجازوا أن يخلق الله جسماً لا في مكان وأن يقيم العالم لا في مكان فما ينكرون من كونه لا في مكان وليس هو بجسم ولا عرض واختلفوا في العلم فقال قوم عالم بما كان قبل أن يكان وبما يكون قبل أن يكون ولا يجوز أن يخفى عليه شيء إلا بأنه استفاد علماً أو أحدثه لنفسه بل ذاته متنبهة عالمة وزعم قوم من الإمامية أن الله لا يعلم ما هو كائن حتى يكون قالوا ولو كان يعلم أن من يخلقه يكفر به ويعصيه ويؤذيه لما خلقه وأجازوا فسخ الخبر والبداء وأول من أبدع هذا الرأي في هذه الأمة المختار بن أبي عبيد كان يزعم أنه يعلم ما يحدث من جهة الوحي فيخبر أصحابه بكوائن فإن اتفقت فهو ما أراد وإن خالف قد ابدأ لربكم وكان جهم بن صفوان وينفى الصفات كلها عن الله سبحانه وينكر القول بأنه شيء زعم فراراً من التشبيه ويقول علم الله محدث وجملة الرد على هؤلاء أن الجاهل منقوص ومستحق المذمة لا يستحق الإلاهية وأجاز المعتزلة كون ما علم الله أنه لا يكون لأن علم الله ليس بعلة ككون الشيء ولا حامل للمعلوم على الكون كما أنه لم يزل عالماً بخلقه العالم قبل خلقه ثم لم يجز القول بأن علمه علة الخلق وحامل له على إيجاده قالوا ومما علم الله أنه لا يكون أمور علم أنها لا يكون لاستحالة كونها ككون إله معه أو كون شريك أو كون غالب يغلبه أو كون نهاية وانقضاء له ومنها أمور علم أنها لا تكون لاستحالة كونها فلا يجوز كونها بحال قالوا وغير جائز أن يأمر عبداً بما يعلم أنه لا يكون منه ما يأمره به ولا يقدر عليه لاستحالته أو لعجزه وإنما يجوز الأمر لمن علم أنه قادر على الفعل لأن القدرة هي التي تقتضي التكليف لا العلم وقال مخالفوه لا يجوز كون خلاف ما علم الله ويجوز الأمر بخلاف ما علم لأنه لو جاز كون خلاف ما علم كان عاجزاً جاهلاً وهذه هي مناظرة بين الفريقين مليحة مفيدة قالوا لهم أليس في قولكم أن الله لم يزل عالماً بأن فرعون لا يؤمن قالوا بلى قالوا فكان فرعون يقدر أن يؤمن وقد علم الله أنه لا يؤمن قالوا نعم فكان فرعون يقدر على إبطال علم الله وتجهيله قالوا لو علم أن فرعون لا يقدر أن يؤمن كما علم أنه لا يؤمن ثم قلناه أنه آمن أو يؤمن لكنا مبطلين مجهلين ولكنا قلن علم الله أنه لا يؤمن وعلم أنه يقدر أن لا يؤمن ولم يؤمن فلم نكن مبطلين ولا مجهلين ثم قلبوا عليهم السؤال فقالوا أليس الله عالماً بأنه يقيم القيامة في وقتها وهو القادر على أن لا يقيمها قالوا بلى قالوا فهل يجوز القول بأن الله قادر على إبطال علمه علمه وتجهيل نفسه إذا كان قادراً على أن لا يفعل ما علم أنه يفعله وعلى أن يفعل ما علم أنه لا يفعله قالوا وليس علم الله أن فرعون لا يؤمن وأمره بأن يؤمن فهل أمره بتجهيل علم الله فيه واختلفوا في جواز وصف الله بالقدرة على المحال كإدخال العالم في جوزةلا هو غيره ولا بعضه ومن قال من صفات الفعل قال هو محدث لأن الكلام يقتضي متكلماً واختلفوا في الإرادة بحسب اختلافهم في الكلام واختلفوا في المكان فقال أكثرهم أنه بكل مكان حافظاً مدبراً وعالماً وقادراً وليست ذاته بجسم فيشغل الأماكن ولا بعرض فيحل الأجسام ومن كان بهذه الصفة فغير محتاج إلى المكان وقال هشام بن الحكم والمشية أنه في كل مكان ذو مكان وذلك مطرد على أصله لم يراه جسماً وقال قوم أنه في السماء فوق العرش بذاته بلا نهاية لا ككون الشيء على الشيء بالمماسة والاظلال وزعم ابن كلاب أنه على العرش لا في فكان وإذا أجازوا أن يخلق الله جسماً لا في مكان وأن يقيم العالم لا في مكان فما ينكرون من كونه لا في مكان وليس هو بجسم ولا عرض واختلفوا في العلم فقال قوم عالم بما كان قبل أن يكان وبما يكون قبل أن يكون ولا يجوز أن يخفى عليه شيء إلا بأنه استفاد علماً أو أحدثه لنفسه بل ذاته متنبهة عالمة وزعم قوم من الإمامية أن الله لا يعلم ما هو كائن حتى يكون قالوا ولو كان يعلم أن من يخلقه يكفر به ويعصيه

ويؤذيه لما خلقه وأجازوا فسخ الخبر والبداء وأول من أبدع هذا الرأي في هذه الأمة المختار بن أبي عبيد كان يزعم أنه يعلم ما يحدث من جهة الوحي فيخبر أصحابه بكوائن فإن اتفقت فهو ما أراد وإن خالف قد ابدأ لربكم وكان جهم بن صفوان وينفى الصفات كلها عن الله سبحانه وينكر القول بأنه شيء زعم فراراً من التشبيه ويقول علم الله محدث وجملة الرد على هؤلاء أن الجاهل منقوص ومستحق المذمة لا يستحق الإلاهية وأجاز المعتزلة كون ما علم الله أنه لا يكون لأن علم الله ليس بعلة ككون الشيء ولا حامل للمعلوم على الكون كما أنه لم يزل عالماً بخلقه العالم قبل خلقه ثم لم يجز القول بأن علمه علة الخلق وحامل له على إيجاده قالوا ومما علم الله أنه لا يكون أمور علم أنها لا يكون لاستحالة كونها ككون إله معه أو كون شريك أو كون غالب يغلبه أو كون نهاية وانقضاء له ومنها أمور علم أنها لا تكون لاستحالة كونها فلا يجوز كونها بحال قالوا وغير جائز أن يأمر عبداً بما يعلم أنه لا يكون منه ما يأمره به ولا يقدر عليه لاستحالته أو لعجزه وإنما يجوز الأمر لمن علم أنه قادر على الفعل لأن القدرة هي التي تقتضي التكليف لا العلم وقال مخالفوه لا يجوز كون خلاف ما علم الله ويجوز الأمر بخلاف ما علم لأنه لو جاز كون خلاف ما علم كان عاجزاً جاهلاً وهذه هي مناظرة بين الفريقين مليحة مفيدة قالوا لهم أليس في قولكم أن الله لم يزل عالماً بأن فرعون لا يؤمن قالوا بلى قالوا فكان فرعون يقدر أن يؤمن وقد علم الله أنه لا يؤمن قالوا نعم فكان فرعون يقدر على إبطال علم الله وتجهيله قالوا لو علم أن فرعون لا يقدر أن يؤمن كما علم أنه لا يؤمن ثم قلناه أنه آمن أو يؤمن لكنا مبطلين مجهلين ولكنا قلن علم الله أنه لا يؤمن وعلم أنه يقدر أن لا يؤمن ولم يؤمن فلم نكن مبطلين ولا مجهلين ثم قلبوا عليهم السؤال فقالوا أليس الله عالماً بأنه يقيم القيامة في وقتها وهو القادر على أن لا يقيمها قالوا بلى قالوا فهل يجوز القول بأن الله قادر على إبطال علمه علمه وتجهيل نفسه إذا كان قادراً على أن لا يفعل ما علم أنه يفعله وعلى أن يفعل ما علم أنه لا يفعله قالوا وليس علم الله أن فرعون لا يؤمن وأمره بأن يؤمن فهل أمره بتجهيل علم الله فيه واختلفوا في جواز وصف الله بالقدرة على المحال كإدخال العالم في جوزة

أو بيضة فقال الجمهور من أهل العلم لا يجوز ذلك لأنه يقتضي العلم مقدوراً كما يقتضي العلم معلوماً فكل ما هو غير مقدور عليه محال إجازة القدرة عليه وزعم بعضهم أنه قادر عليه واختلفوا في وصف الله تعالى بالقدرة على الظلم والجور فأحاله قوم لأن ذلك منموم لا يفعل إلا عن نقص أو حاجة ولو جاز ذلك لم يكن مأموماً أن يقع ولجاز وصفه بالقدرة على الجهل والعجز وكان أبو هذيل يقول هو قادر على ذلك ولكن لا يفعله لرحمته وحكمته وليس يفعل الظلم والكذب غير مقدور عليه فيكون محالاً واختلفوا في قدرة الله تعالى هل هي علم الله أم غيره وكذلك الحيرة فالقدم وسائر صفات الذات وزعمت طائفة أن علم الله ليس قدرته ولا غيرها لأنه لو كان العلم والقدرة لكان ما هلم فقد قدر عليه وهو يعلم نفسه ولا يصلح القول بأنه يقدر على نفسه ولو كان علمه غير قدرته لكن يجوز وجود أحدهما مع عدم الآخر ولو جاز هذا لجاز أن يكون البارئ في حال عالماً غير قادر أو قادراً وأما المعتزلة فليس من قولهم أن له علماً وقدرة حتى يلزمهم التفصيل بينهما واختلفوا في التعديل والتجويز من خلقه أفعال العباد وما هم يكتسبوه من المعاصي والمآثم وقضائه إياها عليهم وإرادته منهم وعقوبته لهم عليها بعد أن أوجدها منهم فقال قوم كل ذلك منه وفعله وهو عدل وحكمة لأن الخلق خلقه والأمر أمره لا يكون منه ظلم ولا جور ولو جاز حدوث بغير مراده أو مشيته وإيجاده لكان عاجزاً مغلوباً وقال آخرون لو كان كما يزعمون لما كان الخلق عاجزاً مغلوباً وقال آخرون لو كان كما يزعمون لما كان الخلق ملومين ولا معاقبين ولا من يفعل بهم هذا حكيماً ولا عالماً ولا رحيماً وهذا من باب الحير والقدر والاختلاف فيه قائم مذ وجد في العالم حيان ناطقان ولا يجوز غير ذلك لتكافئ الدلالة وأعدل الأمور أوساطها فقد قيل الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس لا يزداد على

طول النظر ألا حيرة ودهشاً ومن طاوعته نفسه بالإمساك عن الخوض فيه والاقتصار على ما في الكتاب رجوت أن يكون من الفائزين.

الفصل الرابع

تثبيت الرسالة وانجاب النبوة

أقول أن منكري الرسل صنفان أحدهما المعطلة الذين ينكرون إثبات البارئ سبحانه فلا وجه للكلام معهم إلا بعد إقرارهم بالتوحيد والثاني البراهمة أقروا بالصانع وأنكروا الرسالة واحتجوا بأن الرسول لا يأتي إلا بما في العقل كاف مما يجب لله تعالى على العباد من معرفته وتوحيده وشكره وعبادته واستعمال الحسن واستقباح القبيح وأن كان يأتي بخلافه فلا وجه لقبوله لأن الخطاب وقع على نوى العقول والقضية لها والتمييز ودعتاها فأجابهم المسلمون بأن الرسول أبداً لا يأتي إلا بما في العقل إيجابه أو تجويزه وحاشا لله ولرسوله أن يأتوا بخلاف ما في العقول ولكن من الأشياء مما يغمض ويلطف حتى يخطئه العقل أويخفى ويحتجب حتى يقصر دونه العقل كانتفاع الإنسان بما ينزع إليه نفسه ويشتاق إليه طبعه من ملاذ الأغذية والملاهي المقوية فإن حسن في العقل الأخذ منها بقدر الحاجة بل واجب وغير حسن إذا كان لا يملكها الإنتفاع بشيء منها إلا بعد الإذن من مالكها فصار فعل العقل في حال خلاف فعله في حال فدل أن العقل لا يستغني بنفسه ولم يضامه شيء من المع مع أن العقل محتاج إلى الرياضة والتمييز والسمع والتجارب لا غير موهوم لو أن أكمل الخلق عقلاً وأوفاهم فطنة غيب عن اناس وليداً حتى لم يسمع شيئاً إلى أن بلغ فأدرك أنه يمكنه استخراج علم الفلسفة والهندسة والطب والتنجيم وغير ذلك فدل هذا كله أن العقل غير مكتف به ولا بد من معلم ومعرف وهاد ومذكر ولا يجوز أن يقع العلم بهذه الأشياء إلهاماً ضرورياً لأنا ليس نشاهد ذلك في أجناسها وأمثالها وأن لا يكون كلها بالاستخراج والاستنباط من غير مقدمة وأصل سابق فإن قيل إذا كان البارئ مريداً لصلاح خلقه غير بخيل ولا عاجز ولا يمسه تكلف ولا علاج فيما يفعله فهلا جعل خلقه رسلاً وألهمهم من العلم ما استغنوا به على الرسل أو حبس طباعهم عن التخطي إلى محظور قيل لو فعل ذلك لم ينزلهم دار البلوى والامتحان ولا عرضهم لشرف الثواب وما هو إلا كقول من يزعم لم خلق الله الخلق وأسقط عنهم التكليف وابتدأهم في الجنة وهذا باب التجويز والتعديل وليس كتابنا هذا بنينا له ولكن لو فعل كان له ما فعل فإذا لم يفعل فنقول أساء أو جهل أو عجز وهذا الظن نقض التوحيد وإبطال الدين فيعاد الكلام فيه وتقرر بأنه عادل حكيم لا يفعل إلا الأصلح بخلقه والأعود عليهم ولو جعلهم كلهم رسلاً لوجب أن يسوى بينهم في الفضل والعقل والجاه والمال والقوة ولو فعل لما عرف فاضل فعله ولا قوى قوته ولما شكر وحمد في إسقاط موجبات الشكر والحمد وإباحة الفكر والذم وهذا قبيح في العقل فدل أنه لم يجز التسوية بين الخلق لا في الحال ولا في المال ولا في الرسالة فإن طعنوا في الرسالة بما يوجد فيها من سفك الدماء وذبح البهائم وإيلام الناس فإن العقل لا يرد شيئاً من ذلك إذا كان نفيه ضرب من الصلاح كما يكره الإنسان على شرب الأدوية الكريهة وعلى الفصد والحجامة وقطع بعض الجوارح عند انتظار مخوفة وتأديب الأطفال وغير ذلك فيوجب عليه أن لا يردع ظالماً ولا يفتص من جارحة وهذا قبيح وترخيص في الفساد ومن أعظم الدلائل على وجوب الرسل هذه اللغات المختلفة التي تلفظ الناس بها ويتعارفون بها ما يحتاجون إلى معرفته ولابد من معرف ومعلم لها أسماء المسميات باختلاف اللغات وكذلك الصناعات والآلات التي يتوصل بها إليها وليس في وسع الناس استخراج لغة ووضع لفظ يتفقون عليه إلا بكلام سابق به يتداعون ويتواضعون ما يريدون وليس في المعقول معرفة ذلك ولا بدّ من معلّم قال الله عزّ وجلّ" وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " ثمّ إذا صحّت النبوّة ووجبت الرسالة بقى أن يُعلم الفرق بين النّبي وبين المتنبّي لأنّ الأشخاص متساوية متماثلة ففرّق الله تعالى لما أراد من أقسامه حجّته وإظهار دعوته بين الصادق والكاذب منهم بما خصّه به من الآيات الباهرة والعلامات المعجزة الخارجة عن العادة والحسّ وذلك معروف معدود كما يُحكى عن موسى وعيسى ومحمّد عليهم السلم وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

القول في كيفيّة الوحي والرسالة، أقول أنّ المسلمين ومن فيهم اختلفوا في هذا الباب اختلافاً كثيراً فزعمت طائفة أنّ الوحي إلهام وتوفيق وزعم آخرون أنّه قوّة الروح القُدسيّ وعند الفلاسفة النبوّةُ علم وعمل والمسلمون يقولون الوحي على وجوه فمنه الإلهام ومنه الرويا ومنه تلقين ومنه تنزيل وهذه مسألة من فصل الصفات أغفلناها في موضعها فحرّرناها في هذا الفصل وهي كيفيّة القول والفعل من الله لأنّ أهل الإسلام في ذلك مختلفون فزعم بعضهم أنّ كلام الله فعل منه فهو به متكلّم وكذلك إرادته ومشيّته وحبّه وبُغضه وقوله " كُنْ فَيَكُونُ " تكوين منه للشيء والقول زيادة قالوا لأنّ هذه الأشياء أعراض تحلّ في مواضع لها معلومة وليس هو بمحلّ الأعراض وقال عامّتهم أن الفعل تكوين وإيجاد من غير معالجة بجارحةٍ إلاّ مَنْ شَذّ فزعم أنّه يخلق بيدَيْه والأفعال على وجوه كثيرة فمنه الفعل بالقصد والاختيار ومنه الفعال من غير قصد على السَهْو ومنه الفعل بالاتّفاق والبحث وكلّها حركات ومنه فعل التولّد كما ينفعل الشيء بطبعه وفعل الله تعالى غير مُشبّه بشيء ممّا ذكرنا وزعم قوم أنّ كلامه ليس من أفعاله وفرقوا بين القول والفعل ولقد امتدّ بنا القول إلى هذه وما كان قصدُنا أن نبلغ كلّه ولكن لما رجونا من الخير وأمّلناه من هُدَاتِهِ الناظر في كتابنا واهتدائه به ولّما نرى من فساد الزمان وأهله وتحرم طالع الإلحاد والنفاق وإعجاب كلّ ذي حرفين بنفسه لانتقاض العلماء ودروس آثارهم وما قدّمت من عمل هو أَوْكَدَ في نفسي أم لا وأوثق عُدّة من جميع هذا الكلام والاجتهاد في شرحه وأسأل الله الذي منّ وأعان أن يعصم من نزعات الشيطان وينفع به الناظرين والمستفيدين وإن يرحم من عذرنا في تقصير إن كان منّا وقام بتقويم أَوَدِهِ وإصلاح غلطة مشاركاً لنا في ثوابه وأجره فلم يتعمّد فيه خطاءً وتحريفاً ولا حملتنا الحميّة والتعصّب على تزيّد أَو إبطال أو تغيير رواية أو حكاية بل سُقناها على وجهها وأدّيناها بأوجز لفظها لعلمنا بعموم الحاجة إليه من الأعاجم والأمّيّين مبتدئ المتعلّمين.

الفصل الخامس

ذكر ابتداء الخلق

قال أنّ الموحّدين في معنى إيجاد الخلق مختلفون لأنّ الله خلق الخلق لا لاجتذاب منفعةٍ ولا لدفع مضرّة وكلّ فاعل من غير نفع ولا ضرّ فسفيهٌ غير حكيم قال المسلمون هذا إذا كان الفاعل يلحقه المنافع والمضارّ فأمّا إذا كان غنيًّا من احتراز منفعةً ممتنعاً من لحوق ضرر فغير سفيه ولا عابث وقد قامت الدلالة على أنّ البارئ كذلك حكيم غير سفيه ومحال وجود العَبَث من الحكيم فلا يخلو خلقه من الحكمة وإن خفي علينا وجهه لعلمنا بأنّ الحكيم لا يفعل ما هو غير حكمة واختلف آراء الناس في ما لاح لهم من الحكمة في خلقه وإن كان لا يجوز القطع على شيء منه لظنّه معظم علمه عنهم فقال قوم خلق الله الخلق لجوده ولرحمته إذ الجواد بإفاضة الجودُ على المجود عليه يظهر جوده والقادر بإظهار المقدور يظهر قدرته وقال قوم خلقهم لينفعهم وينفع بهم يعنون لتعبر المتكلّفون بالمخلوق غير المكلّف وقال قوم ليأمرهم وينهاهم وقال قوم خلقهم لاستدعاء الشكر والثناء وقيل لِعلم علمّهُ أَنّه يخلقهم وقال قوم لا

نقول شيئاً من ذلك خلقهم لما شاء ولا علم لنا بمشيّته هذا قول من أقرّ بحدوث العالم وأنّ له مُحدثاً سابقاً له فأمّا من أنكر ذلك فإنّه احتجّ للقِدَم والإهمال بأنّه لو كان للعالَم صانع أو مدبّر ناظر لما كان فيه تفاوت خلق ولا تعادي سباع ولا شمول بوار ولا وقوع فساد ولا اعتراض أسقام وأَوْجاع ولا هَرَم ولا موت ولا حزَن ولا فاقة وأنّه حكمة في إنشاء صورة حيوانيّة أو ناميّة ثم في إفنائها ولما استوى حال المعاند والمجيب ولما فضل العالِمَ الجاهلُ بالجاه والمال والمنزلة وهل لا أخبر الخلق أن كان له خالق على التناصف والتواصل ولِمَ خُلّي بينهم وبين التعادي والتظالم والتباغي والتهارج وهذا كلّه مضمحلّ متلاشٍ بشهادة آثار الخلق على تفاوته واختلافه في الظاهر من الاجتماع والافتراق والحركة والسكون والأعراض والمقارنة له بمعرفة كمال القدرة ووجوب العبرة في خلق الأضداد وللكاره وإعطاء الخلق والقوة والقدرة والاختيار ليستحقّوا بأعمالهم أشرف الثواب وليرتدعوا بالاعتبار عن الظلم والفساد ولو كانوا مجبورين كما يزعمون أو مجبولين على فعل واحد دون ضدّه لكانوا جماداً مواتاً ولو كانوا على طبع واحد لما عرفوا بحواسّهم ولا وجدوا بعقولهم إلاّ الشيء الواحد الذي يلائم طبعهم فلم يصلح حينئذٍ تكليف ولا وقع منهم تمييز وترك إلحادهم على هذه الصورة أنفع لهم وأبلغ في الحكمة ولا يفعل الله إلاّ الأصلح الأحكم وأمّا فضل الجاهل العالم بالمال والجاه فالعلم أفضل من المال لأنّه السعادة اللازمة والمال من السعادة المفارقة فلو أنصف هذا الزاعم في القضيّة لفضّل الجاهل بالمال على العالم لفضّل العالم على الجاهل بأضعاف علمه لتساوي حالَيْهما وقد سُئل جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه عن هذه القضيّة قال ليعلم العاقل أن ليس إليه من أمره شيء وأي لعمري هو من أدلّ دليل على مُدبّر قدير قاهر وهؤلاء المعطّلة أقلّ الناس عدداً وأوهنهم عُدّةً وأفيلهم رأياً وأوهاهم عزماً وأنقصهم حجّةً وأخسّهم دعوىً وأدناهم منزلةً وأغربهم ذهناً لا يظهر واحد في أمّة وجيل إلاّ في الدهر والحين لأنّه رأى مشرذل وعقيدة مهجورة وعزم مدحول لا يبدو من فَدْمٍ جاهلٍ أو معاندٍ وما أَراه انتشر في أمّة من الأمم وزَمَن من الأزمنة انتشاره في زماننا هذا وأمّتنا هذه لتستّر أهله بالإسلام وتحلّيهم تحلية شرائعهم ودخولهم في غمار أهله واحتال من احتال لهم بلطيف التمويه في تسليم الأصول الظاهرة والمصير به إلى التأويلات الباطنة فهم يرقّقون عن صَبُوح ويحتسون في إرتغاء وذلك الذي حقن دمائَهم وغمد سيف الحقّ عنهم نابغ في قديم الدهر وحديثه وأبدا صفحته إلاّ عوجل بالاستئصال واحتث منه الأوصال واستجر العدّة فيهم سنّة الله في الدين خلَو من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً زعموا أنّ هذه الدنيا قديمة لم تزل على ما هي عليه ولا تزال كذلك من صيفةٍ بعد شتوةٍ وشتوةٍ بعد صيفة وليل بعد نهار ونهار بعد ليل ونطفة من إنسان وإنسان من نطفة ووالد من ولد وولد من والد وبيض من طير وطير من بيض وكذلك جميع الأشياء الحسّاسة والنامية بعضها من بعض بلا صانع ولا مدبّر لا أوّل لها ولا آخر فإنّ هذه دعوى جائزة ومقالة باطلة ولو كان هذا المدَّعى لم يزل مع أزليّة العالم

بزعمه لما ساغت له دعواه إن لم يُقِمْ له دليل من غيره على أزليّته فكيف وليس هو ممّن هو لم يزل ولا هو ممّن لا يزال وإن اعتمد فيه خبر من كان قلبه وإن من أخبره لهو في حاله وحدوثه لم يشاهد من ذلك إلاّ ما شاهد من كان قبله مع معارضة الخصم له في الكون والحدوث لأنّ الدعاوى تصحّ بالحجج لا بالصفات وإن زعم أنّه قاس ما مضى منه بما هو مُستقبَل فيما بعدُ وأنّه غير مُنْقَضٍ فهذا القضاء أجود من الأوّل وأضعف مدّة بل هو نفس دعواه التي خولف فيها والمعارضة قائمة فإن زعم الحال والوقت الذي هو فيه فإنّ هذا رأيُ مَنْ قَصُر عِلمه وسَخُفَتْ معرفته وأوجب أن يكون هو بنفسه لم يزل على ما هو عليه في الحال والوقت لم يكن قط نطفة ولا علقة ولا مضغة ولا جنيناً ولا رضيعاً ولا يتغيّر فيما بعدُ فيكتهل ويشيب ويهرم وتجرى عليه الحوادث وتنتقل به الأحوال ومعاينة هذه يضطّره إلى الإقرار ويبيّن عنه وجه العناد وإن زعم أنّ حكمه في نفسه خلاف حكم العالم قيل ولِمَ زعمتَ ذلك

وهل أنت إلاّ جُزْءٌ من العالم بل قد شبّهت في جميع معانيه فسُمِّيتَ العالم الأصغر وكذلك كلّ ما يعاين من الأشخاص والأنواع العُلويّة والسُفلية من الحيوان والنبات ألا ترى أنّك لو عمدت إلى كلّ جزء من أجزاء العالم فاختصصتَه باسمٍ لحصل العالم لا شيء كما أنّك لو فرقت الجوارح والأعضاء لحصل الإنسان لا شيء فهذا يدُلّك أنّ الكلّ اجتماع الجزء لا غير فإن قال لا يقوم في الوهم ولا يتصوّر في النفس حدوث هذا العالم ولا فنائه وانقضاؤه عُورض بأنّه لا يقوم في الوهم ولا يتصوّر في النفس قدم العالم ولا بقاؤُه مع أنّ القضاء عليه بالحدث والانقضاء أقرب إلى الأوهام وأشدّ ارتباطاً لنفوس لقيام الدلائل الواضحة والبراهين الشافية فإن قال كيف يمكن اعتقاد حدوث هذا العالم لا من شيء ولا في زمان ولا مكان فإنّ هذا اشتطاطٌ في المطالبة وجَوْرٌ في القضيّة لأنّه تكليف تمثيل ما لا مثل له وإحساس شيء غير محسوس وليس نعلم كالدنيا دُنياً غيرها فنشبّه هذه بهذه وإنما نحكم بحدوثها لشهادة أَثَر الحدوث بها والعامّي الذي لا أرى له ولا نظر عنده يطلب الدلائل الظاهرة على الأشياء الخفيّة وذلك مُحال بمنزلة مَنْ يجب أن يرى ما لا يُرى وأن يَسمع ما لا يُسمع أو يسمع ما يُرى ويُرى ما هو مسموع ومن أنصف نفسه أنزل المعلومات منازلها واكتفى من الموهوم بالوهم ومن المحسوس بالحسّ ومن المدلول عليه بالدلالة وقد لعمري لا يتصوّر في الوهم إحداث هذه الجواهر والأعراض لا من غير سابق ثمّ لا يتصور وجود حدث لا من مُحدث فإذا تكافأت الصورتان لزم المصير إلى أشيعهما دلالةً وأدناها إلى الحقّ درجةً فإنّ الدلائل شاهدة بآثار الحدث والقدم موهوم وقضيّة الدلالة عليه من قضيّة الوهم والدليل على أنّ العالم حادث غير قديم كما يزعمون وأنّه لا أوّل له ولا حركة إلاّ وقبلها حادثة لو كان كذلك لما جاز وجود ما هو حاضر في الحال من حركة أو ليل أو نهار أو شخصٍ ما لأنّ ما لا نهاية له في وجوده وعدمه فمحال أن يوصف بأنه قد تناهى وانقضى حدوثه وفُرِغ منه ولأنّ ما لا أوّل له فغير جائز وجود ثانيه ولا وجود ثالثٍ ما لا ثاني له ولا وجود رابعٍ ما لا ثالثَ له على هذا القياس كما أنّ ما لا غاية له ولا نهاية في المستقبل محال أن يُوصَف بأنّه ينقضي أو ينقطع يوماً كذلك من زعم من الحوادث لم يزل يحدُثُ بلا أوّل فهذا الحادث في الحال والوقت المشاهد لا يخلو من وجود ثلثة إمّا أن يكون هو الأوّل أو بعد الأوّل ولا أوّل ولا بعد الأوّل فإن كان هو الأوّل وإن كان بعد الأوّل فقد ثبت الأوّل وإن كان لا أوّل ولا بعد الأوّل فهذا فسادة ظاهرة فكأنّه قال شيء لا شيء ولو جاز وجود ما لا أوّل له لجاز وجود العشرات من غير تقدّم الآحاد ووجود المئين من غير تقدّم العشرات ووجود الألوف من غير تقدّم المئين لأنّ بالأحد يتمّ الاثنان وبالاثنين يتم الثلاثة ألا ترى أنّ قائلاً لو قال لا تُنبت الأرض حتّى تمطر السماء ولا تمطر السماء حتّى تغيّم ولا تتغيّم حتّى يثور البُخار ولا يثور البخار حتى تهبّ الرياح ولا تهبّ الرياح حتّى يحرّكها الفلك ولا يحركها الفلك حتى تكون كذا ويمدّ في هذا الاشتراط شيئاً قبل أبداً إلى غير نهاية ولا غاية لم يجز وجود نبت ولا مطر ولا غيم ولا ريح لأنّه مُعلّق بشرط

ما قبله غير جائز وجوده لأنّه غير متناهٍ وكذلك من زعم أنّه لم يكن حركة إلاّ وقبلها حركة ولا إنسان إلاّ وقبله إنسان ولا نَبْت ألاّ وقبله نبت إلى ما لا غاية ولا نهاية فمحال وجود هذا الإنسان والنبت لأنّ وجوده كان معلّقاً بشرائط لا أوّلها وما لا غاية له لا يُوجد ولا يُعلم ولا يُوهم وكذلك لو قال قائل لا أدخلُ هذه الدار حتّى يدخلها زيد ولا يدخل زيد حتّى يدخل عمرو ولا يدخلها عمرو حتى يدخلها فلان ثم كذلك إلى غير غاية لم يجز دخول زيد ولا غيره أبداً وكذلك لو قال لا آكل تفّاحاً حتى آكل قبلها، ومن الدليل على حدث العالم أو أنّ له أوّلاً أنّا لو توهَمنا عند كلّ حركة مضَتْ من حركات الجسم حدوث حَدَثٍ أو ظهور شخص لكان ذلك أجساماً حاضرةً يحضرها العَدَدُ ويأتي عليها الحسابُ وكذلك لو توّهمنا هذا العالم حيّاً عالماً لجاز أن يُعدّ حركاته وسكناته فيكون ذلك عدداً قائماً معروفاً لمبلغ وما له مبلغ وأتى الحساب عليه فمتناه وكل متناه له وأول وإن لم يتناه ومن الدليل على

حدث العالم وأن له أولاً أن ما مضى من حركات الفلك لا يخلو من أن يكون مثل سكناتها متساوية أو أكثر منها أو أقل فإن كانت مثلها فالمثل كالنصف وما له نصف فمتناه والأكثر والأقل تدل الكثرة على تضاعف أجزاء الأكثر على الأقل فإذا ثبت تقدم إحدى الحركات على الأخرى وما له تقدم فمتناه وله أول وهذا من الحجج الواضحة التي يفهمها كل سامح وللموحدين في هذا الباب من دقائق النظر بما ألهمهم الله من توفيقه ما لا يظهر عليها إلا اللقن الفطن ولها موضعها من كتابه فإن قيل أليس الحوادث عندكم في المستقبل لا تزال إلى الآخر وإن كان لها أول يريدون قول أهل التوحيد ببقاء الآخرة على الأبد فما أنكرتم أن ما مضى من الحوادث لا أول لها وإن كان لها آخر قيل أنا لا نزعم أن ما له أول لا يجوز أن يكون له آخر وإن الحوادث غير متناهية ولكننا نقول أن الحوادث لا يزال يحدث منها حادث بعد حادث لا إلى غاية ولا يخرج كلها إلى الوجود حتى يرى موجوداً لم يبق منه شيء لم يوجد وليس أول الشيء بموقوف على صحة وقوع آخره كما أن آخره موقوف على صحة وقوع أوله لأنه يستحيل وقوع آخر لا أول له ولا يستحيل وقوع آخر بعد آخر أبداً كما يستحيل وقوع فعل لا من فاعل متقدم ثم لا يجب وجود الفاعل بعد فعله باقياً أبداً أو كما أن الأعداد مفتقرة أبداً إلى أول تنشؤ منه وتبتدئ ثم لم يجب وجود تناهيها لتناهي أولها ومن الفرق بين المستقبل والمستدير أنه يجوز وجود ما لا يزال يتحرك ولا يجوز وجود ما لم يزل يتحرك كما أنه يجوز وجود من لا يزال يعتذر من ذنب ولا يجوز وجود من لم يزل معتذراً لأن الاعتذارات لابد لها من أول وقد يجوز أن يكون لا آخر لها كذلك الأفعال لابد أن لها أولاً ولا يجب أن يكون لها آخر ومن ها هنا التزم بعض الموحدين بأن الحوادث لها آخر آخر العلة الحدث وإن زعم أن هذا العالم وما فيه من فعل الطبائع وما أوجبته ذواتها فالطبائع كركبة من البسائط والتركيب عرض وهو دلالة الحدث فالطبائع إذاً محدثة ثم هي جماد وموات كالحجر والشجر ثم هي مسخرة مقهورة بدلالة أن من شأنها التنافر والتضاد فلما رأيناها متواطئة متوافقة لعمنا أنه بقهر قاهر وضبط ضابط ثم هي غير عالمة ولا مميزة وإذا كان هذا هكذا استحال وجود هذه الصنعة المحكمة المتقنة العجيبة البديعة من مسخر غير عالم وليس ننكر فعل الطبائع وتأثيراتها في المطبوعات من الحر والبرد في الفصل والأرباع لأن الله تعالى وضعها على ذلك وركب فيها تلك القوة وسخرها لما أراد أن يصرفها عليه وجعلها سبباً لتلك المسببات ومتى شاء سلبها تلك القوة وأبطل فعلها كما جعل الطعام مشبعاً والماء مروياً وكثير من الناس يأتون القول لما أطلقناه تحرزاً لمذهبهم وأن يصح فعل من حي قادر فأما الاختيار والتدبير فغير جائز إلا من قادر حكيم وكذلك على من يزعم أن هذا العالم وما فيه من فعل الفلك النجوم وغيرها فإن قيل إذا لم تروا حياً قادراً فعل إنساناً وصورة وركب فيه العقل والقوة والسمع والبصر ثم قضيتم بأن في الغائب حياً قادراً يفعل ذلك ما أنكرتم أن يكون الطبائع تصور مثل هذا الإنسان وإن لم تروا مثل هذا في الشاهد قيل وما سوآ لأنا وإن لم نشاهد حساً قادراً فعل إنساناً فقد شاهدنا حياً قادراً فعل شيئاً وأبدعه فدلنا أنه

لا يجوز فعل في الغائب إلا من حي وليست الطبائع بحية ولا قادرة فإن قيل أليس النار تحرق والماء يرطب قيل فقد يقولون فلان يحرق ويبرد ويضيفون الفعل إلى المختار الحي والموات المضطر ولو كانت الطبائع بذاتها لما جاز عليها الاتفاق مع تضادها فإن قيل شيء تعلمونه خالياً من الطبائع أو غير متولد منها قيل الطباع نفسها متولدة منها. جوز فعل في الغائب إلا من حي وليست الطبائع بحية ولا قادرة فإن قيل أليس النار تحرق والماء يرطب قيل فقد يقولون فلان يحرق ويبرد ويضيفون الفعل إلى المختار الحي والموات المضطر ولو كانت الطبائع بذاتها لما جاز عليها الاتفاق مع تضادها فإن قيل شيء تعلمونه خالياً من الطبائع أو غير متولد منها قيل الطباع نفسها متولدة منها.

وأكثر القدماء على أن الأفلاك ليست من جنس الطبائع وهل يصح القول بأن الحركة والسكون والصوت والعجز والقدرة والعلم والجهل والحب والبغض والألم واللذة والكراهية والإرادة وغير ذلك من الأضداد والأشكال من الطبائع أو أنها ليست بشيء لخروجها من أنواع الطبائع وأما احتجاجهم بالاستحالة فذلك محال إلا بمحيل لأنه لو جاز أن يستحيل الشيء بنفسه لجاز أن يتلاشى بنفسه ولو جاز أن يتلاشى بنفسه لجاز أن يتركب ويخرج إلى الوجود من العدم وهو عدم فلما لم يجز هذا لم يجز ذاك وبالله التوفيق، ومن الدليل على حدث العالم أنه لا يخلو من أحد الأمرين إما أن قد كان وإما أن لم يكون فكان فإن كان قد كان فهذه الحوادث المقارنة له شاهدة بأنه ما كان فدل أنه لم يكون فكان ثم لم يهل هذا من أحد الأمرين إما أنه كان بنفسه وإما أنه كان بمكون غيره فإن كان بنفسه فمحال أن يكون العدم وجوداً لعجز الكائن عن تكوين مثله فكيف يقدر على تكوين ذاته وهي معدوم بقي الوجه الآخر وهو أنه كونه مكون ومن الدليل على حدث العالم أنه لا يخلو أن يكون قديماً أو حادثاً أو قديماً حادثاً أو لا قديماً ولا حادثاً فاستحال القول بأنه لا قديم ولا حادث لمشاهدتنا إياه فاستحال أن يكون قديماً حادثاً لاستحالة اجتماع الضدين بقي القول بالقديم والحدث والدعوى يتساوى فيه لأنه ليس قول من زعم أن العلم كان أولى من قول من زعم بأنه لم يكون ولا جواب من قال لِمَ لَمْ يكن بأسعد من قول مَنْ قال لِمَ كان فنظرناه فإذا دلائل الحدث يشهد بما لا يشهد دلائل القدم ومتى أراد الملحد أن يعارضك في قولك بالقديم فطالبه بصفات القديم فإن أعطاك فقد أقر بالمعنى الخلاف في التسمية وهذه مناظرة جرت بين الموحد والملحد من أوضح المسائل وأنفعها لا بد لكل مسلم من تحفظها، إن سأل سائل فقال ما الدليل على حدث العالم قيل الدليل على حدثه أنه جواهر وأعارض والجواهر لا تخلو من أن تكون مجتمعة أو متفرقة أو ساكنة أو متحركة إلا في حال واحدة ولن يجتمع المجتمع بالاجتماع ولا يفترق المفترق بالافتراق وكذلك المتحرك والساكن والاجتماع والافتراق والحركة محدثة وهو إذا كان كذلك ولم تخل الجواهر منها فهي محدثة لأن ما لم يسبق الحوادث ولم يتقدمها فحادث مثلها مثال ذلك أن فلاناً لو قال أن عمروا لم يوجد فيها زيد أمس فوجب أن عمروا إنما أوجد فيها أمس فإن قيل ليس قد وجدتم الباقي الذي ليس بمنتقض لا يخلو مما لا يبقى وينقضي ولا يوجد بعده متعرياً منه فما أنكرتم أن القديم الذي لم يزل لا يخلو من حادث ولا يوجد سابقاً له متعرياً منه قليل المعارضة فاسدة من قبل أنه ليس مما لا يبقى وينقضي عروضاً للحدث أو المحدث وإنما عروض ذلك لم يبق وانقضى وذلك أن قولك لا يبقى وينقضي الحالة على وقت يأتي به يستحق الحكم بأنه منقض غير باق فلم يكن منكراً لأن يقارن الباقي حتى لا يخلو منه إذا لم يسبق الوصف المضاد لوصفه وقولك قد حدث حكم قد وجب له في وقته لا ينتظر وجوبه في وقت فاستحال أن يقارن القديم حتى لا يكون القديم سابقاً له فإن قيل فأوجبوا أن يكون الباقي متغرباً ممن لم يبق وانقضى كما أوجبتم أن يكون القديم سابقاً للمحدثات موجوداً قبلها قيل ذلك يفعل وهو الواجب كما أنه سابق للحوادث فكذلك يجب أن يكون باقياً متأخراً عنها ومتى ما لم يكن كذلك يكن باقياً متأخراً عنها ومتى ما لم يكن كذلك لم يكن باقياً كما أنه لم يسبقها لم يكن قديماً فإن قال إذا زعمتم أن المقارن للحوادث حوادث فما ينكرون أن يكون المقارن للحوادث أمس حادثاً أمس قيل لأنا نقول أن الذي يقارن للحوادث حادث بالإطلاق ولكن نقول ما لم يسبقها فحادث مثلها والجسم فإن قارن الحوادث أمس كان موجوداً قبله فلذلك لم يجب أن يكون حادثاً معه وهذه يؤكد ما قلنا له كما وجب أن يكون ما لم يسبق الحادث أمس حادثاً أمس فكذلك يجب أن يكون ما لم يسبق الحوادث بإطلاق حادثاً بالإطلاق فإن قيل أليس لم نشاهد والأجسام مقارنة لحوادث إلا وقد كانت موجودة قبلها مقارنة لحوادث غيرها فهلا زعمتم أن ذلك سبيلها وأنها لم تزل كذلك قبل هذا غير واجب لأنا وإن كنا حكمنا بأن الأجسام التي شاهدناها كانت متقدمة

للحوادث المقارنة له المقارنة لغيرها فلم نحكم بذلك من طريق الوجوب ولا لأن الجسم إنما كان جسماً موجوداً لأنه لابد من أن يكون

متقدماً للحوادث المقارنة لها مقارناً لغيره لأن هذا حد الجسم وحقيقته بل إنما حكمنا بذلك لأنا لم نشاهد جسماً حدث في وقت مشاهدتنا له ولأنه صح عندنا بالخبر والدليل أن هذه الأجسام التي شاهدناها قد كانت موجودة قبل مشاهدتنا لها وصح أن الجسم لا يخلو من حادث ولو أنا شاهدنا جسماً في وقت لم نشاهده قبله ثم لم يقم لنا دليل على أنه كان موجوداً قبل تلك الحال ولا خبر صادق بذلك لما حكمنا بأنه قد كان موجوداً قبل الحوادث المقارنة له مقارناً لغيرها بل كنا نخبر ذلك ونخبر أن لا يكون سبق ما هو موجود معه منها، فإن قيل ولم جوزتم هذا وهلا قضيتم على كل جسم غاب أو حضر ورد فيه خبراً ولم يرد قام على تقدمه دليل أو لم يقم بمثل ما شاهدتم عليه هذه الأجسام وقضيتم بها عليها من تقدمها الحوادث الموجودة منها ومقارنتها لغيرها وإلا فكيف تزعمون أنكم تقضون بالشاهد على الغائب قيل ليس القضايا بالشاهد على الغائب على ما ظننتموه لأنه ليس يجب إذا شاهدنا جسماً على صفة من الصفات أن تقضي كل جسم غاب عنا كذلك إنما يجب إذا شاهدناه على صفة ما أن ينظر هل هو عليها من جهة الوجوب الذي هو حده وحقيقته أم لا فإن كان كذلك قضينا على كل جسم غاب عنا كذلك إنما يجب إذا شاهدناه على صفة ما أن ينظر هل هو عليها من جهة الوجوب الذي هو وحده وحقيقته أم لا فإن كان كذلك قضينا على كل جسم غاب عنا بحكمه وإلا فلا كما قلتم أن لا جسم في الشاهد إلا مركباً من الطبائع الأربع ولا مركبا من الطبائع إلا جسماً ثم قلتم إن الأفلاك من طبيعة خامسة ولم يشاهدوا ذلك فكذلك إذا لم نر إنساناً إلا أبيض لم يجب القضاء بأن كل إنسان أبيض أو لم نَرَ رُمّاناً إلاّ وقد كان عندنا متقدّماً له مقارناً لحادث غيره فلم يكن جسماً لأنّه كذلك ولا ذلك حدّه بل حدّه أن يكون طويلاً عريضاً عميقاً فلمّا لم يكن جسماً لأنّه يسبق الحوادث فيُوجد مع غيرها لم يجب أن يكون ذلك حال كلّ جسم في كلّ وقت وهذا أيضاً جواب قولهم إذا لم يَروْا أرْضنا إلاّ ومن ورائها أرض ولا بيضة إلاّ من دجاجة ولا دجاجة إلاّ من بيضة فكيف قضيتم بخلاف ما شاهدتم فيقال ليس حدّ البيضة أن تكون من الدجاجة ولا حدّ الدجاجة أن تكون من البيضة وإنّما الدلائل قامت على حدثها فإن قال ولِمَ زعمتم أن الجواهر لا تخلو من أن تكون مجتمعة أو متفرّقة قيل هذا من أوائل العلوم التي تُعرف بالبديهة ولا يعترض عليها بالشبه فإن قال ما الدليل على المجتمع اجتماعاً به كان مجتمعاً وللمفترق افتراقاً دونَ أن يكون مفترقاً ومجتمعاً بنفسه قيل لو كان مجتمعاً بنفسه لما جاز وجوده مفترقاً ما دام نفسه موجودة وكذلك المفترق فدلّ أنّ المجتمع مجتمع باجتماع وكذلك الافتراق، فإن قيل وما الدليل على الاجتماع والافتراق مُحدَثان قيل الدليل على ذلك أنّا نقصد الجسم المجتمع مفترقة فيُوجد فيه افتراق فلا يخلو ذلك الافتراق من أن كان موجوداً فيه قبل ذلك أو لم يكن فحدث فإن كان موجوداً فيه فقد كان مجتمعاً مفترقاً وهذا محال فثبت أنه حدث عند الافتراق وبطل أن يكون الاجتماع والافتراق كامنين في الجسم فإن قال ما أنكرتم أن يكون الاجتماعات والافتراقات لا نهاية لها وأنّه لا اجتماع إلاّ وقبله اجتماع ولا افتراق إلاّ وقبله افتراق قيل هذا فاسد لأنّه لو كان كذلك لما جاز أن يوجد واحدٌ منهما كما أنّ قاصداً لو قصد إلى جماعة فقال لا يدخلنّ هذا البيت أحدٌ منكم حتّى يدخله قبله آخر ما جاز أن يوجد واحدٌ منهم في ذلك البيت ولو وجد كان في ذلك انتقاض الشرط فإن قيل فما تنكرون أن يكون الاجتماع والافتراق خمسين قبل لو كانا كذلك لم يخلُ من أن يكونا مجتمعَيْن أو مفترقَيْن باجتماع وافتراق ها هما أو غيرهما فإن كانا مجتمعين باجتماع هو هما استحال وجود الافتراق فيهما ما دامت أعيانهما قائمةً وإن كانا مجتمعين باجتماع هو غيرهما احتاج ذلك الاجتماع إلى اجتماع إلى ما لا نهاية له ولا غاية وكلّ ما لا نهاية له ولا غاية فغير جائز وجود ما في الحال منه

وهذه مسألة جارية منذ قديم الزمان ولقد رأيتُ أهل النظر يقحّمون أمرها ويرفعون من شأنها ووجلتها في عدّة كتب بألفاظ مختلفة فلم أجدها أكمل وأتمّ من قول أبي القاسم الكعبي في كتاب أوائل الأدلّة فأنبتّ بها على وجهها وقد ثبت حدث العالم كما ترى فيجب أن يُنظر أَأَحدث

جملةً واحدةً وضربة واحدة أم شيئاً بعد شيء لأنّ ذلك كلّه مجوز في العقل فإن أوجد كما هو فابتداؤه ما أوجد منه وليس ذلك إلى العقل فيُعتمد ولكن سبيله السمع والخبر والناس مختلفون فيه القدماء ومَنْ بعدهم من أهل الكتاب والمسلمون وأنا ذاكر من ذلك ما رُوى ومُرجّح ما وافق الحقّ إن شاء الله عزّ وجلّ.واحدةً وضربة واحدة أم شيئاً بعد شيء لأنّ ذلك كلّه مجوز في العقل فإن أوجد كما هو فابتداؤه ما أوجد منه وليس ذلك إلى العقل فيُعتمد ولكن سبيله السمع والخبر والناس مختلفون فيه القدماء ومَنْ بعدهم من أهل الكتاب والمسلمون وأنا ذاكر من ذلك ما رُوى ومُرجّح ما وافق الحقّ إن شاء الله عزّ وجلّ.

القول في ابتداء الخلق قرأت في كتاب منسوب إلى رجل من القدماء يقال له افلوطرخس ذكر فيه اختلاف مقالات الفلاسفة ووسمه بكتاب ما يرضاه الفلاسفة من الآراء الطبيعيّة حُكى عن تاليس الملطي أنّه كان يرى مبدأ الموجودات الماء منه بدأ وإليه ينحلّ وإنّما دعاه إلى توهّم هذا الرأي أنّه وجد جميع الحيوان من الجواهر الرَطْب الذي هو المنى فأوجب أن يكون مبدأ جميع الأشياء من الرطوبة ومتى ما عدمت الرطوبة جفّت وبطلت وحُكى أن فيثاغورث من أهل شاميا وهو أوّل ما سمّى الفلسفة بهذا الاسم وتاليس أوّل من ابتدأ الفلسفة أنّه كان يرى المبادئ هي الأعداد المتعادلات وكان يسمّيها تأليفات وهندسيّات ويسمّى من جملة ذلك اسطقسات ويقول الواحدة والثانية لا حدّ لهما في المبادئ ويرى أنّ أحد هذه المبادئ هي العلّة الفاعلة الخاصّة وهي الله عزّ وجلّ والثاني العقل والثالث العنصر وهو الجوهر القابل للانفعال وعنه كان العالم المدرك بحسّ البصر وأنّ طبيعة العدد تنتهي إلى العشرة وإذا بلغها رجع إلى الواحد وأنّ العشرة بالقوّة في الأربعة وذلك إذا اجتَمعت الأعدادُ من الواحد إلى الأربعة استكملت عدد العشرة وقد ذكر ابن رزام هذا الفصل في كتاب النقض على الباطنيّة قال افلوطرخس وكذلك كان الفيثاغوريّون يقولون في الأربعة قسماً عظيماً ويأتون في ذلك بشهادة الشِعْر إذْ يقولون لا وحقّ الرباعية التي تدبر أنفسنا التي هي أصلٌ لكلّ طبيعة التي تسيل دائماً كذلك النفس التي فينا مركّبة من أربعة أشياء وهي العقل والعلم والرأي والحواسّ ومنها تكون كلّ صناعة وكل مِهْنَة وبها كنّا نحس أنفسنا فالعقل هو الواحدة وذلك أنّ العقل إنّما يجري وحده وإمّا الثانية التي ليست بمحمودة فالعلم وذلك أن كلّ برهان وكلّ إقناع فمنه وأمّا الثالثة فالرأي لأنّ الرأي لجماعة والرابعة الحواسّ وحُكى عن برافطليس أنّه كان يرى مبدأ كلّ شيء النار واليها انتهاؤها وإذا انطفأت النار يشكّل به العالم وأوّل ذلك أنّ الغليظ منه إذا تكاثف واجتمع بعضه إلى بعض صار أرضاً وإذا تحلّلت الأرض وتفرّقت أجزاؤها بالنار صارت ماء والنار يحلّ الأجسام ويثيرها وحُكى عن انغمامُس انه كان يرى الهواء أوّل الموجودات منه كان الكلّ وإليه ينحلّ الموجودات مثل النَفْس التي فينا وإنّ الهواء هو الذي يحفظ فينا الروح والهواء يُمسكان العالم كلّه والروح والهواء يقالان جميعاً لأنّ على معنى واحد قولاً متواطئاً وحُكى عن فيثاغورث أنّه كان يرى أنّ مبدأ الموجودات هو المتشابه الأجزاء وأن الكائنات يكون بالغذاء الذي نتغذى به ومن هذه الكائنات يكون معنى المتشابه الأجزاء وعنده أنّ الأشياء يدرك بالعقل لا بالحسّ وهي أجزاء الغذاء وإنّما سمّيت متشابه الأجزاء من أجل أنّ هذه الأعضاء المكوّنة من الغذاء متشابهة بعضها يشبه بعضاً فسميّت متشابهة الأجزاء وجعلها مبادئ الموجودات وصيّر المتشابه الأجزاء عنصراً وحُكى عن ارسلاوس أنّه يرى مبدأ العالم ما لا نهاية له وقد يعترض فيه التكاثف

والتخلخل فمنه ما يصير ماءً ومنه يصير ناراً وحُكى عن ايقورس أنّه كان يرى الموجودات أجساماً مدركة عقولاً لا خلاء فيها ولا كون سرمديّة غير فاسدة لا يحتمل التكسّر والتهشّم ولا يعترض في أجزائها خلاف ولا استحالة وهي مدركة بالعقل لا بالحواسّ وهي لا يتجزّأ وليس معنى قوله لا يتجزّأ أنّها في غاية الصغر لكن لا تقبل الانفعال والاستحالة وحُكى عن اثمادقليس أنّه لا يرى الاسطقسات الأربع التي هي الماء والنار والهواء والأرض وأنّ المبدأ مبدآن وهما المحبّة والغلبة واحدهما يفعل الإيجاد والآخر يفعل التفرقة وحُكى عن سُقراط بن سقرنقس وافلاطون بن آرسطو الإلاهيّ أنّهما يريان المبادئ ثلاثة الله والعنصر والصورة زعم المفسّرون أنّ معنى قولهم الله هو العقل العالم ومعنى العنصر هو الموضوع الأوّل للكون والفساد ومعنى الصورة جوهر لا جسم في التخييلات وحُكى عن ارسطاطاليس بن توماجس صاحب المنطق أنّه يرى المبادئ الصورة والعنصر والعدم والاسطقسات الأربع وجسم خامس هو الأمر غير المستحيل وحُكى عن دنوهرماوس أنّه يرى المبادئ هي الله تعالى وهي العلة الفاعلة والعنصر المنفعل والاسطقسات الأربع فهذا جملة ما حكاه افلوطرخس من أقاويل الفلاسفة في المبادئ وزعم أيوب الرهاوي في كتاب التفسير أنّ

المبادئ هي العناصر المفردة يعني الحرّ والبرد والبلّة واليُبْس فكُوِّنت النارُ من تركيب الحرّ مع اليُبْس وكُوِّن الهواء من تركيب البرد مع البلّة وكُوِّنت الأرض من تركيب البرد مع اليبس فصارت هذه العناصر المركّبة ثم كُوِّنَ من تركيب هذه العناصر المركّبة الحيوانُ والنباتُادئ هي العناصر المفردة يعني الحرّ والبرد والبلّة واليُبْس فكُوِّنت النارُ من تركيب الحرّ مع اليُبْس وكُوِّن الهواء من تركيب البرد مع البلّة وكُوِّنت الأرض من تركيب البرد مع اليبس فصارت هذه العناصر المركّبة ثم كُوِّنَ من تركيب هذه العناصر المركّبة الحيوانُ والنباتُ ذكر ما حكى أهل الإسلام عنهم، حكى زُرقان في كتاب المقالات أنّ ارسطاطاليس قال بهيولي قديم وقوة معه لم يزل وجوهر قابل للأعراض وأنّ الهيولي حرّك القوّة فحدث البرد ثم حرّكها فحدث الحرّ ثم قبلها الجوهر قال وشبّه إحداثَ الهيولي بالحركة بإحداث الإنسان الفعل بعد أن كان غير فاعل له والفعل عَرَض وهو غير الإنسان فكذلك الهيولي أحدث أعراضاً هي غيره ولا يقال كيف أحدثها كما لا يقال كيف حدثت هذه الحركة من الإنسان وحُكى عن جالينوس أنة قال بأربع طبائع لم ينفكّ العالم قال وقال سائر الفلاسفة بأربع طبائع وخامس معها خلافها لولا هو لما كان للطبائع ائتلاف على تضادّها قال وقال هرمس بمثل مقالة هؤلاء فاثبت العالم ساكناً ثم تحرّك والحركة معنىً وهو زوال وانتقال والسكون ليس بفعل قال وقال بلعم بن باعوراء العالم قديم وله مدّبر يدبّره وهو خلافه من جميع المعاني وأثبت الحركات فقال أنّ الحركة الأولى هي الثانية معاودة لأنّ من قوله أنّ الحركة مع أصل العالم والعالم قديم عنده قال وقال أصحاب الاضطراب بمثل مقالة بلعم إلاّ أنّهم زعموا أنّ العالم لم يزل متحرّكاً بحركات لا نهاية لها وأنكروا أن يكون الحركة لها أوّل وآخر لأنّها ليست بمحدثة قال وقال أصحاب الجنّة أن العالم لم يزل مصوّراً قديماً جُثّةً مُصْمتةً فانقلعت الجثّةً وكان الخلق كامناً فيها فظهر على نحو ما يظهر في النطفة والبيضة والنواة قال وقال أصحاب الجوهرة أن العالم جوهرة قديمة وأحديّة الذات وإنما اختلفت على قدر التقاء الجوهرة وحركاتها فإذا كانا جزءّيْن كانا حرّاً وإذا كان ثلاثة أجزاء صار برداً وإذا كانت أربعة صارت رطوبة وزعم أنّ حركة قبل حركة إلى ما لا نهاية وقد جمع الناشئ مذاهب هؤلاء كلّهم بلفظة واحدة فقال هم أربع طبقات فطبقة قالت بِقدَم الطينة وحَدَث الصبغة وطبقة قالت بحدث الطينة والصبغة وطبقة شكّت فلم تدرِ أقديمة هي أم حديثة لتكافئ الأدلّة عندها وقد قال جالينوس وما على أنْ لم أدرِ أقديمة هي أم حديثة وما حاجتي إلى ذلك في صناعة للطبّ

ذكر مقالات الثنويّة والحرّانيّة أصل اعتقاد هؤلاء في الجملة أنّ المبدأ شيئان اثنان نور وظلمة وأنّ النور كان في أعلى العُلْو وأنّ الظلمة كانت أسفل السُفْل نوراً خالصاً وظلمةً خالصةً غير مماسّين على مثال الظلّ والشمس فامتزجا فكان من امتزاجهما هذا العالم بما فيه هذا الذي يجمع أصل عقائدهم ثم اختلفوا بعد ذلك فزعم ابن ديصان أن النور خالق الخير والظلمة خالقة الشرّ بعد قوله بأنّ النور حيّ حسّاس والظلمة موات فكيف يصحّ الفعل من الموات ولما رأى من فنون ما لحق المانويّة والديصانيّة من التناقض والفساد أحدث مذهباً زعم أنّ الكونين النوري والظلامي قديمان ومعهما شيئ قديم ثالث لم يزل خلافهما وخارجاً عن خارجهما وهو الذي حمل الكونين على المشابكة والامتزاج ولولا ذلك المُعَدّلُ بينهما لما كان من جوهرهما إلاّ في التباين والتنافر وزعم كنّان أنّ أصل القديم ثلاثة أشياء الأرض والنار غير أنّ المدبّر لها اثنان خير وشرّ، وأمّا الحرّانيّة فمختلف عندهم في الحكاية زعم أحمد ابن الطيب في رسالة له يذكر فيه مذاهبهم أنّ القوم مجمعون على أنّ للعالم علّة لم يزل ويقولون المدبّرات سبع واثنا عشر ويقولون في الهيولي والعدم والصورة والزمان والمكان والحركة والقوّة بقول ارسطاطاليس في كتاب سمع الكيان وزعم زرقان أنّهم يقولون مثل قول المانيّة وقال بعضهم أنّ مذهب الحرّانيّة ناموس مذهب الفلاسفة وما لم يكن يجسر أحدٌ أنْ يُظهر خلافهم، وأمّا المجوس فأصناف كثيرة ولهم هوس عظيم وترّهات متجاوزة الحدّ والمقدار لا يكاد يوقف عليها فبعضهم يقول بقول الثنوية وبعضهم على مذهب الحرّانيّة والخُرّميّةُ جنسٌ منهم يتستّرون بالإسلام ويقولون مبدأ العالم نور وأنّه نسخ بعضه فاستحال ظلمةً وأمّا أهل الصين فعامّتهم الثنويّة إلى كثير ممّن يليهم من التُرك وفيهم المعطّلة الذين يقولون بقدم العيان وأنّ العالم لا صانع له ولا مدبّر والهنود أصناف كثيرة وتجمعهم البراهمة والسمنيّة والمعطّلة الأخرى يقولون بالتوحيد غير أنّهم يُبطلون الرسالة ومنهم المهادرزيّة يزعمون أنّ المبدأ ثلاثة أخوة أحدهم مهادرز فاحتال أخواه في المكر به فعثرت به دابّته فسقط ميتاً فسلخا جلده وبسطاه على وجه العالم فصار من جلدته هذه الأرض ومن عظامه الجبال ومن دمائه الأودية والأنهار ومن شَعْره الأشجار والنبات هذا ما بلغنا من مذاهب سكّان الأرض والقدماء في هذا الباب وقد أشرنا إلى فساد مذهبهم ومذهب مَنْ يقول بقدم العالم أو شيء مع الله تعالى بما فيه كفاية وغُنية وهذه الحكايات كلّها إن لم يكن شيء منها زُمراً أو ألغازاً أو تمثيلاً أو روايةً عن كتاب من كتب الله عزّ وجلّ أو رسول من رُسل الله أو بوفاق ما جاء منهم أو بشهادة العقول قاطبةً فمردودة غير مقبولة ومحمولة على تمويه واضعها وتزوير مبتدعها وليس في كثرة الترداد والتكرار كثير فائدة ومتى مرّنْتَ نفسك على تحفّظ مسألة إحداث العالم استغنيتَ عن كثرة الخوض في الفروع التي بنيت على أصل القدم لأنّه إذا وَهَى البناء وضعُف لم يَثْبُت فروعُه ولا قامت أركانه.

ذكر مقالات أهل الكتاب في هذا الباب، قرأت في كتاب موسوم بشرائع اليهود أن جماعة من علمائهم نهوا عن التفحص عن هذا الباب والشروع فيه وزعموا أنه لا ينبغي للإنسان أن يبحث عما يعجب منه ويخفى عليه وزعم بعضهم أن الشيء الذي خلقه الله تعالى في الابتداء سبعة عشر شيئاً خلقها الله بلا نطق ولا حركة ولا فكرة ولا زمان ولا مكان وهي المكان والزمان والريح والهواء والنار والماء والأرض والظلمة والنور والعرش والسموات وروح القدس والجنة وجهنم وصور جميع الخلائق والحكمة قال ومخلوقه ذو جهات ست وهو محصور بين هذه الجهات التي هي الأمام والخلف والعلو والسفل واليمين والشمال وزعم بعضهم أن أول ما خلق الله سبعة وعشرون شيئاً فذكر هذه السبعة عشر وأضاف إليها كلام موسى الذي سمعه وجميع ما رأته الأنبياء والمن والسلوى والغمام والعين التي ظهرت لبنى إسرائيل والشياطين واللباس الذي ألبس آدم وحواء وكلام والجبار الذي كلم به بلعام هكذا الحكاية عنهم والمسطور في أول سفر من التورية بالعبرانية برشت مارا ايلوهيم اث هشومائم واث هو اورس

وهو اورس هو ننو ثوهم وحوشخ على هي تهوم يقول أول شيء خلقه السماء والأرض وكانت الأرض جزيرة خاوية مظلمة على الغمر وريح الله يزف على وجه الأرض كذا فسره المفسرون فلا أدري كيف خالفته الحكاية عنهم ضمن التورية ولعل ما ذكروه في بعض أسفارهم لأن التورية مشتملة على عدة كتب من كتب الأنبياء والله أعلم وأما النصارى فدينهم في هذا دين اليهود لأنهم يقرءون التورية ويقرون بما فيها والصابئون محرون في مذهبهم فأكثر الناس على أن دينهم بين دين اليهود والنصارى فإن كان كذلك فقولهم قولهم وحكى زرقان أن الصابئين يقولون بالنور والظلمة على نحو ما يقوله المنائية والله أعلم.

ذكر قول أهل الإسلام في المبادئ وما جاء من الروايات فيها، حدثنا الحسن ابن هشام ببلد قال حدثني ابراهيم بن عبد الله العبسي حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي طبيان عن ابن عباس رضي الله عنه قال أول ما خلق الله من شيء القلم قال اكتب فقال أي ربي وما أكتب قال القدر فجرى القلم بما هو كائن من ذلك اليوم إلى يوم القيامة قال ثم خلق النون فدحا الأرض عليها فارتفع بخار الماء ففتق منه السموات فاضطربت النون فمارت الأرض فأثبتت بالجبال وإن الجبال تنفجر على الأرض إلى يوم القيامة وحدثنا عبد الرحمن بن أحمد المروزي بمرو حدثنا السراج محمد بن اسحق حدثنا قتيبة بن سعد حدثنا خالد بن عبد الله بن عطاء عن أبي الضحا عن ابن عباس رضي الله عنه قال أول شيء خلق الله تبارك وتعالى القلم فقال له اكتب ما يكون إلى يوم القيامة ثم خلق نون فكبس عليها الأرض يقول الله تعالى نون والقلم وما يسطرون وحدثني محمد بن سهل باسوار حدثنا أبو بكر بن زيان حدثنا دعه عيسى بن حماد عن الليث بن سعد عن بني هانئ عن أبي عبد الرحمن البجلي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كتب الله القادر كل شيء قبل أن خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وقد اختلفت الروايات عن ابن عباس رضي الله عنه أول ما خلق الله القلم وروى عنه سعيد بن حبير أول ما خلق الله العرش والكرسي وروى أول ما خلق الله النور والظلمة وروينا خلاق ذلك كله عن الحسن أنه قال أول ما خلق من شيء العقل وروى عنه أول ما خلق الله الأرواح وفي رواية أبي الوليد عن أبي عوانه عن أبي بشر عن مجاهد قال بدء الخلق العرش والماء والهواء وخلقت الأرض من الماء وحدثني حاتم بن السندي بتكريت حدثنا أحمد بن منصور الرمادي عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم كما وصف لكم وأما حديث حماد بن سلمة عن يعلى بن عطا عن وكيع بن حرس عن عمه أبي رزين العقيلي أنه قال قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن خلق السموات والأرض قال كان في عماد ما تحته هواء ولا فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء فإنه إن صح وصح تأويل من تأول العماء السحاب والغمام دل أن خلق الغمام المذكور في الخبر والقرآن كان قبل خلق السموات والأرض وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ووضعه على العرش فإن صحت الرواية دل أن خلق العرش كان قبل سائر الخلق وفي كتاب أبي حذيفة عن حبير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه أن الله لما أراد أن يخلق الماء خلق من النور ياقوتة خضراء ووصف في طولها وعرضها وسمكها ما الله به عليم قال فلحظها الجبار لحظة فصارت ماء يترقرق لا يثبت في ضحضاح ولا غير ضحضاح يرتعد من مخالفة الله ثم خلق الريح فوضع الماء على متن الريح ثم خلق العرش فوضعه على متن الماء فذلك قوله تعالى وكان عرشه على الماء وروى عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن ابن جبير قال سألت ابن عباس رضي الله عنه عن قوله تعالى وكان عرشه على الماء فعلام كان الماء قبل أن يخلق شيئاً قال على متن الريح فإن صحت الرواية عن الضحاك دل أن النون قبل خلق الماء وأما محمد بن اسحق فإن يقول في كتابه وهو أول كتاب عمل في بدء الخلق لقول الله تعالى وهو الذي

خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء فكان كما وصف نفسه تبارك وتعالى إذ ليس إلا الماء عليه العرش ذو الجلال والإكرام والعزة والسلطان فكان أول ما خلق النور والظلمة ميز بينهما فجعل الظلمة ليلاً أسودا مظلما وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً ثم سمك السموات السبع من دخان الماء حتى استقللن ثم دحا الأرض وأرساها بالجبال وقدر فيها الأقوات ثم استوى إلى السماء وه دخان، لا يختلف أحد من المسلمين ومن يدين الله بالكتاب والرسالة أن ما دون الله تعالى مخلوق محدث وإن لم يذكر خلقه وإحداثه وإنما مرادنا أن نعرف أول ما خلق الله منه إن كان ذلك ممكناً منه اختلف الرواة عن وهب بن منبه وغيره من مني أهل الكتاب فروى عن عبد الله بن سلام أنه قال خلق الله نوراً وخلق من ذلك النور ظلمةً وخلق من تلك الظلمة نوراً وخلق من ذلك النور ماءً يخلق من ذلك الماء الأشياء كلها وعن وهب بن منبه

قال وجدت فيما أنزل الله على موسى بن عمران عليه السلم أن الله لما أراد خلق الخلق خلق الروح ثم خلق من الروح الهواء ثم خلق من الهواء النور والظلمة ثم خلق من النور الماء ثم خلق النار والريح وكان عرشه على الماء وسمعت بعض الشيعة يزعمون أن أول ما خلق الله نور محمد وعلي ويرون فيه رواية والله اعلم بحقها وقد ذكرت حكماء العرب ومن كان يدين الله منهم بدين الأنبياء في أشعارها وخطبها كيف كان مبدأ الخلق فمنه قول عدي بن زيد العبادي وكان نصرانياً يقرأ الكتب: وجدت فيما أنزل الله على موسى بن عمران عليه السلم أن الله لما أراد خلق الخلق خلق الروح ثم خلق من الروح الهواء ثم خلق من الهواء النور والظلمة ثم خلق من النور الماء ثم خلق النار والريح وكان عرشه على الماء وسمعت بعض الشيعة يزعمون أن أول ما خلق الله نور محمد وعلي ويرون فيه رواية والله اعلم بحقها وقد ذكرت حكماء العرب ومن كان يدين الله منهم بدين الأنبياء في أشعارها وخطبها كيف كان مبدأ الخلق فمنه قول عدي بن زيد العبادي وكان نصرانياً يقرأ الكتب:

اسمع حديثاً لكي يوماً تجاوبه ... عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا
إن كيف أبدى إله الخلق نعمته ... فينا وعرفنا آياته الأولا
كانت رياحاً وماءا ذا عرانية ... وظلمة لم يدع فتقاً ولا خللا
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت ... وعزل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطاً قم قدرها ... تحت السماء سواءاً مثل ما فعلا
وجعل الشمس مصيراً لا خفاء به ... بين النهار وبين الليل قد فصلا
قضى لستة أيام خلائقه ... وكان آخر شيء صور الرجلا

وقد حكى الفرس عن علماء دينهم وموبذيهم أول ما خلق الله السموات والأرض ثم النبات ثم الإنسان.

ذكر تصويب أرجح المذاهب، أقول أن رأى من رأى تقديم أحد الأركان على غيره هو محتل واه لأنهم يختلقون في الاستحالة والفساد وكيف يصح على رأي تاليس الماء وهو عنده مستحيل من الأرض وعلى رأي يراقليطس النار وهي مستحيلة عنده من الهواء وكذلك سائر الأركان أم كيف يجوز عندهم تولد حيوان أو تكب نبات من غير اجتماع هذه الأخلاط الأربع فيها لأن ما تفرد بطبع واحد لا يوجد منه غير حركته الطبيعية أو من زعم بابتداء البسائد ثم العناصر المركبة فإنه يفحش قوله لأن البسائط أعراض لا تقوم بذواتها ولا بد لها من حامل فكيف يصح وجودها بلا حامل وكذلك من زعم النور والظلمة لأنهما عرضان لا جسمان والأصح على مذهب هؤلاء ما رأى اثمادقليس من تقدم الاسطقسات الأربع وفساد هذا ظاهر عند المسلمين بأن الاسطقسات لا تخلو أن تكون أعراضاً

فإن كانت أعراضاً فالعرض لا يقوم بنفسه أو يكون أجساماً وحد الجسم ما ذكرناه وإثر الحدث مقارن له أو يكون لا أجساماً ولا أعراضاً فهذا غير معقول عند المسلمين إلا البارئ جل جلاله فإنه خلاف خلقه من جميع الوجوه وإذا لم تكن أجساماً ولا أعراضاً عندهم فلابد أن يكون هو الهيولى الموهوم في مذهبه وهذا شيء لو كان موهوماً لما جاز وقوع الاختلاف فيه إلا من معاند كما لا يجوز وقوع الاختلاف في المعقول إلا من معاند مع أن الوهم لا يحصر ما لا حد ولا صفة من لون أو مقدار أو شيء من الأعراض المحسوسة وجملة هذا القول في هذا الباب مراعاة إثر الحدث فيما سوى البارئ جل جلاله فإذا ثبت ذلك علم أن ما كان محدثاً فلا بد له من ابتداء وإذا كان لا يقول بحدث العالم إلا الموحدون لم يوجد ابتداء ذلك إلا من جهتهم وهم يختلفون في الرواية عن علمائهم في الظاهر ومتفقون في المعنى إذا انعموا النظر فأما أهل الكتاب وما حكى عنهم فمحتمل غير أنه لا يجوز القطع به ما لم يصدقه كتابنا أو خبر نبينا صلى الله عليه وسلم لما وقع فيهم من التحريف والتبديل ولأنه خلاف ما ذكر في أول التورية في ابتداء الخلق فالذي يوجبه العقل أن يكون مكان كل متمكن سابق له وإن لا يحل حركة إلا في جسم ولا يوجد إلا في زمان وإن لا يصح فعل اختيار وتدبير إلا من حي عالم وإن لا يحدث شيء إلا من شيء وإن الأركان الأربع سابقة للأجسام فمن قال بقدم هذه ومذهبه ومن قال بحدثها فما حاجته إلى تقديم ما قدم منها وقد أقر بأن الله أحدث الزمان من غير زمان والمكان في غير مكان والأركان من غير اللهم إلا أن يعمد فيه شيئاً من كتب الله فليس يجد في كتاب أول ما خلق ما هو فيقضي على ما خالفه بالرد والإنكار ولا بد لكل حادث من غاية ينتهي إليها كقولنا الساعة من اليوم واليوم من الأسبوع والأسبوع من الشر والشهر من السنة والسنة من الزمان والزمان من الدهر فقد انتهى إلى الزمان والزمان غايته وكما نقول فلان من فلان وفلان من فلان كما ترفع مثلاً نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أدم ثم يقال وآدم من تراب فالتراب آخره وكذلك سائر الأشياء الحادثة لابد لها من غاية هذا ما يعاينه ويشاهده فلذلك وضعنا ما روينا عن أهل الكتاب على وجه الاحتمال فقد ذهب بعض أهل الإسلام إلى أن أول ما أحدث الزمن العلوي وهو وقت يظهر فيه الفعل ليس السفلي الذي هو من حركات الفلك ثم المكان الذي هو غير متجزئ ولا متماسك وهو فضاء وبسيط ذاهب خلاء محيط بالعالم قال وليس الهواء من الفضاء في شيء لأن الهواء جسم متجزئ ومنتشر وليس الخلاء بمتجزئ ولا محسوس ومعنى قوله لتجزئ أن الخلاء لا يدخل العالم منه شيء إلا يتحلله بتةً والهواء ما بين السماء والأرض ولا يخلو منه شيء والخلاء ما فيه السماء والأرض والهواء وثم الأجسام بأعراضها كذا رأيت في بعض كتبهم والله أعلم فإذا سأل سائل عن ابتداء الخلق فجوابه أن ما دون الله مخلوق نعم سؤالك عن العالم العلوي أم العالم السفلي أم عن الآخرة الموعودة أم عن الدنيا الفانية لأن كل شيء من هذه الأشياء ابتداء منه ابتداء ونشو فإن قيل هل غير الدنيا والآخرة شيء قيل العرش والكرسي والملائكة واللوح والقلم وسدرة المنتهى مخلوقة كلها ولا تعد من الدنيا ولا من الآخرة وكذلك الجنة والنار والصراط والميزان والصور والأعراف والرحمة والعذاب مخلوقة عند كثير من الأمة ثم من بعدهم من أهل الكتاب ولا يعد من الدنيا ولا من الآخرة فإن قيل فقد قال

الله تعالى فلله الآخرة والأولى ولم يذكر شيئاً غيرهما قيل ولم يذكر الأشياء غيرهما مع أكثر أهل التفسير يقولون معناه لله الحكم في الآخرة والأولى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا إلا الجنة والنار لأنه لا شيء غيرهما وإنما يصح هذا إذا عرفت الدنيا والآخرة ما هما على أنه لا عتب على من عد ما ذكرناه من أمر الآخرة ولا مضايقة فيه بعد أن اعتقدها كما جاءت به كتب الله وينبغي أن يعلم أن كلما دون الدنيا روحاني حيواني خلق للبقاء والخلود على الأبد لا يجوز عليه الانحلال والدثور بقول الله تعالى " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان

لو كان يعلمون " .لله تعالى فلله الآخرة والأولى ولم يذكر شيئاً غيرهما قيل ولم يذكر الأشياء غيرهما مع أكثر أهل التفسير يقولون معناه لله الحكم في الآخرة والأولى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا إلا الجنة والنار لأنه لا شيء غيرهما وإنما يصح هذا إذا عرفت الدنيا والآخرة ما هما على أنه لا عتب على من عد ما ذكرناه من أمر الآخرة ولا مضايقة فيه بعد أن اعتقدها كما جاءت به كتب الله وينبغي أن يعلم أن كلما دون الدنيا روحاني حيواني خلق للبقاء والخلود على الأبد لا يجوز عليه الانحلال والدثور بقول الله تعالى " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كان يعلمون " .

ذكر أول ما خلق في العالم العلوي من الحيوانات يدل على أن أول ما أوجدوه الله تعالى القلم واللوح على رواية أبي ظبيان عن ابن عباس ثم العرش والكرسي على رواية مجاهد وقد قال قائل أن أول ما خلق الروح والعقل على رواية الحسن لأن في رواية ابن عباس أنه قال للقلم اكتب فقال أي رب وما اكتب والأمر في الحقيقة والجواب لا يصح إلا من حي عاقل قال ثم الحجب ومنها الغمام والنور والملائكة ثم الرحمة والعذاب يعني الجنة والنار والصراط والميزان وغير ذلك مما ذكر وأول ما خلق في العالم السفلي من الحيوانات الماء والهواء كما قال مجاهد وخلقت الأرض من الماء فهذه أركان العالم ثم النور والظلمة ومن الناس من يفرق بين النور العلوي والنور السفلي بأن هذا جسم لطيف وذلك روح خالص مع اختلافهم في الروح أجسم هو أم غير جسم وسيمر بك في بابه مشروحاً مفسراً إن شاء الله عز وجل فإذا سأل سائل مم خلق الخلق قيل أن الخلق أجزاء مختلفة فعن أي جزء من أجزاء الخلق سؤالك ولن يجاب حتى يشير إلى ما أردنا فإن سأل عن الأرض قيل من زبد الماء كما جاء في الحديث وإن سأل عن الكواكب قيل من ضوء النهار وإن سأل عن الأركان المركبة قيل من البسائط المفردات وإن سأل عن البسائط قيل يمكن أن يكون خلقت مما خلق قبلها ويمكن أن يكون خلقت لا من شيء لأنا نرى الله يخلق الشيء من الشيء ويخلق من لا شيء وقد دللنا على أن لا شيء غير الله تعالى إلا مخلوق وأن الله ابتدعه بدئاً لا من شيء كما شاء ما لا حاجة إلى إعادة القول فيه بقول الله تعالى " بديع السموات والأرض " وقال الله " خلق كل دابة من ماء " وقال الله " خلقكم من نفس واحدة " وقال " خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار " مع سائر ما وصفت أنه خلقه من خلق خلقه قبله وكذلك يفعل الشيء بسبب ويفعله بلا سبب موجب قال الله تعالى " وانزل من المساء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم " فأخبر عز وجل أنه جعل سبب إخراج الثمر والنبات إنزال الماء وكذلك جعل سبب كون الإنسان النطفة وسائر ما يوجده ويحدثه وقد أوجد أمهات هذه الأسباب بغير سبب موجب لها بل بقدرته وحكمته وإن سأل سائل فيم خلق قيل فيم سؤال عن المكان ولا مكان ألا وهو مفتقر إلى مكان وقد سبقت الدلالة على فساد الحلل بما ليست له نهاية فلو قال القائل أن العالم لا في مكان لكان قولاً لأنه ليس بأعجب من إقراره بإيجاد الأعيان لا من ير سابقة وقد قيل أنه في خلاء وهو مكان له وزعم آخرون أن العالم بعضه مكان لبعض وفي كتاب وهب بن منبه أن السموات والجنة والنار والدنيا والآخرة والريح والنار كلها في جوف الكرسي فإن صحت الرواية كان الكرسي مكاناً لهذه الأشياء والله اعلم وأحكم.

وإن سأل كيف خلق قيل كيف سؤال يقتضي التشبيه في الجواب وليس نعلم العالم مثلاً غيره فنشبهه به ولكنا مشاهدين له عند أحداثه ولا فعل الله تعالى بحركة ولا معالجة والكيفية منتفية عن فعله كما هي منتفية عنه سبحانه فإن أردت كيف أوجده من عدم فكيف تراه أجساماً وجواهر حاملة للأعراض قال له كن فكان كما أخبرنا عنه وإن أردت شكلاً وهيئة لفعله فهذه من حالات الأعراض التي تتعاقب على المخلوقين فإن سأل سائل متى خلق قيل متى سؤال عن المدة والوقت من الزمان والمدة عندنا من حركات الفلك ومدى ما بين الأفعال وقد قامت الدلالة

على حدث الفلك ولا يطلق المسلمون القول بأن الله تعالى لم يزل يفعل لأن ذلك يوجب أزلية الخلق ويؤدي إلى قول من يرى المعلول مع العلة حتى يكون بين فعل سابق له إلى أن فعل العالم مدة وقد زعم بعض الناس أنه أحدث زماناً أوجد فيه العالم كمن قال أنه أحدث مكاناً فيه العالم فقال قوم الزمان ليس بشيء وإن سأل سائل لم خلق قيل لم سؤال عن العلة الموجبة للفعل وفاعل ذلك مضطر غير مختار والمضطر مقهور مغلوب ولا يجوز ذلك في صفة القديم فإن أردت بالعلة الغرض المقصور في الخلق فهو ما ذكرناه في أول هذا الفصل أنه خلق الخلق لرأفته ورحمته وجوده وقدرته لينفعهم وليأكلوا من رزقه وليتقلبوا في نعمته ويستحقوا شرف الثواب بطاعته.

الفصل السادس

في ذكر اللوح والقلم والعرش والكراسي

والملائكة والصور والصراط والميزان والحوض والأعراف والثواب والعقاب

والحجب وسدرة المنتهى وسائر ما يرويه الموحدون مما يعد من أمور الآخرة واختلاف من اختلف فيها.

ذكر اللوح والقلم قال الله تعالى في محكم كتابه " ن والقلم وما يسطرون " وقال " في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون " وقال " وكل شيء أحصيناه في أمام مبين " وقال " ما فرطنا في الكتاب من شيء " وقال " في لوح محفوظ " قال أكثر المفسرين أنه لوح وقلم خلقهما الله كما شاء وألهم القلم أن يجري بما أراد وجعل اللوح واسطة بينه وبين ملائكته كما جعل الملائكة واسطة بينه وبين رسله ورسله واسطة بينه وبين خلقه وهذا لا يختلف فيه موحد ولا يسوغ الاختلاف فيه لظاهر النص من الكتاب والسنة فإن خطر خاطر بأنه أية فائدة في اللوح والقلم فليقل له لأن أسرار حكمة الله عز وجل عن العباد محجوبة إلا ما أطلعهم عليه وما طوى عنهم فليس إلا التصديق به والاستسلام له لقول الله عز وجل يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وأعلم أن الكلام في الفصل مع من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لأن هذا سبيله سبيل الخبر والسمع والمسلون وأهل الكتاب قاطبة قد تلقوه بالقبول وقد قال قائل أن الله تبارك وتعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هو كائن وما هو مكونه فأجرى القلم به في اللوح وروى فيه أخبار مسطرة في كتب أهل الحديث رضينا بما صح منها واستسلمنا له وجاء في ذلك القلم أن طوله ما بين السماء والأرض وأنه خلق من نور وفي صفة اللوح أنه لوح محفوظ طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب معقود بالعرش يصك ما بين عيني إسرافيل وهو أقرب الملائكة إلى العرش فإذا أراد الله تبارك وتعالى أن يحدث في خلقه شيئاً قرع اللوح جبهة إسرافيل فأطلع فيه فإذا فيه ما أراد الله تعالى بقول الله يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب فيأمر به جبرئيل أو من يليه من الملائكة وأكثر أهل الدين على أن البارئ لا يسمه كما أنه لا يلمس وإنما يسمع كلامه كما يلمس خلقه هذا قول أهل الإسلام وقد ذهب قوم من المتسترين بالدين إلى تأويلات مكروهات مردودات فزعم بعضهم أن معنى القلم العقل لأنه دون البارئ جل وعز في الرتبة وجرى بنفسه لأن العقل يدرك الأشياء بغير واسطة قال ومعنى اللوح المحفوظ النفس لأنه دون العقل في الرتبة يدبرها العقل كما جرى القلم في اللوح المحفوظ وزعم أن القلم واللوح غير محدثين ولا مخلوقين وقد دللنا على حدث العقل والنفس في الفصل الثاني بما يجري عليهما من الزيادة والنقصان والسهو والضعف والثقلة والتجزئ بتفرق الهياكل والأجسام وحاجة العقل إلى التجربة والامتحان وحاجة النفس إلى الغذاء والقوام ما فيه كفاية وبلاغ وذلك أن القديم البارئ لا يجوز عليه شيء من هذه العوارض وزعم آخرون أن اللوح هو العالم السفلي والقلم

العالم العلوي يؤثر في السفلي وبعضهم يزعم أن القلم هو الروح واللوح الجسد وأهون الأمور إنكار اللوح والقلم وسائر ما وصف من أمر الآخرة والدخول في الإلحاد المحض حتى يقع الكلام معهم من حيث ينبغي أن يقع لأن هذه الأشياء من شرائع الأنبياء عليهم السلام فكما لم يوجبها العقل فكذلك لا يرد تأويلها إلى العقل بل تسلم كما جاءت، وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور وكلامه بر ينظر الله فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة يحيي بكل نظرة ويميت بكل نظرة ويرفع ويضع ويعز ويذل ويخلق ما يشاء ويحكم ما يريد والله أعلم واحكم وقد دللنا لك أن كل ما كان من أمر الآخرة فروحاني حيواني وإن شارك جسمانياً في الأسامي فمن ذلك قوله درة بيضاء وياقوتة حمراء.

ذكر العرش والكرسي وحملة العرش قال الله تبارك وتعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش وقال ويحمل عرش ربك فوقهم يوميذ ثمانية فذكر العرش في غير موضع من كتابه وقال وسع كرسيه السموات والأرض فلم يجز وقوع الاختلاف فيه بين المسلمين لظاهر شهادة الكتاب وإنما اختلفوا في التأويل فقال بعضهم أن العرش شبه السرير واستدلوا على قولهم بقوله أيكم يأتيني بعرشها وبقوله ورفع أبويه على العرش وكثير من أهل التشبيه يذهب إلى إنه كالسرير له وهو مذهب أهل الكتاب ومن كان من العرب بدينهم يدل عليه قول أميه بن أبي الصلت:

شد القطوع على المطايا ربنا ... كل بنعماء الإله مقيد

فاصحن وافترش الرحائل شرجع ... نفخ على اثباجهن مؤكد

بفصوص ياقوت وكظ بعرشه ... هول ونار دونه تتوقد

فعلا طوالات القوائم فاستوى ... فوق الجلود ومن أراد مخلد

وقال أيضاً

مجدوا الله وهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا

ذلك المنشئ الحجارة والمو ... تى وأحياهم وكان جديرا

بالبناء الأعلى الذي سبق النا ... س وسوى فوق السماء سريرا

شرجعاً لا يناله بصر النا ... س ترى دونه الملائك صورا

وقال لبيد

لله نافلة الأجل الأفضل ... وله العلى ولبيت كل مؤثل

سوى فأغلق دون غرفة عرشه ... سبعاً طباقاً دون فرع المعقل

وقال كثير من المسلمين أن العرش شيء خلقه الله لمنتهى علم عباده وتعبد الملائكة بتعظيمه والطواف حوله ومسئلته الحوائج عنده كما تعبد الناس بتعظيم الكعبة واستنجاح الحوائج لديها والصلوة له إليها لا أن يكون ذلك مكاناً له أو حاملاً جل وتبارك البارئ أن يكون محمولاً أو محدوداً أو محاطاً وبعضهم يقول العرش الملك ويتأول قوله الرحمن على العرش استوى قال استولى على الملك واحتج بقول الشاعر:

إذا ما بنو مروان ثلت عروشهم ... وأودت كما أودت إياد وحمير

وأما الكرسي فخلق مثل العرش وقد روينا عن الحسن أنه قال الكرسي هو العرش وجاء في بعض الروايات أن الكرسي بين يدي العرش كدرة بأرض فلاة والسموات السبع والأرضون السبع وما فيها بجنب الكرسي كحلقة من حلق الدرع في أرض فيحاء ومن المسلمين خلق كثير يذهبون إلى أن الكرسي هو العلم واستدلوا بقوله تعالى " وسع كرسيه السموات والأرض " قالوا معناه أحاط علمه بها وبما فيها والكراسي العلماء وانشدوا بيتاً:

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة ... كراسي بالإحداث حين تنوب

وقد روى أصحاب الحديث أن الكرسي موضع القدمين والله أعلم بصدقه وتأويله إن صح لأن مذهبنا تسليم ما قصر عنه علمنا، وأما حملة العرش الملائكة خلقوا لذلك فيوصف من أقدارها وأجسامها ما الله به عليم قالوا وهم اليوم أربعة وجه أحدهم على صورة وجه النسر والثاني كوجه الأسد والثالث كوجه الثور والرابع كوجه الرجل فإذا كان يوم القيمة ضمت إليهم أربعة أخرى بقول الله سبحانه ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية وفي رواية أبي اسحق أن رسول اله صلى الله عليه وسلم أنشد قول أمية بن أبي:

حبس السرافيل الصوافي تحته ... لا واهن منهم ولا مستوغد

رجل وثور تحت رجل يمينه ... والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال عليه السلم صدق هكذا الرواية والله أعلم بصدقها وقد يستدرج أهل الزيغ الأغمار من الأحداث بالأول والثاني والثالث والرابع يعنون بالأول القلم وهو عندهم العقل وبالثاني اللوح وهو عندهم النفس وبالثالث العرش وهو عندهم الفلك المستقيم والضابط للأفلاك وبالرابع الكرسي وهو فلك البروج عند بعضهم لأن المنجمين مختلفون في هذا التقسيم والملائكة الذين هم حملة العرش الأركان الأربعة وهذه الأشياء عندهم لم يزل ولا يزال فكيف يصح الخبر عنها بالأول والثاني والثالث لأن كلها أوائل عندهم كما يزعمون وما الفرق بينهم وبين من بعضهم من المشبهة بأن العرش ممهد والكرسي مستقر القدمين مع وفاق ظاهر اللفظ لتأويلهم لبعده عن تأويل الزائغين لأنا لم نجد شيئاً فيكتب المنجمين وأهل الطبائع بأنهم سموا العقل قلماً والنفس لوحاً والفلك عرشاً يعرفونها بأسمائها المشهورة عند سامعيها ونعوذ بالله من الخزلان والحرمان وسوء الاختيار والعجز عن إتباع الحق.

في ذكر الملائكة وما قيل في صفاتها، روى المسلمون أن الملائكة خلقت من نور وذكر ابن سحق أن أهل الكتاب يزعمون أن الله خلق الملائكة من نار والنار والنور واحد في معنى اللطافة والضوء ويمكن التوفيق بين الخبرين بأن ملائكة الرحمة خلقوا من نور وملائكة العذاب خلقوا من نار ولا نعلم أحداً ممن يدين الله بدين إلا وهو مقر بالملائكة وإن كانوا مختلفين في قدمها وحدوثها وهيئاتها فمنه قول أمية بن أبي الصلت:

ينتابه المتصفون بسجرة ... في ألف ألف من ملائك يحشد

رسل يجوبون السماء بأمره ... لا ينظرون ثواء من يتقصد

فهم كأوب الريح بينا أدبرت ... رجعت بوادي وجهها لا تكرد

حد مناكبهم على أكتافهم ... زف يزف بهم إذا ما استنجدوا

وإذا تلاميذ الإله تعانوا ... غلبوا ونشطهم جناح معتد

نهضوا بأجنحة فلم يتواكلوا ... لا مبطئ منهم ولا مستوغد

واختلف المسلمون في عدم البصر والحواس لهم فمن قائل أن البصر يفقدهم للطاقة أجسامهم وأجزائهم لا لون لها البصر لا يدرك إلاّ ذا لونٍ وكذلك قالوا أليس نحسّ بها وهي معنا حَفَظة علينا والهواء أغلظ وأكثف من الملائكة فإذا كنّا لا نُحِسّ به حادثاً من حركة واضطراب فكيف بالروحانيّين الذين هم ألطف وألطف وقالوا فيما ناقضهم المخالفون به من صفة الله إيّاهم في كتابه بالغلظة والشدّة فقال ملائكة غلاظ شداد وما جاء من عظيم صفاتهم وعُظم أجسامهم وإن الملك كان يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى آله في صورة الرجل وكذلك سائر الأنبياء أنه غير منكر أن يُحدث الله تعالى في الملك شيئاً ومعنىً يُرى ويُشاهَدُ إذا أراد ذلك كما يحدث في الجوّ فيتركّب وينعقد غمامٌ من أجزاء الهباء لا يدركها البصر ثم ينحلّ وينفرّق حتى لا يُرى كما كان أوّلاً وكذلك حال الجنّة

والشياطين وسائر الروحانيّين من الخلق وأيضاً فإنّ الملك سُمّى هذا الاسم لدُؤُوبه في الطاعة وانقياده لِما يُراد منه تخصيصاً وتفضيلاً فغير بعيد أن يكون الملائكة أصنافاً روحانيًّا وجسمانيًّا ونامياً وجامداً وقد جاء في بعض الأخبار أنّ الرعد مَلَك والنار ملك والملائكة يسجدون جنودُ الله ورُسُلُه وسفراؤه وأولياؤه بقول الله عزّ وجلّ ولله جنود السموات والأرض وقيل الجراد جند من جنود الله والنمل جند من جنود الله ألا ترى أنّه لّما بلغ معاوية أنّ الاشتر قد أُمّر فسُقي سمًّا في سَويق وعَسَل قال ما أبردها على الفؤاد إنّ لله جنوداً من عسل وقيل الأرض ملك والسماء ملك حتّى عدد أكثر أجسام العالم واحتجّوا بقول الله عزّ وجلّ قالتا أتينا طائعين والقول هو الأوّل فإن كان جائزاً إطلاق اسم الملك على هذه الأشياء فيكون مجازاً لا حقيقةً.

ذكر اختلاف الناس في الملائكة ما هي أمّا المسلمون وأهل الكتاب فيولون هم خلق روحانيّون كما ذكرناه آنفاً وكان مشركوا العرب يزعمون أنّ الملائكة بنات الله وأنّه صاهر الجنّ فولدت له قال الله تعالى " وجعلوا الله شركاء الجنّ وخلقهم وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً " وقالت الحرّانيّة الملائكة النجوم وهي المدبّرات للعالم وهو أحدث الباطنيّة فزعمت أنّها سبعة وإثنا عشر والخُرَّميّة يُسمّون رُسُلهم الذين يتردّدون فيما بينهم ملائكة وأمّا المجوس فلا ينكرون الملائكة وأنّهم خلق غائب عنهم ويسمّونهم شتاسبندان في ملّتهم الإقرار بهم والتصديق وزعم قوم أنّ الملائكة هي النفوس الصافية وذلك أنّ الإنسان إذا بالغ في الارتياض بمعرفة حقائق الأشياء واجتهد في اقتناء الفضائل واختيار المحامد اتّصل بالعالم العلويّ فصار عند مفارقة الهيكل عقلاً خالصاً ونفساً صافيةً فيسمّونه حينئذٍ المَلَك قالوا وأقصى الدرجات في الأسفل وزعمت فرقة أنّ الملائكة أبعاضٌ من الله وعندهم أنّه تبارك وتعالى شيءٌ بسيط روحانيّ وسمّاهم أُميّة في شعره تلاميذ الله وأعوانه مع مقالات كثيرة متباينة وليس هذا الباب ممّا يدرك بالعقل ولكنّه يُعرَف فإذا كان هذا سبيله فلا معنى لردّ ما سبيله الخبر إلى غير الخبر

ذكر صفات الملائكة روى ابن اسحاق الواقديّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم قال أَلاَ أُحدّثكُم عن مَلَكٍ من ملائكة الله أذن لي ربّي في الحديث عنه قالوا بلى يا رسول الله قال إنّ لله ملكاً قد نفذ بقدمه الأرض السُفلى ثمّ خرج من هواء ما بين ذلك حتّى أنّ هامته لتحت العرش والذي نفس محمّد بيده لو سُخّرت الطير فيما بين عُنُقه إلى شحمة أُذنه لخفقت فيه سبعمائة عام قبل أن يقطعه وروى ابن جُريج عن عكرمة عن ابن عبّاس رضى الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لجبرئيل إنّي أُحبّ أن أراك في صورتك الّتي تكون عليها في السماء قال لا تقوى على ذلك قال بلى قال فأين تُحب أن أتخيّل لك قال في الأبطح قال لا يَسعُني قال بعرقات قال ذلك بالحَرَى فواعده ذلك وخرج النبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم للوقت فإذا هو بجبرئيل قد أقبل من جبل عرفات وقد ملأ بين المشرق والمغرب وسدّ الخافقين رأْسُه في السماء ورجلاه في الأرض وله كذا ألف جناح ينتشر منها التهاويل فلمّا رآه النبيّ صلى الله عليه وسلم خرّ مغشيًّا عليه فتحوّل جبرئيل عن صورته إلى صورة التي كان يأتيه فيها وهي صورة دُجية الكلبيّ وهو ابن خليفة بن فروة الكلّبي فضمّه إلى صدره فلمّا أفاق قال ما ظننتُ أن لله تعالى خلقا يشبهك قال يا محمد فكيف لو رأيتَ اسرافيل رأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة وإن العرش لعلى كاهله وأنه ايتضال أحياناً من مخافة الله تعالى حتّى يصير كالصعوة وما يحمل عرش ربّك إلاّ عظمته وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال أنّ لله ملكاً البحار كلّها في نقرة إبهامه وعن كعب الأحبار أنه قال أن لله ملكاً للسموات على منكبه يدور بها كما تدور الرحا وعن ابن مسعود رضي الله عنه في صفة ملائكة العذاب قال ما منهم ملك إلاّ ولو أمره الله أن يلتقم السموات والأرض وما فيهما من شيء لهان ذلك عليه لما عظّم الله من أجسامهم وقد جاء في صفة ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وصفة جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وغير هؤلاء من الملائكة ما

يعتقد المؤمن الإيمان به والتسليم له وجاء في صفة حملة العرش أنّهم ملائكة قدرُ قَدَم أحدهم مسيرة سبعة ألف سنة ولهم قرون كقرون الوعول وقيل العرش على كواهلهم وقيل على مناكبهم ناشية في العرش والله أعلم وأحكم، وروى أبو حُذيفة عن مقاتل عن عطاء أنّ الله يبعث جبرئيل كلّ يوم إلى جنة العدن فيغمس بجناحيه في نهرها ثمّ يجيء فينفُضها فيسقط من كلّ جناح سبعون ألف قطرة يخلق الله من كلّ قطرة ملكاً قال وما يُقطر من السماء إلى الأرض قطرة إلاّ ومعها مَلَكٌ ينزل إلى الأرض ثم لا يعود إليها قال وما في السموات موضعُ شبرٍ إلاّ وفيه مَلَك قائم أو ساجد أو راكع لم يرفع رأسه منذ خُلِقَ فإذا كان يوم القيامة رفع رأسه فيقول سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك قال ولله ملك موكّل بالبحار فإذا وضع قدمه في البحر مدّ وإذا رفعها جزر قال والملائكة أربعة جبرئيل ملك الرسالة واسرافيل ملك الصُور وعزرائيل ملك الموت وميكائيل ملك الرزق ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قال الرعد ملك موكّل بالسحاب يسوقه من بلد إلى بلد معه كذا من حديد كلّما خالفت سحابة صاح بها والبرق معه السحاب به وروى ابن الأنباريّ في كتاب الزاهر أنّ السحاب ملك يتكلّم بأحسن الكلام ويبكي ويضحك والرعد كلامه والبرق ضحكته والمطر بكاؤه وعن كعب لولا أنّ الله وكّل بطعامكم وشرابكم في نومكم ويقظتكم مَن يذبّ عنكم ليحفكم بقول الله تعالى له مُعَقّبات من بين يدَيْه ومن خلْفه يحفظونه من أمر الله وروى هشام ابن عمّار بن عبد الرحيم بن مطرف عن سعيد بن سلمة عن ابان عن أنس رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال أنّ لله ملكاً له ألف رأس في كلّ رأس ألف وجه في كلّ وجه ألف فم في كلّ فم ألف لسان يُسبّح الله ويُقدسّه كلُّ لسان بألف لغة من التسبيح فهذا وما أشبهه موقوف على صحّة الخبر وصدق الراوي إذ ليس يمتنع عن البارئ سبحانه وتعالى شيء وما عسى أن يقوله قائل وهو مُصَدق بابتدا ع الله أعيان هذا العالم لا من عين سابقة فمن لم يعجز عن هذا فليس عن اعجب منه بعاجز وإذا كانت أحوال الملائكة كما وصفنا من إطلاق اسم الملائكة على الجماد والموات فغير بديع ما حُكى عنهم وقد قيل الريح ملك وقيل من نَفَسِ

مَلَك وأَذْكُرُ أنّي حاجّي رجل من البهافريديّة وهم صنف من المجوس أطلبهم للخير وآلفهم عن الأذى في دفننا موتانا ما تعنينا بذلك فقال أنّ الأرض مَلَكٌ وانتم تلقمونه الموتى فكيف تستحسنون ذلك وقد يرى بعض الناس أنّ الشياطين كلّ شرّير داعر والملك كلّ خير فاضل ومذهب الدنانير ما حكيناه ووصفناه.لَك وأَذْكُرُ أنّي حاجّي رجل من البهافريديّة وهم صنف من المجوس أطلبهم للخير وآلفهم عن الأذى في دفننا موتانا ما تعنينا بذلك فقال أنّ الأرض مَلَكٌ وانتم تلقمونه الموتى فكيف تستحسنون ذلك وقد يرى بعض الناس أنّ الشياطين كلّ شرّير داعر والملك كلّ خير فاضل ومذهب الدنانير ما حكيناه ووصفناه.

القول في الملائكة أمكلّفون أم مجبورون وهم أفضل أم صالحو المسلمين قال قوم هم مضطرّون إلى أفعالهم مجبورون عليها وروي عن ابن عبّاس أنّه قال في قوله يُسبّحون الليل والنهار لا يفترقون أن التسبيح لهم بمنزلة النفس لنا وقال آخر هم مكلّفون مجبورون لأنّ الله تعالى يقول " ومن يقل منهم إنّي إله من دونه فذلك نُجْزِيه جهنّم " ولا يصحّ الوعيد على غير المقدور عليه وقد قال أنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي اعلم ما لا تعلمون فدلّ هذا القول منهم على اختيارهم وقال لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولو لم يكونوا قادرين على المعصية لما كان يمدحهم بترك المعصية ومعنى قوله يسبحون الليل والنهار لا يفترقون مدح لهم على المواظبة على الطاعة أو لا يقطعهم عنها ما يقطع الناس من الحوائج والشغال وقول ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ التسبيح سهلٌ عليهم كالنفس في سُرعة المؤتاة والمطاوعة ويجوز أن يكون من

تسبيحهم ما هو اضطرار ومنه ما هو اختيار فإن قيل إذا كانت الطاعة منهم باختيار فهل لهم على ذلك من ثواب فمن قائل أن ثوابهم تقريب المنزلة ورفع الدرجة وآخر أنه زيادة القوّة على الطاعة وتجديد الجِدّ والنشاط في العبادة وآخر أنه اخدامهم أهل الجنّة وليس الثواب كلّه المطعمُ والمشربُ لأنهم ليسوا بذوي أجسام مجوّفة فيُلجئهم الحاجة إلى ما يحتاج إليه ذوو الأجسام المجوّفة وقد قيل أنّ ثوابهم أن يستجيب دعاؤهم في الموحّدين وذلك قوله تعالى " الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربّنا وسعت كلّ شيءٍ رحمةً وعلماً الآيةَ فطاعتهم مذ خُلقوا أن يستجاب في الموحّدين ولهم مسئلة وتضرّع وطاعتهم بعد ذلك بشكر وبعرف واختلفوا في الملائكة وصالحي المؤمنين أيّهم أفضل فذهب كثير من المسلمين إلى تفضيل الملائكة واحتجّوا بقوله تعالى " قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنّي ملك " وقوله تعالى فيما يحكى عن الشيطان " ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين " وقول صواحب يوسف ما هذا بشراً إنْ هذا إلاّ ملك كريم وقوله تعالى " لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون " وقوله تعالى " يسبّحون الليل والنهار لا يفترقون " وقوله " ولقد كرمنا بني آدم وحملناها في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً " فلمّا لم يقُلْ على من خلقنا علمنا أن هاهنا من هو أفضل منهم قالوا وهل يستوي حال من لا يُعصى قطّ وحال من لا يتعرّى عن معصيته وكيف بفضيلة عمل مَنْ أقصى عُمره مائة سنة وفضيلة مَنْ عُمره الأبد وذهب إلى أنّ صالحي المؤمنين أفضل لمكابدتهم مشقّة الطاعة مع منازعة الشهوة وممانعة الشيطان والعمل بالغيب خوفاً وطمعاً وإنّى يقع طاعة من أُصْفِي عن شوائب الهوى وأُخْلص من مزاحمة الشهوة وأُمِدّ بظلّ العصمة وحُرسَ من الوساوس من طاعة مجبول على الهوى مطبوع على الشهوات موكّل به أعداء من نفسه وجنسه وشيطانه وإنّما يستحقّ العمل تمام الفضيلة باحتمال الكدّ والعناء والمشقّة فيه قالوا وليس ينكر أن الملائكة أفضل من الناس ومن كثير من أهل الإسلام حتّى تكرمنا ما تلاه خصمنا من الآيات وإنّما تفضيلنا فاضلي المؤمنين وصالحيهم وقد أسجدهم الله لصفّيه آدم عليه السلام فهلاّ كان ذلك على سَبْقه بالفضيلة وقال جلّ وعزّ وان تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين بالذكر لفضيلتهم على كثير من الملائكة وليس في وجوب الإيمان بهم أكثر فضيلة من وجوب الإيمان بالمؤمنين قال الله عزّ وجلّ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ثم هم مع ذلك خَوَلٌ لبني آدم وحفظة عليهم وقد رُوي في الحديث أنّ الملائكة سألوا الجنّة فقال الله سبحانه لا أجعل صالح من خلقتُ بيديّ كمن قلتُ له كن فكان ورُوينا عن كعب أنّه قال ركب الله في الملائكة العقل بلا شهوة وفي البهائم الشهوة بلا عقل وفي ابن آدم كليهما فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوتُه عقلَه فهو شرٌّ من البهائم واحتجّ بعضُ المتأخّرين بقول شاعر يمدح ابن موسى الرضا ويقال هي لأبي نواس:

قِيلَ لي أَنْتَ أَوْحَدُ النّاس في كُ ... لِّ مقالٍ من الكلام النَبيهِ
لك من جيدَ الكلام نظامٌ ... يُجتَنى الدُرُّ من يَدَي مُجْتَنيهِ
فلماذا تركتَ مَدْحَ ابن موسى ... والخصالَ الّتي يجمعْنَ فيهِ
قُلْتُ لا أَهتدي لمدح إمامٍ ... كان جبرئيل خادماً لأبيهِ

ذكر ما جاء في الحجب أعلم أنّ الحجاب لا يوجب حدًّا على الإرسال لأنّ الله محجوب عن خلقه ولا يطلق القول بأنه محدود لأنّ الحجاب يحتمل وجوهاً من المعاني وروى وهب بن أبي سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل احتجب الله بشيء عن خلقه غير السموات فقال نَعَمْ بينَه وبين الملائكة الذين هم حملة العرش سبعون حجاباً من نور وسبعون حجاباً من نار وسبعون حجاباً من ظلمة حتّى عدّ خمسة عشر وفي حديث المعراج فانتهيتُ إلى بحر من

بحر اخضر فنُودي أن ارح محمّداً في النور وذكر عدّة بحار من أنوار ومن المسلمين من يستعظم القول بالحجاب كيف وقد روى حمّاد بن سلمة عن عمران الحرّاني عن زُرارة بن أوفي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبرائيل هل رأيتَ ربّك قال يا محمّد بيني وبينه سبعون حجاباً من نور لو دَنَوتُ من أدناها لاحترقتُ وفي حديث أبي موسى الأشعريّ لو انكشفت سُبُحاتُ وجهه لاحترق ما عليها من شيء ويسير هذا كلّه ما روي عن الحسن أنه قال ليس شيء أقرب إلى الله تعالى من اسرافيل وبينه وبين ربّ العزّة سَبْع حجب من حجاب العزّة وحجاب الجبروت والعظمة وليست ممّا يوجب الحد في الاحتجاب لأنّها ليست بأجسام حاملةٍ بين الحاجب والمحجوب ولكنّه يمثل في بُعد وقوع الحواسّ وقطع الأطماع في الإحاطة به والاختصاص بالعظمة والسلطان دون خلقه ومثل هذا أبلغ عند العبّاد وتعظيم البارئ وتفخيم قدره للرغبة إليه والرهبة منه إذ أكثرهم يرون ما لا يُدركه حواسّهم ولا يتصوّر في أوهامهم بإطلاق لا شيء ويدلّ على هذا التأويل ما روى في الخبر العظمة إزارى والكبرياء ركابي فمن نازعنيهما أَلقَيْتُه في النار ولا أبالي فهل يعرض لسامع شك في أنّ العظمة لا يتّزر بها والكبرياء لا يتردّى بها ولكنّ الوجه ما ذهبنا إليه والله أعلم، الحُجب موجودة في أشعارهم قال بعضهم:

لك الحمدُ والنعماءُ والشكرُ رَبَّنَا ... فلا شيء أَعْلَى مِنْكَ حَدًّا وأَمْجَدُ

مليكٌ على عرش السماء مُهيمِنٌ ... لِعزَته تَعْنُوا الوجوهُ وتسجُدُ

فلا بَشَرٌ يسمو إليه بطَرْفه ... ودُونَ حجاب النور خَلْقٌ مُؤَيَّدُ

ذكر ما جاء في سدرة المنتهى وهي مذكورة في كتاب الله عزّ وجلّ روى أنها على هيئة شجرة يمرّ الراكب في ظلّ فَنَنٍ منها سنة قبل أن يقطعها ثمرها كالقلال وورقها كآذان الفيلة يأوي إليها أرواح الشُهداء والصِدِّيقين في صورة فراش من ذهب بقول الله عزّ وجلّ عند سدرة المنتهى عندها جنّة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى وقد ذكرها حَسّانُ في شِعْره

مقام لدى سدرة المنتهى ... لا تجد لها شك للمرتضى

وقوله تعالى عندها جنّة المأوى يرُدُّ قول من يزعم أنّ السدرة الشجرة التي كان النبيّ صلى الله عليه وسلم تحتها بحراء إذ نزل عليه جبرائيل بالوحي اللهمّ ألا أن يشبهه بقوله إنّ منبرئ هذا نزعة من نُزع الجنّة فيكون مذهباً وكذلك قوله عليه السلام الجنّة تحت ظلال السيوف غير أنّ الأخذ بالظاهر على القول الأوّل أعرف وأشهر والأخبار به أكثر قالوا وإنّما سُميّت سدرة المنتهى لأنّها منتهى علم العلماء فلا يعلم أحدٌ من الملائكة والأنبياء ما ورائها إلاّ الله وحده وسمعتُ بعض القرامطة يتأوّلها بعلمهم بحرّاء محمّد صلى الله عليه وسلم ما علمه وأفشاه السرّ إليه لما رأى فيه من الامارات وتوسّمه فيه فضّ الله أفواههم وخيّب آمالهم.

ذكر الجنّة والنار لا أعلم أحداً من أهل الأديان يُنكر الجزاء من الثواب والعقاب وإن اختلفوا في صفته واسمه ومكانه ووقته لأنّ في إبطال الجزاء إبطال الأمر والنهي والوعد والوعيد وإجازة إهمال الخلق وإرسالهم ويؤدّي ذلك إلى تسفيه الصانع وتجهيله أو الإلحاد والتعطيل وهذه المسألة مُعَلّقة بأصل التوحيد وذلك أنّه لّما قامت الدلالة على إثبات البارئ جلّ وعزّ وقدرته وحكمته لم يجز أنْ يكون شيء من أفعاله غير حكمة وصواب فعملنا أنّ الحكيم لم يخلق هذا الخلق عبثاً ولا لعباً ولا سهواً ولم يأمرهم ولم ينهّهم ؟إلاّ للثواب الذي عرضهم له والعقاب الذي حذّرهم وحاشى لله سبحانه وتعالى على أن نظنّ به غير الحقّ فالجزاء يوجبه مُوجب التوحيد وحجّته حجته ثم لطباق أكثر أهل الأرض على الإقرار به من أعظم الحجج إذا كانت العارضة يكشفها حجّة العقل واجتماع الخلق فأيّ عذر بعدها لمتخلّف عنها أو مائل إلى ضدّها وإن أحسّ من نفسه بنفرة فأَولى به أن يَتهم عقله دون عقل المؤمنين والأمم

والأجيال فإمّا القول في أينيّة الجزاء وماهيّته أجنّة ونار أم غيرهما فشيء يتبع فيه الأخيار ولو شاء الله يجزئ بغيرهما كما شاء ولكن المعلوم من الثواب النعمة والاغتباط والمعلوم من العقاب المكروه والنكال ولا نعمة أعظم من دوام البقاء ولا عقوبة أبلغ من النار التي هي آكلة الأضداد ذكر اختلاف الناس في الجنّة والنار قرأتُ في شرائع الحرّانيّة أنّ البارئ عزّ وجلّ وعد من أطاع نعيماً لا يزول وأوعد من عصى العذاب بقدر استحقاقه وهذا ناموس أكثر القدماء ومنهم من يزعم أن النفس الشرّيرة الّتي عاثت في هذا العالم وأفسدت وآذت إذا فارقت هيكلها حُبست في الأثير وهي نار في أعلى عُلو العالم وانفس الخيّرة التي استفادت الفضائل تعود إلى عنصرها الأزليّ ومنهم من زعم أنّ الفاضل يعلو في العُلو والراذل يتسافل فيبقى في الظلمة والخمود وقد قال أرسطاطاليس أن العُلُو الأعلى محلّ الخلود وإنّ السفل الأسفل محلّ الموت وعامّة أهل الهند يُقرّون بالجزاء والذين يهلكون أنفسهم بأنواع العذاب من القتل والحرق والغرق يزعمون أن جواري الجنّة يختطَفْنَهُ قبل زهوق نفسه وإنّما أثبتُ هذا لأُبَيّن لك إقرارهم بالجنة في كفرهم وجهلهم وأهل الكتاب مجمعون على الإقرار به لأن ذكر الجنة والنار في غير موضع من كتابهم إلا أنهم مختلفون في صفاتها بالجنة فتسمى بالعبرانية برديسا وبالعبرية كنعاذن ويزعم طائفة من اليهود أنه إذا كان يوم القيمة أظهرت جهنم من وادي وأحرثت ناراً في الوادي ونصب عليه جسر وأظهرت الجنة من ناحية بيت المقدس وأمر الخلق أن يسيروا عليه فمن كان منهم برئاً جرى مثل الريح ومن كان منهم آثماً تهافت في النار زعمت فرقة منهم أن الجنة والنار يفنيان وذلك بعد ألف سنة من وقت أن صار الناس إليهما ثم يصير أهل الجنة ملائكة وأهل النار رميماً وزعم آخرون أنهما لا يفنيان أبداً وأما المتناسخة وأنهم يرون الجزاء في النسخ والمسخ ويزعمون أن من استمر عل طبع من طباع السباع والبهائم حول إلى صورته عقوبة له ومن تعاطى الحق وكف عن الأذى وتجمل بالجمل حول في صورة ملك أو قائد أو رئيس وهذا مذهب كثير من القدماء، ومن المعطلة من لا ينكر الجزاء في الدنيا بالفقراء والفاقة والآلام والأحزان ما ارتكبه من قبيح والسعة في الدنيا والراحة والفرح واللذة جزاء ما عمله من جمل ويزعم السمنية من الهنود أن من كان قليل الخير يصير كاسف البال رث الهيئة يأتي لأبواب فلا يتصدق عليه ومن كان كثير يصير ملكاً عظيماً عزيزاً فمن أطعم الطعام أصاب القوة لأن البدن تقوى بالطعام ومن كسا الثياب أصاب الجمال ومن أوقد في الظلم أصاب حسن العيش لأن الصباح يطرد الظلمات.

ذكر اختلاف المسلمين في الجنة والنار اعلم أنهم فيها على ثلث فرق فزعمت المعتزلة إلا أبا الهذيل وبشر بن المعتمر أنهما لم يخلقا بعد وأنهما يخلقان يوم القيامة وأجاز النجار أن يكونا خلقتا وأن لم يخلقا بعد وأنهما يخلقان يوم القيامة وقال سائر المسلمين أنهما مخلوقتان مفروغ منهما واحتجوا بأي من القرآن وأحاديث من السنة فمنها قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون وقوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون وقوله تعالى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فهل يجوز أن يعد غير مخلوق وجاء في الحديث أن الله خلق الجنة كذا وكذا بصفات مضبوطة في الكتب وقال واتقوا النار التي أعدت للكافرين وقال النار يعرضون عليهما غدوا وعشياً وقال ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وقال مخالفوهم أن الجنة والنار ثواب وعقاب والثواب والعقاب لا يستحقان إلا بعد وجود الأعمال الموجبة لهما قالوا ولو كانت الجنة مخلوقة فأين مكانها وهي لا تسعها السموات والأرض لقوله عرضها السموات والأرض وتأولوا كل ما في القرآن والسنة من ذكرهما على العدة المنتظرة وقد قال الله عز وجل أن الأبرار لفي نعيم وأن الفجار لفي جحيم فأخبر عنهم وليسوا في الوقت قالوا وغير ممتنع على الله تعالى أن يخلق كل يوم جناناً ويفنيها أو يبقيها كما يشاء وأن ينعم أرواح المطيعين في جنة يخلقها لهم أو في غير جنة ويعذب أرواح الظالمين في نار أو في غير نار وقالوا وقد سبقت عدته في إفناء ما خلق وثوابه وعقابه غير

فانيين أبداً فإن كانا موجودين فلا بد من فنائهما وذلك خلاف وعده فلا مبدل لكلماته قال خصاؤهم ليست الجنة والنار ثواباً ولا عقاباً إنما هما مقر الثواب والعقاب فيهما يثاب ويعاقب والاستثناء قد تناولهما من الفناء والهلاك لقوله إلا ما شاء ربك ولحكمه عليهما بالسرمدية والأبدية وكما أنه وعد أن يفنى الخلق فكذلك وعد أن لا يفنيها ثم اختلف هؤلاء في مكان الجنة فقال بعضهم هي في الآخرة والآخرة مخلوقة وقال بعضهم بل هي في عالم لها ولله عوالم الخلق ما يشاء وقال بعضهم بل هي في السماء السابعة سقفها عرش الرحمن وروى خبراً وزعم بعضهم أنها مخلوقة ولا يدري أين هي وليس بعجب أن يمسكها الله في مكان كما أمسك العالم لا في مكان قالوا والنار تحت الأرض السابعة السفلي وروى فيه خبراً.

ذكر صفة الجنة والنار أجمع ما في القرآن لوصفها قوله تعالى وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وانتم فيها خالدون وأجمع خبر فيها خبر أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وبله ما اطلعتم عليه قال أبو هريرة رضي الله عنه ومصداق هذا في كتاب الله عز وجل فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعلمون ورواه حمزة بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن محمد بن الحنفية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حدثوا عن الجنة بما شئتم فلن تحدثوا عنها بشيء إلا وهي أشد منه فمن ها هنا استجاز من استجاز صفة الجنة والنار بما لم يأت في الرواية لأن الواصف وإن أفرط في الوصف لم يعد مدى خاطر همته وغاية معرفته لا بلغ كنه ما فيها ولا بعضه لأن نعم الله ونقمه فوق ما يحصه المحصون إذ لا غاية لها ولا نهاية أبداً وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الجنة فقال جرد مرد مكحلون من أبناء ثلث وثلثين سنة هذا من طريق حماد بن سلمة عن علي بن مريد عن المسيب عن أبي هريرة وفي رواية أخرى من أبناء ثلث وثلثين سنة على سن عيسى وصورة يوسف وقلب إبراهيم وطول آدم وصوت داود ولسان محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وقال أبو هريرة إن أهل الجنة ليزدادون جمالاً وحسناً كما يزدادون في الدنيا قباحة وهرماً وأنكر قوم من أهل الكتاب الأكل والوطيء في الجنة وذلك أن منهم من لا يرى البعث إلا للأرواح فكذبهم الله في القرآن بذكر الطعام الحواري التي وصفها في الجنة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما يذكر قال إن الرجل منهم يعطي قوة ألف رجل في الطعام والجماع قالوا وكيف المس يا رسول الله قال دحماً دحماً إذا قام عنها رجعت مطهرة بكراً بذكر لا يمل وفرج لا يحفى وشهوة لا تنقطع فقال يهود من أكل يغوط فال النبي صلى الله عليه وسلم ولا يتغوطون وإنما هو عرض يفيض من أعراضهم مثل المسك فتضمر له بطونهم وسئل عن النوم فقال صلى الله عليه وسلم النوم أخو الموت وأهل الجنة لا يموتون وسئل عن الود قال فتنة وروى أنه قال لو أرادوا لكان حمله ووضعه ونشوه في ساعة واحدة وسئل عن المرأة التي يكون لها زوجان لمن تكون في الجنة ففي رواية حذيفة أنه قال تكون لآخر زوجيها ولما خطب معاوية أن الدرداء قالت لست أبغي بأبي الدرداء بديلاً سمعته يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة زوجيها ولذلك حرم أزواج النبي صلى الله عليه من بعده ليكن أزواجه في الجنة وروى عن الحسن أنه قال تخير المرأة فتختار أحسنهما خلقاً وسئل ضمرة بن حبيب أيدخل الجنة فقال نعم واستدل بقوله تعالى لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فللأنس أنسيات وللجن جنيات وسئل أبو العالية عن أوقات الجنة قال كمثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لا شمس فيها ولا قمر ولا ليل ولا نهار وهم في نور أبداً وإنما يعرفون مقادير الليل والنهار بإرخاء الحجب وفتح الأبواب وسئل الحسن عن الحور العين فقال عجائزكم هؤلاء العمش الرمص وتلا أنا أنشاناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً الآية فقال ويعطون أزواجاً غيرهم من الحر العين وفي حديث ابن المبارك عن رشيد بن سعد عن ابن أنعم أن

من دخل من نساء أهل الدنيا الجنة فضلن على الحور العين لما عملن في دار الدنيا وهذه الأخبار أتينا بها لشهرتها عند عوام الأمة واستغنائها عن الأسانيد وسئل عن قوله عز وجل وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فلو اشتهت ما يستقبحه العقول كالقتل والغصب والظلم ونكاح الأخوات والبنات فأجابهم المسلمون بأن هذا وما أشبهه مما لا يشتهون في الجنة لأنها ليس فيها كما لا يشتهون الموت والمرض والذل والفاقة لأنها ليست فيها فتحبس طباعهم عن التشوق إلى ما يستقبح في العقول وينسون ذكرها واعلم هداك الله أن كل ما وصف به من ذهبها وفضتها وجواهرها وطيبها وطعامها وسائر ما وصف منها كلها على الحقيقة في الأسماء الكثيفة كلما خلقت جواهر الأرض وثمارها بقول الله عز وجل وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون وروى عن ابن عباس رضي الله عنه عن أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الجنة فقال نور يتلألأ وحدثنا الحسن بن هشام العبسي عن وكيع عن الأعمش عن ابن عباس ورضي الله عنه قال ليس في

الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء. جنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء.

ذكر صفة النار وأهلها أجمع أية في وصف النار قوله والذين كفروا نار جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها وأجمع خبر محمد بن الحنفية وإن كان مرسلاً حدثوا عن النار بما شئتم فلن تحدثوا عنها بشيء إلا وهي أشد منه والذي يوجب القياس الشديد أن يكون كل وما وصف به النار من أغلالها وإنكالها وحياتها وعقاربها وأوديتها ومقامعها وسائر ما ذكر في القرآن والأخبار خلاف ما هو في الدنيا كما قلنا في صفة الجنة وأن يكون الجمع بينهما من جهة الاسم لا من جهة المعنى لأن النار دار خلود كما أن الجنة دار خلود وسئل إبراهيم النخعي عن صفة نار جهنم فقال ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم ولقد ضرب بها البحر مرتين ولولا ذلك لما انتفعتم بها وسئل الحسن عن النار فقال يصير البحر ناراً ثم تلا وإذا البحار سجرت فقال يفجر بعضها من بعض ثم يرسل عليها من الجنوب ريحاً ويسلط عليها الشمس حتى يسجرها فتصير ناراً فجعلها الله محبساً لأهل المعاصي زعم قوم أن النار مخلوقة اليوم وأنها تحت تخوم الأرضين السفلى والبحار هي الحاجزة عن الخلق وأن حرارة الشمس وحمى الصيف مؤخرها ورووا أن النار اشتكت فقالت أكل بعضي بعضاً فأذن لها في نفسين نفس في الصيف ونفس في الشتاء وأراك أشد ما يكون في الحر والبرد وفي الصحاح من الحديث ابردوا بالظهر فإن في شدة الحر من فيح جهنم واستعظم قوم بقاء ذي روح في النار وذلك لقصور علمهم لأن النار ضورب كالأثير الذي يزعمون في علو الهواء وكالنار الكامنة في الحجر والشجر وقد سئل ابن عباس رضي الله عنه فيما رووا فقال النيران أربع نار تأكل وتشرب وهي ناركم هذه ونار لا تأكل ولا تشرب وهي النار في الحجر ونار تشرب ولا تأكل وهي نار الشجر ونار تأكل ولا تشرب وهي نار جهنم تأكل لحومهم ولا تشرب دماءهم فلذلك يبقى أرواحهم فأخبر أن نار جهنم خلاف النيران التي ذكرها بقول الله تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها فأخبر سبحانه أنه يبدل لهم الجلود لتبقى لهم الأرواح لا تأتي عليهم النار فيفنيهم وقد أرانا الله من قدرته فيما ركب عليه طباع بعض الحيوانات ما دلنا به على جواز بقاء ذي روح بالنار كالنعام التي تأكل النار ولا يضرها والطائر الذي يدخل النار فلا تحرقه وما أراه جعل ذلك إلا عبرة فدلنا على جواز بقاء الحياة في أهل النار وإلا فما جاز في طباع الحيوان الاغتذاء بالنار والحديدة المحماة وجاء في صفة أهل النار بالعجيب الفظيع فمن ذلك ما روى أنه سئل أبو هريرة رضي الله عنه قوله تعالى " ومن يغلل يأتي بما غل يوم القيامة وكيف يأتي من غل مائة بعير ومائتي شاة " فقال أرأيت من كان ضرسه مثل الأحد وفخذه مثل ورقان وساقه مثل البيضاء ومجلسه ما بين المدينة إلى الربذة وعن الربيع بن أنس قال مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه وأنه ليبكي حتى يصير في وجهه

أخاديد من الدمع لو طرح فيها السفن لجرت كذا الرواية والله أعلم، وأعلم أن كل ما يوصف من الجنة والنار فسبيله السمع والخبر وما موجب العقل فالأصل الذي هو الجزاء فلا تشتغل بجواب السائل عن الصفات إذا كان منكراً للأصل حتى يقر به.

ذكر اختلاف الناس في بقاء الجنة وفنائهما قرات في شرائع الحرانيين أن للعالم علة لم زيل وأنه واحد لم يتكثر ولا يلحقه وصف شيء من المعلومات كلف أهل التمييز الإقرار بربوبيته وبعث الرسل للدلالة وتثبيت الحجة فودعوا من أطاع نعيماً لا يزول وأوعدوا من عصى عذاباً بقر استحقاقه ثم ينقطع وقال بعض أوايله أنه يعذب سبعة آلاف دور ثم ينقطع العذاب ويصير إلى رحمة الله تعالى والهند على كثرة اختلافها يجمعها نحلتان السمنية المعطلة والبراهمة الموحدة وكلهم مقرون بالجزاء وأن العذاب سينقطع يوماً والسمنية تقول أن الثواب والعقاب موجودان في هذا العالم بالحواس جزاء ما اكتسبته النفوس باقية خالدة فاعلة وفعلها الإيجاد بالأجساد وأنها لا يزال ساكنة الأبدان فإذا فارقت جسداً لم تعد فيه أبداً وأنها تتناسخ على فعالها لا يأتي أمراً إلا على قدر هواها وهمتها فإذا اجترحت السيئات أثرت تلك الأفعال في جوهرها وصار غرضاً لازماً لها فإذا فارقت الجسد ذهبت بذلك التأثير إلى الجنس الذي لا يلايم همتها فتلابسه فيصير بذلك السبب إلى المكروه وهو التناسخ في أجساد الحيوان كله من الهوام والأنعام والآنام والطير في البر والبحر قالوا وأشد ذلك كله إذا حولت في جسد حيوان تحت الأرض حيث لا ماء ولا معمورة ويطول عذابها بالجوع والعطش والحر والبرد ثم تجوء إلى جهنم وعذابها وذلك نهاية العذاب وأخراه ثم يعود من جهنم القهقرى إلى وجه الأرض للعمل قالوا والتي عملت الصالحات والأفعال الفاضلة بالضد مما وصفنا فيلابس الجمال والكمال والصحة والأمن والقوة والإنس والنشاط والملك والعز وطيب النفس ويصير آخر ذلك كله إلى الجنة فيمكث فيها بقدر استحقاقها ثم يرجع إلى الدنيا للعمل قالوا والجنة اثنتان وثلاثون مرتبة ويمكث أهلها في أدنى مرتبة منها أربع مائة ألف سنة وثلث وثلاثين ألف سنة وستمائة وعشرين سنة وكل مرتبة أضعاف ما دونها بحساب يطول عدده قالوا والنار اثنتان وثلاثون مرتبة ثم وصفوها بعجائب الصفات من الحريق والزمهرير وزعموا أن من قتل شيئاً من الحيوان دون الناس قتل به مائة مرة ومرة ومن قتل إنساناً قتل به ألف مرة ومرة قالوا وليس عضو من الأعضاء قبح أو سمج خلقته إلا وقد أتى صاحبة بذلك العضو داهية من الدواهي هذا أصل التناسخ ومنهم انتشر في سائر الأمم وليس من أمة من الأمم إلا وهي مقرة بالجزاء كما ذكرنا إما التناسخ وإما الذخر في الآخرة وأجمعوا أن العذاب بقدر الاستحقاق ثم ينقطع وزعم كثير من اليهود أنه إذا أتى على الجنة والنار ألف سنة بعد ما صار إليهما أهلهما فنيتا وتعطلتا وصار أهل الجنة ملائكة وأهل النار رميماً واحتجوا بقول الأنبياء الاثنى عشر أنه مكتوب في سفر يهوشوع أن الله يقول إن تمسكت أمري وأتممت ميثاقي أعطيتك موضعاً وسط هؤلاء الواقفين قدامي وقال في أهل النار يصيرون رميماً تحت أرجل معاشر أهل الجنة وسمعت رجلاً من يهود عليهم اللعنة يزعمون أن منهم من يقول أن العالم ينقضي في كل ستة ألف سنة ويجدد وأن يوم السبت يوم الحساب ومقداره ألف سنة ويوم الأحدث يوم الابتداء والله أعلم بما قال وكثير منهم يقول ببقاء الجنة والنار على الأبد ويحتجون بقول شعيا في سفره أن أهل الجنة يخرجون ويرون أجساد الذين عصوني لا يموت أرواحهم ولا تخمد نارهم والمجوس يزعم أن المسيء يجازى بقدر استحقاقه بعد موته بثلاثة أيام كفاء ما فعل سواء لا زيادة ولا نقصان ومنهم من يزعم أن الجنة والنار في الدنيا بأرض الهند مع هوس كبير وتخليط ظاهر.

ذكر اختلاف الناس في هذا الفصل زعمت طائفة منهم أنه لابد من فناء النار وانقضائها يوماً ما رووا فيه روايات فرووا عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال يأتي على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعد ما لبثوا أحقاباً وعن الشعبي جهنم أسرع الدارين خراباً وعن عمر رضي الله عنه وأرضاه لو لبث أهل النار في عدد رمل عالج لكان لهم يرجون واحتجوا بأشياء من باب التعديل ولم يختلفوا في بقاء الجنة على الأبد وقالوا آخرون أنهما مؤبدتان دائمتان لا تفنيان ولا تزولان واحتجوا بأنه لم يكن لنعم الله انتهاء وجب أن لا يكون لنقمه انقضاء ورووا عن الأوزاعي أنه ذكر هذه الروايات التي احتج بها الأولون وقال قد كان الناس يرجون لأهل النار الخروج عند قوله خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك وقوله لابثين فيها أحقاباً أن يخرجوا في المائدة وهي آخر ما نزل في القرآن يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم علموا أنها لا تفنى أبداً فإن قيل كيف يجوز على الحكم العدل أن يعاقب على جرم منقض بعقوبة غير منقضية قيل هو الجزاء على السواء وكما أنه لم تقصر مدة عمره على الكفر في دار الدنيا وجب أن لا يقصر عنه العذاب مدة عمره في الآخرة وأيضاً فإن نعمة ما لم تكون منهية وجب أن لا يكون نقمة منهية وقد كانت العرب في جاهليتها تؤمن بالجزاء ومن نظر منهم في الكتب كان مقراً بالجنة والنار فمنه قول أمية:

جهنم تلك لا تبغي بقيا ... وعدن لا يطالعها رجيم
إذا جهنم ثم فارت ... وأعرض عن قوابسها الجحيم
يحب بصندل صم صرب ... كأن الصاحيات لها قضيم
فتسموا ما يعنيها ضواء ... ولا يحبوا فيبردها السموم
فهم يطفون كالاقذاء فيها ... لئن لم يغفر الرب الرحيم
بدانية من الآفات نزه ... للاء لا يرى فيه سقيم
سواعدها تحلب لا تصرى ... بها الأيدي محللة تحوم
سواعدها حلابها من غير ضرع ... ولا بشم زلا فيها جزوم
فيحرم عنهم ولكل عرق ... عجيج لا أحذ ولا يتيم
فذا عسل وذا لبن وخمر ... وقمح في منابته صريم
ونخل ساقط الأكتاف عد خلال أصوله رطب قميم
وتفاح ورمان ورموز ... وماء بارد عذب سليم
وفيها لحم شاهدة ونحر ... وما فاهوا لهم فيها مقيم
وحور لا يرين الشمس فيها ... على صور اللمى فيها سهوم
نواعم في الأرائك قاصرات ... فهن عقائل وهم قروم
على سرر ترى متقابلات ... الاثم النضارة والنعيم
عليهم سندس وجناب ريط ... وديباج يرى فيها فيوم
وحلوا من أساور من لجين ... ومن ذهب وعسجدة كريم
ولا لغو ولا تأثيم فيها ... ولا غول ولا فيها مليم
وكأس لا يصدع شاربيها ... يلذ بحسن رويتها النديم
يصفوا في صحاف من لجين ... ومن ذهب مباركة رذوم

إذا بلغوا التي اجروا إليها ... تقبلهم وحلل من يصوم
وخفقت البدور وأردفتهم ... فضول الله وانتهت القسوم

اعلم أن هذه الأشياء جاءت به الرواية والخبر فمنها ما هو ثواب ومنها ما هو عقاب ومنها ما هو تمييز وتفريق والمسلمون لا يختلفون في أساميها وإنما الخلاف في معانيها فإما الصراط فقد جاء في الحديث أنه ينصب جسر على ظهر جهنم ويحمل الخلق عليه فمن كان من أهل الجنة جازه ومن كان من أهل النار تهافت فيها وقيل في صفته أنه أحد من السيف وأدق من الشعرة دحص مزلة وفيه كلاليب وخطاطيف وسعدان مضرسة وحسك مفلطحة مسيرة كذا سنة صعوداً وهكذا هبوطاً وكذا وطأ والناس يجوزونه بقدر أعمالهم فمنهم من يمر كالبرق الخاطف ومنهم من يمر كالريح العاصف ومنهم من يمر كالطير الهادي ومنهم من يمر كالجواد المضمر ومنهم من يمر عدواً ومنهم من يمر هرولة ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يزحف زحفاً ومنهم من يحبو حبواً ومنهم من يحتضنه بكشحه وصدره والزالون والزالات كثير وقد أجيب من يزعم أي ظلم أعظم من حمل الناس على ما هذه صورته أنه جعل تمييزاً بين أهل الطاعة وأهل المعصية وعلامة للحق على هلاك من هلك ونجاة من نجا وقد جاء في بعض الأخبار أن أهل الطاعة يجوزونه ولا يشعرون به وقيل ينزوي تحت أقدامهم كما ينزوي الجلدة من النار فإذا استقروا في الجنة قالوا ما بالنا لم نجز الصراط ولم نرد النار التي وعدنا فيقال أنكم جزتم الصراط في الدنيا بأعمالكم ووردتم النار وهي خامدة ومن ها هنا ذهب من ذهب وإلى تأويل الصراط وما الزم الإنسان وكلف من مشقة الطاعة ومجاهدة النفس فيما ينزع إليه وعلى هذا فسر بعضهم فلا اقتحم العقبة وما أدرك ما العقبة فك رقبة الآية وأما المعتزلة وأهل النظر فإنهم يذهبون إلى أن الصراط هو الدين الذي أمر الله بلزومه والتمسك به وكان أبو الهذيل من بينهم يجيز ما جاء في الخبر كما جاء ويحتج بما ذكرناه بدئاً وأما الميزان فروى كثير من المسلمين أنه خلق على هيئة الميزان التي يتعاطاه الناس بينهم فيم عاملاتهم ومبايعاتهم يوزن به أعمال العباد والأعمال عندهم مخلوقة وفي كتاب وهب عن ابن عباس أن له كفتين وعموداً كل كلفة طباق الأرض إحداهما من ظلمة والأخرى من نور وعموده ما بين المشرق والمغرب وهو معلق بالعرش وله لسان وصيح ينادي الأسعد فلان والأشقى فلان فإن صحت الرواية فالمعنى فيه ما ذكرناه في الصراط أنه جعل مميزاً فارقاً وهو قول أبي الهذيل يجوز أن ينصب ميزان يجعل رجحانه علامة لمن نجا وخفته علامة لمن هلك وقالت المعتزلة غيره وكثير من الأمة أن الميزان مثل لتسوية الجزاء وتحقيق العدل وهو قول مجاهد والضحاك الشعبي واحتجوا بقول الناس للرجل الأمين العدل ما هو إلا كالميزان المستقيم ألا ترى إلى ما يرثى به عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

قد غيب الدافنون الترب إذ دفنوا ... بدير سمعان قسطاس الموازين

وأنشد الفراء بيتاً:

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة ... عندي لكل مخاصم ميزان

ويسمى الحجة ميزاناً والله أعلم واحكم واختلفوا في الموزون فقال قوم يوزن عين الأعمال فتخف السيئة لأنه يأتيها الإنسان بخفة ونشاط وتثقل الحسنة لأنه يأتيها بعناء وكلفة وقالت طائفة بل يوزن صحف الأعمال وهو قول ابن عباس رضي الله عنه ويعضد رواية عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم يؤتى برجل القيامة ويؤتى بتسعة وتعسين سجلاً كل سجل مد البصر فيها ذنوبه وخطاياه فيوضع في كفة ثم يخرج له قرطاس مثل واشد بطرف سبابته على بعض إبهامه فيه شهادة أن لا إله إلا الله فيوضع في الكفة الأخرى فيرجح به وقال قوم يوزن ثواب الأعمال وذلك أن الله يظهره في صورة ويحدث عند الوزن ثقلاً في الطاعة وخفة في المعصية وكل ما حكى وروى ممكن والله

أعلم بالحق وأحكم وأما الأعراف فذكر أنه كسور بين الجنة والنار يوقف عليها قوم إلى أن يقضي الله تعالى بين خلقه مع اختلاف كثير في من يقام عليه ويدل على أنه من الجنة قوله عز وعلا ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله وفيه يقول أمية بن أبي الصلت:

وآخرون على الأعراف قد طعموا ... بجنة حفها الرمان والحصر

منهم رجال على الرحمن رزقهم ... مكفر عنهم الأخباث والوزر

وأما الصور فإن الرواة مختلفة فيه فروى أنه كهيئة القرن يجمع فيه الأرواح ثم ينفخ منه في الأجساد عن البعث وقال قوم يخلق الصور يوم القيامة وتأولوا قوله " وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق " ويوم يقول " كن فيكون " قال يقول للسموات كوني صوراً ينفخ فيه وقال بعضهم الصور جمع الصورة وإن صح الخبر كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه وحنا جبهته ينظر متى يؤمر فينفخ لزم التسليم والقول به وأما الحوض جاء في الحديث بروايات مختلفة وقال كثير من أهل التفسير أن الكوثر اسم حوض النبي صلى الله عليه وسلم وروى ما بين جنبي حوضي كما بين صنعاء وايلة وآنيته في عدد نجوم السماء ماءه أحلى من العسل وأبرد من الثلج وأشد بياضاً من اللبن من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً وقال قوم في تأويل الحوض أنه عمله ودينه وطريقته والله أعلم.

الفصل السابع

خلق السماء والأرض وما فيها

قد بينا مقالات الأمم في حدث العالم وقدمه وقد ذكرنا أراءهم في المبادىء وكشفنا عن عوار كل من خالف الحق ودللنا على أن مأخذ هذا العالم لا يصح إلا من جهة الوحي والنبوة بما لا مزيد عليه في مقدار الشريطة التي نصبناها في كتابنا هذا والله أعلم والموفق والمعين وقد اختلفت الروايات في هذا الباب عن ابن عباس ومجاهد وابن اسحق والضحاك وكعب ووهب وابن سلام والسندي والكلبي ومقاتل وغيرهم من يتحرى هذا العلم وينحو نحوه فلنذكر الأصح من رواياتهم والأقسط للحق والأشبه بالصواب ونسوق ما يحكيه أهل الكتاب ولا يكذبهم إلا فيما يتيقنه من وفاق كتابنا أو خبر نبينا صلى الله عليه وسلم وروى أبو حذيفة عن رجال أسماءهم أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السماء والأرض سلط الريح على الماء حتى خربته فصار موجاً ودهنا ودخانا فأجمد الزبد فجعله أرضاً وأجمد الزبد فجعله أرضاً وأجمد الموج فجعله جبالاً وأجمد الدخان فجعله سماء وربما يقع تغيير في العبارة لزيادة بيان فليراع الناظر المعنى لا اللفظ وزعم محمد بن اسحق أن أول ما خلق الله النور والظلمة فجعل الظلمة ليلاً وجعل النور نهاراً ثم سمك السماوات السبع من الدخان دخان الماء حتى استقللن ولم يحبكهن وقد أغطش في السماء الدنيا ليلها واخرج ضحاها فجرى منها الليل والنهار وليس فيها شمس ولا قمر ولا نجوم ثم دحا الأرض وأرساها بالجبال وقدر فيها الأوقات ثم استوى إلى السماء وهي دخان قال فحبكهن وجعل في السماء الدنيا شمسها وقمرها ونجومها وأوحى في كل سماء أمرها وقريب من هذا ما روى عن عبد الله بن سلام أنه حكى عن التورية أن خلق البخار الذي خرج من الماء والجبال والأرض من الأمواج ودحا الأرض من تحت موضع الكعبة عن الكلبي والسندي أن الأرض كانت تكفأ كما تكفأ السفينة فأشمخ الله جبالها وأرساها بالأوتاد حتى استقرت وتوطدت لقول الله تعالى " وألقى في الأرض

رواسي أن تميد بكم وفي صدر التورية " التي في أيدي أهل الكتاب أن أول ما خلق الله السماء والأرض وكانت الأرض خربة خاوية وكانت الظلمة على الأرض وريح الله تعالى يزف على وجه الماء فقال الله ليكن النور فكان النور فرأى الله حسناً فميزه من الظلمة وسماه نهاراً وسمى الظلمة ليلاً وقال ليكن رفيعاً وسط السماء فليحل بين الماء والسماء فكان سقفاً يميز بين الماء الذي أسفل وبين الماء الذي هو أعلى وسماه سماء وقال الله ليجمع الماء الذي تحت السماء وليكن اليبس فكان كذلك فسمى مجتمع الماء البحار وسمى اليبس الأرض وقال الله ليخرج الأرض الزهر والعشب والشجر ذا الحمل فأخرجت الأرض ذلك ثم قال الله تعالى " ليكن نوران في سقف السماء ليميزا بين الليل والنهار وليكونا آيتين للأيام والشهور والسنين فكان نوران الأكبر والأصغر فالأكبر لسلطان النهار والأصغر والنجوم لسلطان الليل " فرأه الله حسناً وقال الله تعالى " ليحرك الماء كل نفس حية وليطر الطير في جوف السقف وخلق الله ثمانين عظاماً " وحرك الماء كل نفس حية لجنسها وكل طائر لجنسه فرأى الله ذلك حسناً فقال انموا واكثروا واملأوا الأرض وقال الله تعالى " نخلق بشراً كصورتنا وشبهنا ومثالنا ويكون مسلطاً على سمك البحار وطير السماء ودواب الأرض " فخلق آدم على صورته ومثال وشبهه، وأما الفرس فإنهم يحكون على علمائهم وموبذيهم أن الله خلق في ثلثمائة وخمسة وستين يوماً ووضع ذلك على أزمنة كاه انبار دين ماه وأن أول ما خلق الله تعالى السماء في خمسة وأربعين يوماً وهو كاه ابنار دي ماه وخلق الماء في ستين يوماً وهو كاه انبار اردبيهشت ماه وخلق النبات في ثلاثين يوماً وهو كاه انبار ماه هذا ما عليه عامة من يعرفهم من أهل الأرض بحدث العالم والأصدق من ذلك ما نطقت به كتب الله أو جاءت به رسله لأنه لم يشاهد الخلق أحد فيخبر عنه ولا العقل موجب كيفية ذلك ثم لا شيء أحمل للزيادة واخلط في الرواية وأكثر تشويشاً واضطراباً من هذا الباب قال الله تبارك وتعالى خلق السماوات فبدأ بذكر السماء على الأرض في غير موضع من كتابه ثم قال " أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له اندادا " الآية إلى قوله ثم استوى إلى السماء وهي دخان وقال " أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها إلى قوله والأرض بعد ذلك دحاها فأخبر أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض وبسط الأرض كان قبل

تسوية السماء وما فيها كما ذكره ابن اسحق. سوية السماء وما فيها كما ذكره ابن اسحق.

صفة السماوات قال الله تعالى " خلق سبع سماوات طباقاً " فأخبر أن بعضها فوق بعض وزعم الكلبي أن السماوات فوق الأرض كهيأة القبة الملتصق منها أطرافها وقول الله أحق أن يتبع ما لم يرد تخصيص صادق أو تبيين وروى وهب عن سلمان الفارسي رحمه الله أن الله خلق السماء الدنيا من زمردة خضراء وسماها برقع وخلق السماء الثانية من فضة بيضاء وسماها كذا وخلق السماء الثالثة من ياقوتة حتى سبع سماوات بأسمائها وجواهرها وروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال إن السماء الدنيا من رخام أبيض وإنما خضرتها من خضرة جبل فاق وروى أن السماء موج مكفوف واختلف القدماء فيه فزعم بعضهم أن جوهر السماء من حديد وزعم بعضهم أنه جوهر صلب وجمد بالنار حتى صار مثل الجليد ومنهم من يزعم أنه جوهر ناري وبعضهم يراه جوهراً مركباً من حار وبارد وبعضهم يقول هو دخان من بخار الماء تكاثف وتصلب وبعضهم يراه جوهراً خارجاً من مزاج الطبائع فكلهم يسمون السماوات الأفلاك فالذي يجب أن يعتقد منه أنه جوهر ما آن لو لم يكن كذلك ما قبلت الأعراض التي تراها من سواد الليل وخضرة واختلاف القدماء فيه دليل على قصور فهمهم عنه وروايات أهل الإسلام لا يوجب إعتقادها ما لم يكن إجماع أو شهادة نص من كتاب أو خبر نبي صادق مؤيد بالمعجزات الباهرة اللهم إلا أن يكون وفاق في الأسامي لا في المعاني لمخالفة أجسام السفل أجسام العلو وقد شبه أمية السماء بالزجاج من جهة لونه ولم يرو عن

أحد من الفلاسفة ولا من أهل الكتاب:

فكأن برقع ولملائك حوله ... سدد تواكله القوائم مجرد

خضراء ثانية تظل رؤوسهم ... فوق الذوائب فاستوت لا يحصد

كزجاجة الغسول أحسن صنعها ... لما بناها ربنا يتجرد

صفة الفلك قال الله تعالى " لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون " قال بعض المفسرين تدور كدوران الرحا وأهل النجوم يزعمون أنه الفلك الأعظم المحيط بالأفلاك السبعة ولها في كل يوم وليلة دورة واحدة من المشرق إلى المغرب وسائر الأفلاك في جوفها تدور من المغرب إلى المشرق كمشي النمل على الرحا الدائرة بالعكس ومنهم من يقول هو الفلك الثابت وهي التاسعة من الأفلاك الضابطة لها وأكثرهم على أنها الثامنة وفيها الكواكب الثابتة وفي رواية المسلمين أن من سماء إلى سماء مسيرة خمس مائة سنة وما بين كل سماء مسيرة خمس مائة سنة وللقدماء في هذا تقدير فزعم الفزاري أن بين فلك وفلك مسيرة ثلثة آلاف سنة وقد ذكر في كتاب المجسطي مقادير أجرام الكواكب وأبعادها من نقطة الأرض وبعد بعضها من بعض في العلو وكم قطر فلك يدور بها وعظم الأفلاك وسعتها وحال الأرض وكميتها في الطول والعرض والاستدارة ما الله به عليم فإن كان حقاً فهو الوحي لأن قوى الخلق تقصر عن أمثاله وإن كان حزراً وتخميناً فرواية أهل الإسلام أحق وأصدق وإذا صحت فهي تحتمل وجهين من التأويل أحدهما البعد في المسافة والثاني العجز عن الترقي إليه ومن العجب ضرب من لا يرى السماوات والأفلاك أجراماً مركبة ولا أجساماً متحركة حداً لها في البعد والقرب والبسائط غير محصورة ولا متناهية واختلف ذي ذات الفلك الذين زعموا أنها جرم فزعمت منهم أنها من تركيب الطبائع الأربع وقال قوم بل هي طبيعة خامسة خارجة عن هذه الطبائع والطبائع خفيفات النار والهواء وثقليات الأرض والماء والفلك لا خفيف ولا ثقيل وزعم قوم أنه لحم ودم وقال أعظمهم عندهم رأياً أن الفلك حي ناطق والكواكب لها النفس الناطقة ورأيت في كتب بعض المفسرين ميلاً إلى هذا الرأي واحتج له بقول الله تعالى قالتا أتينا طائعين والنطق قد يكون بالعبارة والبيان وبالدلالة والأثر.

صفة ما فوق الفلك قال المسلمون فوق الأفلاك العرش وفوق العرش ما الله به عليم ومنهم من يقول فوق العرش البارئ عز وجل وهذا قول سديد وهو من شعار الإسلام ما لم يوصف بالمكان والتمكن لأن فوق يحتمل وجوهاً من التأويل ومن قال بوجود الجنة في الوقت قال هي في السماء السابعة واحتج بقوله عز وجل وفي السماء رزقكم وما توعدون قال كثير من أهل التفسير أنه الجنة وقال قدماء في ترتيب العوالم بعد ذكر الفلك المستقيم وأنه الثامن أو التاسع على اختلافهم ن فوق الأفلاك كلها علام النفوس محيط بجميعها ثم فوقه عالم العقل مسبول على هذه العوالم والبارئ سبحانه وتعالى فوق ذلك كله فإن أرادوا المسافة فقريب من قول بعض المسلمين وإن أرادوا الرفعة والعظمة والعلو كان أقرب إلى الحق والله أعلم وأحكم وفي أخباره أصدق.

صفة ما في الأفلاك والسماوات كما جاء في الخبر وروى في الخبر أن في السماء الدنيا بيتاً بحذاء الكعبة يقال له الضراح يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبداً وقال هو البيت المعمور وروى أن أرواح الصالحين تصعد إليه قالوا وتحت العرش بحر من ماء أخضر كمنى الرجال يحيي الله به الموتى بين النفختين وهو الذي قال الله عز وجل ص والقرآن ذي الذكر وروى عن الضحاك أن في السماء جبالاً من برد خلقه الله مقداراً معلوماً لكل سنة فإذا فنى ذلك قامت القيامة وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال ليست سنة بأقل مطراً من سنة ولكن الله قسم هذه الأرزاق فجعلها من هذا القطر فإذا عمل قوم بالمعاصي حول ذلك إلى غيرهم وقد فسر بعضهم وفي

السماء رزقكم وما توعدون المطر وزعم وهب أن الله خلق في الهواء طيراً أسود فهي التي طارت بالحجارة على لوط وعلى أصحاب الفيل وروى ابن اسحق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن مما خلق الله ديكاً براثنه تحت الأرض السابعة وعرفه منطو تحت العرش قد أحاط جناحاه بالأفقين فإذا بقي ثلث الليل الأخير ضرب بجناحيه ثم قال سبحان ربنا الملك القدوس فيسمعها من بين الخافقين فترون أن الديكة إذا سمعت ذلك وروى أن في السماء موجاً مكفوفاً وقيل دون السماء بحر مكفوف فيه مجاري الشمس والقمر والجواري الخنس وزعم بعضهم أن ذلك قوله والبحر المسجور قالوا وليس في السماوات والسبع موضع قدم إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد وجاء في حديث المعراج بعجيب الصفة للخلق الذي في السماوات والله أعلم وهكذا جاءت الأخبار في غير حديث المعراج وهكذا كله جائز في حد الإمكان لأنا قد علمنا أن ما تعالى عن وجه الأرض دخل في حد الروحانيين فكل ما ارتفع درجة ازداد لطافة ورقة وليس البيت كله من طين وخشب ولا البحر الماء المجتمع وقد قلنا هذا إن ما خرج عن هذا العالم الأسفل فقد انقطعت النسبة إلا في التسمية ولا يختلف مخالفونا أن المطر قبل أن ينزل أجزاء متفرقة لطيفة ومن لطف أجزائه ممسك في السماء فغير مستنكر أن يكون في السماء بحر على هيئة أجزاء المطر وكذلك البرد والثلج مع هذه رواية الضحاك وأكثر المسلمين على خلافها وكذلك رواية وهب في الطير والحجر وإنما الاجتماع في كون الملائكة في السماء قد أجازت جماعة من القدماء أن يكون في العلو سباع وبهائم غير محسوسة للطافة أجسامها فما ينقمون ممن أقر بصورة الملائكة.

صفة الكواكب والنجوم قال الله تعالى " إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد " وقال تعالى " وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر فأخبر في النجوم زينة وحراسة وهداية " وقال عز ذكره " فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس " وقال كثير من أهل التفسير أنهن الكواكب السيارة المتحيرة فأولهن زحل في السماء السابعة بارد الطبيعة وهو أبطأ الكواكب سيراً والثاني المشتري في السماء السادسة معتدل الطبع والثالث المريخ في السماء الخامسة حار الطبع والرابع الشمس في السماء الرابعة حارة الطبع والخامس الزهرة في السماء الثالثة رطبة الطبع والسادس عطارد في السماء الثانية ممازج الطبع والسابع القمر في السماء الدنيا بارد الطبع وهو أسرع الكواكب سيراً وكل هذه الكواكب سعود إلا زحل والمريخ وقد تميز عنهن الشمس والقمر فيقال سعدان ونحسان وممازج فالسعدان المشتري والزهرة والنحسان زحل والمريخ والممازج عطارد من النحوس نحس ومع السعود سعد والنيران الشمس والقمر فالشمس مثل الملك والقمر مثل الوزير له وزحل كالشيخ ذو الرأي السديد والمشتري كالقاضي العادل والمريخ كالشرطي المعذب والزهرة كالمرأة الحسناء وعطارد كالكاتب ولكل كوكب من هذه الكواكب بيتان من البروج الإثنى عشر إلا النيرين فإن لكل واحد منهما بيتاً واحداً ومعنى البيت أنه يحله في فصله ويزيد سلطانه وشرفه فيه فالأسد بيت الشمس والسرطان بيت القمر والجدي والدلو بيتا زحل والقوي والحوت بيتا المشتري والحمل والعقرب بيتا المريخ والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد وسنفرد بمشيئة الله وعونه كتاباً لطيفاً في ذكر النجوم وما يصح فيها ويوافق قول أهل الحق فأني أرى الجهال قد استخفوا بها كل الاستخفاف ووضعوا من شأن متعاطيها وصغروا من أقدارها لتحلي الزراق والكهان بها وتنزع أبواعها إلى الأحكام التي عينها الله عن خلقه واستأثر نفسه بعلمها دونهم وكيف المدخل إليها والمأخذ فإن جحد البرهان ورد العيان نقص عظيم عند أهل البيان وذوي الأديان قال الله عز وجل " والسماء ذات البروج " وقال تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وقال تعالى " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج " وقال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق وقال

تعالى " إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب " مع آي كثيرة ودلالات ظاهرة ولقد استدل المحققون من أهل التنجيم على التوحيد بدلالة ما أعظم خطرها وأسنى رتبتها قالوا لما رأينا الفلك متحركاً فباضطرار علمنا أن حركته من شيء غير متحرك لأنه إن كان المحرك له متحركاً لزم أن يكون ذلك إلى ما لا نهاية له والفلك دائم الحركة فقوى المحرك له غير ذات نهاية فليس يمكن أن يكون جسماً بل يجيب أن يكون محركاً لأجسام وكما لا نهاية لقوته فليس إذاً هو بزائل ولا فاسد قالوا فانظروا كيف أدركنا الخالق الصانع المبدئ المبدع المحرك للأشياء من الأشياء الظاهرة المعروفة المدركة بالحواس وأنه أزلي ذو قوة وقدرة غير ذات نهاية ولا متحرك ولا فاسد ولا متكون تبارك وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فالبروج اثنى عشر ينزل الشمس كل شهر من شهور السنة برجاً منها فألوها الحمل ثم الثور ثم الجوزاء ثم السرطان ثم الأسد ثم السنبلة ثم الميزان ثم العقرب ثم القوس ثم الجدي ثم الدلو ثم الحوت، وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين جزءاً تسمى منازل القمر ينزل القمر منها كل ليلة منزلاً وهي الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزباني والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرغ الأول وفرغ الثاني وبطن الحوت، كل برج منها منزلان وثلث منزل فيما يقطعه الشمس في السنة ويقطعه القمر في الشهر يقول الله تعالى " والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون " القديم فمن البروج ثلثة نارية الحمل والأسد والقوس وثلثة هوائية الجوزاء والميزان والدلو وثلثة مائية السرطان والعقرب والحوت وثلثة أرضية الثور والسنبلة والجدي وذلك أنها خلقت من هذه الطبائع وأعلم إن إضافة

الفعل الاختياري إلى البروج والنجوم من أعظم الخطاء والخطل إنما هي مخلوقة مسخرة موضوعة على ما أراد الله منها كسائر السموات والجوامد المخلوقة على طباعها وكما جعلت النار محرقة والماء مرطبة قال الله تعالى " وسخر لكم الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره " وقد رويت في النجوم روايات ما يحكى بعضها ويضيف العلم إلى الله عز وجل. الاختياري إلى البروج والنجوم من أعظم الخطاء والخطل إنما هي مخلوقة مسخرة موضوعة على ما أراد الله منها كسائر السموات والجوامد المخلوقة على طباعها وكما جعلت النار محرقة والماء مرطبة قال الله تعالى " وسخر لكم الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره " وقد رويت في النجوم روايات ما يحكى بعضها ويضيف العلم إلى الله عز وجل.

ذكر صورة الشمس والقمر والنجوم وما فيها روى أبو حذيفة عن عطاء أنه قال بلغني أنه قال الشمس والقمر طولهما وعرضهما تسع مائة فرسخ في تسع مائة فرسخ قال الضحاك فحسبناه فوجدناه تسع آلاف فرسخ والشمس أعظم من القمر قال وعظم الكواكب اثنا عشر فرسخاً في اثني عشر فرسخاً وروينا عن عكرمة أنه قال سعة الشمس مثل الدنيا وثلثها وسعة القمر مثل الدنيا سواء وعن مقاتل أنه قال الكواكب معلقة من المساء كالقناديل قاولا وخلقت الشمس والقمر والنجوم من نور العرش هذا قول أهل الإسلام من غير رواية من كتب ولا خبر صادق واختلف القدماء في ذلك فحكى افلوطرخس عن بعضهم أنه كان يرى الشمس مساوية في عظمها الأرض وأن الدائرة التي يصير عليها هي مثل الأرض تسعاً وعشرين مرة وعن بعضهم أنه قال هي تسعة أقدام الرجل وعن بعضهم أنها في المقدار الذي يراها وعامة والمنجمين على أن الشمس أعظم من الأرض مائة وست وستين مرة وربع ثمن مرة فانظر إلى هذا الاختلاف الظاهر والتفاوت البين وهل يستجيز ذو عقل عيب المسلمين في روايتهم مع ما

يرى من اختلاف أصحابه واختلاف قولهم واختلفوا في جرم الشمس فحكى عن ارسطاطاليس أنه كان يرى جرم الشمس من العنصر الخامس وكذلك جرم الفلك وعن أفلاطن أنه كان يرى أكثر جوهر الشمس ناراً وعن الرواقيين أنهم يرون الشمس جوهراً عقلياً يرتفع من البحر ومنهم من يزعم أنّ جرم الشمس كالخضرة المستنيرة ومنهم من يراه كالزجاج تقبل استنارة النار التي في أعلى العالم ويبعث الضوء إلينا فيكون الشمس على رأيه ثلاثاً إحداها التي في أعلى العالم في السماء وهي ناريّة والثانية التي تكون على سبيل المرآة والثالثة الانعكاس الذي ينعكس إلينا بضوءه ومنهم من يقول أنّ جوهر الشمس أرضيّ متخلخل كالغيم يلتهب ناراً وأمّا المسلمون فإنهم يقولون إنما خلقت من نور ومنهم من يقول من ونار والنار والنور قريب في المعنى والله أعلم واختلفوا في شكل الشمس والقمر والكواكب فحكى عن الرواقيين أنهم يرون هذه الأشكال كريّة كما العالم كروي وعن بعضهم أنّ شكلها شكل السفينة المقعرة المملوءة ناراً وقال طائفة منهم أن النجوم بمنزلة المسامير المسمرة في الجوهر الجليدي والقصوص المركبة وقال قوم هي صفائح دقاق والله أعلم واختلفوا في جرم القمر فحكى بعضهم أن جرم القمر سحاب مستدير وافلاطون يقول الجوهر الناريّ في تركيب القمر جسم صلب مستنير فيه سطوح وجبال وأدوية ويحتج ما يرى في وجهه من الأثر وأكثر المنجمة يزعمون أنه عين صقيلة تقبل من ضوء الشمس ولذلك يتسق في المقابلة وكذلك النجوم فأخذ ضوءها من الشمس والله أعلم واختلفوا في عظم القمر والكواكب فحكي عن بعضهم أنه مثل الشمس وعن بعضهم أنه أصغر منها وزعم قوم أنه أعظم من الأرض وزعم الآخرون أن الأرض أعظم منه والمنجمة منهم من يزعم أن أصغر كوكب من الكواكب الثابتة هو أعظم من الأرض ست عشر مرة وأكبرها مائة وعشرين مرة وأما السيارة فالشمس أعظم من الأرض مائة مرة وستين مرة ونيفاً كما قلنا وزحل مثل الأرض تسعاً وتسعين مرة ونيفاً والمشتري مثل الأرض مرة ونصفاً والزهرة مثل الأرض أربعاً وأربعين مرة وعطارد مثل الأرض اثنين وستين مرة والقمر مثل الأرض تسعة وثلاثين مرة وربعاً والله أعلم واختلفوا في أجرام الكواكب وأشكالها كما اختلفوا في الشمس والقمر فزعم انها أنوار كروية وكان أرسطاطاليس يرى الكواكب حية ولها النفس الناطقة قال فلذلك يدل على اتفاق النفس الناطقة الحيوانية وزعم بعضهم أن الكواكب والشمس والقمر تنشأ في المشرق وتبلى في المغرب وزعم قوم أن الكواكب والشمس والقمر في فلك واحد لا في أفلاك مختلفة وقرأت في كتاب الخرمية أن الكواكب كرىً وثقب وأنها تنزع أرواح الخلائق وتسلمها إلى القمر فذلك زيادة القمر حتى إذا انتهى في الكمال والتمام غايته سلمها إلى من فوقه واستفرغ ثم عاد في تسلم الأرواح من الكواكب حتى يعود مملئياً فاعتبر بهذه العجائب واتبع كتاب الله عز وجل وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله يقول الله تعالى وجعل الشمس سراجاً والقمر نوراً لأن السراج يجمعها وكذلك خبره عن الكواكب حيث قال فأتبعه شهاب ثاقب قال وجعل القمر فيهن نوراً وجملة القول أن كل ما روى في هذا الباب عن القدماء وأصحاب النجوم مما لم يكن نقصاً للتوحيد وإبطالاً للشريعة أو

جحداً للعيان فموقوف على سبيل الجواز والامكان قال الله تعالى رب المشرقين ورب المغربين وقال تعالى رب المشارق والمغارب على الجميع ورب المشرق والمغرب على الإرسال وذلك أن للشمس مائة وثمانين مشرقاً ومائة وثمانين مغرباً تطلع كل يوم من مشرق وتغرب في مغرب يقابله والمشرقان مشرق أطول يوم في السنة عند حلول الشمس برأس السرطان وأقصر يوم عند حلولها برأس الجدي ومغرباها محاذياً بهما على السواء وقال لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر فأخبر أنهما يتقاربان ولا يتداركان وكلما دنا من الشمس منزلة امحق ضوءه حتى يستتر وكلما بعد ازداد ضوءاً حتى إذا قابلها كمل واتسق قال بعض المفسرين في قوله فمحونا آية الليل فهو ما امتهن

القمر به من الزيادة والنقصان والله أعلم للعيان فموقوف على سبيل الجواز والامكان قال الله تعالى رب المشرقين ورب المغربين وقال تعالى رب المشارق والمغارب على الجميع ورب المشرق والمغرب على الإرسال وذلك أن للشمس مائة وثمانين مشرقاً ومائة وثمانين مغرباً تطلع كل يوم من مشرق وتغرب في مغرب يقابله والمشرقان مشرق أطول يوم في السنة عند حلول الشمس برأس السرطان وأقصر يوم عند حلولها برأس الجدي ومغرباها محاذياً بهما على السواء وقال لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر فأخبر أنهما يتقاربان ولا يتداركان وكلما دنا من الشمس منزلة امحق ضوءه حتى يستتر وكلما بعد ازداد ضوءاً حتى إذا قابلها كمل واتسق قال بعض المفسرين في قوله فمحونا آية الليل فهو ما امتهن القمر به من الزيادة والنقصان والله أعلم ذكر طلوع الشمس والقمر وكسوفهما وانقضاض الكواكب وغير ذلك مما يتعرض في السماء وروي في الأخبار أن الشمس إذا غربت مرت حتى تقطع الأرض فتخر ساجدة بين يدي العرش فتسلب ضوءها فتكتسي نوراً جديداً ثم تؤمر أن ترجع فتطلع فتأبى ذلك وتقول لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله حتى ينخسها ثلث مائة وستة وستون ملكاً فإذا طلعت خلع عليها ثلاث حلل حمراً وبيضاً وصفراً وكذلك ما يرى من تغير ألوانها عند طلوعها وأنشد النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى قول أمية

والشمس تصبح كل آخر ليلة ... حمراء تضحى لونها يتوقد

تأبى فما تطلع لنا في رسلها ... إما معذبة وإما تجلد

فقال النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله صدق وعند أهل النجوم الشمس لا تزال طالعة على قوم وغاربة على قوم لأنها دائرة على كرة الأرض دوراً مستقيماً وقد ينكر كثير من الناس نخس الشمس وإبأها الطلوع لأنها مسخرة جماد غير مكلفة ولا مختارة من أن الخبر ما أراه يصح وإن صح فالتأويل والتمثيل من ورائه لأن العرش محيط بالعالم فحيث ما سجدت تحت العرش ولكن ربما فضل بعض البقاع على بعض فوصف بالتقريب كقولنا فلان يعين الله وكل شيء يعينه وكقولنا بيوت الله وما أشبه ذلك وأما سجدة الشمس والقمر والنجوم والشجر وغير ذلك مما يوصف به الأرض والسماء وسائر الخلق الذي ليس بمميز ولا عاقل فهو انقياد لما يراد منها وتذللها لما وضعت عليه من طبع أو حركة وقلة امتناعها على السجود لصانعها فأضيف السجود إليها لما كانت هي سببه ومن يرى الشمس والقمر والكواكب أحياء ناطقة فما ينكر من سجودها وتسبيحها مع أنّا نجيز أن يحدث الله في الجماد معنىً يسجد به ويطيع لأن ذلك على الله غير عزيز وقد سبق ذكر هذه الأشياء ومعنى حقائقها على التقصي والبيان في كتاب معاني القرآن وإما نخس الملائكة إياها فيشبه أن يكون تمثيلاً ليكون كما قال الشاعر وهو طرفة بن العبد

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها ... عليه نقى اللون لم يتخدد

فإن كان الخبر محتملاً للتأويل فلا معنى للتسرع إلى التخطئة والتكذيب وزعم وهب أن الشمس على عجلة لها ثلثمائة وستون عروة قد تعلق بكل عروة ملك من الملائكة يجرونها في السماء وكذلك القمر وعجلة القمر من نور الشمس قال وللبحر موج مكفوف في الهواء كأنه جبل ممدود ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأفتن أهل الأرض حتى يعبدوه من دون الله وروى غيره أن الله تعالى قد وكل بعين الشمس حتى تغرب فال في نار حامية لولا ما يزعها من ملائكة الله لأحرقت ما عليها وقيل أن الشمس يضيء وجهها لأهل السماء وظهرها لأهل الأرض قالوا والشمس إذا هبطت من سماء إلى سماء انفجر الصبح حتى إذا انتهت إلى سماء الدنيا اسفر قال وهب فإذا أراد الله أن يرى العباد آية يستعتبهم زالت الشمس عن تلك العجلة في ذلك البحر وإذا أراد الله أن يعظم الآية وقعت كلها وكذلك القمر وقد قلت لك في غير موضع أن الاعتماد على شيء من هذه الأخبار ما لم يكن نص كتاب أو صدق

خبر ولكن يوقف ولا يقطع على شيء منه حتى يصح والثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كسفت الشمس يوم مات ابنه ابراهيم عليه السلام فقال الناس إنما كسفت الشمس لموته فخطب وقال إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة والقدماء مختلفون في الكسوفات كما حكى افلوطرخس زعم أن بعضهم يرى كسوف الشمس بمسير القمر تحتها وبعضهم يرى ذلك لانقلاب جسم الشبيه بالسفينة فيصير مقعهره إلى فوق ومحدود به إلى أسفل وبعضهم يرى الشمس شوساً كثيرة والقمر أقماراً كثيرة في كل إقليم من أقاليم الأرض وفي كل قطعة ومنطقة وزمان وزعم بعضهم أن كسوف القمر بانسداد القعر الذي في تقويسه وأما أفلاطون وارسطاطاليس والخلاف منهم فيرون الكسوفات بدخولها تحت ظل الأرض وذلك إذا كانت الشمس تحت الأرض والقمر في مقابلتها وكانا في طريقة واحدة وقع ظل الأرض على جرمه فحال بينه وبين الشمس المضيئة له لأن ضوءه من الشمس وأما كسوف الشمس فبمرور القمر تحتها فيعتبر منكر أن يجعل الله كسوفه بظل الأرض آية للحق يستعتههم وإن كان سقوطه عن العجلة كما روى تمثيلاً لدخوله تحت ظل الأرض وقوله أن عجلة القمر من نور الشمس رمز إلى اقتباس القمر من نور الشمس وقولهم الشمس على عجلة لها ثلاثمائة وستون عروة يعني به الفلك ودرجاته الثلاثمائة والستين والله أعلم وقوله كلما هبطت الشمس من سماء إلى سماء انفجر الصبح يعني بها مسيرها في درجاتها وارتفاعها من منزلة إلى منزلة لأن أهل التنجيم لا يختلفون أنها في سماء واحدة واختلفوا في السواد الذي يرى في وجه القمر فروى المسلمون أنه لطخه ملك ورووا أن القمر كان مثل الشمس فلم يكن يعرف الليل من النهار فأمر الله الملك أن يمر جناحه عليه فمحاه هو ما يرى من السواد في وجهه وحكى عن ديمقريطيس أن جسم القمر مستنير صلب فيه سطوح وأودية وجبال فلذلك ما يرى في وجهه وزعم بعضهم أنه سحاب مستنير يلتهب وقال قوم أنه عين صقيلة كالمرآة يقبل ضوءه من الشمس إذا ما قابلها فذاك الحبال في وجهه ما قابله من عين الشمس والأمر في هذا سهل وذلك أنه لو كان كما زعم القوم كان يمحو الله إياه كما جاء في الخبر إما لخلق جبال فيه أو بإظهار جبال أو بما شاء واختلفوا في انقضاض الكواكب فقال المسلمون هو رجوم الشيطان كما قال الله تعالى وقلما ينكر الصور الروحانية في السماء إلا أهل التعطيل والإلحاد ثم هم مقرون بتأثير الفلك والكواكب وما فيها فلا معنى لإنكارهم استراق من يسترق السمع مع من أنكر الصور السماوية فهو الأرضية من الجن والشياطين أنكر فإن قيل لم تزل الكواكب تنقض وأنتم تزعمون أن السماء حرست عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قيل انقضاض الكواكب ليس كله رجوماً للشياطين ولعل الذي يرجمون به لا يشعر أحد ولا يراه أو ينقض الكواكب لعلة من العلل أو يقرن الله إليه عذاباً للشياطين وقد سئل الزهري هل كانت السماء تحرس في الجاهلية قال نعم فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم غلظ وشدر ومن المنجمين من يزعم أنه يجلد السماء وحكى عن بعضهم أنه قال بمنزلة الشرارة تسقط من الأثير فيطفأ عل المكان وزعم بعضهم أنه برغوث من الشمس مع اختلاف كثير واختلفوا في المجرة فحكى افلوطرخس عن بعضهم أنه فلك وسحاب وعن بعضهم أنه تخييل في العين وعن بعضهم أن

مسير الشمس كان أولاً عليه وقال أرسطاطاليس أنه التهاب بخار يابس كثير متصل في صورة النار تحت الكواكب المتحيرة ومن المسلمين من يسميها باب السماء ومنهم من يسميها شرج السماءير الشمس كان أولاً عليه وقال أرسطاطاليس أنه التهاب بخار يابس كثير متصل في صورة النار تحت الكواكب المتحيرة ومن المسلمين من يسميها باب السماء ومنهم من يسميها شرج السماء

ذكر الرياح والسحاب والأنداء والرعد والبرق وغير ذلك مما يعترض في الجو، اختلفوا في الرياح قال الله تعالى وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته فأخبر أنها بشرى المطر وقال عز ذكره الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فأخبر أنها باعثة الغيم ومثيرة السحاب وقال تعالى وأرسلنا الرياح لواقح فأخبر أنها تلقح الشجر والأرض قال الله تعالى وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم فأخبر أنها ضد الرياح اللاقحة لأنها عذاب واللاقحة رحمة وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال نصرت بالصبا وأهلك عاداً بالدبور وما جنوب إلا صب الله بها غيثاً وروى لا بئسو الرياح فإنها نفس الرحمن وقال المفسرون أن الله تنفس بها عن كمد الأرض وكربة الخلق بما ينزل بها من الغيث ويروح من الهواء وقيل الريح نفس ملك والله أعلم والرياح أربع الصبا والجنوب والشمال والدبور ويقال الريح واحدة وإنما يختلف في المهب من الجهات فالصبا هي القبول ومخرجها بين المشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء من مطلع الذراع إلى مطلع سعد الذابح والدبور يقابلها والجنوب مخرجها ما بين مشرق الشتاء إلى مغرب الشتاء من مطلع سعد الذابح إلى مسقط العقرب والشمال يقابلها والمطالع مائة وثمانون والمغارب مائة وثمانون لكل مطلع ريح ولكل مغرب ريح وكلها داخلة في هذه الأربع والريح هي الهواء بعينه فإذا أحدث الله فيه حركة هبت واضطربت وكذا يقول أكثر القدماء أن الريح سيلان الهواء ويزعمون أن هبوبها مرور الشمس بالأرض فيرتفع منها البخار فإذا كان البخار رطباً كان مادة الأمطار وإن كان يابساً كان مادة الرياح وهذا جائز أن يجعل الله مرور الشمس علة لإثارتها إذا شاء كما جعل السحاب سبباً للمطر وقد جاء في بعض الأخبار أن الصبا من الجنة والدبور من النار وروينا عن الحسن أنه قال الجنوب يخرج من الجنة فيمر بالنار فمن ثم حرها والشمال تخرج من النار فتمر بالجنة فمن ثم بردها وهذا والله أعلم وإن صح إضافة التمثيل لا من التبعيض كما يقال للرجل الفاضل هو من الملائكة وللشرير هو من الشياطين يراد به التشبيه بهم لا من جنسهم وجملتهم والمنجمون يزعمون أن حرارة الجنوب لمجيئها من بلاد حارة فتقرب الشمس منها وبرد الشمال لبعد الشمس عن تلك النواحي والله أعلم، فأما الغيوم والسحاب والأنداء والضباب فهي بخار يرتفع من الأرض فما غلظ منها صار سحاباً وما رق صار ضباباً وقتاماً قال الله تعالى " الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً والمنجمون يزعمون أن الشمس تمر بمواضع ندية وبطائح غمر فتثير سحاباً بحرارة مرورها فإذا تكاثف ذلك البخار صار غيماً قالوا والمطر اجتماع ذلك البخار وانعصاره فيقطر كما يقطر طبق القدر لأن كل شيء ند إذا حمي ثار منه البخار وذلك أن الحرارة إذا خالطت الرطوبة لطفت أجزائها فصيرتها هواء فإذا كثر في ذلك البخار برد الهواء رده البرد إلى الأرض فتكاثف وانعصر وصار ماء فانحدر فإن كان ذلك المنحدر شيئاً صغيراً يسيراً سمي نداً ولذلك تكون الأنداء في الشتاء وفي الليالي أكثر لكثر برودة الهواء فإن كان البخار الصاعد خفيفاً يسيراً وكان البرد الذي هجم عليه من فوق شديداً صار ذلك البخار جامداً وإن كان البخار كثيراً والبرد شديداً صار ذلك ثلجاً وإن ألح البرد على السحاب انقبض الماء الذي فيه فجمد وصار برداً وإنما الاختلاف في صغره وكبره لبعد مسافة الغيم من الأرض وقربه فإذا قرب نزل بسرعة لم يذب عن جوانبه شيء فبقي كبير الحب والقطر وكذلك المطر كله ممكن جائز لا نعلم في شيء منه رداً للكتاب ولا إبطالاً للدين وقد روينا عن ابن عباس رضي الله عنه أن الله تبارك وتعالى يرسل الرياح فتثير سحاباً وينزل عليه المطر فتمخضه الريح كما تمخض النتوح بولدها فإما حكاية وهب أن الأرض شكت إلى الله أيام الطوفان وأنه جددها فجعل السحاب غرباالاً للمطر فإن صح فالمعنى أنه زيد في كثافة السحاب وغلظه كما كان قول ذلك وقوله تعالى " وينزل من السماء من جبال فيها من برد " فأكثر أهل اللغة على أن البرد في الأرض كالجبال إذا نزل من المساء والسماء السحاب لا يختلف أهل اللغة في ذلك وقال

قوم أن الأمطار كلها من بخار الأرض وما البخار إلا مطرة واحدة ينزلها الله من السماء في كل سنة فيحيي بها الأرض والشجر والنبات وهو قوله " ونزلنا من السماء ماء مباركاً الآية والله

اعلم " .اعلم " .

فأما الرعود والبروق والصواعق والشهبان وقوس قزح والهدات والزلال جاء في بعض الأخبار أن الرعد ملك موكل بالحساب معه كذا من حديد يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي الإبل كلما خالف سحاب صاح به فصوته زجره السحاب والبرق مصعه والصواعق شراره وفي الحديث الآخر أن السحاب ملك يتكلم بأحسن الكلام ويضحك بأحسن الكلام ويضحك بأحسن الضحك فالرعد كلامه والبرق ضحكه والله اعلم بصحة هذه الأخبار لأن محمد ابن جريد الطبري رحمه الله روى في كتاب التفسير أن ابن عباس رضي الله عنه كتب إلى ابن الجلد يسأله على الرعد والبرق فقال الرعد الريح والبرق الماء قال الله تعالى " يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء " فأخبر عن تسبيح الرعد وإرساله الصواعق كما أخبر عن قول السماوات والأرض قالتا أتينا طائعين والقدماء مختلفون في هذه الأشياء وأرضاهم عندهم ارسطاطاليس وهو يزعم أن الشمس إذا مرت بالأرض فأثارت البخار اليابس والبخار الرطب فانعقد غيماً فإذا اجتمع ذلك البخار الرطب هناك حصر ما فيه من البخار اليابس في جوف السماء فقرع السحاب وحكه وصدعه فيكون من ذلك الصدم والاحتكال الرعد ويكون من ذلك الخرق والصدع البرق والصواعق في المثل كما يتطاير من شرار الزند وذلك إذا اجتمع إلى ذلك الاحتكاك حرارة الشمس واليبوسة فعند ذلك يحدث الصواعق وقد بينا فيما مضى أن اسم الكل قد يقع على الصور الروحانية وعلى الجماد من جهة الانقياد والاستسلام لما وضع له فغير بعيد أن يسمى الرعد وهو ريح أو صدم سحب ملكاً على هذه الوجوه والله اعلم وقد شبه ارسطاطاليس الصوت الذي يكون في السحاب بالحطب الرطب الذي يستعمل في النار فيسمع له صوت وقعقعة ويجوز أن يكون الله يخلق من اضطرب الريح في السحاب ملكاً يسميه الرعد ونحن نوفق بين مقالات أهل الإسلام وأراء القدماء ما لم نجد النص من كتابنا والخبر الصادق من نبينا صلى الله عليه وسلم فمتى وجدنا شيئاً م نذلك بخلاف آرائهم فذاك الرأي منبوذ مهجور، وأما هالة الشمس والقمر والكواكب فمن اجتماع البخار في الجو وتكاثفه فإذا سطع نور الشمس والقمر في الهواء عطف ذلك النور راجعاً في الهواء على ذلك البخار فترى تلك الدارات وقد يقول وقم بخلاف هذا والله اعلم، وأما الشهبان والأعمدة فهي من البخار اليابس إذا علا في الجو حتى قرب من فلك القمر فلينحن هنالك ويلتهب بحركة الفلك فإذا كان ذلك البخار متصلاً بعضه ببعض يرى كالشهاب والعمود والكوكب ذي الذؤابة وقال قوم أن ذلك تخيل في البصر لا حقيقة له وأما قوس قزح فمن شعاع الشمس الراجع إلى البخار الرطب كمثل ما يشرق الشعاع في الماء ثم يرجع إلىالحائط وقد يعرض مثل ذلك لغربة رمد إذا نظر إلى السراج ويمكن يمتحن ذلك بأن يقف واقف بحذاء الشمس ويأخذ ماء فيريقه فيما بينهما ويفعل ذلك متصلاً حتى إذا كان انعكاس وجد من ذلك قوس قزح وأما حمرته وصفرته فمن قبل الرطوبة واليبس وقياس ذلك النار فإنها إذا كانت من حطب رطب كان لون تلك النار أحمر كدراً وإن كانت منح طب يابس كان لونها أصفر صافياً والخضرة التي فيه بعد الصفرة فلأن الجسم الذي ينعكس عنه يكون أكبر كدورة وزعم بعضهم أن ذلك تخيل لا حقيقة له كراكب السفينة يتخيل إليه أن الأرض تسير معه وروى أن ابن عباس كان يكره أن يقول قوس قزح ويقول قوس قزح للشيطان وحكى وهب أن الله أظهر ذلك بعد الطوفان أماناً من الغرق والله أعلم، وأما الزوبعة فهي التقاء ريحين مختلفتين من جهتيهما ومهابهما فيرتفع منها إعصار

مستطيل في الهواء وقد يقال أنه شيطان والله اعلم، وأما الهدة فمن وقفات الريح في الهواء وفي الأرض، وأما الزلازل فعلى وجوه وذلك أن الأرض يابسة الطبيعة فإذا مطرت رطبت فيعمل فيها الشمس ويتولد منها بخار رطب وبخار يابس فالبخار الرطب مادة الأنداء والبخار اليابس مادة الرياح ومن طبع البخار الحركة إلى فوق فإذا تحرك وصادف أرضاً صلبة اضطرت الأرض لذلك وإن صادف أرضاً رخوة خرجت من غير زلزلة فإن كانت الأرض حجارية صلبة وتزعزعت الريح في جوفها ولم يجد منفذاً فربما شقته وصدعته وربما خرجت على أثر الزلزلة الهدة الهائلة والصوت الشديد وذلك لاحتقان البخار في جوف الأرض فإذا انشقت أصاب مخرجاً وربما قلبت الأرض فيصير أعلاها أسفلها وربما شق عن عيون ومياه فأغرقت

كثيراً من الأرض وللقدماء في عله الزلزلة كلام كثير ومذاهب مختلفة وأما المسلمون فيقولون أنها من فعل الله إذا أراد أن يرى العباد أنه يستعتبهم وليس بعجيب أن جعل الله هذه الآية بتحريك الريح الأرض وزلزلت الأرض بدمشق فخطب أبو الدرداء فقال إن الله يستعتبكم فأعتبوا أو أما ما روى من القصص أن لكل أرض عرقاً متصلاً بجبل قاف والملك موكل به فإذا أراد الله أن يخسف بقوم أومى إليه أن حرك ذلك العرق فإن صح وما أراه يصح إلا من جهة أهل الكتاب وليسوا بأمناء على ما في أيديهم فهو تشبيه وتقريب من إفهام الخلق وتعليم بأن ذلك كله من فعل الله لا من ذات نفسها. ً من الأرض وللقدماء في عله الزلزلة كلام كثير ومذاهب مختلفة وأما المسلمون فيقولون أنها من فعل الله إذا أراد أن يرى العباد أنه يستعتبهم وليس بعجيب أن جعل الله هذه الآية بتحريك الريح الأرض وزلزلت الأرض بدمشق فخطب أبو الدرداء فقال إن الله يستعتبكم فأعتبوا أو أما ما روى من القصص أن لكل أرض عرقاً متصلاً بجبل قاف والملك موكل به فإذا أراد الله أن يخسف بقوم أومى إليه أن حرك ذلك العرق فإن صح وما أراه يصح إلا من جهة أهل الكتاب وليسوا بأمناء على ما في أيديهم فهو تشبيه وتقريب من إفهام الخلق وتعليم بأن ذلك كله من فعل الله لا من ذات نفسها.

ذكر الليل والنهار عند القدماء الليل غيبوبة الشمس والنهار طلوعها وكثير من المسلمين يقولون الليل والنهار خلقان لله غير الشمس والقمر قالوا لأنا نرى الشمس أشياء كثيرة فيها جرمها ومنها ضوءها ومنها حرها وقد نشاهد حرارة فلا ضوء وضوءاً بلا حرارة فنعلم أن كل واحد منها معنى منفرد بذاته وقد قال الله تعالى " والشمس وضحاها والقمرإذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها " قال بعض المفسرين النهار يحلي الشمس فيكسوها ضوءاً وفي رواية أهل الكتاب أن أول ما خلق الله النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلاً والنور نهاراً ثم سمك السماوات السبع من دخان الماء حتى استقللن وأغطش في السماء الدنيا ليلها وأخرج ضحاها فجرى فيه الليل والنهار وليس فيهما شمس ولا قمر ولا نجوم ثم دحا الأرض فأرساها بالجبال وهكذا روى محمد بن اسحق في المبتدأ فهذا كله يدل على أن الليل والنهار ليستا من الشمس في شيء وإن كانت الشمس تعطي النهار ضوءاً وحرارة بالشمس عرفنا حر النهار من حر الليل وروى في بعض القصص أن الله خلق حجاباً من ظلمة مما يلي المشرق ووكل به ملكاً يقال له شراهيل فإذا غربت الشمس قبض الملك قبضة من تلك الظلمة واستقبل به المغرب فلا يزال يخرج الظلمة من خلل أصابعه ويرسلها وهو يراعي الشفق فإذا غاب الشفق يسط كفه فطبقت الدنيا ظلمة ثم نشر جناحه فساق ظلمة الليل بالتسييح إلى المغرب فذلك كل ليلة حتى تنقل تلك الظلمة من الشرق إلى المغرب فإذا نقلها قامت القيامة وحكى وهب عن سلمان في هذه القصة أن ملك الليل يقال له شراهيل بيده خرزة سوداء قد دلاها من قبل المغرب فإذا نظرت الشمس إليها وجبت وبذلك أمرت وملك النهار يقال هراميل بيده خرزة بيضاء يعلقها من قبل المطلع فإذا رأها شراهيل مدها إلى خرزته السوداء فينظر الشمس إلى الخرزة البيضاء

فتطلع وبذلك أمرت فإن كان شيء من هذا حقاً آمنا به وصدقنا وإن كان غير ذلك فالله اعلم فمحمول على التأويل والتمثيل.

صفة الأرض وما فيها قال الله تعالى " ألم نجعل الأرض مهاداً والجبل أوتاداً " وقال تعالى " جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء " وقال الله تعالى " والله جعل لكم الأرض بساطاً " وقال قوم في معنى المهاد والبساط القرار عليها والتمكن منها والتصرف فيها وقد اختلف القدماء في هيأة الأرض وشكلها فذكر بعضهم أنها مبسوطة مستوية السطح في أربع جهات والمشرق والمغرب والجنوب والشمال ومن هؤلاء من زعم أنها كهيئة الترس ومنهم من زعم أنها كهيئة المائدة ومنهم من زعم أنها كهيئة الطبل وذكر بعضهم تشبيه بنصف الكرة كهيئة القبة وأن السماء مركنة على أطرافها وقال بعضهم هي في جابن من الفلك الأوسط وقال قوم هي مستطيلة كالأسطوانة الحجرية كالعمود وقال قوم أن الأرض إلى ما لا نهاية وأن السماء يرتفع إلى ما لا نهاية وقال قوم أن الذي يرى من دوران الكواكب إنما هو دور الأرض لا دور الفلك والذي يعتمده جماهيرهم أن الأرض مستديرة كالكرة وأن السماء محيطة فيها من كل جانب إحاطة البيضة بالمحة فالصفرة بمنزلة الأرض وبياضها بمنزلة الهواء وجلدها بمنزلة السماء غير أن خلقها ليس فيه استطالة كاستطالة البيضة بل هي مستديرة كاستدارة الكرة المستوية الخرط حتى قال مهندسوهم لو حفر في الوهم وجه الأرض لأدى إلى الوجه الآخر ولو نقب مثلاً بفوشنج لنفذ بأرض الصين قالوا والناس على وجه الأرض كالنمل على البيضة واحتجوا لقولهم بحجج كثيرة منها برهاني ومنها إقناعي فالذي يجب على المسلم اعتقاده إجازة ذلك على الإمكان لأن البسيط يحتمل نشر الشيء ومده كالثوب وغيره ويحتمل التمكن منه فإن كان الناس على الأرض كما زعموا فالأرض لمن هي تحته بساط كمثل من هي فوقها وما نبأ ولله الحمد علينا معاندة الحق ومعاداة أهله ولا الإزراء بشيء من العلوم والآداب وإن كانت تتخيله الديانة يقطع وثبت الولاية ولا نصرة للدين أعظم من تنزل الحق منزلته وإعطاء كل ذي حق حقه وزعم بعضهم أن الأرض مقعرة وسطها كالجام واختلفوا في كمية عدد الأرضين قال الله تعالى " الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن " فاحتمل هذا التمثيل أن يكون في العدد والأطباق فروى في بعض الأخبار أن بعضها فوق بعض غلظ كل أرض مسيرة خمس مائة عام وما بين أرض وأرض مسيرة خمس مائة عام وحتى عد بعضهم لكل أرض أهلاً على صفة وهيئة عجيبة وسمى كل أرض باسم خاص كما سما كل سماء باسم خاص وزعم بعضهم أن في الأرض الرابعة حيات أهل النار وفي الأرض السادسة حجار أهل النار فمن نازعته نفسه إلى الإشراف عليه نظر في كتب وهب وكعب ومقاتل وطبقه هذا العلم فاستوفى فيها حظه فإنها معرضة ممكنة وعن عطاء بن يسار في قول الله تعالى " الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن " قال في كل أرض آدم ونوح مثل نوحكم وإبراهيم مثل إبراهيمكم والله اعلم وأحكم وليس ذا بأعجب من قول الفلاسفة أن الشموس شموس كثيرة وأن القمر أقمار كثيرة في كل إقليم شمس وفي كل إقليم قمر ونجوم وقالت القدماء أن الأرض سبع على المجاورة والملاصقة وافتراق الأقاليم لا على المطابقة والمكابسة وأهل النظر من المسلمين يميلون إلى هذا القول ومنهم من يرى أن الأرضين سبع على الانخفاض والارتفاع كدرج المراقي ويزعم بعضهم الأرض مقسومة بخمس مناطق وهي المنطقة الشمالية والجنوبية والمستوية والمعتدلة والوسطى واختلفوا في مبلغ الأرض وكميتها فروى عن مكحول أنه قال مسيرة ما بين أقصى الدنيا إلى أدناها خمس مائة سنة مائتان من ذلك البحر ومائتان ليس يسكنها أحد وثمانون فيه يأجوج ومأجوج وعشرون فيه سائر الخلق وعن قتادة قال الدنيا عشرون وأربع آلاف فرسخ فملك السودان اثنا عشر ألف فرسخ وملك الروم ثمانية آلاف فرسخ وملك العجم ثلثة آلاف فرسخ وملك العرب ألف فرسخ وعن عبد الله بن عمر قال ربع من لا يلبس الثياب من السودان أكثر من جميع

الناس وقد أخرج بطليموس مقدار قطر الأرض واستدارتها في المجسطي بالتقريب قال استدارة الأرض مائة ألف وثمانون ألف اسطاديوس وهي أربعة وعشرون ألف ميل ويكون ثمانية آلاف فرسخ بما فيها من البحار والجبال والفيافي والغياض والفرسخ ثلثة أميال والميل ثلثة ألف ذراع بذارع الملك والذاراع ثلثة أشبار وثلثة أشبار ستة وثلثون أصبعاً والأصبع الواحدة خمس شعيرات مضمومات بطون بعضها إلى بعض والاسطاديوس أربع مائة ذراع قال وغلظ الأرض وهي

قطرها سبعة آلاف وستمائة وثلاثون ميلاً يكون ألفين وخمس مائة فرسخ وأربعين فرسخاً وثلثا قال فبسيط الأرض كلها مائة واثنان وثلاثون ألف ألف وستماية ألف ميل يكون مائتي ألف وثمانية وثمانين فرسخاً فإن كان حقاً فهو وحي من الحق أو إلهام وإن كان قياساً واستدلالاً فقريب أيضاً من الحق وإن كان غير ذلك من تنجيث وتنجيم فالله أعلم وأما قول قتادة ومكحول فلا يوجب العلم اليقيني الذي يقطع على الغيب به واختلفوا في البحار والمياه والأنهار فروى المسلمون أن الله خلق البحار مراً زعافاً وأنزل من السماء الماء العذب كما قال وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وكل ماء عذب من بئر أو نهر أو غير ذلك فمن ذلك الماء فإذا اقتربت الساعة بعث الله ملكاً معه طست فجمع تلك المياه فردها إلى الجنة وزعم أهل الكتاب أن أربعة أنهار تخرج من الجنة الفرات وسيحان وجيحان ودجلة وذلك أنهم يزعمون أن الجنة من مشارق الأرض وروى أن الفرات جزر زمن معاوية برمانة مثل البعير البازل فقال كعب أنه من الجنة فإن صدقوا فليست هي بجنة الخلد ولكنها من جنان الأرض وعند القدماء أن المياه من الاستحالات فطعم كل ماء على طعم تربته ونحن لا ننكر قدرة الله سبحانه على إحالة الشيء على ما يشاء كما يحول النطفة علقة والعلقة مضغة ثم كذلك حالاً بعد حال إلى أن يفنيه كما أنشأه واختلفوا في ملوحة ماء البحر فزعم قوم أنه لما طال مكثه وألحت الشمس عليه الإحراق صار مراً ملحاً واجتذب الهواء ما لطف من أجزائه فهو نقيه ما صفته الأرض من الرطوبة فغلظ وزعم آخرون أن في البحر عروقاً تغير ماء البحر ولذلك صار مراً زعافاً واختلفوا في المدر والجزر فزعم ارسطاطاليس أن علة ذلك من الشمس إذا حركت الريح فإذا ازدادت الرياح كان منها المد وإذا نقصت كان عنها الجزر وزعم كيماوس أن المد بانصباب الأنهار في البحر والجزر بسكونها وزعم بعضهم أن ذلك المد بامتلاء القمر والجزر بنقصانه وقد روى في بعض الأخبار أن لله ملكاً موكلاً بالبحر فإذا وضع يده في البحر مد وإذا رفعه جزر فإن صح ذلك والله أعلم كان اعتقاده أولي من المصير إلى ما لا يفيد حقيقة ولو ذهب ذاهب إلى أن ذلك الملك يهب الرياح التي تكون سبب المد ويزيد في الأنهار أو يفعل ذلك عند امتلاء القمر حتى يكون توفيقاً بين الروايات والآراء لكان هذا مذهباً والله أعلم، واختلفوا في الجبال قال الله عز وجل " وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم " وقال تعالى " ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً " وقال تعالى ق والقرآن المجيد قال قوم من المفسرين أنه جبل محيط بالعالم من زمردة خضراء ثم اختلفوا فقال بعضهم أن منه إلى السماء مقدار قامة رجل وقال آخرون بل السماء مطبقة عليه وقال قوم وراءه عوالم وخلائق لا يعلمها إلا الله ومنهم من يقول ما وراءه من حد الآخرة ومن حكمها وإن الشمس تغرب فيه وتطلع منه وهو الساتر لها عن الأرض ويسميه القدماء بالفارسية كوه البرز وحكى افلوطرخس عن ديمقريطيس أن الأرض كانت في الابتداء تكفأ لصغرها وخفتها على طول الزمان فتكاثفت وثبتت وهذا قول المسلمين بعينه لو أن زاد فيه ثبت بالجبال ومنهم من يزعم أن الجبال عظام الأرض وعروقها واختلفوا فيما تحت الأرض أما القدماء فأكثرهم يزعمون أن الأرض يحيط بها الماء والماء يحيط به الهواء والهواء تحيط به النار والنار يحيط بها السماء الدنيا ثم الثانية إلى السبع ثم فوقها فلك الكواكب الثابتة محيك بهذه السماوات والأركان التي ذكرنا ثم فوقها الفلك الأعظم المستقيم ثم فوقه عالم النفس

وفوق عالم النفس عالم العقل وفوق عالم العقل البارئ جل جلاله ليس وراءه شيء وهو فوق كل شيء فعلى مذهبهم أن تحت الأرض سماء كما فوقها وفي كتاب قصاص المسلمين أشياء يضيق الصدر عنها وروى أن الله تعالى لما خلق الأرض كانت تكفأ كما تكفأ السفينة فبعث الله ملكاً فهبط حتى دخل تحت الأرض فوضع الصخرة على عاتقه ثم أخرج يديه إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب ثم قبض على الأرضين السبع فضبطها فاستقرت ولم يكن لقدمه قرار فأهبط الله ثوراً من الجنة له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة فجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تصل قدماه إليه فبعث الله ياقوتة خضراء من الجنة غلظها مسيرة كذا ألف عام فوضعها على سنام الثور فاستقرت عليها قدماه وقرون الثور خارجة

من أقطار الأرض مشبكة تحت العرش ومنخر الثور في ثقبين من ملك الصخرة تحت البحر فهو يتنفس كل يوم نفسين فإذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر البحر قال ولما لم يكن للكمكم مستقر فخلق الله حوتاً يقال له بهموت فوضع الكمكم على وتر الحوت والوتر الجناح الذي يكون في وسط ظهره وذلك الحوت على الريح العقيم وهو مزموم بسلسلة كغلظ السماوات والأرضين معقودة قال ثم انتهى إبليس عليه اللعنة إلى ذلك الحوت فقال ما خلق الله خلقاً أعظم منك فلم لا نزيل الدنيا فهم بشيء من ذلك فسلط الله عليه بقة في عينه فشغلته وزعم بعضهم أن الله سلط عليه سمكة كالشطبة فهو ينظر إليها ويهابها قالوا ثم أنبت الله من تلك الياقوتة جبل قاف وهو من زمردة خضراء وله رأس ووجه وأسنان وأنبت من جبل قاف الشواهق كما أنبت الشجر من عروق الشجر وزعم وهب أن الثور والحوت يبتلعان ما ينصب من مياه الأرض فإذا امتلأت أجوافهما قامت القيامة قالوا والأرض على ماء والماء على الصخرة والصخرة على سنام ثور والثور على كمكم من الرمل متلبد والكمكم على ظهر الحوت والحوت على الريح العقيم والريح في حجاب من الظلمة والظلمة على الثرى وإلى الثرى انتهى علم الخلائق لا يعلم أحد ما دون ذلك إلا الله بقوله تعالى له ملك السموات الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وحكى وهب فيما روى عن عيسى عليه السلام أنه سئل عما تحت الأرض فقال ظلمة الهواء وقيل فما تحته قال انقطع علم العلماء فهذه القصص ما تولع بها العوام ويتنافسون فيه ولعمري أنه لما يريد المرء بصيرة في دينه وتعظيماً لقدرة ربه وتحيراً في عجائب خلقه فإن صحت فما خلقها على الله بعزيز وإن لم يكن من اختراع أهل الكتاب وتزوير القصاص فكلها تمثيل وتشبيه والله أعلم وقد روى شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم كان جالساً في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال النبي اعلموا أن هذه زوايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه ثم قال هل تدرون ما الذي فوقكم قالوا الله ورسوله أعلم قال فإنها الرفيع سقف محفوظ وموج مكفوف قال هل تدرون كم بينكم وبينها قالوا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمس مائة عام ثم قال أتدرون ما فوق ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال فوقه العرش وبينه وبين السماء بعد مثل ما بين سماءين ثم قال أتدرون ما تحتكم قالوا الله ورسوله أعلم قال فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمس مائة عام ثم قال والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل لهبطتم على الله ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن الآية فهذا الخبر يشهد بصدق كثير مما يروون إن صح والله أعلم وليس فيه ذكر الكمكم والصخرة والثور وغير ذلك وأما أهل النظر فمختلفون فيما تحت الأرض فزعم هشام بن الحكم أن تحت الأرض جسماً من شأنه الارتفاع والعلو كالنار والريح وأنه المانع للأرض من الانحدار وهو نفسه غير محتاج إلى ما يعمده من تحته لأنه ليس مما ينحدر بل يطلب الارتفاع وزعم أبو الهذيل أن الله وقفها بلا عمود ولا علاقة وقال بعضهم أن الأرض ممزوجة من جنسين خفيف وثقيل فالخفيف شأنه الارتفاع والصعود والثقيل شأنه الهبوط فيمنع كل واحد

منهما صاحبه من الذهاب في جهة لتكافئ تدافعهما والله أعلم واختلف القدماء في ذلك فزعم قوم منهم أن الأرض تهوي إلى ما لا نهاية وزعم آخرون أن بعضها يمسك بعضاً وزعم بعضهم أنها في خلاء لا نهاية لذلك الخلاء وعامتهم أن دوران الفلك عليها يمسكها في المركز من جميع نواحيها ويقول أرسطاطاليس أن خارج العالم من الخلاء مقدار ما يتنفس السماء فالذي ينبغي أن يعتقد من هذا أن العالم لو كان في مكان احتاج ذلك المكان إلى مكان آخر فإذا جاز أن يخلق الله المكان لا في مكان فأي عجب أن يخلق الأرض لا في مكان ولا كان ما فيه الأرض من خلاء أو فضاء شيئاً لوجب أن يكون مخلوقاً بدلالات أثر الخلق في ما دون الخالق سبحانه وقد سبق ذكر فيما قبلمن أقطار الأرض مشبكة تحت العرش ومنخر الثور في ثقبين من ملك الصخرة تحت البحر فهو يتنفس كل يوم نفسين فإذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر البحر قال ولما لم يكن للكمكم مستقر فخلق الله حوتاً يقال له بهموت فوضع الكمكم على وتر الحوت والوتر الجناح الذي يكون في وسط ظهره وذلك الحوت على الريح العقيم وهو مزموم بسلسلة كغلظ السماوات والأرضين معقودة قال ثم انتهى إبليس عليه اللعنة إلى ذلك الحوت فقال ما خلق الله خلقاً أعظم منك فلم لا نزيل الدنيا فهم بشيء من ذلك فسلط الله عليه بقة في عينه فشغلته وزعم بعضهم أن الله سلط عليه سمكة كالشطبة فهو ينظر إليها ويهابها قالوا ثم أنبت الله من تلك الياقوتة جبل قاف وهو من زمردة خضراء وله رأس ووجه وأسنان وأنبت من جبل قاف الشواهق كما أنبت الشجر من عروق الشجر وزعم وهب أن الثور والحوت يبتلعان ما ينصب من مياه الأرض فإذا امتلأت أجوافهما قامت القيامة قالوا والأرض على ماء والماء على الصخرة والصخرة على سنام ثور والثور على كمكم من الرمل متلبد والكمكم على ظهر الحوت والحوت على الريح العقيم والريح في حجاب من الظلمة والظلمة على الثرى وإلى الثرى انتهى علم الخلائق لا يعلم أحد ما دون ذلك إلا الله بقوله تعالى له ملك السموات الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وحكى وهب فيما روى عن عيسى عليه السلام أنه سئل عما تحت الأرض فقال ظلمة الهواء وقيل فما تحته قال انقطع علم العلماء فهذه القصص ما تولع بها العوام ويتنافسون فيه ولعمري أنه لما يريد المرء بصيرة في دينه وتعظيماً لقدرة ربه وتحيراً في عجائب خلقه فإن صحت فما خلقها على الله بعزيز وإن لم يكن من اختراع أهل الكتاب وتزوير القصاص فكلها تمثيل وتشبيه والله أعلم وقد روى شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم كان جالساً في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال النبي اعلموا أن هذه زوايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه ثم قال هل تدرون ما الذي فوقكم قالوا الله ورسوله أعلم قال فإنها الرفيع سقف محفوظ وموج مكفوف قال هل تدرون كم بينكم وبينها قالوا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمس مائة عام ثم قال أتدرون ما فوق ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال فوقه العرش وبينه وبين السماء بعد مثل ما بين سماءين ثم قال أتدرون ما تحتكم قالوا الله ورسوله أعلم قال فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمس مائة عام ثم قال والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل لهبطتم على الله ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن الآية فهذا الخبر يشهد بصدق كثير مما يروون إن صح والله أعلم وليس فيه ذكر الكمكم والصخرة والثور وغير ذلك وأما أهل النظر فمختلفون فيما تحت الأرض فزعم هشام بن الحكم أن تحت الأرض جسماً من شأنه الارتفاع والعلو كالنار والريح وأنه المانع للأرض من الانحدار وهو نفسه غير محتاج إلى ما يعمده من تحته لأنه ليس مما ينحدر بل يطلب الارتفاع وزعم أبو الهذيل أن الله وقفها بلا عمود ولا علاقة وقال بعضهم أن الأرض ممزوجة من جنسين خفيف وثقيل فالخفيف شأنه الارتفاع والصعود والثقيل شأنه الهبوط فيمنع كل واحد منهما صاحبه من الذهاب في جهة لتكافئ تدافعهما والله أعلم واختلف القدماء في ذلك فزعم قوم منهم أن الأرض تهوي إلى ما لا نهاية وزعم

آخرون أن بعضها يمسك بعضاً وزعم بعضهم أنها في خلاء لا نهاية لذلك الخلاء وعامتهم أن دوران الفلك عليها يمسكها في المركز من جميع نواحيها ويقول أرسطاطاليس أن خارج العالم من الخلاء مقدار ما يتنفس السماء فالذي ينبغي أن يعتقد من هذا أن العالم لو كان في مكان احتاج ذلك المكان إلى مكان آخر فإذا جاز أن يخلق الله المكان لا في مكان فأي عجب أن يخلق الأرض لا في مكان ولا كان ما فيه الأرض من خلاء أو فضاء شيئاً لوجب أن يكون مخلوقاً بدلالات أثر الخلق في ما دون الخالق سبحانه وقد سبق ذكر فيما قبل

ذكر قوله تعالى " هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام " فروي عن ابن عباس أنه قال في مقادير ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة من أيام الدنيا وروى عن الحسن أنه قال في ستة أيام من أيام الدنيا ولو شاء بساعة ولو شاء بأسرع من طرفة عين ولكنه أراد إظهار قدرته بخلقه وآيات حكمته لملائكته ما يرون من ظهور آثار صفته شيئاً بعد شيء وقد قيل أن مدة الدنيا ستة أيام فلذلك خلقت في ستة أيام وروى طائفة من اليهود أن الدنيا تنقضي في كل ستة آلاف سنة وتعاد في السابعة قال أبو اسحاق يقول أهل التورية ابتداء الخلق يوم الأحد وفرغ منه يوم السبت فجعله عيداً لعباده وعظمة شرفه وكرمه ويقول أهل الإنجيل الابتداء يوم الإثنين وكان الفراغ يم الأحد ويقول المسلمون ابتداء الخلق يوم السبت وكان الفراغ يوم الجمعة وإنما سميت يوم الجمعة لاجتماع الخلق فيه وكثير من المسلمون ينكرون هذه الرواية ويوقلون ابتداء الخلق يوم الأحد وإما المجوس فإنهم يعظمون يوم الإثنين وهم يزعمون أن الله خلق الخلق في ثلاثمائة وستين يوماً وسمعت بعض أهل العلم يزعم ما من يوم إلا وهو عيد لقوم والله اعلم قال الله تعالى " إنكم لتفكرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين " قال الأحد والإثنين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين إلى قوله فقضاهن سبع سموات في يومين الخميس والجمعة وهكذا روى عكرمة ن ابن عباس خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين وشق الأنهار وغرس الأشجار وقدر الأقوات يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة قال عدي بن زيد

قضى لستة أيام خلائقه ... وكان آخر شيء صور الرّجلا

فإن قيل إذا كان اليوم من لدن طلوع الشمس إلى غروبها فكيف يجوز القول بأنه خلق في اليوم قبل اليوم قيل قد بين قول المسلمين أن النهار والليل خلقا قبل الشمس والقمر وأنهما ليسا من الشمس والقمر في شيء وليست أيام الخلق كأيام الدنيا ولكنها المقادير كان يظهر الخلق فيها وقد سمى الله يوم القيامة ولا شمس ثم ولا قمر يوماً وقال لهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ويقال أن الله خلق الشمس يوم الأحد والقمر يوم الإثنين والمريخ يومك الثلاثاء وعطارد يوم الأربعاء والمشتري يوم الخميس والزهرة يوم الجمعة وزحل يوم السبت فلذلك نسبت الأيام إليها فيقال رب يوم الأحد الشمس ورب يوم الاثنين القمر ورب يوم الثلاثاء المريخ ورب يوم الأربعاء عطارد ورب يوم الخميس المشتري ورب يوم الجمعة الزهرة ورب يوم السبت زحل ويستحب ابتداء الأعمال يوم الأحد لعظم قوة الشمس وسلطانها والسفر يوم الاثنين لسرعة سير القمر والحجامة والفصد يوم الثلاثاء لمكان المريخ واللواء يوم الأربعاء لممازجة عطارد والخميس قضاء الحوائج وطلبها لفضل المشتري واللهو والفرح يوم الجمعة لأجل الزهرة والصيد يوم السبت وفيه يقول بعض المتأخرين

لنعم اليوم يوم السبت حقاً ... لصيد إن أردت بلا امتراء

وفي الأحد البناء لأن فيه ... تبدّا الرب في خلق السماء

وفي الاثنين إن سافرت فاعلم ... سترجع بالنجاح والسراء

وإن ترد الحجامة فالثلاثا ... ففي ساعاته سفك الدماء
وإن ترد الدواء فنعم يوماً ... لشرب المرء يوم الأربعاء
وفي يوم الخميس قضاء حاجٍ ... وفيه الله يأذن بالقضاء
وفي الجمعات تزويج وعرس ... ولذات الرجال مع النساء

ذكر ما حكي من المدة قبل خلق الخلق روى حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن طاووس عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال قيل لموسى مذ كم خلق الله الدنيا فقال موسى يا رب ما تسمع ما يقول عبادك فأوحى الله إليه إني خلقت أربعة عشر ألف مدينة من فضة وملأتها خردلاً وخلقت لها طيراً وجعلت رزقه كل يوم حبة حتى أفني ذلك ثم خلقت الدنيا فقيل لابن عباس فأين كان عرشه قال على الماء قيل فأين كان الماء قال على متن الريح وروى مثل هذا عن علي بن أبي طالب عليه السلام فهذا شيء غامض صعب موكل إلى علم الله إذ ليس يدري ما الذي كان قبل هذا الخلق مثل هذا الخلق أو على خلافهم وهل تعيد الدنيا بعد فناء هذه الدنيا أم لا لأنه لم يخبرنا في كتابه ولا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بشيء من ذلك ولا في قوة العقل والاستدلال عليه فأما الخبر فغير معتمد عليه وغير عجيب ما ورد فيه ولا خارج من القدرة ولا مبطل الحكمة ولو كان أضعاف ذلك وزعم بعض الناس أنه عد قبل آدم هذا الذي ينسب إليه ابتداء الشيء ألف ومائتا آدم والله أعلم وكأنه جائز كونه وداخل في حد الإمكان فأما الذي لا يسع القول إلا به ويلزم اعتقاده انفراد الله تعالى عن خلقه سابقاً من غير شريك ولا جوهر قديم ثم أبدع الأشياء لا من شيء ولو كان بين شيئين من المد ما لا يأتي عليه الإحصاء والعدد إلا أنه لا يصح إلا من جهة خبر صادق لأنا نخبر بقاء الحوادث على الأبد إلى ما لانهاية فليس ذكر تلك المدة بأعجب من هذا وكون أهل الجنة في الجنة وكون أهل النار في النار خلق السموات والأرض في ستة أيام فزعم قوم أن مدة الدنيا ستة آلاف سنة مكان كل يوم ألف سنة وروي عن كعب أن الله وضع الدنيا على سبعة أيام وروى أبو المقوم الأنصاري عن أبي جبير عن ابن عباس قال الدنيا جمعة من جمع الآخرة وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد وأبان عن عكرمة في قوله تعالى في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة قال هي الدنيا من أولها إلى آخرها وجاء خبر آخر في أمد الدنيا أنه مائة ألف سنة وخمسون ألف سنة وخبرني هربذ المجوس بفارس أن في كتاب لهم أن مدة الدنيا أربعة أرباع فأولها ثلث مائة ألف سنة وستون ألف سنة عدد أيام السنة وقد مضت والثاني ثلاثون ألف سنة عدد أيام الشهر وقد مضت والثالث اثنا عشر ألف سنة عدد شهور السنة وقد مضت والرابع سبعة آلاف سنة عدد أيام الأسبوع ونحن فيها وللهند وأهل الصين فيه حساب يطول نذكره في موضعه إن شاء الله ووجدت في كتاب رواية عن وهب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل مذ كم خلقت الدنيا فقال أخبرني ربي أنه خلقها منذ سبعمائة ألف سنة إلى اليوم الذي بعثني فيه رسولاً إلى الناس ثم زعم صاحب الكتاب أن مما يدل على ذلك ما جاء في الخبر أن إبليس عبد الله خمسة وثمانين ألف سنة وإنه خلق بعد ما خلق السموات والأرض بما شاء وهذا كله ممر على وجهه إن لا يقوم يقطع العلم به وما على إذا علمت أن الدنيا محدثة مكونة ولها انتهاء وانقضاء إن لا أعلم كم مضى منها وكم بقى فكيف تطمئن النفس إلى قول من يزعم أنه قد أحصى سني الدنيا وشهورها وأسابيعها وعدد أيامها ولياليها وساعاتهما ودقائقها وثوانيها وهل يقول مثل هذا عاقل

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

ذكر الدنيا وما هي وجدت في كتاب باباً منفرداً في اختلاف الناس في الدنيا فحكى عن قوم أنهم يقولون الدنيا العالم بأسره وجميع أجزائه في السماء والأرض وما فيهما ومن قوم أنهم يقولون الدنيا تعاقب الفصول الأربعة وبقاء النماء والتناسل فإذا بطل هذا بطلت الدنيا وعن قومي أنهم قالوا أن الدنيا ضوء النهار وظلمة الليل وعن قوم أنهم قالوا أن الدنيا هذا الخلق لا غير فإذا فني فنيت الدنيا وعن قوم أنهم يقولون أن الدنيا سلطان ومال وجاه ودعة وعن قوم الدنيا هي ما بين السماء والأرض وقالوا قوم الدنيا هي الزمان فمن قال أن الدنيا هي هذا الجنس من الخلق قال ابتداؤها عند ظهور النشو ولا بعد ما قبلها من الدنيا من خلق السموات والأرضين والملائكة وما ذكر من أصناف الخلائق قبل آدم ومن قال هو هذا العالم بأسره عد ما وجد قبل آدم من الدنيا وكذلك من حدها بحد فابتدأ من حيث حد قال الله تعالى " فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور " وقال تعالى " يا ليتني قدمت لحيوتي فأخبر أن الدنيا حياة والآخرة حياة " ثم أضاف الفانية إلى الدنيا لفنائها وأضاف الباقية إلى الأخرى لبقائها وإنما سميت الدنيا دنيا لدنوها من الخلق والآخرة آخرة لتأخرها إلى أن تفنى الدنيا فكل ما هو فانٍ أو سيفنى يوماً من الخلق والأمر كائناً ما كان فهو دنيا وكل ما هو غير فان فهو من الآخرة ألا ترى أنه يقال لمن شاب وانصرم شبابه ذهبت دنياه ولمن ذهب ماله وسقط جاهه ذهبت دنياه ولمن مات هلك دنياه فلا تسمى دنيا إلا كل ما هو فانٍ ذاهب ومثال دنيا فعلى من الدنو كالصغرى والكبرى قال:

هب الدنيا تساق عليك عفواً ... أليس مصير ذاك إلى الزوال

وما دنياك إلا مثل فيء ... أظلك ثم آذن بالزوال

ومن ها هنا قيل أن الدنيا دنية كاسمها وأن الدنيا دنى كثيرة فكل إنسان له دنيا في نفسه على حدته فماله دنيا له وجاهه دنيا له ومكانه دنيا له وكل ما يناله ويسر به مما لا يبقى دنيا له وأنشدني بعضهم:

أنت دنيا كيف ذمك لدنيا ... ألتي أنت هي ومنتهاكا

ويدل خبر علي بن أبي طالب أن الأرض من الدنيا حيث قال للذي يسمعه يذم الدنيا مهبط وحي الله ومصلى ملائكته ومتجر أوليائه ويدل أن السماء من الدنيا قوله تعالى يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب فلو كانت من الآخرة لم تطو لأن الآخرة غير فانية.

ذكر ما وصف من الخلق قبل آدم روى في الحديث أن كل شيء خلق الله قبل آدم عليه السلام وأن آدم وجد بعد إيجاد الخلق لأنه خلق في الأيام التي خلق فيها الخلق وقد ذكرنا ما قيل في خلق الملائكة فلنقل الآن في خلق الجان قال الله عز وجل خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار وجاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى خلق الملائكة من نور قال الله تعالى والله خلق كل دابة من ماء وقال تعالى ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد وقال جل ذكره وأنبتنا فيها من كل شيء موزون قال بعض أهل التفسير أنه الجواهر التي توزن فأخبر سبحانه عن جميع خلقه ممن خلق من الماء والنار والطين وروى بقية بن الوليد عن محمد بن نافه عن محمد بن عبد الله بن عامر المكي أنه قال خل الله خلقه من أربعة أشياء الملائكة من نور والجان من نار والبهائم من ماء وبنى آدم من طين فجعل الطاعة في الملائكة والبهائم لأنهما من النور والماء وجعل المعصية في الجن

والإنس لأنهما من الطين والنار وروينا عن شهر بن حوشب أنه قال خلق الله في الأرض خلقا ثم قال لهم إني جاعل في الأرض خليفة فما أنتم صانعون قالوا نعصيه ولا نطيعه فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم ثم خلق الجن فأمرهم بعمارة الأرض فكانوا يعبدون الله حتى طال عليهم الأمد فعصوا وقتلوا نبياً لهم يقال له يوسف وسفكوا الدماء فبعث عليهم جنداً من الملائكة عليهم إبليس وسمه عزازيل فأجلوهم عن الأرض وألحقوهم بجزائر البحور وسكن إبليس ومن معه الأرض فهانت عليه العبادة وأحبوا المكث فيها فقال الله عزل وجل لهم أني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وروى عن ابن عباس رضي الله عنه أن الله تعالى لما خلق الجن من نار سموم جعل منهم الكافر والمؤمن ثم بعث إليهم رسولاً من الملائكة وذلك قوله تعالى الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس قال فقاتل الملك بمؤمني الجن كفارهم فهزمومهم وأسروا إبليس وهو غلام وضيء اسمه الحارث أبو مرة فصعدت الملائكة به إلى السماء ونشأ بين الملائكة في الطاعة والعبادة وخلق خلقاً في الأرض فعصوه فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فنفوهم عن الأرض ثم خلق آدم فأشقى إبليس وذريته به وزعم بعضهم أنه كان قبل آدم في الأرض خلق لهم لحم ودم واستدلوا بقوله تعالى قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فلم يقولوا إلا عن معاينة واحتجوا أيضاً بقول حوبر أنه كان خلق فبعث إليهم نبي يقال له يوسف فقتلوه هذه ثلاث أمم سكنوا الأرض قبل آدم التي إبليس من نسلها والذين قتلوا نبيهم والذين أجلاهم إبليس من الأرض مع ما قيل أنه كان قبل آدم ألف ومائتا ألف آدم ونوح ألف آخر وهو آخر الآدميين وروى أن آدم لما خلق قالت له الأرض يا آدم جئتني بعد ما ذهبت جدتي وشبابي وقد خلقت قال عدى بن زيد

قضى لستة أيام خلائقه ... وكان آخر شيء صور الرجلا

ذكر خلق الجن والشياطين اعلم أن أصل الخلق وقع في شيئين من لطيف وكثيف فما خلق من الكثيف كثيف كالجوامد والموات والثواني من الجواهر والأشجار وما خلق من اللطيف لطيف كالهواء والرياح والملائكة والجن وما خلق من لطيف وكثيف اجتمع فيه المعنيان كأجناس الحيوان ثم خص منها بالروح الحقيقي والعقل المميز والنفس الناطقة كان إنساناً فضل على غيره بذلك وقد ذكر الله تعالى أنه خلق الجان من مارج من نار فزعم قوم أنه ماء روج ونار قالوا والرج الضباب فكمل خلقهم من أربعة أشياء من الماء والرج والضوء والحرارة وأكثرهم على أن المارج الغير المختلط من لهب النار فما فيهم من خفة وسرعة واختطاف وتسويل بالشر فمن جهة طباعهم النارية وما كان فيهم من خير وفضيلة فمن جهة الضوء واختلاف ألوانهم وتأويلهم في التخييلات والتمثيلات لاختلاف أجزاء عناصرهم وفاتوا الحواس للطافة أجسامهم كما فاتته الملائكة والعلة في ذلك العلة في الملائكة والهواء أغلظ وأكثف من الجن فإذا كفا لم يحس به ما لم يحدث به حركة واضطراب فكيف بالذي هو ألطف منه وأخف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم فما هو إلا بمنزلة العوارض التي تخلص إلى أجسامنا وتباشر أنفسنا من الحر والبرد الحزن والفرح وغير ذلك فلا نعلم كيف وصلت إلينا ونعلم يقينا أنها حادثة فينا وجاء في بعض الأخبار أن اسم أبي الجن سوم كما اسم أبي البشر آدم قلوا وخلق سوم وزوجته من نار السموم فتناسلوا وكثر ولده وكانت الجن سكان الأرض قبل آدم والملائكة سكان السماء واختلفوا في الشياطين فقال أكثر المسلمين أن من عصى من الجن صار شيطاناً وزعم بعضهم أن الشيطان من ذرية إبليس خاصة بعد اختلافهم في إبليس أمن الجن هو أم من الملائكة وكل ما اجتن عن الأبصار فهو جن ملكاً كان أو جنياً أو شيطاناً والشيطنة الخبث والنكارة فيقال لعتاة الإنس شياطين كما يقال لعتاة الجن شياطين وللغرس السريع شيطان ولكل داهية أو

خفيف فطن شيطان وجاء في الحديث أن الكلب الأسود البهيم شيطان وقد قال الشاعر ما ليلة الفقير إلا شيطاناً فسمى ما يقاسيه الفقير من الضعف والشدة شيطاناً وروى عن ماجد أنه قال مسكن الجن الهواء والبحار وأعماق الأرض وطعامهم روائح الطعام وشرابهم روائح الشراب قال ولما خلق الله تعالى أبا الجن قال له تمن قال أتمنى أن لا نرى ولا نرى وأنا ندخل تحت الثرى وأن شيخنا يعود فتى فأعطى ذلك ثم لما خلق آدم قال له تمن قال أتمنى الحيل فأعطى ذلك قالوا وللجن شياطين كما للإنس شياطين وعلى الملائكة حفظه يقال لهم الروح كما للناس حفظه من الملائكة وكثير من الفلاسفة يقرون بالخلق الروحاني وإن خالفوا في صفتهم فمن ذلك ما ذكره افلاطن في آخر كتابه المعروف بسوفطيقا أن الشياطين هي النفوس التي كانت ملابسة لهذه الأبدان فتشيطنت لرداءة أعمالها وزعم أن السحرة يستعينون بهذه النفوس في الأعمال التي يعملونها فيجيبونهم ويظهرون لهم ما أرادوا وأجاز قوم أن يكون في عالم سباع وبهائم غير محسوسة للطافة أبدانها وزعم بعضهم أن صور العدم قائمة بذاتها فهؤلاء قد أقروا بالصور الروحانية واختلفوا في الصفة وكفوا بعض المؤونة.

ذكر ما وصفوا من عدد العوالم ولا يعلمها إلا الله روى جبير عن الضحاك أنه قال لله في الأرض ألف عالم منها ستمائة بالبحر وأربعمائة في البر وعن الربيع بن أنس لله أربع عشر ألف عالم ثلثة آلاف وخمسمائة في المشرق وثلثة آلاف وخمسمائة في المغرب وثلثة آلاف وخمسمائة هكذا وثلثة آلاف هكذا وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لله ثمانية آلاف عالم الدنيا وما فيها عالم واحد وروى حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لله أرضاً بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلثون يوماً مملوءة خلقاً من خلق الله لا يعصون الله طرفة عين قيل فأين إبليس عنهم يا رسول الله قال وما تدرون أن الله خلق إبليس ثم قرأ ويخلق ما لا تعلمون والله أعلم بصحة الرواية مع ما يذكر من أصناف الأمم مثل ناسك ومتنسك وتاويل وهاويل ويأجوج ومأجوج وسائر الخلق في جنبتي الأرض اللتين يسميان جابلقا وجابلسا،

؟؟

الفصل الثامن

ظهور آدم وانتشار ولده

اعلم أن الناس في هذا الفصل رجلان اثنان ملحد منكر للابتداء قائل بأزلية المعلول مع العلة وموحد مقر بالابتداء قائل ضد صاحبه ثم من أقر بابتداء الخلق اختلفوا في كيفية ظهور أوله وأنا ذاكر مقالاتهم ومنبه عن موقع منه بمشيئة الله وعونه فليكن مسئلة إثبات حدث العالم من بال الناظر في هذا الفصل فالذي يدل على حدث آدم هو الدليل المضطر إلى الإقرار بابتدائه

ذكر اختلاف الفلاسفة في تولد الحيوانات وكيف كان كونها فإما الذين يرون أن العالم لا كون له فإن كون الحيوان عندهم من استحالة بعضه إلى بعض لأنه أجزاء العالم وكذلك يرى فيثاغورس وأما القسمد فيرى أن الحيوان تولد من الرطوبة وأن كان يغشاه قشر مثل قشور السمك ولما أتت عليه السنون صارت إلى الجفاف واليبس فانقشر عنها ذلك القشر وصار حياتها زماناً يسيراً وأما ديمقرطيس فيرى أن الحيوانات تولدت وأن كونها من جوهر حار وأن أول م أحياها هي الحرارة وأما انباذقليس فيرى أن لحون الحيوان والنبات لم يكن في أول الأمر دفعة واحدة لكنها شيء بعد شيء كأنها كانت أعضاء غير مؤتلفة ولا متصلة ثم صارت بعد ذلك متصلة في كون ثان في صورة

التماثيل وفي كون ثالث كان بعضها في بعض وفي كون ربع بالاجتماع والتكاثف وكثرة الغذاء فهذا جملة قولهم في ظهور الحيوانات وآدم حيوان فعند بعضهم أن آدم تولد من رطوبة الأرض كما يتولد سائر الهوام وكان جلده كقشر السمك ثم لما أتى الزمان عليه جف وسقط عنه وعند آخر لم يظهر بكماله وأنما ظهر شيئاً بعد شيء ثم تركبت واتصلت على مرور الزمان وصار إنساناً تاماً واختلف المنجمون في ذلك فمنهم من يزعم أن الفلك دار كذا وكذا ألف سنة فكلما دار على استقامة ظهر نوع من الخلق إلى أن دار على أتم الاستقامة وأكمل الاعتدل فظهر هذا الإنسان الذي لا شيء أكمل ولا أفضل منه ومنهم من يزعم أن الكواكب السبعة لما اجتمعت كلها في أول درجة من الجمل ظهر جنس البهائم ثم لما اجتمعت في أول درجة من الجوزاء ظهر جنس الناس ولما اجتمعت كلها في أول درجة من الثور ظهر جنس من النبات ومنهم من يزعم أن الفلك لما دار على استقامة ظهرت البهائم ثم دار على أعدل من ذلك فأظهر القرد وكاد يكون إنساناً ولا شيء أشبه به منه ثم دار على غاية العدل فأظهر الإنسان واختلف سائر الأمم في ذلك فزعمت فرقة من الهند أن أول ما كان من ظهور الإنسان أن السماء ذكر والأرض أنثى وأنه مطرت السماء فقبلت الأرض ماءها بمنزلة قبول المرءة ماء الرجل في رحمها وأجلها الفلك بسرعة جريه ودورانه فبدأ أول ما بدأ هذا النبت الشبيه بالإنسان الذي يسمى يبروح الصنمي ثم ألح عليه الفلك بدورانه حتى أقلع من منبته وأفاده حركة مكانته فصار إنساناً يسعى كما ترى وفي كتاب الفرس أن الله خلق الخلق في ثلثمائة وستين يوماً ووضع ذلك على أزمنة الكاه انبار فخلق السماء في خمسة وأربعين يوماً والماء في ستين يوماً والأرض في خمسة وستين يوماً والنبات في ثلاثين يوماً وخلق الإنسان في سبعين يوماً وسماه كيومرث وأنه كان في جبل يسمى كوشاه ولم يزل يعمل الخير والعبادة وكان في سياحته ثلاثين سنة ثم طعنه إبليس فقتله فسال من طعنته دمه وصار ثلاثة أثلاث فثلث منه أخذته الشياطين وثلث أمر الله روشنك الملك أن يأخذه ويصونه وثلث قبلته الأرض فصارت محفوظة أربعين سنة ثم أنبت الله منه نباتاً كهيئات الريباس وظهر في وسط ذلك النبات صورتان ملتفان بورق ذلك النبات أحدهما ذكر والآخر أنثى واسم الذكر منها ميشي واسم الأنثى ميشانه ومرتبة هذين عند الفرس مرتبة آدم وحواء عند أهل الكتاب وسائر الأمم قالوا ثم ألقى الله في قلوبهما شهوة المباضعة بعد ما أجرى فيهما روح الحياة فاجتمعا وتوالدا وصار نسل الناس منهما وقال قوم أن الفلك لحركاته ابتداء وتوسط وغاية فظهر من ابتداء حركته النبات وفيه أدنى القوى ثم انضمت إلى القوتين قوة الغاية والتمام فظهر الإنسان قالوا ولا قوة في الفلك أتم وأبلغ من هذه القوة التي أظهرت الإنسان ولا صورة أتم وأكمل منه ولذلك اجتمعت فيه القوى كلها قوى النماء وقوة الحس والحركة وقوة النطق والتمييز ومن ها هنا قالوا الإنسان ثمرة العالم وقالوا هو العالم الأصغر إذ لا يوجد في العالم شيء إلا وجد له شبيه في الإنسان لأن فيه ظاهراً هو جسمه وباطناً هو روحه وأربع طبائع من اسطقساته فالسوداء باردة يابسة من طبع الأرض والصفراء حارة يابسة من طبع النار والبلغم بارد رطب من طبع الماء والدم حار رطب من طبع الهواء ولحمه كالأرض وعظامه كالجبال وشعره كنبات الأرض وأعضاءه كالأقاليم وعروقه كالأنهار ومنافذه ومفارز عرقه كالعيون ورأسه الفلك محيط به وفيه نيرانه كنجوم الفلك وظهره كالبر وبطنه كالبحر وفي بطنه ألوان مختلفة من المياه والحيوان كنحو ما

في بطن الأرض وفي يديه الدواب والمتوالدة كالدواب المتولدة في الأرض وفيه النماء كما في النبات والحركة الكامنة كالبهائم والغضب كما في السباع وفيه عقله وحيوته كالإله المدبر له المعرف له قالوا ولا متفرق لو جمع كان منه إنسان إلا العالم ولا مجتمع لو فرق كان منه العالم إلا الإنسان والعالم الأكبر عالم بالفعل إنسان بالقوة فالإنسان إنسان بالفعل وهو العالم بالقوة وفي النبات امتزاج ضعيف فلذلك لم يبلغ درجة الحساسة وفي البهائم امتزاج أقوى من ذلك

فلذلك تحركت وأحست وفي الإنسان امتزاج على تعديل ونظام قالوا وقد صح حكم الحكماء أن آخر العمل أول الفكرة وأول الفكرة آخر العمل فلما كان الإنسان آخر عمل الصانع صح أنه أول فكرة الصانع وهذا رأي أكثر الفلاسفة وقال بعضهم في تفصيل الإنسان وقسمة أجزاء الحيوان فالعالم فيه يداه جناحاه وأظفاره مخالبه وعيناه شمسه وقمره ورجلاه قائمه ورأسه سماءه ومثانته بحاره وأضراسه طواحنه ومعدته خزانته حتى عد جميع أجزائه وأعضائه الظاهرة والباطنة وهذا كله سهل يسير لأنا لا ننكر خلق الإنسان في هذا العالم من العالم والكلام فيه حرفان إما أن كان هو بنفسه من غير مكون فهو محال وإما أن كان كونه غيره مكون فهو الذي يقطع الشغب بيننا وبينهم وإما أن يكون هو لم يزل فأثر الحدث فيه يرد هذا القول وقد سبق من الحجة في الفصل الأول ما يدل على فساد هذه الدعوى بقي الكلام في كيف أوجد وليس ممكن مشاهدة الخبر في مثله إلا عن وحي أو رسالة فانتصر إلى ما في كتب الله وأخبار رسله صلوات الله عليهم وروى ابن ساحق أن أهل التورية يدرسون فيها أن خلق الله آدم على صورته لما أراد يسلطه على الأرض وما فيها وقد روى هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خلق الله آدم على صورته ثم اختلفوا في التأويل وقرأت في نسخة زيادة على ما ذكره ابن اسحق فقال بعد ذكر خلق السماوات والأرض قال الله يخلق إنساناً بصورتنا وشبهنا ومثلنا فيكون مسلطاً على سمك البحار والطير والأنعام وكل ماشية على الأرض فخلق آدم على صورته ومثاله ونفخ في وجهه نسمة الحيوة وسلطه على ما في الأرض وذلك يوم الجمعة واستراح يوم السابع وهو يوم السبت وفسر لي يهودي بالبصرة فزعم في خلق آدم أن الله صوره على الأرض ثم نفخ فيه والله أعلم وروى ابن اسحق قال بينا آدم يمشي منتصباً ولم يكن مشى في الأرض حيوان مثله إذ جاء النسر إلى البحر فقال للسمكة إني رأيت خلقاً يمشي على القدمين وله يدان يبطش بهما في يده خمس أصابع فقالت السمكة إني أراك تنعت خلقاً ما أراه يدعك في جو السماء ولا يدعني في قعر البحار وهذا تمثيل واللهي بطن الأرض وفي يديه اللواب والمتوالدة كاللواب المتولدة في الأرض وفيه النماء كما في النبات والحركة الكامنة كالبهائم والغضب كما في السباع وفيه عقله وحيوته كالإله المدبر له المعرف له قالوا ولا متفرق لو جمع كان منه إنسان إلا العالم ولا مجتمع لو فرق كان منه العالم إلا الإنسان والعالم الأكبر عالم بالفعل إنسان بالقوة فالإنسان إنسان بالفعل وهو العالم بالقوة وفي النبات امتزاج ضعيف فلذلك لم يبلغ درجة الحساسة وفي البهائم امتزاج أقوى من ذلك فلذلك تحركت وأحست وفي الإنسان امتزاج على تعديل ونظام قالوا وقد صح حكم الحكماء أن آخر العمل أول الفكرة وأول الفكرة آخر العمل فلما كان الإنسان آخر عمل الصانع صح أنه أول فكرة الصانع وهذا رأي أكثر الفلاسفة وقال بعضهم في تفصيل الإنسان وقسمة أجزاء الحيوان فالعالم فيه يداه جناحاه وأظفاره مخالبه وعيناه شمسه وقمره ورجلاه قائمه ورأسه سماءه ومثانته بحاره وأضراسه طواحنه ومعدته خزانته حتى عد جميع أجزائه وأعضائه الظاهرة والباطنة وهذا كله سهل يسير لأنا لا ننكر خلق الإنسان في هذا العالم من العالم والكلام فيه حرفان إما أن كان هو بنفسه من غير مكون فهو محال وإما أن كان كونه غيره مكون فهو الذي يقطع الشغب بيننا وبينهم وإما أن يكون هو لم يزل فأثر الحدث فيه يرد هذا القول وقد سبق من الحجة في الفصل الأول ما يدل على فساد هذه الدعوى بقي الكلام في كيف أوجد وليس ممكن مشاهدة الخبر في مثله إلا عن وحي أو رسالة فانتصر إلى ما في كتب الله وأخبار رسله صلوات الله عليهم وروى ابن ساحق أن أهل التورية يدرسون فيها أن خلق الله آدم على صورته لما أراد يسلطه على الأرض وما فيها وقد روى هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خلق الله آدم على صورته ثم اختلفوا في التأويل وقرأت في نسخة زيادة على ما ذكره ابن اسحق فقال بعد ذكر خلق السماوات والأرض قال الله يخلق إنساناً بصورتنا وشبهنا ومثلنا فيكون مسلطاً على سمك البحار والطير والأنعام وكل ماشية

على الأرض فخلق آدم على صورته ومثاله ونفخ في وجهه نسمة الحيوة وسلطه على ما في الأرض وذلك يوم الجمعة واستراح يوم السابع وهو يوم السبت وفسر لي يهودي بالبصرة فزعم في خلق آدم أن الله صوره على الأرض ثم نفخ فيه والله أعلم وروى ابن اسحق قال بينا آدم يمشي منتصباً ولم يكن مشى في الأرض حيوان مثله إذ جاء النسر إلى البحر فقال للسمكة إني رأيت خلقاً يمشي على القدمين وله يدان يبطش بهما في يده خمس أصابع فقالت السمكة إني أراك تنعت خلقاً ما أراه يدعك في جو السماء ولا يدعني في قعر البحار وهذا تمثيل والله

أعلم وفي كتاب الله الذي لم يلحقه تغيير ولا تحريف ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين يعني ولده وقال عز ذكره إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون وقال تعالى حكاية عن الشيطان خلقتني من نار وخلقته من طين فأخبر عن ابتداء خلق آدم أنه كان من التراب ثم ضم إليه الماء فكان طيناً ثم سل خلاصة الطين بدلالة قوله تعالى " وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حماء مسنون " ثم ترك حتى جف وصلصال كما قال خلق الإنسان من صلصال كالفخار وهذه أحوال كان الله تعالى يحولها على الإنسان تصفيه لطينته وإخلاصاً لنيته إذ لم يخلق كل طين كما يتولد منه الحيوان وينبت منه النابت ولا جعله في جميع الأحوال والهيئات كما يوجد منه ذلك ولو شاء لأوجده ولكن لم يدع حكمته وتدبيره في إظهار قدرته وإبداء حكمته في كل جزء من أجزاء ترتيبه كما يخلق تنسله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ولو شاء لأتم خلقه من غير النطفة مع أن أسرار حكته وعلمه لا مطلع عليها للعباد وجاء فيها من الأحاديث والأخبار ما لو تكلفناها لطال الكتاب بها وخرج عن الغرض المقصود له ولا من بعضها لما فيه من التقريب والتمثيل فزعم بعضهم أنه إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض وقال الضحاك سمى آدم لأنه خلق من الأرض السادسة واسمها كاماً والرواية الأولى أشهر وأعرف وزعم بعضهم أن الله قبض من جميع وجه الأرض من سباخها وبطائحها وأسودها وأحمرها قبضة فلذلك جاء ولد آدم على تلك الألوان أبيض وأسود وأحمر وروى بعضهم أن الله جمع في آدم المياه كلها فموضع العذب في فمه والمالح في عينه والمر في أذنه والمنتن في خيشومه وروى في خبر أن الله تعالى خمر طينة آدم وأنها لتخرج من أصابعه والله أعلم.

ذكر خلق آدم قال ابن اسحق فلما أراد الله أن يخلق آدم بقدرته ليبتليه ويبتلى به لعلمه بما في ملائكته وجميع خلقه وكان أول بلاء ابتليت به الملائكة مما لها فيه ما تحب وتكره البلاء والتمحيص بما فيهم منا لو تعلموا أو أحاط به علم الله منهم جميع الملائكة من سكان السماوات والأرض ثم قال إني جاعل في الأرض خليفة إلى قوله أني أعلم ما لا تعلمون أي أن فيكم ومنكم ولم يبدها لهم منه المعصية والفساد وسفك الدماء وقال الله تعالى " قل ما كان لي من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون " فلما عزم الله تعالى على خلق آدم قال للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فحفظت الملائكة وعده ووعوا قوله وأجمعوا لطاعته إلا ما كان من عدو الله إبليس فإنه صمت على ما في نفسه من الحسد والبغي والتكبر وخلق الله آدم من أدمة الأرض من طين لازب من حماء مسنون بيده تكرمه له وتعظيماً لأمره فيقال والله أعلم خلقه ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاماً قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالاً كالفخار ولم تسمه نار وكان خلقه يوم الجمعة في آخر ساعة منها وذلك قوله تعالى هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً هذا كله قول محمد بن اسحق صاحب المبتداء والمغازي وقد خولف منه في حروف ليس هذا موضع شرحها.

ذكر اختلافهم في خلق آدم قال كثير من المسلمين أنه خلق في الأرض كما خلق من الأرض وخلقت منه زوجته حواء وفي نسخة التورية أن الله نصب الفردوس في عدن وأسكنها آدم وأنبت فيها من كل شجرة طيبة وانطلق

الرب بآدم فأنزله الفردوس ليعمره ويتعاهده وقال ولا تأكل من شجرة الفقه للخير والشر فإنك يوم تأكل تموت موتاً وقال تعالى لا يحسن أن يكون آدم وحيداً فألقى عليه النوم وأخذ ضلعاً من أضلاعه فجعل منه حواء وقال بعض الناس أن الله خلق آدم في السماء وروى عن ابن عباس رضي الله عنه أن الجنة التي أسكنها آدم بين السماء والأرض ومن المسلمين من يقول أنها خلقت للابتداء ثم أفنيت ومنهم من يقول أنها جنة الخلد والله أعلم قالوا وكان خلق آدم يوم الجمعة وأسكن الجنة في ذلك اليوم وأخرج منها فما لبث فيها إلا مقدار ما بين الصلاتين ويذكر هذه القصة ابن جهم في قصيدته

يا سائلي عن ابتداء الخلق ... مسألة القاصد قصد الحق
أخبرني قوم من الثقات ... أولو علوم وأولو هيئات
تفرعوا في طلب الآثار ... وعرفوا موارد الأخبار

ودرسوا التورية والإنجيلا ... وأحكموا التأويل والتنزيلا
أن الذي يفعل ما يشاء ... ومن له القدرة والبقاء
أنشأ خلق آدم إنشاء ... وقد منه زوجه حواء
مبتدياً وذاك يوم الجمعة ... حتى إذا أكمل فيه الصنعة
أسكنه وزوجه الجنانا ... فكان من أمرهما ما كانا
غرهما الشيطان فاغترا به ... كما أبان الله في كتابه
غرهما الشيطان فيما صنعا ... فأهبطا منها إلى الأرض معا
فوقع الشيخ أبونا آدم ... بجبل الهند يدعى واسم
لبئس ما اعتاض من الجنان ... والضعف من جبلة الإنسان
فشقيا وورثا الشقاء ... نسلهما والكد والعناء
ولم يزل مفتقراً من ذنبه ... حتى تلقى كلماته ربه
فأمن السخطة والعذابا ... والله تواب على من تابا
ثم تنسلا وأحب النسلا ... فحملت منه حواء حملا
وولدت ابناً فسمى قاينا ... وعاينا من أمره ما عاينا

وفي الحديث أن الله تعالى لما خلق آدم ألقى عليه النوم فأخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم بينهما وآدم نائم ثم لم يهب فخلق زوجته فلما هب رآها إلى جنبه فقال لحمي ودمي وروحي فسكن إليها قال ابن عباس احفظوا نسائكم فإن المرأة خلقت من الرجل فنهمتها في الرجل وإن الرجل خلق من الطين فنهمته في الطين وفي التورية أن الله أسكن آدم الجنة قال لا يحسن أن يكون آدم وحيداً فلنخلق له عوناً يعني امرأة فخلق حواء كما جاء في الحديث وفي رواية الكلبي أن الله خلق آدم من طين فكان مطروحاً بين مكة والطائف أربعين سنة لا يدري ما يصنع به وذلك قوله عز وجل ذكر قولهم كيف نفخ فيه الروح قال أهل الأخبار لما خلق الله طينة آدم وأتى عليه حين من الدهر وصارت صلصالاً كالفخار أرسل إليه روحاً من عنده على مائدة من موائد الجنة فلما رأى الروح ضيق مدخله وظلمة هيكله كره الدخول فيه فقيل أدخل كرهاً وأخرج كرهاً فنفخ الروح في منخره فدار في رأسه لضيق مكانه وجرى روح الحياة فيه ففتح عينه وانطلق لسانه وسمعت أذناه وعطس فقال الحمد لله فقال له ربه جل ذكره يرحمك ربك فكان أول ما تكلم به آدم التوحيد والتحميد لربه فعلمت الملائكة عند ذلك أن الله لم يخلقه إلا لأمر عظيم

قالوا وجعل الروح تمر في جسد آدم وهو ينظر إليه فلا يأتي على شيء منه إلا صار لحماً ودماً وشعراً قال سلمان الفارسي ثم وثب قبل أن يخلق الرجل منه وذلك قوله تعالى " وكان الإنسان عجولا "

ذكر سجود الملائكة لآدم عليه السلام قال ولما خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود ليبتليهم ويبتلى إبليس بما في ضميره سجدة تحية لا سجدة عباده وقيل بل أمروا بالسجود لله إليه كسجود المسلمين إلى القبلة فسجدوا كلهم كما قص الله علينا في القرآن إلا إبليس أبا واستكبر وكان من الكافرين واختلفوا في المعنى الذي أمروا بالسجود من أجله فقال قوم كان الله في سابق علمه أن يستخلف آدم ذريته في الأرض ليعمروها ويأكلوا من رزقه ويعبدوه ويطيعوه فلما أراد أن يخلق آدم قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون أن في ذريته أنبياء وأولياء وأنه يعصى فاغفر له فيظهر الرحمة والمغفرة وأنه يأكل من رزقه فيظهر الفضل والجود والقدرة فلما نفخ فيه الروح قال الحمد لله قال الله تعالى يا آدم أحسنت أحسنت لهذا خلقتك لكي تحمدني وتمجدني ثم أمرت الملائكة بالسجود له بحمده وقال قوم أن إبليس عبد الله خمس وثمانين ألف سنة وكان يدعى بين الملائكة خازن الجنان فلما قال الله عز وجل " إني جاعل في الأرض خليفة " استعظم ذلك إبليس واعتقد الخلاف والمعصية فلما خلق الله طينة آدم جعل إبليس يمر بها ويقول للملائكة أرأيتم هذا الخلق الذي لم تروا فيما مضى مثله أن أمرتم بطاعته ما صانعون فقالوا نطيع ونأتمر فقال في نفسه لئن فضل على لأعصينه ولئن فضلت عليه لأهلكنه فأمروا بالسجود حتى ظهر ما أضمر المرء في نفسه من المعصية وزعم الكلبي أن الله تعالى لما قال للملائكة " إني جاعل في الأرض خليفة " قالوا ألن يجعل الله خلقاً أعلم منا ولا أكرم عليه منا ولا أكرم عليه منا فابتلوا بالسجود لآدم وزعم بعضهم أن الله تعالى لما خلق آدم لم يكن في خلقه أحسن وأكمل وأتم وأفضل منه فأمرت الملائكة بالسجود له لفضيلته لقول الله عز وجل بعد أقسام أربعة لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وقيل أمروا بالسجود له لفضل علمه عليهم وقد قال بعض الناس أن الروح هو الذي أوجب السجود لآدم لأنه منه وزعم أن الحيوانات كلها صنف واحد في الحياة والأرواح شيء واحد وإنما الأشخاص والأجسام والهياكل كلها آلات ومساكن قالوا فالحيوان مجموع من شيئين خفيف وثقيل فما كان من ثقيل فإنه ينحل ويعود إلى التراب وما كان من خفيف فإنه يصعد ويبقى وهو لا يفسد أبداً وهو نطق الإنسان وبصر العينين وسمع الأذنين وبطش اليدين ومشى القدمين وأجناس الحواس كلها من الشم والذوق والطعم والرائحة وهو حفظ القلب والمعرفة والفهم والوهم والعقل والذكر وكل ما هو موجود غير معلوم الحدود في الكمية والكيفية قالوا فالأشخاص والأجسام كاللباس وفيها لا يرى ولا يحس ولا يسمع وهو يرى ويسمع ويحس قالوا وإنما أمروا بالسجود له لهذه الحال فكفر من أبى واستكبر وكان حكم هذه المسئلة أن تكون في باب من هو وما هو من الفصل الثاني في إثبات البارئ عز وعلا ولكن الإنسان مغلوب على أمره دلالة على فساد قول هذه الطبقة إذ لا كمال إلا لله وغير جائز وجود النقص في الكمال وحدثت عن رجل في بلاد سابور من حدود فارس يجتمع إليه قوم ويذهبون مذهباً يخالفون عوام الناس فقصدته متصفحاً ما عنده ولزمته أياماً كالمصفى المسترسل لما عنده متباهاً متجاهلاً وكان الرجل يرجع إلى شيء من علم اللغة ومعرفة مذاهب القدماء إلى أن أنس بي ووثق بناحيتي ثم أبدى مكتوم أمره ودفين سره وإذا هو على هذا المذهب الذي ذكرته مع طول تهجد وقيام وكثرة صلاة وصيام وأذكر مما حفظته عنه أنه كان يوماً يسير إليه بالدلائل فقال وهو الذي تراه في عيني وأراه في عينك ثم أنشد بيتاً:

حجته العيون عن كل عين ... وهو فيها أنيس كل وحيد

وحدثني عن بعض مشائخه عن أبي يزيد البسطامي أنه قال طلبت الله ستين سنة فإذا أنا هو وعن ارسطاطاليس وجدت صورة مصورة في بعض المواضع وفي يده كتاب مكتوب فيه كنت أشرب شراباً ولا أروى فلما عرفت البارئ جل وعز رويت بلا شرب ولبعض المتصوفة مذهب قريب من هذا بل هو بعينه لأن منهم من يقول بالحلول وإذا رأوا صورة حسنة خروا له سجدا وكثير من أهل الهند يفعلون هذا وأنشدني ابن عبد الله للحسين بن منصور المعروف بالحلاج ما يدل على هذا القول

يا سر سر يدق حتى ... يخفى على وهم كل حي
وظاهراً باطناً تجلى ... لكل شيء بكل شيء
إن اعتذار إليك جهل ... وعظم شكى وفرط عي
يا جملة الكل لست غيري ... فما اعتذاري إذا إلي

وكم لله علينا من الفضل والمنة بإلهام التوحيد وتسهيل التعريف وأي نفس مميزة تطمئن إلى مثل هذه المذاهب وأي عقل يسمح بقبولها.

ذكر قوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة قالوا وكان الله خلق كل شيء قبل آدم وكانت الملائكة ترى الأشجار والثمار والوحوش والبهائم وسائر الحيوانات تمشي ولا تأكل ولا يدرون لمن خلق ولمن خلقت هذه وما أسماؤها ومنافعها فلما قال لهم إني جاعل في الأرض خليفة وبدلاً منكم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء ليس يردون على الله ولكن يستخبرونه ويطلبون معرفة حكمته وأنه يخلق خلقاً يفسد وهو تعالى يكره الفساد فقال الله " إني اعلم ما لا تعلمون " وهذا ليس جواب الملائكة عن قولهم وإنما جوابهم حيث أنبأهم آدم أسماء المسميات وقد يكون جواب القول قولاً وفعلاً وحركة وعلم آدم الأسماء كلها تعليم إلهام ويقال تلقين وأما الحسن فإنه كان يقول تعليم استدلال واجتهاد خلقها الله إذ خلقه مستنبطاً مستدلاً فاستدل بالآثار على المراد من المسميات وانبأها وأغفلت الملائكة ذلك ففضل آدم عليهم واستحق شرف الرتبة باستعمال الاجتهاد وزعم قوم أنه علم آدم الأسماء ولم يعلمها للملائكة ثم أعادهم إلى معارضته وأجازوا تكليف ما لا يطاق بظاهر هذه الآية والله أعلم وأحكم فإما ذكر تلك المسميات وما أختلف أهل التأويل فمستقصاة في كتاب معاني القرآن من نظر فيه شفاه وكفاه.

ذكر دخول آدم الجنة وخروجه منها ولما أبى إبليس أن يسجد لآدم قال الله تعالى " يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتماً ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين " وقد ذكرنا قول أهل العلم في تلك الجنة ما هي وأين هي واختلفوا في هذه الشجرة فمن قائل أنها الحنطة وآخر أنها الكرمة وآخر أنها الحنظل وروى ابن اسحق عن بعضهم أنه قال الشجرة التي يحتك بها الملائكة الخلد وأن آدم لما دخل الجنة ورأى ما فيها من الكرامة والنعيم قال لو أن خلداً فاغتنم منه الشيطان ذلك فأتاه من قبل الخلد وقال ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين فقد جعل الله للشيطان وأعوانه سلطاناً يخلصون بها إلى بني آدم ونقطهم وهم لا يرونهم يقول الله تعالى " قل أعوذ برب الناس ملك الناس " إلى قوله يوسوس في صدور الناس وروى أن صفية بنت حي أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو مجاور في المسجد فتحدثت عنده ساعة من العشاء وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليردها إلى البيت فمر بها رجل من الأنصار فناداه رسول الله صلى الله عليه وسلم يا فلان إنها صفية بنت حي فقال يا رسول الله إنا لله وإنا إليه راجعون أظننت أني أظن قبيحاً قال إن الشيطان يجري من آدم مجرى الدم خشيت أن تظن فتهلك فهذا الخبر دليل على وصول الشيطان إلى الإنسان كوصول الأعراض من الحر والبرد وغير ذلك وزعم القصاص وأهل الكتاب مراجعات كثيرة وعجائب في هذه

القصة وأن إبليس عرض نفسه على دواب الأرض كلها يأبى ذلك حتى كلم الحية وقال أمنعك من ابن آدم وأنت في ذمتي أن أدخلتني الجنة فجعلته في فمها أو بين نابيها وكانت الحية من أحسن الدواب وخزان الجنة فكلمها من فيها وقيل ناح عليهما نوحة شبحية حتى افتتنا قال ابن عباس اخفروا ذمة عدو الله فيها واقتلوها حيث وجدتموها قال الله تعالى قلنا اهبطوا منها جميعاً الآية وفيما قص الله تعالى في القرآن كفاية عن زيادة رواية غيره وقال الله تعالى وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وجاء في صفة توبته وما يلقى من كلمات ربه روايات قد ذكرتها في كتاب المعاني وأحسن ذلك ما روى عن الحسن رحمه الله أنه قوله ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

ذكر أخذ الذرية من زهر آدم عليه السلام قال الله تعالى " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى أهل النظر يرون أن أخذ هذا الميثاق من بني آدم عند بلوغهم واستجمام عقولهم فليس من بالغ إلا وتلك الشهادة ساطعة عليه بأنه مخلوق محدث وأن له خالقاً يستحق منه العبادة لإحداثه إياه وإيجاده فأهل الأخبار يروون فيه روايات أنه اخرج الذرية من ظهر واحد وجعل لهم فهماً وعقلاً ولساناً ينطقون فقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا فأشهدهم على أنفسهم وأشهد الملائكة عليهم وأعادهم في صلبه واختلف هؤلاء أين أخذ الذرية من ظهره ومن هو مولود إلى يوم القيامة فزعم الكلبي أنه مسح ظهره بين مكة وطائف وهذه أشياء أكتفي منها بنبذ لأني قد وفيتها حقه في كتاب المعاني.
ذكر اختلاف الناس في آدم وذريته اعلم أن من أنكر حدث العالم وقال بقدم المعلول مع العلة لم يقل في ابتداء شيء من الخلق وإنما حدوثه وكونه استحالة بعد استحالة إلى ما لا نهاية وأما الفرس فإنهم استعظموا وجود النسل من ذكر دون أنثى فوضعوا في المبادئ ذكراً وأنثى وسموها ميشى وميشانه وحكى عن بعض أهل الهند أنهم يزعمون أن آدم خرج من عندهم هارباً فتناسل في ناحية الشمال ومن القدماء من يسميه زاوش وحكى عن علي بن عبد الله القسري في كتاب القرانات عن بوداسف الفيلسوف من أهل بابل العتيقة كان عالماً بالأدوار والأكوار واستخراج سني العالم التي هي ثلاثمائه وستون ألف سنة فحكى أن في نصف هذه السنين يقطع الطوفان فحذرهم ذلك أن هرمس الأول وهو أخنوخ أدريس النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل آدم بزمان طويل وكان يسكن الصعيد الأعلى المتصل ببلاد السودان إلى الإسكندرية وحول الناس إليه وأنقذهم من الغرق فهذا يزعم أن بوداسف كان قبل هرمس وهرمس كان قبل آدم بزمان طويل وإلى هذا يذهب من يرى آدم غير واحده والفرس زعموا أن ميشى وميشانه من دور كيومرث فهذا أقدم منهما وجملة الأمر أن هذا وما يروونه المسلمون كله أخبار والأصح من ذلك ما كان عن أمين صادق ولا أصدق من كتاب الله ولا آمن من رسوله صلى الله عليه وسلم ولابد في العقل من ابتداء المحدثات وبعض هؤلاء المحدثة المستترة بالإسلام يجرون تأويل هذه القصة إلى ما يؤدي إلى الإلحاد فيستغمرون الضعفى العقول بأن كيف يخرج حيوان من الأرض وكيف يخرج من الجنة من دخلها وكيف خلص الشيطان إليه في الجنة ولم نهى عن شجرة ولم كان كذا ولِمِ لَمْ فإذا كانت مسألة حدث العالم من بالك رددت كل ما أورد عليك من هذه الترهات بحجج بينه وبراهين نيره والجواب أن النهي عن الشجرة للابتلاء وأن تلك لم يكون بدار خلد وأن خلوص الشيطان إلى الإنسان كخلوص الأعراض وأن خلقه من الأرض كتوليد الحيوان عياناً وإياك والاحتجاج بشيء مما يروونه القصاص فإنه هو الذي أوجد الملحد للسبيل إلى الطعن والشنعة.
ذكر صورة آدم وخبر وفاته روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن أباكم آدم كان طويلاً كالنخلة السحوق ستين ذراعاً كثير الشعر موارى العورة وإن كان لما أكل الحنطة بدت عورته فخرج هارباً من الجنة فتلقته شجرة

فأخذت بناصيته وناداه ربه أفراراً مني يا آدم قال لا يا رب ولكن حياء منك فأهبطه الله تعالى إلى الأرض فلما حضرته الوفاة بعث بحنوطه وكفنه من الجنة رواه ابن ساحق عن الحسن عن أبي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وأما ما قيل أن هامته كانت تمس السماء فمن ذلك الصلع وأن الملائكة كانوا يتأذون مخشاة فشكوه إلى الله تعالى فبعث جبرئيل فهمزه همزه طأطأ منه إلى ستين ذراعاً لخروجه عن العادة اللهم إلا أن نتأول على وجه لأن ما تصاعد عن وجه الأرض فهو من السماء وما أظلك فهو السماء والصلع عند الأطباء من الرطوبة في الدماغ وزعم وهب أن آدم كان أجمل البرية أمرد وإنما نبتت اللحية لولده من بعده وروى عن أبي أن آدم لما احتضر اشتهى قطفا من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه فتلقاهم الملائكة فقالت ارجعوا فقد كفيتموه فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبرائيل والملائكة. خلفه وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا هذه سنتكم في موتاكم يا بني آدم هكذا الرواية والله اعلم.

ذكر الروح والنفس والحياة والموت أعلم هذا باب مستصعب مستغلق كثير التخبط والإختلاف وأنا ذاكر من كل طبقة ذرءاً قال الله تعالى " يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي " قال بعض أهل التأويل حجب الخلق عن الخوض فيه ولم يطلع أحداً عليه وقال في بني آدم ثم سواه ونفخ فيه من روحه وقال في مريم فنفخنا فيها من روحنا وقال تعالى " وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا " وقال تعالى " نزل به الروح الأمين " وقال تعالى " وتنزل الملائكة والروح فيها " فذكر الروح في غير موضع من القرآن ومعنى الروح المنفوخ في مريم غير معنى الروح الموحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بل لكل واحدة معنى على حدة وقال الذي خلق الموت والحياة وقال يقول يا ليتني قدمت لحياتي وقال إن الدار الآخرة لهي الحيوان وقال إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وقال تعالى " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم " والفرق بين حياة الدنيا وحياة الآخرة بين ظاهر وإنما اجتمعتا في اللفظ وقال " يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية " وقال حكاية عن قول النفس أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وقال تعالى " ونفس ما سواها " وقال تعالى " الله يتوفى الأنفس حين موتها " الآية وقال أن النفس لأمارة بالسوء وقال ونهى النفس عن الهوى فأثبت ها هنا أشياء آخر بنهي النفس عن هواها وقال وفي أنفسكن أفلا تبصرون وقال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم وقال ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وقال أو أكنتم في أنفسكم وقال بل سولت لكم أنفسكم أمراً يخبر بمثلها عن الروح والحياة وقال " وهو الذي يحيي ويميت " وقال الله " يتوفى الأنفس حين موتها " وقال " فقال لهم موتوا ثم أحياها " وقال " يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم " وقال " فأماته الله مائة عام " وقال " وكنتم أمواتاً فأحياكم " وقال " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم " وقال " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم " فوصفه بالموت بعد ما نهى عن تسمية الشهداء أمواتاً وقال في ذكر الحواس ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.

ذكر ما جاء في الأخبار في هذا الباب حدثنا عبد الرحيم ابن احمد المروزي حدثنا العباس السراج عن قتيبة حدثنا خالد ابن عبد الله عن الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله قال الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وروى سفيان الثوري عن حبيب بن أبي شابت عن أبي الطفيل عن علي مثله وروى هيثم عن أبي بشر عن مجاهد عن ابن عباس قال الأرواح أمر من أمر الله وخلق من خلق الله صورهم على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح وروى الثوري عن مسلم عن مجاهد قال الروح يأكلون ويشربون

ولهم أيد وأرجل ورءوس وليسوا بملائكة وروى أنهم حفظة على الملائكة وروى الثوري عن اسمعيل بن أبي خالد عن أبي صالح قال الأرواح يشتهون الناس وليسوا بناس وروى الثوري عن أيوب عن أبي قلامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الروح إذا خرج اتبعه البصر ألم تروا إلى شخوص عينيه وفي حديث صفوان بن سليم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أرواح المؤمنين في حجرات من حجرات الجنة يأكلون طعامها ويشربون من شرابها ويلبسون من ثيابها ويقولون ربنا آتنا ما وعدتنا والحق بنا إخواننا وأرواح الكفار في حجرات من حجرات النار يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويلبسون من ثيابها ويقولون ربنا لا تؤتنا ما وعدتنا ولا تلحق بنا إخواننا وروى الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله فر قوله تعالى " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون " فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قال أرواح الشهداء في طير تسرح في الجنة كيف شاءت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش فال فاطلع عليهم ربك اطلاعه فقال هل تستريدون شيئاً فأزيدكموه قالوا ربنا وما نستريد ونحن في الجنة نسرح حيث نشاء فاطلع عليهم فقال لهم مثل ذلك فقالوا أتعيد أرواحنا في أجسادنا حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل في سبيلك مرة أخرى وفي حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الأرواح في بيت البراء بن معرور هم يأكلون لحماً وتمراً حتى أمسكوا على الطعام قال أرواح المؤمنين طيور خضر وقال في طير خضر في حجر من الجنة يأكلون ويشربون ويتعارفون في الجنة كما يتعارفون في الدنيا وأرواح في حجر من النار وذكر قصة طويلة وروى كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أن أرواح المؤمنين في طيور خضر تعلق بشجر الجنة وروى مالك بن أنس عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما نفس المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله تعالى إلى جسده يوم يبعثه وعن عبد الله بن عمر أن أرواح المؤمنين في طير كالزرازيز وهو جمع الزرزور يتعارفون يرزقون من ثمار الجنة وعن سلمان الفارسي قال الأرواح جنود مجنده فما كان لله ائتلف وما كان لسواه اختلف وعن أبي الزبير عن جابر قال كنا نحدث أنه ليس أحد يدخل النار والجنة بجسده قبل يوم القيامة إنما هي أرواح في عليين وسجين فإذا روحت النفوس وبعث من في القبور صارت الأرواح والأجساد إلى الجنة والنار وعن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: " وننشئكم فيما لا تعلمون " قال سود من النار وقرى على خيثمة بن سليمان القرشي باطرابلس عن عبد الجبار بن العلاء عن سفيان الثوري عن فرات بن الفرات عن أبي الطفيل عن علي عليه السلم قال نشر وادين وادي الأحقاف وواد بحضرموت يقال له برهوت يأوي إليه أرواح الكفار وروى سفيان عن أبان بن تغلب عن رجل قال بت في برهوت وكأنما حشرت أرواح الناس وهم يقولون يا دومه يا دومه قال فحدثني رجل من أهل الكتاب أن دومه هو الملك الموكل على أرواح الكفار وروى عن أبي أمامة أنه قال أرواح المؤمنين تجتمع ببيت المقدس وقد نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل بدر في القليب فقيل أتنادي قوماً قد حتفوا فقال أما أنتم فلستم بأسمع منهم ولكن لا يقدرون أن يجيبوني وقال صلى الله عليه وسلم كسر عظم المؤمن ميتاً ككسره حيا والأخبار المتواترة عن المسلمين في مغازيهم أن كلما قتل من كافر قالوا قد عجل الله بروحه إلى النار وكلما استشهد مؤمن قالوا قد عجل الله بروحه إلى الجنة وروى أبان عن عباس عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال أن أعمالكم تعرض على أقاربكم فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان شراً كرهوه وتلقى روح المؤمن أرواح المؤمنين فيقول اتركوا صاحبكم حتى يستريح فقد خرج من كرب شديد ثم يقولون ما فعل فلان ما فعلت فلانة هل نكح فلان هل نكحت فلانة فإن قال إن ذاك قد مات قبلي أما قدم عليكم فيقولون إنا لله وإنا إليه

راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبست المربية وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال أهل القبور يتوكفون الأخبار فإذا أتاهم الميت يقولون له فعل فلان وما فعلت فلانة فيقول أولم يأتكم فيقولون أنا لله وأنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا وفي رواية عبد الله بن عمر أن الأرواح ليتلقون على مسيرة وما رأى أحدهم صاحبه قط وروى أن الأعمال تعرض يوم الأثنين ويوم الخميس على الله ويعرضون يوم الجمعة على الأقارب فاتقوا الله ولا تختروا موتاكم وروى زيد بن اسلم عن أبي هريرة أنه مر هو وصاحب له بقبر فقال أبو هريرة سلم فقال الرجل اتسلم على قبر فقال أبو هريرة أن كان رآك في الدنيا يوماً قط فإنه يعرفك الآن وروى ان المؤمن لا يزال يسمع الآذان في قبره ما لم يطين ومر النبي صلى الله عليه وسلم بالبقيع فقال السلام عليكم أهل ديار قوم مؤمنين وأنا إن شاء الله بكم لاحقون ولما دفن عثمان بن مظعون وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة قال صلى الله عليه وسلم خرجت ولم تتلبس منها بشيء وما جاز عليه أن يخاطب من لا يعنهم ولما ابتدى بشكواه التي قبض فيها خرج من الليل مع أبي مويهبة حتى قام بين ظهراني القبور فقال ليهنئكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس عليه اقبلت الغين كقطع الليل المظلم وفي رواية مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون " الآية قال أرواح الشهداء على بارق نهر الجنة يأكلون من ثمارها و ويشربون من ماءها ويستنشقون روائحها وليسوا فيها وهذه الأخبار كلها وما شاكلها عند من يرى الجنة غير مخلوقة اليوم ولا موجودة إلا على الاستقبال فيما بعد ومنهم من يجيز أن يحدث الله الأرواح جنة يتنعم فيها غير الجنة الموعدة وكذلك النار وهي كلها حجة للقائلين بوجود الجنة والنار في الحال.يه وسلم قال أن أعمالكم تعرض على أقاربكم فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان شراً كرهوه وتلقى روح المؤمن أرواح المؤمنين فيقول اتركوا صاحبكم حتى يستريح فقد خرج من كرب شديد ثم يقولون ما فعل فلان ما فعلت فلانة هل نكح فلان هل نكحت فلانة فإن قال إن ذاك قد مات قبلي أما قدم عليكم فيقولون إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبست المربية وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال أهل القبور يتوكفون الأخبار فإذا أتاهم الميت يقولون له فعل فلان وما فعلت فلانة فيقول أولم يأتكم فيقولون أنا لله وأنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا وفي رواية عبد الله بن عمر أن الأرواح ليتلقون على مسيرة وما رأى أحدهم صاحبه قط وروى أن الأعمال تعرض يوم الأثنين ويوم الخميس على الله ويعرضون يوم الجمعة على الأقارب فاتقوا الله ولا تختروا موتاكم وروى زيد بن اسلم عن أبي هريرة أنه مر هو وصاحب له بقبر فقال أبو هريرة سلم فقال الرجل اتسلم على قبر فقال أبو هريرة أن كان رآك في الدنيا يوماً قط فإنه يعرفك الآن وروى ان المؤمن لا يزال يسمع الآذان في قبره ما لم يطين ومر النبي صلى الله عليه وسلم بالبقيع فقال السلام عليكم أهل ديار قوم مؤمنين وأنا إن شاء الله بكم لاحقون ولما دفن عثمان بن مظعون وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة قال صلى الله عليه وسلم خرجت ولم تتلبس منها بشيء وما جاز عليه أن يخاطب من لا يعنهم ولما ابتدى بشكواه التي قبض فيها خرج من الليل مع أبي مويهبة حتى قام بين ظهراني القبور فقال ليهنئكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس عليه اقبلت الغين كقطع الليل المظلم وفي رواية مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون " الآية قال أرواح الشهداء على بارق نهر الجنة يأكلون من ثمارها و ويشربون من ماءها ويستنشقون روائحها وليسوا فيها وهذه الأخبار كلها وما شاكلها عند من يرى الجنة غير مخلوقة اليوم ولا موجودة إلا على الاستقبال فيما بعد ومنهم من يجيز أن يحدث الله الأرواح جنة يتنعم فيها غير الجنة الموعدة وكذلك النار وهي كلها حجة للقائلين بوجود الجنة والنار في الحال.

ذكر ما جاء في القرآن والنص والدلالة على أحوال الأرواح قال الله تعالى " يوم يقوم الروح والملائكة صفاً " قال الحسن هو الخلق ذوو الأرواح وقيل هم خلق أكثر من الملائكة قال الله تعالى " النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب " فأخبر أن أرواحهم تعرض على النار قبل مصيرهم إلى نار جهنم وقال في صاحب يسين قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون فلم يكن بقوله إلا روحه لأن جسده كان مطروحاً لديهم وقال كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين كلا إن كتاب الفجار لفي سجين قال بعض المفسرين يعني أرواحهم قال إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة وروى السري عن البراء بن عازب أن أرواح المؤمنين إذا قبضتها الملائكة رفعوها إلى السماء فلا تمر بملك من الملائكة إلا قالوا ريح طيب خرج عن نفس طيب حتى ينتهي بها إلى حيث يشاء الله فيسجد وروح الكافر إذا قبض رفع إلى السماء فلا يفتح له أبواب السماء ويقولون روح خبيث خرج من نفس خبيثة فيرد إلى سجين في قصة طويلة وقال فما بكت عليهم السماء والأرض قال " لكل مؤمن من السماء بابان ينزل منه رزقه وباب يصعد فيه علمه وروحه فإذا مات انقطع ذلك فبكت السماء والأرض عليه " وقال الله " يتوفى الأنفس حين موتها " والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه أن الرجل إذا مات قبض الله روحه وبقي نفسه لأن النفس موصولة بالروح فإذا أراد الله قبض روحه للموت قبض نفسه مع روحه فمات وإذا أراد الله بعثه رد إليه روحه وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا آوى إلى فراشه قال اللهم باسمك وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما يحفظ به الصالحين وكان إذا استيقظ من نومه قال الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه المصير وروى ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنه قال في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس والنفس هي التي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها اليقين والتحريك فإذا نام العبد قبض الله نفسه وروحه وقال مجاهد تجيء الروح إلى الرجل في منامه فإذا لم يحضر أجله استيقظ وإذا حضر أجله ذهب الروحان وروى حصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال كل نفس لها سبب تجري فيه فإذا قضى عليها الموت قامت حتى ينقطع السبب والتي لم تمت يرد وروى عن علي عليه السلم أنه قال إذا نام الإنسان امتد روحه مثل الخيط فيكون بعض أجزائه في النائم وبه يتنفس وبعضها مختلط بأرواح الأموات مقبوضاً معها إلى وقت انتباهه فترجع إليه وروى ابن عجلان عن سالم عن أبيه أن عمر رضي الله عنه قال لعلي يا أبا الحسن وربما شهدت سهدة وعتباً اسئلك عن ثلثة أشياء قال وما هن قال الرجل يحب الرجل وما يرى منه خيراً والرجل يبغض الرجل وما يرى منه سوءاً قال نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرواح جنود مجندة يلتقى فيشام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف قال عمر والرجل يحدث الحديث إذ ينساه فيينا هو قد نسيه إذ ذكره قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر بينا القمر يضيء إذا غلبته السحابة فينسى أو تجلت عنه فذكره قال عمر والرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد ولا أمة ينام فيشتغل نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي الرويا التي تكذب.

ذكر قول أهل اللغة في الروح والنفس والحياة قد يسمى ذات الشيء وعينه كائناً ما كان من جسم أو عرض أو جوهر أو غير ذلك نفساً فيقال نفس هذا الخشب ونفس الأرض ونفس السماء ونفس الكلام ونفس الحركة قال الله تعالى " واصطنعتك لنفسي " وقال تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك " وسمى الهمة نفساً فيقال لفلان نفس وليس لفلان نفس وسمت نفسه إلى كذا كما يقال سمت همته وذلك يسمى الطمع والحرص والمراد النفس قال:

واكذب النفس إذا حدثتها

وقال

والنفس راغبة إذا رغبتها، ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

وقال

شاور نفسي طمع ورهبة ... تقول هاتي لا وهاتيك بلى

فشجعته نفس حرص طمعت ... وحذرته نفسه الأخرى الردى

فسمى الجبن والشجاعة نفساً ويسمي الدم نفساً وكذلك قيل الهوام لها نفس سائلة ومنه نفاس المرأة لما سال من دمها ويسمى أصحاب العين النفس وقيل سميت النفس نفساً لتنفسها ويعبر عن القلب بالنفس كما قال الله تعالى " فأسرها يوسف في نفسه " وقال " أوأكنتم في أنفسكم " هذه الوجوه كلها خاصة حالة للنفس لا شركة بينها وبين الروح في شيء منها اللهم إلا في حالة واحدة قالوا خرجت نفسه وخرجت روحه إذا مات وقال الشاعر:

سميت عياطاً ولست بعائط ... عدوا ولكن الصديق تعيط

فلا حفظ الرحمن روحك حية ... ولا هي في الأرواح حين تعيط

وأنشد أبو زيد الأنصاري

اجتمع الناس وقالوا عرس ... ففقئت عين وفاضت نفس

واختلفوا في الروح فحكى ابن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي قال في الحديث لكل إنسان نفس وروح فأما النفس فتموت وأما الروح فيفعل به كذا وكذا وقد تسمى العرب الريح والروح والنفخ روحاً قال ذو الرمة:

فقلت له ارفعها إليك وأحيها ... بروحك وأفتنه لها فتنة قدرا

ويسمى الهواء الروح والملك الروح والوحي الروح وكل لطيف خفيف متعال روحاً ويقال في الحيوانات أنها ذات أرواح وفلان خفيف الروح وفلان ثقيل الروح إذا كان يخف على القلوب أو يثقل ويقال لكل ما ينبت وما يشاهد كالملائكة والجان الروحانيون والأرواح تبقى والأنفس تموت ولا تبقى وأما الحياة فهي شيء يضاد الموت حيث ما حلت ارتفعت وهي في الجملة على كل تام حساس ومتحرك من ذوي الأرواح وغيرها ألا ترى إلى قوله تعالى " فأحيينا به الأرض بعد موتها فجعل الأرض حياة إذا نزل عليها الماء " وقال " وهو الذي أحياكم فجعلنا بما أحيانا به " وقال " يخرج الحي من الميت " فمن قائل أنه الولد من النطفة والطير من البيض والنخلة من النواة فسمى النخلة لما فيها من قوة الحياة حياً ثم وصف نفسه بالحياة فقال هي الحي ولا يجوز أن يقال هو ذو روح وذو نفس لأن الحياة أعم وأعلى فيقال روح حي وقد أحييت روحي بكذا وكل ما له بقاء ودوام يدعى حياً كما قيل للشعر أنه كلام حي لبقائه ومروره على الألسن واختلفوا في مكان الروح والنفس والحياة من البدن ألكل واحد منها موضع على حدته أو كلها متداخل أو متصل بعضها ببعض وأيها ألتابع للآخر وأيها المتبوع وكيف ما أنظر فلا أجد بداً من جمع ما يحتاج إليه في كتاب مفرد أسميه كتاب النفس والروح لأني إن أطنبت فيه إذ لا يغنى الاختصار والإيجاز نقضت ما اشترطت في صدر الكتاب وهذا باب لا يصح الكلام فيه وإن طال وأما الموت فسكون دائم وخمود بانقطاع الحياة وذهاب الروح وقد سمى الله تعالى الجوامد مواتاً عند فقد النماء والحركة وقيل النوم أخو الموت وقالوا للشيء الخامل المنسي هذا ميت وأنشدني بعضهم:

نوم اللبيب بقدر ... رتبته ذا المقيل

والنوم موت قصير ... والموت نوم طويل
وفي التورية الفقر الأكبر وفي تأويل القرآن الكافر ميت والجاهل ميت

ذكر ما جاء عن أهل الكتاب في الأرواح زعم بعض أهل اليهود أن أرواح الخلائق متصلة في الهواء على شبه نار أو شعاع الشمس عند غروبها وطلوعها ومع ملك الموت سيف يقطع به أرواح من يريد أن يقبضه واحتجوا بقول شمويل في كتابه أن الله بعث الموت على بني إسرائيل فمات منهم بشر كثير فخرج داود ومشايخ بني إسرائيل فرأى داود ملك الموت واقفاً على قرب أورشليم قد اتكأ على سيفه فسأل ربه أن يرفع السيف عنهم فرأى الملك قد أدخل سيفه في غلافه وسكن الموت وقالت فرقة منهم أرواح البررة الصديقين إذا فارقت جثتها صارت إلى الفردوس تحت شجرة الحياة وأرواح الفجرة والفسقة إلى ظلمة الأرض وأرواح ما كان بين ذلك إلى الهواء وقالت فرقة أخرى أن الله لم يوكل أحداً بقبض أرواح الخلائق ولكن إذا ذبل جسم الإنسان وضعفت أعضاؤه فارقتها وصارت أرواح الأبرار إلى الموضع الذي جاءت منه وأرواح الأشرار إلى ظلمة الأرض قالوا فلما إن صارت فيه من غير أن يدخلها أحد كذلك إذا كانت الأجساد عن قبول قوى النفس خرجت من غير أن يخرجها أحد وكثير منهم يقول أن أرواح الصديقين والصالحين إذا هي فارقت أجسادها جعلت في صرة وتركت إلى يوم القيامة وأرواح العاصين والمسئين إذا فارقت أجسادها بقيت في ظلمة الأرض إلى يوم القيامة واحتجوا بقول سليمان بن دواد في كتابه قوها أن ترجع الأجساد إلى التراب والأرواح إلى الرب الذي أعطاه وقال فيه أيضاً من كان منكم عالماً علم أن أرواح ولد آدم صاعدة إلى الهواء والعلى وأن أرواح الذين يشبهون الدواب ينزل إلى أسفل الأرض واحتجوا بقول ابيغايل النبيه وهو مكتوب في كتاب شمويل إذ تقول لداود روح سيدي داود مجتمع في صرة الحياة وروح أعدائه يرمي بها المقاليع وزعم بعضهم أن الروح مما خلق في الابتداء وقد روينا عن بعض علماء الأمة أن أول ما خلق الروح وروينا أن الأرواح خلقت من قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة والله أعلم وفي رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يزال الخصومة يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد ويقول الجسد يا رب إنما كنت بمنزلة جذع ملقى لولا الروح فيضرب لهما مثلاً أعمى حمل مقعداً.

ذكر مقالات سائر الأمم في الروح والجسد كانت العرب تزعم أن روح الميت تخرج من قبره فتصير هامة تزقو وتقول اسقوني اسقوني وفيه يقول ذو الأصبع العدواني

يا عمرو إن لم تدع شتمي ومنقصتي ... اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال:

سلط الموت والمنون عليهم ... فهم في صدى المقابر هام

وقال أبو الغموص

أتجبر يا الرسول بأن سنحى ... وكيف حيوة أصداء وهام

قال النبي صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا هامة ولا صفر ومن ثم كان يستسقون للأموات وأما الهند فظاهر فيهم القول برجوع أرواح موتاهم في صدروهم ويزعمون أنهم يكلمونهم ويسألون بهم وأما الفرس فأيام الفروردجان عندهم أيام رجوع الأرواح فيهيئون ألوان الطعام ويبخرون المباذل بالطيب ويفرشون الرياحين ويقولون هم لا يصيبون من الطعام إلا الرائحة وروى المسلمون أن الميت يسمع كلام أهله وبكاهم عليه وأنه يسئل في قبره وهو يسمع خفق النعال وروى عن حذيفة أنه قال أن الجسد ليغسل والروح بيد ملك فإذا وضع في لحده سلك الروح فيه وروى أن الميت إذا حمل إلى حفرته فإن كان صالحاً قال عجلوا بي عجلوا بي وإن كان غير ذلك قال لا تعجلوا

بي فإنكم لا تدرون على ما تقدمون بي وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات إبراهيم عليه السلام قال عصفور من عصافير الجنة وهذا كله دليل على حياة الروح وبقائه بعد النفس والناس قاطبة يندبون موتاهم وينادونهم ويخاطبونهم ولولا الأصل الموثل في حياة الأرواح لما اجتمعوا عليه وليس ينقص هذا مخاطبتهم الديار والآثار لأن هذا خاص في العرب وذلك عام في الأمم

ذكر اختلاف نظار أهل الإسلام في النفس والروح قال بعضهم النفس جسم لطيف له مساحة البدن على طوله وعرضه وعمقه وأنه متداخل بعضه في بعض وكل في كل واستدلوا على أن جميع أجزاء النفس في جميع أجزاء البدن بأنك كما قطعت جزءاً من أجزاء البدن وجدت له ألماً ولولا النفس لم يألم وقال معمر أن النفس موجودة لا مساحة لها وليست بجسم ولا طول ولا عرض ولا عمق وليست بحاله في الأمكنة ولا يحيط بها المواضع وقد يقال في مجاز اللغة أن النفس في البدن على التدبير والأحداث للأفاعيل ولا يقال هي البدن على السكون والحركة وذلك أن السكون والحركة إنما تجوز على كل ذي مساحة وجسم على ما يحويه الأمكنة ويجوز عليه النقلة من موضع إلى موضع ولا تجوز النقلة على شيء إلا بأحد أمرين إما بجسم يرفع الجسم من مكان إلى مكان فإذا لم يكن جسماً لم يمكن منه على الرفع والجر وقال إبراهيم النظام الروح هي الحياة المشابكة بهذا الجسم وقال هشام بن الحكم الروح نور من الأنوار والجسد موات وقال ابن الروندي الروح عرض والإنسان هو أعراض مجتمعة ومنهم من يقول الروح هو الجزء الذي لا يتجزأ وهو لا في مكان ثم اختلف هؤلاء في الإنسان المكلف المثاب المعاقب من هو وما هو قال بشر ابن المعتمر وهشام بن الحكم وأبو الهذيل العلاف وأبو الحسين الخياط هو الروح مع هذا الشخص المرئي وقال إبراهيم النظام الإنسان هو الروح وهو الحياة المشابكة لهذا الجسم ولأنه لا شيء غيره وقال أحمد بن يحيى الإنسان مقدار ما في القلب من الروح وقال بعضهم الإنسان هو الجوهر بين الجوهرين ومحصول أمرهم على قولين أحدهما أنه الروح وحده والآخر أنه الروح مع البدن واحتج من قال أنه الروح بقوله تعالى أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله ويا أيتها النفس المطمئنة فكل ما وقع من الخطاب فمع النفس وهي الروح لا غير واحتج مخالفوهم بقوله تعالى ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين الآية فأخبر أن الإنسان هو هذا المخلوق وأنه مختص مرئي واختلفوا أهل يحس الميت بعد مفارقة روحه بشيء أم لا ثم اختلف قالوا أنه يحس أو روحه تحس بذلك أم جسده أم روحه مع جسده فأنكر بعضهم أن يكون الميت يشعر بشيء دون يوم القيامة واحتج بقولهم يوم البعث يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا وبقوله ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً وقال بعضهم تحس روحه احتج بقوله النار يعرضون عليها غدوا وعشياً وبسائر الآيات التي تلوناها في الشهداء والأخبار التي رويناها وقال ابن الروندي بل يحس الجسد والروح عرض قد بطل قال فالميت يعلم ضربين من العلم ويحس بضرب من الحس قال ولو لم يكن هكذا ما علم إذا أحس أنه كان ميتاً فاحتج بالخبر المروي أن الميت على النعش يسمع نوح أهله وهذه مناظرة جرت بين النظام وبين هشام بن الحكم سأل النظام هشاماً فقال لم زعمت أن الروح إذا بطل استعمالها للجسد رجعت ففعلت في نفسها إدراك الأشخاص والأشكال بالقوة الروحية قال هشام لأنها ليست بجسم فيدخلها التضاد الذي أحدهما مزيل للإدراك وهو السكون قال النظام فإذا لم يكن جسماً ولم يدخلها التضاد على قولك فما الذي يوجب لها إدراك ما ليس بحضرتها قال هشام قوة الانبساط وارتفاعهما على السترات وأنها لم تدرك الأشياء توهماً وتقديراً على الانفراد إذا كانت إنما تدركها ملامسة وحساً على الاجتماع قال النظام وهل يوجب التوهم والتقدير إيجاد الشيء وحضوره قال هشام إن كنت تريد ما يوجب مشاهدة إنه وإن وصفته إدراك فنعم قال النظام فإن كان يوجب إنه وإن وصفته إدراك فما حاجته إلى الحاسة للإدراك قال هشام ليجتمع له إدراك المائية والصفة في

الوهم والتقدير وفي المشاهدة والعيان قال النظام وما حاجته إلى هذا وإنما يطلب الإدراك الذي قد وجده بلا حاسة قال هشام ليعلم ما هيئته في الإعلان بالصفة والهيئة كما علمها في الضمير توهماً وتقديراً قال النظام وهل يزيده علمه بماهيته علماً في الضمير قال هشام نعم يزيده لأن الإدراك بالحواس أولاً والإدراك بالتوهم ثانياً وذلك إن من لم ير طولاً قط لا يتوهمه حتى يتصور في ضميره فإذا رآه ثم فقده كان مصوراً في الضمير قائماً لإدراك الروح إذا ترك استعمال الحاسة وهذه مناظرة ثانية جرت بين من زعم أن الروح في البدن على معنى التدبير والأحداث للأفاعيل لا على معنى السكون والحلول فيه قالوا لهم خبرونا

عن البدن إذا قطعت منه جارحة هل قطع من الروح شيء قالوا لا ولكن الجزء من الروح الذي كان ساكناً في اليد إذا قطعت صار في الذراع بمنزلة الشمس في الكوة إذا سد الكوة عاد الشعاع النافذ إلى جنسه وشكله قالوا فينبغي على قولك إذا قطعت الجوارح والأعضاء كلها أن يزداد بروحه قوة ما يبقى من أجزائه لجمعه فيه إذا كان الروح له مساحة من الطول والعرض والعمق في الجسم وهو الجسم لزم أن يكون جسمان في مكان واحد قالوا نقول بالمداخلة المجاورة وهذه مناظرة ثالثة درت بين النظام وبين مخالفيه قالوا له أخبرنا عن الإنسان هل يرى قال نعم قد يرى معقولاً قيل فهل يدرك بالبصر قال نعم يدرك بالبصر مفعولاً كما يقول رأيت على فلان سيفاً وإنما رأى غمده ويقول رأيت ميتاً وإنما بدنه قيل له فأخبرنا عن الإنسان ما هو قال لا يخلو هذا السؤال من أحد أمرين إما أن أردتم عن اسمه أو عن خواصه التي يعرف بها وبها يفصل بينه وبين غيره فإن أردتم الاسم فهذا إنسان وإن أردتم الخواص فهو الحياة والموت والنطق والضحك قال وليس نعني بهذا الكلام أنه أبداً ميت أو ضاحك أو ناطق أو حي وإنما نريد به أن من شأنه وغريزته أنه ممن يموت وأن من شأنه الحياة والضحك وإن لم يضحك قالوا فأخبرنا عن هذا الإنسان الحي الذي وصفته بالحياة أهو هي أم غيره قال قد وصفته بحياة هي غيره وكذلك إذا مات وصفته بموت هو غيره وحياته وموته عرضان يتضادان فبأحدهما كان حياً وبالآخر كان ميتاً قالوا فما الحياة والموت قال أما الحياة فمعنى له أمكن أن يكون به محركاً لما حرك ومريداً لما أراد من أعماله التي يجوز أن يكون منه قيل له وما الأعمال التي يجوز أن يكون منه قال أما ما كان بالاستطاعة فالإرادة لاستخراج الأشياء والعمل والفكرة وما أشبههما وكل فعل كان منه على المفاجأة وليس قبله له فيه إرادة ولا تمثيل فإن ذلك لغريزة قال والموت بخلاف ذلك وهو إذا دخل بالحي بطل معه كل ما ذكرناه لأنه تبطل بحلوله القدرة على ما كان تقدر عليه قبل ذلك فإذا أحياه الله فحي بطبعه وإذا أماته مات وفعله بطبعه قال وليس الموت فناء له لو كان فناء لم يجز أن يقوم الموت فيه وهو بشر وإنما الموت آفة حلت به فحالت وبين التدبير وهذه مناظرة رابعة جرت بين ما أثبت الروح جسماً وبين من نفى أن يكون جسماً قالوا لهم ما الدليل على أنه ليس بجسم قالوا الدليل عليه أن الأجسام لا يخلو أن تكون ساكنة أم متحركة ولا يكون الساكن والمتحرك إلا بإسكان وتحريك من غيره فلو كان الإنسان جسماً لكان ساكناً أو متحركاً ولو كان المسكن له والمحرك في مثل لزمه ما يلزمه ووجب قود الكلام فيه إلى مسكن له أو محرك ليس بجسم قالوا فهل يسكنه الأعراض قال أما الأعراض التي هي إرادات وغضب وعلم وشهوة وألم وما أشبه ذلك فنعم وأما الأعراض التي هي ألوان وطعوم وأراييح فلا لأنه لو جاز ذلك لجاز أن يدرك بالمذاقات ويرى بالأبصار ولحاذته الأمكنة قالوا فإذا قلتم إن الإنسان لا تحويه الأمكنة وليس بجسم ولا يوصف بطول ولا عرض ولا عمق قد شبهتموه بالله تعالى قال ليس التشبيه في نفي الأعراض والصفات وإنما التشبيه بين الأعيان بالأعراض المركبة فيها نحو الرجلين القائمين اللذين يوصفان بالقيام الذي هو غيرهما فيكون كل واحد منهما مشبهاً لصاحب في قيامه أو يكون أحدهما جالساً والآخر قائماً فيخالفان بالأعراض المركبة فيهما بالتشابه يقع في الإثبات لا في النفي ولو كان التشابه يكون في النفي لكان

الإنسان يكون مشبهاً للحيزية إذا كان الحيزية تنفى عن الكلية وينفى ذلك عن الإنسان.عن البدن إذا قطعت منه جارحة هل قطع من الروح شيء قالوا لا ولكن الجزء من الروح الذي كان ساكناً في اليد إذا قطعت صار في الذراع بمنزلة الشمس في الكوة إذا سد الكوة عاد الشعاع النافذ إلى جنسه وشكله قالوا فينبغي على قولك إذا قطعت الجوارح والأعضاء كلها أن يزداد بروحه قوة ما يبقى من أجزائه لجمعه فيه إذا كان الروح له مساحة من الطول والعرض والعمق في الجسم وهو الجسم لزم أن يكون جسمان في مكان واحد قالوا نقول بالمداخلة المجاورة وهذه مناظرة ثالثة درت بين النظام وبين مخالفيه قالوا له أخبرنا عن الإنسان هل يرى قال نعم قد يرى معقولاً قيل فهل يدرك بالبصر قال نعم يدرك بالبصر مفعولاً كما يقول رأيت على فلان سيفاً وإنما رأى غمده ويقول رأيت ميتاً وإنما بدنه قيل له فأخبرنا عن الإنسان ما هو قال لا يخلو هذا السؤال من أحد أمرين إما أن أردتم عن اسمه أو عن خواصه التي يعرف بها وبها يفصل بينه وبين غيره فإن أردتم الاسم فهذا إنسان وإن أردتم الخواص فهو الحياة والموت والنطق والضحك قال وليس نعني بهذا الكلام أنه أبداً ميت أو ضاحك أو ناطق أو حي وإنما نريد به أن من شأنه وغريزته أنه ممن يموت وأن من شأنه الحياة والضحك وإن لم يضحك قالوا فأخبرنا عن هذا الإنسان الحي الذي وصفته بالحياة أهو هي أم غيره قال قد وصفته بحياة هي غيره وكذلك إذا مات وصفته بموت هو غيره وحياته وموته عرضان يتضادان فبأحدهما كان حياً وبالآخر كان ميتاً قالوا فما الحياة والموت قال أما الحياة فمعنى له أمكن أن يكون به محركاً لما حرك ومريداً لما أراد من أعماله التي يجوز أن يكون منه قيل له وما الأعمال التي يجوز أن يكون منه قال أما ما كان بالاستطاعة فالإرادة لاستخراج الأشياء والعمل والفكرة وما أشبههما وكل فعل كان منه على المفاجأة وليس قبله له فيه إرادة ولا تمثيل فإن ذلك لغريزة قال والموت بخلاف ذلك وهو إذا دخل بالحي بطل معه كل ما ذكرناه لأنه تبطل بحلوله القدرة على ما كان تقدر عليه قبل ذلك فإذا أحياه الله فحي بطبعه وإذا أماته مات وفعله بطبعه قال وليس الموت فناء له لو كان فناء لم يجز أن يقوم الموت فيه وهو بشر وإنما الموت آفة حلت به فحالت وبين التدبير وهذه مناظرة رابعة جرت بين ما أثبت الروح جسماً وبين من نفى أن يكون جسماً قالوا لهم ما الدليل على أنه ليس بجسم قالوا الدليل عليه أن الأجسام لا يخلو أن تكون ساكنة أم متحركة ولا يكون الساكن والمتحرك إلا بإسكان وتحريك من غيره فلو كان الإنسان جسماً لكان ساكناً أو متحركاً ولو كان المسكن له والمحرك في مثل لزمه ما يلزمه ووجب قود الكلام فيه إلى مسكن له أو محرك ليس بجسم قالوا فهل يسكنه الأعراض قال أما الأعراض التي هي إرادات وغضب وعلم وشهوة وألم وما أشبه ذلك فنعم وأما الأعراض التي هي ألوان وطعوم وأراييح فلا لأنه لو جاز ذلك لجاز أن يدرك بالمذاقات ويرى بالأبصار ولحاذته الأمكنة قالوا فإذا قلتم إن الإنسان لا تحويه الأمكنة وليس بجسم ولا يوصف بطول ولا عرض ولا عمق قد شبهتموه بالله تعالى قال ليس التشبيه في نفي الأعراض والصفات وإنما التشبيه بين الأعيان بالأعراض المركبة فيها نحو الرجلين القائمين اللذين يوصفان بالقيام الذي هو غيرهما فيكون كل واحد منهما مشبهاً لصاحب في قيامه أو يكون أحدهما جالساً والآخر قائماً فيخالفان بالأعراض المركبة فيهما بالتشابه يقع في الإثبات لا في النفي ولو كان التشابه يكون في النفي لكان الإنسان يكون مشبهاً للحيزية إذا كان الحيزية تنفى عن الكلية وينفى ذلك عن الإنسان.

ذكر أراء الفلاسفة في النفس والروح على ما حكاه افلوطرخس في حد النفس، زعم افلاطن أنه يرى النفس جوهراً عقلياً يتحرك ذاته وأن ارسطاطاليس يرى النفس كمال جسم طبيعي إلى حي بالقوة وإن فيثاغورس يرى النفس عدداً تحرك ذاته ويعني بالعدد العقل وأن تاليس يرى النفس طبيعة دائمة الحركة وأنها محركة ذاتها قال وبعضهم يرى النفس تأليف الأسطقسات الأربعة وأما استقلوس الطبيب فإنه كان يرى النفس شيئاً يحدث تدرب الحواس

وارتياضها ولهم اختلاف كثير في النفس ما هي أجسم أو جوهر وكم اجزاءها وأين مسكنها من البدن وما جزءها الرئيس وهل هي باقية بعد مفارقة البدن أم متلاشية ما يدل اختلافهم على قصور معرفتهم وعجزهم عن الإحاطة بها، ذكر أصوب الوجوه فيها يدل أن الروح والنفس معان مختلفة الأفعال والأعراض فكل ذي نفس ذو روح وحياة وكل ذي روح ذو حياة ذا روح ونفس لأن الأرض تحيا بالنبات وليست بذات روح والبهائم حيوانات ذوات أرواح وليست بذوات أنفس فالإنسان له نفي وروح وحياة فتمييزه وعقله وفطنته وفهمه من قبل نفسه وعيشه وبقاءه ونماؤه من قبل روحه وحسه وإدراكه المحسوسات من قبل حياته فالذي يبطل بموته حياته والنفس والروح ينتقلان عنه إلى أن يأذن الله في البعث والحشر وقد جرى في هذا الباب من الأخبار ما فيه مقنع وكفاية وقد زعم إفلاطن فيما يحكى عنه لأن الروايات عنه مختلفة أنه قال أن النفوس المفارقة لأبدان الحيوان غير مائتة ولا فاسدة بل لها أحوال تلذ فيها وتألم وحكى يحيى النحوي عن افلاطن أنه قال النفس جوهر قائم بنفسه والنطق والحياة لها بذاتها فإذا فراقت بدنها وكانت خيرة بقيت مغبوطة مسرورة وإن كانت شريرة بقيت تائهة في الأرض متحيرة تحول حول قبر صاحبها إلى النش الأخرى وهذا قول سديد ورأي صواب يشبه أن يكون من مشكاة النبوة والوحي لأنه مقارب لقول الربانيين والله أعلم.

ذكر قولهم في الحواس قال افلاطن أن الحواس اشترك النفس والبدن في إدراك الشيء الذي من خارج وإن القوة للنفس والآلة للبدن واختلفوا في البصر كيف يبصر فزعم بعضهم أن الشعاع يخرج من العين وينبسط في المبصرات فيكون كاليد التي تلمس ما كان خارجاً عن البدن ويؤدي ذلك إلى القوة البصرية وافلاطن يرى ذلك اجتماع الضياء ويقول أن البصر يكون باشتراك الضوء البصري والضوء الهوائي وسيلانه فيه بالمجانسة التي بينهما وأن الضوء الذي ينعكس عن الأجسام ينبسط في الهواء لسيلانه وسرعة استحالته فيلقى الضياء الناري البصري واختلفوا في السمع فزعم بعضهم أن السمع يكون بالخلاء الذي يكون داخل الأذن ومنهم من يزعم أن الهواء يدخل الأذن في صورة الصنوبرة وتصادمها وافلاطن يرى أن الهواء الذي في الرأس يصدمه الهواء الخارج فينعطف إلى العضو الرئيس فيكون من ذلك حس السمع واحتجوا بأن كل فاعل وكل مفعول جسم وأن الصوت يفعل لأنا نسمعه ونحس به وألحان الموسيقى تحركنا والأصوات التي ليست على الموسيقى تؤذينا والصوت يتحرك ويصدم المواضع اللينة ويرجع عنها مثل الكرة التي يضرب بها الحائط وافلاطن يرى أن الصوت ليس بجسم لأنه يعرض في الهواء وينبسط وكل بسيط ففير جسم واختلفوا في الشم كيف يشم فزعم بعضهم أن العضو الرئيس يكون في الدماغ وأنه يجذب الروائح بالنفس وزعم آخرون أن الشم يكون بممازجة هواء النفس ببخار الشيء المشموم واختلفوا في النوق كيف هو فزعم بعضهم أن الذوق يكون بممازجة الجوهر الرطب الذي في اللسان بالجوهر الرطب الذي في الشيء الذي يذاق وزعم آخرون أن النوق يكون بالتخلخل واللين اللذين يكونان في اللسان بالعروق التي ينبعث إليه من الفم بقول الله تعالى جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة فنبهنا على هذه الحواس وبعثنا على شكرها ولم يبين لنا علل إدراكها ولا كيفية تركيباتها وقد تحار العقول إذا نظرت فيها وترتد خاسرة لعظم أمرها وصعوبة شأنها وها هي إلا بمنزلة النفس والروح اللذين يعجز الخلق عن إدراكها فإن كان شيء مما قالوا حقاً فهو الصواب وإن كان غير ذلك فالله أعلم.

الفصل التاسع

ذكر الفتن والكوائن وقيام الساعة

وانقضاء الدنيا وفناء العالم ووجوب البعث

اعلم أن الناس مختلفون في هذا الفصل بحسب اختلافهم في إحداثه وابتدائه فمن أنكر له أن يكون له انتهاء وعلة جواز الابتداء حدوث الابتداء وقد دللنا على وجوب الابتداء للحوادث فليس بواجب وجود انتهاء لها لكن جائز عليه ذلك ثم واجب بورود الخبر الصادق فيه مع أن جميع ما دل على حدث العامل دال على تناهي ذاته ومساحته لأن دليل حدثه قد دل على إنقطاع ما حدث منه إلى هذا الوقت وما انقطع حدوثه فهو متناهي الأجزاء لأنه لو أضيف إليه حادث كبعضه لكان زائداً مقدار أجزائه ولكان وبوجود ذلك الزائد أكثر مما كان قبل حدوثه ولو كان العالم غير متناهي الذات لكان السائر منا من وسط الأرض لو سار تلقاء وجهه ألف فرسخ لم يكن ما خلف وراءه من العالم أكثر مساحة مما بين يديه من هو ولو كان ذلك كذلك لكان لو أحدث الله تعالى أجساماً بمقدار ألف فرسخ لم يكن العالم بعد زيادة ذلك أكثر مساحة منه قبل تلك الزيادة ولو كان هذا جائزاً لجاز مثله في عدد الناس والدواب والشجر حتى لو خلق الله في هذا الوقت مائة ألف إنسان ودابة وشجرة لم يزد بذلك في الناس أحد ولا في الدواب دابة ولا في الشجرة شجرة ولكان من نظر إلى جبال يابسة وصحارى ملس لا نبات فيها ولا شجر ثم نظر أيام ربيع في عشبها ولمع زهرها لجاز له أن يحكم بأنه ما زاد في هذه الجبال والصحارى شيء البتة وكذلك لو نظر إلى نخلة تولدت من نواة وإنسان تولد من نطفة بأنه لم يزد في النواة والنطفة شيء وهذا ظاهر الإحاطة والفساد فدل وجود الزيادة على وجود النقصان ووجود الابتداء على وجود الانتهاء وانقطاع حادث بعد حادث على انقطاع الحوادث ومن زعم أن البارئ علة للعالم والعالم معلول لا يجوز وجود العلة بلا معلول ولولا البارىء جل وعز لم يكن العالم موجوداً وليس لولا العالم لم يكن البارئ موجوداً عورض ما القصل بينك وبين من زعم أن العالم هو العلة والبارئ هو المعلول ولولا العالم لم يكن البارئ موجوداً وليس لولا البارئ لم يكن العالم موجوداً ليعلم أن اعتلالهم عند أهل النظر مبهرج ساقط والقول في حدوث آخر العالم وأن البارئ له علة متناقض لأن العلة لا تفارق المعلول وكأن قال قديم وقديم أحدهما محدث وأدنى ما يلزمه القول بحدوث شيء لا من شيء وإنما هو لكون الخاتم من الفضة والسرير من الخشبة وأما أشبه ذلك والحادث هيئة وصنعة لم يحدث من نفس القضة ولا من نفس الخشبة لأن نفس القضة والخشبة قد كانت موجودة والهيئة معدومة وإنما حدثت من فاعلها الحقيقة على معنى أنه اخترعها وأوجدها بعد أن لم يكن من شيء فإذا جاز حدوث عرض لا من شيء فلم لا جاز حدوث جسم لا من شيء مع أن كثيراً من الناس يقولون ليس الجسم غير أعراض مجتمعة وإنما النكتة في نفس ظهور الشيء أحادث أم غير حادث فإن كان غير حادث فظهوره محال لأن الظهور حادث وإن كان حادثاً فقد تبينت المراد وبعد فلم ويوجد جسم إلا من جسم ولا عرض إلا من عرض لوجب أن لا يوجد جسم ولا عرض البتة ولوجب أن لا يوجد في الرطب لون ولا طعم يخالف البسرة ولا في البسرة ما يخالف الطلع ولا في الطلع ما يخالف النخلة ولا في النخلة ما يخالف النواة ووجود خلاف ما ذكرنا دليل على حدوث تلك الألوان والطعوم وسائر الزيادات التي ليست من النواة وأنها ليست من نفس تلك النواة وإن أنكروا الأعراض لزمهم أن ينكروا الصيف والشتاء والليل والنهار وأن يكون الليل سرمداً والنهار سرمداً والشتاء دائماً والصيف كذلك فإن زعموا أن هذا لا يلزمهم لأن النهار ظهور الشمس والليل غيبوبتها والشتاء نزول الشمس بعض البروج والصيف كذلك قيل إذا كنتم لا ترجعون في ظهور الشمس وغيبوبتها وقربها وبعدها فيلزمكم أن يكون من أمر إنساناً أو أراده منه فقد أمره بنفسه أو بنفس جسم من الأجسام وكذلك إذا حمده على شيء أو ذمه أن يكون ذلك نفسه من غير سبب أوجب فيجب أن لا يزال حامداً داماً أو يكون حمده وذمه لجسم من الأجسام وهذا كله دليل على حدوث الأعراض وأنها غير الأجسام وإن الأجسام لا

تعرى منها وكل حادث فله ابتداء وانتهاء لا محالة وهذه المسئلة قد مرت في صدر الكتاب على الإتقان والإحكام وأما قولهم بجوهر قديم لم زيل عارياً من الأعراض التي هي الصور والهيئات والحركة والسكون وغير ذلك فإن كلام فاسد لأنه لو جاز ذلك على الأجسام فيما مضى لجاز أن يعرى منها فيما يستقبل وأن

يكون بحضرتنا أجسام غير ذات طول ولا عرض ولا عمق ولا تأليف ولا تركيب ولا لون ولا رائحة ولا طعم ولا حركة ولا يكون وحتى تكون مبنية موجودة قائمة بلا عرض ولو جاز ذلك لجاز أن يوجد إنسان منا مخلي السرب غير ممنوع أن يخلو من الحركة والسكون والقيام والقعود والمشي والفعل والإرادات والألوان والحياة والموت وغير ذلك فهذا ظاهر الفساد فإن زعم أن ذلك كله كامن فيه بالقوة قيل وظهور هذا الكامن أزلي منه فإن زعم أنه فيه لزمه أن يكون هذه الكوامن فيه ظاهرة لم تزل وإن زعم أن ظهور الكوامن بالقوة فيه كما أن هذه الأشياء التي عددنا بالقوة فيه سئل عن هذه القوة ما هي وكيف هي وأين هي ومم هي أفيه هذه القوة أم لا فإن زعم أنها فيه لزمه أن يكون العوارض التي عددناها كلها ظاهرة لم يزل لأن القوة والظهور علة لها وهي كالمعلول والعلة معها والعيان إلا ما ترى في النطفة والبيضة والنواة إذ تراها تحدث الشيء بعد الشيء وإن زعم أنها ليست فيه وإنما حدثت بعده وأحدها محدث فقد أقر بالحدث وأن الجواهر لا تخلو من الحوادث ومن أقر بالحدث فقد أقر بالمحدث والسلام وإن زعم أن العالم حكمة بارئ وجوده وفضله وغير جائز أن يوصف بحل حكمته وإبطال جوده وفضله لزمه لا يجوز على البارئ إحداث ضد لشيء من موت بعد حياة وسقم بعد صحة وليل بعد نهار وضعف بعد قوة وقبح بعد حسن لأن في هذا كله إبطال الحكمة في قولهم فإن قال ليس يكون شيء من ذلك حكمة إلا وقت وجوده دون وجود ضده قيل فكذلك يجب أن ينكروا أن يكون العالم على ما هو عليه لأن حكمه في وقت وجوده دون وقت فنائه وانتقاله من حال إلى أخرى أو ليس ينسج الإنسان الثوب ثم يقطعه خرقاً لضرب من المصلحة ويهيئ المائدة وينضد عليها الألوان من الأطعمة ثم يشوشها ويفسدها بالأكل والتكسير ولا يكون ذلك قبيحاً ولا إبطالاً للحكمة بل هو من أحسن الأشياء وأولاها بالحكمة فمن أين أنكرتم أن ينقض البارئ هذا العالم في الوقت الذي يكون نقضه أولي بالحكمة وأبين في التدبير وأن يعيد الناس في دار سوى هذه الدار ليجازيهم على أعمالهم فإن قيل أن الأجسام باقية والباقي لا يجوز فناؤه إلا بضد يحله وذلك الضد لا يخلو من أن يكون جسماً أو عرضاً فإن كان جسماً فحيزه غير حيز هذا الجسم وكيف يضاده وإن كان عرضاً وجب أن يقوم فيه وكيف يقوم فيه في حال يكون الجسم فيها فانياً معدوماً قيل لهم كيف جاز لكم أن تتطرقوا إلى إبطال القوة لفناء الأجسام مع قول من يقول من المسلمين أن فناء الجسم عرض لا يحتاج إلى محل وأن في حال وجوده انتقال الجسم وعدمه ومن يقول منهم أن الجسم يفنى بفقد بقائه وأن لا يحدث الله بقاء ومن يقول منهم أن فناء الجسم يوجد في الجسم فيصير فائتاً في الحال الثانية وبعد فما معنى إنكاركم فناء الأجسام وإنما ينكرون حياة الموتى وأمرا لموتى وخبر الجنة والنار وهذا كله غير ممتنع كونه مع بقاء الأجسام وتبديل صورها ونقض بنيتها إلى بنية أخرى يكون منها جنة ونار ودار على خلاف سبيل هذه الدار وإن كنا نخالفكم في أشياء منها وقد يشاهدون الاستحلال والفساد في الأركان فيما يؤمنكم إشاعة الفساد في كلياتها وأجزائها كما زعمتم في أجزائها وأبعاضها وأن يكون طبيعة العالم موجبة للإنقاض بعد مدة من المدد والتغيير من هيأة إلى هيأة كالإنسان مثلاً إذا بلغ أقصى ما في طبيعته في بلوغه تفرقت عناصره ولحق كل نوع من جسده بشكله ثم يتركب أجزاؤه بعد ذلك على ضرب آخر فيكون كذلك العالم على هذا الترتيب إذا بلغ أقصى مدته انتقض وانقلب إلى هيأة أخرى يكون منه جنة ونار بل يلزمكم أعظم من هذا وهو إجازة فناء العالم وعدم ذاته ثم عوده ورجوعه بعد ذلك وتكونه وتكون طبيعته هو الذي يوجب له ذلك إذا كان ليس موجب

وجوب بقائه من وجوب فنائه بطبعه فإن زعموا أن هذا لا يصح لنا على مذهبنا لأنا نقول بتركيب الأجسام من هذا الأركان وانحلالها إليها وكذلك الأركان من الأسطقسات غير المركبة البسائط من الهيولى قيل وأجود لنا أن يكون مناقضتكم من نفس مذهبكم وقد أريناكم فسد مذهبكم في الهيولى وفي فساد ذلك وجوب صحة القول بحدث الأجسام وكل حدث غير مستنكر له الانحلال والدثور والعود إلى حال التلاشي والبطلان وإذا فنى وبطل فأعاده خلق كابتدائه بل هو أهون. كون بحضرتنا أجسام غير ذات طول ولا عرض ولا عمق ولا تأليف ولا تركيب ولا لون ولا رائحة ولا طعم ولا حركة ولا يكون وحتى تكون مبنية موجودة قائمة بلا عرض ولو جاز ذلك لجاز أن يوجد إنسان منا مخلي السرب غير ممنوع أن يخلو من الحركة والسكون والقيام والقعود والمشي والفعل والإرادات والألوان والحياة والموت وغير ذلك فهذا ظاهر الفساد فإن زعم أن ذلك كله كامن فيه بالقوة قيل وظهور هذا الكامن أزلي منه فإن زعم أنه فيه لزمه أن يكون هذه الكوامن فيه ظاهرة لم تزل وإن زعم أن ظهور الكوامن بالقوة فيه كما أن هذه الأشياء التي عددنا بالقوة فيه سئل عن هذه القوة ما هي وكيف هي وأين هي ومم هي أفيه هذه القوة أم لا فإن زعم أنها فيه لزمه أن يكون العوارض التي عددناها كلها ظاهرة لم يزل لأن القوة والظهور علة لها وهي كالمعلول والعلة معها والعيان إلا ما ترى في النطفة والبيضة والنواة إذ تراها تحدث الشيء بعد الشيء وإن زعم أنها ليست فيه وإنما حدثت بعده وأحدها محدث فقد أقر بالحدث وأن الجواهر لا تخلو من الحوادث ومن أقر بالحدث فقد أقر بالمحدث والسلام وإن زعم أن العالم حكمة بارئ وجوده وفضله وغير جائز أن يوصف بحل حكمته وإبطال جوده وفضله لزمه لا يجوز على البارئ إحداث ضد لشيء من موت بعد حياة وسقم بعد صحة وليل بعد نهار وضعف بعد قوة وقبح بعد حسن لأن في هذا كله إبطال الحكمة في قولهم فإن قال ليس يكون شيء من ذلك حكمة إلا وقت وجوده دون وجود ضده قيل فكذلك يجب أن ينكروا أن يكون العالم على ما هو عليه لأن حكمه في وقت وجوده دون وقت فنائه وانتقاله من حال إلى أخرى أو ليس ينسج الإنسان الثوب ثم يقطعه خرقاً لضرب من المصلحة ويهيئ المائدة وينضد عليها الألوان من الأطعمة ثم يشوشها ويفسدها بالأكل والتكسير ولا يكون ذلك قبيحاً ولا إبطالاً للحكمة بل هو من أحسن الأشياء وأولاها بالحكمة فمن أين أنكرتم أن ينقض البارئ هذا العالم في الوقت الذي يكون نقضه أولي بالحكمة وأبين في التدبير وأن يعيد الناس في دار سوى هذه الدار ليجازيهم على أعمالهم فإن قيل أن الأجسام باقية والباقي لا يجوز فناؤه إلا بضد يحله وذلك الضد لا يخلو من أن يكون جسماً أو عرضاً فإن كان جسماً فحيزه غير حيز هذا الجسم وكيف يضاده وإن كان عرضاً وجب أن يقوم فيه وكيف يقوم فيه في حال يكون الجسم فيها فانياً معدوماً قيل لهم كيف جاز لكم أن تتطرقوا إلى إبطال القوة لفناء الأجسام مع قول من يقول من المسلمين أن فناء الجسم عرض لا يحتاج إلى محل وأن في حال وجوده انتقال الجسم وعدمه ومن يقول منهم أن الجسم يفنى بفقد بقائه وأن لا يحدث الله بقاء ومن يقول منهم أن فناء الجسم يوجد في الجسم فيصير فائتاً في الحال الثانية وبعد فما معنى إنكاركم فناء الأجسام وإنما ينكرون حياة الموتى وأمرا لموتى وخبر الجنة والنار وهذا كله غير ممتنع كونه مع بقاء الأجسام وتبديل صورها ونقض بنيتها إلى بنية أخرى يكون منها جنة ونار ودار على خلاف سبيل هذه الدار وإن كنا نخالفكم في أشياء منها وقد يشاهدون الاستحلال والفساد في الأركان فيما يؤمنكم إشاعة الفساد في كلياتها وأجزائها كما زعمتم في أجزائها وأبعاضها وأن يكون طبيعة العالم موجبة للإنقاض بعد مدة من المدد والتغيير من هيأة إلى هيأة كالإنسان مثلاً إذا بلغ أقصى ما في طبيعته في بلوغه تفرقت عناصره ولحق كل نوع من جسده بشكله ثم يتركب أجزاؤه بعد ذلك على ضرب آخر فيكون كذلك العالم على هذا الترتيب إذا بلغ أقصى مدته انتقض وانقلب إلى هيأة أخرى يكون منه جنة ونار بل يلزمكم

أعظم من هذا وهو إجازة فناء العالم وعدم ذاته ثم عوده ورجوعه بعد ذلك وتكونه وتكون طبيعته هو الذي يوجب له ذلك إذا كان ليس موجب وجوب بقائه من وجوب فنائه بطبعه فإن زعموا أن هذا لا يصح لنا على مذهبنا لأنا نقول بتركيب الأجسام من هذا الأركان وانحلالها إليها وكذلك الأركان من الأسطقسات غير المركبة البسائط من الهيولى قيل وأجود لنا أن يكون مناقضتكم من نفس مذهبكم وقد أريناكم فسد مذهبكم في الهيولى وفي فساد ذلك وجوب صحة القول بحدث الأجسام وكل حدث غير مستنكر له الانحلال والدثور والعود إلى حال التلاشي والبطلان وإذا فنى وبطل فأعاده خلق كابتدائه بل هو أهون.

ذكر من قال من القدماء بفناء العالم على ما حكى افلرطرخس زعم اباشهيدوس الملطي أن مبدأ الموجودات هو الذي لا نهاية له وإليه ينتهي الكل ويفسد ويرجع إلى الذي عنه كان وإن القمامس يرى مبدأ الموجودات هو الهواء منه كان الكل وإليه ينحل قال الروح والهواء يمسكان العالم والروح والهواء يقال على معنى واحد قولاً متواطئاً وإن تاليس الملطي يرى المبدأ الماء وإليه ينحل وهؤلاء قد أقروا بفساد العالم وإن كانوا رأوا له صلاحاً يرجع إليه وحكى عن ابثاغورس أنه كان يرى العالم يكون والله يكون ذاته وأنه إما من قبل الطبيعة ففاسد لأنه محسوس جسم مجسم وإما من سياسة الله وحفظه فغير فاسد وهؤلاء قد حكموا عليه بالفساد من قبل طبعه وأجازوا أن لا يفسده الله وكذلك المسلمون يجيزون ذلك إلا أن الخبر ورد بخلافه وأما ارسطاطاليس فإنه يرى الفساد في الحر المنفعل الذي تحت فلك القمر وحكى عن جماعة منهم أنهم يقولون بالكون والفساد وهذا كله من الدليل على ابتداء الحدث وجواز انتهائه من مذهبهم وقد احتج من احتج منهم في إبطال العالم أنه من الاسطقسات الأربع ولابد لها من التمايز والانحلال كما الإنسان مجموع من الطبائع الأربع وتمايزها سبب هلاكه وفنائه وأما الثنوية فإنهم يقولون ببطلان من امتزاج الكونين وجواز وتباينهما بعد امتزاجهما حتى تعود كما كانا بلا حادث من مزاج وأما الحرانية فيقولون بالثواب والعقاب ولا أدري كيف قولهم في فناء العالم غير أنهم ينتمون إلى اغثاذيمون وهرمس وسولون جد افلاطن لأمه ومن هؤلاء من كان يقول بفناء العالم والبعث وكثير من المجوس يقرون بالبعث والنشور وخبرني بعض مجوس فارس أنه إذا انقضى ملك اهرمن وأفضى الأمر إلى هرمز ارتفع الكد والعناء والظلمة والموت والسقم والكراهة وصار الخلق كلهم روحانيين باقين خالدين في ضياء دائم وسكون دائم ولا أعرف مذاهب فرقهم ولا اختلاف أرائهم وكلمتهم وسمعت بعضهم يقول إذا انقضت للعالم تسعة آلاف تساقطت النجوم وفتت الجبال وغاضت المياه وصار كذا وكذا بصفات هائلة.

ذكر قول أهل الكتاب في هذا الباب اعلم أن قولهم وقول أهل الإسلام سواء في انقضاء الدنيا وفناء العالم وكون البعث والحساب ووجب الجزاء من الثواب والعقاب لا خلافاً في شيء من الصفات وقع من جهة التأويل وأجمعت اليهود أن المسيح لم يجيء بعد وأنه جاء لا محالة في زمان يأجوج ومأجوج واختلفوا بعد ذلك فزعمت فرقة منهم أن ملك المسيح يكون ألف سنة ومائتا سنة وخمس وتسعون سنة وقد كان كثير من مشركي العرب يؤمنون بالبعث والنشور ويزعمون أن من عقرت مطيته على قبره يحشر عليها وفيه يقول جريبة بن لأشيم الفقعسي:

يا سعد إما أهلكن فإنني ... أوصيك إن أخا الوصية أقرب
لا تتركن أباك يعثر خلفكم ... تعباً يجر على اليدين وينكب
وأحمل أخاك على بعير صالح ... ويقى الخطيئة إنه هو أقرب
ولعل ما قد تركت مطية ... في الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

وكان أمية بن أبي الصلت قد قرأ الكتب واتبع أهل الكتاب وهو يقول:

والناس راث عليهم أمر ساعتهم ... فكلهم قائل للدين إيانا
أيام يلقى نصاراهم مسيحهم ... والكائنين له وداً وبربانا
هم ساعدوه كما قالوا إلههم ... وأرسلوه كسوف الغيب دسفانا
وهو يقول أيضاً:
ويوم موعدهم أن يحشوا زمراً ... يوم التغابن إذ لا ينفع الحذر
مستوسقين مع الداعي كأنهم ... رجل الجراد رقته الريح تنتشر
وأبرزوا بصعيد مستو حزر ... وأنزل العرش والميزان والزبر
وحوسبوا بالذي ما يحصه أحد ... منهم وفي مثل ذاك اليوم معتبر
فمنهم فرح راض بمبعثه ... وآخرون عصوا مأواهم السقر
يقول خزانها ما كان عندكم ... ألم يكن جاءكم من ربكن نذر
قالوا بلى فأطعنا سادة بطروا ... وغرنا طول هذا العيش والعمر
قالوا أمكثوا في عذاب الله ما لكم ... إلا السلاسل والأغلال والسعر

فذاك عيشهم لا يبرحون به ... طول المقام وإن صحوا وإن ضجروا

ذكر ما جاء في مدة الدنيا وكم مضى منا وكم بقي من أنكر ابتداء العالم وانتهاءه أنكر أن يكون لما مضى عدد ويكون لما بقي أمد وزعم أن الحركة الثانية هي الحركة الأولى معادة وقد مضى من النقص على هذه المقالة ما فيه كفاية روى في الخبر أن الله وضع الدنيا على سبعة أيام من أيام الآخر كل يوم ألف سنة وروى ثمانية أيام وروى ستة أيام وروى خمسون يوماً وروى مائة ألف سنة وخمسون ألف سنة هذا ما رواه المسلمون وأما اختلاف أهل الأرض في سني العالم في الكثرة والقلة وكمية ما يقع فيه من الاجتماعات والقرانات فشيء يطول وصفه وقد ذكر ابن عبد الله القسري في كتاب القرانات قول خمس مأخوذ من أصلهم وأن عدد سني عالمهم وأدوارهم أربعة ألف ألف وثلثمائة وعشرون ألف ألف سنة وهذا رسمه حم حجم عليه السلام والصنف الثاني أصحاب الارجبهز جعلوا سني عالمهم أربع مائة ألف واثنين وثلثين ألف سنة وسنو هذا الفرقة جزء من عشرة ألف جزء من السند والهند والصنف الرابع أهل الصين جعلوا سني عالمهم مائة وخمسة وسبعين ربوة وثلث ونصف عشرة ربوة كل ربوة عشرة ألف سنة يكون سني المدار ألف ألف وسبع مائة ألف وثلاثون ألف وثماني مائة مائة وثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر والصنف الخامس الفرس وأهل بابل وكثير من الهند والصين معهم جعلوا سني عالمهم ثلاثمائة وستين ألف سنة وهذه السنون مناسبة لدرج الفلك وإذا قسمتها على عشرة خرج جميع الفلك لأن الكواكب الثابتة يقطع كل برج في ثلاثة آلاف سنة قال ووقع الطوفان في نصف سنة العامل في أول دقيقة من الحمل فعلمت العلماء عليه وجعلوا هذه السنة أصلاً محفوظاً عندهم وسموه سنى الألوف المغيرة للزمان والدهور والأديان والملل والأحداث العظيمة في العالم من خراب وعمارة وزوال ملك على ما ذكره أفلاطن وارسطاطاليس ومن قبلهما من اليونانيين قال ويقال أن هذه الأحداث لم يزل تأثيره قديماً مذ أول خلق الله أيام العالم إلى وقتنا هذا وأنه كان قبل آدم أمم كثيرة وخلق وآثار ومساكن وعمارات وأديان وملك وأملاك وخلائق على خلاف هذا الخلق في الطباع والأخلاق والكسب والمعاش والمعاملات وأنه كان قد يتصل العمارة في بعض المواضع ألوف فراسخ لا ينقطع مع مآكل عجيبة ولغات غريبة وطول القامات وصغرها وغير ذلك ما لا يدري كيف كان وأنه قد أبادهم الطوفانات والرجفات والزلال والهدات والنيران

والعواصف ثم خلق الله آدم الذي انتشر منه أهل هذا العالم الذي نحن منه وفيه بعد تلك الأمم والأجيال التي لا يعلم عددهم ولا يحصيهم إلا الله وعلمه العلوم من الآثار العلوية والسفلية وذلك قوله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها هي أسماء الكواكب الحائرة المؤثرة في العالم بتركيب الله إياها كذلك فعلم ما ينال ذريته من الشدة والبلاء فحذرهم وبين لهم مواضع الآفة حتى أووا إليها وتخلصوا من البلايا التي تحدث في الأركان من النار والماء وغير ذلك من وجه الفساد قال وقد كان هرمس الهرامسة وهو اخنوخ ادريس النبي صلى الله عليه وسلم قبل آدم بزمان طويل وكان ينزل الصعيد الأعلى والصعيد إلى الاسكندرية ليعتصموا بها من الغرق وقد أفسدهم الطوفان والنيران والنبات والحيوان غير مرة هكذا وجدت في كتابه وكتب الله تعالى وأخبار الرسل أصدق وأصح شيء مما ذكروا وإن وافقته رواية أهل الإسلام وأهل الكتاب قلنا به وإلا لا فهو مضاف إلى حد الجواز والإمكان قال وربما عملت القرانات والاجتماعات في خراب العمران وعمارة الخراب حتى جعلت البحور مفاوز والمفاوز بحوراً وربما غاضت فنى وآبار وعيون وأنهار فصارت البقاع قفراً خلاء وربما نبع بالقفر عيون ومياه فصارت مسكونة مأهولة ولا ينبغي أن يحكم ببطلان ما لا يرى في مدة عمر وعمرين وثلاثة أعمار كما يرى في المفاوز بين الشام وبلاد اليونانيين من الآثار العادية والبنيان الخراب المعدوم فيه النبات والحيوان والماء ثم ما نشاهده في إقليمنا بالعيان قبل مفازة سجستان وما فيها من آثار البنيان والمدن والقرى والدكاكين ورساتيق الأسواق قال وقرا على بعض المجوس أن هذه المفاوز كانت عامرة والماء جارياً عليها من سجستان وأن افراسياب التركي عور تلك العيون وكبسها حتى انقطع عنها وسار إلى زره فصار بحيرة ويبست المفازة وذكر ابن المقفع أن بادية الحجاز كانت في الزمان الأول كلها ضياعاً وقرى ومساكن وعيوناً جارية

وأنهاراً مطردة ثم صارت بعد ذلك بحراً طافحاً تجري فيه السفن ثم صارت قفراً يابساً ولا يدري كيف اختلف عليها الأحوال ولا كم يختلف إلا الله تعالى.راً مطردة ثم صارت بعد ذلك بحراً طافحاً تجري فيه السفن ثم صارت قفراً يابساً ولا يدري كيف اختلف عليها الأحوال ولا كم يختلف إلا الله تعالى.

ذكر التأريخ من لدن آدم إلى يومنا هذا على ما وجدناه في كتب أهل الأخبار روينا عن وهب بن منبه أنه قال الله خلق السماوات في ستة أيام فجعل مكان كل يوم منها ألف سنة وقد خلت منها ستة ألف سنة وستمائة وإني لأعرف كل زمان ما كان فيه من الملوك والأنبياء وروى عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتاب المعارف أن آدم عاش ألف سنة وكان بين موته والطوفان ألف سنة ومائتا سنة واثنان وأربعون سنة وبين الطوفان وبين موت نوح ثلثمائة وخمسون سنة وبين نوح وإبراهيم عليه السلام ألفا سنة ومائتا سنة وأربعون سنة وبين إبراهيم وموسى تسع مائة سنة وبين موسى وداود خمس مائة سنة وبين داود وعيسى ألف سنة ومائتا سنة وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة وعشرون سنة فكان من عهد آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم سبعة ألف سنة وثمان مائة عام وفي كتاب التأريخ ابن خرداذ به قال أنه كان من هبوط آدم إلى الطوفان ألفان مائتا سنة وست وخمسون سنة ومن الطوفان إلى مولد إبراهيم عليه السلام اثنى وثلاثين سنة خلت من عمر موسى وذلك عند خروج بني إسرائيل من مصر خمس مائة وخمسون سنة ومن خروجهم إلى سنة أربع من ملك سليمان وذلك وقت ابتدائه ببناء بيت المقدس ستمائة وست وثلاثون سنة ومن بناء بيت المقدس إلى ملك الإسكندر سبع مائة سنة وسبع عشر سنة ومن ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلاث مائة وسبع وستون سنة ومن مولد المسيح إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم خمس مائة وأربع وستون سنة ومن الهجرة إلى يومنا هذا وهو سنة خمس وخمسين وثلثمائة فذلك سبعة آلاف وأربع

مائة وخمس عشر سنة وأصبت في كتاب أخبار زرنج قال كان بين آدم والطوفان ألفا سنة وست وخمسون سنة وكان بين نوح وإبراهيم تسع مائة سنة وثلاث وأربعون سنة وبين إبراهيم وموسى خمس مائة وست وسبعون سنة وبين موسى وسليمان وستمائة وإحدى وثمانون سنة وبين سليمان وشابيل وفارس وبين سند مائتان وستون سنة وبين سيذ وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم خمس مائة وثمان وتسعون سنة ومن مولد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أربع مائة وخمسون وستون سنة وعمر آدم ألف سنة فذلك سبعة آلاف وتسع مائة وتسعون سنة وفي رواية محمد بن إسحق فيما يرويه عنه يونس بن بكير قال كان من آدم إلى نوح ألف ومائتا سنة ومن نوح إلى إبراهيم ألف ومائة واثنتان وأربعون سنة ومن إبراهيم إلى موسى خمس مائة وخمس وستون سنة ومن موسى إلى داود خمس مائة وتسع وستون سنة ومن داود إلى عيسى ألف وثلثمائة وخمسون سنة ومن عيسى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة فذلك خمس آلاف وأربع مائة وست وعشرون سنة سوى مدة عمر آدم وتأريخ النبي صلى الله عليه وسلم ورأيت في كتب بعض أهل التنجيم ذكروا تواريخ الأنبياء إلى أول سنة خمسين وثلثمائة لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم سنة ست آلاف وسبع مائة وستين لآدم عليه السلام سنة خمسة آلاف وسبعين وثلثمائه لمولد نوح عليه السلام سنة أربعة آلاف وأربعة وستين وثلثمائة وثلثة وعشرون يوماً لغرق نوح عليه السلام سنة ثلثة ألف وست وأربعين وأربع مائة لإبراهيم عليه السلام سنة ألفين وأربع وتسعين وتسع مائة لموسى عليه السلام سنة ألف وثلث وسبعين ومائتين لذي القرنين سنة ألف وستين وستمائة لبخت نصر سنة ألف وخمس وثمانين ومائتين لبطليموس صاحب المجسطي سنة ألف وثمان وستين وتسع مائة لعيسى عليه السلام ستة آلاف وثلثمائة وثلاثين ليزدجرد بن شهريار آخر ملوك العجم سنة ثمان وأربع مائة للفيل قال وفيه كذا كذا النشو وخرجت الكواكب من أول دقيقة في الحمل إلىأول يوم من هذه السنة ألفا ألف ألف وثلثمائة وتسعة وأربعون ألف ألف واحد وعشرون ألفاً وتسع مائة وخمسون سنة وثلثمائة وتسعة وخمسون يوماً وإحدى عشر دقيقة وثوان والله أعلم وأحكم لا يعلم غيره وقد روى همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق وتلا كأن الناس أمة واحدة الآية وروى الواقدي كان بين آدم ونوح عشرة قرون والقرن مائة سنة وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون وبين إبراهيم وموسى عشرون قرناً وروى وهب قال كان بين آدم ونوح عشرة أباً وبين إبراهيم ومحمد ثلاثون أباً هذا ما رواه المسلمون وأهل الكتاب وأمّا الفرس والمجوس فإن الروايات عنهم مختلفة ففي كتب بعضهم أن من

انقضاء ملك بني ساسان أربعة آلاف سنة وأربع وأربعون سنة وعشرة أشهر وخمسة أيام ومنهم من يحسب هذا الحساب عن هوشنك بعد الطوفان ومنهم من يحسب عن كيومرث ويزعم أنه كان قبل آدم وأن آدم نبت من دمه وبعضهم يقول هو ابن آدم وحكى عن بعض علمائهم أنه قرأ في عظة لزردشت ذكر ملوك ملكوا الأرض قبل هوشنك منهم رتّى ملك الناس رقابهم وأموالهم ومنهم رتى ومنهم افرهان والله أعلم وأحكم فليس لنا في كتاب الله الذي في أيدينا ولا في الخبر الصادق عن نبينا صلى الله عليه وسلم ما يوجب القطع عليه ويوجب اليقين بشيء ومنه فليس إلا الرواية كما جاءت وإجازة ما هو ممكن والسلمقضاء ملك بني ساسان أربعة آلاف سنة وأربع وأربعون سنة وعشرة أشهر وخمسة أيام ومنهم من يحسب هذا الحساب عن هوشنك بعد الطوفان ومنهم من يحسب عن كيومرث ويزعم أنه كان قبل آدم وأن آدم نبت من دمه وبعضهم يقول هو ابن آدم وحكى عن بعض علمائهم أنه قرأ في عظة لزردشت ذكر ملوك ملكوا الأرض قبل هوشنك منهم رتّى ملك الناس رقابهم وأموالهم ومنهم رتى ومنهم افرهان والله أعلم وأحكم فليس لنا في كتاب الله الذي في أيدينا ولا في الخبر الصادق عن نبينا صلى الله عليه

وسلم ما يوجب القطع عليه ويوجب اليقين بشيء ومنه فليس إلا الرواية كما جاءت وإجازة ما هو ممكن والسلم ذكر ما بقي من العالم وكم مدة أمة محمد عليه السلام فيما رواه أهل الأخبار روى عبد المنعم بن إدريس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما عمر هذه الأمة عمر بني اسرائيل ثلثمائة سنة قال الراوي قبل أن يصبهم الفتن والبلايا وعبد المنعم غير ثقة ومع ما فيه من الهمة لم يلق ابن عباس ويشبه إن كانت الرواية عن ابن عباس أن يكون ذكر ثلثمائة سنة زيادة ليس من نفس الرواية الإحاطة بأن عمر بني اسرائيل زاد على ثلثمائة بأضعافها وروى أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال يكون لأمتي نصف يوم مقداره خمس مائة سنة وهذه الرواية في الضعف والوهم ليست بدون الأولى وروى أبو جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس قال في آلم وآلمر وآلمص وسائر الحروف التي في أوائل السود ما منها حرف إلا وهو في مدة قوم وفي رواية الكلبي أن حيي بن أخطب لما تلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم آلم قال إن كنت صادقاً فإني أعلم ما أنحل أمتك من السنين وهو إحدى وسبعون سنة من حساب الجمل فتلا عليه النبي صلى الله عليه وسلم آلمر وآلمص وآلر وحروفاً آخر فقال لهم بعضهم ما يدريك لعله يجمع له ذلك كله فنزل وما يعلم تأويله إلا الله قال الكلبي يعني منتهى أجل هذه الأمة فإن صحت الرواية فضرب الحد فيه باطل وحدثني أبو نصر الحرشي بفرجوط قرية من الصعيد وكان يقرأ كتب الأوائل في كتاب دانيال مسطوراً بقاء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألف سنة وفناؤهم بالسيف وقال بعضهم وجدت في كتاب إن أحسنت هذه الأمة فبقاؤها ألف سنة وإن ساءت فبقاؤها خمس مائة سنة وأجمعوا أن هذه الأمة آخر الأمم ولا بد لها من نهاية كما انتهت الأمم قبلهم وصح الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت والساعة كهاتين وأشار بسبابته والوسطى قال الله تعالى " وما يدريك لعل الساعة قريب " وقال " لا تأتيكم إلا بغتة " وقال " لا يعلمها إلا هو فأخفاها وقربها واستأثر بعلمها دون علمه " ولما سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام قال ما المسؤول بأعلم من السائل قال صدقت فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه وجبريل أنهما لا يعلمان شيئاً من ذلك وصدقه في ذلك جبريل فمن ادعى أنه يعلم كم ما مضى منها وكم بقي فقد صرح بعلم ما طوى الله علمه عن العباد اللهم إلا أن يذهب في أن يجعل سبعة آلاف سنة مدة من المدد ابتداؤها هبوط آدم وانقضاؤها ابتداء سبعة آلاف سنة ثم الله أعلم بما هو كائن بعد فهذا مذهب إذ لا يعلم أحد ما كان قبل آدم وما هو كائن بعد انقضاء هذا العالم إلا الله تبارك وتعالى وروي عن عبد الله بن عمر قال يطعم هذه الأمة ثلثمائة سنة وثلاثين سنة وثلاثين شهراً وثلاثين يوماً ثم ينقضي

ذكر ما جاء في أشراط الساعة وعلاماتها حدثنا محمد بن الحسين حدثنا عمر بن موسى العرار حدثنا حماد بن زيد عن علي بن زيد عن أبي نصر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى يوم القيامة إلا خبر به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه في حديث طويل قال في آخره وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء فقال إلا أنه لم يبق من الدنيا إلا كما بقي من يومكم هذا وروينا عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما مثلي ومثلكم كقوم خافوا عدواً فبعثوا ربئةً لهم فلما فارقهم إذا هو بنواصي الخيل فخشي أن يسبقه العدو إلى أصحابه فلمع بثوبه وقال يا صباحاه وإن الساعة كادت تسقني إليكم، واعلم أنه ليس من شريطة هذا الكتاب رواية الأسانيد وتصحيح الأخبار لأن عامتها مستغنية بظهورها عن السند قال الله تعالى " اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد " ومن هذا الباب حديث أبي الطفيل عن أبي سريحة عن حذيفة ابن أسيد قال أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر الساعة فقال أما أنها لا تقوم حتى تكون عشر آيات فذكر الدخان والدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى وطلوع الشمس من مغربها

وثلاث خسوفات خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر فيقال غدت النار فاغلوا وراحت فروحوا وتغدوا وتروحوا ولها ما سقط ومنه حديث سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فإذا عملت أمتي خمس عشر خصلة حل بها البلاء إذا اتخذوا المغانم دولاً والأمانة مغنماً والزكوة مغرماً والتعلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته وعصى أمه وأدنى صديقه وأقصى أباه وارتفعت الأصوات في المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور ولبس الحرير ولعن آخر هذه الأمة أولها فتوقعوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً ومسخاً وقذفاً وفي حديث ابن عمر عن عمر رضي الله عنه أن جبريل لما أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن أمر الدين فقال متى الساعة قال ما المسؤول بأعلم بها من السائل قال فما إماراتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة ويتطاولون في البنيان قال صدقت وفي حديث أبي شجرة الحضرمي عن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله رفع إلى الدنيا وأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة كما أنظر إلى كفي هذه حلتان من الله حلاه لنبيه كما حلى للنبيين قبله ومنه خبر خروج الهاشمي والسفياني والقحطاني والترك والحبشة والدجال ويأجوج ومأجوج وخروج الدابة والدخان ونفخ الصور ثم ما ذكر بعد ذلك من أحوال الآخرة ليس ينبغي أن يضيق صدر الإنسان بما يورد عليه من مثل هذه الأخبار أو يروى له لأن ذلك كله ممكن جائز وإذا جاز أن يظن الرجل شيئاً فيصدق ظنه ويركن فيصح ركانته ويتكلم بشيء فيقع بوفاق كلامه أو يحكم من جهة الحساب فيصح حكمه أو يرى رأياً فيرشد في رأيه أو تخيل إليه أو في منامه أو يؤيد بقوة الروح فيوجد له تصديق فيما يحدث له فلا يجوز أن يصيب فيما يخبر به من جهة الوحي والنبوة أية حالة تؤخر درجة النبوة عن درجة ما ذكرناه مع وجود الغلط الظاهر المتفاوت المبين في كل ما ذكرناه إلا النبوة وحدها التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها اللهم إلا أن يكون المستترون بالإسلام دسوا في الأخبار مناكير وفواحش حدها تفاد في الحديث وتهذبها دلائل القرآن والله المستعان ومن أعوز الأشياء على قود النفس إلى قول هذه الروايات وحبس القلب عليها معرفة وجوب النبوة وصدق الأنبياء وجواز كون ما هو ممتنع في العقل بوجود الدلالة على حدث العالم وإيجاده لا من غير سابقه فمن تيقن ما ذكرناه لم يحدس قلبه ما يرد عليه بعد ذلك والسلام

ذكر الفتن والكوائن في آخر الزمان في رواية الزهري عن أبي ادريس الخولاني عن حذيفة بن اليمان قال أنا أعلم الناس بكل فتنة هي كائنة إلى يوم القيامة وما لي أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر إلي في ذلك شيئاً لم يحدث به غيري ولكنه حدث مجلساً أنا فيه عن الفتن التي يكون منها صغار ومنها كبار فذهب أولئك الرهط كلهم غيري وفي حديث ابن عينية عن الزهري عن عروة عن كرز ابن علقمة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فتناً فقال رجل كلا والله إن شاء الله فقال والذي نفس محمد بيده لا يعوزن فيها أساود حياً يضرب بعضكم رقاب بعض قال الزهري الأسود الحية إذا نهشت ترت ثم ترفع رأسها ثم تنتصب قال حذيفة كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر وقد جاء الله بهذا الخير فهل بعد الخير من شر قال نعم وفيه دخن من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا دعاه على أبواب جهنم من أطاعوه أقذفوه فيما رواه نعيم عن الوليد بن مسلم عن ابن جابر عن بشر بن عبد الله عن أبي ادريس الخولاني عن حذيفة رضي الله عنه وفي رواية ابن عينية عن الزهري عن عروة عن أسامة قال أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أطم فقال إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر فهل ترون ما أرى حدثنا نعيم ابن حماد حدثنا محمد بن يزيد عن أبي جلدة عن أبي العالمية قال لما فتحت تستر وجدنا في بيت مالالهرمزان مصحفاً عند رأس ميت

على سرير يقال هو دانيال فيما يحسب قال فحملناه إلى عمر فأنا أول العرب قرأته فأرسل إلى كعب فنسخة بالعربية فيه ما هو كائن يعني من الفتن إلى يوم القيامة حدثنا نعيم عن عبد القدوس عن أرطاة بن المنذر عن حمزة بن حبيب عن سلمة بن نفيل أن النبي صلى الله عليه قال بين يدي الساعة موتان شديد وبعده سنوات الزلازل حدثنا نعيم عن بقية عن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير عن عوف بن مالك الأشجعي قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم العدد ستاً بين يدي الساعة أولهن موتي فاستبكيت حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكتني ثم قال إحدى والثانية فتح بيت المقدس قل اثنتان والثالثة

موتان يكون في أمتي كمعاض العتم قل ثلاث والرابعة فتنة عظيمة تكون في أمتي لا تبق بنت في العرب إلا دخلته والخامسة هدنة بين العرب وبين بني الأصفر ثم يشرون إليكم فيقابلونكم قل خمس والسادسة يفيض المال فيكم حتى يعطي أحدكم المائة الدينار فيتسخطها حدثنا نعيم عن أبي عينية عن مجالد عن عامر عن صله عن حذيفة يقول في الإسلام أربع فتن تسلمهم الرابعة إلى الدنيا الارفاض الظلمة حدثنا نعيم حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن عبد الرحمن بن الحسن عن الشعب عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في أمتي أربع فتن يكون في الرابعة الفناء وروى أنها تكون فتنة يفرج فيه عقول الرجال حدثنا نعيم عن حمزة عن ابراهيم بن أبي عبلة قال بلغني أن الساعة تقوم على قوم أخلاقهم أخلاق العصافير حدثنا نعيم عن محمد بن الحارث عن أبي السليماني عن أبيه عن أبي عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقدر صاحبه فيقول لوددت أني مكانه لم يلقى من الفتن حدثنا نعيم عن أبي ادريس عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الناس هلاكاً فارس ثم العرب على أثرهم وفي رواية معاوية بن صالح عن علي بن أبي طالب عن أبي عباس رضهما قال النجوم أمان لأهل السماء فإذا طمست النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون وأنا أمان لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون وأصحابي أمان لأمتي فإذا ذهبت أصحابي أتى أمتي ما يوعدون والجبال أمان للأرض فإذا نسفت الجبال أتى أهل الأرض ما يوعدون وقد رواه عطاء عن ابن عباس وسلمة بن الأكوع عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه عبد الله بن المبارك عن محمد بن سوقة عن علي بن أبي طالب طلحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلائق يتسافدون على ظهر الطريق تسافد البهائم يقول أمثلهم لو نحيتموه عن الطريق وأخبر أبو العالية لا تقوم الساعة حتى يمشي إبليس في الطريق والأسواق ويقول حدثني فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا وقال بعض أهل التفسير في حم عسق أن الحاء حرب والميم ملك بني أمية والعين عباسية والسين سفيانية فمن هذه الفتن ما قد مضى وانقضى ومنها ما هو منتظر

خروج الترك حدثنا يعقوب بن يوسف قال حدثنا أبو العباس السراج قال قتيبة بن يعقوب بن عبد الرحمن الاسكندري عن سهيل عن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تقاتل المسلمون الترك قوم وجوههم كالمجان المطرقة صغائر الأعين خنس الأنوف يلبسون الشعر ويمسون في الشعر وعن أبي عباس رضي الله عنه قال ليكون في ولدي حتى يبلغ عزمهم الحمر الوجوه كالمجان الطرقة واختلفت الناس في تأويل هذا الخبر فزعم قوم أن هلاك سلطان بني هاشم على يد الأتراك الإسلامية وزعم آخرون أنه يكون على كفرة الترك ويأخذونه على الأتراك الإسلامية وقال قوم بل هم أهل الصين يستولون على هذه الأقاليم والله اعلم وسمعت من يزعم أنه مضى وكان يقول مذ دخل تحكم الماكاني بغداد ضعف سلطان بني هاشم الهدة في رمضان وهي من أشراط الساعة حدثنا البيروتي عن الأوزاعي عن عبد الله بن لبانة عن فيروز الديلمي عن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه قال يكون هدة في رمضان توقظ النائم وتفزع اليقظان هذا في رواية قتادة وفي رواية الأوزاع يكون صوت في رمضان في نصف من الشهر يصعق فيه سبعون ألفاً ويعمى فيه سبعون ألفاً ويصم سبعون ألفاً ويخرس سبعون ألفاً ويتفلق له سبعون ألف بكر قال ثم يتبعه صوت آخر فالأول صوت جبريل عليه السلام والثاني صوت إبليس عليه اللعنة قال الصوت في رمضان والمعمى في شوال وتميز القبائل في ذو القعدة ويغار على الحاج في ذو الحجة والمحرم أوله بلاء وآخره فرح قالوا يا رسول الله من يسلم منه قال من يلزم بيته فيتعوذ بالسجود وفي رواية قتادة تكون هدة في رمضان ثم يظهر عصابة في شوال ثم تكون معمعة في ذو القعدة ثم تسلب الحاج في ذو الحجة ثم تنهتك المحارم في المحرم ثم يكون صوت في صفر ثم تتنازع القبائل في شهر ربيع الأول ثم العجب كل العجب بين جمادى ورجب ثم فئة مغنية خير من دسكرة تعل مائة ألف لهاشمي الذي يخرج من خرسان مع الرايات السود حدثنا يعقوب بن يوسف السجزي حدثنا أبو موسى البغوي حدثنا الحسن بن ابراهيم البياضي بمكة حدثنا حماد الثقفي حدثنا عبد الوهاب بن عطاء الخفاف حدثنا خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا رأيتم الرايات السود من قبل خرسان فاستقبلوها مشياً على أقدامكم لأن فيها خليفة الله المهدي وفي هذا أخبار كثيرة هذا أحسنها وأولها إن صحت الرواية وقد روى فيه عن ابن العباس بن عبد المطلب أنه قال إذا أقبلت الرايات السود من المشرق توطئون للمهدي سلطانه واختلف الناس في تأويل هذه الأخبار فقال قوم قد نجزت هذه وهو خروج أبي مسلم وهو أول من عقد الرايات السود وسود ثيابه وخرج من خراسان فوطأ لبني هاشم سلطانهم قالوا وهذا كما يقال فتح عمر السواد وقطع الأمير اللص فيضاف إليهم ما كان من فعل غيرهم إذ كان ذلك بأمرهم وقال آخرون بل هو لم يأت بعد وإن أول انبعاث ذلك من قبل الصين من ناحية يقال لها ختن بها طائفة من ولد فاطمة عليها السلم من ظهر الحسين ابن علي ويكون على مقدمته رجل كوسج من تميم يقال له شعيب بن صالح مولده بالطالقان مع حكايات وأقاصيص فيها العجائب من القتل والأسر والله أعلم خروج السفياني في رواية هشام بن الغار عن مكحول عن ابي عبيدة بن الجراح عن رسول الله صلى الله عليه قال لا يزال هذا الأمر قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية وفي رواية أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ولد العباس فقال يكون هلاكهكم على يدي رجل من أهل بيت هذه وأومى إلى حبيبة بنت أبي سفيان وفيما خبر عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه في ذكر الفتن بالشام قال فإذا كان ذلك خرج ابن آكلة الأكباد على أثر ليستولي على منبر دمشق فإذا كان ذلك فانتظروا خروج المهدي وقد قال بعض الناس أن هذا قد مضى وذلك خروج زياد بن عبد الله بن خالد بن زيد ابن معاوية بن أبي سفيان بحلب وبيضوا ثيابهم وأعلامهم ودعوا الخلافة فبعث أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبي جعفر إليهم فاصطلموهم عن آخرهم ويزعم آخرون أن لهذا الموعود شاباً وصفه لم يوجد لزياد بن عبد الله ثم ذكروا أنه مع ولد يزيد بن معاوية عليها اللعنة بوجهه آثار الجدري وبعينيه فكتة بياض يخرج من ناحية

دمشق ويثيب خيله وسراياه في البر والبحر فيبقرون بطون الحبالى وينشرون الناس بالمناشير ويطبخونهم في القدور ويبعث جيشاً له إلى المدينة فيقتلون ويأسرون ويحرقون ثم ينبشون عن قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر فاطمة رضها ثم يقتلون كل من اسمه محمد وفاطمة ويصلبونهم على باب المسجد فعند ذلك يشتد غضب الله عليهم فيخسف بهم الأرض وذلك قوله تعالى " ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب أي من تحت أقدامهم " وفي خبر آخر إنهم يخربون المدينة حتى لا يبقى رائح ولا سائح وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليتركن المدينة أحسن ما كانت حتى يجأ الكلب فيشعر على سارية المسجد قالوا فلمن تكون الثمار يومئذ يا رسول الله قال

لعوافي السباع والطير قالوا في الخبر ثم تسير خيل السفيان تريد مكة تنتهي إلى موضع يقال له بيداء فينادي مناد من السماء يا بيداء بيدي بهم فيخسف بهم فلا ينجو منهم إلا رجلان من كلب يقلب ووجهما في أقفيتهما يمشيان القهقرة على أعقابهما حتى يأتيا السفياني فيخبرا به ويأتي البشير المهدي وهو في مكة فيخرج معه اثنا عشر ألفاً فهم الأبدال والأعلام حتى يأتي المباء فيأسر السفياني ويغير على كلب لأنهم تباعه ويسبي نسائهم قالوا فالخائب يومئذ من خاب عن غنائم كلب كذا الرواية من حشو كثير ومحالات مردودة والله أعلم بما روى ويثيب خيله وسراياه في البر والبحر فيبقرون بطون الحبالى وينشرون الناس بالمناشير ويطبخونهم في القدور ويبعث جيشاً له إلى المدينة فيقتلون ويأسرون ويحرقون ثم ينبشون عن قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر فاطمة رضها ثم يقتلون كل من اسمه محمد وفاطمة ويصلبونهم على باب المسجد فعند ذلك يشتد غضب الله عليهم فيخسف بهم الأرض وذلك قوله تعالى " ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب أي من تحت أقدامهم " وفي خبر آخر إنهم يخربون المدينة حتى لا يبقى رائح ولا سائح وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليتركن المدينة أحسن ما كانت حتى يجأ الكلب فيشعر على سارية المسجد قالوا فلمن تكون الثمار يومئذ يا رسول الله قال لعوافي السباع والطير قالوا في الخبر ثم تسير خيل السفيان تريد مكة تنتهي إلى موضع يقال له بيداء فينادي مناد من السماء يا بيداء بيدي بهم فيخسف بهم فلا ينجو منهم إلا رجلان من كلب يقلب ووجهما في أقفيتهما يمشيان القهقرة على أعقابهما حتى يأتيا السفياني فيخبرا به ويأتي البشير المهدي وهو في مكة فيخرج معه اثنا عشر ألفاً فهم الأبدال والأعلام حتى يأتي المباء فيأسر السفياني ويغير على كلب لأنهم تباعه ويسبي نسائهم قالوا فالخائب يومئذ من خاب عن غنائم كلب كذا الرواية من حشو كثير ومحالات مردودة والله أعلم بما روى

خروج المهدي قد روي فيه روايات مختلفة وأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن علي وابن عباس وغيرهم إلا أن فيها نظراً وكذلك كل ما يرونه من حادثات الكوائن إلا أنها نسوقها كما جاءت وأحسن من جاء في هذا الباب خبر أبي بكر بن عياش عن عاصم بن ذر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا تذهب الدنيا حتى يلي أمتي رجل من أهل بيتي يواطيء اسمه اسمي وفي رواية أخرى لو لم يبق من الدنيا إلا عصر لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً كما ملأت جوراً ليس فيها يواطئني اسمه وللشيعة فيه أشعار وأسطار بعيدة وقد حدثني أحمد بن محمد بن الحجاج المعروف بالسجزي بالشيرجان سنة خمسة وعشرين وثلاثمئة قال حدثنا محمد بن أحمد بن راشد الأصفهاني حدثني يونس بن عبد الله الأعلى الشفاعي حدثني محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح عن الحسن عن أنس رضي الله عنه قال لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدنيا إلا إدباراً ولا الناس إلا شحاً ولا تقوم الناس إلا على شرار الناس ولا مهدي إلا عيسى بن مريم ثم اختلف من أثبت الخبر الأول فقال بعضهم هو كان علي بن أبي طالب عليه السلام وتأولوا عليه قوله وجدتموه هادياً مهدياً وزعم قوم أنه كان المهدي محمد بن أبي جعفر لقبه المهدي واسمه محمد وهو من أهل البيت ولم يأل جهداً في إظهار العدل ونفى الجور وقيل لطاووس هو المهدي الذي سمع به يعنى عمر بن عبد العزيز قال لا إن هذا لا يستكمل العدل وإن ذاك يستكمله وأنكرت الشيعة أن يكون إلا من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم اختلفوا فقالوا هو محمد بن الحنفية لم يمت وسيعود حتى يسوق العرب بعصاً واحدة واحتجوا بأن علياً دفع إليه الراية يوم الجمل وقال يكون من ولد حسين بن علي رضوان الله عليهما من بطن فاطمة رضها لأنه جاهد في طلب الحق حتى استشهد وقال آخرون بل يكون من ولد الحسن عليه السلام ثم اختلفوا في حيلته وهيئته فقال بعضهم يكون ابن أمتي أسمر العينين براق الثنايا في خده خال وقال قوم مولده بالمدينة ومخرجه بمكة يبايع بين الصفا والمروة وزعم آخرون أنه يخرج من الموت ومن ثم سموا بنو

إدريس قيروان المهدية طمعً في أن يكون منهم قالوا ورفع الجور عن أهل الأرض ويفيض المعدلة عليهم ويسوي بين الضعيف والقوي ويبلغ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها ويفتح القسطنطينية ولا يبقى أحد في الأرض إلا دخل الإسلام أو أدى الفدية وعند ذلك يتم وعد الله ليظهره على الدين كله واختلفوا في مدة عمره فقيل يعيش سبع سنين وقيل تسعاً وقيل عشرين وقيل أربعين وقيل سبعين، خروج القحطاني في رواية عبد الرزاق عن معمر عن أبي قريب عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لا تقوم الساعة حتى يقفل القافل من رومية ولا تقوم الساعة حتى يسوق الناس رجل من قحطان واختلفوا فيه من هو فروي عن ابن سيرين أنه قال القحطاني رجل صالح وهو الذي يصلى خلفه عيسى وهو المهدي وروي عن كعب أنه قال يموت المهدي ويبايع بعده القحطاني وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال رجل يخرج بعد ولد العباس ولما خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج يسمى بالقحطاني وكتب إلى العمال من عبد الرحمن ناصر أمير المؤمنين فقيل له إن اسم القحطاني على ثلثة أحرف فقال اسمي عبد وليس الرحمن من اسمي فدل أن هذا القحطاني كان مشهوراً عندهم وقد قال كعب ما هو بدون المهدي في العدل فتح قسطنطينية روينا عن اسباط عن السري في قوله عز وجل " لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم " قال فتح قسطنطينية وبعض المفسرين يفسرون آلم غلبت الروم على هذا أنه كائن وذكروا أنه يباع الفرس من لائها بدرهم ويقتسمون الدنانير بالجحف قالوا وبين فتح قسطنطينية وخروج الدجال سبع سنين فبينا هم كذلك إذ جاء الصريخ أن الدجال في داركم قال فيرفضون ما في أيديهم وينفرون إليه

خروج الدجال الأخبار الصحيحة متواترة بخروجه بلا شك وإنما الاختلاف في صفته وهيأته قالوا قوم هو صائف بن اليهودي عليه اللعنة ولد عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أحياناً يربوا في مهده وينتفخ في بيته حتى يملأ بيته فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فأتاه في نفر من أصحابه فلما نظر إليه عرفه فدعا الله سبحانه وتعالى فرفعه إلى جزيرة من جزائر البحر إلى وقت خروجه وفي رواية أخرى أن المسيح الدجال قد أكل الطعام ومشى في الأسواق وروي أن اسمه عبد الله وهو يلعب مع الصبيان فقال ابن صياد أتشهد أني رسول الله فقال له النبي أشهد أني رسول الله فقال ابن صياد أتشهد أني رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني قد خبأت لك خبئاً قال ما هو قال هو الدخ يعني الدخان فقال النبي صلى الله عليه وسلم أخسأ ولن تعدو قدرك قال عمر أئذن لي فأضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه دعه فإن يكنه فلن تسلط عليه وإلا يكنه فلا خير في قتله ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاختطف وجاء في الحديث أنه اغم جفال الشعر بمكتوب بين عينيه ك ف ر يقرأه كل أحد كاتب وغير كاتب واختلفوا في مخرجه فقال قوم يخرج من أرض كوثي بالكوفة واختلفوا في من يتبعه قال قوم يتبعه اليهود والنساء والأعراب وأولاد الموسومات واختلفوا في العجائب التي تظهر على يديه فقال قوم يسير حيث سار معه جنة ونار فجنته نار وناره جنة وإنه يدعى أنه رب الخلائق فيأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت ويبعث الشياطين في صورة الموتى ويقتل رجلاً ثم يحييه فيفتتن الناس ويؤمنون به ويبايعونه قالوا ولا يسخر له من الدواب إلا الحمار واختلفوا في هيأة حماره فقيل ما بين أذني حماره اثني عشر شبراً وقيل أربعون ذراعاً تظل إحدى أذنيه سبعين ألفاً وخطوه مسير ثلثة أيام فيبلغ كل منهل الأربعة مساجد مسجد الحرام ومسجد الرسول ومسجد الطور ويمكث أربعين صباحاً يقصد بيت المقدس وقد اجتمع الناس لقتالهم فعمم ضبابة من غمام ثم ينكشف عنهم مع الصبح فيرون عيسى بن مريم قد نزل على ضرب من ظراب بيت المقدس فيقتل الدجال.

نزول عيسى عليه السلم المسلمون لا يختلفون في نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان وقد قيل في قوله تعالى " وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها أنه نزوله " وجاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن عيسى نازل فيكم وهو

خليفتي عليكم فمن أدركه فليقرئ به سلامي فإنه يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويحج في سبعين ألفاً فيهم أصحاب الكهف فإنهم يحجون ويتزوج امرأة من يزد ويذهب البغضاء والشحناء والتحاسد وتعود الأرض إلى هيأتها على عهد آدم حتى يترك المقلاص فلا يسعى عليها أحد وترى الغنم مع الذئب ويلعب الصبيان مع الحيات فلا تضرهم ويلقى الأرض في زمانه حتى لا تفرض القأرة جرابا وحتى يدعى الرجل إلى المال فلا يقبله ويشبع الرمانة والسكن قال وينزل عيسى في يده مشقص فيقتل به الدجال وقيل إذا نظر إليه الدجال ذاب كما ينوب الرصاص واتبعهم المسلمون يقتلونهم فيقول الحجر والشجر يا مسلم هذا يهودي خلفي إلا الغرقد من شجر اليهود قال ويمكث عيسى أربعين سنة ويقال ثلاثا وثلاثين ويصلي خلف المهدي ثم يخرج يأجوج ومأجوج.

بقية خبر الدجال في رواية سفيان عن مجالد عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في نحر الظهيرة فخطبنا فقال إني لم أجمعكم لرغبة ولا لرهبة ولكن لحديث حدثنيه تميم الداري منعني سروره القائلة حدثني أن نفراً من قومه أقبلوا في البحر فأصابتهم ريح عاصف وألجأتهم إلى جزيرة فإذا هم بدابة قالوا لها ما أنت الجساسة قلنا اخبرينا الخبر قالت إن أردتم الخبر فعليكم بهذا الدير فإن فيه رجلاً بالأشواق إليكم قالوا فأتيناه فقال إني بعيم فأخبرناه فقال ما فعلت بحيرة طبرية قلنا تدفق بني جانبها قال ما فعلت نخل عمان وبيسان قلنا يجتنيها أهلها قال فما فعلت عين زغر قلنا يشرب منها أهلها قال فلو يبست هذه نقذت من وثاقي فوطئت قدمي كل منهل إلا المدينة ومكة وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب فقال ما كانت بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من الدجال وقال إنه لم يكن نبي إلا أنذر قومه بالدجال ووصفه فقال إنه قد بين لي ما لم يبين لأحد أنه أعور كيت وكيت فإن خرج وأنا فيكم فأنا حجتكم وإن لم يخرج إلا بعدي فالله خليفتي عليكم فما اشتبه عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور والدجال يسميه اليهود موشح كوامل ويزعمون أنه من نسل داود وأنه يملك الأرض ويرد الملك إلى بني إسرائيل فيهود أهل الأرض كلهم وسمعت المجوس يذكرون واحداً منهم يخرج فيرد الملك إليهم فقد صار هذا الأمر مشتركاً متنازعاً فيه بقي الاعتماد على أصدق الأخبار وأصحها وذلك ما روى عن كتب الله ورسله من غير تحريف ولا تبديل فالذي هو ممكن جائز من هذه لصفة خروج رجل مخالف للإسلام مفسد فيه وأما سائر ما ذكر فموكول إلى علم الله لأنه قد جاء أنه قد قال إن بين يدي الساعة ثلاثين دجالاً فأقل ما في هذا الباب أن يكون كأحد هؤلاء.

بقية خبر عيسى عليه السلام قال بعض المفسرين في قوله تعالى " وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته إنه عند نزوله " وقد قال الله عز وجل " بل رفعه الله إليه وما قتلوه ولا صلبوه ولكن شبه لهم " ولا يختلف أهل الكتاب أنه جاء احتجوا بأنه مكتوب في كتب الأنبياء للاثنى عشر إني موجه إليكم النبي قبل مجيء الرب وفي كتاب شعيا يا بيت اللحم منك يخرج الصديق المخلص مع الخروف ويلعب الصبي مع الأفاعي الصماء وعيسى عندكم مسيح والدجال مسيح وهما مسيحان وفي زمانه يخرج يأجوج ومأجوج قالوا ويكون من ولد شعيا بن افرائيم ثم اختلف المتأولون له فقال أكثرهم هو عيسى عليه السلام بعينه يرد إلى الدنيا وقالت فرقة نزول عيسى خروج رجل شبيه بعيسى في الفضل والشرف كما يقال للرجل الخير هو ملك وللشرير هو شيطان يراد به التشبيه لا الأعيان وقال قوم يرد روحه في رجل يسمى عيسى والله أعلم.

طلوع الشمس من مغربها قال بعض المفسرين في قوله تعالى يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أنه طلوع الشمس من مغربها وروينا عن أبي هريرة أنه قال ثلاث إذا خرجت لم ينفع نفساً إيمانها طلوع الشمس من مغربها والدابة والدجل قالوا في صفة طلوعها أنه إذا كانت الليلة التي تطلع الشمس في صبحتها

من مغربها حسبت فيكون تلك الليلة قدر ثلاث ليال قالوا فيقرأ الرجل جزءه وينام ويستيقظ والنجوم راكدة والليلة كما هي فيقول بعضهم لبعض هل رأيتم مثل هذه الليلة قط ثم تطلع الشمس من مغربها كأنها علم أسود حتى تتوسط في السماء ثم تعود بعد ذلك فتجري في مجراها الذي كانت تجري فيه وقد أغلق باب التوبة إلى يوم القيامة وروى عن على أنه قال فتطلع بعد ذلك من مشرقها عشرين وماية سنة لكنها سنون قصار السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كالساعة وكان كثير من الصحابة يترصدون الشمس منهم حذيفة بن اليمان وبلال وعائشة رضهم.

خروج دابة الأرض قال الله عزل وجل " وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم " قال كثير من أهل الأخبار إنها دابة ذات وبر وريش وزغب وفيها من كل لون ولها أربع قوائم رأسها رأس ثور وآذانها أذن فيل وقرنها قرن إيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد وقوائمها قوائم بعير ومعها عصى موسى وخاتم سليمان ويرتفع إلى السماء فلا يعرف أحد باسمه وهو يجلو وجه المؤمن بالعصا فيبيض ويختم على أنف الكافر فيغشو السواد فيه فيقال يا مؤمن ويا كافر وروى عن عبد الله بن عمر أنه قال هي الدابة الغلباء التي أخبر التميم الداري عنها وعن الحسن قال سأل موسى عليه السلام ربه أن يريه الدابة فخرجت ثلاث أيام لم يدر أي طرفها فقال يارب ردها ردها ويقال أنها تخرج بأجناد في عقب الحاج والله أعلم تسير بالنهار وتقف بالليل يراها كل قائم وقاعد وأنها لا تدخل المسجد وقد عاذبه المنافقون فقتل أترون المسجد ينجيكم مني هلا كان بالأمس هذا قول الظاهر ولعمري ما خروج مثل هذه الدابة ولا طلوع الشمس من مغربها أو من أي ناحية من نواحي السماء كانت على الله بعزيز ولا هي أصعب وأعسر من إبداعها نفسها ووضعها على مجراها التي تجري فيه ولا طلوعها من مغربها أعجب من نقص بنيتها ومحو صورتها واستلاب ضوءها وهدم مسيرها وكل ذلك قد قامت الدلائل على جوازه بحلول هذه الآفات والبلايا مع فناء العالم بأسره وعدم عينه بعد وجوده وينهب قوم ممن أنكروا حدث العالم وانتقاضه إلى أن طلوع الشمس من مغربها ظهور سلطان ثم يستولي على الأرض ويقهر كل سلطان دونه وهذا محال لا تجيزه العقول لله بوجه من الوجوه وسبب من الأسباب أن يكون في قوة أحد من الناس أو عمره أو مبلغه أو يتناول مشارق الأرض ومغاربها ويعطيه أهلها الطاعة والانقياد وينفذ فيها أمره وحكمه أن الإنسان الواحد وإن طال عمره وامتدت أيامه لم يقطع العالم كله ولا نصفه ولا بعضه وأن الذي يذكر من الملوك الذين أحاطوا بالأرض هو شيء من جهة الخبر وما يذكر من أمر سليمان عليه السلام معجزة له لا يخبر مثلها هذا الخصم المخالف لنا فإذا بطل ما قلناه وجب أن طلوعها من مغربها كطلوعها من مشرقها أو ينكر ذلك لتكلم على إثباته من جهته وطريقه فهذا يقع في باب صدق الأنبياء وإن التجأ إلى أن هذا وما أشبهه خارج عن العادة اضطر إلى إيجاده وما أشبهه من غير مجانسة له خارج عن العادة حتى ينكشف في الحال أمره عن التعطيل والإلحاد ويعود القول في إثبات البارئ وإحداث العامل ولهذا ما اشترط في غير موضع في هذا الكتاب التحفظ لهذه المسئلة والتمرن عليها لأنها القاعدة الموطودة والعمدة الموثوق بها وأما الدابة فهو اسم يقع على ما دب ودرج من أجناس الحيوان من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وهامة وقال الله تعالى " والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع " وقال " ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها " وقال إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون فلم يرد ها هنا إلا الناس خاصة فلو قال قائل إنها كناية عن إنسان أو ملك لكان قولاً محتملاً هذا إذا لم يصح ما روى في الخبر من صفاتها ونعومتها كما ذكرنا فإما إن صح الخبر فليس إلا إتباعه وقد سمعت من يقول معنى الدابة العلامة يظهر الله كلامه كيف شاء يعجزهم بها وروى أن علياً صلوات الله عليه وسلامه قال أنا دابة الأرض

أنا كذا أنا كذا والله أعلم وقيل عبد الله بن الزبير دابة الأرض.
ذكر الدخان قال تعالى " فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين " وروى عن الحسن قال يجيء دخان فيملأ ما بين السماء والأرض حتى لا يدري شرق ولا غرب ويأخذ الكافر فيخرج من مسامعه ويكون على المؤمنين كهيئة الزكمة ثم يكشف الله عنهم بعد ثلاثة أيام وذلك قدام الساعة وأكثر أهل التأويل على أنه الجوع الذي أصابهم في أيام النبي صلعم.

خروج يأجوج ومأجوج قال الله تعالى فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً وجاء في الأخبار من صفاتهم وعددهم ما الله به عليم ولا يختلفون أنهم في مشارق الأرض وروى عن مكحول أنه قال المسكون من الارض مسيرة مائة عام وثمانون منها ليأجوج ومأجوج أمتان في كل أمة أربع مائة ألف أمة لا تشبه أمة أخرى وعن الزهرى أنهم ثلاث أمم منسك وتأويل وتدريس فصنف منهم مثال الأرز والشجر الطوال وصنف منهم عرض أحدهم وطوله سواء وصنف منهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى وروى أن طول أحدهم شبر وأكثر ويكون خروجهم بعد قتل عيسى الدجال وإذا جاء الوقت جعل الله السد دكاً كما ذكر فيخرجون وروى أنهم تكون مقدمتهم بالشام وساقتهم ببلخ قالوا فيأتي أولهم البحيرة ويشربون ماءها ويأتي أوسطهم فيلحسون ما فيها ويأتي آخرهم فيقول لقد كان هنا مرة ماء ويكون مكثهم في الأرض سبع سنين ثم يقولون قد قهرنا أهل الأرض فهل نقاتل ساكن السماء فيرمون بنشابهم فيردها الله مخضبة دماً فيقولون قد فرغنا من أهل السماء فيرسل الله عليهم العنف في رقابهم فيصبحون موتى ويسكر عليهم الدواب داخس ما سكرت من شيء ثم يرسل الله عليهم السماء فتجرفهم إلى البحر وفي رواية كعب أنهم ينقرون السد بمناقيرهم كل يوم فيعودون وقد عاد كما كان حتى إذا بلغ الأمر الغاية ألقى على لسان أحدهم إن شاء الله فيخرجون حينئذ وروى أنهم يلحسونها وقالوا في صفاتهم أن منهم من يفترش أذنه ومنهم من طوله وعرضه سواء ومنهم من كالإوزة الطويلة ومنهم من له أربع أعين عينان في رأسه وعينان في صدره ومنهم من له رجل واحدة ينقز نقز الظباء ومنهم من هو ملبس شعراً كالبهائم ومنهم من يأكل الناس ومنهم من لا يشرب غير الدم شيئاً ولا يموت الرجل منهم حتى يرى لصلبه ألف عين تطرف وفي التوراة مكتوب أن يأجوج ومأجوج يخرجون في أيام المسيح ويقولون أن بني إسرائيل أصحاب أموال وأوان كثيرة فيقصدون أوريشلم وينتهبون نصف القرية ويسلم النصف الآخر ويرسل الله عليهم صيحة فيموتون عن آخرهم ويصيب بني إسرائيل من أواني عسكرهم ما يستغنون سبع سنين عن الحطب هذا المقدار من حديثهم في كتاب زكريا عليه السلام فأما ما رويناه والله أعلم بحقها وباطلها ولا تختلف الناس أن يأجوج ومأجوج أمم من مشارق الأرض وجائز أن يرث أرض قوم ويستولون عليها دونهم فروى الربيع عن أبي العالية قال يأجوج ومأجوج رجلان وقيل هو الترك والديلم فهذا ما لا ينكره القلوب وأما سائر الصفات فمر على وجهه قالوا ويمكث الناس بعد يأجوج ومأجوج عشرين سنة يحجون ويعتمرون خروج الحبشة قال أصحاب هذا العلم ويمكث الناس بعد هلاك يأجوج ومأجوج في الخصب والدعة ما شاء الله ثم تخرج الحبشة وعليهم ذو السويفتين فيخربون مكة ويهدمون الكعبة ثم لا تعمر أبداً وهم الذين يستخرجون كنوز فرعون وقارون قال فيجمع المسلمون ويقاتلونهم فيقتلونهم ويسبونهم حتى يباع الحبشي بعباءة ثم يبعث الله عز وجل ريحاً فتلفت روح كل مسلم.
ذكر فقد؟ مكة وروى عن على صلوات الله عليه وسلامه قال حجوا قبل أن لا تحجوا فوالذي خلق الحبة وبرأ النسمة ليرفعن هذا البيت من بين أظهركم حتى لا يدري أحدكم أين كان مكانه بالأمس وقال كأني أنظر إلى أسود حمش الشاقين قد علاها وينقضها طوبة طوبة.

ذكر الريح التي تقبض أرواح أهل الإيمان روى أن الله تعالى ابعث ريحاً يمانية ألين من الحرير وأطيب نفحة من المسك فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من الإيمان إلا قبضته ويبقى الناس بعدها مائة عام لا يعرفون ديناً ولا ديانة وهم شرار خلق الله عليهم تقوم الساعة وهم في أسواقهم يتبايعون وفي رواية عبد الله بن يزيد عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تقوم الساعة حتى يعبد الله في الأرض مائة سنة وعن عبد الله بن عمر قال يؤمر صاحب الصور أن ينفخ فيسمع رجلاً يقول لا إله إلا الله فيؤخر مائة عام.

ذكر ارتفاع القرآن روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال القرآن أشد بغضاً على قلوب الرجال من النعم على عقله قيل يا أبا عبد الرحمن كيف وقد أثبتناه في صدورنا ومصاحفنا قال يسرى عليه فلا يذكر ولا يقرأ.

ذكر النار التي تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر، روى حذيفة بن أسيد عن النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات بين يدي الساعة هذه هي إحداهن وفي رواية أخرى لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى وفي رواية أخرى لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من حضرموت مع اختلاف كثير في الروايات.

ذكر نفخات الصور وهي ثلاث نفثان منها في الدنيا والثالثة في الآخرة قال الله عز وجل " ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون " وروى الحسن عن شيبان عن قتادة من عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال تهيج الساعة والرجلان يتبايعان قد نشرا ثوبهما فلا يطويانه والرجل يلوط حوضه فلا يسقى منه والرجل قد انصرف بلبن لقحته فلا يطعمه والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يأكلها ثم تلا تأخذهم وهم يخصمون وقال لا تأتيهم إلا بغتة، النفخة الأولى يقال أن صاحب الصور إسرافيل وهو أقرب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى وله جناح بالمشرق وجناح بالمغرب والعرش على كاهله وإن قدميه قد مرقت الأرض السفلى حتى بعدتا مسيرة مائة عام على ما رواه وهب ومثل هذا مما يزيد في يقين العامي ويبلغ في تجويفه وتعظيمه لأمر الله تعالى وقد بينا في صفة الملائكة أنهم روحانيون الروح بسيط لا يضيق الصدر في صفة الأجسام المركبة قيل صاحب الصور عزرائل وعن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه وحنى جبهته ينظر متى يؤمر فينفخ.

ذكر ما جاء في الصور روى أنه كهيأة قرن فيه بعدد كل ذي روح داره وله ثلاث شعب شعبة تحت الثرى يخرج منها الأرواح وترجع إلى الأجساد وشعبة تحت العرش منها يرسل الله الأرواح إلى الموتى وشعبة في فم الملك فيها ينفخ قالوا فإذا مضت الآيات والعلامات التي ذكرنا أمر صاحب الصور أن ينفخ نفخة الفزع ويديمها ويطولها فلا تعتر كذا عاماً وهي التي يقول الله عزل وجل " ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق " ويقول " ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء لله " قالوا فإذا بدأت الصيحة فزعت الخلائق وتحيرت وتاهت وهو يزداد كل يوم فظاعة وشناعة فيحار أهل البوادي والقبائل إلى القرى والمدن ثم يزداد الصيحة حتى ينتقلوا إلى أمهات الأمصار ويعطلوا الرواعي والسوائم وجاءت الوحوش والسباع من هول الصيحة فاختلطت بالناس واستأنست بهم وذلك قوله وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت ثم تزداد الصيحة حتى تسير الجبال عن وجه الأرض وتصير سراباً جارياً وذلك في قوله تعالى " وإذا الجبال سيرت " وقوله " وتكون الجبال كالعهن المنفوش وتزلزلت الأرض وانقضت " وذلك قوله تعالى " إذا زلزلت الأرض زلزالها " وقوله " إن زلزلة الساعة شيء عظيم ثم تكور الشمس وتنكدر النجوم وتسجر البحار والناس أحياء ينظرون إليها وعند ذلك يذهل المراضع عما أرضعت وتواضع الحوامل حملها ويشيب الولدان وترى الناس سكارى من الفزع وما هم بسكارى ولكن

عذاب الله شديد روى عن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع عن أبي العالية عن أبي ابن كعب قال بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس وبينا هم كذلك إذ تناثرت النجوم وبينا هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض وبينا هم كذلك إذ تحركت الأرض فاضطربت لأن الله تعالى جعل الجبال أوتادها ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن واختلفت الدواب والطيور والوحوش فماج بعضهم في بعض فقالت الجن نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا فإذا هي نار تشج فبينا هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأهلكتهم وهذه كلها من نص القرآن ظاهرة لا يسع لأحد مؤمن ردها والتكذيب بها وفي هذه الصيحة يكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميماً وفيها ينشق السماء فيصير أبواباً وفيها تحيط سرادق من النار بحافات الأرض فتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي أقطار السموات فتتلقاها يضربون وجوهها حتى يرجعوا وذلك قوله " يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فأنفذوا " الآية قالوا والموتى لا يشعرون بشيء من هذا ثم النفخة الثانية.

ذكر النفخة الثانية وهي نفخة الصور وذلك قوله تعالى " في نفخ الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله قالوا فيموتون في هذه النفخة إلا من تناولته الشاء من الله وهم مختلف فيهم فزعم بعض أهل الكتاب أن قبض الأرواح والله اعلم واختلف أهل الكتاب في صفة ملك الموت فزعم بعضهم أن الله جعل قبض الأرواح إلى فاني وهو الذي يسمى ملك الموت وقال بعضهم أن ملك الموت معه سيف إذا شهر سيفه لم يره أحد إلا مات على مكانه وقال بعض منهم أنع يقطع بذلك السيف الأرواح من السماء وكثير منهم خالفوهم وقالوا أن الله لم يؤكل أحداً بقبض الأرواح ولكن إذا ذبل جسد الحيوان وضعفت أعضاؤه القابلات للفعل فارقها الروح فأما المسلمون فمنهم من يقول الدنيا بين يدي ملك الموت كالسفرة أو كالطست أو كالآنية يتناول منها حيث شاء ومنهم من يقول له أعوان ينتزعون الأرواح فإذا بلغت التراقي تولاها بنفسه ومنهم من يقول بل جعل طبعه ضد للحياة فحيث ما حضر بطلت الحياة عنده تمطر سماؤها وتجري مياهها وتطعم أشجارها ولا حي على ظهرها ولا في بطنها ثم يحييهم الله للبعث.

ذكر اختلافهم في قوله تعالى " هو الأول والآخر " وقال تعالى " كما بدأنا أول خلق نعيده " وقال تعالى " كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " وقال كل شيء هالك إلا وجهه وقال " كل نفس ذائقة الموت " فبدلت هذه الآيات على هلاك كل شيء دونه لما قال تعالى " ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله " دل أنه لا تعم الصعقة جميع الخلائق فالتمسنا التوفيق بين الآيات بعد أن أمكن أن تكون آية الاستثناء مفسرة لتلك الآي فقلنا الإستثناء عند نفخة الصعق وعموم الفناء بين النفختين كما جاء في الخبر لئلا يظن ظان أن القرآن متناقض وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله كل شيء هالك إلا وجهه قال كل شيء وجب عليه الفناء إلا الجنة والنار والعرش والكرسي والحور العين والأعمال الصالحة وقيل في قوله إلا من شاء الشهداء حول العرش سيوفهم بأعناقهم وقيل الحور العين وقيل موسى عليه السلام لا صعق مرة وقيل جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش قالوا فيأمر الله تعالى ملك الموت فيقبض أرواحهم ثم يقول مت فيموت فلا يبقى حي إلا الله تعالى فعند ذلك يقول لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيقل الله الواحد القهار هكذا روى في الأخبار والمسلمون يختلفون منه في أشياء.

ذكر المطرة التي تنبت أجساد الموتى قالوا فإذا مضى بين النفختين أربعون عاماً أمطر الله من تحت العرش ماء خاثراً كالطلاء وكمنى الرجال يقال له ماء الحيوان فينبت أجسامهم كما ينبت البقل قال كعب ويأمر الله الأرض والبحار وتؤمر الطير بأن ترد ما أكلت من بني آدم حتى الشعرة فما فوقها حتى تتكامل أجسامهم قالوا وتأكل الأرض ابن

آدم إلا عجب الذنب فإنه يبقى مثل عين الجراد لا يدركه الطرف فينشئ الله الخلق منه وتركب عليه أجزاؤه كالهباء في الشمس فإذا تم وتكامل نفخ فيه الروح ثم انشق عنه القبر ثم قام.
ذكر النفخة الثالثة وذلك قوله تعالى " ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " وقوله " إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون " ويجمع الله أرواح الخلائق في الصور ثم يأمر الملك أن ينفخها فيهم ويقول " أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة والشعور المتمزقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء فيجتمعن ثم ينادي قوموا للعرض على الجبار فيقومون " وذلك قوله " يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون " وقوله " يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير " فإذا خرجوا من قبورهم يلقى المؤمن بمركب من رحمة الله كما وعد يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً والفاسق يمشي على قدمه ونسوق المجرمين إلى جهنم وروداً وفي القرآن من آثار الحشر ودلائل البعث ما لا يوجد في شيء من كتب الله المنزلة لأن القوم كانوا منكرين له.

ذكر بعث الخلق روى الحسن رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة بهما عزلاً فقالت إحدى نسائه أما يستحيون فقال لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وعن سعيد بن جبير في وقوله عز وجل ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة قال يرد كل واحد إلى ما انتقض منه حتى الظفر قص والشعرة سقطت وفي رواية معاذ بن جبل والمقدام بن معدى كرب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يبعث الناس يوم القيامة أولهم وآخرهم ما بين السقط إلى الشيخ الفاني كأنها ثلاث وثلاثين سنة وهو سن عيسى عليه السلام ومما احتج الله به على منكري البعث قوله تعالى " يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة " إلى قوله " وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج " فشبه حياة الخلق بعد موتهم ونشورهم من قبورهم بحياة الأرض بعد موتها ونبات عشبها وشجرها وقال " أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة " إلى قوله " قل يحييها الذي أنشأها أول مرة " وقال تعالى " ذكره وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً قل كونوا حجارة أو حديداً فإني باعثكم " وقال تعالى " ما خلقناكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة " وقال وهو أهون عليه.
ذكر اختلافهم في كيفيت الحشر لا خلاف بين أهل الأديان قاطبة في أصل البعث والحشر ولا ينكره أحد من أهل الأرض إلا الملحد المعطل الذي لا يعد قوله خلافاً وإنما الاختلاف في أشياء من صفاته نحن ذاكروها إن شاء الله تعالى فإن النفس على أخذ أمر النشأة الأخرى فليقسها على نشأة أول الخلق من جمع طين وما ضم إليه من حرارة الحياة وحرك بمادة الروح وأنطق بالنفس المميزة فصار إنساناً يسعى وقد جاء في الخبر من نظر إلى الربيع فليكثر ذكر النشور ونبات أهل القبور وروى ما أشبه الربيع بالنشور وأكثر أهل الإسلام على أن يحشر أصناف الخلائق من الجن والإنس والبهائم للقصاص والانتصاف وقد رونيا عن الحسن وعكرمة أنهما كانا يقولان حشر البهائم موتها فكانا لا يريان لها بعثاً وزعم قوم من أهل الكتاب أنه إذا كان يوم القيامة أمر الله إسرافيل أن يجمع أرواح من كان مستحقاً للثواب والعقاب في سفود ثم ينفخ فيه وأنكروا بعث البهائم والأطفال والمجانين ومن لم تبلغه الدعوة وقوم منهم ينكرون الصور والصراط والميزان وقالوا إذا مات الناس بعث المسيح فأحياهم وصار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار وقال كثير من علمائهم البعث للأرواح دون الأجساد على غير هذه الخلقة التي تراها ولكن على خلقه الخلود البقاء الأبدي وليس الإنسان جسداً وروحاً لا غير ولكن روح وريح ونفس وصورة وعدم وقوة ونطق وحياة تسعة أشياء العاشر وهو هذا الهيكل الأرضي المظلم وقد نشاهد من أحوال الجواهر وإن كانت منبعثة من الأرض ثم إذا سكبت وأذيبت وصفيت تحولت إلى حالة ألطف منها وأكرم وأشرف وكذلك الإنسان لا ينكر أن

يكون فناؤه وبلاؤه وحشره معنى يزيده لطافة ورقة وحالاً غير هذه الحالة لأنه يخلق للخلود والله أعلم.
ذكر الموقف روى المسلمون أن الناس يحشرون إلى بيت المقدس وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هو المحشر والمنشر وكذا يقول كثير من اليهود وروى عن كعب أن الله نظر إلى الأرض فقال إني واطئ على بعضك فاستبقت الجبال وتضعضعت الصخور فشكر الله لها ذلك فقال هذا مقامي ومحشر خلقي وهذه جنتي وهذه ناري وهذه موضع ميزاني وأنا ديان يوم الدين وقال بعضهم فصير الله الصخرة من مرجانة طباق الأرض يحاسب عليها الخلق وسمعت من يقول هذا من موضوعات أهل الشام يبعث الله الخلق إلى حيث يشاء.

ذكر تبديل الأرض قال الله تعالى " يوم تبديل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار أي قد برزوا قال قوم التبديل أن يرفع الله هذه الأرض ويبسط غيرها كما جاء في الخبر تمد أرض بيضاء كالأديم العكاظى لم يسفك عليها دم حرام ولم يعمل بالخطيئة وقيل تبسط أرض من فضة كنقي الملة يأكلون من تحت أقدامهم وروى أن عائشة رضها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية وقالت أين تكون الناس قال على جسر جهنم وروى أنه قال أضياف الله فلن يعجزوه وعن عكرمة أنه قال تطوى هذه الأرض وإلى جنبها أرض يحشر الناس عليها وقال آخرون تبديل الأرض تغيير صفاتها وهيأتها من تسيير جبالها وتغوير مياهها وذهاب أشجارها وروى الكلبي عن أبي صالح عن بن عباس رضي الله عنه أنه قال كما يقال للرجل تبدلت وإنما تبدلت ثيابه واحتج بقول العباس ابن عبد المطلب.
إذا مجلس الأنصار حف بأهله ... وفارقها فيها غفار وأسلم
فما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت أعلم
وقال قوم تبدل ثم يرفع لقول الله الفناء عليها وكل هذا جائز لأنه أقررنا بأن الله تعالى أوجدها من عدم لا من غير سابقة لزمنا أن نجيز أن يعيدها كما بدأها والله أعلم، ذكر طي السماء قال قوم طيها تغيير شمسها وقمرها ونجومها وهيأتها وهي باقية وكذلك الأرض واحتجوا بقول الله تعالى في بقاء الجنة والنار مادامت السماوات والأرض قالوا وليس في القول ببقائهما نقض للدين فقد قلنا ببقاء العرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار والأرواح والأعمال الصالحة ومن خالفنا ألزمه أن يكون الأرواح إذا أفنيت فأعيدت غير ما كانت لأنها لو كانت هي لما أفنيت وإن كانت أفنيت ثم أعيدت أرواحاً آخر كان الثواب والعقاب واقعين على غير استحقاق منها وكذلك الأجساد قد تعاد من تربتها التي كانت خلقت منها ثم تبقى في الجنة والنار على الأبد السرمد وزعم قوم أن السماء ليست بجسم ولا يكون معنى طيها إلا ما ذكرنا وقال آخرون بل هي جسم يطوى كطي الكتب بطاهر قول الله سبحانه " كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا " وقوله " الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه " حتى روى بعضهم وأشار بكفه وقد قبضها أنها يفضل من ها هنا ومن ها هنا شيء وتختلف أحوال السماء وتصير كالمهل وكالولادة وتنشق وتصير أبواباً ثم تطوى بعد ذلك فهذا من القول ظاهر وذلك ممكن وقد قال قوم ممن يذهب مذهب الطائفة الأولى كما ذكر من أمر السماء والأرض وتغيير أحوالهما فإنه يراد به أهلهما وهما مقرران كما هما والله أعلم.

ذكر يوم القيامة يقال أن طول ذلك اليوم ألف سنة من مقادير أيام الدنيا بقول الله تعالى " وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون فيصف ذلك اليوم من حكم الدنيا وهو من النفخة الأولى إلى أن يقضي الله بين خلقه فيدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم بعد ذلك من حكم الآخرة وكذا سمعت بعض أهل العلم بقوله وزعمت فرقة أن

قوله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة أنه يوم القيامة وأكثرهم على أنه من التمثيل من الشدة والمكروه الذي يصيب بعض الناس حتى يعده خمسين ألف سنة وقيل ذلك اليوم خمسون موقفاً يسأل العبد فيها فإذا جمعهم الموقف ردت الشمس إليهم وضوعف حرها وأذيبت من وفوق رؤوسهم حتى يلجمهم القرق ثم ينزل العرش بجملة الملائكة ثم تعلق الميزان ويؤتى بالجنة والنار وينصب الصراط ويأتي الله كيف شاء بقول الله عز وجل " ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً " ويقول " هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة " وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور قال المسلمون ثم يبقى أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار خالدين مخلدين ودائمين أبد الآبدين ولا يدري هل يحدث الله خلقاً جديداً أو عالماً آخر وأرضاً وسماء ويبعث إليهم الرسل ويكلف بما كلف من كان قبلهم أم لا وقد روى عن بعضهم أنه كان يرى فناء أهل النار بعد ما مضى أحقاب ومن أهل الكتاب قوم يزعمون أنه إذا مضى للجنة والنار ألف سنة بادتا وفنيتا وصار أهل الجنة ملائكة وأهل النار رميماً وحدثني رجل من علماء اليهود أن فيهم فرقة يزعمون أن العوالم لا يدري كم مضى منها وكم بقي وأن مدة كل عالم ستة ألف سنة ثم يحشر الخلائق ويحاسبون وذلك يوم السابع قال يوم السبت فيدخلون الجنة والنار ثم يصير أهل الجنة ملائكة وأهل النار رميماً ويعاد خلق آخر وأمر آخر لا يزال كذلك وكل سبت عندهم قيامة كذا ومن القدماء من يزعم أن خلق الخلق بفضل وجود وامتنان ولا يجوز على الجواد المفضل أن يظهر جوده في كل وقت ولكنه إذا أفنى هذا العالم ابتدع عالماً آخر وكم من عالم قد ابتدعه وأفناه ومنهم من يقول بنقل الخلق إلى الآخرة فكل يوم قيام قيامة وابتداء عالم وسمعت منهم من يحتج بالخبر المروي عن المغيرة بن شعبة من مات فقد قامت قيامته.

ذكر ما حكى عن القدماء في خراب العالم حكى جابر بن حيان أنه إذا انتهى مسير الكواكب إلى غاية وتفرقت في أبراجها وتشوشت حركات الفلك واضطربت كما كانت قبل اجتماع الكواكب في أول دقيقة من الحمل اختلقت أحوال العالم وتفاوتت أرباع وفصولها فلا يستقر شتاء ولا صيف وهب الرياح العواصف وهلك والنبات لمجيء الأمطار في غير وقتها وشدة الزلازل وكثرة الرياح وتعادي الأركان فيغلب الماء على اليبس واليبس على الماء والنار على النبات والحيوان ويفسد مزاج التركيبات ويقفر الأرض ويخلو إلى أن تجتمع الكواكب في حيث منه تفرقت وعند بدء الخلق والنشوء ثانياً وحكى أفلاطن في كتاب سوفسطيقا في ذكر النفوس وأحوالها بعد مفارقة الأبدان قال وإن النفس الشريرة إذا تفردت عن البدن بقيت تائهة متحيرة في الأرض إلى وقت النشأة الآخرة قال وفي هذا الوقت تسقط الكواكب من أفلاكها ويتصل بعضها ببعض فيصير حول الأرض كدائرة من نار فتمنع تلك النفوس من الترقي إلى محلها وتصير الأرض سجناً لها قال المفسر عن شرح افلاطن بالقيامة والبعث والنشأة الآخرة وكذا رأى ارسطاطاليس في بقاء ما فوق فكل القمر وأنه لا يقبل الاستحالة وأنه أراد به إلى ذلك الوقت ولا تلتفت إلى تأويل كفار المتفلسفة لأرائهم مع شهادة الدلائل على ما قلنا ومعاونة كتب الله وأخبار رسله في ذلك واعلم رحمك الله أن كل ذي عقل محجوج بعقله مضطر إلى الإقرار بالابتداء للخلق وابتداع وتجويز فنائه وانقضائه هذا ما لابد منه فأما معرفة ذلك كيف أبغلبة إحدى الطبائع أو بشمول فاسد أو وقوع قحط وموتان أو قتل أو مات كان على نحو ما حكاه أهل الإسلام وأهل الكتاب أو من دونهم فشيء سبيله الخبر والسمع يقع فيه الاختلاف والتفاوت ولا يبطل وقوع الاختلاف فيه ما توجيه العقول وأما الأخبار التي روينا فهي شعار الدين وحض الديانة وصريح الحق ومن لم يعتقدها على وجهها ظاهراً أو باطناً ولم يعتصم بها ولا رأي اليدين بحقيقتها والنجاة فيها وإن كان أكمل الناس عقلاً وأيقنهم فهماً وأصوبهم رأيا وأصلبهم عوداً وأكرمهم حسباً وأسناهم بيتاً وأقدمهم شرفاً وأغيرهم غيرةً وأحماهم حمية وأحمدهم سيرة وأعظمهم حياء وأرقهم فؤاداً وأسخاهم نفساً وأطلبهم للخير وأعمهم نفعاً وأموالهم

حقداً وأجملهم للضيم وأقنعهم بالكفاية وأكفهم أذى وأبدلهم ندى وأهداهم للفضائل وأقدرهم عليها وأبسطهم يداً وأجمعهم لكل خصلة حميدة ومأثرة كريمة مع شدة رغبة في اقتناء الخير وإبقاء الذكر الجميل وادخار الثناء الحسن فهو إلى النقص والسفه وضعف العقيدة ومخالفة الظاهر للباطن واتباع الهوى وإثار الرياء والإلمام بالفواحش والاستخفاف بمعتقدي خلافهم واستجمالهم ونكس ما عددنا من الفضائل إلى الرذائل وقلبها إلى الأضداد أقرب وأدنى وبها أحق وأولى لأن المراد لم يكن له باعث من نفسه وحاقر من ذنبه فهو إلى ما يصطنعه وينتزع به غير نشط ولا صادق الرغبة ولا متسارع ولا متشح منافس ومن كان كذلك لم يكن لعلمه رونق ولا لمذهبة بهاء ولا عند ذوي الصنائع وتزكية وناهيك من دين معتقد الديانة وإن قلت أفعاله وقصرت يداه من حسن هيأته وخمود شرته وسكون أطرافه وجميل تواضعه وحسن بشره وشدة سطوته على من خالف دينه أو يتأول بنيته وبذله ماله ومهمة دونه فاحذروا عباد الله أنفسكم وأهواءكم وأصنافاً من أشباهكم أنا واصفها لكم في نحل المسلمين إن شاء الله وألزموا الدين الذي أحل الله خلقه ودعاهم إلى التمسك به وأخذ عليهم المواثيق والعهود في المحافظة عليه وأنزل به الكتب وأرسل الرسل ووعد من أجاب إليه وأوعد من حاد عنه فقد وضحت دلائل برهانه وصحت آثار حكمته وإياكم والاغترار بالجهل والمجان والخلعاء ومستنقلي الأمانة لغلبة حظ البهيمية والسبعية عليهم حتى صار أقصى همة أحدهم امتلاء بطن واكتساء ظهر ومنال شهوة وإنفاذ غيظ والنكابة في عدو فموهوا أباطيل مزخرفة وأساطير مزورة ظاهرها التشكيك والتلبيس وباطنها الكفر والإلحاد يقتنصون بها الأغمار والأحداث ويحيرون العوام الذين ليس عندهم فضل معرفة ولا كثير تميز ومهما اشتبه عليكم من أمرهم شيء فلا تغفلوا عن فعل الله بهم مذ قامت الدنيا على ساقها لم يطمح منه طامح في جاهلية ولا في الإسلام إلا وهضه الله بقارعة ولا أقاموا راية إلا وهلها الله بالنكس والخمول ولا نجم ناجم إلا سلط الله عليه

أضعف خلقه ولا كاد للدين كيداً إلا رده الله في نحره ينجز وعده منه تعالى ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فأصل ديانة كل ذي دين من أهل الأرض أن الله خالقه ومفنيه ومحييه ومميته وهو يأمره بالعدل والإحسان وينهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي ويبعثه بعد موته فيجاوبه الثواب على إحسانه والعقاب على سيئاته لا يختلف فيه مختلف إلا المعطلة الدهرية وهم شرذمة قليلة وأما أهل الكتب فلزمهم أن يعتقدوا ما ذكرنا أن الله سابق خلقه خلق كل شيء دونه وأنه واحد لا شريك له ولا شيء قديم معه أرسل الرسل وأنزل الكتب بالبشارة والإنذار وأنه يفنى الخلق ويبيده ثم يعيده كما أبداه إذا شاء فمن كان هذا عقيدته رجى له أن يكون من الفائزين الأمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.عف خلقه ولا كاد للدين كيداً إلا رده الله في نحره ينجز وعده منه تعالى ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فأصل ديانة كل ذي دين من أهل الأرض أن الله خالقه ومفنيه ومحييه ومميته وهو يأمره بالعدل والإحسان وينهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي ويبعثه بعد موته فيجاوبه الثواب على إحسانه والعقاب على سيئاته لا يختلف فيه مختلف إلا المعطلة الدهرية وهم شرذمة قليلة وأما أهل الكتب فلزمهم أن يعتقدوا ما ذكرنا أن الله سابق خلقه خلق كل شيء دونه وأنه واحد لا شريك له ولا شيء قديم معه أرسل الرسل وأنزل الكتب بالبشارة والإنذار وأنه يفنى الخلق ويبيده ثم يعيده كما أبداه إذا شاء فمن كان هذا عقيدته رجى له أن يكون من الفائزين الأمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

الفصل العاشر

في ذكر الأنبياء ومدة أعمارهم

وقصص أممهم وأخبارهم على نهاية الإيجاز والاختصار

في أخبار المسلمين أنه كان مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي والجم الغفير منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر نبيا مرسلا ويقال خمسة عشر وقال وهب منهم خمسة عبرانيون آدم وشيث وادريس ونوح وابراهيم وخمسة من العرب هود وصالح واسمعيل وشعيب ومحمد صلعم قال وكان أنبياء بني إسرائيل ألف نبي وأولهم موسى وأخرهم عيسى قال وقد قال رسول الله صلعم يوم بدر لأصحابه انتم على عدة أصحاب طالوت وعلى عدة الرسل فمن الأنبياء من يسمع الصوت ومنهم من يوحى إليه في المنام منهم من يكلم وفي الحديث أن جبريل ليأتيني كما يأتي الرجل صاحبه في ثياب بيض مكفوف باللؤلؤ واليواقيت رأسه كالحبك وشعره كالمرجان ولونه كالثلج وجناحاه أخضران ورجلاه مغموستان في الخضرة وكيت وكيت.

ذكر عدد ما نزل من الكتب قال وهب والكتب الذي أنزلت من السماء على جميع الأنبياء مائة كتاب وأربعة كتب منها على شيث بن آدم كتاب في خمسين صحيفة وعلى ادريس كتاب في ثلاثين صحيفة وعلى موسى التورية وعلى داود الزبور على عيسى الإنجيل وعلى محمد صلعم القرآن وروينا عن غير وهب أن الله تعالى أنزل على آدم إحدى وعشرين صحيفة فيها تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقيل لم يكن فيها غير الحروف المقطعة وهي كل حرف يلفظ بها اللافظ من العربية والعجمية فيها ألف لغة من أمهات اللغات حد الله تعالى عليها الألسنة كلها والتورية تجمع كتبا كثيرة للأنبياء وهي خمسة أسفار وأربعة وعشرون وقد روى ثمانية عشر كتيفى يعنون كتب الأنبياء وقد قص الله تعالى في القرآن ما أوحى إلى نوح وهود ولوط وغيرهم من الأنبياء عم فلا أدري إنهم لم يؤمروا بنسخها والتحفظ لها أو كانت مثبتة عندهم فنسخت بكتاب بعدها أو كان الوحي والصوت لا يعد كتابا أو كان علمهم وأحكامهم على موجب العقل أو كانوا يتبعون صحيفة آدم وسنته لأن هذا كله محتمل بقول الله تعالى كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه فعموم هذه الآية يوجب أن يكون لكل نبي كتاب يعمل به وراثة عن من قبله وتخصيصا به وحده وقد كانت الأنبياء من بني اسرائيل بعد موسى يعلمون بالتورية ويحكمون بها إلى أن أنزل الفرقان ومع ذلك يوحى إليهم وينزل الكتب عليهم، ذكر عدد الأنبياء جملة

قال الله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك فممن سماه لنا القرآن قوله بعد ذكر ابراهيم عم ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وذكرياء ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين واسمعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين وسمى لنا آدم ومحمدا وهودا وصالحا وشعيبا وذا الكفل وعزيرا ومن لم يسمه لنا منهم قوله تعالى ألم تر أن الملاء من بني اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم أبعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال أهل التفسير اسمه اسماويل بن هلقانا وقالوا في قوله تعالى ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم أن نبيهم حزقيل بن بوزى وقال قوم في قوله تعالى أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها أنه ارميا وقيل بل هو عزير وقال في أسماء الأسباط وهم اثنا عشر رجلا روبيل وشمعون ولاوى ويهودا

ويستاخر وذان ونفتالى وجاد واسترقفا وزبالون ويوسف وابن يامن كلهم أنبياء وزعم بعضهم في قوله تعالى إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث انهم كانوا أنبياء بعد عيسى عم ومنهم من يزعم أنهم كانوا رسل عيسى وهم يحيى وتومان وشمعون وذكر أهل الأخبار أن شيث بن آدم كان نبيا وموسى بن ميشي بن يوسف كان نبيا قبل موسى بن عمران وذو القرنين كان نبيا وبلعم بن باعوراء كان نبيا ثم ذهبت نبوته ويوشع بن نون وكالب بن يوفنا وبوشامامن بن كالب وشعيا بن آموص وجرجيس كانوا أنبياء وأما أهل الكتاب فيزعمون أن دانيال وعلياء ومشياييل وعيلوق وحبقوق أنبياء في التورية سفر لأثني عشر نبيا كانوا في زمن واحد عد أسماءهم إلى رجل من اليهود هويسع ويوايل وعاموس وعوديا وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وهكاي وزخريا وملاخي وفي كتب بعض الحواريين أنه كان بعد المسيح بانطاكية أنبياء منهم برنبا ولوقيوس وماثانيل واغابوس ويزعمون أن عدة من النساء تنبت منهن مريم المجدلانية وحنا بنت فانوئل وابيغايل وغيرهن ممن ذكرنا أسماءهن وذكروا نبيا يقال له شمسون وفي كتاب أبو حذيفة أن ادرياسين كان نبي المجوس وروى عن علي بن أبي طالب رضه ذكر أصحاب الكهف فقال كان المجوس أهل كتاب ولهم نبي وساق القصة إلى آخرها وقد قال بعض المحدثين أن الخضر كان نبيا وزعم وهب الله بعث ثلاثة وعشرين نبيا إلى سبا فكذبوهم وروى في الأخبار أنه كان نبي باليمن يقال له حنظلة بن افيون الصادق وكان في الفترة نبي يقال له خالد بن سنان العبسي وروى جبير أنه كان قبل خلق آدم نبي بعثه الله إلى أرض اليمن ومنهم بنو الجان اسمه يوسف فهولاء ثمانون نبيا على ما حكى وروى عن أهل الكتاب وغيرهم والله أعلم وقد روينا عن الحسن أنه قال كان العجائب في بني إسرائيل وكانوا يقتلون مائة نبي في غداة واحدة ثم يقوم يسوق أهلهم ولا يكترثون وأولو العزم من رسل الخمسة نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه الصلاة والسلم كانوا أهل أمم وكتب بقول الله عز وجل وإذا أخذنا إلى النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا، ذكر أراء المجوس وسائر الملل في الرسل

أعلم أنهم يقرون بنبوة جم شاذ ونبوة كيومرث ونبوة افريذون ونبوة زردشت وكتابه الابسطا ومنهم طائفة يقرون بنبوة به افريذ معناه خير ما خلق وفي كتابهم أنه كان بعد زردشت ثلاثة من الأنبياء فآمنوا بهم وأتبعوهم وأما الحرانية فإنهم يقولون لن تحصى أسماء الرسل الذين دعوا إلى الله وان مشهورهم أراني واغثا وذيمون وهرمس وسولن جد أفلاطن لأمه ومن القدماء من يقول بنبوة افلاطن وسقراط وارسطاطاليس وهولاء يقولون النبوة علم وعمل وأما الهند فمن أثبت منهم الرسالة فإنهم يزعمون أن الرسل ملائكة فمنهم بهابود وتبعه البهابودية وشب وأمته الكابلية ورامان وأمته الرامانية وراون وأمته الراونية وناشد وأمته الناشدية وهولاء فرق البراهمة الذين يثبتون الرسالة ومنهم مهادر وأمته المهادرية مع فرق أهواء كثيرة يمر بك في موضعها وأما الثنوية فإنهم يقولون بنبوة ابن ديصان وابن شاكر وابن أبي العوجاء وبابك الخزمى وعندهم أن الأرض لا تخلو من نبي قط ومن المسلمين من يقول أن في الجن أنبياء كما في الإنس ويحتج بقوله تعالى يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسا منكم يقصون عليكم آياتي وزعم ابن حائط أن في كل خلق من الخلائق أنبياء حتى في الحمر والطير والبراغيث واحتج بقوله وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم وبقوله عز وجل وإن من أمة إلا خلا فيها نذير وكان يقول بالتناسخ وجملة القول في الأنبياء والنبوة أنها كلها من مشكاة واحدة لا يجوز عليها أن يختلف في أصل الديانة والتوحيد ولا فيما يأتي به الأخبار وإن اختلفت فروعه وانتسخت شرائع بعضهم ببعض بقول الله تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه وقال تعالى واسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون فما روى قوم من شيء يخالف أصل

الديانة والتوحيد مثل كفر النعم والإشراك بالله واستحلال الظلم والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ولا دعوة من قبل نبي أو رسول فهم كاذبون في دعواهم أو نبيهم كاذب متنبئ لأن هذا خلاف التوحيد ومجيزو العقل وما رووا من شريعة يجوز أن يتعبد الله بها وبضدها فلم نجدها في كتابنا ولا فيما في أيدي أهل الكتاب أمررناها على وجهها لأنه ممكن أن يكون ذلك شريعة نبي إذ لم يبين لنا شرائع جميع الأنبياء وأخبارهم ولا وقفنا على جميع أسماءهم والله أعلم، قصة آدم عم، قد مضت أخباره عم عند ذكر خلقه يقال له آدم بن التراب وكنيته أبو البشر وأبو محمد وجاء في الحديث أنه كان نبيا مرسلا وكلمه الله قبلا وأسجد له الملائكة وأسكنه الجنة وخلقه بيده ثم هبط إلى الأرض فتناسل وأعقب فلما كثروا وأولدوا وعمروا الأرض نبأ الله إلى ولده بعد مضي خمس مائة سنة من عمره وكان يكلمه من السماء بلا واسطة وينزل عليه مع ذلك الوحي وأنزل عليه احدى وعشرين صحيفة فيها تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وهو أول من علمه الله الخط بالقلم ثم لم يكتب من ولده أحد إلى زمن إدريس عم وفرضت الصلاة عليه خمسين ركعة وفي بعض الروايات أنه لم يكن له شريعة غير التوحيد والله أعلم وكان من معجزاته نظره إلى جسده وهو تجري فيه الروح وخلق زوجته من ضلعه وسجود الملائكة له وسكونه الجنة وكلام الله له قبلا وزعم وهب أن آدم كان أجمل خلق الله وأنه كان أمرد وإنما نبتت اللحية لولده وأنه عاش ألف سنة وفي التورية كان عمر آدم عم ألف سنة إلا سبعين سنة والله أعلم، قصة شيث بن آدم، زعم أهل الكتاب أن ترجمة شيث العوض والهبة وذلك أنه لما قتل قابيل هابيل عوض الله آدم من هابيل شيث وانقرض نسل قابيل وجملة أسباب سائر ولد آدم إلا شيث وكان وصى آدم وولي عهده وخليفته من بعده

قصة ادريس النبي عم، يزعم أهل هذا العلم أنه أخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث بن آدم وأمه بركيا بنت الدرمسيلا بم محويل بن أخنوخ بن قين بن آدم وإنما سمي إدريس لكثرة درسه وهو أول نبي أعطي الرسالة بعد آدم وكان مستخلفا خلاف نبوة لا خلافة رسالة وإدريس أول من خط بالقلم بعد آدم وأول من خاط الثياب ولبسها وكان من قبله يلبسون الجلود وكان ولد آدم حي ونبأه الله بعد وفاة آدم وأنزل عليه النجوم والطب واسمه عند اليونانيين هرمس وكان يصعد له من العمل في كل يوم مثل عمل بني آدم كلهم فشكر الله ذلك له فرفعه مكانا علياً واختلف الناس كيف رفع، في كتاب أبي حذيفة أن الملائكة كانوا يصافحون بني آدم في زمن ادريس ويزورونهم في رحالهم ومجالسهم لطيب الزمان وصلاح أهله فاستأذن ملك الشمس في زيارته فأذن له فسأله ادريس أن يرفعه إلى السماء ليعبد الله فيها مع الملائكة فرفعه الله فهو في السماء الرابعة وروى عن عبد الله بن العباس أنه سأل ملك الشمس أن يعلمه الاسم الذي يصعد به إلى السماء فعلمه فرقى به إلى السماء الرابعة وبعث الله ملك الموت فقبضه هناك وروى أنه رفع إلى السماء الدنيا كما رفع عيسى وروى عن زيد بن أرقم خلاف هذا كله أنه رفع الى الجنة وفي حديث أنه أذيق الموت وأورد النار فإن صحت الرواية فبها ونعمت لأن هذا الخبر نظائر دخول آدم وزوجته الجنة ورفع عيسى فإن استعظم رفع أجسام إلى السماء فأعظم منه هذا الغيم الراكد في الجو وهذه الأرض في ثقلها وكثافتها واقفة في السماء كما ترى ولن يعتل بهذا شيء إلا أمكن صرفه إلى ذلك مع أن كثيرا من نظار المسلمين يرون الرفع للأرواح دون الأشباح أو يكون رفع القدر وتعظيم المنزلة كما قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وقال تعالى في الشهداء عند ربهم يرزقون وأجسامهم في الأرض جيف وروى أن النبي صلعم رأى ابراهيم وموسى وعيسى ونوحا وآدم ليلة المعراج وهي ليلة عرج بها إلى السماء لم يختلفوا أنهم لم يرفع أجسامهم فهذا هو الحق وذلك ممكن والله أعلم ويدل على أن هوشنك الملك كان قبل ادريس أو في زمنه أن الفرس زعمت أنه أول من أمر بقتل السباع الضارية وأن يتخذ من جلودها ملابس ومفارش ويدل

أيضا أن طهمورث الملك كان في زمنه وعهده ان كان عاش بعده كيومرث الذي هو بمنزلة آدم عند أكثرهم ويزعمون أنه أول من كتب الكتاب وفطر الناس إليه كما يقول أهل الإسلام أن ادريس أول من خط بالقلم وفي زمانه قصة هاروت وماروت

قصة هاروت وماروت، اختلفوا المسلمون فيه اختلافا كثيرا فروى بعض أهل الأخبار أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فلما خلق آدم وتعاطت ذريته الفساد قالت الملائكة يا رب أهولاء الذين استخلفتهم في الأرض فأمرهم الله أن يختاروا من أفاضلهم ثلاثة ينزلهم إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق ففعلوا قالوا وجاءتهم امرأة فافتتنوا بها حتى شربوا الخمر وقتلوا النفس وسجدوا لغير الله سبحانه وعلموا المرأة الاسم الذي كانوا يصعدون به إلى السماء فصعدت حتى إذا كانت في السماء مسخت كوكبا وهي هذه الزهرة وقالوا خير الملكان من عذاب الدنيا والآخرة فاختاروا عذاب الدنيا فهما معلقان بشعورهما في بئر بأرض بابل يأتيهم السحرة فيتعلموا منهما السحر وأهل النظر لا يثبتون كثيرا من هذه القصة مها أمر الزهرة لأنها من الكواكب الخنس التي جعلها الله قطبا وقواماً للعالم ومنها ركوب الملائكة مثل هذه الفواحش مع وصفهم الله به من طول العبادة وابتغاء الزلفة ثم هم ليسوا بذوي أجسام شهوانية مجوفة فيجوز عليهم مثل هذا وقد قال قوم أنهم أعطوا الشهوة وجعل لهم مذاكير ومنها تعليمهم الناس السحر وهم في العذاب الأولي بمن تلك حالته طلب التوبة والمخلص ولا توبة للمذنب ما لم يقلع فإن كان هاروت وماروت ملكين كما يزعمون فإنهما أنزلا ليبينا للناس وجوه السحر ويحذراهم ويبل عاقبته لا غير وكان الحسن يقرأ وما أنزل على الملكين بكسر اللام ويقال علجان ببابل وأما الزهرة فإن كان من أمرها شيء فإنها أفتن بها أناس يعبدونها كما افتتنوا بالشمس والقمر وكوكب الشعري وقد روينا عن الربيع بن أنس أنه قال في هذه القصة كانت امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة مع أنه ليس في كتاب الله شيء من هذا وبمثل هذه الأخبار ينظرون الملحدون إلى فساد القلوب والله المستعان وقد استقصينا هذه القصة في كتاب المعاني والله ولي الإعانة وولي التسديد والتوفيق

قصة نوح النبي، يقال هو آدم الأخير واسمه سكن لأن الناس سكنوا إليه بعد آدم وانما سمي نوحا لكثرة نوحه على نفسه وقومه وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وأمه قينوش بنت براكيل بن محويل بن قين بن آدم قال وهب وكان رجلا نجارا دقيق الوجه طويل اللحية غليظ القصوص في رأسه طول قال جوبير أنه كان ولد في حياة آدم وذلك أن آدم لما كبر سنه ودق عظمه قال يا رب إلى متى أكد وأشقى قال يا آدم حتى يولد لك ولد مختون فيولد نوح بعد عشرة أبطن وادم حينئذ ابن ألف سنه إلا خمسين عاما ثم مات آدم وكثرت الجابرة وضيعوا وصاة الأنبياء ونصبوا صور المتوفين من آبائهم وأخوتهم يسجدون لها ويعبدونها بعد ما كانوا يتسلون بالنظر إليها ويتعزون بلقائها فنبأ الله تعالى نوحا وأرسله إليهم يأمرهم بعبادة الله وحده والكف عن المظالم فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فما آمن معه إلا قليل يقال ثمانون إنسانا أربعون رجلا وأربعون امرأة وروينا عن الأعمش أنه قال كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين وثلاث كنائن وأما ابن اسحق فإنه روى أنه كان نوح وحام وسام ويافث وأزواجهم وستة أناس فأمر الله بعدما دعا على قومه باتخاذ السفينة فبناها وسواها وحمل فيها من كل زوجين اثنين إلا امرأته وابنها ويقال بل كان ابنه واسمه يام ويقال كنعان وأمره أن يركب السفينة إذا فار التنور بناحية الكوفة ويقال بأرض الهند وكان ذلك علما للغرق ففعل كما أمره الله عز وجل واغرق الله الظالمين قال الضحاك إن من غرق من الولدان مع أبائهم بذنبهم وليس كذلك وإنما هو بمنزلة الطير من البهائم وسائر ما غرق بغير ذنب ولكن بآجالهم وقال قوم قبض الله

أرواح الحيوان والأطفال قبل الغرق وأغرق الله الكافرين عقوبة لهم وقال آخرون أعقم أرحام نسائهم فلم يحمل منهن واحدة خمس عشر سنة حتى لم يأت الغرق إلا على مستحق العذاب وقد أستعظم أمر الطوفان وما ذكر من طول مدة عمر نوح وسائر مدة عمر المعمرين وطول ما يروون من قامة آدم وقاما ت عاد وغيرهم مما جاءت به الأخبار حتى أنكره قوم رأسا وصرفه قوم إلى تأويل منحول الموحد المصدق بابتدا ع هذه الأجسام لا من شيء واضع ما يرد عليه من مثل هذا إذا كان من مخبر صادق على حد الإمكان والجواز ويزداد قوة بما يجد له من نظير أو تمثيل مع أن كتاب الله أصدق شاهد وأطباق الأمم أوثق عصمة وليس يمتنع وقوع الطوفان في العقل ولا مكث الناس في السفينة ولا هلاك قرن وابتداء نشوء ولا بعجيب امتداد الحيوة ببعض الناس وإن كان خارجا عن العادة والطبع المعهود وقد قالت المنجمة أن الطوفان الذي وقع أيام نوح كان في القران الأعظم وكانت الكواكب مجتمعة في دقيقة من الحوت والعدد متناسبة من السنة الألفي والقراني فأقروا بالطوفان وإن لم يذكروا السبب الموجب له من قبل العباد وحكي عن ارسطاطاليس وافلاطن أن الطوفان قد وقع دفعات كثيرة فمنها ما دام يوما أو يومين أو أكثر وزعمت طائفة منهم أن الطوفان لم يعم الأرض كلها ولعمري ليس ذلك من كتابنا وإنما يروى أنه عم الأرض كذا صباحا وحكم العاقل أن لا يعد هذا مثل نص الكتاب ومعروف الخبر في مخاطبة المخالف له وما حاجته إلى تمحل الحجج لرواية كفاه الله ومؤونتها وأزال عنه شغلها فإن كان الطوفان عم الأرض وغمرها والتقى ماء الأرض وماء السماء كما روى فممكن وغير بديع من قدرة الله عز وجل وأن علا بقعة من البقا ع وأباد قوما من الأقوام وكذلك والله أعلم آمنا بما صح منها وصدقنا بقول الله عز وجل فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفاد ع وأجمعوا أنه لم يعم الأرض كلها فإن قال قائل كيف يجوز في العقل هلاك قوم على ذنب يسير كما أجاز العقل بل أوجب هلاك كل مفسد وفاسد وقد روينا عن ابن عباس رضه أنه قال ما أهلك الله قوما على شرك ما لم يتظالموا بقول الله تعالى وما كان الله مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون وإذا جاز أن ينالهم من تأثير الكواكب فيهم ما يغرقهم على مذهب قوم هلا جاز أن يحملهم بتأثيرها فيهم على عمل يستحقون به الغرق والعقوبة وأما مدة عمر نوح فمختلف فيها بقول الله تعالى فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ومعلوم أنه عاش بعد الطوفان مدة فزعم وهب أن نوحا بعث وهو ابن خمسين سنة وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة وروى ابن اسحق عن أهل التورية أنهم يزعمون أن نوحا بعث وهو ابن أربع مائة سنة

وستين سنة وعاش بعد الغرق سبعين سنة وكثير من القائلين بالطبا ع أجازوا أن يكون في الأيام السلفة والزمان الماضي أعمار الناس وأشخاصهم أطول وأعظم مما في زماننا هذا وزعموا له ما دام الحكم الأغلب لزحل كانت الأعمار أطول والقامات أتم ثم لما صار إلى المشتري انتقص ذلك لأنه دونه وكذلك لم يزل يتراجع درجة درجةً إلى زماننا هذا وهم يجيزون انتقاص أعمار الناس عما هي عليه اليوم إذ صار الحكم على قولهم للقمر ثم حار الحور يراجع فصح إلى أقصى غاية النقص والقصر وهذا إن كان هكذا فالله فاعله بهذه الأسباب التي جعلها الله مؤثرة فيه وإذ جاز أن يسكن إلى مثل هذا ساكن كان السكون إلى ما وردت به كتب الله عز وجل ورسله وشاهدت القرون و الأمم أجوز ثم مع ذلك غير ممتنع أن يختص نوع من أنوا ع الجنس بشيء تباين فيه طبع جنسه ويعمى الناس عن معرفة علته كالخواص المعدودة والمعهودة التي خفيت علتها ولم يوقف على أسرارها أو ليس قد قالت كثير من فلاسفتهم في فشاراتهم بأن الفلك حي ناطق لحم ودم فكيف أجاز عليه البقاء ولم يجزه على ما هو في حكمه أو ليس الأركان أشياء متضادة ثم ما هي باقية على اختلافها وتعاديها وهل الإنسان غير الأخلاط الأربعة وقد أجمع هولاء أنه غير جائز في موجب الطبع زيادة عمر ساعة واحدة على مائة وعشرين سنة لعلل ذكروها فشاهدنا وشاهد من

قلنا يقضى عليهم بخلاف قولهم فإذا جاز وجود الزيادة القليلة فيما يوجبه الطبع لم لا جاز وجود الزيادة الكبيرة مع أن المسلمين يستغنون عن مثل هذه الحجج بإخبار الله وإخبار رسوله ومعرفتهم بقصور علمهم عن أسرار حكم الله في خلقه ونفاذ قدرته فيهم وكما قلنا في الأعمار فكذلك في الأجسام والقامات والأمم وما يرى من فضل ذي طول على ذي قصر يجوز لنا الحكم بأطول من كل طويل يتوهمه حتى يبلغ به المقدار الذي ورد به الخبر في آدم والصحيح أنه كالنخلة السحوق وكم من نخلة دون قامة الرجل فإذا زادت عليها فهي سحوق والذي روى ستون ذراعا فممكن أنه تفسير الراوي والله أعلم ومما يدل على جواز هذا تفاضل هذا النوع في الأشخاص والصور كحوت وحوت كم بينها في المقدار وهو نوع من الجنس وقد زعم زاعم أن سفينة نوح مثل لدينه ولبثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما مثل لبقاء شريعته واحتج بما روى أن النبي صلى الله عليه قال مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها هلك فلزمه أن يتأول جميع ما في القرآن من قصة نوح وخبره على خلاف ظاهره مثل قوله تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر وقوله تعالى يا بني اركب معنا ولاتكن من الكافرين قال سآوي إلى جبل إلى قوله وحال بينهما الموج فكان من المغرقين وما أشبه ذلك وإذا جاز لنا أن نتأول السفينة دينا جاز لنا أن نتأول القصر والحبل والسلاح والكراع والمال والطعام دينا لأن في هذه نجاة ظاهرة كما في السفينة مع أن هذه الطبقة قل ما يؤمنون بالكتاب ولكنه من دساتين الزنادقة يتلعبون بالدين ويتقلبون في التلبيس ولقد سمعت بعض الناس يقول معناه لو لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما لأخذهم الطوفان و لابد أن الطوفان كان آخذا لهم لأنهم كانوا لا يؤمنون وشبهه بقوله يود أحدهم لو يعمر ألف سنة و ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر قالوا واستثناه الخمسين من الألف لأنه بعث على رأس خمسين من عمره ولا يعلم في لغة العرب إضمار حروف الشرط وظهار فعله وجاء في الخبر أن نوحا عم لم يدع بقوله لا تذر على الأرض من الكافرين ديار الآية إلا بعد وحي الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن وتدل تواريخ الفرس أن الملك في زمن نوح كان جم شاذ أخو طهمورث أو طمهورث نفسه لموافقة بعض أخباره والله أعلم وزعم وهب أن نوحا خرج من السفينة يوم عاشوراء وبنى قرية بقردا وسماها ثمانين وقد احتج أصحاب هذا العلم بأشعار المتقدمين في هذه القصص فمنها قول أمية بن أبي الصلتتين سنة وعاش بعد الغرق سبعين سنة وكثير من القائلين بالطباع أجازوا أن يكون في الأيام السلفة والزمان الماضي أعمار الناس وأشخاصهم أطول وأعظم مما في زماننا هذا وزعموا له ما دام الحكم الأغلب لزحل كانت الأعمار أطول والقامات أتم ثم لما صار إلى المشتري انتقص ذلك لأنه دونه وكذلك لم يزل يتراجع درجة درجةً إلى زماننا هذا وهم يجيزون انتقاص أعمار الناس عما هي عليه اليوم إذ صار الحكم على قولهم للقمر ثم حار الحور يراجع فصح إلى أقصى غاية النقص والقصر وهذا إن كان هكذا فالله فاعله بهذه الأسباب التي جعلها الله مؤثرة فيه وإذ جاز أن يسكن إلى مثل هذا ساكن كان السكون إلى ما وردت به كتب الله عز وجل ورسله وشاهدت القرون و الأمم أجوز ثم مع ذلك غير ممتنع أن يختص نوع من أنواع الجنس بشيء تباين فيه طبع جنسه ويعمى الناس عن معرفة علته كالخواص المعدودة والمعهودة التي خفيت علتها ولم يوقف على أسرارها أو ليس قد قالت كثير من فلاسفتهم في فشاراتهم بأن الفلك حي ناطق لحم ودم فكيف أجاز عليه البقاء ولم يجزه على ما هو في حكمه أو ليس الأركان أشياء متضادة ثم ما هي باقية على اختلافها وتعاديها وهل الإنسان غير الأخلاط الأربعة وقد أجمع هولاء أنه غير جائز في موجب الطبع زيادة عمر ساعة واحدة على مائة وعشرين سنة لعلل ذكروها فشاهدنا وشاهد من قلنا يقضى عليهم بخلاف قولهم فإذا جاز وجود الزيادة القليلة فيما يوجبه الطبع لم لا جاز وجود الزيادة الكبيرة مع أن المسلمين يستغنون عن مثل هذه

الحجج بإخبار الله وإخبار رسوله ومعرفتهم بقصور علمهم عن أسرار حكم الله في خلقه ونفاذ قدرته فيهم وكما قلنا في الأعمار فكذلك في الأجسام والقامات والأمم وما يرى من فضل ذي طول على ذي قصر يجوز لنا الحكم بأطول من كل طويل يتوهمه حتى يبلغ به المقدار الذي ورد به الخبر في آدم والصحيح أنه كالنخلة السحوق وكم من نخلة دون قامة الرجل فإذا زادت عليها فهي سحوق والذي روى ستون ذراعا فممكن أنه تفسير الراوي والله أعلم ومما يدل على جواز هذا تفاضل هذا النوع في الأشخاص والصور كحوت وحوت كم بينها في المقدار وهو نوع من الجنس وقد زعم زاعم أن سفينة نوح مثل لدينه ولبثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما مثل لبقاء شريعته واحتج بما روى أن النبي صلى الله عليه قال مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها هلك فلزمه أن يتأول جميع ما في القرآن من قصة نوح وخبره على خلاف ظاهره مثل قوله تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر وقوله تعالى يا بني اركب معنا ولاتكن من الكافرين قال سآوي إلى جبل إلى قوله وحال بينهما الموج فكان من المغرقين وما أشبه ذلك وإذا جاز لنا أن نتأول السفينة دينا جاز لنا أن نتأول القصر والحبل والسلاح والكراع والمال والطعام دينا لأن في هذه نجاة ظاهرة كما في السفينة مع أن هذه الطبقة قل ما يؤمنون بالكتاب ولكنه من دساتين الزنادقة يتلعبون بالدين ويتقلبون في التلبيس ولقد سمعت بعض الناس يقول معناه لو لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما لأخذهم الطوفان و لابد أن الطوفان كان آخذا لهم لأنهم كانوا لا يؤمنون وشبهه بقوله يود أحدهم لو يعمر ألف سنة و ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر قالوا واستثناه الخمسين من الألف لأنه بعث على رأس خمسين من عمره ولا يعلم في لغة العرب إضمار حروف الشرط وظهار فعله وجاء في الخبر أن نوحا عم لم يدع بقوله لا تذر على الأرض من الكافرين ديار الآية إلا بعد وحي الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن وتدل تواريخ الفرس أن الملك في زمن نوح كان جم شاذ أخو طهمورث أو طمهورث نفسه لموافقة بعض أخباره والله أعلم وزعم وهب أن نوحا خرج من السفينة يوم عاشوراء وبنى قرية بقردا وسماها ثمانين وقد احتج أصحاب هذا العلم بأشعار المتقدمين في هذه القصص فمنها قول أمية بن أبي الصلت

إلى أن يفوت المرء رحمة ربه ... وإن كان تحت الأرض سبعين واديا
كرحمة نوح يوم حل سفينة ... لشيعته كانوا جميعا ثمانيا
فلما استنار الله تنور أرضه ... ففار وكان الماء في الأرض ساحيا
فهذا يقول مذهب من زعم أنهم كانوا ثمانية أنفس وقوله أيضا
منح ذي الخير من سفينة نوح ... يوم بادت لبنان من أخراها
فار تنوره وجاش بماء ... طم فوق الجبال حتى علاها
قيل للعبد سر فسار وبالل ه على الهول سيرها وسراها
قيل فأهبط فقد تناهت بك الفل ك على رأس شاهق مرساها
وقوله أيضا
وأرسلت الحمامة بعد سبع ... تزل على المهالك لا تهاب
وتلمس هل ترى في الأرض عينا ... به تيبس أو اضطراب
فجاءت بعدما ركضت بقطف ... عليه الثلط والطين والكشاب
فلما فرشوا الآيات صاغوا ... لها طوقا كما عقد الخساب

إذا ماتت تورثها بنوها ... وإن قتلت فليس لها استلاب
فجازى الله بالأجل المرء نوحا ... جزاء البر ليس لها كذاب
بما حملت سفينته وأنجت ... غداة اتهام الموت القلاب
وفيها من أرومته عيال ... لذيه لا لظماء ولا السغاب
وإذا هم لا لبوس لهم عراة ... وإذ صخر السلام لهم رطاب
عيشه أرسل الطوفان تجرى ... وفاض الماء ليس له جراب
على أمواج أخضر ذي حبيك ... كأن سعار زاخرة الهضاب
بأنه قام ينطق كل شيء ... وخان أمانة الديك الغراب

قصة من كان بعده إلى زمن عاد، قرأت في ترجمة التورية أنه ولد لنوح سام وحام ويافت بعد خمس مائة سنة مضت من عمره وأما المتخلف عنه المخالف لأمره فهو يام والناس من ولده الثلاثة وسأل عمر بن الخطاب رضه كعب الأحبار لأي ابنى آدم كان النسل قال ليس لواحد منهما نسل فأما المقتول فقد درج وأما القاتل فهلك نسله في الطوفان والناس من بني نوح ونوح من بني شيث بن آدم فسكن حام الجنوب ومنه السودان وسكن يافث الشمال ومنه الشقران وسكن سام وسط الأرض ومنه العرب وفارس وذكر ابن اسحق فيما حكى عن أهل التورية أنه نكح يافث بن نوح اريسيمه بنت مرازيل بن الدرمسيل بن أخنوخ بن قين بن آدم وولدت له سبع رجال وامرأة جومر ومارح ووايل وحوار وتوبل وهوشل وترس وسبكه بنت يافث فمهم الترك والخزر والصقالبة وبرجان واشبان وياجوج وماجوج ستة وثلاثون لسانا ونكح حام بن نوح تحلب بنت يارب بن الدرمسيل بن محويل بن أخنوخ بن قين بن آدم فولدت له ثلثة نفر كوش وفوط وكنعان فولد كوش الحبشة والسند والهند وولد كنعان السودان ونوبة وفزان الزنج وذغل وزغاوة وبربر وولد فوط القبط وفيهم سبعة عشر لسانا ونكح سام بن نوح صليب بنت ثوايل بن محويل بن أخنوخ بن قين بن آدم فولدت خمسة نفر ارفخشذ وأشور ولاوذ وارم وعويلم وفيهم تسعة عشر لسانا فمن ولد لاوذ اجناس الفرس كلها وجرجان وطبرستان وطسم وجديس وعملاق وأميم وأما عملاق فأبو العمالقة تفرقت منهم الجبابرة والعتاة الذين كانوا بأرض الشام يقال لهم الكنعانيون ومنهم فراعنة مصر إلى فرعون يوسف وموسى عليهما السلام ومنهم ملوك فارس وخراسان وعظماء المشرق ومنهم أمة كانوا بعمان يسمون جاسم ومنهم بالحجاز بنو هف وبنو مطر وبنو الأزرق ومنهم بنجد بديل وراحل وغفار قالوا وكان نزل عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح أكناف الحرم ومصر والشام ونزل طسم وجديس جو اليمامة وما يليها ونزل ولد ارم بن سام بن نوح الاحقاف إلى عالج ويبرين والحجر بين الحجاز والشام وقال ابن اسحق ولد ارم بن سام بن نوح ثلاثة نفر عوص وغاثر وحويل فولد عوص عادا وعبيلا وولد غاثر ثمود وجاسم وطسم وجديس فأما عاد وثمود فقد ذكر في القرآن هلاكهما وأما جديس فكثرت وتربت ورئيسها رجل منهم يقال له الأسود بن غفار وكان ملكهم إذ ذاك رجل من طسم يقال له عمليق وكان يبدأ بالعروس قبل زوجها حتى تزوجت غفيرة بنت غفار وأراد عمليق أن يصيبها فاستصرخت أخاها الأسود بن غفار وخرجت حاسرة وهي تقول لا أحد أذل من جديس، أهكذا يفعل بالعروس، فأحفظ صراخها جديس

وأزعجهم فخرجوا مع الأسود بن غفار ففتكوا بطسم فقتلوهم كلهم وملكهم إلا رجلا واحدا أفلت بخديعة دقيقة حتى أتى ملك اليمن وهو ذو غسان بن تبع الحميري فاستنجده فوجه ذو غسان بن تبع جيشا إلى جديس يطلب بثأر طسم وكانت في جديس جارية زرقاء يقال لها اليمامة وبها سميت اليمامة وكانت كاهنة تبصر الراكب من

مسيرة يوم ويقال من مسيرة ثلاث فخاف الجيش أن تبصرهم اليمامة فتخبر القوم بهم فقطعوا الشجر وجعل كل رجل بين يديه شجرة يمشي خلفها يستتر بها عن اليمامة ونظرت اليمامة فرأت الشجر فنادت يآل جديس سارت إليكم الشجر أو أتتكم حمير قالوا وما ذاك قالت أرى رجلا في يده كتف يأكلها أو نعل يخصفها فكذبوها فصبحتهم الخيل فقتلتهم وأقصتهم وانقضى أمر جديس وطسم وفيه يقول الأعشى

قالت أرى رجلا في كفه كتف ... أو يخصف النعل لهفى أية صنعا

فكذبوها بما قالت فصبحهم ... ذوال غسان يجزي السمر والسلعا

فاستنزلوا أهل جو من مساكنهم ... وهدموا شخص البنيان فاتضعا

قالوا وسار وبار بن أميم فنزل بأرض وبار برمل عالج فهلكوا وأما ابن اسحق فإنه يزعم أن بني أميم بن لاوذ بن سام بن نوح نزلوا وبار فكثروا وربلوا وعصوا فأصابتهم من الله نقمة فهلكوا وبقيت منهم بقية يقال لهم النسناس للرجل منهم يد ورجل من شق واحد يقفزون نقز الظباء ووبار بلاد لايطأها أحد من الإنس لما فيها من حسن الجن وهي أكثر أرض الله نخلا وشجرا فيما يزعموا وحكي أن رجلا وقف في الجاهلية بعكاظ على بعير له مثل الشاة وهو يقول

ومن يعطني ستا وستين بكرة ... هجانا وأدما أهده لوبار

ثم ضرب بعيره فتلمع به تلمع البرق وفيه يقول الأعشى من بني قيس والله أعلم

ومر دهر على وبار ... فهلكت جهرة وبار

وحال على جديس يوم ... من الدهر مستطار

وأهل جو أتت عليهم ... فأفسدت عيشهم فبادوا

وقبلهم غالت المنايا ... طسما ولم ينجهم حذار

بادوا كما باد أولوهم ... عفا على إثرهم قدار

قالوا إن فارس والعرب والروم يمنيها ونزاريها من ولد سام بن نوح غير أن فارس لم تحفظ أنسابها إلا ما يذكر من ملوكهم على اختلاف وانقطاع وأما العرب فإنهم يسردونها إلى قحطان بن عابر فولد فوط جرهم وجديل فاقرضوا وأما جرهم فنزلوا مكة وصاهروا اسمعيل بن ابراهيم عم، قصة عاد الأولى وهم عشر قبائل، عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وكانوا قدماء قد أعطوا بسطة في الخلق وقوة في البسط والبطش ونزلوا بهذا الرمل من عمان إلى حضرموت وهي إذ ذاك أخصب بلاد الله وأمرعها فلما سخط الله عليهم جعلها مفاوز ورمالا وغياضا وذلك أنهم نصبوا الأوثان يعبدونها فمما يذكر من أسمائها صمود، صدا، دهنا، وأخذوا من عبادة الأوثان في ظلم الناس بفضل قوتهم فبعث الله عز وجل إليهم هودا عم هو من أوسطهم حسبا وأفضلهم موضعا وقال وهب كان هود رجلا تاجرا جميل المحيا أشبه خلق الله بآدم وهو هود بن عبد الله بن رباح بن حاور بن عاد بن عوص بن ارم فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته وحده لاشريك له وأن يكفوا عن ظلم الناس وقد يبين الله في القرآن تذكيره إياهم ومراجعتهم له بما فيه كفاية فلما أبطأوا عليه بالإيمان والإجابة وعتوا على الله أمسك عنهم القطر حتى أجهدهم الجذب فبعثوا وفدا إلى الحرم يستسقون فيه لقمن بن عاد ولقيم بن هزال وقيل ابن عثر ومرثد بن سعد وكان مسلما يكتم إيمانه وكان الناس إذ ذاك إذا نزل بهم بلاء أو جهد فزعوا إلى الدعاء في الحرم فسار الوفد حتى نزلوا على خالهم معاوية بن بكر وأقاموا عنده يشربون الخمر ويغنيهم الجرادتان وهما قينتان له ثم هيأ معوية بن بكر شعرا ودسه إلى الجرادتين لتغنياه قومه

ألا يا قيل ويحك قم نهينم ... لعل الله يصبحنا الغماما
فيسقي أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا ما يبينون الكلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عياما
فإن الوحش يأتيهم جهارا ... ولا يخشى لعادي سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما

فلما غنتهم الجرادتان تلاوموا في تمكثهم وخرجوا يستسقون فنشأت ثلاث سحائب بيضاء وسوداء وحمراء ثم نودي من السحاب يا قيل اختر لنفسك ولقومك فاختار السوداء لأنها أكثر ماء فنودي اخترت رمادا رمددا لا يبقى من عاد أحد إلا بنو اللوذية وبنو اللوذية بنو لقيم بن هزال وكانوا نزلوا بمكة مع أخوالهم وهم عاد الأخرى في الخبر ومثل هذا جائز في زمن الأنبياء مع أنه ليس في القرآن منه شيء فإن صح الخبر فمعنى النداء من السحاب ما رؤى فيه من اثر المطر لا غير وساق الله السحابة السوداء فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا كقول الله تعالى لهم أو نبيهم بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ورجع الوفد إلى معاوية بن بكر فأتاهم راكب مسيرة ثالثة فأخبرهم بمصاب عاد قالوا وكان تخلف عنهم لقمان بن عاد ومرثد بن سعد ثم قدما بعد الوفد فقيل لهما أعطيتما مناكما فاختارا لأنفسكما إلا أنه لا سبيل إلى الخلد فقال مرثد أعطني يا رب برا وصدقا فأعطاه وقال لقمان أعطني يا رب عمرا فقيل اخترت لنفسك أبعار ضأن عفر في جبل وعر لا يغالبه إلا القطر أو سبعة أنسر إذا مضى نسر خلوت إلى نسر فاختار النسور فجعل يأخذ منه الفرخ حتى إذا مات أخذ آخر فلم يبق إلا السابع فقال له ابن أخ له يا عم ما بقي من عمرك غير هذا فقال يا ابن أخي هذا اللبد ولبد بلسانهم الدهر وزعموا أن النسور تعيش خمس مائة سنة هكذا في الخبر وفي كتاب المعمرين من قصة لقمان وخبره شيء كثير ومن شهرة أمره في العرب كالإجماع على ذلك لكثرة ما يذكرونه في وصاياهم وخطبهم وأشعارهم فإن كان الخبر حقا احتمل أن يكون التأويل أنه تمنى ذلك فخطر بقلبه خاطر وقاله بذلك أو أرى في المنام أو رأى آية أو علامة دلته على ما خبر به عنه فعمل ذلك بأكثر الرأي فأصاب فيه مناه وهذا كثير مما يقع بالاتفاق والجد وغير بديع أن يعمر الإنسان مائة سنة ومن حكم للنسر بعمر مقصور على مقدار لا يزيد ولا ينقص وفيه يقول الشاعر وهو أعشى بن قيس بن ثعلبة

وأنت الذي ألهيت قيلا بكأسه ... ولقمان إذ خيرت لقمان في العمر
فقلت منيت الضأن يبحث في الشرى ... بأرعن ينفي رأسه ليلة القطر
لنفسك أو تختار سبعة أنسر ... إذا ما خلا نسر خلوت إلى نسر
فقال نسور حين خال بأنه ... خلود وهل تبقى النفوس على الدهر
فقال له لقمان إذ خل ريشه ... هلكت و أهلكت ابن عاد وما تدري
فأصبح مثل الفرخ أطول ريشه ... قصار القدامى بعد مطرد حشر

وفيه يقول أيضا

ألم تروا إرما وعادا ... أودى بها الليل والنهار
بادوا كما باد أولوهم ... غدا عن إثرهم قدار
لخلفه من أبي رباح ... يسمعها الاهة الكبار
إن لقيما وإن قيلا ... وإن لقمان حيث ساروا

لم يدعوا بعدهم عربيا ... ففنيت بعدهم نزار

وفي كتاب أبي حذيفة أن هودا عم عاش أربعمائة وأربعين سنة وزعم وهب أن عادا لما أهلكت لحق هو بمكة حتى مات وروى ابن اسحق عن علي عم أن قبر هود بحضرموت تحت كثيب أحمر عند رأسه شجرة تقطر إما سدر وإما سلم وسمعت غير واحد من السياحين يخبرون بموضع قبره وكان هلاك عاد وثمود إذ ذاك بأرض حجر وقرح وهي وادي القرى وبين هود وثمود مائة سنة

قصة عاد الأخرى، ذكر ابن اسحق عن اثر عاد الأولى وعاد الأخرى ولم يحك كلامهم وإنما ذكر حربا كانت بينهم ثم اصطلحوا قال وكان من حديثهم أن سالم بن هذيمة من بني هذيمة بن لقيم سب لقمان بن عاد أحد بني عمرو بن لقيم وهاج الشر بينهم ثم حكموا بينهم درما الطسمي فأصلح بينهم وقال الحسن عاد الأولى قوم هود وعاد الأخرى قوم لقمان الجبار وحكي عن عاد الأولى أنهم لما هاجت الريح قام نفر منهم فأدخلوا عيالهم شعبا من شعاب الجبل ثم اصطفوا على باب الشعب ليردوا عنهم الريح فلما ألحت عليهم حفروا الأرض بسيوفهم وغاصوا فها إلى أنصافهم وكان للقوم قامات وأجسام لقول الله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد يقال أنه كان يبلغ طول أحدهم اثني عشر ذراعا وفي كتاب أبي حذيفة ستين ذراعا والله أعلم فجعلت الريح تقلعهم وتجعفهم لقول الله تعالى تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر قصة ثمود وهم ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح قال ابن اسحق فلما هلكت عاد عمرت ثمود بعدها وكثروا وربلوا وانتشروا ومنازلهم بين المدينة والشام ونحتوا البيوت في الصخور لطول أعمارهم ثم عتوا على الله وعبدوا غيره وتغالبوا وتظالموا فبعث الله إليهم صالحا وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا وزعم وهب أن صالح بن عبيد بن عامر بن سام بن نوح وكان رجلا أحمر إلى البياض قال فخرجوا إلى عيد لهم ومعهم صالح فقال له عظيم ثمود جندع بن عمرو إن أخرجت لنا من هذه الصخرة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت البخت آمنا بك واتبعناك فنظروا إلى الهضبة تمخض بالناقة تمخض النتوج بولدها ثم انقضت فانصدعت عن ناقة كما سألوا بين جنبيها ما لا يعلمه إلا الله فآمن به جندع ومن كان معه قال فمكثت الناقة ترعى ما شاء الله من الشجر ويشرب اللبن ثم ينتج لها فيحتلبون ما شاء الله من لبن وكان امرأتان من أشرف ثمود ذواتي أموال من المواشي يقال لإحديهما عنيزة بنت غنم وللأخرى صدوف بنت المحيا أضر بهما شرب الناقة الماء فاحتالتا في عقر الناقة فدعت صدوف مصدع بن بهرج لعقر الناقة وعرضت نفسها عليه ودعت عنيزة قدار بن سالف وكان لها بنات فائقات الحسن والجمال فقالت أزوجك أي بناتي شئت إن أنت عقرت الناقة فانطلق قدار ومصدع واستغويا تسعة نفر كما قال الله تعالى وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قال فرصدوا الناقة حين صدرت إلى الماء وقد كمن لها قدار بسهم فانتظم عضلة ساقها ثم كشف قدار عرقوبها فخرت ورغت رغاء واحدة تحذر سقبها ثم نحروها وعضبوها وانطلق سقبها حتى أتى جبلا منيفا لاذ به ففزع من آمن من قوم صالح إليه وقد كان حذرهم عقر الناقة ووعدهم العذاب إن هم مسوها بسوء فقال لهم أدركوا السقب فان أنتم أدركتم السقب فلعل العذاب يؤخر عنكم فراموا كل المرام وتشامخت بهم الصخرة ودعت عليهم ثلاث دعوات فأخبر صالح بذلك فقال ابشروا بالعذاب وقالوا متى هو قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب فأصبحوا غداة يوم المؤنس وجوههم مصفرة وأصبحوا يوم العروبة وجوههم محمرة وأصبحوا يوم شيار وجوههم مسودة ثم صبحهم العذاب غداة يوم أول وهو صيحة وريح وهدة أهلكتهم ولهم في قصة عاد وثمود وطسم وجديس أشعار كثيرة لأن هولاء كانوا عربا عادية وقد ذكرت تلك الأشعار في قصصهم فمنها قول بعضهم

وقالت أم غنم يا قدار ... عزيز ثمود شد ولا تهابا
ولا تجبن فإن الجبن عيب ... وكان أبوك يكره أن يعابا
إن أنت عقرتها وأرحت منها ... بلاد ثمود أنكحك الدبابا
فأهوى سيفه للنحر طعنا ... وفر السقب يطلع الشعابا
وحنت بعدما خرت صويتا ... تحذر سقبها كي لا يصابا
فأتبعه غواة بني عدي ... ونادوا مصدعاً وأخوه ذابا
فيرميه شقي بني عبيد ... بسهم لم يريشه لغابا
ونادى صالح يا رب أنزل ... بآل ثمود منك غدا عذابا
فكانت صيحة تركت ثمودا ... ديارهم لثالثة خرابا
وقال أمية بن أبي الصلت
كثمود التي تفتكت الدي ن عتيا وأم سقب عقيرا
ناقة للإله تسرح في الأر ض و ينتاب حول ماء مديرا

فأتاها أحيمر كأخي السه م بعضب فقال كوسى عقيرا
فأبت العرقوب و الساق منها ... ومضى في صميمه مكسورا
فرأى السقب أمه فارقته ... بعد إلف حنية وظؤورا
فأتى صخرة فقام عليها ... صعقة في السماء تعلو الصخور
فرغا رغوة فكانت عليهم ... رغوة السقب دمروا تدميرا
فأصيبوا إلا الذريعة فاتت ... من جواريهم وكانت جرورا
سنفة أرسلت تخبر عنهم ... أهل قرح بأن قد أمسوا ثغورا
فسقوها بعد الحديث فماتت ... وانتهى دبنا واوفى حقيرا
وفي كتاب أبي حذيفة أن عادو صالحاً عاش ثلثمائة سنة إلا عشرين عاما وزعم وهب أن ثمودا لما هلكت أحرم صالح بن موسى قومه وأتوا مكة و أقاموا بها إلى أن ماتوا وأصيب في كتاب تأريخ ملوك اليمن أن الله بعث هودا إلى صالحا إلى ثمود في زمن جم شاذ الملك بأرض بابل والله أعلم، ذكر اختلاف الناس في هذه القصة

سأل سائل كيف يجوز أن يصطلم أمة من الأمم في عقر ناقة أبيح عقر جنسها وأي عدل ورحمة في الاقتصاص من ناس لبهيمة أم كيف يجوز توهم خروج ناقة من صخرة على الصفة التي يصفونها به وأي دابة تسد ماء جبلين حتى يضيقا عنها أو تشرب ماء عين وتسقي أمة فأنكر ذلك كله وأباه ثن أخذ في التأويل فزعم أنه يحتمل أن يكون خروج الناقة من الصخرة حجة دامغة وسلطانا قاهرا من بعض العظماء أذعن له القوم واستدلوا بأن يكون شربها ماء العين إبطال تلك الحجة جميع من خالفهم واعتلاؤها عليهم بالوضوح والقوة وأن يكون عقرهم إياها معاندتهم لتلك الحجة وامتناعهم عن قبولها وكذلك قالوا في عصا موسى والتقافها عصى السحرة وأذكر أني سمعت بعضهم وهو يسأل عن ناقة صالح كيف خرجت من هضبة فقال يشبه أن يكون خبأها تحت الصخرة ثم أخرجها وسمعت غيره يزعم أن اسم الناقة كناية عن رجل وامرأة وهذه رحمك الله مذهب الملحدين المنكرين معجزات الأنبياء ووجوب النبوة ومجيئهم بالآيات الخارجة عن الحس وابعاده وفرقانا بينهم وبين المتنبئين المتقولين المخترعين المتشكلين

التي تبهر عندها العقول ويتحير في كيفيتها النفوس كذا حيرتها في إبداع أجسام هذا العالم بكليتها وأجزائها لا من غير سابق ولذلك قلنا أن أصل التوحيد يوجب إثبات النبوة ولا يلزم مسئلة أيجاب النبوة من لم يقر بوجود البارئ سابقا لخلقه فإذا صح وجود هذا العالم محدثا بالدلائل البرهانية ولم ندر كيف جاز وجودها فكذلك ينبغي أن يرد إليه معجزات الأنبياء لأنها كلها منه وقد مضى لك هذا في غير موضع من الكتاب فليكن ذلك من بالك وبالله التوفيق ثم إنا نقول لو كان الأمر كما وصف فأية قائدة حينئذ في ذكر الناقة وعقرها وأي تعجيب بما هو جار في العادات معروف متعارف عند الجميع وأي فرق بين الصادق والكاذب والقادر والعاجز ولعمري ليس في القرآن خروج الناقة من الصخرة ولا أنها تسقى أمة ولا أن الفج تصدم جنبيها ولانفاخ بطنها ونحن لا نجاوز في هذا وأشباهه نص الكتاب وظاهر صحيح السنة من غير إنكار شيء مما يقع تحت القدرة ويشبه أن يكون صالح عم أشار إلى ناقة من الإبل بأمر الله فجعلها علامة بينهم لطاعة المطيع ومعصية العاصي وامتحنهم بوردها وشربها ولو أشار إلى بقرة أو حجارة أو طير وهو مثلا لكان كذلك كما امتحن آدم بالشجرة امتحننا بالكعبة وأنواع القرائض وقد كانت الملوك يفعلون مثل هذا في الزمن الأول اختبارا لطاعة العوام وتخويفا للرعية كما حكي عن النعمان ابن المنذر أنه كان أرسل كبشا في البيوت والأسواق وعلق مدية في عنقه وسماه كبش الملك يبلو بذلك طاعة الناس هل يجترئ عليه أحد بالعيث وإنما كانت الناقة لصالح ونسبت إلى الله عز وجل لنهي الله عن عقرها وأما قولهم كيف جاز إهلاك قوم وإفناء أمة بناقة فإنهم أهلكوا بكفرهم وتكذيبهم وتظالمهم فيما بينهم وكانت الناقة حدا حاجزا عن هذه المعاصي فلما أشكوا حرمتها انتهك كل ما كان محجوزا بها وأما إنكارهم أن تكون ناقة تسقي أمة فإن الأمة من بين الثلثة إلى ما بلغ وإنكارهم مصادفة حافتي الفج جانبيها فكم عهدنا من شعب يضيق عن مسلك شاة عن مسلك ناقة وأما تعجبهم من هلاكهم فهلاك الحيوان بأنواع الآفات والبلايا الطبيعية والسماوية من طغيان ماء أو نار أو ريح أو غير ذلك معاين مشهور لا ينكره أحد ولا يمكنه الإنكار وقد يجوز بل يمكن أن يكون عذاب عاد وثمود وقوم لوط وسائر المغلبين من الأمم ألح عليهم أياما وشهورا وأعواما ودام أوقاتا كثيرة وقد يجوز أن يكون حرفا واجتياحا فإذا جاز جميع ما ذكرنا فلا معنى لسرعة الرد والتكذيب والله المستعان، هذا ما وجدنا من القصص والأخبار بعد نوح إلى زمن ابراهيم عليهما السلام وقد روينا في بعض التواريخ أنه كان بين نوح و ابراهيم ألفا ومائتا سنة وأربعون سنة وروينا في بعضها أنه كان من الطوفان إلى مولد ابراهيم عم ألف سنة وتسع مائة سنة وسبعون سنة وروينا أنه كان بينهما عشرة قرون وعلماء المسلمين يرون أن الملك كان في زمن ابراهيم نمروذ الجبار صاحب الصرح بابل والله أعلم

قصة ابراهيم عم ورد في الأخبار أنه ملك الأرض كلها أربعة نفر مؤمنان وكافران وسيملك من هذه الأمة خامس فأولهم نمروذ بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح ويقال نمروذ بن كوش بن سيحارب بن كنعان بن سام بن نوح والله أعلم والثاني أزدهاق ذو الحيتين والأفواه الثلاثة والأعين الست والعرب وتسميه الضحاك هو نمروذ بعينه وإنما سمي ضحاكا لأنه ضحك كما سقط من بطن أمه فطرحته أمه بقفر وقبض له نمرة ترضعه لما أريد به وقيل بل جز ثدي أمه فاسترضعته بلبن نمرة فسمي نمروذ لذلك وقيل بل الثاني بخت نصر وأهل اليمن يزعمون أن الثاني تبع بن ملكيكرب فأما المؤمنان فأحدهما سليمان بن داود عليهما السلم والفرس ويزعمون أنه جم شاذ والآخر ذو القرنين وقد اختلفوا في ذي القرنين أهو الاسكندر الرومي أم غيره وفيهم يقول الشاعر

ملكوا المغارب والمشارق كلها ... وتوثقوا لم يتركوا أمرا سدى

واعلم لو تكلفنا هذه الأخبار والأقاصيص كلها على وجهها وأتينا بها على كنهها لاحتجنا إلى أن نسرد الروايات كلها الحق منها والباطل والمحال والمجاز ثم لم يحصل الناظر فيها على غير ما كان ممكنا من غير ذلك وإنما المراد في ذكر ما يجوز ويمكن ويتوهم مما اختلف فيه الناس وخالفه الملحدون وخفى ما فيه عن طلاب الحق وملتمسي الهداية فيما كان منها في كتاب الله عز وجل ظاهرا جليا كفل به هاديا ومفيدا وما كان في الصحاح من الأخبار فمنزل منزلة الكتاب في الإيمان والتصديق وما كان غير ذلك من آية مشكلة أو خبر مشتبه فالغرض في كشفه وحله مع أنا لا ندع الإتيان بجمل منها لأن الكتاب عليها ولها أسس وبها رسم الله الموفق المعين، ذكر أهل هذا العلم أنه ابراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروج بن ارغو بن فالج بن عابر بن شالح بن ازفخشد بن سام بن نوح وأنه لما أظل وقت ظهوره أخبرت المنجمة الكهان نمروذ بأنه قد يولد مولود في هذه السنة ويكون هلاك ملكك على يديه وهذا يمكن لأنه يروى أن علم النجوم كان حقا إلى أن نسخ وأيضاً فإن علم الغيب الذي تفرد الله به واستأثر به نفسه دون خلقه ولا يتناوله هذا الباب ويمكن أن يكون أدركوه في بعض كتب الله كما ذكر للنبي عم مشهوراً في الكتب قبله فأمر الملك بقتل كل مولود ذكر مخافة أن يقع تصديق ما قد ذكر وحملت أنيلة أم ابراهيم ويقال أبيونا فكتمت حملها إلى أن دنا حملها فوضعته وأخفته في سرب وجعلت تأتيه متخبئة ترضعه وتتعهده إلى أن فطمته وبلغ مبلغ المراهق خمسة عشر سنة واجتمعت لحيته وكان من حسن بيانه وسرعة شبابه يستغاب مولده وقت ذبح الولدان فنزل ومشى في الناس وطالع أحوالهم ومذاهبهم وما توزعتهم النحل به من عباداتهم فمنهم من عكف على حجر ومنهم من عكف على شجر فتفكر في مستحق العبادة منه لقوله تعالى ولقد أتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فدلته الفكرة والاجتهاد على صانعه ومدبره فصرف الرغبة إليه وأخلص العبادة له بقول الله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ثم احتال في تعريف القوم سوء واحتيالهم وقبح اختيارهم وخطاء اعتقادهم بألطف الوجوه وأحسن الحيل بقول الله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي مخادعا مماكرا لهم أي إن كان هذا الصنم أو هذا الشخص لكم ربا فهذه الكوكب في علو مكانه وشعاع نوره وحسن منظره وبعده من آفات الأرض ربي وهو أولى بالعبادة من غيره على هذه الشريطة ولعمري إن عابدي الأجرام العلوية أعذر من عابدي الأجرام السفلية في القياس فوقع للقوم أنه أحسن اختيارا منهم وأبعد معرفة وعلما يقول الله تعالى فلما أفل قال لا أحب الآفلين لأنه علم أن الطلوع والأفول عرضان حادثان ولا يستحق العبادة الحادث العارض لأنه العاجز المنقوص المقارن بما لا يبقى ويزول ثم لما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فجعل ابراهيم يريهم النقص في عقولهم والنقص في مذاهبهم بما اجتنبه على جهة الخبر عن نفسه مخادعا مماكرا لما قرر عندهم الحجة البالغة جاهرهم بالخلاف ونبه بالتوحيد فقال إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ولهذا لما كان دين ابراهيم معقولا فطريا لا يحتاج في إدراكه ومعرفته إلى سماع وخبر حد الله عليه أنبياءه ورسله وأمرهم باتباعه وما من أهل دين إلا وهم يقولون بدين ابراهيم عم ويتبعونه في دعاءهم قالوا وإن أباه آزر كان ينحت الأصنام ويتبعها ويعبدها فجادله ابراهيم عم كما حكاه الله تعالى عنه في القرآن يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا الآية ثم أظهر عيب آلهتهم والقدح فيهم والوضع من شأنهم وكان لهم عيد ومجمع يخرجون فاحتال ابراهيم عم في التحلف لتحلة يمينه فلما راودوه للخروج معهم نظر نظرة في النجوم يعني في علم النجوم وكان القوم يعلمون به وينزلون عند دلائله فقال إني سقيم أي أراني سأسقم وكانوا يتطيرون في كل ذي سقم وآفة فقال أني مطعون فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون يريد بكلامهم أن يظهر للسدنة والخدم عجزهم وضعفهم فجعلهم جذاذا ألا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون وذلك حيلة منه في تعريفهم

خطاياهم عليه وإقرارهم بألسنتهم ضلالة أرائهم فلما رجعوا قالوا من فعل هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا غضبا وأنفا أن

لا يعبد من هو دونه فاسألوهم إن كانوا ينطقون هو فعله ويقال أراد بكسرهم نفسه لأنه فعله وجرى بينه وبينهم ما جرى إلى أن قال أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين فأوقدوا ناراً عظيمة وقذفوا ابراهيم فيها فجعلها الله بردا وسلاما عليه وأمره بالهجرة من أرض بابل إلى الشام فرارا بدينه وكان مولده بقرية من سواد الكوفة ويقال لها كوثاربا فخرج إلى حران ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزار وابنة أخيه سارة بنت هاران وكانت أحسن من نساء العالمين عقيما لا تلد وقيل أن سارة كانت ابنة عمه نوهر بن ناحور وزعم وهب أنه آمن بابراهيم يوم ألقى في النار رهط منهم هاران وشعيب وبلعم وهاجروا معه ثم خرجوا من حران إلى أرض فلسطين و مر بحدود مصر وفرعونها يومئذ صاروف بن صاروف أخو الضحاك و قيل أنه كان غلاما لنمروذ بن كنعان على مصر ويقال هو سنان بن علوان أخو الضحاك فهم بأن يغصب إبراهيم امرأته سارة فتعوذ منه وقال إنها أختي أراد به أخوة الديانة والتشابه وقد قيل أنه من كلماته الثلث اللواتي تمنعه الشفاعة يوم القيامة وجاء في الحديث أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات ما منهن واحدة إلا وهو تماحل عن الإسلام قوله لسارة أنها أختي وقوله أني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا قالوا فأطلق عنها بعد ما أظهره الله من الآيات الموجبة له تخلية سبيلها فأعطاها نعماً ومالا وجارية كانت عندهم من سبي جرهم وقال خذيها أجرك فسميت هاجر وفي الحديث أن النبي صلعم قال إذ افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم رحماً وذمة أراد بالرحم أمومة هاجر وبالذمة أمومة مارية فعاد إبراهيم عم إلى أرض فلسطين فسكنها وكثرت ماشيته ونعمه وغلمانه وابتاع مزرعة حبرون وفيها قبره وقبر اسحق ويعقوب وسارة ورفقا وليا وأما هو لأنسه بهم لم يرغب بالولد فقالت سارة لإبراهيم إني أراك لا يولد لك فخذ هذه الجارية تقع علينا لعلنا نصيب منها ولدا فحملت باسماعيل وعلقت به فلما وضعته شعف إبراهيم به وبأمه هاجر وغارت سارة غيرة شديدة وشق عليها مشقة عظيمة فحلفت ليقطعن منها ثلاثة أشرافها فأمرها إبراهيم عم أن تخفضها وتثقب أذنيها في تحلة قسمها ففعلت وحملت سارة باسحق بعد عشر سنين من مولد اسمعيل وكان إبراهيم حمل اسمعيل وأمه إلى موضع الكعبة وأنزلهما به وهو طفل فرارا بهما من سارة بأمر الله تعالى ولما ماتت سارة تزوج إبراهيم امرأة الكنعانيين يقال لها قطورا فولدت له أربعة نفر وتزوج امرأة أخرى فولدت له سبعة نفر وكان جملة ولده ثلثة عشر رجلا وعاش فيما روى مائة وخمسا وسبعين سنة وزعم وهب أنه عاش مائتي سنة ومات فدفن في مزرعة حبرون،لا يعبد من هو دونه فاسألوهم إن كانوا ينطقون هو فعله ويقال أراد بكسرهم نفسه لأنه فعله وجرى بينه وبينهم ما جرى إلى أن قال أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين فأوقدوا ناراً عظيمة وقذفوا ابراهيم فيها فجعلها الله بردا وسلاما عليه وأمره بالهجرة من أرض بابل إلى الشام فرارا بدينه وكان مولده بقرية من سواد الكوفة ويقال لها كوثاربا فخرج إلى حران ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزار وابنة أخيه سارة بنت هاران وكانت أحسن من نساء العالمين عقيما لا تلد وقيل أن سارة كانت ابنة عمه نوهر بن ناحور وزعم وهب أنه آمن بابراهيم يوم ألقى في النار رهط منهم هاران وشعيب وبلعم وهاجروا معه ثم خرجوا من حران إلى أرض فلسطين و مر بحدود مصر وفرعونها يومئذ صاروف بن صاروف أخو الضحاك و قيل أنه كان غلاما لنمروذ بن كنعان على مصر ويقال هو سنان بن علوان أخو الضحاك فهم بأن يغصب إبراهيم امرأته سارة فتعوذ منه وقال إنها أختي أراد به أخوة الديانة والتشابه وقد قيل أنه من كلماته الثلث اللواتي تمنعه الشفاعة يوم القيامة وجاء في الحديث أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات ما منهن واحدة إلا وهو تماحل عن الإسلام قوله

لسارة أنها أختي وقوله أني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا قالوا فأطلق عنها بعد ما أظهره الله من الآيات الموجبة له تخلية سبيلها فأعطاها نعماً ومالا وجارية كانت عندهم من سبي جرهم وقال خذيها أجرك فسميت هاجر وفي الحديث أن النبي صلعم قال إذ افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم رحماً وذمة أراد بالرحم أمومة هاجر وبالذمة أمومة مارية فعاد إبراهيم عم إلى أرض فلسطين فسكنها وكثرت ماشيته ونعمه وغلمانه وابتاع مزرعة حبرون وفيها قبره وقبر اسحق ويعقوب وسارة ورفقا وليا وأما هو لأنسه بهم لم يرغب بالولد فقالت سارة لإبراهيم إني أراك لا يولد لك فخذ هذه الجارية تقع علينا لعلنا نصيب منها ولدا فحملت باسماعيل وعلقت به فلما وضعته شعف إبراهيم به وبأمه هاجر وغارت سارة غيرة شديدة وشق عليها مشقة عظيمة فحلفت ليقطعن منها ثلاثة أشرافها فأمرها إبراهيم عم أن تخفضها وتثقب أذنيها في تحلة قسمها ففعلت وحملت سارة باسحق بعد عشر سنين من مولد اسمعيل وكان إبراهيم حمل اسمعيل وأمه إلى موضع الكعبة وأنزلهما به وهو طفل فرارا بهما من سارة بأمر الله تعالى ولما ماتت سارة تزوج إبراهيم امرأة الكنعانيين يقال لها قطورا فولدت له أربعة نفر وتزوج امرأة أخرى فولدت له سبعة نفر وكان جملة ولده ثلثة عشر رجلا وعاش فيما روى مائة وخمسا وسبعين سنة وزعم وهب أنه عاش مائتي سنة ومات فدفن في مزرعة حبرون

ذكر اختلاف الناس في هذه القصة جاء في بعض الأخبار أن إبراهيم عم لما أخفته أمه في السرب أتاه جبريل فأمصه السبابة والإبهام فجعل يشرب من إحداها لبناً ومن الأخرى عسلاً وروى عن نوف البكالي أنه قبضت له ظبية ترضعه إذا أبطأت عليه أمه وفسر بعضهم قوله تعالى وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أنه رفع فوق السموات حتى نظر إلى ما فيها وإليها وذكروا من صفة النار وعظم بنيانها وجمع الحطب لها سنين ما الله به عليم قالوا وقد كانت المرأة إذا حملت نذرت لئن وضعته ذكرا حملت مقدارا من الحطب إلى ذلك الموضع وانه لم يحمل شيء من الدواب ذلك الحطب إلا البغل وأعقم الله نسله واحرثه وان الخطاف كانت تأتي بالماء فترشه على النار فجعلها آية ألوفاً للمساكن وأن الوزغة كانت تنفخ النار وتضرمها فأمر الله بقتلها وأنهم أوقدوا أياماً حتى احترقت طير السماء ونفرت الوحوش والسباع وإن إبليس جاءهم فعلمهم عمل المنجنيق فسووا ورموا بإبراهيم عم في النار فقال عز وجل يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم فبردت النيران كلها على وجه الأرض حتى لم ينضج كرعا وقال بعضهم حتى بردت نار جهنم قالوا ولو لم يتبع الله قوله كوني بردا وسلاما لتقطعت أوصاله من البرد فهذه أخبار جاءت ليس في الكتاب منها إلا قوله كوني بردا وسلاما على إبراهيم وإنما جعلها معجزة لنبيه وإبانة لشرفه وإجهاضاً للكافر الذي يمكر به وقد زعم بعض من لم يخلص في الإسلام نيته أنهم لم يطرحوا إبراهيم في النار وإنما هموا به واحتج بأنه ليس في الكتاب ذلك قال إنما معنى قوله للنار كوني برداً وسلاماً أنهم كانوا توامروا في إحراقه بالنار ثم بدا لهم خلافه فكان خلاف ما أرادوا بإبراهيم بردا وسلاما من النار والبلاء الذي هو وزعم غيره من أشكاله أن إبراهيم عم سحرهم وأطلي ببعض الأدوية التي يبطل معها عمل النار واحتال في الفوت بنفسه وساق قصة لبعض الهند وشبهه بها وقال بعضهم بل النار مثلا لاجتماع كلمتهم عليه ومجادلتهم إياه وكونها بردا وسلاما عجزهم عن حجته وانكسارهم عن معارضته كما قال في عصى موسى وناقة صالح وسائر معجزات الأنبياء عم وقد مضى وجه الجواب لهذه الأشياء في غير موضع فلا فائدة بالتكرار والله المستعان وجملة القول كيفية إبداع المعجزة غير معقولة فمن أقر بها لزمه الإقرار بالمعجزات قاسيا ومن أنكر المعجزة فهو لحدث العالم منكر وأن أظهر خلافه والسلام ويقال أنه أوقد له النار ببرقوة من أرض فارس وأن أثر الرماد باق إلى اليوم ويقال بل كان ذلك بكوثى ربا وذكروا أن نمروذ هو الذي حاج إبراهيم في ربه وهو أول من لبس التاج وبنى الصرح ببابل يقال سبعة آلاف درجة ويقال ثلاثة

آلاف وشيء وجعل يرمي في السماء فيرجع نبله إليه مختضبا وذلك بعدما عمل النسور وطارت به إلى السماء فزلزل الله بقواعده فهدمها من أصلها قالوا وعاش في ملكة مائتي سنة وسبعين سنة فأهلكه الله ببعوضة دخلت في خيشومه فجعلوا يضربون هامته بالجرز حتى تناثر دماغه وفي رواية الواقدي أنه لبث معمورا في ملكه سبعين سنة ويزعم بعض المتأولين أن بناء الصرح كان ارصادا منه للكواكب وطلبا لمعرفة سير النجوم ومطالعها والله أعلم

قصة لوط بن هاران بن آزر وهو ابن أخي إبراهيم عم وكان هاجر مع إبراهيم عم إلى الشام فلما نزل إبراهيم عم أرض فلسطين بعثه الله إلى أرض سدوم وكاروما وعمروا وصبوايم أربع قرى من فلسطين على مسيرة يوم وليلة قالوا أو أجدبت الأرض أقحطت وكانت قرى لوط أخصب بلاد الله فانتابهم الغرباء ليصيبوا من ثمارهم وطعامهم وسنوا تلك السنة الخبيثة ردعا للناس عن تناول شيء من ثمارهم وطعامهم ثم مرنوا على ذلك وأصروا وخرجوا مع ما كانوا فيه من الكفر بالله والظلم لعباده والاعتداء عليهم فنهاهم لوط عم وعرض عليهم تزويج البنات والاكتفاء بهن عن إتيان الذكور لما فيه من نفور النفس وانقطاع النسل فأبوا عليه وكفروا به وفي رواية سعيد عن قتادة عن الحسن قال عشر خصال عملها قوم لوط بها أهلكوا كانوا يأتون الرجال ويلعبون بالحمام ويضربون بالدفوف ويرمون بالجلاهق ويخذفون بالأصابع ويلبسون الحمرة ويصفقون بأيديهم ويصفرون بأفواههم ويشربون الخمر ويقصرون اللحى ويطولون الشوارب وروى غيره كانوا يضرطون في النادي وينزو بعضهم في وجه بعض ويمضغون العلك ومع ذلك يقطعون الطريق ويغتصبون الناس ويستهزؤون بلوط ولما بعث الله الملائكة إلى إبراهيم يبشرونه باسحق أخبروا بأنهم مأمورون بإهلاك قرى لوط وذلك قوله تعالى ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إلى آخر الآيات كلها في شأنهم وقصصهم وكانت امرأة لوط تدل الناس على ضيفه وتخبرهم بمجيئهم فلما جاءت الرسل لوطا ذهبت العجوز تخبرهم وذلك قوله تعالى ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا إلى تمام القصة جاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعلمون السيآت إلى قوله فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجلا رشيد قال قتادة لا والله لو كان فيهم واحد رشيد لما عذبوا فزلزل الله بهم الأرض وجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وأمر الله تعالى لوطا فلحق بإبراهيم مع ابنتيه رتبا ورعورا إلى أن قبضه الله تعالى وفيه يقول أمية بن أبي الصلت

ثم لوطا أخا سدوم أتاها ... إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا ... قد نهيناك أن يقيم قراها
عرض الشيخ عند ذاك بنات ... كظباء بأجرع فرعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا ... أيها الشيخ خطبة نأباها
أجمع القوم أمرهم وعجوز ... خيب الله سعيها ولحاها
ارسل الله عند ذاك عذابا ... جعل الأرض سفلها أعلاها
ورماها بحاصب ثم طين ... ذي جروف مسموم إذ رماها

ذكر اختلاف الناس في هذه القصة وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال كان في كل قرية من قرى لوط مائة ألف رجل مقاتل وأنهم كانوا إذا ارتكبوا من إنسان الفاحشة غرموه أربعة دراهم فسار المثل في حكم سدوم فأبوا أن ابليس أتاهم في هيئة غلام فدعاهم إلى نفسه فصار ذلك عادة لهم في الغرباء وزعم الكلبي أن جبريل أتاهم فأدخل جناحيه تحت الأرض فحمل القرية وحلق بها حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والديكة ثم قلبها وأرسل

الله الحجارة على شذاذهم ومسافريهم وروينا عن محمد بن كعب أن الذين فعلوا منهم ذلك كانوا سبعة نفر رأسهم رجل يقال له نمروذ و الله اعلم.

قصة اسماعيل عليه السلام قالوا و لما اشتدت غيرة سارة على إسماعيل و أمه أمر الله إبراهيم أن يسير بها إلى الحرم و أنبأه أن عمارة البيت على يديه و أنه ينبط لاسماعيل سقايته فسار بهما حتى أنزلهما موضع الكعبة اليوم ودعا لهما فقال رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم الآية ولا أشك أنه كان معهما من يخدمهما و يرعاهما و أقبل راجعا إلى الشام قالوا و فحص اسمعيل برجله الأرض فنبع الماء من تحت عقبه وقيل بل أتاه جبريل فركضه ركضة فار منه الماء وجاء ركب من جرهم إلى اليمن فرأوا بلدا ذا ماء وشجر فقالوا لهاجر لمن هذا قالت لي ولعقبي من بعدي فنزلوا حول البيت وهو يومئذ ربوة حمراء ولهاجر عريش في موضع الحجر فنشأ اسمعيل وسط جرهم وتكلم بلسان العربية وأعطوه عنزا من ثماني مائة وكان ذلك أصل ماله فلما بلغ تزوج منهم امرأة وكان إبراهيم عم يأتيه كل سنة معتمرا ومجددا باسمعيل العهد وولد لاسمعيل اثنا عشر رجلا ثابت وقيدر وأذبل ومنشى ومسمع وماش وماء وآذار وصهباء وبطور ونبش وقيدما وأمهم ابنة مضاض بن عمرو الجرهمي وجدهم من قحطان وقحطان أبو اليمن كلها فمن ثابت وقيدار نشر الله العرب ولما ماتت هاجر دفنها اسمعيل في الحجر ثم لما مات اسمعيل دفنه بنوه مع أمه في الحجر فقبروهما فيه وكان عمر اسمعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة وهذا مكتوب في ترجمة التورية، ذكراختلاف الناس في هذه القصة جاء في بعض الأخبار أن إبراهيم عم لما وضع هاجر واسمعيل بموضع الكعبة وكر راجعا أقبلت عليه هاجر فقالت إلى من تكلنا قال إلى الله قالت حسبنا الله فرجعت وأقامت عند ولدها حتى نفد ماءها وانقطع درها فارتقت إلى الصفا حتى تنظر هل ترى عينا أو شخصا فلم تر شيئا فدعت ربها واستسقته ثم نزلت حتى أتت المروة ففعلت مثل ذلك ثم سمعت أصوات السباع فخشيت على ولدها فأسرعت تشتد نحو اسمعيل فوجدته يفحص الماء بيده عن عين قد انفجرت من تحت خده وقيل بل من تحت عقبه وزعم بعضهم أن جبرئيل أتاه فركض برجله الأرض ركضة وفيه تقول صفية بنت عبد المطلب

نحن حفرنا لحجيج زمزما ... سقيا نبي الله في المحرم

ركضة جبريل ولما يفطم

فجعلته هاجر حسيا وروي لو لم يحطه لكان عينا معينا وفيه يقول قوم

وجعلت تبنى لها الصفائحا ... لو تركته كان ماء سائحا

وقد أنكر هذا القوم وزعموا أن اسمعيل حفرها بمعول ومعالجة قالوا ويمكن أنه أسرع الماء إلى إجابته لقرب غزره لأن الوادي عميقه من كبس السيول وهذا من أيسر الأمور وأسهلها إن كان اسمعيل حفرها أو حفرت من أجله أو كانت نبعت بنفسها معجزة وكرامة كما كانت وليس شيء منه في الكتاب وإنما الأخبار وردت كما وردت والله أعلم.

قصة اسحق عليه السلام قال الواقدي ولدت سارة اسحق بين العماليق بالشآم وهم الكنعانيون وكان بينه وبين اسمعيل ثلاثون سنة وفي كتاب أبي حذيفة أن اسمعيل كان أكبر من اسحق بعشر سنين وتزوج اسحق ربقا بنت بوهر فولدت له عيصو ويعقوب وتوأمين ويزعم أهل الكتاب أن عيصو سمي به لأنه عصى في بطن أمه وذلك أنه خرج قبل يعقوب وخرج يعقوب على إثره آخذا بعقبه فلذلك سمي يعقوب وهذا ما لا أعرف له تأويلا وأصلا واللهم إلا أن يكون مثلا وتشبيها وتزوج عيصو بسمة بنت اسمعيل وكان رجلا أشقر فولدت له الروم، ذكرالذبيح قال قوم هو اسمعيل

واحتجوا بأن الله لما فزع من قصة الذبيح استقبل قصة اسحق فقال بشرناه باسحق نبيا من الصالحين وروى الفرزدق الشاعر قال سمعت أبا هريرة على منبر رسول الله صلعم يقول الذبيح هو اسمعيل وقال آخرون بل هو اسحق ويروى عن العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن مسعود وأهل الكتاب لا يختلفون أنه اسحق وزعم بعضهم أنه قرب اسحق مرة ذبيحا ومرة اسمعيل والله أعلم واختلفوا أين قرب فأكثر العلماء على أنه كان بمنا وأن إبراهيم أري في المنام بمكة وهو واسحق مقيمان بها أن قرب ابنك إلى هذا قربانا وذلك بعد ما بنى البيت وروى عن عطاء أنه قال كان ذلك بالبيت المقدس واختلفوا بالذبح الذي فدى به فقال كثير من الناس أنه فدى بكبش كان يرعى في الجنة سبعين خريفا وكان الحسن يحلف بالله ما فدي إلا بكبش من الأروى واختلفوا في معنى الذي أري في المنام ذلك لأجله فقال قوم لما بشر إبراهيم بالولد على كبر سنه نذر ليذبحنه لله قربانا فلما بلغ الغلام السعي أراه الله في نومه أوف بنذرك وقال آخرون بل أمر في المنام ابتلاء من الله واختبارا ليعلم الخلق حسن طاعته لربه وانقياده لأمره واستحقاقه شرف المنزلة وعلوا الرتبة وليقتدوا به في طلب الوسيلة وابتغاء القربة والزلفة والله أعلم فأما القصة فكيف كان ذلك وكيف خاطبه فواضحهه وكيف نبت المدية عنه يطول وقد ذكرها أمية في شعره

ولإبراهيم الموفي بالنذ ر احتسابا وحامل الاجدال
ابني أني نذرتك لل ه سحيطا فاصبر فدا لك حالي
فأجاب الغلام أن قال فيه ... كل شيء لله غير انتحال
جعل الله جيده من نحاس ... إذ رآه زولا من الأزوال
بينما يخلع السرابيل عنه ... فكه ربه بكبش جلال
قال خذه فأرسل ابنك عنه ... وإني ما قد فعلتما غير قال
ربما تكره النفوس من الأم ر له فرجة كحل العقال

وعاش اسحق مائة وثمانين سنة كما روى والله أعلم وأحكم، قصة يعقوب قال أهل هذا العلم فأكثر ما يرونه أهل الكتاب الأول والعلم القديم إلا ما نطق به كتابنا أو صح الخبر فيه عن نبينا محمد صلعم أن إبراهيم لم يمت حتى بعث الله اسحق إلى أرض الشام ويعقوب إلى أرض كنعان واسمعيل إلى جرهم ولوطا إلى سدوم وكما يزعم وهب ينبغي أن يكون شعيب مبعوثا أيضا إلى مدين والله أعلم وقالوا كانت لخال يعقوب ابنتان اسم الكبرى ليا واسم الصغرى راحيل ورعى لهم في صداقها سبع سنين فلما كانت ليلة الزفاف أدخل عليه ليا فأصبح مغروراً مدلسا عليه فخدم خاله سبع سنين أخر حتى دفع إليه راحيل وكان حينئذ يجوز الجمع بين الأختين فولدت له راحيل يوسف وابن يامين وولدت له ليا سائر الأسباط والأسباط اثنا عشر رجلا رويبل وشمعون ولاوى ويهوذا ويساخر ودان ونفتالي وجاد واشترقفا وزبالون ويوسف وابن يامين وقد يعبر عن هذه الأسماء بخلاف ما ذكرنا وعاش يعقوب مائة وسبعين سنة

قصة يوسف بن يعقوب أعلم أنه لا يوجد في كتاب قصة أجمع وأتم في موضع واحد من قصة يوسف ويذكر أنها كذلك في التورية وفي ذلك مقنع وبلاغ غير أن نسوق منها ما يضاهي غرض كتابنا إن شاء الله وروينا عن ابن مسعود أنه قال أعطى يوسف وأمه شطر الحسن وكان أحب ولد يعقوب إليه فرأى الرؤيا التي قص الله في القرآن وتأويلها وقوعهم له سجدا بمصر فقال أبوه يا بني لا تقصص رؤياك على أخوتك الآية وغاظ أخوة يوسف وجد يعقوب به من بينهم وشفقته عليه دونهم فاحتالوا بالمكر به فقالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا الآية اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم الآية قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف فقال هو روبيل أكبرهم وقال ابن جريح هو شمعون وليس يضر الجهل بمن كان منهم بعد أن علمنا أنه أحدهم وأقربهم إلى الرقة والرحمة وألقوه في

غيابه الجب يلتقطه بعض السيارة قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف أرسله معنا غدا يرتع ويلعب قال أني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وإنما قال لأنه كان رأى كأن ذئبا قد جاء فأخذ يوسف فأرسله معهم بقول الله عز وجل فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابه في الجب وأوحينا إليهم لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون هذا وحي الإلهام والرؤيا لأنه لم يكن حينئذ بلغ مبلغ الرجال فينزل عليه الوحي ويجوز أن يكون كلمه الملائكة بذلك وليس كل كلام الملائكة نبوة فطرحوه في بئر وجاءت سيارة ويقال صاحبها مالك بن الذعر فأخرجوا يوسف من الجب فجاء اخوته فباعوه منهم يقال بعشرين درهما فلذلك لم يوزن وحملوه إلى مصر فاشتراه اظيفر بن رويحب العزيز وكان على خزائن مصر وامرأته زليخا وهي التي راودته عن نفسه وقدت قميصه لما استلبث الباب وهذه القصة لا تتم إلا بتفسير السورة على الولاء قال الله عز وجل ثم بدا لهم من بعده ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين وذلك لما أرجف الناس بأمر زليخا وخبرها ومراودتها يوسف عن نفسه واحتالوا في حبسه ليكون في ذلك عذر لامرأة عند الناس فلبث في السجن بضع سنين إلى أن رأى الملك الرؤيا التي هالته وفسرها يوسف فدعاه وقلده أموره ونصبه منصب اظيفر وعم الجدب حتى بلغ أرض كنعان فجاء اخوة يوسف ممتارين فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون فمارهم ورد إليهم أثمان ما جاؤا به وطالبهم بأخيه ابن يامين فذهبوا ورجعوا بأخيه فاحتال في حبسه عنده زمانا بأن دس الصواع في رحله ثم صرح لأخيه بالنسب وكان ما قص الله عز وجل في القرآن إلى أن جمع بينه وبين أخوته وأبويه وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا قالوا دخل يعقوب مصر وهم ثمانون إنسانا وخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف ونيف وطرح يوسف في الجب وهو ابن سبع سنين وحبس وهو ابن خمسة عشر سنة وأقام في السجن بضع سنين وكان غيبته عن أبيه أربعين سنة وعاش يعقوب بعد ما دخل مصر ثماني عشرة سنة ثم مات هو وعيصو في يوم واحد وسن واحد فحملهما يوسف إلى حبرون فدفنهما بها وعاش يوسف بعد موت يعقوب ثلاثاً وعشرين سنة وفي التورية أن يوسف مات وهو ابن مائة وعشرون سنة وكان تزوج زليخا فولدت له اثنين افرايم بن يوسف جد يوشع بن نون وكان ولي عهد موسى من بعده ومنشا بن يوسف أبا موسى صاحب الخضر كما يزعم أهل الكتاب وكان بين دخول يعقوب مصر إلى وقت خروج موسى بهم أربع مائة سنة ولما مات يوسف جعل في صندوق من رخام ودفن في جوف النيل حيث ينفرق الماء رجاء أن تمر عليه فتصيب الأرض بركة منه ثم استخرجه موسى عم لما خرج من مصر، ذكراختلافهم في هذه القصة

وزعم بعضهم أن بني يعقوب لما قالوا أكله الذئب كذبهم في دعواهم فذهبوا وأخذوا ذئبا وجاؤا به فقال يعقوب بئس ما صنعت إذا أكلت ولدي فكلمه الذئب وأنكر ذلك وللقصاص في الذئب الآكل ليوسف عجائب في اسمه ولونه وكذلك في كلب أصحاب الكهف وقيل في قوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه أنه رأى يعقوب عاضا على شفته وقيل بل رأى جبريل يقول أتيت بعمل وأنت مكتوب عند الله عز وجل من الأنبياء وروى محمد بن كعب القرظي قال رأى كتابا بالسريانية في صفحة الحائط ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا قال بغضهم خرجت شهوته من أنامله وكل واحد من ولد ولد له عشرة أولاد إلا يوسف فإنه ولد تسعة لانتقاض الشهوة وقالوا في قوله عز وجل وشهد شاهد من أهلها انه كان صبيا في المهد نطق ببراءة ساحته وفي قوله عز وجل وقطعن أيديهن حتى أبى ولم يشعرن وفي قوله عز وجل قضي الأمر الذي فيه تستفتيان أنه كان تحالما عليه ولم يكونا رأيا شيئا فوقع بهما التأويل وفي قوله عز وجل نفقد صواع الملك أنه كان ينقره فيطن فيقول إن هذا الصواع يخبرني أنكم سرقتم أخا لكم من أبيكم فبعتموه وفي قوله عز وجل لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة أنه كان يخاف عليه العين وفي قوله عز وجل أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا أنه

كان قميص الحياة أخرجه آدم من الجنة وكساه الله إبراهيم فورثه يعقوب وعلقه على يوسف كالمعاذة وفي قوله عز وجل فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي أنه كان يهوذا وكان إذا غضب قامت شعرة بدنه يقطر منها الدم وإذا صاح لاتسمع صوته حامل إلا وضعت ولا يسكن غضبه ما لم يمسه أحد من ولد يعقوب فغضب يهوذا وهم بالصياح فأمر يوسف ابنه منشا أن يضع يده عليه ففعل وسكن غضبه فقال يهوذا إن بهذا الوادي مع أشياء يحكونها والأصح ما نطق به الكتاب من غير رد لما خرج من العادة من معجزات الأنبياء عم قالوا ولما مات اظيفر زوج زليخا شابت زليخا وكف بصرها وجدا بيوسف ومحبة له فدعا يوسف لها رد الله إليها شبابها وبصرها ونكحها فولدت له، قصة أيوب عم زعم وهب أنه هو أيوب بن موص بن رعويل وكان أبوه ممن آمن بإبراهيم يوم حلق في النار وكان أيوب صهر يعقوب وكان تحته ابنة ليعقوب اسمها ليا وهي التي ضربها بالضغث وأم أيوب ابنة لوط وكانت له حوران والبثنية مدينتان ومال عظيم ونعم وشاء وثلاثة عشر ولداً وألف غلام في زرعه وضرعه وخدمته فابتلاه الله بالبلاء وضربه بالضر وهلكت أمواله وماشيته ومات ولده وكانت امرأته ليا تسعى عليه وتكتسب قوته فباعت خصلة من شعرها بطعام وأتته به فاتهمها أيوب فحلف ليضربنها مائة ضرب إن هو برأ من علته وقيل بل الشيطان أتاها فقال لها لو أن أيوب شرب شربة ماء لا يذكر اسم الله عليها لعوفي فأخبرت أيوب بذلك فحلف إلى أن انقضت المدة أتاه جبريل فقال له اركض برجلك فركض فندا ماء فاغتسل فيه وشرب فبرأ وعوضه الله من ولده الثلاثة عشر ستة وعشرين ولدا وذلك قوله تعالى ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وأمره أن يضرب امرأته بضغث فيه مائة عود ليبر قسمه وأثنى عليه بحسن الصبر فلا يزال يتلى ما قامت الدنيا وروى جوبير عن الضحاك أنه أيوب بن موص بن العيص فلم يزالوا متمسكين بالخيفية إلى أن اختلفوا فبعث الله إليهم عيسى عم، ذكر اختلافهم في هذه القصة

زعم وهب وما أراه كما زعم أن ابليس كان يصعد حتى يقف من السماء موقفا فصعد وقال يا رب إنك قد أعطيت أيوب ما أعطيت ووسعت عليه ولم تبتله ببلاء فينظر كيف صبره وتمسكه قال فسلطه عليه فجاء وهو في سجوده فنفخ في وجهه فصار كذا وكذا وتناطحت جنبات بيته فقتلت أولاده وموتت وانتعش الدود في جسده فجعل يختلف فيه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبعة ساعات وتأذى أهل القرية فطرحوه على كناسة ووارت امرأته عورته بالتراب فصبر في ذلك أحسن الصبر ولم يشك بتة إلى أحد إلا إليه بقول الله عز وجل إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب وقال بعضهم أن رجلا مظلوما لهف إليه واستغاث نه وكان في الصلاة فلم يقطع صلاته حتى فاته ذلك وقتل الرجل وغصب فلم يرض الله ذلك منه وابتلاه كفارة لما كان منه وقيل في بلية يعقوب أنه ذبح شاة وشواها وأصاب رائحتها بعض الجيران فلم يطعمه فعوقب بغيبة يوسف وزعم بعضهم أن أيوب لما من الله عليه بالعافية أحيى له ولده كلهم ومواشيه وغلمانه وقد روينا عن سعيد بن جبير أنه قال من زعم أن الله أحيى له ولده كلها ومواشيه وغلمانه فقد كذب قالوا وأظل الله عليه غمامة ونودي أن ابسط كساك فأمطر الله عليهم جرادا من ذهب من لدن العصر إلى أن توارت بالحجاب فجعل كل ما سقط من الكساء ناحية يحثوه ويضمه إليه فنودي ما هذا الحرص فقال لا غناء من بركاتك ومن يشبع من الخير هكذا الرواية والله أعلم، قصة شعيب عم زعم وهب أن شعيبا وبلعما كانا من ولد رهط واحد آمنا بإبراهيم عم يوم حلق في النار وهاجرا معه إلى الشام فزوجهما إبراهيم ببنات لوط بعد هلاك قومه وكل نبي بعد إبراهيم وقيل بنو إسرائيل فمن أوليك الرهط وحده وأخذ شعيب ابنة لوط ولم يكن مدين قبيلة شعيب ولما لحقهم العذاب ذهب شعيب بن نويب بن رعويل بن هرا بن عنقا بن مدين بن إبراهيم ومن كان آمن معه بمكة حتى ماتوا وفي كتاب محمد بن اسحق انه هو شعيب بن نويب بن رعويل بن هرا بن

عنقا بن مدين بن إبراهيم وفي التورية اسم شعيب ميكائيل وكان فيما بين يوسف وموسى وقال بعض الناس أنه زوج ابنته من موسى عم ويقال أنه كان أعرج أعما فلذلك قال له قومه إنا لنراك فينا ضعيفا وكان أهل مدين في كفرهم وتكذيبهم أهل بخس ونقص في مكاييلهم وموازينهم فنهاهم شعيب عن ذلك وجادلهم كما يسمع في القرآن وشعيب وخطيب الأنبياء لحسن محاورته تأني مخاطبته قال ابن عباس رضه ما أهلك الله قوما على معصية حتى كفروا بالله وروينا عن محمد بن كعب أن قوم شعيب عذبوا في قطع الدراهم والدنانير وكانت مدين متجر الغرباء ومضرب الأعراب زيوف ثم يشرونها بالبخس قال الله عز وجل لا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله قال الضحاك كانوا يعشرون أموال الناس وكان لهم كاهنان يزينان لهم صنيعهم ويقال لأحدها سمير وللآخر عمران وفيهم يقول قائلهم كما روى والله أعلم

يا قوم إن شعيباً مرسلاً فدعوا ... عنكم سميراً وعمران بن مداد

إني أرى غيمة يا قوم قد طلعت ... تدعوا بضرب الأصم ابنة الوادي

وروينا عن عكرمة أنه قال بعث شعيب إلى مدين مرة فأخذتهم الصيحة ومرة إلى أصحاب الأيكة ولم يكونوا من قبيله فأخذهم عذاب يوم الظلة وعند أهل الرواية أنهم أهل مدين ألح عليهم الوهج والحمى فالتجؤا إلى غيضة لهم ثم رفعت لهم سحابة فظنوا فيها ماء وبردا فتنادوا الظلة حتى إذا تيامنوا بطحتهم، اختلاف الناس في هذه القصة زعم قوم أن اباجاد وهوز وحطي وكلمن أسماء ملوك مدين وهم من ولد محصن بن جندل بن مدين بن إبراهيم وفي هلاكهم يقول الشاعر

ملوك بني حطى وسعفص في الندى ... وهوز سادات الشية والحجر

وروى أنه خالفه بنت كلمن رثته بعد موته

كلمون هد ركني هلكه وسط المحلة ... سيد القوم أتاه الحتف ثاو تحت ظله

قصة موسى والخضر زعم وهب أن اسم الخضر ليا بن ملكان بن بالغ بن عابر بن ارفخشد بن سام بن نوح وكان أبوه ملكا وقال قوم الخضر بن عاميل من ولد إبراهيم وفي كتاب أبي حذيفة أن ارميا هو الخضر صاحب موسى وكان الله أخر نبوته إلى أن بعثه نبيا زمن ناشية الملك قبل أن يغزو بخت نصر بيت المقدس وكثير من الناس يزعون أنه كان مع ذي القرنين وزيراً له وابن خالته وروى عن ابن عباس رضه أن الخضر هو اليسع وإنما سمي خضرا لأنه لما شرب من عين الجنة لم يدع قدمه بالأرض إلا اخضر ما حوله فهذا الاختلاف في الخضر قالوا وهو لم يمت لأنه أعطى الخلد إلى النفخة الأولى موكل بالبحار ويغيث المضطرين واختلفوا في موسى الذي طلبه فقيل هو موسى بن عمران وقال أهل التورية أن موسى بن منشا ابن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران كان قد قص الله خبرها في القرآن المجيد عز من قائل وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا إلى آخر القصة وقد ذكرتهما بمعانيها ودعاويها في المعاني، قص ذي القرنين قال الله تعالى ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا فأخبر الله تعالى أنه بلغ مطلع الشمس ومغربها وبنى السد على ياجوج وماجوج واختلف الناس في اسمه وبلده وزمانه وسنته ودينه ونبوته وقال الضحاك وهو قيصر القياصرة وكان رجلاً صالحاً وملك مشارق الأرض ومغاربها وزعم مقاتل أنه نبيا يوحى إليه طاف في الأرض وقال ابن اسحق حدثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم أن ذي القرنين كان رجل من أهل مصر اسمه مرزبان ابن مدربة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح وروى عن خالد بن معدان الكلاعي عن النبي صلعم أنه قال ذو القرنين ملك مسح الأرض من تحت بالأسباب قال وسمع عمر بن الخطاب رضه رجلا ينادي يا ذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تتسموا

بالأنبياء حتى تسميتم بالملائكة وزعم وهب أن ذا القرنين ابن عجوز من عجائز الروم روينا عن الضحاك أنه كان بعد موت نمروذ بن كنعان وفي بعض التواريخ أنه كان قبل مولد المسيح بثلاثمائة سنة وقال بعضهم بل كان في الفترة وعند الفرس وأصحاب النجوم أنه الاسكندر الذي أزال ملك العجم وقتل دارا بن دارا وقال قوم أنه سمي ذا القرنين لأنه أتى عليه قرنان من الدهر وقيل كانت له ذؤابتان وقيل كانت صفحتا رأسه من نحاس وروينا عن علي رضه أنه سئل عنه فقال عبد صالح ناصح الله ودعا قومه فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله ثم ضربوه على قرنه الآخر فمات وقد قال النبي صلعم لعلي عم وانك لذو قرنيها وقيل بل كان رأى في المنام كأنه يتناول قرني الشمس وقيل بل سمي به لبلوغه في طوافه مشرق الشمس ومغربها وأهل النجوم يزعمون أنه عاش أربعا وعشرين سنة وفي كتاب أبي حذيفة رواية عن الحسن أن ذا القرنين وجد في الكتب أن رجلا من ولد سام بن نوح يشرب من عين البحر وهي من الجنة فيعطى الخلد إلى يوم القيامة فخرج في طلب تلك العين والخضر كان وزيره وابن خالته فهجم إلى تلك العين فشرب منها وتوضأ وأخبر ذا القرنين بذلك فقال أنا طلبت وأنت أصبت وقال ذاك الذي كان حمله على أن طاف في الأرض وهذا الخبر يتأوله قوم على معنى وجود حقيقته علم مطلوب خفي ويروون عن ارسطاطاليس ما قد مضى ذكره فيما قبل وأهون الأشياء فمنع هولاء الجهال بإنكار كل ما ليس في الكتاب والسنة الطاهرة فإن مثل هذه ما أسرع باناله القلوب وأرث الشبه والله المستعان وعليه التكلان

قصة موسى وهارون ابني عمران قال أهل هذا العلم أنه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم وأمه اباخة من ولد لاوى بن يعقوب وفي التورية أن اسم أمه يوخابذ وأخت موسى مريم بنت عمران بن يصهر وكانت تحت كالب بن يوفنا بن فارص بن يهوذا بن يعقوب وامرأة موسى صفراء بنت شعيب وكان فرعون مصر في زمانه الوليد بن مصعب أبو مرة رجل من العماليق وكان ابن أخت فرعون يوسف وقيل بل كان فرعون موسى فرعون يوسف قال ابن اسحق حدثني من لم اتهم أنه ملك أربع مائة سنة شاب السن أخضر الشارب لم يصدع ولم يصبه هم ولا ناواه عدو وقرأت في تأريخ اليمن أنه كان عاملا للضحاك على مصر وسمعت القصاص يزعمون أن فرعون كان من أهل بلخ وهامان من سرخس وأنهما أول من حمل بزر البطيخ إلى مصر فزرعا وتمولا واستوليا على المقابر لا يدعان ميتا يقبر إلا بجعل ثم ملك فرعون استوزر هامان والله أعلم وقد قلت لك في غير موضع من هذا الكتاب أن ما من هذه الأقاصيص والأخبار فاستمعها واعرض عنها ولا تشتغل بالاعتلال بها وطلب المخرج لمعانيها لأنها لا توجب علما ولا عملا وقد حكى الله عز وجل أنه قال أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي وقال ما علمت لكم من إله غيري وقال أنا ربكم الأعلى وفيه يقول أمية

ولفرعون إذ تساق له الما ء فهلا لله كان شكورا
قال أني أنا المجير على النا س ولا رب لي علي مجيرا
فمحاه الله من درجات ... ناميات ولم يكن مقهورا
سلب الذكر في الحياة جزاء ... وأراه العذاب والتغييرا
وتداعى عليهم البحر حتى ... صار موجا ورأه مستطيرا
فدعى الله دعوة لا تهنا ... بعد طغيانه فصار مشيرا

ذكر مولد موسى

ذكروا أن بني اسرائيل لما كثروا وتناسلوا بمصر وطال عليهم الأمد بعد يوسف أحدثوا الأحداث العظيمة في الدين وآتوا القبط على أمورهم وطابقوهم على آثارهم إلا بقايا متمسكين بدين إبراهيم فسلط الله عليهم فرعون فاستعبدهم واستذلهم وسامهم سوء العذاب من نقل الطين وتشييد الأبنية وسلخ الأساطين من الجبال ونقب البيوت في الصخور فلما أراد الله أن يستنقذهم كما ذكر في القرآن ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أيمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض فكان منهم موسى وهارون ويوشع والياس واليسع وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى وحزقيل وشمعون وشويل واشيعا ويونس فهولاء أنبياء بني اسرائيل الذين جعلهم الله أئمة للخلق وورثة للنبوة أري فرعون في المنام أن الله واهب لعبد من عبيدك غلاما يسلبك ملكك فأمر حتى فرق بين الرجال والنساء وأن يذبح كل مولود ذكر وصنع الله ليوخابذ فحملت بموسى ووضعته ولم يشعر به أحد وأوحى الله إليها وحي إلهام أن أقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم ففعلت والتقطه آل فرعون من بين الماء والشجر فسمي موسى بذلك لأن الماء بلغه القبط مو والشجر سا وهم فرعون بقتله فقالت امرأته آسية بنت مزاحم لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وطلبوا له الرضعاء فلم يقبل ثدي امرأة حتى قالت أخته مريم هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم فردوه إلى أمه ترضه بأجر قالوا فبينا موسى في حجر فرعون وألقى الله عليه محبة منه إلى أن بلغ وراهق فبينما هو ذات يوم يمشي في المدينة وذلك أن قصر فرعون كان خارج البلد فوجد فيها رجلين يقتتلان على الدين قبطي واسرائيلي فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه فندم موسى على صنيعه إذ لم يتعمد ذلك ولا أمر به فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه الآيات مفهومة على وجهها وائتمر القوم على قتله فجاء من أقصى المدينة رجل يسعى حزسل بن يوخاسل وهو الذي قال الله عز وجل في حاميم المؤمن وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب إلى قوله ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان وهما ابنتا شعيب اسم واحدة صفراء والأخرى ليا وكانتا إذا سقا القوم ماشيتهم نظرتا إلى ما بقى فالجتا ما شيتهما فمثله القوم فسقى لهما ثم تولى إلى الظل وهو جائع فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه قص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين فأنكحه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج أو عشرا وقال قوم أن الذي زوجه ابنة شعيب ختنه يترون وكان شعيب هلك قبله بزمان طويل وقال الله عز وجل فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا يقال أنه كانت ليلة عاتمة ذات ريح وبرد وكان قد تشمر عن الطريق لشدة الظلمة فرفعت لأهله نار فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى وتوجه إليها وهو يراها قريبة منه ثم أتا فنودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى إني أنا الله رب العالمين وجرى ثم في الكلام ما قص الله عز وجل في غير موضع من القرآن وأعطاه من الآيات والمعجزات والعصا واليد وأوحى إلى هرون بمصر بالنبوة والوزارة وبعثهما إلى فرعون فانطلقا وبلغا الرسالة فاستسخرهما واتهمهما وجمع السحرة مضادة لما جاء به كان من ذلك ما قال الله عز وجل فإذا هي تلقف ما يأفكون وآمنت السحرة وسجدوا لله لما رأوا من باهر الآيات وعلموا حقها وصدقها وأمر الله موسى أن يخرج ببني اسرائيل من مصر فأتى مهلك عدوهم فسرى بهم واتبعهم فرعون وجنوده فأغرقهم الله في البحر وأنجى موسى ومن معه كما ذكر في القرآن ذكر قارون

قالوا أن قارون كان واطئ فرعون على ما فعله وأعانه على ظلمه وجمع من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة وأولى القوة ولما أهلك الله فرعون وقومه حسد موسى وهارون على ما أتاهما فقال لك النبوة ولهرون الوزارة ولا شيء لي والله لا أصبر على هذا فدعى موسى عليه فخسف الله به الأرض وقال قوم بل كان سبب هلاكه كان دعا امرأة بغية أن تدعي على موسى الفاحشة فلما قامت حول الله لسانها فنطقت بالصواب والله أعلم ذكر التيه

ولما أهلك الله قوم فرعون أمر موسى بالمسير إلى الشأم وأن يقاتل الجبارين ويجليهم عنها فإن تلك الأرض المقدسة ميراث أبيكما إبراهيم عم فأبوا عليه وفشلوا عن قتالهم كما قال الله عز وجل يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم قالوا يا موسى إنا لم ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون فحرم الله عليهم دخولها وتاهوا في التيه أربعين سنة ثم ندموا وأتتهم العزمة من الله فلطف بهم وأنزل عليهم المن والسلوى فظلل عليهم الغمام وفجر لهم أثني عشر عينا إلى أن مات في التيه موسى وهارون والأباة العصاة على الله ثم افتتحها يوشع بن نون ودخلها مع أبنائهم وكان في التيه خسف قارون وعجل السامري ونزول الألواح وشق الجبل وشأن السبعين وإحراق ابنى هارون ورفع الأسباط إلى ما وراء الصين ومسألة الرؤية وقصة البقرة وحديث بلعم كان قبل ذلك وكذلك النقباء قال الله عز وجل إذا أخذنا ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم أثنى عشر نقيباً الآية ولما جاء موسى وبنو إسرائيل البحر أمره الله أن يخرج من كل سبط نقيبا يأخذ عليهم بالوفاء لله منه ومن قومه أن لا يتجادلوا ولا يتواكلوا وأن يطيعوا الله ورسوله قال الله عز وجل لموسى قل لهم أني معكم لئن أقمتم الصلوة وآتيتم الزكوة الآية فوفى بعضهم ونقض بعض بقول الله عز وجل فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية الآية قال الله عز وجل وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان وكان من الغاوين وقال بعض المفسرين أنه بلعم بن باعوراء وكان مستجاب الدعوة وكان يعلم اسم الله الأعظم قال وكان إذا سجد رفعت له الحجب حتى يرى ما تحت والثرى والكرسي فلما قصد موسى البلقاء مدينة الجبارين هابوا حدته وشدته فسألوا بلعم أن يدعو عليه فدعا عليه فاختلف بنو إسرائيل وأبو أن يقاتلوا وتاهوا في التيه ودلع لسان بلعم بن باعوراء وذهبت الآيات التي كان الله أعطاها قال الله عز وجل ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون قال بعض أهل النفسير أنه لما اختلف بنو إسرائيل بعد موسى فزعت طوائف من الأسباط إلى الله أن يفرق بينهم وبين سائر بني إسرائيل قالوا فرفعهم الله إلى أرض من وراء الصين طاهرة طيبة لا يتظالم أهلها ولا يتعادى سباعها وروى أن النبي صلعم رفع ليلة المعراج إليهم فآمنوا به واتبعوه قال الله عز وجل واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ذكر أهل النفسير أن القوم لما أضلهم السامري بعبادة العجل سألوا موسى أن يعتذر إلى ربهم فأمره أن يختار منهم سبعين رجلا ويأخذ بهم إلى الجبل ليقبل توبتهم ويثيبهم عن حسن طاعتهم في قتل أنفسهم ففعلوا وأتوا الجبل وكان الله عز وجل يكلم موسى عم موسى يبلغهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ثم دعا موسى فقال لو شئت أهلكتهم من قبل فأحيوا ثم قالوا قد علمنا أنه لا يرى ولكن أسمعنا كلامه فسمعوا صوتا خرجت أرواحهم ثم دعا موسى ثانيا فردها الله إليهم وجعل يكلم موسى وموسى يبلغهم فلما رجعوا إلى بني إسرائيل حرف بعضهم ما كان أوصى به وأمر بقول الله عز وجل وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون قال الله عز وجل وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون قال بعض أهل النفسير أنه كان مكتوبا عليهم بالتورية ايما قتيل وجد بين قريتين وليس إلى أقربهما واخذ أهل تلك القرية بذنبه فإن أنكروا استحلفوا منهم خمسون رجلا وذكوا بقرة ووضعوا أيديهم عليه يحلفون بالله ما قتلناه ولا عرفنا قاتله فيبرءون من دمه حتى قتل رجل ابن عم له يقال له عاميل مخافة أن يتزوج ابنة عمه فطرحه في بعض الأودية وأصبح القوم والقتيل بين

أظهرهم ولا يدرون من قاتله ففزعوا إلى موسى فأمرهم بذبح بقرة من البقر فلم يزالوا يراجعونه ويشددون على أنفسهم حتى قصروا على الشيمة الموصوفة في القرآن فذبحوها وضربوه ببعضها فعاش فأخبره بقاتله فقال الله تعالى وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم الآية قال أهل التفسير لما أتاهم موسى بالتورية وما فيها من الشدة والتغليظ مثل الرجم والقطع والقصاص أبى القوم أن يقبلوه فرفع الله فوقهم جبلا وقيل لهم إن قبلتم التورية بما فيها وإلا رضختم به فسجدوا على أنصاف وجوههم وقبلوه

كرها منهم وقال الله عز وجل واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار الآية قال بعضهم أن السامري كان ابن عم موسى واسمه موسى بن طفير ويقال كان من أهل باجرما ولما ذهب موسى إلى الطور لميعاد أخذ الألواح عد السامري عشرين يوما وعشرين ليلة ثم قال إن موسى قد نسى ربه وهذا الميعاد قد انقضى فصاغ لهم عجلا وعكفوا عليه يعبدونه فعجل الله توبتهم القتل فقتلوا حتى بلغ القتلى سبعين ألفا بقول الله عز وجل فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم قال الله عز وجل وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء الآية وزعم وهب أن بني إسرائيل لما تاهوا في الأرض سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب يعرفون فيه ما يأتون وما يدرون فسأل موسى ربه فأمره أن يخرج إلى الطور ويصوم ثلاثين يوما ليكلمه ويعطيه الألواح فخرج موسى واستخلف هارون في قومه وأوعدهم أربعين ليلة وصام ثلاثين يوماً ثم أكل من لحاء الشجر ويقال تسوك وشوص فاه بالماء فأمر الله بإتمامه بعشر ثم كلمه وأعطاه الألواح وهاهنا سأل موسى الرؤيةا منهم وقال الله عز وجل واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار الآية قال بعضهم أن السامري كان ابن عم موسى واسمه موسى بن طفير ويقال كان من أهل باجرما ولما ذهب موسى إلى الطور لميعاد أخذ الألواح عد السامري عشرين يوما وعشرين ليلة ثم قال إن موسى قد نسى ربه وهذا الميعاد قد انقضى فصاغ لهم عجلا وعكفوا عليه يعبدونه فعجل الله توبتهم القتل فقتلوا حتى بلغ القتلى سبعين ألفا بقول الله عز وجل فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم قال الله عز وجل وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء الآية وزعم وهب أن بني إسرائيل لما تاهوا في الأرض سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب يعرفون فيه ما يأتون وما يدرون فسأل موسى ربه فأمره أن يخرج إلى الطور ويصوم ثلاثين يوما ليكلمه ويعطيه الألواح فخرج موسى واستخلف هارون في قومه وأوعدهم أربعين ليلة وصام ثلاثين يوماً ثم أكل من لحاء الشجر ويقال تسوك وشوص فاه بالماء فأمر الله بإتمامه بعشر ثم كلمه وأعطاه الألواح وهاهنا سأل موسى الرؤية ذكر الهيكل الذي بنى موسى بلغ أهل الكتاب أن الله تعالى أمر موسى عم أن يتخذ مسجدا لجماعتهم وبيت قدس لقربانهم فبنى ووضع فيه الألواح وكانوا يدرسون فيه ويقربون القربان وكان نار تنزل فتأكل قرابينهم والهيكل يسير معهم في التيه حيث ساروا فامتزج ابنان لهارون ليلة من الليلي التي كان تنزل النار فيها لأكل القربان فأكلتهما النار وأحرقتهما ومات هارون قبل موسى بثلاث سنين وهو ابن مائة وثماني وعشرين سنة واستخلف يوشع بن نون واختلفت التواريخ في من كان ملك العجم زمن موسى عم ففي بعضها أنه انقضى أمر موسى ويوشع وكالب بن يوفنا وتوساقين وحزقيل في زمن الضحاك وفي بعضها أن أمر موسى مع فرعون إنما كان في أيام منوجهر بعد الضحاك بخمس مائة سنة وقرأت في سير العجم أن كيلهراسب الجبار الذي بنى مدينة بلخ وزرنج أخرب بيت المقدس وشدد ما كان بها من اليهود ببيت المقدس ما كان إلا بعد موسى ويوشع وفي كتاب معارف العتبي أن موسى عم بعث على عهد بهمن بن اسفنديار فلما بلغه أن في أرض اوريشلم احدثوا دينا بعث إليهم بخت نصر وهو عندهم بخت نرسى فقتلهم وسباهم والله أعلم

ذكر معجزات موسى عم وعجائب بني إسرائيل وما اتفق منها وما اختلف أما الذي ينطق به الكتاب فالعصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر ومجاورة بني إسرائيل وانفجار الماء من الحجر في التيه وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وحياة القتيل حين ضرب ببعض البقرة وشق الجبل وخسف قارون وأخذ الصاعقة السبعين وإحياؤهم وأمر التيه والطمس الذي أصاب مال فرعون بدعوة موسى فهي باقية إلى اليوم ترى وتشاهد قال محمد بن كعب فصار الرجل مع أهله في فراشه حجرا وصارت النخلة بثمرها حجرا وضرب لهم موسى طريقا يبسا في البحر وجاء في الأخبار أن موسى عم لما أراد أن يخرج بني إسرائيل من مصر استعار من أمراء آل فرعون الحلي سوى الحلل غنيمة لهم نقلهموها فلما خرجوا ألقى الله على أبكار القبط الموت فمات لكل رجل منهم بكر ولده فاشتغلوا بهم إلى ان تباعد بنو إسرائيل وخرج فرعون في أثرهم على ساقته مائة ألف من الخيل الدهم سوى سائر الألوان والشيات ومن كل ما في المقدمة والجنبين ولما ضرب موسى لبني إسرائيل البحر بعصاه أبوا أن يدخلوا فيه حتى جعل لهم طيقانا اثني عشر لكل سبط طاق على حدة ينظر بعضهم إلى بعض وان جبريل أتى على فرس أنثى فتقدم بين يدي فرعون وهو على حصان من الخيل فأقحم جبريل فرسه في البحر واشتم برذون فرعون رائحته فأتبعه حتى إذا توسط اللج غرق فلما ألجمه الغرق رفع سبابته بالشهادة وقال آمنت بالذي لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل فأخذ جبريل من حاذ البحر فأدخله فاه من عجائب كثيرة مشهورة في العوام لا يوصف بمثلها نبي من الأنبياء ولا أمة من الأمم وقد جاء في الحديث حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج وسبيل جميع ما ذكرنا سبيل معجزات الأنبياء والعلة فيه واحدة والحجة واحدة إلا أن المعول منها على ما صح وسلم فاما من يرفع عن مساعدة العوام لفرط جهله في مذاهبهم وجانب مواطأتهم فهو بين جاهر بإنكار هذه المعجزات رأسا وبين حامل لها على تأويل منحول مستكر ولقد رأيت بعضهم يزعم أن تلقف عصى موسى عصيهم غلبهم بحجته حجتهم وكذا شعاع اليد وانفجار الماء من الحجر وحياة السبعين بعد موتهم فكل ذلك مثل لإصابتهم وجه العلم فيما طلبوا بعد ما كانوا ماتوا بالجهل وسمعت من يقول منهم أن موسى عم أرسل على فرعون ومن معه ذنبا من البحر فهلكوا في مناخهم كما فعلت القرامطة بابن أبي الساج مع تخليط كثير ووساوس والله أعلم وهذه القصص مسرة مستوفاة في كتاب معاني القران بوجوهها واعرابها ومعانيها واختلاف الناس فيها فلذلك يجوز هذا هاهنا، قصة يوشع بن نون كان خليفة موسى وولى عهده ونبأه الله بعده وروى عن الحسن أنه قال إن النبوة حولت إليه في حياة موسى فلما رأى موسى مفارقة النبوة تمنى الموت حينئذ وقيل أن يوشع هو ذو الكفل ابن أخت موسى وتلميذه الذي سار معه في طلب الخضر وهو الذي افتتح بلقاء مدينة الجبارين بعد موسى وقتل الجبابرة فجنح عليه الليل وقد بقيت منهم بقية فدعا ربه أن يحبس عليه الشمس حتى يفرغ منهم قال وهب فمن ذلك اختلط حساب المنجمين قال وقتل بالق ملك بلقاء والسميدع بن هوبر ملك الكنعانين واحدا وثلاثين ملكا من ملوك الشأم ولبث أربعين سنة ملكاً نبياً ثم مات واستخلف كالب بن يوفنا وفيه يقول بعضهم

ألم تر أن العقلمى بن هوبر ... بابلة أمسى لحمه قد تمزعا

ولم تسمع في الأخبار شيئا من نبوته وكان خليفة يوشع بن نون وتحته مريم بنت عمران أخت موسى عم وهو أحد الرجلين اللذين قال الله تعالى قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما الآية فلما احتضر استخلف ابنا له يوساقانين ، قصة كالب بن يوفنا يقال أن كالب كان نظير يوسف في الحسن والجمال فكان النساء يفتتن به فدعا ربه أن يغير خلقه قال وهب ضربه الله بالجدري وبثرت عيناه ومعطت لحيته وخرم أنفه وانثنى أسفل وجهه الذقن

والقم حتى صار له خرطوم كخرطوم السبع فقذره الناس ولم يقدر أحد النظر إليه وقام بالعدل في بني إسرائيل أربعين سنة وتوفى

قصة حزقيل يقال حزقيل بن ديحنة أبوه وبور أبوه وهو نبي القوم الذي قال الله تعالى ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت الآية وقال قوم هربوا من قتال عدو لهم وقال السدى بل هربوا من الطاعون وكانوا بضعا وثلاثين ألفا وقد أثبت في القصة ما اختلفوا فيه في كتاب المعاني على وجهها، قصة شمويل بن هلقانا وهو بالعربية اشمويل وهو نبي القوم الذي قال الله عز وجل ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله وكان لبني إسرائيل تابوت توارثوه عن الأنبياء يتبركون به ويستنصرون على أعدائهم فغلبت العماليق وذهبت قوتهم وريحهم وسألوا شمويل أن يبعث لهم ملكا يقاتل بهم فجاءهم طالوت ملكا وكان من سبط ابن يامين فأبوا أن يذعنوا له إلا بآية فقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فأتاهم بحملة الملائكة وقاتل به طالوت عدوهم فقتل داود جالوت رأس العمالقة وهزموهم واستنقذوا من كان في أيديهم من الأسارى، قصة الياس يقال هو الياس بن العادر من ولد يوشع بن نون وكان ابن اسحق يقول هو الياس بن يسى من ولد هرون بن عمران يقال له الياس والياسين واذرياسين ويقال هو ذو الكفل بعينه بعثه الله بعد حزقيل إلى ملك ببعلبك يقال له آحب وله امرأة يقال لها ازبيل كان يستخلفها على ملكه إذا غاب قتالا للأنبياء عابدة للأصنام ولهم صنم عظيم اسمه بعل فكذبوه وعصوه ونفوه فأمسك الله عنهم السماء حتى أجهدهم الجوع فطلبوا الياس كل مطلب يعنتوه ويراجعوه فيدعوا لهم وكان اليسع بن أخطوب تلميذ الياس فبعثه الله إليهم ان أردتم أن يكشف الله عنكم الضر فدعوا عبادة الأصنام قال فآمنوا وصدقوا فرفع الله عنهم البلاء وعاشوا ثم عادوا إلى كفرهم فدعا الياس أن يريحه منهم، ذكر الاختلاف في هذه القصة زعموا أن الياس كان سياحا يأكل الحشيش الأخضر حتى يرى ذلك في أمعائه من وراء حجاب أضلاعه ولما كفروا به أوحى الله إليه وقد جعلت رزقهم بيدك فحبس عنهم القطر ثلاث سنين حتى أكلوا الجيف والكلاب الميتة فلما عادوا إلى كفرهم بعد إيمانهم به سأل ربه أن يرفعه من بينهم قالوا فجأته دابة لونها لون النار فوثب عليها وانطلقت به وناداه تلميذه اليسع بم تأمرني قال بطاعة الله والعهد وكساه الله الريش وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وجعله أرضيا سماويا ملكيا انسيا قال الحسن هو موكل بالقياني والخضر بالبحار يجتمعان بالمواسم في كل عام، ذكر اليسع بن أخطوب وكان تلميذه فنبأه الله بعده وقد يقال أن اليسع هو ذو الكفل وقيل هو الخضر وقيل هو ابن العجوز والله أعلم وفي كتاب أبي حذيفة أن ذا الكفل هو اليسع بن أخطوب تلميذ الياس وليس هو اليسع الذي ذكره الله في القرآن يرويه عن أبي سمعان فإن كان هذا حقا فهما اليسعان والله أعلم وأما ذو الكفل فمختلف فيه اختلافا كثيرا تجده في كتاب المعاني إن شاء الله تعالى

قصة داود عم هو داود بن ايشا من ولد يهوذا بن يعقوب نبأه الله بعد شمويل بن هلقانا وملكه بعد طالوت فاجتمع له الملك والنبوة إلى أن وقع بالخطيئة واختلفوا في سبب خطيئة فالمعروف عند أصحاب الأخبار وأهل الكتاب ورواية الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن النبي صلعم أنه قال أشرف فرأى امرأة فوقعت في قلبه فبعث زوجها في من بعث في الحرب حتى استشهد فلما انقضت عدة المرأة تزوجها فولدت له واسم المرأة بتشبع واسم زوجها اوريا واستعظم قوم هذا من فعل الأنبياء ورووا رواية أن داود كان يدارس على بني إسرائيل العلم ويدارسونه فقال بعضهم لا يأتي على بني آدم يوم لا يصيب فيه خطيئة فقال داود لاخلون اليوم واجتهدن في تنحي الخطيئة عني فأوحى الله إليه يا داود خذ حذرك وقال بعض الناس بل كانت خطيئة أن استمع إلى أحد الخصمين وقضى له دون

أن استماع من خصمه ونعوذ بالله من طلب مخرج لرسول فيه تكذيب للكتاب ولو كان كذلك فما معنى قوله وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إلى آخر الآيات الأربع كلها تعريض لداود عم في صنيعه وذكر النعجة كناية عن الظعينة لا غير فلنا عرف خطيئته خر راكعا واناب بقول الله عز وجل فغفرنا له ذلك وقد احتج هذه الطبقة بقوله تعالى يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق الآية فكان الله عز وجل سخر معه الجبال يسبحن بالعشي والاشراق وسخر له الطير يجاوبه ويطيعه والان له الحديد يعمل السابغات، ذكر اختلافهم في هذه القصة وصفوا من طول سجوده وشدة جزعه وكثرة بكائه ما يضيق الصدر عن تصديقه قالوا حتى نبت العشب بين دموعه ولصقت جلده حزيمة بمسجده وكان يجمع في كل أسبوع الناس فينوح على خطيئته وزعم وهب أن الله عز وجل أنزل له سلسة بجبال للصخرة ينالها المظلوم ولا ينالها الظالم إلى أن مكر بها ماكر وارتفعت وصار الحكم باليمين والشهود ويقول قوم أن معنى الانة الحديد ما سهل عليه من صنعة الدروع لأن نفس الحديد تغير عن طبعه قالوا ومعنى قوله يا جبال اوبى معه والطير اوب عند النظر إليها والطير على القلب قصة لقمان الحكيم قالوا أنه كان عبدا حبشيا عظيم الشفتين والمنخرين مصطك الركبتين وزعم وهب أن الله خيره بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة فلما وقع داود بالخطيئة جعل يقنط لقمان قال الله تعالى ولقد آتينا لقمان الحكمة وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم وذكر وهب أنه أصاب للقمان عشرة آلاف كلمة من الحكمة وقد استعملتها في خطبهم ووصاياهم قال ولم يزل يعظ ابنه ماثان حتى قناع قلبه فمات

قصة سليمان بن داود عم قالوا استخلفه داود وهو ابن اثنتى عشرة سنة وجعله يستشيره في أمره ويدخله في حكمه فأول فتنة أصابته أن امرأة كانت كسيت جمالا وكمالا جاءت إلى قاض لداود في خصومة لها فأعجبته فراودها على القبح فقالت أنا أبعد من هذا فتواطأ القاضي وصاحب الشرطة وحاجب داود وصاحب السوق وشهدوا لداود أن لهذه المرأة كلبا ترسلها على نفسها فأمر بها داود فرجمت وبلغ الخبر سليمان وهو يومئذ غير بالغ فخرج مع غلمان يلعبون فجعل أحدهم على القضاء والثاني على الشرطة والثالث على السوق والرابع على الحجبة وجعل واحدا منهم بمنزلة المرأة ثم قعد مقعد داود وجاء القوم وشهدوا على الذي هو بمنزلة المرأة ففرق بينهم سليمان ثم سألهم في خفاء عن لون الكلب فقال أحدهم أحمر والآخر أغبس واختلفوا في صفته وذكورته وأنوثته وصغره وكبره فرد شهادتهم فبلغ الخبر داود فدعا بالذين شهدوا على المرأة وفرق بينهم وسألهم فاختلفوا عليه فأمر بهم فقتلوا بالمرأة قالوا وكانت امرأتان يغتسلان في نهر ومع كل واحدة منهما صبي فجاء الذيب فاختلس أحد الصبيين فتنازعتا الصبي الباقي وادعتاه فحكم داود بالولد لإحداهما قال فمرت المرأتان بسليمان وقصتا عليه القصة فقال سليمان عليكما بالسكين اقطعه بينكما نصفين فقالت أم الصبي هو لها لا تقطعه وقالت الأخرى اقطعه بيننا فدفع إلى من سلمت وكرهت القطع قالوا وجاءه رجل فشكا إليه جيرانا له أخذوا إوزة له فأكلوها فخطب سليمان الناس وقال يعمد أحدكم إلى إوزة جاره فيسرقها ويأكلها ثم يدخل المسجد وريشها في قلنسوته فمد الرجل يده إلى قلنسوته ينظر أبها ريش أم لا فقال سليمان لصاحب الإوزة دونك الرجل فخذه وقد قال الله عز وجل وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث الآيات قالوا أن غنم رجل نفشت ليلا في كرم رجل فأفسدته فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان غير هذا القضاء قال ارفق بالقوم وقال كيف قال يدفع صاحب الغنم غنمه إلى صاحب الزرع لينتفع من ألبانها وأصوافها بقدر الحاجة في ماله ثم يرد رقابها قال الله عز وجل ففهمناها سليمان وكان داود وضع أساس بيت المقدس فبناه سليمان وأتمه قال الله عز وجل وورث سليمان داود وقال أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء وقال ولسليمان الريح غدوها شهر رواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه

ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وقال الله تعالى حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل الآية هذا كله كما قال الله عز وجل آمنا به وصدقناه وقال تعالى فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وذكروا أنه كان يأمر الريح فتحمله وعسكره وتسير بهم حيث شاء فتغدوا بهم مسيرة شهر في غداة وتروح بهم مسيرة شهر في رواح ووجد بناحية دجلة مكتوب على بعض الأبنية العادية القديمة نحن نزلناه وما بنيناه وهكذا مبنيا وجدناه عدوناه من اصطخر فقلبناه ونحن رايمون منه فاتون الشام إن شاء الله وقالوا كان ملك داود بالشام في أول ملك منوجهر بابل وملك غمدان باليمن ولا يتيقن ذلك ولا يمكن لطول العهد وضعف الوهم به ولا يصف المسلمون وأهل الكتاب سليمان بشيء من المعجزة والملك في طاعة الجن والإنس والشياطين له ومعرفة منطق الطير والبهائم وحمل الريح إياه واستخراج النورة والجص والجواهر المعدنية وبناء الحمامات وغير ذلك إلا والفرس يصفون به جم شاذ الملك فلا أدري أهو سليمان عندهم أم لا فإن كان ما وصفوه به حقا لم يكن الرجل إلا نبيا لأن مثل المعجزات لا يتأتي لغير الأنبياء قال الله تعالى واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان قال أهل التفسير أن طائفة من اليهود زعموا أن سليمان كان ساحراً آخذاً بالأبصار مموها على الناس وأنه ملك الجن والإنس بسحره ومنهم من أقر بالسحر وصححه وجعله علما حقيقيا فنفى الله عنه دعواهم وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر قالوا وكان ظهور السحر في أيام ذهاب ملك سليمان استخرجته الشياطين وثبته في الناس ونسبوه إلى سليمان الملك النبي واختلفوا في السبب الذي عوقب لأجله بذهاب الملك فزعم زاعم أنه سبى جارية شعف بها فاستأذنته في أن تصور تمثال ابنها تتسلى به

وتستأنس فأذن لها قالوا فعبدته أربعين يوما وزعم آخر أنه سأله بعض نسائه أن تقرب لأبيها قربانا فأذن لها في تقريب جرادة وقال قوم بل كان ذنبه اشتغاله بالصافنات الجياد حتى توارت الشمس بالحجاب وقيل بل بضربة سوقها وأعناقها قال الله عز وجل وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير وقد ذكر الله تعالى قصته مع بلقيس في هذه السورة وكيف كان مجيئها وإسلامها ومجيء عرشها في ارتداد الطرف وهداية الهدهد إليها وللعرب أشعار كثيرة في تحقيق أمر سليمان فمنه قول الأعشى بن قيسوتستأنس فأذن لها قالوا فعبدته أربعين يوما وزعم آخر أنه سأله بعض نسائه أن تقرب لأبيها قربانا فأذن لها في تقريب جرادة وقال قوم بل كان ذنبه اشتغاله بالصافنات الجياد حتى توارت الشمس بالحجاب وقيل بل بضربة سوقها وأعناقها قال الله عز وجل وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير وقد ذكر الله تعالى قصته مع بلقيس في هذه السورة وكيف كان مجيئها وإسلامها ومجيء عرشها في ارتداد الطرف وهداية الهدهد إليها وللعرب أشعار كثيرة في تحقيق أمر سليمان فمنه قول الأعشى بن قيس

فلو كان حيا خالد ومعمرا ... لكان سليمان البرئ من الدهر

براه إلهي واصطفاه عبادة ... وملكه ما بين سرفي إلى مصر

وسخر من جن الملائك شيعة ... وقياما لديه يعملون بلا أجر

قصة بلقيس يقال هي بلقيس بنت هداد بن شراحبل بن عمرو ابن الحارث بن الرياش وكانت ملكة باليمن واباءها كانوا ملوكا قبلها وكاتبها سليمان عم وراودها على الإسلام فأجابت وأقبلت وتزوج بها سليمان ويقال بل زوجها من مقاول اليمن وردها إلى ملكها قالوا وكانت زباء هلباء فأمر سليمان فبنوا لها صرحا من قوارير لتخوضه فكشفت عن ساقيها وهي تظن أنه ماء حتى رأى سليمان الشعر عليها فأمر فاستخرجوا لها النورة والزرنيخ ذكر اختلاف الناس في هذه القصة وقصة سليمان عم قال قوم تسبيح الجبال مع داود شيء لا يعلمه أحد غيره وكذلك

الطير مع سليمان لم يسمعه معه أحد قال وإنما هو كما روى أن الحصى سبح في كف النبي صلعم بقول الله عز وجل وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم فمن فقه تسبيحه فقد سبح معه قالوا ومعنى قوله وأسلنا له عين القطر هو ما اهتدى إلى استخراجه من معدنه كسائر الجواهر قالوا ومعنى قوله تفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أنه رجل سريع وهذا معروف في الناس أنهم يسمون الخفيف السير الكثير المشي بأسماء الطيور تشبيهاً بها في سرعة السير قالوا ومعنى قوله حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة أنهم قوم ضعاف خافوا خبطة عسكر سليمان بظلمهم إياهم فتبسم ضاحكا من قولها من معرفته لغتهم دون أصحابه قالوا ومعنى الشياطين والجن عتاة الناس وأشداءهم وحذاقهم وعرفاءهم بالأمور الغامضة والصنائع البديهة قالوا وتسخير الريح له غدوها شهر رواحها شهر مثل لبعد هيبته في الأرض ونصرة دولته وكان يهاب يطاع مسيرة شهر في شهر قالوا وليس في القرآن أنه ملك مشارق الأرض ومغاربها واحتجوا بقول النبي صلعم نصرت بالرعب حتى أن عدوي ليخافني على مسيرة شهر وقالوا في ذكر موته ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته أن هذا ممكن فيما بيننا والمنساة السرير أو خشبة أعمد إليها يرون الناس أنه حي بعد وأنكروا ما جاء في الخبر أن بلقيس كانت أمها امرأة من الجن قالوا اللهم إلا أن يرد صنفا من الناس وأعلم أن لمحمد بن ذكريا كتابا زعم أنه مخاريق الأنبياء لا يستجير ذكر ما فيه ولا يرخص لذي دين ولا مروءة الإصغاء إليه فإنه المفسد للقلب المذهب للدين الهادم للمروءة المورث البغضة للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ولأتباعهم ونحن لا نحمل على عقولنا ما ليس في وسعها لأنها عندنا مبدعة متناهية

قصة يونس بن متى قال أهل العلم ثم إن بعث يونس بعد سليمان إلى أهل نينوى وهي الموصل فكذبوه وأخرجوه وعاودهم مرارا فجعلوا ينفونه ويطردونه فوعدهم العذاب وأخذ عليهم الميثاق إن لم يأتهم كما وعدهم أن يقتلوه وخرج من بين ظهرانيهم فلما استيقن القوم بالهلاك صعدوا إلى تل لهم يقال له تل التوبة وتابوا وأخلصوا وضجوا إلى الله عز وجل فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ثم أمر الله عز وجل يونس بالرجوع إلى قومه فخشى من القوم القتل ولم يعلم بتوبتهم وإنابتهم وأنهم آمنوا فذهب مغاضبا لقومه فعوقب بالحوت كما قص الله عز وجل إذ أبقى إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون فنبذنا بالعراء وهو سقيم يقول كالسقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين يقال البطيخ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون قال الحسن كان يونس نبيا غير مرسل ثم صار بعد أن نجاه الله من الحوت نبيا مرسلا فعاد إليهم وأقام لهم السنن والشرائع ثم استخلف عليهم شيعا وخرج هو والملك معه يسيحان في الجبال ويعبدان الله حتى لحقا بالله عز وجل، ذكر اختلاف الناس في هذه القصة روى في بعض الأحاديث أن النبي صلعم قال لا تفضلوني على أخي يونس بن متى ومن قال أنا خير منه فقد كذب ورأيت ناسا من الأمة ينكرون هذا والله أعلم وذكروا من مساهمة يونس عم ركاب السفينة أن الريح عصفت والسفينة قد تكفأت فقال يونس اطرحوني في الماء فإني أنا المطلوب فأبوا عليه حتى قارعهم فقرعوه وأن الحوت التقمه فنادى في ظلمات جوفه أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجاب له ونجاه من الغم وألقاه الحوت على الشط ونبتت له شجرة يستظل بها فلما يبست خلص حر الشمس إلى جلدته وهي كالفرخ الممعوط فبكى قيل فأوحى الله إليه تبكي على شجرة أنبتت في ساعة وكيف دعوت بالهلاك على مائة ألف أو زيادة وأما الزائغون عن القصد فمن منكر بقاء ذي روح في بطن حيوان ويتأول ذلك حجة لزمته وحقا أسكته وندؤه في الظلمات قالوا هي ظلمات الجهل والحيرة وإلقاءه بالعراء طرف من العلم إليه وانشاءه هذا كما قالوا في تأويل العصا واليد لموسى والسفينة لنوح وسائر المعجزات والله أعلم وكيف يصح لهم هذا التأويل

وهم يقرؤون وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين ويقرءون فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ويقرءون فالتقمه الحوت وهو مليم أو ليس الجنين في بطن أمه متنفس فهل يعجز من أبقى الأجنة في ظلم الأرحام أن يبقى الأرواح في أجسام المحبوسين حيث لا يصل إليهم الهواء والله المستعان قصة شعيا ابن اموص النبي وصديقه الملك قالوا أقبلت بنو إسرائيل بعد يونس زمانا على الهدى والاستقامة إلى أن مات الملك صديقه فاختلفوا وعدوا على شعيا فقتلوه وقال بعضهم أنه انفلقت له شجرة فدخلها والتأمت عليه وأن الشيطان أخذ بهدبة ثوبه فلما لحقه الطلب فقال هاهو في جوف هذه الشجرة دخلها بسحره فقطعوه بالمنشار وسلط الله عليهم العدو وهو الذي ذكره الله عز وجل في القرآن فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا وهي أولى الفساد الذي قضاه الله على بني إسرائيل في الكتاب فقال لتفسدان في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا وقيل في من سلط الله عليهم في أول الفساد غير هذا والله أعلم وهو مستطر في كتاب المعاني بتمامه قصة أرميا النبي قال وهب أنه هو الذي قص الله عز وجل في القرآن خبره فقال أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال أني يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه الآية ويقال بل كان عزيرا والقرية دير سابراباد والله أعلم

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

قصة دانيال الأكبر قال أهل هذا العلم أن دانيال الأكبر رأى في منامه أن خراب بيت المقدس يكون على يدي بغية من أرض بابل فقام وتجهز بمال وأقبل حتى وافى أرض بابل فلم يزل يطلبه حتى وجده فأعطاه وكساه وأخبره أن الأمر صائر إليه وعاهده على أن يهيجه ولا ولده ولا قرابته إذ كان كذلك ومات دانيال وغدا بنو إسرائيل على شعيا فقتلوه ويقال بل قتلوا زكرياء بن أزن وكان الملك سنحاريب بأرض بابل قد تفرس في بخت نصر الشهامة والكفاية فأدناه ورفع منزلته فبعثه إلى بني إسرائيل وفي كتاب سير العجم أن الذي بعث بخت نرسى إلى الشام بهمن بن اسفنديار فأتاهم وقتل منهم وسباهم وعاد إلى أرض بابل وفي السبي ارميا النبي وعزير ودانيال الأصغر وهو من ولد دانيال الأكبر وهو الذي وجد في مدينة السوس حين افتتحها أبو موسى الأشعري فأمره عمر أن يدفنه حيث لا يشعر به وهلك الملك وأفضى الأمر كله إلى بخت نصر وملك ما شاء الله ثم رأى رؤيا هائلة فظيعة ولم يجد عند أهل العلم منهم تأويلها فدعا دانيال وأخبره بها فتأولها له فحسن موقعه عنده فاستخلصه واستخصه وشفعه في سبي بني إسرائيل فردهم إلى الشام وفيهم عزير وارميا ويزعم وهب في قصة بخت نصر وابنه بلطاشص أشياء في تحوله في صور جميع الحيوان وتصرف الأحوال عقوبة سواء صنيعه وأنه حول جميعه إنسياً آخر ذلك كله وآمن بالله ومات، قصة عزير بن سروحا قالوا كان عزير في سنى بخت نصر فلما رجع إلى بيت المقدس قعد تحت شجرة وأملى عليهم التورية من ظهر قلبه وكانوا قد نسوها وضيعوها لأن أباه سروحا كان دفنها أيام بخت نصر ولم يعلم بمكانها إلا عجوز همة فدلتهم عليها فاستخرجوها وعارضوا بها ما أملى عليهم فوجدوه ما غادر حرفا فعند ذلك قالت طائفة أنه ابن الله ولم يقله كلهم وروى جوبير عن الضحاك أنه قال لما قالت النصارى المسيح ابن الله قالت فرقة من اليهود معاندة لهم بل عزير ابن الله وزعم وهب أن عزيرا تكلم في القدر فزجر فلم ينزجر فمحا الله اسمه من ديوان الأنبياء ويقال هو الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام الآية قصة زكريا بن ازن ويحيى بن زكريا وعمران بن ماثان قالوا أن زكريا بن آزن من ولد داود وكان رجلا نجارا وكانت تحته اشباع بنت عمران بن ماثان أخت مريم بنت عمران أم عيسى وكان يحيى وعيسى أبنى خالة وكان زكريا الرائس الذي يقرب القربان ويكتب التورية وهو الذي كفل مريم فلما ظهر بها الحمل زعمت يهود أنه ارتكب منها الفاحشة فهرب منهم واتبعوه فقطعوه نصفين يقال بالمنشار قصة يحيى قالوا ولما رأى زكرياء ما أكرم الله به مريم من الفضيلة والكرامة تمنى الولد ودعا فعند ذلك دعا زكرياء ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء فبشر الله تعالى بالولد على كبر السن كما قال الله فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين قال زكرياء أنى يكون لي غلام وقد بلغت من الكبر عتيا قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا يقول لا تكلمهم ثلاث ليال وأنت سوي من غير علة قال قتادة عوقب بحبس لسانه عن الكلام لطلبه الآية بعد مشافهة الملائكة وقضى الله عز وجل فواقع زكرياء اشباع بنت عمران فحملت يحيى كرامة من الله عز وجل ورحمة وزكوة وحصورا ونبيا كما وصف قالوا وهم الملك أن يتزوج ابنة امرأة له فنهاه يحيى عن ذلك فاحقدت المرأة عليه فسقت الملك حتى ثمل ثم زينت ابنتها وأرسلتها إليه ونهتها أن تطاوعه ما لم يأت برأس يحيى بن زكرياء ففعل وسلط عليهم بخت نصر فقتل على دم يحيى سبعين ألفا وخرب بيت المقدس وهي أخرى الفسادين ويقال بل سلط عليهم انطياخوس المجوس وكان

بخت نصر قد هلك قبل ذلك ويقال بل جودرز بن اشبكان أحد ملوك الطوائف ذكر اختلافهم في هذه القصة وزعم قوم أن رأس يحيى جيء به في طست ووضع بين يدي الملك وهو يقول لا يحل لك وان دمه صار يغلى في موضعه غليانا كلما كفر بالتراب ظهر عليه وغلا إلى أن قتل على دمه سبعون ألفا فسكن وأنه التقت أم يحيى وأم عيسى وهما حاملان فقالت أم يحيى أني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك وقد قال بعضهم أن يحيى كان أكبر من عيسى بثلاث سنين وأن زكرياء مات موتا ولم يقتل

ذكرمريم بنت عمران أم عيسى قد ذكر الله عز وجل قصتها في سورة آل عمران إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني الآية ذكروا أن اسمها حنة بنت فاقوز من راهبات بني إسرائيل وأختها اشباع بنت فاقوز كانت تحت زكرياء عم زوج حنة عمران بن ماثان بن باسهم بن يعافيت من ولد داود النبي عم وكانت حنة قد قعدت عند المخيض فبينا هي في ظل شجرة إذ نظرت إلى طير يزق فرخا له فتحركت نفسها للولد فدعت ربها أن يهب لها ولدا ثم جامعت زوجها فحملت بمريم وهلك عمران فلما أجيبت بالحمل جعلته نذرا لله عز وجل كما قال الله عز وجل رب أني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني الآية فلما وضعتها قالت رب أني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وكان لا يحرر إلا الغلمان لأنه لا يصح لخدمة المذبح والمسجد الجواري لما يصيبهن من الحيض ثم لفتها في خرقة وأتت بها المسجد وفيه الأحبار والرهبان يكتبون ما درس في التورية فتشاجروا في قبولها وأقرعوا عليها فقرعهم زكرياء فقبلها واسترضعها إلى أن فطمت ثم استحصنها إلى أن عقلت ثم بنا لها صومعة في المسجد ونقلها إليها فكانت تتعبد فيها من العابدات وكان زكرياء وكل بها وبخدمتها رجلا يقال له يوسف النجار وكان ابن خالها فكلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا يقال فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله وهنالك دعا زكرياء ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فوهب الله له يحيى عم ذكر مولد عيسى يقول الله عز وجل واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا إلى قوله ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون فقص الله من خبره ما لا يحتاج معه إلى قول غيره وكانت الملائكة يكلمها شفاها وتبشرهم بالولد إذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء قالوا وكانت مريم إذا حاضت خرجت من المحراب فإذا طهرت عادت فبينما هي ذات يوم قد ضربت على نفسها بالحجاب تغتسل من المخيض في مشرقة من الشمس إذ أتاها روح الله جبرئيل فتمثل لها في صورة بشر سوي الخلق فخافته مريم فقالت أني أعوذ بالرحمن منك أن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا فنفخ في جنب درعها فحملت بعيسى عم ولما ظهر بها الحمل اتهموا زكرياء فقتلوه في قول بعضهم وقال قوم بل اتهموا يوسف النجار وكان قد خطبها في الإنجيل أنه كان تزوجها فلما أثقلت مريم هرب بها خوفاً من هرداس الملك وموضع الولادة بيت اللحم معروف مشهور شاهدناه وشاهده كل من وطئ تلك البلاد قال الزهري وكان ثم جذع نخلة فأورقها الله عز وجل وأثمرها لمريم وإنما هرب بها وبعيسى بعد ما ولدت وتكلم عيسى بقول الله عز وجل وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين قيل هي مصر وقيل هي دمشق والله أعلم ولما ضربها الطلق خشيت لائمة القوم قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداها من تحتها يقال جبريل وقيل عيسى ان لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا إلى آخر الآيات وقصتها مشهورة بظهورها عن التفسير وقد قال بعض الناس في قوله تعالى إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا أي قضى أن يوتيني الكتاب وأن يجعلني نبيا الآية لأنه لو كان نبيا في الوقت لزمه دعاء الناس ولزمهم إتباعه

ذكر اختلاف الناس في هذه القصة اليهود يزعم أن عيسى لم يحي بعد وأنه جاء وأن الذي يذكره ابن بغية لغير رشده وأن يوسف النجار فجر بها وروينا عن الحسن أنه قال بلغني أنها حملت به سبع ساعات ووضعته في يومها وعن مجاهد قال حملته نصف يوم ووضعته وقال آخرون بل حملته ووضعته كسائر الناس ولقد سمعت بعض علماء الخزمية يزعم أن مريم جومعت وانضاف إلى ذلك الجماع روح من عند الله لا أنه كان نفخ من غير وطئ والثنويه والمنانية كلهم يؤمنون بعيسى ويزعمون أنه روح الله على معنى أنه بعض من الله والنور عندهم حي حساس عالم وبعض النصارى يزعم أن الذي تراءى لمريم فنفخ فيها هو الله تعالى عن ذلك وبعضهم يزعم أن عيسى هو الله نزل من السماء ودخل في جوف مريم ثم اتحد بجسد عيسى فلما قتل صعد إلى السماء وقد شبه الله تعالى خلق عيسى عند مجادلة من جادل رسوله وأنكر أن يولد مولود من غير ذكر وأنثى بخلق آدم فقال إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فأوضح الحجة وقطع الشبهة وقد ذكر أمية هذه القصة في شعره

وفي دينكم من رب مريم آية ... منبئة والعبد عيسى بن مريم
أنابت لوجه الله ثم تبتلت ... فسبح عنها لومة المتلوم
فلا هي همت بالنكاح ولا دنت ... إلى بشر منها بفرج ولا فم
ولطت حجاب البيت من دون أهلها ... تغيب عنهم في صحارى دملم
يحار بها الساري إذا جن ليله ... وليس وإن كان النهار بمغلم
تدلى عليها بعدما نام أهلها ... رسول فلم يحصر ولم يترمرم
فقال ألا لا تجزعي ولا تكذبي ... ملائكة من رب عاد وجرهم
أنبيي وأعطي ما سئلت فإنني ... رسول من الرحمن يأتيك بابنم
فقالت له أنى يكون ولم أكن ... بغيا ولا حبلى ولا ذات قيم
أأخرج بالرحمن إن كنت مسلما ... كلامي فأقعد ما بدا لك أو قم
فسبح ثم اغترها فالتقيت به ... غلاما سوى الخلق وليس بتوأم
بنفخته في الصدر من جيب درعها ... وما يصرم الرحمن مل أمر بصرم
فلما أتمته وجاءت لوضعه ... فآوى لهم من لومهم والتنلم
وقال من حولها جئت منكرا ... فحق بأن يلجى عليه وترجمي
فأدركها من ربها ثم رحمة ... بصدق حديث من نبي مكلم
فقال لها أني من الله آية ... وعلمني والله خير معلم
وأرسلت ولم أرسل غويا ولم أكن ... شقيا ولم أبعث بفحش ومأثم

قصه عيسى بن مريم عم روينا عن الحسن أنه قال نزل الوحي على عيسى وهو ابن ثلاث عشرة سنة ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وكان في نبوته عشرين سنة ويقال هو آخر أنبياء بني إسرائيل وروينا عن الضحاك أن عيسى بعث إلى نصيبين وملكها جبار عنيد يقال له داود بن بوزا وكانوا أصحاب أصنام وتماثيل وزمن طب وأطباء ومعالجة فجاءهم عيسى من جنس صناعتهم بما أعجزهم وذلك من تمام القدرة وكمال القوة أن يعترض على المرء فيما هو لسبيله وليكون أنفى للشبهة وأبعد من التهمة وكما جاء عيسى عم في زمن السحر بما أبطل سحرهم وجاء محمد صلعم والزمن للخطباء والبلغاء والشعراء بما أفحمهم قالوا فأمن بعيسى الحواريون وهم أصفياءه وذلك بعدما أحيا لهم الموتى وأبرأ الأكمة والأبرص ونبأهم بما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون للغد وخلق لهم من الطين كهيئة الطير ثم

سألوه المائدة قال قوم فنزل عليهم وأكلوا منها ثم كفروا بها فمسخوا خنازير وكان الحسن يقول سألوا المائدة فلما قيل فمن يكفر بعد منكم فأني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين استعفوا فلم ينزل ومن نازعته نفسه في الإشراف على اختلاف الناس في هذه الأشياء وخوضهم فيها فلينظر كتاب المعاني فإني قد جمعت فيه ما وجدت إلا ما شذا قالوا ولما بلغ جالينوس الطبيب خبر عيسى وما يفعل من العجائب قصده لينظر ما عنده فمات قبل أن يصل إليه ويقال أنه آمن به قالوا ولما رأوا الآيات والعجائب من عيسى عم رمته اليهود بالسحر ونسبوه إلى غير رشده وخرجوا في طلبه فوجدوه قد اكتمن في غار ومعه أمه وجماعة من الحواريين فاستخرجوه وجعلوا يلطمون وجهه وينتفون شعره ويقولون إنك وإن كنت نبيا فدع ربك يمنعك ثم جعلوا على رأسه إكليلا من الشوك وفي قول اليهود والنصارى قتلوه وصلبوه ثم إن النصارى يقولون بعد ذلك رفع الله روحه إلى السماء ومنهم من يقول صلبوا الهيكل وعرج الروح وهو الله عز وجل وقال لي قبطى منهم أنه قتل وصلب ودفن وأقام بالقبر ثلاثا ثم نجاه أبوه ورفعه إلى السماء وفي قول المسلمين أنه لم يقتل ولم يصلب وإنما قتلوا رجلا وصلبوه وأشاعوا في الناس أنه عيسى فانتشر به الخبر قال الله تعالى وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم واختلفوا في قوله تعالى إني متوفيك ورافعك إلي فقال كثير من أهل التفسير يقولون فيه تقديم وتأخير كأنه قال أني رافعك إلي ومتوفيك بعد إنزالك من السماء وقال قوم بل هو على وجهه وسياقه توفاه ثم رفعه ومعنى هذا القول أنه رفع روحه لا جسده قال أهل الأخبار رفع عيسى ونزل خفين فعدرعة وحذاقة للطير ذكر اختلاف الناس في هذه القصة وذكر الاختلاف في مدة هذه الفترة بين عيسى ومحمد عليها السلم قال ابن اسحق كانت الفترة ست مائة سنة وفي حساب المنجمين خمس مائة سنة إلا شيئا وروى عن أبي جريج أنه قال أربع مائة سنة والله أعلم وقال أهل الأخبار أنه كان في الفترة خالد ابن سنان العبسي نبيا وحنظلة بن أفيون الصادق نبيا وما أراه يصح وبعضهم كان يقول جرجيس نبيا وشمسون نبيا وفي كتاب بعض الحواريين أنه كان بعد المسيح بانطاكية أنبياء ومنهم برينا ولوقيوس وماثيل واغابوس ومن علماء أهل الإسلام من يقول أن قوله إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث أنهم كانوا أنبياء نومان وبالوص وشمعون وكان في الفترة أصحاب الكهف وسبا وضروان و جريج الناسك وقصة المقعد والمجذوم والأعمى وحبيب والنجار وفطروس الكافر أخو بحيرا المؤمن وكان عيسى عم فرق طائفة من الحواريين في البلدان والنواحي يدعون الناس ويعلمونهم الدين ما حفظ من أسمائهم شمعون الصفا وهو رأسهم ويقال له صخرة الإيمان ويحيى ونومان ولوقا ومديوس وفطرس ويحنس واندرانس وفلبس وجرجيس ويعقوبس وميثا ويعقوب وبالوص ورفع عيسى عم قبل رجوعهم إليه وكما يدل التأريخ عليه كان الملك في زمن عيسى عم من الأشغانيين

قصة أصحاب الكهف قال قوم هم فتية من الروم ودخلوا الكهف قبل المسيح فرارا بدينهم وبعثهم الله تعالى في الفترة بعد المسيح وكان من يوم دخولهم الكهف إلى يوم خروجهم وبعثهم ثلاث مائة وستين سنة وقال غيرهم بل كان دخولهم الكهف بعد المسيح باحدى وستين سنة وذلك عند اختلافهم وأحدث بولس فيهم ما أحدث قالوا ولما ملك دقيانوس دعا إلى المجوسية ومن أبى عليه قتله ففر هؤلاء الفتية حتى دخلوا الكهف وتبعهم دقيانوس فكان الكهف لا منفذ له فسد عليهم الباب وكتبوا كتابا فيه أسماؤهم وأسماء أبنائهم يوم دخلولهم الكهف وألصقوه ببابه قالوا وهلك دقيانوس وتغيرت الأحوال وقام ملك مسلم اسمه بيدوسيس واختلف قومه في بعث الأرواح والأجساد فبعث الله الفتية آية لهم واختلفوا في أسمائهم فقال بعضهم مكلمسينا ويمليخا ومطرسوس وكسوفطوس ونبرونس ودينموس وبطونس وقالوس وبعضهم يقول محثلمينا وطافيون وعصوفر وتراقوس ومرحيلوس وطيلوس ويمليخا وسيا وهذه القصة في القرآن واختلافهم في المعاني بما فيه كفاية قصة فطروس الكافر قال الله عز وجل واضرب لهم

مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا إلى قوله لم أشرك بربي أحدا قال هما هذان الأخوان ورثا من أبيهما مالا أنا المؤمن فأنفق نصيبه في سبيل الله وأما الكافر فاتخذ أثاثا وضياعا ثم جاء المؤمن تعرض لأخيه فأخذ الكافر بيده يطوف به في جنته ويقول أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا كما ذكر الله في القرآن وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها وبحيرا هو الذي يقول يوم القيامة أني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين الآيات في سورة الصافات ذكر اختلافهم في قصة أصحاب الكهف قال قوم من المعتزلة يدل أنه كان في زمن أصحاب الكهف نبي من الأنبياء أو كانوا هم أنبياء أو فيهم نبي لأن مثل هذه المعجزات ولا تجرى إلا على أيدي الأنبياء أو في زمنهم وروى ابن جريج عن شعيب الجبائي أن اسم الجبل الذي فيه الكهف ناجلوس واسم الكهف حزوم واسم الرجل الذي له الكهف دلس واسم المدينة أفسوس ويقال هي طرسوس واسم الكلب حمران والله أعلم ذكر حبيب النجار قال الله عز وجل واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إلى قوله ان كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون قال قوم أن القرية إنطاكية وأن المرسلين رسل عيسى شمعون وبالوص وثالثهم شمعان الصفا فأدوهم الرسالة فكذبوهم فجاء حبيب النجار من أقصى المدينة ونهاهم عن أذاهم وأظهر إيمانه ويقول أنه كان نحاتا للأصنام فهداه الله قال ابن عباس رضه فطرحوهم ووطئوهم بأقدامهم حتى خرج قصبه من دبره فوجبت له الجنة وقال قتادة خرقوا ترقوته وسلكوا فيها سلسلة وعلقوه من سور المدينة فأهلكهم الله بالصيحة والهدة والرجفة ذكر اختلاف الناس في هذه القصة سمعت بعض المفسرين يزعم أن سوق إنطاكية كان المتصل منها مقدار ما بين بلخ إلى الرى وهذا قريب من أربع مائة فرسخ إن كان صادقا في روايته وفي قوله قالوا وأتاهم جبريل عم وصاح بهم صيحة واحدة فهمدوا فيها وصاروا رميما ومن دخل إنطاكية رأى قبرا في وسط سوقها منحرفا عن قبلة المسلمين يزعمون أنه قبر حبيب النجار قصة أصحاب ضروان وهي جنة كانت بصنعاء في الفترة قال الله عز وجل انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون إلى قوله كذلك العذاب قالوا أنهم كانوا قوما مستمسكين بشرائع الانجيل فإذا كان أيام صرامهم نادوا في الفقراء والمساكين فكان لهم ما أسقط الطير وأخطأ المنجل وغبر بذلك زمان حتى هلك الآباء والأولاد والأنبياء فبخلوا بذلك وقطعوا بذلك العادة فأهلك الله جنتهم وأعقبهم الندامة والحسرة كما ذكروا

قصة سبا وكان هلاكها في الفترة باليمن قال الله عز وجل لقد كان لسباء في مساكنهم آية إلى آخر الآيات الست وسبأ اسم للقبيلة وهو أبوهم واسمه عبد شمس بن يعرب بن يشجب بن قحطان وسمي سبأ لأنه أول من سبى في العرب وكان له جنتان عن يمين مساكنهم وشمالها ملتفتان بأنواع الشجر وهي أطيب أرض الله وأزكاها وكان شربهم من أعلى الوادي من عين تخرج من ثقب في أسفل الجبل والكهان قد أخبروهم بهلاك واديهم من قبل عينهم فبنوا عليه بنيانا بالحجارة والرصاص حتى لا يخرج الماء إلا بقدر فلم يزالوا كذلك حتى كفروا بربهم وبطروا نعمته فأرسل عليهم سيل العرم فأهلك مساكنهم ومزارعهم وكان رئيسهم عبد الله بن عامر الأزدي رأى في المنام كأن الردم قد انبثق فسال الوادي فأصبح وجمع بنيه العشرة فأخبرهم بالقصة ثم باع ضياعه وأمواله وتحول إلى بلد عمان فلم يلبث القوم بعده إلا يسيرا حتى هلكوا وفيهم يقول الأعشى

وفي ذاك للمؤتسى إسوة ... ومأرب قفى عليه العرم

ركام بنته له حمير ... إذا جاء فوارة لم يرم

فأروى الزروع وأعنى بها ... على سبعة ماءه إذ قسم

فصاروا أياد فما يقدرو ن منه على شرب طفل فطم

ذكر اختلافهم في هذه القصة قيل أن الشمس لا تقع عليهم لالتفاف الشجر واكتسائها وكانت الأمة تخرج من بيتها وتضع مكتلها على رأسها وتمشي لا تجنى بيدها ولا ترفع من الأرض وتنصرف وقد امتلأ المكتل وزعم وهب أن الله بعث إليهم اثنى عشر نبيا فكذبوهم وردوهم فأرسل الله على بيتهم جرذا له أنياب ومخالب من حديد فلما بصر به عبد الله بن عامر أتى بهرة فألقاها إليه فأقبلت الهرة منهزمة فعلم أنه أمر من أمر الله تعالى قال وأتى الجرذ على البتق فأهلكهم قصة حنظلة الصادق عم قال قوم أنه كان في الفترة وهو من أهل بهراء اليمن بعثه الله إلى مدينة يقال لها حاخور فقتلوه فسلط الله عليهم ملكا من ملوك بابل فقتلهم بقول الله عز وجل فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما اترفتم فيه الآية وزعم وهب أن القوم لما هربوا من السيف تلقتهم الملائكة شاهرين سيوفهم فقالوا لا تركضوا الآية وزعم آخرون أن حنظلة بعث إلى قبائل من ولد قحطان بعد عاد وثمود وكانوا نزلا على بئر يقال لها الرس فقتلوه وطرحوه في ركيتهم فسلط الله عليهم العدو فأهلكهم والله أعلم قصة جرجيس يذكر من أمره العجائب زعم وهب أنه رجل من فلسطين وكان أدرك بعض الحواريين فبعثه الله إلى ملك الموصل قال فقتلوه فأحياه الله ثم قطعوه فأحياه الله ثم طبخوه فأحياه الله حتى عد ضروبا من العذاب والله أعلم قصة خالد بن سنان العبسي ذكروا أنه ظهرت نار بين مكة والمدينة قبل مولد النبي صلعم بقليل وتغيب بالنهار وتطلع بالليل حتى هابها الناس فألقت عصيها الرعاة وعبدها طوائف من العرب وسموها بداء فجاء خالد بن سنان وجعل يضربها بعصاه ويقول ابد بدا ابد بدا حتى طفيت ثم صاح صيحة وقال لاخوته وعشيرته إني ميت إلى تسع فإذا دفنتموني فاكتموا ثلاثا فإنه ستجيء عانة يقدمها عنز أقمر يطوف حول قبري فإذا رأيتم ذلك فانبشوا عني تجدوني حيا أخبركم بما هو كائن إلى يوم القيامة فكان ذلك ولم يدع بنو أبيه ينبشوا عنه قالوا يكون سبة تعيرنا بها العرب إلى يوم القيامة وروى الضحاك عن ابن عباس أن النبي صلعم قال لو نبشوه لأخبرهم بشأني وشأن هذه الأمة ولما هاجر النبي صلعم أتته ابنة خالد بن سنان فسمعته يقرأ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقالت كان أبي يقرأ هذا وأخبرت النبي صلعم بأمر أبيها فقال ذاك نبي أضاعه قومه واسمها محيا بنت خالد

قصة جريج بن الناسك وكان في الفترة زعموا أنه كان زاهدا مترهبا وله أم ليست دونه في الصلاح الرهبانية وأنها أتته ذات ليلة فنادته وهو في الصلاة فأبطأ عليها الجواب فقالت أقامك الله مقام المومسات وانصرفت فزعموا أن امرأة بغية في ليلة شاتية مطيرة واستغاثت به فآواها إلى ديره فجعلت تتعرض له وتدعوه إلى نفسها إلى أن غلبته الشهوة والنفس فوضع إصبعه في النار حتى شغلته عما همت به نفسه ولما أصبح تعلقت المرأة وادعت أنه أحبلها تلك الليلة وجاء القوم فوضعوا حبلا في عنقه وجروه إلى السلطان فأمر بصلبه فصلب والناس يلعنونه ويكفرونه ويفسقونه وجاءته أمه فقالت هذا والله بدعائي ثم دعت بالمرأة ووضعت يدها على بطنها فقالت من أبوك فقال من بطن أمه أبي فلان الراعي فأنزلوا جريجاً وبرءوه وأكرموه وأغزروا إليه وعرفوا براءة ساحته وكان بعد ذلك لا يصلي إلا بإذن أمه وإذا دعته وهو في الصلاة قطعها صفة المقعد والمجذوم والأعمى زعم وهب أن الله تعالى بعث إلى هولاء الثلثة ملكا فابرأهم وعافاهم ومسحهم وأعطاهم مناهم من الأموال والمواشي حتى كثروا وأثمروا ثم بعث إليه ذلك الملك في صورة مسكين سائل لهم يسألهم ويذكرهم أيام الله والحال التي كانت قبل فأنكر اثنان منهم مسكنتهما وعلتهما وفقرهما وأقر الثالث وقال بلى كنت مقعدا فشفاني الله وعائلا فأغناني الله فهاك شطر مالي شكرا لله قال فبارك الله فيما رزقه وخسف بأموال الأعمى المجذوم وأعادهما إلى حالهما الأولى قال وفيهم نزلت ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، قصة شمسون زعم بعضهم أن هذا كان نبيا وكانت معجزته في شعره وكان لا يطاق ولا يقاوم لفضل قوته وبطشه وشدة سطوته فلما أعيي القوم الذين بعث إليهم أمره

دسوا لامرأته في جز شعره فجزته وبقي كالمقصوص من الطير ثم أخذوه وقطعوا يديه ورجليه ويقال كان لهم عيد عظيم عند صنم لهم في بناء مشرف عال فقال لهم شمسون لو أخذتموني إلى صنمكم هذا لأمسه وأستلمه فحملوه إليه ووضعوه بين أيديه فضرب بقطعته الصنم فانهد البناء على القوم حتى ما أفلت إلا من شذ ورد الله عليه يديه ورجليه وقال وفيه نزلت قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم فهذا جميع ما وجدناه وروياه في كتاب الله وكتب أصحاب أخبار الأنبياء وذكر الرسل مذ قامت الدنيا إلى مبعث نبينا محمد صلعم وقد أوجزناها واختصرها ونسأل الله التوفيق والتسديد أنه على ما يشاء قدير

القصل الحادي عشر

في ذكر ملوك العرب والعجم

وما كان من مشهور أمرهم وأبامهم إلى مبعث نبينا صلعم

أول من ملك من بني آدم زعمت الأعاجم في كتابها والله أعلم بحقها وباطلها أن أول من ملك من بني آدم اسمه كيومرث وأنه كان عريانا يسيح في الأرض وكان ملكه ثلاثين سنة وقد قال المسعودي في قصيدته المخبرة بالفارسية نخستين كيومرث امذ بشاهي ... كرفتش بكيتى درون ييش كاهي
جو سي سالى بكيتى باذشا بوذ ... كى فرمانش بمر جايى روا بوذ

وإنما ذكرت هذه الأبيات لأني رأيت الفرس يعظمون هذه الأبيات والقصيدة ويصورونها ويرونها كتاريخ لهم ومنهم من يزعم أن كيومرث كان قبل آدم قالوا ثم ملك هوشنك بيش داذ ومعناه أول حاكم حكم بين الناس وأول من دعا الناس إلى عبادة الله وأول من كتب بالعبرية والفارسية واليونانية وزعم بعضهم أن هذا بمنزلة ادريس النبي صلى الله عليه أو هو ادريس وهو هوشنك بن فراوك بن سيامك بن ميشى بن كيومرث وعند بعضهم أن ميشى هو آدم نبت من دم كيومرث مع اختلاف كثير وتخليط ظاهر والله أعلم قالوا وكان ملكه أربعين سنة وهو الذي قدر المياه وحض الناس على الزراعة وأمر بالطحين وعرفهم منافع الطعام والشراب قالوا ثم بقيت الأرض بعد وفاته ثلثمائة سنة بغير ملك حتى ملك طهمروث بن بوسكهيار بن اسكمد بن نكمد بن هوشنك هو الذي أمر الناس باقتناء الأنعام والانتفاع بسلائها وأصوافها وأوبارها وفي أيامه ظهر رجل بأرض الهند ودعا الناس إلى ملة الصابئين اسمه بوذاسف فتفرق الناس واختلف أديانهم ووقعت المحاربة بينه وبين الشياطين فنفاهم وطردهم وزعم بعضهم أنه اتخذ ابليس مركبا وأسرجه وألجمه وركبه يجول به الآفاق حيث شاء وزعم بعض المتأولين أن معنى ركوبه ابليس وإلجامه قهره إياه وعصيانه عليه بطاعة الله وكان ملكه ثلاثين سنة ويقال ألفا وثلاثين سنة ثم ملك جم شاذ ومعنى شيذ الشعاع والضياء وهو جم شاذ بن خزمة بن وبونكهيار بن هوشنك فيش داذ ويصفون هذا الإنسان بمعجزات وعجائب فمنها أنهم يزعمون أنه ملك الأقاليم السبعة وملك الجن والإنس وأنه أمر الشياطين فاتخذوا له عجلة فركبها وجعل يسير في الهواء حيث يشاء وأنه أول يوم ركبها كان أول يوم من فروردين ماه فاطلع بنوره وبهائه فسمي ذلك اليوم النيروز وأنه استأثر علم النجوم والطب واتخذ القوارير والآجر والنورة والحمام ويزيدون وصفه على ما وصف به سليمان بن داود النبي ويزعمون أنه كان مجاب الدعوة وسأل ربه أن يرفع عن أهل مملكته الموت والسقم فكثر الخلق حتى ضاقت بهم الأرض فسأل ربه أن يوسعها لهم فامره الله أن يأتي جبل ألبرز وهو جبل قاف محيط بالأرض فيأمره أن يتسع ثلثمائة ألف فرسخ وفي دور الأرض ففعل قالوا ثم طغى وكفر عندما رأى من صنع

الله له فسقط إلى الأرض وذهب بهاؤه وشعاعه وهرب يجول في الأرض مائة سنة ثم ظفر به الضحاك فنشره بالمنشار وأعلم من آمن بمعجزات الأنبياء يلزمه الإيمان بمثل هذه الأشياء إذا صحت من جهة النقل والرواية فإن ما ذكروا من هذا حقا فالرجل نبي لا شك وإن كان غير ذلك فوضع وتزوير والله أعلم ثم ملك بيورسب وهو الضحاك ويقال له أزدهاق ذو الحيتين والأفواه الثلثة والأعين الست الداهي الساحر الخبيث المتمرد ومعنى بيورسب أنه كان له اثنا عشر ألف مركب ورفعت الفرس نسبه إلى نوح بأربعة آباء فقالوا بيورسب بن اروند بن طوح بن دابة بن نوح النبي والله أعلم ويصفون من أمره مالم يوصف به نبي ولا يجوز القدرة عليه لبشر فمن ذلك أنهم قالوا ملك الأقاليم السبعة وكان عمل في محلته وهو نازل فيها سبع مشارات لكل اقليم مشارة وهي منفخة من ذهب فكلما أراد أن يرسل سحره على أقليم موتا أو رزية أو مجاعة نفخ في تلك المشارة فأصاب ذلك الإقليم من معرته بقدر نفخه وكان إذا رأى في تلك الإقليم جارية حسنة أو دابة فارهة نفخ في المشارة فاجترها إليه بسحره وإن ابليس أتاه في صورة غلام فقبل منكبيه فنبتت منها حيتان طعامها أدمغة الناس فجعل يقتل كل يوم غلامين لذلك حتى اشتد ذلك على الناس وملوا الحياة وكان ملكه ألف سنة إلا يوما ونصف يوم ثم رأى في المنام كأن ملكا نزل من السماء فضربه بمقمع من حديد فوثب من نومه مروعا ملعونا مصوعا مطعونا وقص رؤياه على المنجمين والهرابذة قالوا يولد مولود حتى يكون انقضاء ملكك على يديه فأمر بقتل كل مولود ذكر وقال وأتي بأم افريذون الملك وهي حامل به وبجارية فأمر القابلة أن يدخل الموسى قبلها فتقطع الولد في بطنها قالوا فدفع الغلام الجارية نحو الموسى بإلهام الله إياه فقطعتها وأخرجتها وخلى سبيل أم افريذون فوضعت به وأخفته عن الناس وكان افريذون يشب شابا حسنا وهذا نظير قول أهل الكتاب في يعقوب وعيصو والقصة شبيهة بقصة مولد إبراهيم عم حتى لقد قال كثير من المجوس أن افريذون هو إبراهيم والله أعلم قالوا واجحف قتل الولدان بالرعية وانتقصت

فخرج رجل باصفهان يقال له كاوى وعقد لواء من مسك جدى ويقال من جلد أسد ودعا الناس إلى محاربة الضحاك فهابهم وهرب منهم ثم أخذوا افريذون فملكوه وأقعدوه على السرير وخرج افريذون في طلب الضحاك فظفر به وشده وعقله في جبال دماوند وكان ذلك اليوم يوم المهرجان فعظمته الفرس واتخذته عيدا وكان لبيورسب طباخ يقال له ازمايل وكان إذا دفع إليه الغلمان للذبح استبقى أحدهم ونفاه إلى الصحاري ويقال منهم الأكراد قالوا وتيمنت الفرس بذلك اللواء فصيرته بالذهب والديباج ولم يزل محفوظاً عندهم إلى أن أقام الإسلام وأعلم أن كثيرا من هذه القصة شبيه بأمر الأنبياء عم وكثير ترهات ووساوس فأما الحيتان اللتان نبتا من منكبيه فهما سلعتان خرجتا عليه ويشبه أن يكون أمران يطليهما بدماغ الناس وإنما تملكه الأقاليم السبعة وسحره فيها فكأنه كان دعوى منه وتمويها على الناس بأنه يجتر إليه ما شاء ويرسل على الأقاليم السبعة ما شاء يخوفهم بذلك ويعظم أمره وبسطته وقدرته كما كان يقول فرعون أنا ربكم الأعلى وكان يعلم أنه كاذب في دعواه وقد أخبرناك في غير موضع أن مثل هذه الآيات لا يخلو من وجوه ثلثة إما أن يكون معجزة لنبي أو في زمن نبي فقد جر إلى سليمان عرش بلقيس كما قيل أن يكون وضعا وتمويها وتصرفا وتمثلا غير أن المؤونة في السماع حفيفة وفي معرفة قصص الأوائل وأخبار القدماء عبر في هذه العجائب مناقضة على من ينكر من المجوس معجزات الأنبياء عم وهو يروج على أصحابه

أمثالهارج رجل باصفهان يقال له كاوى وعقد لواء من مسك جدى ويقال من جلد أسد ودعا الناس إلى محاربة الضحاك فهابهم وهرب منهم ثم أخذوا افريذون فملكوه وأقعدوه على السرير وخرج افريذون في طلب الضحاك فظفر به وشده وعقله في جبال دماوند وكان ذلك اليوم يوم المهرجان فعظمته الفرس واتخذته عيدا وكان لبيورسب طباخ يقال له ازمايل وكان إذا دفع إليه الغلمان للذبح استبقى أحدهم ونفاه إلى الصحاري ويقال منهم الأكراد

قالوا وتيمنت الفرس بذلك اللواء فصيرته بالذهب والديباج ولم يزل محفوظاً عندهم إلى أن أقام الإسلام وأعلم أن كثيرا من هذه القصة شبيه بأمر الأنبياء عم وكثير ترهات ووساوس فأما الحيتان اللتان نبتا من منكبيه فهما سلعتان خرجتا عليه ويشبه أن يكون أمران يطليهما بدماغ الناس وإنما تملكه الأقاليم السبعة وسحره فيها فكأنه كان دعوى منه وتمويها على الناس بأنه يجتر إليه ما شاء ويرسل على الأقاليم السبعة ما شاء يخوفهم بذلك ويعظم أمره وبسطته وقدرته كما كان يقول فرعون أنا ربكم الأعلى وكان يعلم أنه كاذب في دعواه وقد أخبرناك في غير موضع أن مثل هذه الآيات لا يخلو من وجوه ثلثة إما أن يكون معجزة لنبي أو في زمن نبي فقد جر إلى سليمان عرش بلقيس كما قيل أن يكون وضعا وتمويها وتصرفا وتمثلا غير أن المؤونة في السماع حفيفة وفي معرفة قصص الأوائل وأخبار القدماء عبر في هذه العجائب مناقضة على من ينكر من المجوس معجزات الأنبياء عم وهو يروج على أصحابه أمثالها

ثم ملك افريذون وهو التاسع من ولد حام بن نوح قالوا أيضا هو ملك الأقاليم السبعة وأمر الناس بعبادة الله بعد ما كان أضلهم بيورسب ورد المظالم إلى أهلها وقام بالحق والعدل وفي زمانه تكلمت الفلاسفة ووضعوا الكتب وقرأت في بعض سير العجم أن إبراهيم عم ولد سنة ثلاثين من ملك افريذون بعد ما قال بعضهم أنه هو إبراهيم بعينه وقال آخرون أنه انقضى أمر إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وموسى ويوشع وكاليب وحزقيل في ملك الضحاك وأنه بقى إلى أن أغرق الله فرعون وكان عاملا له على مصر وإلى أن خرج فرع بنهب ملك من ملوك العمالقة من ناحية اليمن ثم خرج عليه كاوى افريذون والله أعلم قالوا وكان لافريذون ثلاثة بنين سلم وطوج وايرج فقسم الأرض بينهم أثلاثا فصار الترك والصين لطوج وصار الروم والمغرب لسلم وصار العراق وفارس لايرج ثم طلب لثلاث أخوات متفقات في الحسن والجمال ليزوجهن ببنيه الثلاثة فوجدهن عند فرع بنهب فزوجهن إياهم قالوا وحسد سلم وطوج اريج وكان أصغرهم فقتلاه فدعا افريذون ربه أن لا يميته حتى يرى من نسل ايرج من يطلب بثأره قال ووقع غلام من نسل ايرج إلى أرض خراسان فكثر بها وتناسل وملك تكاثف جمعه ثم خرج من عقبه رجل اسمه منوجهر فجاء طالبا بثأر أبيه وقاتل سلما وطوجا بأرض بابل وقتلهما ودعا افريذون ووضع تاج الملك على رأسه وخر له ساجدا إذا استجاب الله فيه دعاءه ومات من ساعته قالوا وكان ملك افريذون خمس مائة سنة وفيه يقول بعض الشعراء

وقسمنا ملكنا في دهرنا ... قسمة اللحم في ظهر الوضم
فجعلنا الشام والروم إلى ... مغرب الشمس لغطريف سلم
ولطوج جعلنا الترك له ... وبلاد الصين يحميها برغم
ولايرج جعلنا عبرة ... فارس الملك وفزنا بالنعم

ثم ملك منوجهر بن منشخور العاشر من ولد ايرج وهو صاحب زمن موسى عم زعم قوم أنه في زمانه بعث موسى عم إلى أرض مصر قالت الفرس كان ملكه مائة وعشرين سنة وخرج عليه افراسياب التركي وكان من نسل طوج يطلب قتلة أبيه وحاصره سنين ثم تراضوا على أن يعطيه افراسياب قدر رمية من مملكته فأمروا رجلاً يقال له آرش أن يرمي وكان أيدا ثقفا فأتكا على قوسه فاغرق فيها ثم أرسل سهمه من طبرستان فوقع بأعلى طخارستان ومات آرش مكانه ثم اختلفوا فزعموا أن الله عز وجل أرسل ريحا فاختطفت النشابة حتى وقعت حيث وقعت وزعم بعض أن الله عز وجل بعث ملكا فاحتملها ووضعها بحيث وضع فإن لم يكن ثم نبوة فالمعنى والله أعلم أنهما راميا والخطر لمن فضل وغلب من طبرستان إلى طخارستان هذا إذا صح الخبر والله أعلم وأحكم، ثم ملك افراسياب التركي فعاث وأفسد وخرب الديار وعور الأنهار وقال قوم ملك الساعون في هلاك البرية سعيا أن ينشا له خلق جديد فقد

طال مكثهم قالوا وحبس المطر عن الناس والحيوان ثم ملك رجل لم يكن من أهل بيت الملك يقال له زر بن طهماسب فطرد افراسياب وألحقه ببلاده ثم ملك كيقباذ من ولد افريذون مائة سنة ثم ملك كيكاوس ابن كايونة بن كيقباذ وهو الذي سار إلى حمير لقتالهم فأسروه وحطوه في جب أطبقوا عليه حجرا فيه ثقبه يطرح له كل يوم شيء من الطعام وكانت سعدى بنت ملك حمير تلاطفه وتطعمه إلى أن خرج رستم من سجستان لنصرته فاستنقذه ويذكرون في صفته من العجائب

قصة رستم كيف استنقذ كيكاوس من وثاق حمير زعموا أن كيكاوس كان مظفرا مصنوعا له في كل حال فخطر منه الإطلاع إلى السماء ثقة منه بما كان الله أتاه من العز والظفر خطرة ضلال فبنى الصرح الذي ببابل وصعده فغضب الله عليه وتخلى فاتعضت رفعته وافتقرت مقدرته وبعث الله ملكا فضرب بناءه بسوط من نار فقطعه وهده واستعصت عليه الملوك فخرج إلى ملك اليمن وقاتله وكانت الدائرة عليه فأخذوه وأسروه واستوثقوا منه كما ذكرنا وفي هذه القصة مشابه من قصة نمروذ كما يروى قالوا فخرج رستم من سجستان في جمع عظيم وسأل العنقاء أن تخرج معه فقالت هذه ريشة من جناحي فإن احتجت إلي فدخنها حتى آتيك يومك ومر رستم حتى ورد اليمن وقاتلهم قتالا شديدا قالوا وكان ملك حمير ساحرا فاحتمل مدينته بسحره وعلقها بين السماء والأرض فدخن رستم ريش العنقاء فإذا هو بها فحملت رستم على ظهرها وأخذت فرسه بمخالبها وطارت في جو السماء حتى إذا حازت المدينة وانقضت ولها دوى فنزلت بهم فقتل منهم رستم مقتلة عظيمة وأخرج كيكاوس من الجب وأخرج سعدى معه وردهما إلى أرض بابل ثم ذكروا حالا وقعت بين سعدى وبين سياوش بن كيكاوس مثل قصة يوسف وزليخا التي راودته عن نفسه سواء قالوا وإن سعدى شغفت به واحتالت في استمالته وإن لم يجبها إلى ما سألته فسعت به إلى أبيه حتى حبسه وهم بقتله وبلغ الخبر رستم فعلم أنه من كيد سعدى ومكرها فجاء واستخرجها من بيتها وقطع رأسها ثم إن سياوش قتل بأرض الترك وكان ملك كيكاوس مائة وخمسين سنة وكل ما ذكرنا في هذه القصة ممكن غير ممتنع إلا قصة عنقاء وقد حكي أن في جهة الجنوب طيرا يحمل دابة مثل الفيل وأعظم منها ويذكر في باب القضاء والقدر خبر أن جارية حملتها عنقاء في عهد سليمان عم والله أعلم ثم ملك بعد كيكاوس كيخسرو بن سياوش بن كيكاوس ستين سنة ثم ملك كيلهراسب الجبار مائة وعشرين سنة وهو الذي اخرب بيت المقدس وشرد من كان بها من اليهود وهو الذي بنى مدينة بلخ الحسناء ثم ملك بعده ابنه كشتاسب بن كيلهراسب وفي زمانه ظهر زردشت نبي المجوس ودعا الناس إلى المجوسية فأجابه ودان له ثم وضع بيت النيران ووكل بها الهرابذة وقتل من خالفه وهو الذي سمي بهران جد بهرام جوبينه بالري إلى شرف المرتبة ثم ملك بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب ماءة واثنتي عشرة سنة ثم ملكت هماي بنت بهمن ثم ملك دارا بن بهمن وهو دارا الأكبر

قصة هماي ودارا زعموا أن هماي كانت حاملا من أبيها بهمن عند هلاكه وأنها لما وضعت حملته في مهد واسترضعته في قوم وأعطتهم مالا جليلا وأخرجتهم من دار ملكها فخرج القوم بابنها وركبوا السفينة حتى إذ بلغوا المذار عصفت بهم الريح فغرقت السفينة من فيها وطفا المهد فوق الماء حتى وقع إلى قصار على شاطئ دجلة يغسل الثياب فاخذ المهد فإذا به صبي وبجنبه سفط فيه من الجواهر النفيسة والياقوت الأحمر ما لا يقدر قدره فحمله الرجل إلى منزله وجعلت امرأته ترضعه إلى أن ترعرع ونشأ مع صبيانهم ثم سلموه إلى الأدب فتأدب وكان ذكيا نقيا فنازعته نفسه إلى أدب الفرسان وتحرك إلى ذلك عرقه فلما رأى القصار ذلك صرفه إليهم فنفذ في ذلك أياما وحذق وفاق أستاذيه ثم لما بلغ نظر في نفسه وفي ولد القصار فلم ير فيهم أحداً يشبهه ويشاكله فساءه ذلك ونفرت نفسه منهم

وقال للقصار لست أشبهكم ولا تشبهونني فاصدقني عن نفسي وعن نفسك وكان ينسب إليه فأخبره بخبره كيف كان فهيأ الغلام وأخذ سلاحه وركب فرسه وقصد باب الملكة همماي وهي متصيفة بماسبذان قد هيئت ميدانا للفرسان يلعبون فيه بالصوالجة ويرمون بالنشابة وهي مشرفة عليهم فوق مظلة فمن أصاب وأجاد أجزلت له الجاه والتكرمة فدخل الغلام الميدان فقالوا له من أنت فقال لا عليكم أن تسألوني عن نسبي حتى يتبين لكم أثري وذلك أنه استحيا أن ينسب إلى القصار فالتقف من أيديهم الكرة فبلغ به الشأو في ركضه وأخذه ثم أخذ القوس والنشابة ونضلهم ثم أخذ الرمح فثقفهم ثم راكضهم فسبقهم وهماي في المنظرة مشرفه عليهم معجبة به مع صباحة وجهه وحداثة سنه وكثرة شبهه بها فقال إن رأت الملكة أن تعفيني من هذه الخصلة فإني والناس كلهم عبيدها ثم در ثدياها وتحركت نفسها فنهضت من مجلسها وقالت للحاجب إيذن له فدخل وقالت أصدقني عن نفسك فقد أنكرت نفسي فيك فاخبرها بما أخبره به القصار فوثبت إليه وعانقته وقالت ابني والله ودعت الناس وأخبرتهم القصة ووضعت التاج على رأسه وقالت هذا ملككم وكان ملكها ثلاثين سنة ودارا كان شجاعاً حازماً فضبط المملكة وغزا الروم وقتل مقاتلها وسبى ذراريها وأتى بملكها أسيرا حتى مات في حبسه حتف أنفه ووظف عليهم القدية وكان ملكه اثني عشر سنة ثم ملك ابنه دارا بن دارا الأصغر الذي بنى مدينة دارا بأرض نصيبين وبنى دارابجرد بأرض فارس وهو الذي قتله الاسكندر قصة دارا والاسكندر

وهذه قصة دارا والاسكندر قالوا أن دارا الأكبر قتل ملك الروم وأخذ منهم القدية فلما مات وصار الأمر إلى ابنه دارا الأصغر كتب إلى فيلقوس أبي الاسكندر وكان ملك بلاد اليونانيين فبعث إليه بالجزية وكانت أرض الروم حينيذ طوائف لم يكن لهم ملك يجمعهم فلما مات فيلقوس وصار الأمر إلى الاسكندر جمع ملك الروم إلى نفسه ولم يحمل إلى دارا الخراج الذي كان يؤديه أبوه فكتب إليه دارا يونبه بسوء صنيعه ويعيره بحداثة سنه وبعث إليهم بصولجان وكرة وقفيز سمسم يريد به أنك صبي تلعب وأن عسكري في عدد السمسم وكثرة فنظر إليه الاسكندر واعتذر إليه وحلف أنه لم يأمر به ولم يأت لقتله وإنما كان يطلب الفدية كما كان آباؤهم يؤدونها إليه فزوجه دارا ابنته روشنك وقال أنها ملكة وأنت ملك كفوا لها وسأله أن يقيد من قاتله وأن لا يهدم بيوت النيران ولا يهيج الهرابذة قالوا فملك الاسكندر أربعة عشر سنة وهدم بيوت النيران وقتل الهرابذة وأحرق كتاب دينهم الذي جاءهم به زردشت وقيل أنه كان مكتوبا في اثني عشر ألف جلد من جلود البقر وفيه مذكور كل ما كان وما هو كائن إلى قيام الساعة حتى ملك العرب ومدة أيامهم قالوا وهم الاسكندر بقتل ملوك المشرق لما رأى من هيئاتهم وعددهم فكتب إلى معلمه ارسطاطاليس وكان خلفه لكبر سنه إبقاء أو شفقة عليه ويستشيره ويوامره فيهم فكتب إليهم أن الأحرار وذوي الاحساب أنصح للملوك وأوفى عهدا من سلفهم وعبيدهم وممارسة الرؤساء أيسر من ممارسة الأخساء لكن فرقهم وعصب بينهم واجعلهم طوائف قال فصير ما بين فرغانه وقشمير إلى أرض الشام سبعين ملكا لا يكون لأحدهم على الآخر طاعة ثم رفع البلاد وفتح الهند وغلب على الصين وكثير من الناس يرون هذا ذا القرنين وكان قيل له أن موتك يكون بأرض بابل على أرض من حديد تحت سماء من ذهب فلما استوسقت له الأمور وألقت إليها بأزمتها أراد أن يقع البرية إلى الاسكندرية وتطير من دخول بابل فرارا من القدر فانتهى إلى ناحية السواد وغلبة النوم فطرحت تحته الأمة درعا فاضطجع عليها واظل عليها بمحفة من ذهب فلما انتبه نظر إلى حالته فاستيقن بالموت فأوصى أن تجعل جثته في تابوت من زجاج ويحمل إلى الاسكندرية وكتب إلى والدته كتابا بالوصاة والتعزية وجعله درج كتاب مضمون ما في الدرج إذ أتاك كتابي هذا فاصنعي طعاما وادعي الناس إليه ولا تأذني أحد في تناول شيء من طعامك إلا من لم يصب بأب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا ابن ولا ابنه ولا قريب ولا

حبيب ثم فكي الكتاب المدرج فيه واعملي عليه واتعظي بالله والسلم ففعلت الوالدة كما أمر فلم يمس أحد من الناس شيئا من الطعام ثم فكت الكتاب وقرأته ولم تدمع عينها ولا تغيرت حالتها لبليغ عظته وحسن وصيته قالوا ولم وضع الاسكندر في تابوته قامت الحكماء الذين كانوا يصاحبونه ويسايرونه فتكلم كل واحد بكلام وخبر بليغ وبقى ملوك الطوائف على ما صيرهم عليه مائتي سنة وستا وستين سنة ويقال أربع مائة سنة وكانوا يعظمون اشك بن دارا ويسمونه الملك وكان في يده من الموصل إلى الري واصبهان ذكر ملوك الطوائف يقال الأشغانيون ملك اشك الاشغاني عشر سنين ثم ملك شابور الاشغاني ستين سنة وفي زمانه ظهر عيسى عم بأرض فلسطين وغزا طوطوس بن اسفيانوس ملك الرومية بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى فقتل المقاتلة وسبى الذرية وهدم البناء حتى لم يدع حجرا على حجر فلم يزل كذلك إلى أن قام الإسلام وولي عمر بن الخطاب رضه بقول الله تعالى ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها الآية ثم ملك جوذرزين عشر سنين ثم ملك بيزن إحدى وعشرين سنة ثم ملك جوذر تسع عشر سنة ثم ملك نرسي الاشغاني أربعين سنة ثم ملك هرمز سبع عشرة سنة ثم ملك اردوان اثني عشرة سنة ثم ملك كسرى الاشغاني أربعا وأربعين سنة ثم ملك بلاس أربعا وعشرين سنة ثم ملك اردوان الأصغر ثلث عشرة سنة ثم ملوك الطوائف وصار الأمر إلى بني ساسان وأول من ملك في بني ساسان اردشير بن بابك بن ساسان الجامع وهو من ولد دارا فيكون مدتهم في هذا الحساب مئتين وسبعين سنة، ملك اردشير الجامع ويقال له شاهنشاه

ثم ملك اردشير الجامع ويقال له شاهنشاه قالوا وكان اردشير رجلا بين الفضل في بعد رأيه وذكاء لبه مع صرامته وبأسه ونجدته ولما أفضى الأمر إليه أمر أهل الفقه بجمع ما قدروا عليه من كتب دينهم التي احترقت وتأليفها وتقييدها فانه لا يجمع القلوب المتعادية والأهواء المتنافرة إلا الدين فجمعوا ما أصابوا منها وهو الذي في أيديهم اليوم قالوا ثم عمد إلى كتب الطب والنجوم فجددها وأعادها وبث كتبه في من قرب منه ونأى عن الملوك يأمرهم بإقامة الدين والسنة ويحذرهم معصيته ومخالفته فصفت له المملكة أربع عشر سنة وستة أشهر، ثم ملك شابور بن اردشير فغزا الروم وسبى منهم سبيا كثيرا وأنزلهم في مدينة سابور بفارس ومدينتي جنديسابور وتشتر بالأهواز فمن ثم كثر علم الطب والأطباء في هذه المدن وفي زمان شابور بعث الله على سبا سيل العرم فتفرقوا في البلاد بقول الله عز وجل فمزقناهم كل ممزق وفي زمانه ظهر ماني الزنديق وذلك أن أول ما ظهر في الأرض من أمر الزندقة إلا أن الاسامي يختلف عليها إلى أن سمي اليوم علم الباطن والباطنية في زمانه قتلت الزباء جذيمة الأبرص وهو الذي حاصر الضيزن ملك الحضر فأشرفت عليه النضيرة بنت الضيزن وهويته فكتب في سهم يدل على عورة الحصن فأتتها من مدخل الماء ورمت بالسهم إليه فقطع الماء عنهم حتى أجهدهم العطش ثم استنبجم على حكمه وقتل النضيرة لغدرها بأبيها وهذا يسمى سابور الجنود لكثرة جنوده ودوام مسيره وقيل أنه أمر بذوابتها فشدت في ذنب مهر غير مروض وضرب وجهه وفيها يقول عدي بن زيد

والحضر صبت عليه داهية ... شديدة أيد مناكبها

ربيبة لم ترق والدها ... لحبها إذا ضاع راقبها

وكان حظ العروس إذ جشر ال صبح دماء تجري سبائبها

قالوا وكان ملكه ثلاثين سنة ملك هرمز البطل ويقال له هرمز الجريء ثم بعده هرمز البطل ويقال له هرمز الجريء ملك وأتاه ماني يدعوه إلى الزندقة فقال إلام تدعوني فقال إلى خراب الدنيا وترك العمارة فيها للآخرة فقال لأخربن بدنك فأمر به فقتل وحشى جلده تبنا وصلب بباب جندي سابور فهو إلى اليوم يسمى باب ماني ويقال أنه سلب

بباب نيسابور بخراسان وكان ملكه سنة وعشرة أشهر ويقال أن ابنه بهرام بن هرمز قتل ماني وكان ملكه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ثم ملك ابنه بهرام ابن هرمز وهو الذي يقال له بهرام الصلف وكان فظا غليظا هان عليه الناس واستخف بهم حتى فزعوا إلى موبذ موبذان فقال إذا أصبحتم فالزموا بيوتكم ومنازلكم ولا يخرج إليه أحد ولو رآه قائما على بابه وأمر غلمانه وحاشيته أن لا يقوم على رأسه ولا يجيبه إذا دعاه ولا يطيعه فيما أمره ففعلوا ذلك وأصبح بهرام من غده على سجيته وجاء حتى قعد على سريره فلم ير أحداً من غلمانه ومرازبته ونظر إلى مجلس الوزراء والكتاب فلم ير فيه أحد ثم نادى بالحاجب فلم يجبه ودعا بالغلمان فلم يجيبوه فهاله ذلك وارتاع له ولم يدر ما السبب فبينما هو متفكر في نصيبه متعجب من أمره إذ دخل عليه موبذان موبذ ففرح به لما رآه وافرح عنه روعه وسأله عن الحال فقال تعلم أنك ملك ما أطاعوك ولا يطيعك الجماعة بغير رفق ففطن لهم بهرام وراجع نفسه وهجر الفظاظة ولزم الرفق ثم ملك بهرام بن بهرام أربعة أشهر ثم ملك نرسى بن بهرام تسع سنين ثم ملك هرمز بن نرسى سبع سنين وخمسة أشهر ثم ملك ابنه شابور ذو ولأكتاف قصة شابور ذي الأكتاف

وهذه قصة شابور ذي الأكتاف قالوا وهلك هرمز ولا ولد له فوجدوا ببعض نسائه حبلا فسألوها عن حالها فقالت إني أرى من نضارة لوني وحركة الجنين في الشق الأيمن ما أرجوا أن يكون تحقيقا لما قال المنجمون فأقعدوا التاج على بطن المرأة ثم لما وضعته سموه شاه شابور وجعل الوزراء يدبرون أمره والأعداء يزحفون إليه من كل جانب قالوا فلما أينع الغلام وترعرع سمع ضجيج الناس وأصواتهم وصراخهم فقال ما هذا فقيل ازدحم الناس على الجسر فقال هلا جعلتم جسرين أحدهما للذاهبين والآخر للجائين فلا يزحم بعضهم بعضا فاعجب من حضره من مقالته وحسن فطنته في صباه وصغر سنه قالوا فلم تغرب الشمس من يومهم حتى عقدوا جسرا آخر ثم لما بلغ خمس عشرة سنة وأطاق ركوب الخيل وحمل السلاح خرج لحربة الأعراب التي زحفت من كاظمة البحرين وتطرقوا نواحيه يغيرون عليها ويفسدون فيها وجعل يقتلهم وينزع أكتافهم ويتبعهم في بواديهم وديارهم حتى أفنى إيادا خاصة إلا من بالروم وروى أن معاوية لما كتب إلى تميم يغريهم بعلي عم ويأمرهم بالوثوب عليه خطب علي ثم قال في كلامه

ان حيا يرى الصلاح فسادا ... ويرى الغي للشقاء رشادا

لقريب من الهلاك كما أه لك شابور بالسوار إيادا

قالوا ولم يكف شابور عن قتلهم حتى جلست عجوز على طريقه وصاحت به وكانت سيرة الملوك من صاح بهم وقفوا عليه إن كنت تطلب ثأرا فقد أدركته وإن كنت تقتل سرفا فإن لهذا قصاص فكف حينئذ عن القتل ولقد سمعت غير واحد من أهل العلم يقول عنت العجوز بقولها أمر النبي صلعم وادراكه من الفرس ثأر العرب قالوا ثم دخل شابور الروم متنكرا متجسسا أخبارهم ويطلع على عورة بلادهم ووافقته وليمة لقيصر فدخل عليها على هيأة السؤال ليشاهد أحوالهم وأخلاقهم فبينما هو واقف عليهم إذ أتى بإناء فيه تمثال شابور منقش فقال رجل من حكمائهم إن هذا التمثال يشبه صورة هذا السائل فقبضوا عليه وألحوا وخوفوه بالقتل حتى أقر فجعلوه في جلد بقرة وكتبوا إلى عظماء فارس انا قد ظفرنا بملككم فإما أن نقتله وإما أن تفتدوه فأرسلوا إليهم بأموالهم وخزائنهم وما ملكته أيديهم فأخذوا المال ولم يخلوا عنه ثم سار قيصر إلى بلادهم فقتل المقاتلة وأخرب المدن وعقر النخل وشابور معه في تابوت يسير حيث سار حتى انتهى إلى جنديسابور فنزل بساحتهم وقد تحصن أهله فحاصرهم شهورا وقالوا وأتت ليلة عيدهم فغفلوا عن شابور ونامت عنه الرقباء ونظر سابور إلى قوم أسارى وزقاق من زيت فقال لبعضهم أفرغوا على من هذا الزيت فأفرغوا عليه فلانت الجلدة عليه وانسلخت عنه وقام يدب على الأربع كالدواب حتى أقتحم سور المدينة ونادى أنا شابور الملك فاجتمعوا عليه وتباشروا به وخرج من ليلته والقوم في

شغل من عيدهم فقتلهم أبرح قتل واستباح أموالهم وأسر قيصر ملكهم قال أني مستجبيك كما استجبيتني وأخذه برد ما أخذ من الأموال وإصلاح ما خرب من المدن من سرة بلاده وأن يغرس مكان كل نخلة عقرها زيتونة ولم يكن بالعراق حينئذ شجر الزيتون فحملوا الطين من أرض الروم في السفن والعجلات حتى عمروا ما خرب بأيديهم ثم رتقه وقطع عقبه وخلى سبيله وفيه يقول الشاعر

هم ملكوا جميع الناس طرا ... وهم رتقوا هرقلا بالسواد

وهم قتلوا أبا قابوس غضبا ... وهم كشفوا البسطة عن إياد

وكان ملكه أثني وسبعين سنة وملك الحيرة في أيامه امرؤ القيس الأول ثم ملك اردشير بن هرمز أخو شابور ذي الأكتاف إحدى عشرة سنة ملك يزدجرد الأثيم وهذه قصة يزدجرد الأثيم ثم ملك يزدجرد الأثيم ويقال له الخشن وهو يزدجرد بن بهرام بن شابور ذي الأكتاف وكان فظا غليظا مهيبا للناس سفاكا للدماء ركوبا للمآثم فشكوا إلى الله عز وجل ودعوا الله عليه فجاء فرس لم ير مثله في حسنه وكمال تقطيعه حتى وقف ببابه فلما خرج رمحه رمحة فقضي عليه وملأ فروجه جريا فلم يدرك فقالت الفرس هذا ملك جاء فأراحنا منه وكان له ابن اسمه بهرام تربى في حجر آل المنذر بأرض العرب

وهذه قصة بهرام جور ثم ملك ابنه بهرام جور فأحسن السيرة وأحيا الناس قالوا قصده خاقان ملك الخزر من نحو باب الأبواب في مائة ألف فخرج بهرام يشبه المتصيد في رابطته وبلغ الخبر خاقان بأن بهرام قد هرب وخلى مملكته لما سمع من كثرة جيوشك فاغفل الحذر وترك الحزم فانقض عليه بهرام من جبال أذربيجان فقتلهم أبرح قتل وجاء برأس خاقان وهو الذي يقول فيه الشاعر

أقول له لما فضضت جموعه ... كأنك لم تسمع بصولات بهرام

فإني حامي ملك فارس كلها ... وما خير ملك لا يكون له حامي أمرهم

قالوا وأمر بإحصاء ما أصاب من الغنائم فإذا هي مثل خراج مملكة لثلاث سنين فوضع الخراج على الرعية بمقدار ذلك وأمرهم بالنفرغ للتلذذ والتنعم قالوا وخرج بهرام يوما متصيدا وقد أردف جارية مغنية فعرض له وحش فقال للجارية أين تريدين أن أضع نشابتي قالت أريد أن تشبه ذكرانها بإناثها وإناثها بذكرانها فرمى ذكرا من الظباء بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ورمى الأنثى بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين ثم قالت وأريد أن تصل ظلف ظبي بأذنه فرمى ظبيا بجلاهق أهوى برجله ليحك أذنه رماه فوصل ظلفه بأذنه ثم ضرب بالجارية الأرض وقال لشد ما اشتططت على وأردت إظهار عجزي وقتلها وهذا والله غير ممكن إلا بالاتفاق قالوا وكان بهرام يعرف اللغات فيتكلم إذا غضب بالعربية وفي القتال بالتركية وفي مجلس العامة بالدرية ومع النساء بالهروية وكان نقش خاتمه بالأفعال تعظم الأخطار وكان صاحب لهو وغناء وصيد وكان لا يقاتل إلا من يقاتله ولا يتعرض لمن لا يتعرض له وبنى له النعمان بن المنذر الخورنق والسدير وفي أيامه ساح النعمان بن المنذر ملك الحيرة فملك بهرام الحيرة المنذر بن النعمان وفي أيامه تحركت أمر قريش لما أراد الله تعالى بهم وتزوج كلاب بن مرة فاطمة بنت سعد من الأزد فولدت له قصي بن كلاب وزهرة بن كلاب وكان ملكه ثلاث وعشرين سنة ثم ملك الله يزدجرد بن بهرام ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما فلما مات تنازع الملك أبناه فيروز بن يزدجرد وهرمز بن يزدجرد بن بهرام جور قالوا وأسنت الناس في أيامه سبع سنين حتى فني أكثر الحيوان ثم أغاثهم الله بغيثه فزكت الأرض ونمى الزرع وأخرجت كل حبة سبع مائة حبة وسمعت بعض المفسرين يقول في قوله تعالى كمثل حبة أنبتت سبع سنابل وفي كل سنبلة مائة حبة ولم يكن هذا إلا في زمن فيروز والله أعلم قالوا وكتب فيروز في ذلك القحط إلى العمال

والولاة والوكلاء والبنادرة بقسمة ما في الخزائن على الناس وحسن التدبير لهم في المعاش فلم يهلك في تلك السنين إلا رجل باردشيرخرة ثم قصد فيروز الهياطلة وهم قوم كانوا بناحية بلخ وطخارستان وملكهم اشنوار فلما بلغ توجه فيروز إليهم اشتد خوفهم فاحتالوا وذلك أن رجلا منهم باع نفسه من الملك على أن يكفيه مؤونة أهله وعياله بعده وكان قد بلغ من السن غاية لا ينتفع معها بعيش فقطعوا يديه ورجليه والقوة على ظهر طريق فيروز فلما انتهت الخيل إليه سألوه فزعم أن اشنوار غضب عليه في تعصبه لفيروز ففعل به ما ترون فهل لكم أن أخذتكم على طريق تطلعون منه على اشنوار وجنوده مغافصة قالوا بلى فحملوه معهم وأخذ بهم على طريق معطش مهلك فساروا حتى أنفذوا ماء يسقيهم وتاهوا في متوجههم ثم صدقهم الرجل عن نفسه وحيلته عليهم فاخذ كل قومه وجهة يرجون النجاة إلا فيروز في شرذمة قليلة تخلصوا بحشاشة أنفسهم فأسرهم اشنوار واستباح عسكرهم ثم عاهدوا فيروز أن لا يتعرض لهم وخلى سبيله وكان ملكه تسعا وعشرين سنة ثم تنازع الملك بعده أبناه قباذ وبلاش فهرب قباذ إلى الترك يطلب المدد فملك بلاش أربع سنين ومات ثم عاد قباذ وملك وفي أيامه ظهرت المزدكية قصة قباذ ومزدك

وهذه قصة قباذ ومزدك قالوا أن قباذ بن فيروز كان رجلا مداريا متئدا يكره الدماء والمعاقبة وكثرت الأهواء في زمانه وانتحل كل فريق ملة ومذهبا ووثب مزدك وهو رجل من أهل فساد فعمل على الناس وقال أن الله عز وجل جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالسوية حتى لا يكون لأحد منهم فضل على الآخر ولكن الناس تظالموا وتغالبوا واستأثر كل واحد بما أحب والواجب أن يؤخذ فضل ما في أيدي الأغنياء ويرد في الفقراء حتى يستووا في الدرجة فشايعه على ذلك الغوغاء وافترضوا قوله وجعلوا يدخلون على الرجل فيغلبون على أهله وماله ونسائه وعبيده واشتدت شوكتهم وعظمت نكبتهم وعجز السلطان عن مقاومتهم ولم يكن عندهم لمن أبى عليهم إلا القتل ثم وثبوا على قباذ فخلعوه وحسبوه وملكوا أخاه جاماسب وفسدت معائش الناس واختلطت أنسابهم فكان المولود لا يعرف أباه والضعيف لا يمتنع منه القوي ثم خرج زرمهر ابن سوخرا في من تبعه من الغواة والمطوعة وقتلوا من الزدكية ناسا كثيرا ورد الملك إلى قباذ فتبرأ منهم ويقال أنه كان بايعهم وفي أيامه ولد عبد المطلب وحمل إلى مكة وكان جاءه الحارث بن عمرو المعصوب بن حجر آكل المرار ودخل في دين المزدكية فملكه على العرب كلها فلما صار الأمر إلى انوشروان رد الملك إلى المنذر بن امرئ القيس وكان ملك قباذ اثنتين وأربعين سنة وفي أيامه غلبت الروم والحبشة على اليمن ثم ملك كسرى انوشروان بن قباذ وكان ملكه سبعا وأربعين سنة وسبعة أشهر فقتل ثمانين ألفا من المزدكية في يوم واحد وجمع الناس على الدين وأتم بباب الأبواب السور وغزا الروم ففتح إنطاكية وبنى بالمدائن مدينة على صورة إنطاكية وسماها الرومية وصاهر خاقان ملك الترك حتى عاونه على الهياطلة فأدرك منهم وتر فيروز وانبسط ملكه حتى بلغ قشمير وسرنديب وهو الذي بعث وهرز إلى اليمن فنفى عنه الحبشة وعلى رأسه أربعين من ملكه ولد النبي صلعم في قول بعضهم وكان حسن السيرة مبارك الولاية رحيما بالرعية متميزا للخيم ثم ملك ابنه هرمز بن كسرى فجار وعسف فزحفت إليه الجيوش من النواحي الأربع الروم والترك والخزر واليمن فوجه بهرام شوبينه اصفهبذ الري لالتقاء فقتلهم وسباهم ثم خلع بهرام يده عن الطاعة وتغلب على خراسان وما يليها وكتب القود والمرازبة يغريهم به فوثبوا عليله وسملوا عينيه وحبسوه وملكوا ابنه ابرويز بن هرمز وملك هرمز إحدى عشرة سنة وسبعة أشهر ثم ملك ابرويز وجاء بهرام شوبينة فقاتله على شط النهروان وهزمه وكان ابرويز يومئذ على فرسه شبديز فلح به فقال للنعمان بن المنذر وهو يمشي بين يديه أعطني اليحموم وهو فرس معروف مشهور له وفيه يقول الأعشى

ويأمر لليحموم كل عشية ... بقت وتعليق وقد كان يسبق

فلم يعطه اليحموم ونزل حسان بن حنظلة الطائي عن فرسه الضبيب وقال اركب أيها الملك فإن حياتك للناس خير من حياتي فركبه ابرويز ومر إلى ملك الروم موريقيس فاستنجده فزوجه ابنته مريم وأمده بمال ورجال فقاتل بهرام وهزمه إلى الترك واستولى على الملك فلم يزل يدس على بهرام حتى قتل بدار الغربة وكان ملك ابرويز ثمانيا وثلاثين سنة وفي أيامه بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم بالرسالة وبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه بعبد الله بن حذافة السهمي يدعوه إلى الإسلام فمزق كتابه واستخف به وكتب إلى باذان ملك اليمن أن عبدا من عبيدي قد كتب يدعوني إلى دينه فابعث إليه رجلين جلدين يأتيان به مربوطا وإن أبى عليهما فليضربا عنقه ولهذه القصة موضع غير هذا فلما بلغ النبي صلعم تمزيقه كتابه قال مزق كتابي مزق الله عليه ملكه قال الله عز وجل (آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) روى أن عاملا لابرويز يقال له شهرابراز الفارسي غلبهم وسباهم ذلك أن الروم وثبت على ملكهم موريقيس فقتلوه فبعث ابرويز شهرابراز فنكا فيهم نكاية عظيمة قبل الهجرة بسنة ثم أدبرت الروم ابرويز فقتله ابنه وفي ابرويز يقول خالد الفياض

والكهل كسرى شنهشاه يقنصه ... سهم بريش جناح الموت مقطوب
إن كان لذته شبديز مركبه ... وغنج شيرين والديباج والطيب
بالنار آلى يمينا شد ما غلظت ... أن من بدا بنعي شبديز مصلوب

حتى إذا أصبح الشبديز منجدلا ... وكان ما مثله في الناس مركوب
ناحت عليه من الأوتار أربعة ... بالفارسية نوحا به تطريب
فراطن الهربذ الأوتار فالتهبت ... من سحر راحته اليسرى شابيب
فقال مات فقالوا أنت فهت به ... فأصبح الحنث عنه وهو محدوب
لولا الهرابذ والأوتار تندبه ... لم تستطع نعي شبديز المرازيب
أخنى الزمان عليهم فاجرهد بهم ... فما يرى منهم إلا الملاعيب

وابرويز الذي أمر فصور هو ودابته شبديز وسريته شيرين بقرميسين ليبقى له أثر ثم ملك ابنه شيرويه بن ابرويز وأمه ابنة ملك الروم مريم بنت موريقيس فوقع الطاعون في الناس وفنى تسعة أعشار الناس وهلك شيروية فيه وكان ملكه ثمانية أشهر وهو الذي سعى في قتل أبيه ليأخذ ملكه وفيه يقول الشاعر هو عدي بن زيد

وكسرى إذ تقسمه بنوه ... بأسياف كما اقتسم اللحام
تمخضت المنون له بيوم ... أتى ولكل حاملة تمام

وكان باذان بعث برجلين إلى المدينة كما أمره ابرويز ليأتياه بالنبي صلعم فبينما هما عند النبي صلعم إذ قال لهما أن ربي أخبرني أنه قتل كسرى ابنه هذه الليلة لكذا ساعات مضين منها فانصرف الرجلان ونظرا فإذا هو كما قال النبي صلعم ثم وثب شهرابراز الفارسي الذي كان بناحية الروم فملك عشرين يوما ثم اغتاله بوران دخت بنت ابرويز فقتلته وملكت بوران دخت سنة ونصف سنة فأحسنت السيرة وعدلت في الرعية ولم تجب الخراج وفرقت الأموال في الأساورة والقواد وفيها يقول الشاعر

دهقانة يسجد الملوك لها ... جبي إليها الخراج في الجرب

ولما بلغ النبي صلعم خبرها قال لا يفلح قوم يليهم امرأة وفي أيامها كانت وقعة ذي قار فقال النبي صلعم يوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا ثم ملكت بعدها آزرميذ دخت بنت ابرويز أربعة أشهر فسمت فماتت ثم ملك رجل يقال له فرخ شهرا وقتل ثم طلبوا يزدجرد بن شهريار بن ابرويز وهو غلام فملكوه فمكث فيهم عشرين

سنة والملك منتشر والأمر مختل مضطرب إلى أن قتله ماهوية دهقان مرو بقرية رزق سنة إحدى وعشرين من وفاة النبي صلعم في خلافة عثمان ابن عفان رضه وكان عبد الله بن عامر بن كريز بالطبسين واقضى أمر ملوك الفرس وأظهر الله دينه وانجز وعده وفيه يقول ابن الجهم

والفرس والروم لها أيام ... يمنع من تقحيمها الإسلام

ويقول المسعودي في آخر قصيدته بالفارسية

سبرى شذ نشان خسروانا ... جوكام خويش راندند در جهانا

ملوك العرب ولهم ثلث ديار العراق والشام واليمن قصة ملوك العرب ولهم ثلث ديار العراق والشام واليمن ويقال أن من ملك اليمن بعد نزول قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح أتاها يعرب بن قحطان وهو أول من نطق بالعربية وأول من حياه ابنه بأبيت اللعن وأنعم صباحا ولا يدري من كان بعده حتى ملك حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب ولم يزل الملك في ولده إلى أن مضت قرون وحقب وصار إلى الحارث الرائش بعد خمس آباء فمنهم من فرع ينهب بن أيمن بن ذي ترجم بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن الهميسع بن حمير وهو الذي أخرج العماليق من اليمن في زمن الضحاك وصاهر افريذون كما ذكرنا آنفا وفيهم يقول الشاعر

رأيت ملوك الناس في كل بلدة ... فلم أر في الأملاك أمثال حمير

ومنهم شمر ذو الجناح وفي أيامه ظهر موسى عم بالشام وهو زمن منوجهر ببابل ومنهم غمدان نبان وهو الذي بنى غمدان ومنهم شمر نهعص ومنهم ذو يقرع ومنهم ذو مرابح فأما ملوك اليمن فالذي يصح ذكره بعد الحارث الرائش ويقال أنه أول من غزا من ملوك اليمن وأصاب الغنائم فسمي الرائش لأنه راش الناس وكساهم وفي عصره مات لقمان صاحب النسور ويروى أن له شعرا يذكر فيه نبينا محمد صلعم وملوكا يكونون قبله ويقول

ويملك بعدهم رجل عظيم ... نبي لا يرخص في الحرام

يسمى أحمد يا ليت أني ... أعمر بعد مبعثه بعام

قالوا وكان ملكه مائة وخمساً وعشرين سنة ثم ملك بعده أبرهة ذو المنار وسمى به لأنه غزا بلاد النسناس وجاء بهم وجوههم في صدورهم فذعر الناس لذلك وكان ملكه خمسا وعشرين سنة ثم ملك هداد بن شراحيل بن عمرو بن الحارث الرائش أبو بلقيس ولم يلبث إلا يسيرا حتى هلك ثم ملكت بلقيس أربعين سنة وكان من قصتها وقصة سليمان ما ذكر الله عز وجل ثم ملك ناشر النعم لإنعامه على الناس وذكروا أنه بلغ في غزاته إلى وادي الرمل الحماري فأمر بصنم من نحاس فصنع ثم كتب عليه ليس ورائي مذهب وكان ملكه خمسا وثمانين سنة ثم ملك شمر بن افريقيس بن ذي المنار بن الرائش وهو الذي يدعى بشمر بن رعش لرعشة أصابته وهو الذي غزا الصين وافتتح عامة فارس وسجستان وخراسان وخرب سمرقند فسميت شمركند وكان ملكه مائة وسبعا وثلاثين سنة وفيه يقول ابن الجهم

وظهرت باليمن التبابعة ... شمر يرعش وملوك خالعة

ثم ملك بعده ابنه الأقرن بن شمر وغزا الروم قبل ظهور عيسى عم وكان أهلها عبدة الأصنام والأوثان فمات بناحية منها يقال لها وادي الياقوت وكان ملكه ثلاث وخمسين سنة ثم ملك بعده تبع بن الأقرن وهو تبع الأكبر وكان أقام سنوات لا يغزو فسمته حمير موثبان وموثبان بلغتهم القاعد فغضب لذلك وأخذ بالغزو حتى وصل الصين وخلف رابطة بتبت فأعقابهم اليوم بها وهو القائل فيما يروى

قطع البقاء بقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا يمسى

وطلوعها بيضاء إذ طلعت ... وغروبها صفراء كالورس
تجري على كبد السماء كما ... يجري حمام الموت بالنفس
اليوم ينظر ما يجيء به ... ومضى لفضل قضائه أمس
وكان ملكه مائة وثلاثا وستين سنة ثم ملك بعده ملكيكرب ابن تبع خمسا وثلاثين سنة ثم ملك ابنه تبع الأوسط وهو أسعد أبو كرب وكان يغزو بالنجوم ويسير بها حتى بلغ الهند والروم إياه عنى الطائي بقوله
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها ... كرى وصدت صدودا عن أبي كرب
قالوا وطالت مدته واشتدت وطأته وملته حمير لكثرة غزاته وهو الذي قال فيما يروى
شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره ... لكنت وزيرا له وابن عم
وهو الذي قتل يهود يثرب وأراد أن يخربها فأخبر أنها مهاجر نبي فآمن به وتركها كما يزعمون وكان ملكه ثلثمائة وعشرين سنة ثم ملك ابنه حسان بعدما وثبت حمير على أبيه فقتلوه ثم لقب حسان هذا ذوجيشان وهو الذي أباد جديس وقد مرت قصتهم وأخذ حسان يتجنى على قتله فقتلهم واحدا واحدا حتى بايعوا أخاه عمرو بن تبع على أن يقتل حسانا فقلته فلما قتله منع النوم فسأل الغلمان عن ذلك فقالوا إنك قتلت أخاك ظلما ولن يؤاتيك النوم حتى تقتل من أشار عليك بقتله فقتلهم كلهم إلا ذا رعين فإنه نهاه عن ذلك وكان قال حين سهر
ألا من يشتري سهرا بنوم ... سعيد من يبيت قرير عين
فإن تك حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذي رعين
لنا معراج ملك حيث كنا ... تناوله المقاول باليدين
ملكنا بعد تبعنا زمانا ... وعبدنا ملوك المشرقين
زبرنا في ظفار زبور مجد ... ليقرأه جميع الخافقين
ونحن الواقفون بكل هون ... إذا قال المقاول أين أين

قالوا وكان هذا في زمن ملوك الطوائف بعد الاسكندر وفي ملكه تزوج عمرو بن حجر الكندي جد امرئ القيس الشاعر ابنة حسان بن تبع أخى عمرو بن تبع فولدت له الحارث ابن عمرو وفي أيامه أحس عمرو بن عامر بسيل العرم فخرج من سبأ بمن تبعه وهو أبو ملوك الحيرة والشام وعمان وكان ملكه ثلاثا وستين سنة ثم ملك بعده عبد كلال بن مثوب أربعا وسبعين سنة وآمن بعيسى عم ثم ملك بعده تبع الأصغر وهو تبع بن حسان ثمانيا وسبعين سنة وهو الذي قتل يهود يثرب في أصح الروايات وقصة ذلك قال محمد بن اسحق كان الأوس والخزرج مستضعفين متهضمين في أيدي اليهود وملكهم القيطون لا يزف عروس إلا اقتضها فلما تزوج مالك بن عجلان الخزرجي أخته وأدخلها إلى القيطون تشبه مالك بن عجلان بالنساء وتستر بثيابهن ودخل معهن واختبأ في ناحية من داره فلما هم القيطون بأخته قام إليه مالك بن عجلان فقتله ثم خرج إلى تبع فاستصرخه فجاء حتى قتل من رؤساء اليهود واعلامهم ثلثمائة وخمسين رجلا غيلة بذي حرض موضع بالمدينة فقالت امرأة من اليهود ترثيهم
بأهلي لمة لن تغن شيئا ... بذي حرض تصفقها الرياح
شباب من قريظة أتلفتها ... سيوف الخزرجية والرماح
ولو اربوا بأمرهم لحالت ... هنالك دونهم خود رداح
ويقال أن هذا كان ملك الشام الحارث الأعرج والله أعلم قال وهم تبع بإخراب المدينة فقالت له يهود إن هذا غير

ممكن ولا أنت واصل إليه قال ولم قالوا لأنها مهاجر نبي يخرج من مكة فقبل تبع اليهودية ودان بها وأخذ حبرين من أحبارهم معه إلى اليمن ومر بالبيت وكساه البرود وهو أول من كساه وفيه يقول اليمانون

وكسونا بالبيت الذي كرم الل ه ملأ معضدا وبرودا

فلما قدموا اليمن اختلفوا عليه لمتابعته اليهود وكانت لهم نار تخرج من جبل يتحاكمون إليها ويزعمون أنها تصيب الظالم ولا تمس المظلوم والله أعلم ويشبه أنهم كانوا يقولون هذا القول على جهة التخويف فتحاكموا إليها فخرجت فأحرقت عبدة الأوثان وتركت الحبرين ومن معهما فتهود خلق كثير من اليمن وعلى اليهودية أحرق الناس بقول الله عز وجل قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود ثم ملك مرثد بن عبد كلال إحدى وأربعين سنة وتفرق ملك حمير فلم يعد ملكهم اليمن وذلك في زمن اردشير الجامع فملك ذو فايش وذو مجن وذو نواس وذو الكلاع وذو رعين وذو عكيلان ثم ملك وليعة بن مرثد سبعا وثلاثين سنة وفي زمانه أرسل الله على سبأ سيل العرم فبادوا ثم ملك ابرهة بن الصباح ثلاثاً وسبعين سنة ثم ملك حيان بمن عمرو سبعا وخمسين سنة ثم ملك ذو شناتر ولكم يكن من أهل بيت الملوك ولكنه من أبناء المقاول وكان لا يسمع بغلام نشأ من أبناء المقاول إلا بعث إليه فأفسده حتى قتله ذو نواس وقصة ذلك أنه بلغه من ذي نواس ظرافة وملاحة فبعث إليه فأحضر وكان له ذؤابتان تنوسان على عاتقه وهو على دين اليهود وهو صاحب الأخدود وكان قد خبأ سكينا صغيرة تحت ثيابه فلما راوده على الفاحشة وخلا به وثب عليه ذو نواس وبعج بطنه وقتله فحمدت حمير مذهبه وملكوه على أنفسهم، قصة أصحاب الأخدود

وروى محمد بن اسحق عن وهب قال وكان رجل من بقايا أهل دين عيسى يقال له فيمون خرج من الشام مع سيارة من العرب فأخذوه وباعوه من أهل نجران وكان أهل نجران يعبدون نخلة لهم فقال لهم فيمون إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع فلم تعبدون ولو دعوت ربي الذي أعبده لأهلكها قالوا فافعل فدعا فيمون ربه فجاءت ريح فجعفتها عن أصلها فاتبعه أهل نجران وآمنوا بعيسى وبلغ الخبر ذا نواس فسار إليهم بجنوده فحاصرهم زمانا ثم آمنهم فأعطاهم عهدا لا يغدر بهم إن هم نزلوا فلما هم نزلوا خد بهم الاخدود وأوقد فيه النار ثم جعل يجاء بفوج بعد فوج ويخيرون بين اليهودية والنار فمن أبى عليه قذفه في النار قالوا حتى أتي بامرأة معها صبي لها ترضعه فلما نظرت إلى النار ذعرت لذلك وكادت تعرض على دينها فقال لها الصبي مه يا أماه امضي على دينك فإنه لا نار بعدها فرمى بالمرأة وابنها في النار قال بعضهم فجعل الله النار عليهما بردا وسلاما فكف ذو نواس عن ذلك ومضى رجل من أهل اليمن يقال له ذو ثعلبان إلى ملك الحبشة ومعه صحف محرقة من الإنجيل ويستصرخه فبعث بجيش إلى اليمن وانهزم ذو نواس من بين أيديهم فخاض في البحر بفرسه حتى غرق وفيه يقول عمرو بن معدي كرب

أتوعدني كأنك ذو رعين ... بأنعم عيشة أو ذو نواس

وكاين كان قبلك من نعيم ... وملك ثابت في الناس راسي

قديم عهده من عهد عاد ... عظيم قاهر الجبروت قاسي

فأمسى أهله بادوا وأمسى ... يحول في أناس من أناس

وانقضى ملك اليمن وغلبت الحبشة عليها وكان بين ملك الحارث الرائش إلى هلاك ذي نواس ألف سنة وستمائة سنة وستون سنة وقد قيل في قصة الأخدود غير هذا وقد ذكرناه في كتاب المعاني ثم ملكت الحبشة وذلك في زمن قباذ وأنوشروان قالوا ولما قتل ذو نواس أهل نجران وأحرقهم وذهب صريخهم إلى النجاشي ملك الحبشة يستنجده قال عندي رجال وليس عندي سفن فكتب إلى قيصر ملك الروم وبعث إليه بالأوراق المحرقة من الإنجيل يغريه

بذلك ويحفظه ويسأله أن يعينه بالمعابر ليطلب بثأر دينهم فبعث إليه بسفن كثيرة فحمل النجاشي فيها جيشا كثيرا إلى اليمن فلما سمع ذو نواس صنع مفاتيح كثيرة وتلقاهم بها وقال هذه مفاتيح كنوز اليمن خذوها واستبقوا الرجال والذرية فقبلوا منه ثم فرقهم في المخاليف والقرى وأعطاهم تلك المفاتيح وكتب إلى كل مقول في مخلاف إذا كان يوم كذا وكذا فاذبح كل ثور أسود عندك ففطنوا لذلك وقتلوا أوليك الحبشة في يوم واحد ولم ينج منهم إلا الشريد وبلغ النجاشي الخبر فبعث بسبعين ألف مقاتل وأمرهم أن لا يدعوا رجلا إلا قتلوه ولا بناء إلا هدموه فعلم ذو نواس أنه لا طاقة له بهم فاستعرض البحر واقتحم اللجة وكان آخر العهد به وجاءت الحبشة فاستولوا على اليمن ورئيسهم ابرهة الأشرم فخربوا المدن وقتلوا الرجال وسبوا النساء والولدان ولم يبعثوا إلى النجاشي بشيء من ذلك فبعث النجاشي أرياط في جيش كثيف للقاء أبرهة فاتعد للقتال يوما وتواقفا فغدر بارياط أبرهة وقتله ورفع النجاشي الخبر فزعج نفسه وحلف بالمسيح أن لا يكون له ناهية حتى يهريق دم أبرهة ويجز ناصيته ويطأ تربته ففزع لذلك أبرهة وارتاع وبعث إليه بهدايا والأموال وكتب إليه يستعينه ويستعطفه ويعتذر إليه من صنيعه بارياط وبعث إليه بقارورة من دمه وجراب من تربة أرضه وجزة من ناصية وقال يطأ الملك التراب ويريق الدم ويجز الشعر فبر قسمه بذلك فرضى عنه النجاشي وأعفاه واستجمع لأبرهة ملك اليمن فبنى كنيسة لم ير الناس مثلها في شرفها وحسنها ونقشها بالذهب والفضة والزجاج والفسقيا والألوان والأصباغ وصنوف الجواهر وسماها القيس وأمر الناس أن يجعلوا حجهم إليها ويتركوا حج مكة فجاء رجل من النساة وقعد في كنيسه فغضب لذلك أبرهة وهم بغزو قريش وأوفد نارا لطعامهم فلما ارتحلوا عصفت الريح واشتعلت النار وأحرقت القليس فعند ذلك خرج الأشرم بالفيل إلى مكة يهدم البيت

قصة أصحاب الفيل

وسار بخيله ورجله يقدمهم الفيل لا يطأ بلدا إلا استباحهم وقتلهم فلقيه نفيل بن حبيب الخثعمي وقاتله فهزمه أبرهة وأسره وكاد يقتله فقال أنا رجل دليل خريت للفلوات فاستبقني يكن خيراً لك فتركه يدله وسار وبلغ الخبر قريشا فتحصنت في الشعاب ورؤوس الجبال ولم يتخلف بمكة غير عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم جد النبي صلعم لأمه وجاء أبرهة حتى نزل عرفات وأرسل إلى أموال قريش فجمعها وساقها وأخذ لعبد المطلب مائتي ناقة فجاء عبد المطلب يطلب إبله واستأذن على أبرهة فأذن له فلما دخل عليه رحب به وعظمه وقال ما حاجتك قال إبلي قال له أبرهة قد كنت فيك راغبا فزهدت تسألني إبلك وتترك بيتك الذي هو دينك فقال عبد المطلب أنا رب هذه الإبل وللبيت رب إن شاء منعه فلما أصبحوا جهزوا الجيش ووجهوا الفيل نحو الكعبة فلما بلغ الحرم برك وانصرف راجعا إلى اليمن وأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل كما ذكر الله عز وجل في القرآن فأهلكهم ووقعت الأكلة في جسد أبرهة فحمل إلى اليمن فهلك بها وفي هذه القصة اختلاف كثير في كيفية مجيء الطير وعدد الفيلة ووجود المعجزة في غير زمان نبي مبعوث فذكرناها في كتاب المعاني ولا معنى لإنكار من ينكر هذه القصة ويزعم أن القوم كان أحرقهم ثمار اليمن وأوباهم ماءها وهواءها فحصبوا أو جدروا فهلكوا ذلك أشيع فيهم وأفشى بهم من أن يأتي عليه الكتمان ولهم فيه الأشعار ما لا يعترض شك في صدقه فمنه قول عبد الله بن الزبعري

فنكبوا عن بطن مكة أنها ... كانت قديما لا يرام حريمها

سايل أمير الجيش عنها ما رأى ... ولسوف ينبي الجاهلين حليمها

ستون ألفا لم يؤوبوا أرضه م ولم يعش بعد الإياب سقيمها

ومنه قول الآخر

كاده الأشرم الذي جاء بالفي ل فولى وجيشه مهزوم

فاستهلت عليهم الطير بالجن دل حتى كأنه مرجوم

وفي عام الفيل ولد رسول الله صلعم والملك أنوشروان وعلى الحيرة النعمان بن المنذر ثم لما هلك أبرهة ملك ابنه يكسوم بن أبرهة اغتصب ريحانه بنت ذي جدن وامرأة ذي يزن أبي مرة الفياض فاستنكحها وكانت ولدت لذي يزن سيف بن ذي يزن ثم ولدت لأبرهة وكان خرج ذو يزن إلى كسرى أنوشروان يستنجده ويستعينه على السودان وامتدحه بالحميرية فاعجب كسرى بقصيدته لما ترجمت له فواصله وحباه وقال سأنظر في أمرك وكان مقيما ببابه على شبه العبدة حتى هلك وشب ابن ذي يزن ونشأ وهو يظن أنه ابن أبرهة فقال له مسروق لعنك الله ولعن أباك فرجع سيف إلى أمه وقال من أبي قالت أبرهة قال لا والله لو كان أبي أبرهة ما سبني ولا سبه مسروق فصدقته أمه الحديث وأن أباه ذهب إلى كسرى فما غيره فتهيأ الغلام وخرج إلى قيصر فشكا إليه فلم يشكه فجاء حتى أتى النعمان بن المنذر ملك الحيرة واستشاره في قصد كسرى فقال له النعمان إن لي عليه في كل عام وفادة فأقم حتى يكون ذلك ففعل ثم قدم معه إلى كسرى فاعترضه سيف بن ذي يزن وهو يسير فصاح أن لي عندك أيها الملك ميراثا فقال أنا ابن الشيخ الذي أتاك يستنجدك فاوعدته فعرف كسرى ذلك وسار حتى دخل القصر وجلس في الإيوان تحت التاج وكان تاجه مثل العقنقل العظيم معلقا بسلاسل من ذهب فلا يراه أحد إلا برك هيبة له واستأذن النعمان بن المنذر لسيف بن ذي يزن فأذن له فلما رأى كسرى خر ساجدا له من هيبته ثم قال غلبتنا على بلادنا الأغربة فجئتك لتنصرني ويكون ملك بلادي لك فقال بعدت بلادك مع قلة خيرها وما كنت لأورط جيشاً من فارس ثم رق له كسرى لما ذكر حال أبيه ومقامه ببابه إلى أن مات وأمر له بعشرة آلاف درهم وخلع فاخرة ودواب وقال الحق بلادك فإنك لا تزال أكثر قومك مالا فخرج سيف من عنده وجعل ينثر تلك الورق وينهبها الناس فدعاه كسرى فقال تنثر حبائي وتنهب عطيتي فقال لم آتك أيها الملك للمال وإنما آتيك للرجال وما تراب بلدي إلا من هذا يرغبه في بلاده فاستصوب كسرى ذلك من فعله وجمع المزاربة والموابذة واستشارهم في أمره فقالوا أيها الملك إن في سجونك رجالا قد حبستهم للقتل وهم أهل بأس وشدة وحدة فنرى أن تبعثهم معه فإن أصابوا كان لك وإن هلكوا فذاك ما أردت فأمر بمن في السجون فأحضروا فوجدوهم ثماني مائة رجل وكان فيهم أسوار يقال له وهرز يعد بعشرة آلاف إسوار في مكيدته وبأسه فاستعمله عليهم وحملهم في السفن حتى خرجوا بساحل حضرموت وخرج سيف بن ذي يزن فأخذ على طريق البر وجمع قومه من أطاعه إلى وهرز وهلك يكسوم وملك أخوه مسروق ابن أبرهة فسار إليهم في مائة ألف من الحبشة وحمير والأعاريب وأرسل إلى وهرز لقد غدرت بنفسك حين طمعت في ناحيتنا مع هذه الفئة القليلة وإن شئت أذنت لك فرجعت إلى بلادك وإن شئت أخرتك حتى تنظر في أمرك فقال وهرز بل نضرب بيننا أجلا لا يتعرض بعضنا لبعض حتى ينقض الأجل ففعلوا وقالوا وركب ابن لوهرز يسير على فرس له تحيت عسكرهم فجع به فرسه فأسقطه وثارت الحبشة إليه فقتلته فأرسل إليهم وهرز أن قد نقضتم العهد واخفرتم الذمة ثم أمر بابنه فطرح في صعيد ينظر هو وأصحابه إليه ليدبرهم ولم يظهر جزعا ولا أسفا فلما انقضى الأجل خرج وهرز إلى السفن التي جاء فيها فأحرقها ودعا بكل ناد كان مع القوم وجمعهم وقال كلوا ثم أمر بما فضل فألقى في البحر وعمد إلى فراشهم ورحالهم كلها فأحرقها ثم قام فيهم خطيبا فقال أما ما أحرقت من سفنكم إلا وأردت أن أعلمكم أن لا سبيل إلى بلادكم فإن أطاق أحدكم أن يركب البحر بلا مركب فليعبر وأما ما ألقيت من زادكم فإني كرهت أن يطمع أحدكم أن معه زاد يعيش به يوما واحدا فيفر

طمعاً في الحيوة بذلك الزاد وأما ما أحرقت من ثيابكم ومفارشكم وأثقالكم فانه كان يغيظني ان كانت الدائرة عليكم أن يلبسها الحبشة ويفترشها بعدكم وإن ظفرتم لم تعدموا أمثالها وإن هلكتم فما حاجة الأموات إلى الأموال والمطارح والمفارش ثم قال أصدقوني يا قوم عن نفسكم فإن كنتم تحدثون أنفسكم بالفرار فأخبروني حتى أتكي على سيفي ولا أحتمل عار الدهر فقالوا جميعا نحن لك تبع وأنفسنا لك النداء ثن هيأ عسكره وعباهم وقال أوتروا قسيكم ولم يكن رؤى النشاب قبل ذلك باليمن وأقبل مسروق على فيل له وعلى رأسه تاج وبين عينيه ياقوتة حمراء وكان وهرز شيخا معمرا دهريا قد كل بصره من الهرم وسقط

حاجباه على عينيه وفيه من بقية القوة ما لا يوتر قوسه غيره فعصب حاجبيه بعصابة وأوتر قوسه وقال أبن ملكهم قالوا على فيل قال إنه على مركب ملك قالوا قد نزل من الفيل وركب فرسا قال نزل عن بعض الملك قالوا نزل عن الفرس وركب بغلا فقال بالفارسية أين كوذك خرست يعني ابن الحمار ذهب ملكه ثم قال لغلامه أخرج من الجعبة نشابة وإن من رسمهم أن يكتبوا على نشابة اسم صاحبها وعلى أخرى اسم أبيه وعلى الثالثة اسم الملك وعلى الرابعة اسم المرأة يتفألون بها ويتطيرون فأخرج الغلام نشابة فقال ما الذي هو مكتوب فقال اسم امرأتك فقال ردها واخرج أخرى فردها وأخرج أخرى فقال ما عليها فقال اسم امرأتك قال أنت المرأة وعليك طائر السوء خرجت من بلادك ولا همة لك غير النساء ردها وأخرج غيرها فردها وخرجت نشابة المرأة فتفأل بها وهو ربما كانوا يتطيرون وقال زنان زنان نضرب نضرب ثم قال إذا رميت فإن أصبت ملكهم فارموا حينئذ بالفترجان والفترجان أن يرمى الرجل خمس نشابات وإن أخطأت فلا يرمين أحدكم حتى آمره فتمعط في قوسه حتى ملأها نزعا ثم سرجها فأقبلت النشابة كأنها رشاء فصكت الياقوتة بين عيني مسروق فطارت فضاضا وفلقت جبهته وتغلغلت في رأسه حتى خرجت من قفاه ولانت الحبشة وانتقضت صفوفهم ثم رموهم فترجانات فهزموهم وقتلوهم حتى كان الإسوار يسوق المائة والمائتين والثلاث مائة من الأسارى بين يديه وذكر أن رجلا ركض على جمل وله ثلاثة أيام والتفت إلى حقيبته فإذا فيها نشابة فقال أبعد ثلاث لا أم لك فظن أنها أتته من مسيرة ثلاثة أيام وصفت لوهرز اليمن ست سنين وكان فتحها سنة إحدى وأربعين من ملك انوشروان ورسول الله صلعم ابن سنة أو سنتين أو فوق ذلك ويقال بل كان ذلك في زمن هرمز بن انوشروان والله أعلم وفيه يقول أمية بن أبي الصلت على عينيه وفيه من بقية القوة ما لا يوتر قوسه غيره فعصب حاجبيه بعصابة وأوتر قوسه وقال أبن ملكهم قالوا على فيل قال إنه على مركب ملك قالوا قد نزل من الفيل وركب فرسا قال نزل عن بعض الملك قالوا نزل عن الفرس وركب بغلا فقال بالفارسية أين كوذك خرست يعني ابن الحمار ذهب ملكه ثم قال لغلامه أخرج من الجعبة نشابة وإن من رسمهم أن يكتبوا على نشابة اسم صاحبها وعلى أخرى اسم أبيه وعلى الثالثة اسم الملك وعلى الرابعة اسم المرأة يتفألون بها ويتطيرون فأخرج الغلام نشابة فقال ما الذي هو مكتوب فقال اسم امرأتك فقال ردها واخرج أخرى فردها وأخرج أخرى فقال ما عليها فقال اسم امرأتك قال أنت المرأة وعليك طائر السوء خرجت من بلادك ولا همة لك غير النساء ردها وأخرج غيرها فردها وخرجت نشابة المرأة فتفأل بها وهو ربما كانوا يتطيرون وقال زنان زنان نضرب نضرب ثم قال إذا رميت فإن أصبت ملكهم فارموا حينئذ بالفترجان والفترجان أن يرمى الرجل خمس نشابات وإن أخطأت فلا يرمين أحدكم حتى آمره فتمعط في قوسه حتى ملأها نزعا ثم سرجها فأقبلت النشابة كأنها رشاء فصكت الياقوتة بين عيني مسروق فطارت فضاضا وفلقت جبهته وتغلغلت في رأسه حتى خرجت من قفاه ولانت الحبشة وانتقضت صفوفهم ثم رموهم فترجانات فهزموهم وقتلوهم حتى كان الإسوار يسوق المائة والمائتين والثلاث مائة من الأسارى بين يديه وذكر أن رجلا ركض على جمل وله ثلاثة أيام والتفت إلى حقيبته فإذا فيها

نشابة فقال أبعد ثلاث لا أم لك فظن أنها أتته من مسيرة ثلاثة أيام وصفت لوهرز اليمن ست سنين وكان فتحها سنة إحدى وأربعين من ملك انوشروان ورسول الله صلعم ابن سنة أو سنتين أو فوق ذلك ويقال بل كان ذلك في زمن هرمز بن انوشروان والله أعلم وفيه يقول أمية بن أبي الصلت

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي يزن ... إذ رام في الحرب للأعداء أحوالا
فأما قيصر لما حان رحلته ... فلم يجد عنده بعض الذي سألا
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم ... إيه لعمري لقد أسرعت قلقالا
لله درهم من عصبة خرجوا ... ما إن أرى لهم في الناس أمثالا
بيض مرازبه غلب أساورة ... تربت في الغارات أشبالا
يرمون عن شدف كأنها غبط ... بزمخر يعجل المرمى إعجالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم في الأرض فلالا

واشرب هنيئا فقد شالت نعامتهم ... وأسبل اليوم من برديك أسبالا
تلك المكارم لا عقبان من لبنشيبا بماء فعاد بعد أبوالا أحتمل عار الدهر كثر منك مالا أنا أكثر منك مالا

قالوا وأقام سيف بن ذي يزن ملكا من قبل كسرى ووهرز له كالمعني والناصر إلى أن قتل وكان سبب قتله أنه أتخذ خولا لنفسه من الحبشة فخلوا به يوما في متصيدة فقتلوه ثم لما مات وهرز ملك ابنه البنجان بن وهرز ثم مات وبعث كسرى باذان فلم يزل عليها إلى أن بعث الله نبينا محمد صلعم فاتبعه وآمن به، وأما ملوك الحيرة والشام وسبأ فيقول الله عز وجل: ومزقناهم كل ممزق. وزعموا أنه لما أحس عمرو بن عامر بسيل العرم قال أني قد علمت أنكم ستمزقون كل ممزق فمن كان منكم ذا هم بعيد وجمل شديد ومزاد جديد فليلحق بكاش أو كروذ فكانت وادعة بنت عمرو من كان يدل وامر ذعر فليلحق بأرض شيث فكانت عوف بن عمرو من كان منكم يريد عيشا أنيسا وخزما آمنا فليلحق بالأزد يعني مكة فكانت خزاعة ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطمعات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج ومن كان منكم يريد خمرا وخميرا وذهبا وحريرا وملكا وتأميرا فليلحق بكوفة وبصرى وكان غسان بنو جفنة ملوك العراق والشام وأول من ملك الحيرة مالك بن فهم بن غنم بن دوس الأزدي وكان ممن خرج من سبأ مع مزيقيا عمرو بن عامر في زمن اردشير الجامع أو بعده بقليل وفي كتب أهل الإسلام أن ذلك كان في الفترة والله أعلم كان ملكه عشرين سنة ثم ملك بعده ابنه جذيمة بن مالك الأبرش ويقال له الوضاح لبرص كان به وكان ولاه اردشير وكان ملكه ستين سنة

قصة جذيمة الأبرش

وهذه قصة جذيمة الأبرش وزعموا أن منزل جذيمة الأبرش كان الانبار والحيرة وكان لا ينادم أحدا ذهابا بنفسه أن يكون له نظير وينادم الفرقدين فإذا شرب قدحا صب ولهذا قدحا ولهذا قدحاً وكان له أخت مكينة عنده يقال لها رقاش أم عمرو وكان أخص خدمه وأقربهم من لخم يقال له عدي بن نصر بن الساطرون وصاحب الحضر بأرض الجزيرة ملك السريانيين فعشقته رقاش أخت الجذيمة وحملت منه فلما خافت الفضيحة قالت لعدي أخطبني من الملك إذا سكر ففعل ذلك فزوجه ودخل بها فلما صحا جذيمة ندم فأمر بعدي فضرب عنقه وظهر الحمل برقاش فقال جذيمة أصدقيني رقاش لا تكذبين بحر حملت أم بهجين أم لدون فأنت أهل لدون فقالت حملت ممن زوجتني به فلم يلبث أن ولدت عمر بن عدي فبناه جذيمة وعطف عليه فلما نشأ استهوته الجن فتاه في الأرض فجعل جذيمة لمن يأتي

به حكمه فخرج في طلبه رجلان يقال لأحدهما مالك والآخر عقيل ولم يزالا يطلبانه حتى أتيا به فقال لهما جذيمة احتكما فقالا ننادمك ما عشت فنادماه أربعين سنة ويقول متمم بن نويرة

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وقال آخر

ألم تعلمي أن قد تفرق قلبنا ... نديما صفاء مالك وعقيل

وكان لعمرو طوق من ذهب صيغ له في صباه فلما ردوه همت أمه أن ترد عليه الطوق فقال جذيمة شب عمرو عن الطوق فذهب كلامه مثلا وكانت بأرض الجزيرة ملكة يقال لها الزباء من قبل صاحب الروم فخطبها جذيمه ونهاه غلام له عن نكاحها يقال له قيصر فعصا هو نكحها وقال لا ينكح الملك إلا الملكة فذهب مثلا فلما دخل بها غدرت به فقتله فقال غلامه لا يطاع لقيصر أمر فذهبت مثلا ثم ملك بعده عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة واحتال قصير في الطلب بثأر جذيمة فأمر عمرو حتى جزعه وصلمه ثم خرج هاربا إلى الزباء يشكو عمرا وأنه اتهمه في قتل خاله فضمته الزباء إليها وولته أعمالها ثم سألها أن نبعثه إلى هجر ليأتيها من بضاعتها وتجارتها فأرسلته بمال بعد ما وثقت بناحيته وأمنت غائلته فجاء قصير على الإبل فافتك بها فاقعد رجالا شاكين في السلاح في الصناديق وحمل الصناديق على ظهر الإبل وأقبل قصير بالعير فأشرفت الزباء من فوق قصرها ويقال كانت كاهنة فقالت

ما للجمال مشيها وئيدا ... أجندل لا يحملن أم حديدا

أم صرفانا باردا شديدا ... أم الرجال جثما قعودا

فلما دخلت الإبل القصر خرج الرجال بأيديهم السيوف فهبت الزباء إلى نفق لها تحت الأرض كانت أعدته للحوادث فوجدت عمرو بن عدي قد كمن على فوهة السرب فأيقنت بالهلاك فمصت خاتمها وكان مسموما وقالت منيتي بيدي فذهبت مثلا وفيه يقول الدريدي

فاستنزل الزباء قسرا وهي من ... عقاب لوح الجو أعلى منتمى

فلم يزل الملك في بني عمر بن عدي حتى كان زمن قباذ بن فيروز بن يزدجرد الأثيم فجاء الحارث بن عمرو بن حجر الكندي آكل المرار ودخل في دين المزدكية فولاه قباذ الحيرة فجاء حتى قتل المنذر بن ماء السماء وبعث ابنه حجر بن الحارث أبا امرئ القيس الشاعر على بني أسد فلما ملك أنوشروان رد ملك العرب إلى المنذر بن امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ثم ملك امرئ القيس بن عمرو بن عدي ثم ملك ابنه النعمان بن امرئ القيس وهذا هو النعمان الأكبر الذي بنى الخورنق والسدير في عهد بهرام جور وكان خاصته فساح في الأرض ذكرو أنه أشرف من الخورنق في زمن الربيع فنظر نحو المشرق حتى رجع نظره حسيرا عن أقاصي بلوغ خيله ونعمه فقال لمن هذا فقالوا لك أبيت اللعن ثم نظر نحو المغرب إلى بياض أنهار جارية وجنان زاكية فقال لمن هذه فقالوا لك أبيت اللعن فقال فهل أوتي أحد مثل هذا فقام رجل من الرابضة والرابضة بقية من أهل العلم لا تخلو الأرض منهم فقال أبيت اللعن إنما أعجبت بفان لا يبقى وزائل لا يدوم قال فكيف المخرج فقال العمل بطاعة الرب والتخلي عن الدنيا قال فإذا فعلت ذاك فمه قال ملك دائم لا يزول ومقام ليس بعده شخوص وحياة لا تموت قال فإذا كان وقت السحر فأقرع على بابي فأتاه الرجل للوقت فإذا هو قد صب على نفسه استياحا فساح معه حتى لحقا بالله ويذكره عدي بن زيد في قصيدة طويلة

وتأمل رب الخورنق إذ أش رف يوما وللهدى تفكير

سره ما رأى وكثرة ما يم لك والبحر معرضا والسدير

فارعوى قلبه فقال وما ... غبطة حي إلى الممات يصير
واخو الحضر إذ بناه واذ دج لة تجبي إليه الخابور
شاده مرمرا وجلله كل سا فللطير في ذراه وكور
لم تهبه ريب المنون فباد ... الملك عنه فبابه مهجور
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان أم أين قبله شابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك ال روم لم يبق منهم مذكور
أيها الشامت المعير بالده ر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأ يام بل أنت جاهل مغرور
أم رأيت المنون أبقين أم من ... ذا عليه من أن يضام خفير
ثم بعد الفلاح والخير والإ مة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق ج ف وألوت بها الصبا والدبور

ثم ملك المنذر بن النعمان وأمه يقال لها ماء السماء لحسنها وجمالها ويقال لمزيقيا أيضا ماء السماء لأنه إذا كان قحط اجتنى فأقام ماله مقام القطر ويقال هذا أبو عامر ولاه أنوشروان بعدما كان أبوه قباذ الملك ولي الحارث بن عمر بن حجر المعصوب وهذه قصة الملك المعصوب في زمن قباذ ذكروا أنه لما ولاه قباذ العرب كلها استعمل ابنه حجر بن الحارث أبا امرئ القيس الشاعر على بني أسد فكان يأخذ من كل واحد منهم في كل عام جزة من الصوف وجراب أقط ونحيا من سمن فلما ضعف أمر قباذ وخلعته المزدكية منعوه إتاوتهم فقتل أربعين من سرواتهم بالعصى فسموا عبيد العصا ثم وثبوا عليه فقتلوه وكان قد طرد ابنه امرئ القيس لقوله الشعر فلما قتل أبوه مر إلى قيصر يستنصره على بني أسد فهويته ابنة قيصر وكان رجلا طوالا جميلا ويقال أنه خالف إليها فصرفه قيصر ووعده أن يتبعه الجيوش فلما كان بأنقرة منزل الشام بعث إليه بثياب مسمومة فلما لبسها تساقط لحمه فأيقن بالهلاك وقال رب قصيدة مثعنجرة وخطبة مسحنفرة تبقى غدا بأنقرة ثم أنشأ يقول

أجارتنا إنا غريبان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب
أجارتنا إنا مقيمان هاهنا ... وأني مقيم ما أقام عسيب

وأنشد قصيدته السينية التي يقول فيها

فلم أنها نفس تموت سوية ... ولكنها نفس تساقط انفسا

ومات وكان امرئ القيس عند خروجه إلى قيصر أودع السموءل ابن عادياء اليهودي شكة مائة رجل فلما مات امرئ القيس جاء الحارث بن جبلة الغساني ملك الشام يطلبها منه فأبى السموءل أن يعطيه شيئا دون أمر وليه وتحصن منه فأخذوا أبنا له فقتلوه وهو ينظر إليه من القصر ولم يغدر بمال امرئ القيس فذكره الأعشى في قصيدته

كن كالسموءل إذ سار الهمام له ... بجحفل كسواد الليل جرار
فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر فما منهما حظ بمختار
فشك غير قليل ثم قال له ... اذبح هديك إني مانع جاري

ثم ملك عمرو بن المنذر وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي ويقال له عمرو بن هند يضرط الحجارة لشدة وطأته وإلحاحه في المضايقة ويقال له أيضا المحرق لأنه أحرق قوما، وهذه قصة عمرو بن هند ذكروا أن ناسا من بني دلم أصابوا ابنا لعمرو خطاء فآلى ليحرقن منهم مائة فأحرق منهم ثمانية وتسعين رجلا ولم يصب منهم غيرهم ثم

أكملهم بامرأة نهشلية ورجل من البراجم ولذلك قيل في المثل إن الشقى وافد البراجم وقد ذكره الدريدي في قصيدته يصف ملوكا فقال فلان ثم فلان ثم ابن هند باشرت نيرانه يوم أوارة تميما بالصلا وعمرو هذا قتل طرفة وأفلت المتلمس فقال

أودى الذي علق الصحيفة منها ... ونجا حذار حياته المتلمس

ثم ملك بعده النعمان بن المنذر بن امرئ القيس أبو قابوس صاحب النابغة وهو الذي قتل عبيد بن الأبرص الشاعر وعدي ابن زيد العبادي فقتله كسرى ابرويز، وهذه قصة النعمان بن المنذر أبي قابوس ذكروا أنه كان له يومان يوم بؤس لا يرى فيه أحدا إلا قتله ويوم نعمى لا يرى فيه أحدا إلا وصله فأتاه عبيد بن الأبرص في بؤسه وهو لا يعلم به وقد امتدحه بقصيدة فلما أخبر بسوء اختياره في لقائه ذلك اليوم أرتج عليه الكلام ثم لما قدم للقتل قيل أنشد قصيدتك قال حال الجريض دون القريض فذهبت مثلا فضربت عنقه وأما عدي بن زيد وكان ترجمان كسرى ابرويز وكاتبه بالعربية وهو الذي سعى في أمر النعمان ووصف لأبرويز منه جلادة وغناء حتى ولاه العرب فكره النعمان أن يكون لأحد عليه منة له أو صنيعة عنده فحبسه وجعل يقول الشعر في حبسه ويعظه ويستعطفه وكان أحد الحكماء من قراء الكتب فلم ينفعه شيء من ذلك وقتله أخريا فاحتال ابنه زيد بن عدي بن زيد حتى توصل إلى ابرويز أخذ مقام أبيه في الترجمة والكتابة وكان ابرويز شغفا بالنساء وقرأت في تأريخ اليمن أنه كانت عنده يوم قتل اثني عشر ألف امرأة وجارية فذكر زيد بن عدي نساء آل المنذر بالجمال والكمال فكتب إليه ابرويز بأن يبعث إليه من جوارى العرب ويقال بل خطب إليه بعض نسائه فلما قرأ النعمان الكتاب قال وما يصنع الملك بعربان البوادي بادية العراقيب أين هو عن مها السواد أن للملك فيهن لمندوحة وأجاب عن الكتاب فحرف زيد بن عدي الكلام عن وجهه العرب يسمون النساء المها والبقر الظباء والنعاج وقال يقول النعمان أن في بقر السواد لمندوحة فغضب ابرويز وبعث في طلب النعمان فهرب النعمان فاستودع شكته وعياله هاني بن مسعود وبعث ابرويز جيشا يحمل تلك الشكة فأبى هاني أن يسلمها إليهم وقاتلهم وهزمهم وهذه الوقعة تسمى يوم ذي قار ثم رجع النعمان إلى ابرويز فلقيه زيد بن عدي فقال له أنت فعلت هذا يا زييدا والله لئن بقيت لأسقينك بكأس أبيك فقال أنج نعيم ولقد وضعت لك آخية لا يقطعها المهر الآرن ثم أمر ابرويز بالنعمان فطرح تحت أرجل الفيلة بعد ما حبس زمانا وفيه يقول الشاعر

بين فيول الهند تخبطته ... مختبطا تدمى نواحيه

وفيه يقول الأعشى

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه ... نحور فيول بعد بيت مسردق

وقد ذكر هذه القصة في موضع آخر ثم خرج الملك عن آل المنذر وولي ابرويز اياس بن قبيصة الطائي وشهرام الفارسي ومات اياس بعين التمر وفيه يقول زيد الخيل

فإن يك رب القوم خلى مكانه ... فكل نعيم لا محالة زائل

ثم ولي المنذر بن النعمان بن المنذر فأجلاهم العلاء بن الحضرمي عن البحرين في عهد رسول الله صلعم واستمر بهم الانتقاض للإسلام إلى أن فتح السواد سعد بن أبي وقاص زمن عمر بن الخطاب رضهما وجفنه هو عمرو بن عامر مزيقياء وولد جفنة آل العنقاء وآل محرق فهم آل غسان بالعراق والشام فأوهم الحارث بن عمرو الغساني ويقال له الحارث الأكبر ثم ملك الحارث بن أبي شمر وهو الحارث الأعرج وأمه مارية ذات القرطين وسار إليه المنذر بن ماء السماء في مائة ألف فوجه إليهم لبيد بن ربيعة الشاعر وهو غلام فأظهر أنه بعثه للصلح فأحاطوا بهم وهم غارون

غافلون فأصابوا منهم وهزموهم وأسروا منهم خلقا كثيرا فأتابوا بهم فسأله النابغة الذبياني أن يطلق عنهم ففعل وأتاه يمدح علقمة بن عبدة في اطلاقه عن الأسارى

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي ... لكلكلها والقصريين وجيب

وفي كل حي قد خبطت بنعمة ... وحق لشاس من نداك ذنوب

فقال الحارث نعم واذنبه ثم ملك الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر وفيهم يقول النابغة الذبياني

هذا غلام حسن وجهه ... مستقبل الخير سريع التمام

للحارث الأكبر والحارث الأعرج والأصغر خير الأنام

وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم أسلم في عهد عمر بن الخطاب رضه ودخل الروم وانقضى ملكهم وأول من دخل الشام سليح وهم من غسان ويقال من قضاعة فدانت بالنصرانية وملك عليها ملك الروم رجلا يقال له النعمان بن عمرو بن مالك ثم ملك بعده ابنه مالك بن النعمان ثم ابنه عمرو بن مالك ولما خرج عمرو بن عامر مزيقياء من اليمن تفرق وله في البلاد فصار إلى جفنة ملوك الشام هذا ما حفظ من تواريخ ملوك هذه الأقاليم ولا بد أن للهند والروم انتساقا وتأريخا وكذلك الصين لكن لم نر العلماء تكلفوا ذلك ولا ذكروه في كتبهم فقد تصعب جميع أيام ملك وبلد واحد وشخص واحد ويفوت الضبط وقوع الاختلاف فيها فيما يحفظ ويحكى فكيف أيام ملوك الأرض ومن يحصيها إلا الله عز وجل ولعمري أن فيما ذكرنا موعظة وعبرة وتأديبا وتنبيها ويزعم قوم من المنجمين أن الملك ثابت في بيت رجل واحد بإقليم الصين مذ كذا وكذا ألف ألف سنة فمن يتحقق ذلك مع ما يرى من سرعة الانتقال في إقليمنا وتشوش أحوال مالكيها والله أعلم وقد ذكر شيء من تواريخ ملوك الروم واليونانيين مجردا من الأخبار والقصص وما أرى فيه كثير فائدة وقد حفظ من أيام دارا الأكبر وهو أول من وظف من ملوك فارس القديمة على الروم وأخذها من فليقوس أبي الاسكندر وكان يلي اليونانيين وملك الاسكندر بعد أبيه الروم وخرج فاستولى على الأرض وقتل دارا الأصغر وغصب بين ملوك المشرق ثم ملك بعده خليقته بطليموس الأديب وبطليموس بلغة يونان الملك ثم ملك بعده بطليموس لغوس محب الأخ وهو الذي غزا بني إسرائيل بأرض فلسطين فسباهم ثم أطلق عنهم وردهم إلى بيت المقدس ثم ملك بعده بطليموس الصانع ثم بطليموس محب الأب ثم بطليموس الظاهر وهو صاحب علم النجوم ثم بطليموس المخلص ثم ثم ثم عشرة أنفس كلهم ملوك وكلهم بطليموس وتسعة رجال وعاشرهم امرأة فهولاء الكفار كانوا ملوك اليونانين ملوك الروم

وأما ملوك الروم قال العرب تسميهم القياصرة والهراقل فأول من تحرك منهم بعد الاسكندر في زمان الأشغانيين قسطنطين المظفر وكان هم بغزو فارس كما فعل الاسكندر فجمع ثلاثون وأربع مائة ألف من مقاتل من جنود ملوك الطوائف وغزوا الروم فاثخنوا فيهم ووظفوا عليهم الفدية فذاك حملهم إلى بناء قسطنطينية وإنما نسب إلى قسطنطين لأنه بناها وكان ملك قبله وبعد الاسكندر عدة ملوك فلم يتعرض الفارس منهم غير اسيانس الذي غزا بني إسرائيل بعد ارميا النبي فقتلهم وسباهم ومنهم افطنجس وكان أنجس منه وأنحس وهو الذي بنى إنطاكية ويقال أن أول من ملك الروم بعد الاسكندر بلافس ثم سليفيس ثم افطنجس ثم ظهر عيسى عم بأرض الشام والملك هرادس ولا أدري من كان يملك الروم يومئذ ثم ملك طباريس بعد ما رفع عيسى عم ونصب الأوثان ودعا الخلق إلى عبادتها وكان ينزل الرومية ثم ملك بعده فيلوذيس فقتل النصارى وقتل شمعون الصفا صخرة الإيمان والنصارى يرونه نبيا ثم ملكك ططوس بن اسفيانس فغزا بني إسرائيل وقتلهم وسباهم وخرب بيت المقدس حتى لم يبق حجرا على حجر ولم يزل خرابا إلى أن قام الإسلام وهو إحدى المرتين اللتين وعد الله خرابه فقال لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا

كبيرا ومن ثم في قول بعض أهل العلم وقعت قريظة والنضير إلى أرض الحجار فتولوا يثرب وتنصرت الروم بأسرها وأراه في زمن ططوس أو بعده ثم تركت النصرانية في زمن قسطنطين وعبدت الأوثان ثم عادت إلى النصرانية بعده وقد اختلفت بهم الأحوال في الدين بعد عيسى عم إلى أن أقام الإسلام غير مرة وكان ملكهم في عهد النبي صلعم هرقل وكان ملكه شهرابراز عامل ابرويز ثم من كان منهم في الإسلام إلى يومنا هذا فمحفوظة أسماءهم وآثارهم في كتب الأخبار والفتوح والله الملك الدائم والسلطان لا يسلب.

الجزء الرابع

الفصل الثاني عشر

في ذكر أديان أهل الأرض ونحلهم

ومذاهبهم وآرائهم من أهل الكتاب وغيرهم

اعلم أ، اختلاف الناس في مذاهبهم واعتقاداتهم كفاء اختلافهم في أخلاقهم وهممهم وإرادتهم وألوانهم وألسنتهم فكما لا تجد اثنين على صورة واحدة وصيغة واحدة وهمة واحدة إلا في الشاذ النادر فكذلك في وجود اثنين على رأي واحد وخاطر واحد وإن كان الدين الواحد يجمع عالما من الخلق فإن الآراء يتوزعهم والهمم تتشعب بهم اللهم إلا الطوائف المقلدة فإن إجماعهم على ما يزعمون دعوى لا حقيقة له عند التفتيش فليذكر الآن ما بلغنا من ديانات أهل الأرض على سبيل الإيجاز والاختصار ونقول وبالله التوفيق أن لا يخلو الإنسان العاقل من اعتقاد حق أو باطل أو الوقوف موقف الشك ولا يجوز أن لا يوجد لمميز إحدى الحالات التي ذكرنا إلا أن يكون ناقص العقل عن الاعتقاد والشك فلا يجوز أن يعد من جملة المخاطبين ولا يجوز بقاء الشك لأن الشك من الجهل بالشيء وتكافؤ العلل فيه بتحقيق شيء أو إبطاله كما لا يجوز قيام الأدلة على وجود شيء وعدمه في حالة واحدة ووقت واحد وبورود العلم بالشيء وزوال الجهل عنه فيحصل المشكوك فيه إما معلوما أو مجهولا وقد بطلت منزلة الشك والسلام فالناس إذا لا يخلون من اعتقاد ديانة ما أو تعطيل في الجملة

ذكر المعطلة ولهم أسماء أخرى يقال لهم الملاحدة والدهرية والزنادقة والمهملة وهم أقل الناس عددا وأفيلهم رأيا وأشرهم حالا وأوضعهم منزلة يقولون بقدم أعيان العالم والأجسام وتولد النبات والحيوان من الطبائع باختلاف الأزمنة ورجوعها إلى أصولها ولا صانع لها ولا خالق ولا مدبر ولا محي ولا مميت ولا معاقب ولا مثيب ولا حافظ ولا حسيب فلا يرون السعي إلا فيما يعود بصلاح أجسامهم وقوة نفوسهم في اعطائها مناها من الملاذ والشهوات والملاهي من غير مراقبة أحد ولا إئثار تجمل ولا الكف عن تعاطي محظور تاقت النفس إليه ولا مشكور صانع فيما صنع إليه ولم يفتعل على غيره أو يكف مساءته أو يغيث ملهوفا أو ينصر مظلوما أو يراعى حقا أو يؤدي فرضا أو ينجز وعدا أو يفي بعهد أو يرحم ذا ضعف أو يستعمل الإنسانية أو يتكلف التجمل في شيء سرا وعلانية من لا يرى لنفسه صانعا ولأفعاله مراقبا ولا له على إحسانه وإساءته مثيبا ولا معاقبا ولا بعد الموت والبلى نشورا وحياة وما الذي يمنع من هذا نحلته وعقيدته من ركوب الفواحش وإتيان المآثم وانتهاك المحارم والإشراف في المظالم والتهور في الفساد والخوض في الباطل وقلة المبالاة بموجب العقل والإعراض عن اللوازم والاستحقاق بملتزمي الشرائع ومن لا يعد على حرمه ولم يغتظ ممن يترخص في مثل عمله ولم يحقد على من يمسه من نفسه أو ماله أو أهله وهو اسوته في

نحلته وعقيدته وما معنى استعمال العقل وتجرع مرارة النفس من غير باطل ولا عائد وهل يجوز توهم بقاء الخلق وقوام العيش مع هذه العقيدة وكفاك بها سبة وفضيحة ومتى كان لهذه الفرقة في الأرض مجمع ومشهد وهل شاع لهم دين أو مذهب وأهل الأرض مع اختلافهم في الأديان والملل مجمعون على تنقص هذا الرأي والازراء به والغض منه ومحق رايته وإتلاف مستحيله وقد مضى في الحجج عليهم في الفصل الثاني من الكتاب ما يوقع اليقين ويدحض الشك ويكشف عن عواره ولله الحمد والمنة على ذلك فإن احتمى أحدهم عند ذكر هذه القضائح واستنكف من التصاقها به فالتجأ إلى العقل كاف عن تحسين الحسن وتقبيح القبيح قيل أنت تملك أو هو يملكك فإن زعم أن عقله مالكه فقد أقر بأمر ناه وضيوق في المعارضة والسؤال فإنه لا بد أن يشير إليه بالربوبية أو تنقض قوله وإن زعم أنه مالك عقله قيل فاصرفه استحسان القبيح واستقباح الحسن وإذا كنت مالكا له فإن زعم هذا غير جائز لأنه لم يصلح للضد كالآلة المهيأة لإصلاح شيء لا تصلح لفساده قيل أهو جعل نفسه كذلك أم جعل فإن زعم أنه جعل نفسه كذلك فقد وصفه بالقدرة والعلم والإرادة والاختيار وعاد إلى تصحيح قوله أن العقل هو الباري وإن زعم أنه جعل كذلك فقد أقر بصانع له بطل قوله إن أنكر العقل خرج من جملة أهل الخطاب والتمييز ووجب تقويمه فيما يقوم به البهائم الصامتة وإن أنكر النظر دخل في مذهب السوفسطائية وكيف ما دار اتجهت عليه حجة الله الدامغة واضطرته إلى الإقرار به بقول الله عز وجل فلله الحجة البالغة ويقول أيحسب الإنسان أم يترك سدى وقال تعالى أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون قال تعالى من يعمل سوء يجز به وقال جزاء وفاقا وأصل التعطيل إنكار الخالق والرسول والثواب والعقاب اعتقادا لا إقرارا منهم اختاروا في دفع عادية الناس عنهم فاثبتوا الثواب والعقاب التناسخ في السعادة والشقاوة اللتين عندهم الجنة والنار في هذا العالم إذ لا دار عندهم غيرها ولا هي فانية ولا منقضية ويدلك على موضع تمويههم في هذا الناموس أنهم إذا لم يكن لهم خالق قديم ولا صانع مدبر حكيم فمن الذي ينسخ نفوسهم وأرواحهم ويسعد المحسن ويشقي المسيء منهم وقط ما انتشروا في أمة من الأمم ولا قروا في وقت من الأوقات انتشارهم في هذه الأمة لاعطائهم الإقرار بالديانة ظاهرا وحقن الشريعة دم من أجاب إليها وهم هولاء الباطنية الباطلية الذين تخلفوا عن الأديان وأمرجوا نفوسهم في ميادين الشهوات فمطوا عند الظلمة بترخيصهم لهم في ارتكاب ما يهوون وتهوينهم عليهم عواقب ما يحذرون حتى ترى المظالم قد فشت والقلوب قد قست والمنكرات ظهرت والفواحش كثرت وارتفعت الأمانة غلبت الخيانة وعطلت المروءة واستخف بالربانيين واهتضم المستضعفون وأميت العدل وأحيي الجور فظهر ما لم يذكر في عهد ملك من الملوك في قديم الدهر وحديثه ولا في زمن نبي من الأنبياء عم ولولا فضل الله عز

وجل على هذه الفرقة المسترذلة المحقورة ببقايا من العوام متمسكين بأديانهم لاصطلمهم وأشكالهم وأشباههم واجتاحهم أولياءهم وأصحابهم الذين وقفوا على غور كلامهم وأحاطوا بحقيقة مذهبهم ولا بد أنه تارك بهم ما يقدرونه في غيرهم لوعد الله تبارك وتعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وأنا أصف بعض مذاهبهم وواكل بعده ذا العقل والمروءة ومن هو راجع إلى نفس وحسب إلى اختياره كما قال الله تبارك وتعالى وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر اعلموا رحمكم الله أنهم قوم يبيحون ما حظرته الأديان ويتأولون ما جاءت به الشرائع من الأحكام إلى الرخص والتجوز فيما يتمنون ويشتهون ويستحلون المحارم كلها من الزنا واللواطة والغصب والسرقة والقتل والجرح والكذب والغيبة والنميمة والبهتان والوقيعة وشهادة الزور وقول الإفك ورمي المحصن والسعاية والغمر والسخرية والطنز والاستهزاء والبطر والكبر والخيلاء والظلم والعقوق والميل والغدر والخلاف ونقض العهد وإخلاف الوعد وأشباه ذلك من الرذائل المحظورة في العقل والمحارم المزجور عنها في

الشرع لا يعرفون معرفة الحق ولا محافظة على ذمام ولا تنظفا من نجاسة ولا حياء من خساسة الملوك عندهم أرباب العتاة شياطين الضعفى والمبتلون أهل النار وأصحابهم عندهم الجن وسائر الناس البهائم لا يرحمون مسترحما ولا يغيثون مستغيثا ولا ينهون عن الاطلاع على حرم الناس ولا يأنفون من اطلاع الناس على حرمهم ولا يمتنعون من مواقعة من أمكنهم من الذكور والإناث ولا يتحاشون من مواقعة من واقعهم أو واقع حرمهم ولا يعيبون القيادة الديائة والاكتفاء والمبادلة ولا يرون النهي عن كل ما اشتاقت إليه النفس جمعوا رخص النحل كلها وزادوا عليها الديائة والكشخ فأخذوا من المجوس بقولهم في نكاح البنات والأمهات ومن الخرمية في التراضي بالأمهات والأزواج ومن الهند بإباحة الزنا والسفاح ومن الخناقين بقتل من خالفهم فلا حياهم الله من قوم ولا حيا مذهبهم من مذهب وقد ينكرون ما ذكرنا إذا بدهوا به جهارا ولكن إذا اجترتهم في الكلام إلى الأول الذي هو العقل والثاني الذي هو النفس والأساسين والأصلين اللذين هما الأركان صح لك كله وإن كانوا له منكرين في الظاهر ولم يمتنعوا عنه وليس لهم خالق مثيب معاقب لو تسكت عنهم وبلوتهم ليظهر لك الامتحان جميع ذلك إما قولا أو فعلا وإما إجازة ولأن كل ذي دين عندهم معذور والله أعلم،ل على هذه الفرقة المسترذلة المحقورة ببقايا من العوام متمسكين بأديانهم لاصطلمهم وأشكالهم وأشباههم واجتاحهم أولياءهم وأصحابهم الذين وقفوا على غور كلامهم وأحاطوا بحقيقة مذهبهم ولا بد أنه تارك بهم ما يقدرونه في غيرهم لوعد الله تبارك وتعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وأنا أصف بعض مذاهبهم وواكل بعده ذا العقل والمروءة ومن هو راجع إلى نفس وحسب إلى اختياره كما قال الله تبارك وتعالى وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر اعلموا رحمكم الله أنهم قوم يبيحون ما حظرته الأديان ويتأولون ما جاءت به الشرائع من الأحكام إلى الرخص والتجوز فيما يتمنون ويشتهون ويستحلون المحارم كلها من الزنا واللواطة والغصب والسرقة والقتل والجرح والكذب والغيبة والنميمة والبهتان والوقيعة وشهادة الزور وقول الإفك ورمي المحصن والسعاية والغمر والسخرية والطنز والاستهزاء والبطر والكبر والخيلاء والظلم والعقوق والميل والغدر والخلاف ونقض العهد وإخلاف الوعد وأشباه ذلك من الرذائل المحظورة في العقل والمحارم المزجور عنها في الشرع لا يعرفون معرفة الحق ولا محافظة على ذمام ولا تنظفا من نجاسة ولا حياء من خساسة الملوك عندهم أرباب العتاة شياطين الضعفى والمبتلون أهل النار وأصحابهم عندهم الجن وسائر الناس البهائم لا يرحمون مسترحما ولا يغيثون مستغيثا ولا ينهون عن الاطلاع على حرم الناس ولا يأنفون من اطلاع الناس على حرمهم ولا يمتنعون من مواقعة من أمكنهم من الذكور والإناث ولا يتحاشون من مواقعة من واقعهم أو واقع حرمهم ولا يعيبون القيادة الديائة والاكتفاء والمبادلة ولا يرون النهي عن كل ما اشتاقت إليه النفس جمعوا رخص النحل كلها وزادوا عليها الديائة والكشخ فأخذوا من المجوس بقولهم في نكاح البنات والأمهات ومن الخرمية في التراضي بالأمهات والأزواج ومن الهند بإباحة الزنا والسفاح ومن الخناقين بقتل من خالفهم فلا حياهم الله من قوم ولا حيا مذهبهم من مذهب وقد ينكرون ما ذكرنا إذا بدهوا به جهارا ولكن إذا اجترتهم في الكلام إلى الأول الذي هو العقل والثاني الذي هو النفس والأساسين والأصلين اللذين هما الأركان صح لك كله وإن كانوا له منكرين في الظاهر ولم يمتنعوا عنه وليس لهم خالق مثيب معاقب لو تسكت عنهم وبلوتهم ليظهر لك الامتحان جميع ذلك إما قولا أو فعلا وإما إجازة ولأن كل ذي دين عندهم معذور والله أعلم

ذكر أديان البراهمة أعلم أن لكل قوم دينا وأدبا وشريعة ففي الدين بقاءهم وصلاحهم وفي الأدب زيهم وشرفهم وفي الشريعة رسومهم ومعاملاتهم وقد ذكر قوم أن في الهند تسع مائة ملة مختلفة وأن الذي عرف منها تسعة وتسعون ضربا يجمع ذلك اثنان وأربعون مذهبا مدارها على أربعة أوجه ثم يرجع إلى اسمين البراهمة والسمنية

فالسمنية هي التي معطلة البراهمة ثلاث أصناف صنف منهم يقولون بالتوحيد والثواب والعقاب ويبطلون الرسالة وصنف يقولون بالثواب والعقاب على التناسخ ويبطلون التوحيد والرسالة هذا جملة دينهم فأما آدابهم وأخلاقهم ففيهم الحساب والنجوم والطب واللهو المعازف والرقص والخفة والشجاعة والشعبذة وعمل النيرنجات وعلم الحروب ويدعون صفاء الفكر ونفاذ الوهم والأخذ بالعيون وإظهار التخييلات والرقا والإتيان بالمطر والبرد وحبسه وتحويله من مكان إلى مكان ويدعون حفظ الصحة ومنع الشيب والزيادة في القوة والذهن ورجوع الموتى إليهم وأما شرائعهم فمختلفة لاتساع بلادهم وتفاوت أقطارهم واختلاف الدين يوجب اختلاف الشرائع فالذي بلغنا أن إيمانهم في حديدة يحمونها حتى إذا بلغت غايتها في الحمى والحمرة أمروا المنكر أن يلحسها قالوا فإن كان كاذبا مبطلا احترق لسانه وإن كان صادقا محقا لم يضره ومنهم فرقة يغلون الزيت في برمة من حديد ويقذفون فيها حديدة ويأمرون المنكر أن يدخل يده فيستخرج الحديدة قالوا وإن كان كاذبا احترقت يده وإن كان صادقا لم يضره وعقوبة السارق والقاطع وسابي ذراريهم إذا ظفروا بهم أن يحرقوا بالنار ومنهم من يصلبهم وصلبهم أن يحد رأس الخشبة ثم يسلكه في مقعد المصلوب والمسلمون عندهم نجس لا يمسونها ولا يمسون ما يمسونه ولحم البقر عندهم حرام وحرمة البقر عندهم كحرمة أمهاتهم وجزاء من ذبح بقرة القتل ولا يعفى عنه والزنا حلال عندهم للعزاب لئلا ينتقض النسل ويتعاقب المحصن منهم إذا زنا ومن ارتد منهم إذا سباه المسلمون لم يقتلوه حتى يزكوه ويطهروه ان تحلق كل شعرة عليه من رأسه وجلده ثم يجمع أبوال البقر وأخثاءها وسمنها ولبنها فيسقى منها أياما ثم يذهب به إلى البقرة فيسجد لها ولا ينكحون من الأقارب بتة وعقوبة اللواطة عندهم القتل وشرب الخمر عند البراهمة حرام وكذلك ذبيحة أهل ملتهم ولكل قوم منهم ملة وشريعة يتعاملون عليها ويتعايشون بها

ذكر مللهم وأهوائهم زعمت الموحدة من البراهمة أن الله عز وجل بعث إليهم ملكا من الملائكة بالرسالة بصورة بشر اسمه ناشد له أربع أيد في إحدى يديه سيف والأخرى شكة الدرع والثالثة سلاح يقال له شكرته على هيأة حلقة وفي الرابعة وهق وهو راكب على العنقاء وله اثنا عشر رأسا رأس إنسان ورأس فرس ورأس أسد ورأس ثور ورأس نسر ورأس فيل ورأس خنزير حتى عدوها قالوا أمرنا بتعظيم النار التي عظمها الله عز وجل بالسناء والرفعة وألبسها الضياء والبهاء والنور وجعلها سببا لمنافع الدنيا ونهانا عن القتل وشرب الخمر وأباح لنا الزنا وأمر بعبادة البقر وأن نتخذ صنما على مثاله نعبده وأمرنا أن لا نجوز نهر كنك فإنه لا دين لمن جاوزه من البراهمة وإن الدين حسب لمن قبله ولذريته من بعده ولا يجوز لمن لم يكن منهم الدخول في دينه واسم هذه الفرقة الناشدية ومنهم البهابوذية زعموا أن رسولهم ملك يقال له بهابوذ أتاهم في صورة بشر وهو راكب على ثور وعلى رأسه إكليل من عظام الموتى متقلد بقلادة من أقحاف الرؤوس وفي إحدى يديه قحف وفي الأخرى مزراق ذو ثلاث شعب مستظل بظلال من ذنب الطاووس فأمرهم بعبادة الله عز وجل وأن يتخذوا على مثاله صنما يعبدونه فيكون وسيلتهم إليه وأن لا يعافوا شيئا من الأشياء فإن الأشياء كلها من صنع الله عز وجل ومنهم الكابالية يزعمون أن رسولهم ملك يقال له شيب أتاهم في صورة بشر على رأسه قلنسوة من لبد مخبط عليها صفائح من أقحاف رءوس الناس فأمرهم أن يتخذوا صنما على مثال ذكر الإنسان ويعظموه ويعبدوه فإن الذكر سبب النسل في العالم ومنهم الدامانية والداونية هولاء الذين يقرون مع التوحيد بالرسالة فأما الذين يثبتون الخالق وينفون الرسل فأصناف منهم الرشتية وهم أصحاب الفكر الذين يعطون حواسهم بطول فكرهم ويزعمون أنهم إذا أخذوا أنفسهم بشدة التبرؤ والتجلي تجلت لهم الملائكة ويلطفونهم واستفادوا منهم هولاء لا يأكلون الألبان واللحمان وما مسته النار غير النبات والثمار مغمضة عيونهم عامة دهرهم ملحة أفكارهم يزعمون أنهم يدركون بها ما يريدون من مطر ورياح وقتل ونزول طير

وإجابة دعوة ومنهم المصفدة قوم يصفدون أوساطهم إلى ظهورهم بالحديد قالوا لئلا ينشق بطونهم من غلبة الفكرة وكثرة العلم ومنها المهاكلية ولهم صنم يقال له مهاكال على ظهره جلد فيل يقطر منه الدم وأذناه مثقوبتان وعلى رأسه إكليل من عظام القحف يحجون إليه ويقصدونه لطلب حوائجهم ويزعمون أنه يقضيها لهم ومنهم التهكنية قوم لهم صنم على صورة امرأة يقال أن لها ألف يد في كل يد ضرب من السلاح ولهم عنده عيد إذا دخلت الشمس الميزان فيقربون قرابين من الجواميس والإبل والغنم ويقربون عبيدهم وإماءهم ويقاتلون الناس قربانا له حتى أن الضعفى يتوارون في تلك الأيام مخافة أن يكون الصنم يأمر ويأذن بقتلهم ومنهم الجهلكية يعبدون الماء ويزعمون أن معه ملكا وأنه أصل كل نشوء ونماء وحياة وعمارة وطهارة ومنهم الاكنهوطرية يعبدون النار وهي لها أعظم العناصر ولا يحرقون موتاهم لئلا ينجس النار ومنهم قوم يعبدون الشمس وقوم يعبدون القهد وقوم يعبدون ملوكهم ولكل واحد منهم مذهب ورأي ودعوى ولا فائدة في ذكرها من التعجب والاعتبار فيما حكينا من فضائحهم وجهلهم وسخافة رأيهم وكفرهم كفاية

ذكر تحريق أبدانهم وإلقائها في النار يزعمون أن في ذلك نجاة لها وخلاصا إلى حيوة الأبد في الجنة ومنهم من يحفر له أخدود ويجمع فيه الألوان والأدهان والطيب ويوقد عليه ثم يجيء وحوله المعازف بالصنوج والطبول ويقولن طوبى لهذه النفس التي تعلو إلى الجنة مع الدخان وهو يقول في نفسه ليكن هذا القربان مقبولا ثم يسجد نحو المشرق والمغرب والشمال والجنوب ويرمي بنفسه في النار فيحترق ويصير إلى جهنم ومنهم من يجمع له أخثاء البقر فيقف في وسطه إلى أنصاف ساقيه وتشعل فيه النار ولم يزل واقفا حتى تأتي النار إليه ويحترق فيها ومنهم من يوضع على رأسه إكليل من المقل ويوقد حتى يسيل دماغه وحدقتاه ومنهم من يحمى له الصخور فلا يزال يضع على جوفه صخرة بعد صخرة حتى تخرج أمعاؤه ومنهم من أخذ مدية ويقطع من فخذه وساقه خصلة خصلة ويلقيها في النار وعلماؤهم وقوفا حوله يمدحونه ويزكونه حتى يموت ومنهم من يحفر له حفرة بجنب نهر ويوقد فيها ولا يزال يثب في النار من الماء ومن النار إلى الماء إلى أن تزهق نفسه فإن مات فيما بينهما جزع أهله وحزنوا وقالوا حرم عليه الجنة وإن مات في الماء أو في النار شهدوا له بالجنة ومنهم قوم يرهقون أنفسهم بالجوع فيمسكون عن الطعام حتى تبطل حواس أحدهم فيصير مثل الحشفة والشن البالي ثم يجمد ومنهم من يهيم في الأرض حتى يموت ولهم جبل شامخ في أصله صنم قد أشار بإحدى يديه إلى ربه فقر بين يديه ووضع يده الأخرى على نحره وإلى جانبه رجل قاعد على كرسي حوله أصحابه يقرؤون في كتاب طوبى لمن سلك هذا السبيل الذي أشار إليه هذا الصنم فإنه يؤدي إلى الجنة وقد ضمن الصنم ذلك فيركبون ردعهم حتى يموتوا ولهم جبل آخر تحته شجرة من حديد لها أغصان كالسفافيد وعندهم رجل بيده كتاب يقرأ فيه طوبى لمن ارتقى هذا الجبل وحاذى هذه الشجرة ثم بعج بطنه وأخرج أمعاءه فأمسكها بأسنانه ثم خر على هذه الشجرة ليبقى خالدا مخلدا وفي الجنة تختطفه الحور العين قبل وصوله إلى الشجرة فيتسارع إليه قوم فيخرقون أمعاءهم ويكبون على الشجرة ومنهم قوم يجيئون إلى نهر كنك في يوم عيد لهم ويجيء السدنة فيقطعونهم بنصفين ويطرحونهم في النهر ويزعمون أنه يخرج إلى الجنة ومنهم من يرمي نفسه بالحجارة ومنهم من يقعد عريانا حتى يأتي طير فيقطع لحمه ويأكله وكل من لا يؤمن بالرسالة والآخرة فإنه يؤمن بالثواب والعقاب في الانتقال والتناسخ واعتل عبدة الأصنام بأن البارئ جل جلاله في النهاية القصوى في كل ما يدرك ويعلم ويحس ويوصف ولا بد لكل متقرب إلى من يعظمه ويعبده إذا كان غائبا عن حواسه من واسطة ووسيلة فجعلنا هذه المتوسطات من الأجرام العلوية والسفلية إلى عبادته وقربة لديه وهكذا قالت العرب ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فسبحان من غرض كل عابد عبادته والوصول إليه وإن كان قد ضل وأخطأ الطريق وقرأت في كتاب المسالك

أن السمنية فرقتان فرقة يزعم أن البد كان نبيا مرسلا وفرقة يزعم أن البد هو البارئ تراءيا للناس في تلك الصورة ونعوذ بالله

ذكر أهل الصين يزعمون أن أهل الصين عامتهم الثنوية والسمنية وله فرخارات فيها أصنام يعبدونها هذا دينهم ولهم آداب وأخلاق وحذق بلطيف التركيبات وعجيب الصنائع ولا يوجد في غيرهم ومن حسن أدبهم أن لا يقعد الصبي بين يدي الأب ولا يأكل معه ولا يمشي بين يديه ويسجد له وكذلك يسجد صغارهم لكبارهم تعظيما لهم وأما شرائعهم فإنهم يسجدون للشمس والقمر والكواكب والماء والنار وكل ما استحسنوا من شيء خروا له سجدا وكل مولود يولد كتبوا الوقت مولده ونظروا إلى طالعه وحكموا له بما دل عليه فليس في مملكة الصين ذكرا إلا وعددهم محصور في ديوان الملك لأنه يأخذ منهم الجزية ولا يموت منهم ميت إلا وأخر فيه إلى العام والشهر الذي ولد فيه ويطرح عليه دواء لئلا يفسد ومن سرق على زيادة ثلثمائة فلس وقيمتها عشرة دراهم قتل ومن استحق من السلطان أدبا أو قتلا أو عقوبة لم يفعل به شيء حتى يعطي كتابا بخطه ويقرأه بلسانه بحضرة المشايخ والصلحاء وأني قد أذنبت كيت وكيت واستحققت الضرب أو العقوبة أو القتل ثم أمضي عليه وما استحقه ويزعمون أن الشاهد واليمين باطل لأن الرجل إذا أعطي شيئا شهد بالزور ومذهبهم في هذا إذا كان لرجل على رجل دين أعطي كل واحد منهم صاحبه كتابا فيه علامته فيكتب في صاحب الدين إن لي على فلان كذا ويكتب المطلوب لفلان علي إلا كذا فإذا تداعيا وأنكر أحدهما طولبا بالخطين فيصح الحق ومن ولد بأرض وانتقل عنها ومات في غيرها نقل إلى أرض مولده ودفن فيها ومن استكح من الغرباء بامرأة منهم وولد جارية ثم أرادوا الخروج منهم دفعوا الولد إليه وحبسوا الوالدة وقالوا لك ما زرعت ولنا الأصل ويبيحون الزنا للسفلة والضعفى ومن زنا من أهل اليسار والشرف قتلوه وعامة عقوبتهم في الذنوب القتل وأكثر زروعهم الاغذاء قالوا وإذا قلت الأمطار وغلت الأسعار جمع الملك السمنية وسدنة الأصنام ويهددهم بالقتل إن لم يأتوا بالمطر فلا يزالون محبوسين معتقلين حتى يأتي المطر قالوا وللملك كوسات في قصره فإذا غربت الشمس قرعوها قرعة واحدة فلا يبقى في المدينة أحد إلا سمعها ففزعوا إلى بيوتهم ومنازلهم فاغلقوا عليهم أبوابها وتحككت بالسكك والأزقة الجيوش والعسس إلى أن يسفر الصبح فمن وجدوه خارج داره ضربوا عنقه وكتبوا على ظهره بدمه هذا جزاء من تعدى أمر الملك، ذكر ما حكي من شرائع الترك وهم في شمال الصين ومغاربها يزعمون أن في بعضهم كتابا لهم وفي بعضهم كتاب التبتية لأنهم يجاورونهم وفي بعض كتاب السغدية قالوا وفي التغزغز نصارى وسمنية وليس من عادتهم قتل الأسارى ولا التجهيز على الجرحى ومن ظفروا به في الحرب فإن كان جريحا داووه وحملوه إلى منزله وأهله قالوا وخرخيز يحرقون موتاهم ويقولون أن النار تطهر جثته ودنيته ويعبدون الأوثان ومنهم من يعبد الشمس ومنهم من يعبد السماء ومنهم من يدفن على الميت عبيده وخدمه أحياء في التل حتى يموتوا ويعقرون الدواب عليه والتل بلغتهم القبر قالوا وفيهم قوم يزعمون أنهم يأتون بالثلج والريح والبرد وأكثر حكمهم على كتف الشاة والله أعلم

ذكر شرائع الحرانيين ذكر أحمد بن الطيب أنهم يقولون أن البارئ علة العالم لا يلحقه وصف شئ من المعلومات كلف أهل التمييز الإقرار بربوبيته وبعث الرسل تثبيتا لحجته ووعد من اطاع نعيما لايزول وأوعد من عصا العذاب بقدر استحقاقه قال وقصدوا في أمرهم أن يبحثوا عن الحكمة وأن يدفعوا ما ناقض الفطرة وأن يلزموا الفضائل ويجتنبوا الرذائل وصلواتهم ثلاث أولاها عند طلوع الشمس والثانية عند زوالها والثالثة عند غروبها ونصبوا قبلة بأن يجعلوا القطب الشمالي في نقرة القفا قالوا ويصلون كل يوم للكوكب الذي هو ربه فيصلون للزحل يوم السبت

وللشمس يوم الأحد وللقمر يوم الاثنين وللمريخ يوم الثلاثاء ولعطارد يوم الاربعاء وللمشتري يوم الخميس وللزهرة يوم الجمعة قالوا ولا صلاة عندهم إلا على الظهور ولهم صيام وأعياد وقربان يتقربون فيها فيأكلون اللحم ويحرقون العظام وشحم الكلى ويغتسلون من الجنابة ومس الميت والطامثة ويعتزلون الطوامث ولايأكلون ما يذبح وينهون عن لحم الخنزير والسمك والباقلي والثوم ويعظمون أمر الجمل حتى يقولون من مشى تحت خطام ناقة لم يقض حاجته في ذلك اليوم ويتجنبون كل من به مرض مثل الجذام والبرص ولا يتزوجون بغير ولي وشهود ولا يتزوجون بالقريب ولا يجيزون الطلاق بغير حجة بينة عن فاحشة ظاهرة ولا يراجع المطلقة أبدا ولا يطأون إلا طلبا للولد والذكر والأنثى في الفرض عندهم سواء والثواب والعقاب يلحقان الأنفس وليس يؤخر ذلك عندهم إلى وقت معلوم بل يقولون أنها تصير إلى ما يجب عليها ولها من الجزاء عند ترك الأنفس استعمال البدن قال ويقولون أن النبي هو البرئ من المذمومات في النفس ومن الآفات في الجسم الكامل في كل محمود المستجاب الدعوة في إنزال الغيث ودفع الآفات وأن مذهبه مذهبا يصلح به العالم وتكثر به العمارة ولن تحصوا اسماء الرسل الذين دعوا إلى الله عز وجل كثرة قال وقولهم في العلوم قول ارسطاطاليس في كتبه وكتب امامهم لايخالفوا بها مذهب الفلاسفة اليونانيين في القديم.

ذكر أديان الثنوية وهم أصناف فمنهم المنانية والديصانية والماهانية والسمنية والمرقونية والكبانئون والصابئون وكثير من البراهمة والمجوس وكل من قال باثنين أو أكثر أو بشئ قديم مع البارئ فإن هذا الاسم يتناوله ويلحقه وكذلك القائلون بالجثة والجوهر والفضاء يزعم بعضهم أن الأصل هو النور والظلمة ثم يختلفون فيقول قائل إنهما جميعا حيان مميزان ويقول آخر بل النور حي عالم والظلمة جاهلة معمية وهذا رأي الصابئين ويقول مرقيون ثلاثة أشياء قديمة نور وظلمة وثالث معدل بينهما يخلق من هذا ومن هذا ليس من جنسهما ولولاه لم يك من طبعهما إلا التنافر ويقول المنانية النور خالق الخير والظلمة خالق الشر وأصحاب الطبائع قالوا بأربع طبائع وكثير من الفلاسفة بخامس معها خلافها ومنهم من يقول بقدم البارئ والطينة والعدم والصورة والزمان والمكان والعرض والمعطلة منهم قالوا بعدم العالم في أجسامه وأعراضه وشك قوم فلم يدر كيف يقولون وكل هذه المذاهب مخالفة لمذهب أهل التوحيد يكفيك ما مر من النقض عليهم في الفصل الثاني والله الموفق والمعين، ذكر عبدة الأوثان جاء في روايات أهل الإسلام أن أول ما عبدت الأوثان في زمن نوح النبي عم كما حكى الله تعالى عنهم وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا روينا عن محمد بن كعب القرظي أنه قال هولاء رجال صالحون من أولاد آدم عم وكان اذا مات أحدهم جزع عليه اخوته وعظم به وجدهم فجاءهم الشيطان وقال ألا أصور لكم صور اخوتكم فتتسلون بالنظر إليها وتستأنسون بها ففعل إلى أن مضت قرون فجاء وقال لأعقابهم إن آباءكم كانوا يعبدونها من دون الله فنصبوها آلهة ثم لما أغرق الله الأرض زمن نوح استخرجهم فنصبتها قريش يعبدونها كذا الرواية والله أعلم ثم تتابع الناس على عبادة الأوثان فمنهم من يجعلها وسيلة وذريعة إلى الله عز وجل ومنهم من استحسن ذلك لمشاكلة أفضل الصور ومنهم من يعبدها تقليدا حتى عبد قوم النار وقوم الشمس وقوم الماء وقوم الشجر وقوم النسر وقوم الفهد وقوم البشر وقوم الملائكة وقوم النجوم وقوم الحجر وفي الجملة كلهم يعبدون مع الله غيره إلا المسلمين وصنفا من اليهود

ذكر مذاهب المجوس وشرائعهم اعلم أنهم أصناف فمنهم اللغرية والبهافريذية والخرمية ولا قوم أكثر هوسا وتخليطا منهم فمنهم من يقول بالاثنين كالمنانية وبالثلاثة كالمرقونية ومنهم من يعبد النار والشمس والقمر والنجوم ويزعم أن الإله القديم لم يزل وأنه خلق اهرمي وهو بمنزلة ابليس عندهم فعاداه وناصبه ويزعم آخرون أن البارئ يفكر فكرة

ردية فحدث منها هذا الشرير الخبيث المضاد له بغير إرادته ومنهم الزردشتية يقرون بنبوة زردشت وثلاثة أنبياء يكون بعده ويقرؤون كتابه الابسطا ويعظمون النار قربة إلى الله عز وجل لأنها أعظم الاسطقسات ثم يزعم بعضهم أن النار من نور الله عز وجل ويزعم آخرون أنها بعض من الله عز وجل ويحرمون الميتة وكل ما خرج من باطن الإنسان من أي منفذ كان ولذلك يزمزمون عند طعامهم ويصلون ثلاث صلوات يدورون فيها مع الشمس كيف دارت احداها عند طلوع الشمس والثانية نصف النهار كل واحد لطولها وعرضها ويعظمون من يعلمها ويزعمون أنهم كلما أرادوا طربا ازداد ابليس حربا وحزنا ويحرمون الأكل والشرب في أواني الخشب والخزف لأنهما يقبلان النجاسات وإذا غسلوا أيديهم على إثر الطعام لم يدخلوا الماء أفواههم لأنه من الاستخفاف به ويغسلون الشفاه ويستحلون نكاح الأخوات والبنات ويحتجون على من خالفهم بفعل آدم عم ذلك ويأكلون من الحيوان ما يأكله المسلمون وما كان من خلق ابليس فلا يأكلونه ويعظمون النيروز والمهرجان وأيام الفروردجان ويزعمون أن أرواح موتاهم ترجع إلى منازلهم وينظفون البيوت ويبسطون الفرش ويصنعون الأطعمة تلك الأيام ويقولون إنما يصيب الموتى منها روائحها بقواها ونورها وإذا احتضر أحدهم قربوا منه كلبا ويزعمون أن الشيطان يحضره عند مفارقة الروح فيلتبس بجسده كظل الشجرة إذا وقع على الحائط فإذا التفتت إليه الكلب فزع منه ففارقه ولا يجوز عندهم أن يقربوا الميت من الماء والنار ومن مسه وجب عليه الغسل لأنه نجس بانتقال روحه والطهارة واجبة عليهم في اليوم والليلة مرة واحدة وهي غسل اليدين وغسل الوجه بما يستخرج من الأشجار أو من البقر ثم يغسلون بعده بالماء الطاهر ولا غسل عليهم للجنابة والأختان والزكوة واجبة عليهم من جميع أموالهم أن يخرجوا الثلث منها للفقراء والمضطرين من أهل ملتهم ومن غيرهم وفي إصلاح القناطر وكنس الأنهار وعمارة الأرض وينكحون من النساء ما شاؤوا وكيف شاؤوا ولا يقع الطلاق إلا بأحد ثلاثة أشياء الزنا والسحر وترك الدين والسكر والزنا والسرقة عليهم حرام وعقوبة الزاني أن يضرب ثلاث مائة خشبه أو يؤخذ منه ثلاثمائة إستار فضة ومن سرق وشهد عليه ثلاثة عدول وأقر خرم أنفه وأذنه ويسمون ذلك درويش ويغرم مثل قيمة ما سرق فإن عاد وسرق ثانياً اكتفى عليه بشاهدين عدلين وقامت العلامة مقام شاهد وخرم في أنفه وأذنه في موضع آخر وغرم مثل قيمة ما سرق فإن عاد وسرق ثالثا اكتفى منه بشاهد وخرم في أنفه وأذنه من موضع آخر وغرم قيمة ما سرق فإن عاد وسرق رابعا لم يستشهد عليه بعد ذلك وغرم كل ما ادعى عليه الخصم ومن قطع الطريق أخذ منه قيمة ما أخذ أربع مرات وقتل ومن خرج عن الولاة فعقوبته أول مرة قطع اليدين من المعصم وفي الثانية قطعها من الذراع وفي الثالثة من الكتف وفي الرابعة ضرب العنق فإن كان في خروجه على السلطان لم يجن شيئا بيده ولكنه قال قولا مواجهة فقئت عيناه فإن كان سعى سعيا قطعت رجلاه وأحكامهم في المواريث عجيبة فلو أن رجلا مات وخلف امرأة وابنين وابنة فإن المرأة إن شاءت أخذت مهرها ويجب على ورثة زوجها إمساكها والانفاق عليها ما عاشت وإن لم يكن لها منه ولد فإن المال والمرءتان موقوفان إلى أن تتزوج المرأة فإذا تزوجت المرأة رفعت النفقة عنها وإن مات رجل وخلف أبا وأخا دفع المال إلى الأب على أن يتزوج امرأة ويولد لها ولد باسم المتوفى ليكون المال له وكذلك الأخ لا يرث شيئا إلا على هذه الشريعة وكذلك إن كان للمتوفى أختان دفع المال إلى الكبرى على أن تتزوج رجلا وتلد غلاما تسميه باسم هذا المتوفى ويدفع المال إليه فإن كانت الكبيرة متزوجة دفع المال إلى الصغيرة على هذه الشريطة وإن كانتا متزوجتين دفع المال إلى من يضمن إيلاد ولد باسم هذا المتوفى ويدفع المال إليها ويكون المال له وجملة هذا الباب أنه إذا كان للمتوفى ولد كان المال كله له وإن لم يكن له

ولد فلمن يقبل هذا الشرط،لد فلمن يقبل هذا الشرط، ذكر مذاهب الخرمية هم فرق وأصناف غير أنهم يجمعون القول بالرجعة ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحد وأن الوحي لا ينقطع أبدا وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب ولا يرون تهجينه والتخطي إليه بالمكروه ما لم يرم كيد ملتهم وخسف مذهبهم ويتجنبون الدماء جدا إلا عند عقد راية الخلاف ويعظمون أمر أبي مسلم ويلعنون أبا جعفر على قتله ويكثرون الصلاة على مهدي بن فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام ورسل يدورون بينهم ويسمونهم فريشتكان ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمور والأشربة وأصل دينهم القول بالنور والظلمة ومن شاهدنا منهم في ديارهم ماسبذان ومهرجان قذق فإنا وجدناهم في غاية التحري للنظافة والطهارة والتقرب إلى الناس باللاطفة بتقديم الصنيعة ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع ما لم يعد على أحد بالضرر ذكر شرائع أهل الجاهلية كان فيهم من كل ملة ودين وكانت الزندقة والتعطيل في قريش والمزدكية والمجوسية في تميم واليهودية والنصرانية في غسان والشرك وعبادة الأوثان في سائرهم واتخذ بنو حنيفة إلها من حيس وعبدوه دهرا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال بعضهم

أكلت حنيفة ربها ... زمن التقحم والمجاعة

لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والتباعة

وقال آخر

أكلت ربها حنيفة من جو ع قديم بها ومن إعواز

وكان في مشركيهم بقية من دين اسمعيل عم كالنكاح والختان والمناسك وتعظيم الأشهر الحرم وغير ذلك وأحدثوا أمر الحمس من قريش فكان لا يخرجون من الحرم ولا يقفون مع الناس بعرفات ويقولون نحن آل الله ولا نخرج من حرمه وكان الرجل من الغرباء إذا قدم مكة لا يطوف في الثوب الذي قارف فيه الذنب فإن أصاب من ثياب الحمس طاف فيه وإن لم يصب طاف الرجل بالنهار عريانا والمرأة بالليل عريانة وكانت الحمس لا يسلئون السمن ولا يأقطون الإقط ولا يأكلون اللحم أيام الموسم وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها ويقولون لا ينبغي أن يحول بيننا وبين السماء شيء وكانوا يحرمون من النساء ما حرمه الله عز وجل في القرآن إلا امرأة الأب فانزل الله سبحانه ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف وكانوا يبحرون البحيرة ويسيبون السائبة ويصلون الوصيلة ويحمون الحامي ويستقسمون بالازلام ويقربون القربان وغير ذلك مما هو مذكور في أخبارهم وأشعارهم فأبطل الله عز وجل بأحكام الإسلام أكثرها وكانوا يقولون أن روح الميت تخرج من قبره وتصير هامة فتقول اسقوني اسقوني ومن ثم قال ذو الأصبع

يا عمرو إن لم تدع سبي ومنقصتي ... أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

ومنهم من كان يؤمن بالبعث والنشور بعد الموت ويزعم أن من عقرت مطيته عند قبره حشر عليها وفيه يقول حريثة

واحمل أباك على بعير صالح ... ويقي البقية أنه هو الأقرب

ذكر شرائع اليهود وهم أصناف فمنهم العانانية والاشمعيثية والجالوتية والفيومية والسامرية والعكبرية والاصبهانية والعراقية والمغاربة والشرستانية والفلسطينية والمالكية والربانية فأما عانان فإنه يقول بالتوحيد والعدل ونفي التشبيه واشمعث يقول بخلافة وجمهور اليهود على هاذين الرجلين وأما سائر المخالفين فإنه يقع الخلاف بينهم في الشيء بعد

الشيء وزاد رأس جالوت في التشبيه على اشمعث حتى يزعم أن معبوده شيخ اشمط واحتج أنه وجد في سفر دانيال رأيت قديم الآباء قاعدا على كرسي أبيض الرأس وحوله الاملاك فهم يسمون الجالوتية وأما الفيومية فصاحبهم أبو سعيد الفيومي يفسرون التورية على الحروف المقطعة كما يفعله الباطنية في الإسلام وأما السامرية فإنهم ينكرون كثيرا من شرائعهم ولا يقرون بنبوة من كان بعد يوشع بن نون مثل داود وسليمان وزكريا ويحي وغيرهم ويزعمون أنهم ليس لهم في التورية اسم وأما العكبرية فأصحاب أبي موسى البغدادي العكبري يخالفوهم في أشياء من السبت وتفسير التورية وأما الاصبهانية فأصحاب أبي عيسى الاصبهاني وادعى النبوة وأنه عرج إلى السماء فمسح الرب رأسه وأنه رأى محمدا في السماء فآمن به ويهود أصبهان يزعمون أن الدجال منهم يكون ومن ناحيتهم يخرج وأما العراقية مخالفون الخراسانية في أوقات أعيادهم ومدد أيامهم وأما المغاربة فإنهم يرون السفر في السبت وطبخ القدور فيه وأما الشرستانية فإنهم أصحاب شرستان زعم أنه ذهب من التورية ثمانون بسوقة ومعنى بسوقة آية ويدعى أن للتورية تأويلا باطنا مخالفا لظاهرها وأما يهود فلسطين فإنهم يزعمون أن عزيرا ابن الله على جهة التكرمة والرحمة كما يقال إبراهيم خليل الله وكثير من اليهود ينكرون هذا القول والواجب أن تعلم مذاهبهم ليتبين وجه الحق فلا ينسب إلى كل فرقة إلا من ينحلونه وأما المالكية فإنهم يقولون أن الله عز وجل لا يحي يوم القيامة من الموتى إلا من قد احتج عليه الرسل والكتب ومالك هذا تلميذ عانان وأما الربانية فإنهم يزعمون أن حائضا لو مست ثوبا من الثياب المنضودة وجب الغسل على جميع الأثواب والعراقية يأخذرن رؤوس الشهور بالأهلة والآخرون يأخذون بالعدد والحساب

ذكر أحكامهم واجب عليهم الإيمان بالله وحده وبموسى رسوله وبالتورية وما فيها والعشر والآيات لا بد لهم من درسها وتعلمها وأما وضوءهم واغتسالهم فمثل طهارة المسلمين سواء غير أنه ليس فيه مسح الرأس ويبدؤون بالرجل اليسرى واختلفوا في شيء منه قال عانان يستنجي قبل الوضوء لأن الإنسان لا يطهر ما لم يمط الأذى عنه وقال اشمعث يستنجي بعد الوضوء لأنه لا يجوز أن يغسل وجهه بعد الاستنجاء ولا يتوضؤون بماء قد تغير لونه أو طعمه أو ريحه ولا يجيزون الطهارة من غدير ما لم يكن عشرة أذرع في عشر والنوم قاعدا لا ينقض الوضوء ما لم يضع جنبه ومن أحدث في صلاته من قيء أو رعاف أو ريح انصرف وتوضأ وبنى على صلاته ولا يجوز للرجل الصلاة في أقل من ثلاثة أثواب قميص وسراويل وملاءة يتردى بها فإن لم يجد الملاءة صلى جالسا وإن لم يجد القميص والسراويل صلى بقلبه ولا يجوز للمرأة الصلاة بأقل من أربعة ثياب والصلاة فرض عليهم في اليوم والليلة ثلاث صلوات إحداهن عند الصبح والثانية بعد الزوال إلى غروب الشمس والثالثة إلى وقت العتمة إلى أن يمضي من الليل ثلثه يسجدون في دبر كل صلاة سجدة طويلة ويزيدون يوم السبت وأيام الأعياد خمس صلوات سوى ما كانوا يصلونها فلهم خمس أعياد عيد الفطر وهو يوم الخامس عشر من نيسان وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير وينظفون بيوتهم من خبز الخمير لأنها الأيام التي خلص الله فيها بني إسرائيل من يد فرعون وأغرقه في اليم فخرجوا من البحر وجعلوا يأكلون اللحم والعجين الفطير وعيد الأسابيع بعد عيد الفطر سبعة أسابيع وهو الذي كلم الله فيه بني إسرائيل من طور سيناء وعيد رأس الشهر وهو أول يوم من تشرين يزعمون أنه يوم فدي فيه اسحق عم من الذبح ويسمونه عيد راش هشنا أي عيد رأس الشهر وعيد صوما ربا معناه الصوم العظيم ويزعمون أن الله عز وجل يغفر لهم في ذلك اليوم جميع ذنوبهم وخطاياهم إلا ثلاثا الزنا لمحصنة وظلم الرجل أخاه وجحده ربوبية الله وعيد مظلى يستظلون سبعة أيام بقضبان الآس والخلاف ويزعم بعضهم أن بني إسرائيل انتهوا في هذه الأيام إلى مفازة فاستظلوا بالشجر وكان واجبا عليهم الحج في كل سنة ثلاث مرات حين كان الهيكل عامرا والمذبح قائما وأما الصوم فيجب

عليهم الصوم أربعة أيام يوم السابع عشر من تموز وحده من غروب الشمس إلى غروب الشمس ويزعمون أن هذا اليوم الذي كسر فيه بخت نصر سور اورشليم يعني بيت المقدس ودخلها والثاني يوم العاشر من آب والثالث يوم العاشر من كانون الأول والرابع يوم الثالث عشر من آذار وأمرهم في الحيض والحائض شديد يجب عليهم أن يعتزلوها وثيابها وأوانيها وما مسته الحائض من شيء فقد نجس ووجب أن يغسل وإن مست لحم القربان وجب أن يحرق ذلك اللحم بالنار ومن مس الحائض أو خبزت أو طحنت أو غسلت فكله نجس حرام على الطاهرين وحل للحيض ومن غسل ميتا وجب عليه أن يغتسل سبعة أيام ولا يصلي فيها ويغسلون الموتى ولا يصلون عليهم وأما الزكوة فالواجب عليهم أن يخرج العشر من أموالهم كائنا ما كان من السوائم والناض ولا يجب العشر في شيء من أموالهم دون مائة عدديا كان أو وزنيا لأن ما لا يخرج منه عشر العشر لا يجب فيه العشر وكل ما أخرج منه مرة واحدة فليس فيه إعادة العشر وأما نكاحهم فلا يصح إلا بولي وخطبة وثلاث شهود ومهر مائتي درهم للبكر ومائة للثيب فإن كان أقل من ذلك لم يجز ويحضر عند عقد النكاح كاس من الخمر ودستجة من ريحان فيأخذ الإمام الكاس فيبرك عليها ويخطب خطبة النكاح ثم يدفعه إلى الختن ويقول قد تزوجت فلانة بهذه الفضة أو بهذا الذهب وهو خاتم في يده وبهذا الكاس من الخمر وبمهر كذا درهم ويشرب منها جرعة ثم ينزلون إلى منزل الجارية ويأمرونها أن تأخذ الخاتم والريحان والكاس من يد الختن فإذا أخذت وشربت منها جرعة يعقد النكاح ويضمن أولياء المرأة البكارة فإذا زفت وكل أبو المرأة رجلا وامرأة بباب البيت الذي يقتضها فيه الزوج وفرشوا لها ثيابا بيضاء فإذا الزوج نظر إلى الثياب وشهد بما رايا اقتضها فإن لم يجدها بكرا رجمت ولا يجوز لهم التمتع بالإماء إلا أن يعتقوهن وينكحوهن ومن واقع امرأته فقد عتقت عليه وأي عبد عمل لمولاه سنين معلومة فقد عتق ومن احتاج من اليهود جاز له بيع أولاده وإذا كانوا صغارا غير مدركين كذا هم في شريعة بني إسرائيل وأما طلاقهم

وخلعهم فإنهم لا يجوز لهم ذلك إلا أن يقفوا منهم على زنا أو سحر أو رفض دين ومن أراد أن يطلق امرأته فإن كانت بكرا أتى بخمسة وعشرين درهما وإن كانت ثيبا أتى باثني عشر درهما ونصف وأحضر الإمام والشهود وكتاب الطلاق وقال لها أنت طالق مني مائة مرة ومختلعة مني وفي سعة أن تتزوجي من شئت ولا يقع الطلاق على الحامل بتة وللرجل أن يراجع امرأته ما لم تتزوج انقضت عدتها ام لم تنقض فإذا تزوجت حرمت على الزوج الأول أبدا وحكمهم في البيوع أنه ما لم يقل المشتري ما اشتراه إلى حيث شاء وسلمه البائع إليه فإنهما بالخيار والحدود عندهم على خمسة أوجه الحرق والقتل والرجم والتعزير والتغريم أما الحرق فعلى من زنا بأم امرأته أو بربيبته أو بامرأة ابنه والقتل على من قتل والرجم على المحصن إذا زنا أو لاوط وعلى المرأة إذا مكنت البهيمة من نفسها والتعزير على من قذف والتغريم على من سرق والبينة على المدعي واليمين على من أنكر وهذه سبعة وثلاثون عملا من أتى بواحد منها في السبت أو في ليلة السبت استحق القتل تكريب الأرض زرع الأرض حصد الزرع سياقة الماء إلى الزرع ضرب المحضنة حلبة اللبن كسر الحطب إيقاد النار عجن العجين خبز الخبز خياطة الثوب نسخ السلك كتابة حرفين أخذ الصيد ذبح الحيوان الخروج من القرية التحويل من موضع إلى موضع الشرى والبيع الدق والطحن والاحتطاب وقطع الجبن دق اللحم إصلاح النعل إذا انقطعت خلط علف الدابة ولا يجوز للكاتب أن يخرج يوم السبت من منزله ومعه قلمه ولا الخياط معه إبرته ومن أتى بشيء استحق به القتل فلم يسلم نفسه فهو ملعون فإنهم لا يجوز لهم ذلك إلا أن يقفوا منهم على زنا أو سحر أو رفض دين ومن أراد أن يطلق امرأته فإن كانت بكرا أتى بخمسة وعشرين درهما وإن كانت ثيبا أتى باثني عشر درهما ونصف وأحضر الإمام والشهود وكتاب الطلاق وقال لها أنت طالق مني مائة مرة ومختلعة مني وفي سعة أن تتزوجي من شئت ولا يقع الطلاق على

الحامل بتة وللرجل أن يراجع امرأته ما لم تتزوج انقضت عدتها ام لم تنقض فإذا تزوجت حرمت على الزوج الأول أبدا وحكمهم في البيوع أنه ما لم ينقل المشتري ما اشتراه إلى حيث شاء وسلمه البائع إليه فإنهما بالخيار والحدود عندهم على خمسة أوجه الحرق والقتل والرجم والتعزير والتغريم أما الحرق فعلى من زنا بأم امرأته أو بربيبته أو بامرأة ابنه والقتل على من قتل والرجم على المحصن إذا زنا أو لاوط وعلى المرأة إذا مكنت البهيمة من نفسها والتعزير على من قذف والتغريم على من سرق والبينة على المدعي واليمين على من أنكر وهذه سبعة وثلاثون عملا من أتى بواحد منها في السبت أو في ليلة السبت استحق القتل تكريب الأرض زرع الأرض حصد الزرع سياقة الماء إلى الزرع ضرب المحضنة حلبة اللبن كسر الحطب إيقاد النار عجن العجين خبز الخبز خياطة الثوب نسخ السلك كتابة حرفين أخذ الصيد ذبح الحيوان الخروج من القرية التحويل من موضع إلى موضع الشرى والبيع الدق والطحن والاحتطاب وقطع الجبن دق اللحم إصلاح النعل إذا انقطعت خلط علف الدابة ولا يجوز للكاتب أن يخرج يوم السبت من منزله ومعه قلمه ولا الخياط معه إبرته ومن أتى بشيء استحق به القتل فلم يسلم نفسه فهو ملعون

ذكر شرائع أهل النصارى وفيهم اختلاف وفرق فمنهم الملكانية والنسطورية واليعقوبية والبرذعانية والمرقونية والفولية وهم الرهاويون الذين بنواحي حران وأصناف حادثة غيرها ولا يخالفون في أشياء كثيرة ومنهم من يذهب مذهب الحرانية بعينه ومنهم من يقول بالنور والظلمة والثنوية يقولون أجمعهم بنبوة المسيح ومنهم من يعتقد مذهب ارسطاطاليس ويجر كتابهم إلى تصويب ذلك فأما الملكانية واليعقوبية والنسطورية فمتفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم وهذه هي الأقانيم الثلاثة شيء واحد وهو جوهر قديم معناه أب وابن وروح القدس إله واحد وأن الابن نزل من السماء فتدرع جسدا من مريم وظهر للناس يحي ويبرئ وينبئ ثم قتل وصلب وجرح فخرج من القبر لثلاث وظهر لقوم من أصحابه وعرفوه حق معرفته ثم صعد إلى السماء فجلس عن يمين الله هذا الذي يجمعهم اعتقاده غير أنهم يختلفون في العبارة والعلل فمنهم من زعم أن القديم جوهر واحد وثلاثة أقانيم وكل واحد منها جوهر خاص وأحد هذه الأقانيم أب واحد غير مولود والآخر ابن مولود وغير والد والثالث روح فائضة منبثية بين الأب والابن وزعم أن الابن لم يزل مولودا ابن الابن الابن والأب لم يزل والدا لا على جهة النكاح والتناسل لكن على جهة تولد ضياء الشمس وتولد حر النار من ذات النار ومنهم من يزعم أن معنى قولهم أن الإله ثلاثة أقانيم أنها ذات لها حياة ونطق في الحياة هي روح القدس والنطق هو العلم والحكمة والكلمة والنطق والعلم والحكمة والكلمة عبارة عن الابن كما يقال الشمس ضياءها وحرها فهو عبارة عن ثلاثة أشياء ترجع إلى أصل واحد ومنهم من زعم أنه لا يصح له تثبيت الإله فاعلا حكيما إلا أن يثبته حيا ناطقا ومعنى الناطق العالم المميز لا الذي يخرج الصوت بالحروف المركبة ومعنى الحي عندهم من له حياة بها يكون حيا ومعنى العالم من له علم به يكون عالما قالوا فذاته وعلمه وحياته ثلاث أشياء والأصل واحد فالذات هي لعلة للاثنين اللذين العلم والحياة والاثنان هما المعلولان للعلة ومنهم من يتجنب اللفظ بالعلة والمعلول في صفة القديم فيقول أب وابن وولد وروح وحياة وعلم وحكمة ونطق قالوا والابن اتحد إنسانا مخلوقا فصار هو من اتحد به مسيحا واحدا وأن المسيح هو إله العباد وربهم ثم اختلفوا في صفة الاتحاد فزعم بعضهم أنه وقع بين جوهر لاهوتي وجوهر ناسوتي اتحاد فصار مسيحا واحدا ولم يخرج الاتحاد كل واحد منهما عن جوهريته وعنصره وأن المسيح إله معبود وأنه ابن مريم الذي حملته وولدته وأنه قتل وصلب وزعم قوم أن المسيح بعد الاتحاد جوهران أحدهما لاهوتي والآخر ناسوتي وأن القتل والصلب وقعا به من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته وأن مريم حملت بالمسيح وولدته من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته وهذا قول النسطورية ثم يقولون أن

المسيح بكامله إله معبود وأنه ابن الله مع اختلاف كثير ويزعم بعضهم أن الاتحاد بين جوهرين لاهوتي وناسوتي وجوهر اللاهوتي بسيط غير منقسم لا يتجزأ ومنهم من يقول أن الاتحاد على جهة حلول الابن بالجسد ومخالطته إياه ومنهم من يقول أن الاتحاد على جهة الظهور كظهور كتابة الخاتم النقش إذا وقع على الطين والشمع وكظهور صورة الإنسان في المرآة وأعلم أنه لا مذهب أكثر اختلافا في العبارة من النصارى حتى لا يكاد يوجد منهم اثنان على قول واحد ويذكره اللاحقي في قصيدة له

وبابن الأب مادنت ... وروح من قدسي

ثلاث من أقانيم ... بمعنى واحداتي

ولاهوتية حلت بإنسان ولادي

وليس هذا موضع الرد عليهم ولكن من نظر إلى قولهم في القديم وما يصفونه به من الأعراض الطارية عليه علم فساد مذهبهم واستحالة القديم أن يكون بشيء من تلك الصفات فالملكانية ينسب إلى ملك الروم ويقولون الله اسم لثلاثة معان الأب والابن والجوهر وهو روح القدس والنسطورية ينسب إلى نسطور رجل منهم يزعمون أن الله اسم لثلاثة معان فهو واحد ثلاثة وثلاثة واحد واليعقوبية قالوا هو واحد وأنه كان لا جسم ولا إنسان ثم تجسم وتأنس والفولية قالوا الله واحد وعلمه قديم معه والمسيح ابنه على جهة الرحمة كما يقال إبراهيم خليل الله والمرقونية يزعمون أن المسيح يطوف عليهم كل يوم طوفة والبرذعانية يزعمون أن المسيح هو الذي يحشر الموتى من قبورهم ويحاسبهم مع ترهات كثيرة وأقاويل مردودة لعنهم الله وقبح مذهبهم ذكر أحكامهم لابد من تنصير أولادهم وذلك أنهم يعمدون إلى من يريدون تنصيره فيغمسونه بماء قد أغلي بالرياحين وألوان الطيب في إجانة جديدة ويقرؤون عليه شيئا من كتابهم ويزعمون أنه ينزل عليه روح القدس ويسمون هذا العمل المعمودية وطهارتهم غسل اليدين والوجه وليس الختان عليهم بفرض وصلاتهم سبع وقبلتهم المشرق وحجتهم إلى البيت المقدس وزكاتهم العشر من جميع أموالهم وصيامهم خمسون يوما ويكون اليوم الثاني والأربعون منه عيد السعانين ويزعمون أن هو اليوم الذي نزل فيه عيسى بن مريم عم من الجبل ودخل بيت المقدس وبعده بأربعة أيام عيد الفصح وهو اليوم الذي خرج فيه عيسى عم ببني إسرائيل من مصر وبعده بثلاثة أيام عيد القيامة وهو اليوم الذي يزعمون أن عيسى عم خرج من قبره بعدما قتل ودفن وبعده بثمانية أيام عيد الجديد ويزعمون أنه اليوم الذي ظهر عيسى عم لتلامذته بعد ما خرج من القبر وبعده بثمانية وثلاثين يوما عيد السلاق ويزعمون أنه اليوم الذي صعد فيه عيسى إلى السماء ولهم أعياد سوى ما ذكرنا عيد الصليب وهو اليوم الذي وجدوا فيه خشبة الصليب وإنما علموا ذلك أنه وضع ميت فحيي بزعمهم وعيد الدنح وعيد الميلاد ولهم قراؤون وكهنة ومنهم شماس وفوقه القس وفوق القس الأسقف والمطران وفوق المطران البطريق والسكر حرام عليهم ولا يحل لهم اللحم والجماع في الصوم وكل ما بيع في الأسواق ولم يعفه أنفسهم فمباح لهم ولا يصح نكاحهم إلا بحضور شماس والعدول والمهر ويحرمون على النساء ما حرم المسلمون ولا يحل لهم الجمع بين امرأتين ولا التسري بالجواري إلا أن يعتقوهن ويتزوجوهن وأي عبد من عبيدهم خدمهم سبع سنين فقد عتق ولا يحل للرجل طلاق إلا أن يأتي بالفاحشة فقد طلقت ولا يحل له أن يتزوج بها أبدا وحدودهم الرجم للمحصن والمحصنة فإن كانا غير محصنين وعلقت المرأة من الرجل وزوجت به ويقتل قاتل العمد والواجب على قاتل الخطأ أن يهرب وليس للموتور أن يطلبه لما أمروا به من استعمال العفو وكثير من أحكامهم أحكام التورية وقد لعن منهم اللواطي والشاهد بالزور والمقامر والزاني والسكير هذا أحكامهم والله أعلم،

الفصل الثالث عشر

في صفة الأرض ومبلغ عمرانها

وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق

اعلموا أن القدماء قسموا المعمور من الأرض على سبعة أقسام يسمونها الأقاليم فالاقليم الأول يبتدئ من المشرق من أقاصي بلاد الصين ويمر إلى ما يلي الجنوب من الصين وعلى سواحل البحر من جنوب بلاد السند يقطع البحر إلى جزيرة العرب وأرض اليمن ويقطع بحر القلزم إلى بلاد الحبشة ويقطع نيل مصر وينتهي إلى بحر المغرب وفيه المدن من مدينة ملك الصين وبلاد جنوب السند وجزيرة الكرك وجنوب الهند من اليمن عمان و حضرموت وعدن وصنعاء وسبأ وجرش وظفار ومهرة ومن الغرب تبالة ومدينة ملك الحبشة جرمى ومدينة النوبة دمقلى وجنوب البربرية إلى البحر الأخضر ويكون أطول نهار هولاء ثلاث عشرة ساعات والاقليم الثاني يبتدئ من المشرق فيمر على بلاد الصين وبلاد الهند وبلاد السند ويمر بملتقى البحر الأخضر وبحر البصرة ويقطع جزيرة العرب في أرض نجد وتهامة والبحرين ثم يقطع بحر القلزم ونيل مصر إلى أرض المغرب وفيه من المدن مدن من بلاد الصين الهند ومن السند المنصورة والبيرون والديبل ومن أرض العرب مكة والطائف و جدة الجار ويثرب واليمامة وهجر ومن النيل قوس واخميم وانصنا واسوان ومن المغرب مدن افريقية وبربر إلى بحر المغرب ويكون أطول نهار هولاء عشرة ساعات ونصف والاقليم الثالث يبتدئ من المشرق فيمر على شمال بلاد الصين ثم الهند ثم السند ثم كابل و كرمان وسجستان والبصرة وفارس والأهواز والعراقين والشام و مصر والاسكندرية والمغرب إلى البحر وفيه من المدن بعض بلاد الصين والهند والسند قندهار وغزنة وكابل والرخج وبست وزرنج وكرمان وجيرفت ومن فارس اصطخر وجور وفسا وسابور وشيراز وسيراف وجنابة وسينيز ومه رويان وكور الأهواز كلها ومن العراق البصرة وواسط والكوفة وبغداد والأنبار وهيت ومن الشام حمص ودمشق وصور وعكة وطبرية وقيسارية ورسوف والرملة وبيت المقدس وعسقلان وغزة ومدين والقلزم ومن أرض مصر الفرما وتنيس ودمياط والفسطاط والاسكندرية والفيوم ومن المغرب برقة وافريقية والقيروان وأطول نهار هولاء أربع عشرة ساعة والاقليم الرابع يبتدئ من المشرق فيمر ببلاد تبت وخراسان وجرجان وطبرستان والري واصبهان وهمدان وحلوان وشهرزور وسر من رأى أرض الجزيرة وشمال الشام إلى بحر المغرب وفيه من مدن خراسان فرغانة وخجند واشروسنة وسمرقند وبخارا وبلخ وآمل ومرو الروذ وهراة وسرخس وطوس ونيسابور وقومس ودماوند وقزوين والديلم وقم ونهاوند والدينور والجزيرة والموصل وبلد نصيبين وآمد ورأس العين وقاليقلا وسميساط والرقة وقرقيسيا ومن شمال الشام بالس والمصيصة واصيدان والكنيسة السوداء وآدنة وعمورية ولاذيقية ثم يمر من بحر الشام على جزيرة قبرس ثم يمر في المغرب على بلاد طنجة إلى البحر وأطول نهار هولاء أربعة عشر ساعة ونصف والإقليم الخامس يبتدى من المشرق على بلاد ياجوج وماجوج ثم على شمال خراسان وازربيجيان والخزر والروم إلى المغرب وفيه من مدن خراسان الطراز ونويكث وخوارزم واسبجاب والشاش وطاربند وبخارا ومن ازربيجيان كور أرمينية وبرذعة ونشوى وسيسجان وارزن واخلاط ومن الروم خرشنة وقرة والرومية الكبرى ثم سواحل بحر الشأم مما يلي الشمال ثم بلاد اندلس حتى ينتهي إلى بحر المغرب والاقليم السادس يبتدي من المشرق ويمر على بلاد ياجوج وماجوج ثم على بلاد الخزر ثم على وسط بحر جرجان إلى بلاد الروم فيمر على جرزان وهرفلة وقسطنطينية وبلاد برجان إلى بحر المغرب قال أهل هذا العلم أما ما وراء هذه الأقاليم إلى تمام الموضع المسكون الذي عرفناه فإنه يبتدي من المشرق ومن بلاد ياجوج وماجوج فيمر على بلاد التغزغز وأرض الترك وعلى بلاد الان ثم على بلاد برجان ثم على شمال الصقالبة إلى أن

ينتهي إلى بحر المغرب فهذا موضع عمران الأرض والبحور مما يعرف وأما ما وراء ذلك فأرضون مجهولة لا يعرف ما وراءها أحد إلا الله عز وجل قالوا أما الذين يسكنون خارج الأقاليم فإنهم أناس لا يفهمون قولا ولا يعلمون شيئا من الصناعات والعلامات وكانت الأرض مقسومة في الدهر الأول على خمسة أجزاء فمنها الصين والترك وتبت والهند وجزء منها الروم والصقالبة وسعد وخوارزم وارمينية وجزء منها القبط والبربر والشام وجزء منها السودان وخراسان وكرمان وفارس واليمن وجزء منها الأرض المعروفة بإيران شهر وهي ما بين منتهى نهر بلخ إلى منتهى أزربيجان وارمينية إلى الفرات

والقادسية إلى بحر اليمن وفارس إلى مكران وكابل إلى طخارستان وهي صفوة الأرض وسرتها وهي تسمى اقليم بابل،والقادسية إلى بحر اليمن وفارس إلى مكران وكابل إلى طخارستان وهي صفوة الأرض وسرتها وهي تسمى اقليم بابل، ذكر المعروف من البحار والأودية والأنهار قال القدماء البحار المعروفة العظام خمسة أحدها بحر الهند وفارس والصين والثاني بحر الروم وافريقية والثالث بحر اوقيانوس وهو بحر المغرب والرابع بحر بنطس والخامس بحر جرجان وفي رسالة ارسطاطاليس إلى الاسكندر التي تسمى بيت الذهب أن بحر اوقيانوس بحر محيط بالأرض كإكليل وينفجر منه خلجان وقد وصفوا طول هذه البحار وعرضها وجزائرها وسواحلها وما يخرج منها من الأرجل والخلجان ويسمون بحر فارس الخليج الفارسي وطوله مائة وخمسين فرسخا وعرضه مائة وخمسون فرسخا ويسمون بحر اليمن خليجا وكذلك سائر البحار وقالوا وفي البحر الهندي ألف وثلثمائة وسبعون جزيرة وربما بلغ طول الجزيرة مائة فرسخ في مائة فرسخ ومائتين وثلثمائة وفيها من المدن والقرى والأنهار والعيون والجبال والمفاوز والممالك قالوا وفي البحر الرومي مائة ونيف وستون جزيرة عامرة وبحر جرجان يقال له عابسكن وبحر باب الأبواب هو أصغر البحار طوله من المشرق إلى المغرب ثلثمائة ميل وكانت فيه جزيرتان عامرتان فخربتا وبحر بنطس يمتد من اللازقة إلى خلف قسطنطينية وطوله ألف وثلثمائة ميل ويخرج منه خليج القسطنطينية فيجري كهيأة النهر ويصب في بحر مصر وعرض الخليج ثلاثة أميال وبحر الروم طوله من المشرق من صور وصيدا إلى الخليج الذي يخرج من بحر المغرب وطوله خمس مائة ميل وعرضه في بعض المواضع ثماني مائة ميل وفي بعضها ست مائة ميل وبحر الهند طوله من المشرق من أقصى الهند إلى أقصى الحبش ثلاثة آلاف ميل وعرضه ألفان وسبع مائة ميل ويخرج منه خليج إلى ناحية البربر يسمى الخليج الفارسي طوله ألف وأربع مائة ميل وعرضه خمس مائة ميل وفيما بين هذين الخليجين خليج فارس وخليج أيلة أرض الحجاز واليمن وأما بحر اوقيانوس فإنه لا يعرف منه إلا ما يلي شمال المغرب من أقصى بلاد الحبش إلى برطلية وهو بحر لا تجري به السفن ويبعد عن العمران وفيه جزائر مقابل الأندلس وطنجة وأما البحيرتان الجاريتان اللتان بهما تتم سبعة أبحر كما ذكر الله عز وجل فإنهم يزعمون خلف خط الاستواء فوق النوبة وهما مادتا النيل وأما البحر الزنجي فإنه لا يكون فيه شيء من الحيوان لحرارة مائه وحرازته وليس يوجد اللؤلؤ والجوهر في عذاب البحور إلا في بحر الصين فإن ماءه عذب ويوجد فيه اللؤلؤ قال الله عز وجل يخرج منها اللؤلؤ والمرجان وأم البحار الصغار فلا تعد لأنها مستنقعات المياه كما لا تعد العيون والأنهار فمنها في الشام بحيرة زغر وبحيرة طبرية وباذربيجان وبحر ارمينية واسفل خوارزم بحيرة سياه كوه وبدماوند بحيرة

ذكر المعروف من الأنهار نهر الكنك بأرض الهند ينبعث من جبال قشمير ويجري في أعالي الهند من ناحية الجنوب حتى ينصب في البحر الهندي ونهر مهران بأرض السند ينبعث من جبال اشغنان وينصب في البحر الهندي وأما الأنهار التي تنصب في بحر فارس فهي دجلة تخرج من جبال فوق ارمينية فأعظمها تقع في دجلة بالحديثة وأصغرهما

تقع في دجلة بالسن ومخرج النهروان من ارمينية فإذا مر بباب صلوى يسمى تامرا ويستمد من الهواطل فإذا صار بباجسرى سمى النهروين وينصب في دجلة أسفل من جبل ومخرج الفرات من أرض الروم من جبال بها موضع يقال له ابريق صخر ويمر بالجزيرة والرقة وينحدر إلى الكوفة ثم يمر حتى ينصب في البطائح فيختلط بدجلة ومخرج الخابور من رأس العين ويستمد من الهرماس وينصب في الفرات أسفل قرقيسيا وتجمع هذه الأنهار كلها في دجلة ويمر دجلة بالأبلة إلى عبادان فينصب في الخليج الفارسي ومخرج نهر الأهواز ونهر جندى سابور من جبال اصبهان ويجتمعان في دجيل الأهواز ثم يفيض في بحر فارس وأما الأنهار التي تفيض في بحر جرجان فنهر كر ينبعث من بلاد الان ونهر تفليس وبرذعة وسيذ روذ يمر ببلاد اذربيجان ويدخل بلاد الديلم ثم يقع في بحر جرجان وكذلك شاه روذ يخرج من طالقان الري فيفيض في بحر جرجان وهذه أنهار صغار وأما النيل فإنه يخرج من جبل القمر وينصب في بحيرتين من خلف خط الاستواء ويطيف بأرض النوبة ويتشعب دون الفسطاط فيصير شعبة إلى الاسكندرية وشعبة إلى دمياط فيفيضان في بحر الشام وتلتقي شعبة منه في الماء الذي يحيط بجزيرة تنيس من البحر فإذا هبت جنوب عذب ماؤهم وإذا هبت الشمال ملح ومخرج نهر المصيصة وسيحان وجيحان كلها من بلاد الروم ومصبها في نهر الشام ومخرج نهر دمشق في جبال دمشق يسقي غوطة دمشق وينصب في بحيرة دمشق مخرج نهر حلب من حدود دابق دون حلب بثمانية عشر ميلا ويفيض في أجمة أسفل حلب ومخرج جيحون من جبال بلاد تبت فيمر بوخان ويسمى وخان ثم ينحدر إلى الترمذ ويسمى نهر بلخ ثم يمر فيجاور خوارزم وتبسط دونه فيصير بطائح ومستنقعات يصطاد منها السمك ثم يمر مستسفلا مقدار ثلاثين فرسخا حتى ينصب في بحيرة سياكوه وفي ساحلها الشرقي رياض ومروج ذات أشجار وشوك لا يكاد يمكن اخراقها إلا في طرق اتخذتها الخنازير ويفيض في هذه البحيرة نهر فرغانة ونهر الشاش ومخرج نهر فرغانة من بامير فوق راشت وكميذ ومخرج نهر الشاش من بلاد الترك وأربعة أنهار تنبعث من جبال باميان أحدها يدخل بلاد الهند من ناحية لامغان والثاني يسقي مرو الروذ والثالث يسقي بلخ والرابع يسقي سجستان وما فضل منه يجمع في بحيرة تسمى زرة وهي التي سمينا هي الأنهار العظام المذكورة في الكتب وأما الصغار والعيون فلا يحيط بها إلا علم الله سبحانه وتعالى وأهل الكتاب يزعمون أن أربعة أنهار تخرج من الجنة سيحان وجيحان والفرات والنيل وزعموا أن الفرات مد فرمى برمانة شبه البعير البازل وذلك في زمن معاوية فسئل كعب الأحبار فقال هي من الجنة وفي كتب العجم أن جم شاذ حفر سبعة أنهار سيحون وجيحون والفرات ودجلة ونهر مهران بأرض السند ونهرين لم يسمهما لنا وهذا غير جائز ولا ممكن اللهم إلا أن يقال هو ساق ماء هذه الأنهار إلى أراضي البلاد فاستعمرها واستنزلها وحفر الأنهار منها

ذكر الممالك المعروفة قال أهل هذا العلم أن الصين على ساحل بحر الهند طوله ألف وخمس مائة فرسخ فيها ثلاث مائة وستون مدينة يحمل كل يوم إلى الملك خراج مدينة وثياب بدنه وجارية يرضاها قالوا وعدد جند الملك أربع مائة ألف مرتزق من فارس وراجل واسم المدينة التي يسكنها الملك خمدان والغالب عليهم استدارة الوجوه وفطس الأنوف وشقرة الألوان وصهبة الشعور وعامة لباسهم الحرير والديباج والفرو ومن هيئتهم في اللباس توسيع الأكمام وتطويل الذيول ويباهون بتزويق المنازل وكثرة الفرش والأواني وأكثر أراضيهم الاعذاء يسقيهم المطر والأنداء ودينهم السمنية والوثنية وعبادة الأوثان قالوا وفي شمال الصين بلاد ياجوج وماجوج وفي مغاربهم الترك وفي مشارقهم قوم يكنون في الأسراب لشدة وقع الشمس عليهم ولا يعلم ما في جنوبهم أحد إلا الله وفي كتاب المسالك والممالك أن في مشارق الصين مدينة لا يدخلها أحد فيخرج منها لطيب هوائها وفرط شعاعها وزكاء أرضها وعذوبة مائها وحسن عشرة أهلها فرشهم الحرير والديباج وأوانيهم الذهب وكيت وكيت والله أعلم وأما

الهند فصرود وجروم وأولها قشمير وهي خمسة وأربعون مصرا ممصرة كل مصر تشتمل على حدود ومدن وكل مدينة لها سواد وقرى ومنها جبال وشعاب ومفاوز وكل ذلك للملك خاصة والناس حراثوه وأكرته قالوا وللملك للخمارين ستون ألف جارية حانية وموظف عليهم أن يكنسوا الميدان ويرشوه إذا أراد الملك الضرب بالصوالجة ودينهم البرهمية وزيهم تطويل الشعر الغالب عليهم البياض لبرد هوائهم وفيهم علم النجوم والطب والشعبذة والسحر قالوا وشرق قشمير ختن وتبت والصين وجنوبها مملكة كور وشمالها بلورلوب ووخان وغربها كابل وغزنة ولهم الأنهار والعيون والقنى والأبار وعندهم من أصناف الدواب والطير والألوان من الأطعمة والثمار وأما جروم الهند فجزائر وسواحل حتى تتصل بأرض الصين فمن مدنها الكبار قنوج وقندهار وسرنديب وسندان وألف وثلاثمائة وسبعون جزيرة عامرة فيها المدن والقرى غير السواحل قالوا وأول شرقي بحر الهند مكران وآخره بلاد الصين وأول غريبة عدن وآخره بلاد الزنج وهم قوم خلاف الزنج والهند يمطرون في الصيف ولا يمطرون في الشتاء وعامة طعامهم الأرز والذرة ومشاربهم من مستنقعات يجمع فيها ماء المطر يسمونها تلاج وليس عندهم من الفواكه ما لأهل قشمير والغالب عليهم السمرة والصفرة ودينهم البرهمية والسمنية وملكهم الأعظم يقال له بلهرا تفسيره ملك الملوك وإن في الجزائر ملوكا لا يطيع بعضهم بعضا ومشارق الهند والصين وقشمير وشمالهم السند وجنوبهم بلاد محرقة مجهولة وبحار ومغاربهم الزنج والرانج واليمن وأما تبت فهم صنف بين الترك والهند زيهم زي أهل الصين لهم فطس الترك وسمرة الهند وفيهم الكتابة والحساب والنجوم وأرضهم أرض باردة مشرقها الصين وشمالها الترك ومغربها وخان وراشت وهي أعالي خراسان وجنوبها قشمير وأعظم مدنها ختن بلدتين غيرين فيه من ألوان الثمار والفواكه وعامة لباسهم وفرشهم القز وهم عبدة الأصنام وبختن جماعة من ولد الحسين ابن علي عليهما السلام ولهم بها مساجد وفي كتاب البلدان والبنيان من دخل تبت لم يزل مسرورا ضاحكا حتى يخرج وأما ياجوج وماجوج فصنف بين الصين والترك الغالب عليهم خشن العيون وفطس الأنوف وقصر القامة جنوبهم الصين وشمالهم الترك ومغاربهم مشارق قشمير وتبت فلا يدرى ما في مشارقهم وهم أسوأ الناس عيشا وأخبثهم طعما وأخرقهم خرقة وأقلهم تميزا وفطنة كما يزعمون وقد ذكرهم الله عز وجل في القرآن المجيد والكتاب الكريم ووصفهم العلماء بصفات قد بيناها في مواضعها وأما الترك فهم عدد كثير وبلادهم واسعة وممالكهم متفرقة وقبائلهم لا تحصى منهم أهل وبر وأهل مدر جنوبهم تبت وبعض الصين ومشرقهم الصين وياجوج وماجوج ومغربهم ما وراء النهر من منبعث جيحون إلى مغيضه وشمالهم التغزغز وهم صنف منهم وأصناف من الناس من أخلاق البهائم والسباع متوحشة زعرة ثم يلي شمال هولاء فياف ومجاهيل وأراض باردة لا يعلم ما فيها إلا الله عز وجل وحد بلاد الترك ينتهى إلى أحد جوانب بحر الروم وينتهي إلى بحر جرجان وسمعت أبا عبد الرحمن الأندلسي بمكة حرسها الله يحدث أنها ركضت راكضة من الترك على بعض حدود الأندلس وسبوا منه واستاقوا السوائم وأنه تبعهم الطلب فظفروا بواحد منهم فقالوا فذاك أول ما

رأينا من الترك وكنا نكمله ويكلمنا فلا يفهم ولا نفهم والغالب على الترك البياض والفطس وفيهم الثنوية والنصارى وعبدة الأوثان والشمس وأكثر بلادهم باردة قالوا وفي التغزغز ملك له خيمة من ذهب مركبة كالوطيس يرى تلك من فوق قصره على خمس فراسخ يعبدها قوم منهم وبلادهم سهيلة قل ما يقع الثلج ويشتد الحر في الصيف حتى يسكن أهلها في أسراب وربما جاءت الحية هاربة من الحر فتساكنهم ولهم أنواع الفواكه وألوان الثمار قالوا وخيرخيز أيضا لهم المزارع والأشجار وملك خرخيز خاقان قالوا ومن الطراز إلى التغزغز مسيرة شهر ومن التغزغز إلى خرخيز مسيرة شهر وسائر الترك قبائل وأحياء كلهم يرون الطاعة لملك الصين بالاسم قالوا ويجاور

الترك الخزر روس وصقلاب وولج والان والروم وأصناف كثيرة من أشباههم والطريق إليهم في البر من خوارزم إلى بلغار ومن باب الأبواب وفي البحر من عابسكين فأما الخزر فعامتهم يهود يشتون في المدن ويصيفون في الخيام وأما روس فإنهم في جزيرة وبيئة يحيط بها بحيرة وهي حصن لهم ممن أرادهم وجملتهم في التقدير زهاء مائه ألف إنسان وليس لهم زرع ولا ضرع يتاخم بلدهم بلد الصقالبة فيغيرون عليهم ويأكلون أموالهم ويسبونهم قالوا وإذا ولد لأحد منهم مولود ألقى إليه سيف وقيل له ليس لك إلا ما تكسبه بسيفك ولهم ملك إذا حكم بين الخصمين بشيء فلم يرضى به قال تحاكما بسيفكما فأي السيفين كان أحد كانت الغلبة له وهم استولوا على برذعة سنة فارتكبوا من الإسلام وانتهكوا من محارمهم ما لم يسبقه إليه أحد من أهل الشرك فقتلهم الله عز وجل كلهم بالوباء والسيف قالوا وبلاد الخزر يتاخم بلاد ملك السرير وله قلعة على رأس جبل شاهق يحيط به سور من حجارة لا طريق إليها إلا من باب وله سرير من ذهب وسرير من فضة توارثهما من آباءه يذكرون أنهما فيهم من ألوف سنين والملك وحاشيته نصارى وسائر أهل مملكته عبدة الأوثان وصقلاب أكبر من الروس وأوسع خيرا وفيهم عبدة الشمس والأوثان وفيهم من لا يعبد شيئا وولج والان ليسا بالكثيرين في العدد وأما الروم فمشارقهم وشمالهم الترك والخزر والروس وجنوبهم الشام والاسكندرية ومغاربهم البحر والأندلس وطنجة وما يليها وكانت الرقة بعضا من حدود الروم أيام الأكاسرة والشامات ودار الملك انطاكية إلى أن نفاهم المسلمون إلى أقصى بلادهم قالوا والروم أربعة وعشرون عملا على كل عمل جند وعامل ديوان جندهم مائة ألف مقاتل وعلى كل عشرة آلاف بطريق وعلى كل خمسة آلاف طرموخ وتحت كل بطريق طرموخان وهو اسم قائد الجيوش والمدبر لها دمستق وأكثر اعطائهم مقاتلهم في السنة أربعون رطلا ذهبا وأقلها اثنا عشر مثقالا ودينهم النصرانية ومذهبهم النسطورية وفيهم الحساب والحكماء والمنجمون والأطباء والحذاق بعمل الطلسمات والمنجنيقات وعجائب الصيغة ولهم صباحة وشقرة ونظافة وبلادهم برية بحرية سهلية جبلية باردة وفيهم يهود ومجوس يأخذون منهم الجزية ويأخذون من سائر الناس سوى خراج الضياع والأعشار والصدقات من كل بيت يوقد فيه النار درهما واحدا وأكثر غلمان الملك الترك والخزر ويسترق من الروم ما شاء قالوا وأعظم مدنهم الرومية وفيها أربعون ألف حمام ومنزل ملكهم قسطنطينية قالوا ومن وراء الروم ممالك لا يعظمون الطاعة لملك الروم ولا ينقادون له والحرب بينهم طول الصيف قائمة فإذا هجم الشتاء سد مسالكهم الثلج وأما البربر فإنهم من العمالقة الذين كانوا نزولا بأرض الشام وفلسطين فلما قاتلهم يوشع بن نون وقتل منهم من قتل انحازت بقيتهم إلى أعالي المغرب فيهم اليوم نزول بين قصر ابن بابان إلى برقة وقيروان في الرمال والجبال والسواحل أصحاب قناطر وأعمدة وفيهم جفاء وجلادة ويقال أن جالوت الذي قتله داود عم كان منهم وفيهم شرك واسلام والسبي الذي يجلب منهم من دار شركهم وفي حافاتهم أصناف من السودان يقال زغل وزغاوة ومن ثم يحمل هولاء الخصيان السود وأما الحبشة فقام سود وبلادهم محرقة سهول وسواحل دينهم النصرانية طعامهم العسل والذرة ومشارقهم الحجاز ومغاربهم البحر وبأرضهم يقنص هذه الزرافات وأما البشرية فإنهم قوم سود بلادهم حارة وماءهم من النيل ودينهم النصرانية وهم أصحاب الخيام منهم البجة وفوقهم موضع يقال له عبرات السلاحف قالوا لا نكاح بين أهلها ولا يعرف الولد أباه ويأكلون الناس والله أعلم وأما الزنج فقوم

سود الألوان فطس الأنوف جعاد الشعر قليلو الفهم والفطنة مشارقهم مغارب الهند ومغاربهم البحر وأرضهم أرض متخلخلة منهارة لا تحمل نبأ ولا تنبت شجرا يجلب إليهم الطعام والثياب ويحمل من عندهم الذهب والرقيق والنارجيل وأما بلاد الإسلام فواسعة بحمد الله ومنه عريضة واسعة وهي ممالك وأولها دار الحجاز دار النبي صلعم ومبعث الإسلام مشرقها العراق ومغربها بلاد مصر وشمالهم الشام وجنوبهم اليمن والحبشة ونجد ما ارتفع منها وتهامة

ما تطاء من نحو البحر فمكة حرسها الله من تهامة والمدينة من نجد وهي بدو وحضر فمن مدن الحضر مكة والطائف والجدة والجحفة والمدينة ووادي القرى وخيبر ومدين وأيلة وتبالة ومدن آخر صغار مثل بدر والقرع والمروة وفداك والرحبة والسيالة والربذة ومن المدن بالحجاز تيماء وحصنها الأبلق ودومة الجندل وحصنها مارد وفيها تقول الزباء وتمرد مارد وعز الابلق وقرى كثيرة غير ما ذكرنا وأما البدو القبائل أصحاب الخيام وبدوهم أكثر من حضرهم، اليمن قالوا وكانت أعمال اليمن مقسومة على ثلاثة ولاة وال على الحرام ومخاليفها ووال على حضرموت ومخاليفها وهي أوسطها وأطيب بلادهم وأبردها وأكثر ما ارتفع من أموالها ما جباه بعض عمال بني العباس وستمائة ألف دينار وأهلها قوم فيهم جهل وغباوة وسلامة الصدر وضعف الحال وأكثر فواكههم الموز وعامة لحومهم لحم البقر وفي مشارق سواحلهم صحار ومسقط وسقوطرا وشحر محلب ومن عندهم اللبان والصبر وهم قوم ضعاف الحال سيوء العيش قليلو الخيل والصناعات ولهم لغة لا يفهمها غيرهم وتليهم الاحساء وهي من أرض العرب وقد استوطنها القرامطة اليوم، الشام وهي أربعة أجناد جند من حمص وجند دمشق وجند فلسطين وجند الأردن ولكل جند عمل يشتمل على عدة مدن وقرى وفيها العجائب والمساجد لأنها أرض الأنبياء عم فشرقي الشام غربي الفرات وغربي الشام ساحل الروم وشماله جبال الروم وجنوبه فلسطين والأردن وبعض البادية فمدينة الأردن الطبرية والرملة وبيت المقدس من سواد رملة وكان دار ملك سليمان وداود، عمل مصر مسيرة شهر في مسيرة شهر طولها من رفح إلى اسوان من حد النوبة وعرضها من برقة إلى أيلة وهي من بلاد مقدونية يونان وماءها من النيل وكانت المدينة في القديم عين الشمس ثم صارت الفسطاط من مصر إلى الاسكندرية ثلاثون فرسخا وما وراء ذلك من حد المغرب وما فوق اسوان من حد النوبة وما فوق رفح من حد فلسطين وكان خراج مصر زمن فرعون ثمانية وعشرين ألف دينار وجباه بنو أمية ألفى ألف وثمان مائة ألف دينار، المغرب من الاسكندرية إلى برقة مائتا فرسخ وبرقة أول مدينة من مدن المغرب وهي حمراء شديدة حمرة التربة موضوعة في صحراء محفوفة بالجبال ومنها إلى الافريقية وهي القيروان العلوي المهدي مائة وخمسون فرسخا عمارات متصلة حضرها المغاربة وبدوها البرابر ومن المهدية إلى السوس مسافة أيام كل هذا في يد العلوي وهو من أولاد ادريس بن عبد الله بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ثم ما وراء ذلك في يد ابن رستم الاباضي وهو رجل من الفرس يرى رأي الخوارج ويسلم عليه بالخلافة ومن افريقية إلى تاهرت مسيرة شهر ثم ما وراء تاهرت في يدي الأموية عبد الرحمن بن معاوية من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان وهي طنجة ولنجة واندلس وعمل طنجة مثل عمل مصر مسيرة شهر في شهر وهي متاخمة شمال الروم ومجمع البحرين الذي يجري فيه السفن والذي لا تجري وفي جنوب المغرب السودان زغل وزغاوة إلى النوبة والحبشة ومغارب طنجة والبحر الأخضر المظلم الذي لا يركبه أحد ولا يعلم أحد ما وراءه ويقابل طنجة واندلس وافريقية جزائر من البحر فيها عمارات ومدن وأكثرها من عمل الروم، العراق شرقي الحجاز طوله مائة وعشرون فرسخا من عقبة حلوان إلى العذيب وكانت الأكاسرة ينزلون المدائن إلى أن جاء الإسلام وجباها سهل بن حنيف زمن عمر بن الخطاب رضه مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم جباها الحجاج ثمانية عشر ألف ألف درهم وليس فيها مائة ألف ألف درهم تراجع إلى هذا المقدار في مدة أربعين سنة وزيادة مدنها الكبار أربع الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وليس بالعراق ماء جار إلا بالسواقي والدوالي غير عين البصرة فإن المد يسقيها والبطائح دون واسط بعشرين فرسخا وهي ثلاثون فرسخا في ثلاثين فرسخا وكانت هذه البطائح

في القديم قرى عامرة ومزارع متصلة والماء يجري من دجلة العوراء يمر بين يدي المذار وعبدسي وفم الصلح حتى يأتي المدائن والسفن تجري فيها من أرض الهند إلى المدائن ثم خدت الأرض حتى مرت بين يدي واسط قبل أن يكون واسط فجعلت بذلك الضياع بطائح قبلها جوخى بين المذار وعبدسي فصارت صحارى وسميت تلك دجلة العوراء لتحول الماء عنها وأنفق كسرى مالا عظيما على أن يحول الماء إلى دجلة العوراء فأعياه ذلك ورام بعده خالد بن عبد الله فأعجزه، الجزيرة ما بين دجلة والفرات فمنها سروج ورها وعين شمس ودارا ونصيبين وآمد وبرقعيد وبلد الموصل وبالس ورقة وهيت والرحبة أعلاها ارمينية، السواد سوادان سواد الكوفة وسواد البصرة وسمي سورستان طولها من حد الموصل إلى آخر الكوفة المعروفة بيهمن اردشير على فرات البصرة مائة وخمسة وعشرون فرسخا وعرضها ثمانون فرسخا من عقبة حلوان إلى العذيب مما يلي البادية يكون ذلك مكسرا عشرة آلاف فرسخ والفرسخ اثنا عشر الف ذراع كل ذلك مستعمر مستنزل وكان مبلغ خراج السواد مائة الف الف درهم وخمسين الف الف درهم ولم يزل على المقاسمة في أيام قباذ بن فيروز الملك فإنه مسحها ووضع الخراج عليها وبعث عمر بن الخطاب رضه عثمان بن حنيف فمسح السواد فوجده ستة وثلاثون الف الف جريب فوضع على كل جريب درهما وقفيزا، آذربيجان وارمينية هي شمال الجبل والعراق مشارقهم جرجان ومغاربهم الروم شمالهم أصناف أهل الشرك لأنه يقال أن ووراء باب الأبواب اثنين وسبعين فرقة من الكفار فمن مدنها الكبار اردبيل ومراغة وموقان وبرزغة وتفليس وثغورها ثغور أهل الشام وأهل الجزيرة وهي تسمى العواصم فمنها قالى قلا وسميساط واخلاط وقنسرين وكذلك طرسوس وعين زربة وآدنة والمصيصة، الأهواز طولها من سفح جبال ايذان إلى شط البصرة وعرضها من حد واسط إلى حد فارس ومدنها الكبار ست كور وتستر وجندى وسابور والسوس والعسكر ورام هرمز ونفس مدينة الأهواز وكان يبلغ خراجها أيام الأكاسرة مائة ألف ألف درهم وخمسين ألف ألف درهم واف وحكي أنها جبيت في بعض الأوقات ألف حمل فضة، فارس طولها مائة وخمسون فرسخا في مائة وخمسين فرسخا منها صرود وجروم جبال وسهول وسواحل وكورها في الأصل أربع كور اصطخر وسابور ودارابجرد واردشير خره فمدينة اردشير ومدينة دارابجرد فسا ومدينة سابور نوبندجان ومدينة اصطخر البيضاء وخراجها أربعة وستون ألف ألف درهم واف ويتاخمها كرمان، كرمان وسجستان ومكران وما فوقها أما كرمان ففيها صرود وجروم وعيون وأدوية وأعظم مدنها أربع برماشير وبم وجيرفت ودار الملك المعروف بالسيرجان ويتاخمها بلاد مكران وسجستان فأما مكران فإنها تمتد إلى قيقان من أرض السند وفيه مدن وكور كثيرة ثم إلى مولتان تسمى فرج بيت الذهب لأن محمد بن يوسف لما افتتحها أصاب بها أربعين بهارا من الذهب والبهار ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون منا ذهبا يتصل حدود مولتان بحدود الهند وأما سجستان فمشارقها أرض كابل ومغاربها كرمان وجنوبها مكران وقيقان وشمالها قهستان وخراسان وتتاخم سجستان بلدي الرور والرخج وبست وهذه النواحي تتاخم أرض غزنة وقد ظهر في نواح يقال لها خشباجي معدن الذهب يحفرون الآبار ويخرجون من التراب الذهب وظهر هذا في سنة تسعين وثلاثمائة وزيد هذا الفصل في هذا الكتاب لأنه من العجائب ثم يرتفع إلى فنجهير وهي معادن القضة إلى اندراب وبذخشان ووخان ثم يتصاعد إلى تبت ومن تبت إلى المشرق وفي شمال تبت والرخج الغور وهي جبال شاهخة يخرقها نهر زرنج وفي جنوبها أرض السند، الجبل وهي من شرقي العراق وغربي خراسان أدنها إلى العراق حلوان ثم قرماسين ثم الدينور ثم همذان ونهاوند يسمى ماء البصرة وفي شمال هذه النواحي اذربيجان وفي جنوبها ماسبذان والسيروان ومدينة مهرجان قذق وهذه المدن بين العراق والأهواز والجبل وما يلي أرض فارس من الجبل الكرج واصبهان وما بينهم آخر عمل الجبل مما يلي خراسان الري وقزوين ثم في شمالها متصاعدا جرجان وطبرستان والجيل والديلم فالديلم لهم الجبال وهم أقل

عددا من الجيل والجيل لهم سواحل بحر عابسكين وفي مشارق الرى قومس ثم يمر متصاعدا حتى يدخل حدود خراسان قالوا وبين الحدين تل لما وافى عبد الله بن طاهر خراسان واليا عليها وقف على ذلك التل ونادى يا أهل خرسان لا أجيبكم حتى أحميكم، خراسان طوله من حد الدامغان إلى

شط نهر بلخ وعرضه من حد زرنج إلى حد جرجان ومدنها الكبار أربع نيسابور ومرو وهراة وبلخ ثم فوق بلخ إذا لم يعبر النهر ممالك منها طخارستان وختل وشغنان وبذخشان إلى حدود الهند من نحو باميا إلى حدود تبت من نحو وخان وإن عبرت النهر أداك إلى الصغانيين من الترمذ إلى نخشب وكميذ وراشت تتاخم بلاد الترك الخرلخية ومن قبلهم يجيئهم الماء وأما ما وراء النهر فممالك واسعة منها سمرقند وفرغانة والشاش واسبيجان ودار الملك بخارا وأما المدن الصغار فكثيرة مثل كش ونسف وكور سغد وإيلاق وخجند وفرب وعلى شطى جيحون إذا انحدرت على آمل بلاد خوارزم وهي تتاخم بلاد الترك بالغربية ومن خوارزم إلى بلغار يفضى إلى الخزر والروم ومن وراء باب الأبواب وفي مشارق خوارزم الترك وما وراء النهر وفي جنوبهم مرو الروذ وابيورد ونسا وفي مغاربهم البحر وفي شمالهم الترك فسبحان من أحصى هولاء الخلق عددا وقدر لهم الأراضي والنواحي مستقرا وموطنا وخالف بين أهوائهم وإرادتهم وهممهم ولغاتهم ومعاملاتهم ومعائشهم فهم كلهم بعينه وعينه في قبضته وتحت قدرته ولا يخفى منهم خافية عليه ولا يغيب غائبة فهم بين مرضى عنه ومسخوط عليه ومقرب إليه ومقصى عنه فلا المرضى المقرب آمن من عقوبته وسطوته ولا المقصى المسخوط عليه يائس من عفوه ورحمته تبارك الله وتعالى كيف لا يحار الأفهام في عجيب تدبيره وبديع تقديره ومحكم صنيعه وفاضل قسمته تكفل بارزاقهم ولم يخف عليه عدد أنفاسهم وجعل بعضهم لبعض فتنة يبلو بهم صبرهم وشكرهم في معافى ومبتلى وفقير وغني وضعيف وقوي وحسن ورميم وعالم وجاهل دلالة منه بما يصنع على وحدانيته ودعوة إلى معرفة ربوبيته فله الحمد بالاستحقاق والاستغناء ومن أحق بحمده ممن دعاه فأجابه وهداه فاهتدى به اللهم فالهمنا التوفيق لبلوغ رضاك وأداء حقك في أشاعة شكرك والقيام بلوازم فرضك وعرفنا بركتك بإعطاء القوة وزيادة النشاط في طاعتك وعبادتك ولا تجمع بيننا سوء اختيارنا وكثرة تفريطنا وبين من عادیناه فيك وناصبناه لدينك يا أرحم الراحمين وكم للناظر في هذا الفصل من العبر والتنبيه إن كان ذا عقل ودين يقول الله عز وجل وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ويقول قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ويقول سبحانه هو الذي جعل الأرض لكم ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ويقول أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، بلخ وعرضه من حد زرنج إلى حد جرجان ومدنها الكبار أربع نيسابور ومرو وهراة وبلخ ثم فوق بلخ إذا لم يعبر النهر ممالك منها طخارستان وختل وشغنان وبذخشان إلى حدود الهند من نحو باميا إلى حدود تبت من نحو وخان وإن عبرت النهر أداك إلى الصغانيين من الترمذ إلى نخشب وكميذ وراشت تتاخم بلاد الترك الخرلخية ومن قبلهم يجيئهم الماء وأما ما وراء النهر فممالك واسعة منها سمرقند وفرغانة والشاش واسبيجان ودار الملك بخارا وأما المدن الصغار فكثيرة مثل كش ونسف وكور سغد وإيلاق وخجند وفرب وعلى شطى جيحون إذا انحدرت على آمل بلاد خوارزم وهي تتاخم بلاد الترك بالغربية ومن خوارزم إلى بلغار يفضى إلى الخزر والروم ومن وراء باب الأبواب وفي مشارق خوارزم الترك وما وراء النهر وفي جنوبهم مرو الروذ وابيورد ونسا وفي مغاربهم البحر وفي شمالهم الترك فسبحان من أحصى هولاء الخلق عددا وقدر لهم الأراضي والنواحي مستقرا وموطنا وخالف بين أهوائهم وإرادتهم وهممهم ولغاتهم ومعاملاتهم ومعائشهم فهم كلهم بعينه وعينه في قبضته وتحت قدرته ولا يخفى منهم خافية عليه ولا يغيب غائبة فهم بين مرضى عنه ومسخوط عليه ومقرب إليه ومقصى عنه فلا المرضى المقرب آمن من عقوبته وسطوته ولا المقصى المسخوط

عليه يائس من عفوه ورحمته تبارك الله وتعالى كيف لا يجار الأفهام في عجيب تدبيره وبديع تقديره ومحكم صنيعه وفاضل قسمته تكفل بارزاقهم ولم يخف عليه عدد أنفاسهم وجعل بعضهم لبعض فتنة يبلو بهم صبرهم وشكرهم في معافى ومبتلى وفقير وغني وضعيف وقوي وحسن ورميم وعالم وجاهل دلالة منه بما يصنع على وحدانيته ودعوة إلى معرفة ربوبيته فله الحمد بالاستحقاق والاستغناء ومن أحق بحمده ممن دعاه فأجابه وهداه فاهتدى به اللهم فالهمنا التوفيق لبلوغ رضاك وأداء حقك في أشاعة شكرك والقيام بلوازم فرضك وعرفنا بركتك بإعطاء القوة وزيادة النشاط في طاعتك وعبادتك ولا تجمع بيننا سوء اختيارنا وكثرة تفريطنا وبين من عادیناه فيك وناصبناه لدينك يا أرحم الراحمين وكم للناظر في هذا الفصل من العبر والتنبيه إن كان ذا عقل ودين يقول الله عز وجل وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ويقول قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ويقول سبحانه هو الذي جعل الأرض لكم ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ويقول أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها

ذكر المساجد والبقاع الفاضلة والثغور، مكة جاء في أخبار أهل الإسلام أن أول ما خلق الله عز وجل في الأرض مكان الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى وأولها الكعبة وبكة وحول بكة مكة وحول مكة الحرام وحول الحرام الدنيا قالوا ولما هبط آدم إلى الأرض حزن على ما فاته من نعيم الجنة فعزاه الله عنه بخيمة من خيام الجنة درة مجوفة فوضعها في موضع الكعبة اليوم وجعل يطوف بها مع الملائكة قالوا فلما كان زمن الغرق رفعت الخيمة إلى السماء وزعم وهب أن أول من بنى الكعبة بالطين والحجارة شيث بن آدم عم فلما كان زمن إبراهيم عم أمره الله تعالى ببناء البيت وأرسل إليه السكينة وهي في هيئة سحابة لها وجه ولسان وعينان تتكلم فوقفت فوق موضع الكعبة وقالت يابراهيم خذ على قدر ظلي فبنى البيت على قدر ذلك الظل بقول الله عز وجل وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم قالوا وليست أمة في الأرض إلا وهم يعظمون ذلك البيت ويعترفون بقدمه وفضله وأنه من بناء إبراهيم الخليل عم حتى اليهود والنصارى والمجوس وقد قيل أن زمزم سميت بزمزمة المجوس عليها وأنشدوا بيتا

زمزمت الفرس على زمزم ... ذلك في سالفها الأقدم

قال الله تعالى وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر قالوا ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت نادى يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج إلى بيته تحجوه وبلغ الله عز وجل صوته من كان في أرحام الأمهات وأصلاب الآباء فمن أجابه ولباه فلا بد من أن يحج ومن لم يجبه فلا سبيل إلى ذلك قالوا وأول من كسا الكعبة تبع لما أتى به مالك بن عجلان إلى يثرب وقتل اليهود ومر بمكة وقد أخبر بفضلها وشرفها فكساه الخصف ثم رأى في المنام أنه أكسها أحسن من ذلك فكساها الانطاع فرأى في المنام أن أكسها أحسن من ذلك فكساها المعافر والوصائل وأول من حلى البيت عبد المطلب لما حفر بئر زمزم أصاب فيه من دفن جرهم غزالتين من ذهب فضربهما في باب الكعبة ثم لما قام الإسلام كساها عمر بن الخطاب رضه القباطي ثم كساه الحجاج بن يوسف الديباج ويقال أن أول من كساها الديباج الخسرواني يزيد بن معاوية وأول من خلق جوف الكعبة بالخلوق عبد الله بن الزبير وأول من بناها بعد بناء إبراهيم عم أهل الجاهلية قبل مبعث النبي صلعم وذلك أنه جاء سيل من أعلى فهدم جدار الكعبة وساق ماها فاجتمعت قريش وتشاورا في بنائها فبنوها ورفعوا بابها عن الأرض مخافة السيل وأن لا يدخل فيها إلا من أحبوا ثم اختلفوا في الركن فوضعه رسول الله صلعم بيده قبل الوحي وكان المسجد في عهده غير محاط عليه فضاق بالناس أيام عمر فاشترى دورا فهدمها وزاد بالمسجد وأحاط عليها بحائط دون قامة الرجل ثم زاد عثمان بعده ثم هدم

البيت عبد الله بن الزبير على حديث عائشة وجعل له بابين في الأرض ونقل إليه ثلاث أساطين من قليس صنعاء ثم لما قتله الحجاج هدم بناءه وبناه على البناء الأول ثم وسع المسجد أبو جعفر المنصور ثم زاد فيه بقدر المهدي في سنة مائة وستين فهو اليوم على ما بنوه، مسجد المدينة كان بالمدينة على عهد رسول الله صلعم تسع مساجد يصلون ولا يحضرون مسجد الرسول إلا يوم الجمعة وأول ما بنى بها من المساجد مسجد قبا وذلك أن رسول الله صلعم لما قدم نزل في بني عمرو بن عوف وأسس به مسجد قبا ثم خرج من عندهم يوم الجمعة فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف فصلى الجمعة في بطن الوادي وبنى فيه مسجدا ثم جاء إلى المدينة ونزل على أبي أيوب الأنصاري وكان المربد فيه قبور جاهلية وغرقد وما يستحل فسأل النبي صلعم عنه فقال له معاذ بن عفراء وأسعد بن زرارة إنه لسهل وسهيل ابني عمرو ويتيمين في حجرى وسأرضيهما عنه فأبى الرسول صلعم حتى ابتاعه منها وأمر بالقبور فنبشت وبالغرقد فقطع وباللبن فضرب ونقلت الحجارة لأساسه وكان رسول الله صلعم ينقل الحجر على بطنه فيلقيه أسد بن حصين فقال أعطنيه يا رسول الله فقال اذهب فاحمل غيره فلست بأفقر إلى الله عز وجل مني وجعل يقول فيما روى الزهري لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة وجعل المسلمون يرتجزون

لئن قعدنا والنبي يعمل ... فذاك منا للعمل المضلل

قالوا وبنى المسجد في طول مائة ذراع مربعا أساسه الحجر وجدرانه اللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل وثلاثة أبواب فقيل له ألا تسقفه فقال لا عرش كعرش موسى وتمام الشان أعجل من ذلك فهذا كان من أمر المسجد في عهد رسول الله صلعم وأمر أن يحصب فمات قبل ذلك فحصبه عمر رضه وزاد فيه دار العباس ثم زاد عثمان وجعل سقفه من الساج وحيطانه بالحجارة المنقوشة ثم لما استعمل الوليد بن عبد الملك عمرو بن عبد العزيز على المدينة كتب إليه أن يوسع المسجد ويدخل فيه بيوت أزواج النبي صلعم وبعث إليه بفعلة من الروم والقبط وأربعين ألف مثقال من ذهب فسوره وبطنه بالفسيفساء وألوان الزجاج ثم زاد فيه المهدي ثم المأمون بعده فهو اليوم على ما فعله المأمون، بيت المقدس وزعم وهب أن يعقوب النبي عم كان يمر في بعض حاجاته فأدركه النوم في موضع المسجد فرأى في المنام كأن سلما منصوبا إلى السماء والملائكة تعرج فيه وتنزل وأوحى الله عز وجل إني قد ورثتك هذه الأرض المقدسة ولذريتك من بعدك فابن لي فيها مسجدا فاختط عليه يعقوب ثم بعده قبة ايليا وهو الخضر ثم بنى بعده داود وأتمه سليمان وخربه بخت نصر فاوحى الله عز وجل إلى كوشك ملك من ملوك فارس فعمرها ثم خربها ططس الرومي الملعون فلم يزل خرابا إلى أن قام الإسلام وعمره عمر بن الخطاب رضه ثم معاوية بن أبي سفيان وبه بايعوه للخلافة وليس ببيت المقدس ماء جار وإنما يشربون ماء الأمطار في الجباب إلا عيينة تسمى عين سلوان فيه ملوحة يزعمون أن الله عز وجل أظهرها لمريم حين أرادت أن تغتسل وظهر المسجد مغطى بصفائح من رصاص وأرض المسجد مفروشة بالرخام لئلا يضيع ماء المطر وللمسجد أبواب باب داود وباب سليمان وباب الأسباط وباب البقر والمسجد من أحد جوانبه يفضى إلى وادي جهنم وفيه مقابر ومزارع وفي وسط المسجد قبة الصخرة وعلى باب المدينة باب داود يصعد إليه بدرجات وفي المدينة مسجد لعمر بن الخطاب رضه وفيه كنائس اليهود والنصارى منها كنيسة يقال لها جلجلة وفيها قبر آدان أبي زكريا عم ومنها كنيسة صهيون التي كان يتعبد فيها داود عم وكنيسة القيامة في الموضع الذي يزعم النصارى أن المسيح لما قتل دفن فيه ثم قام وصعد إلى السماء ومن رملة إلى بيت المقدس ثمانية عشر ميلا وفي نصف الطريق قرية شنا يقال لها قرية العنب ومن بيت المقدس إلى بيت لحم فرسخ وفيه مولد المسيح عم بجنبها كنيسة الصبيان يزعمون أن الملك هيروذوس قتل بها صبيانا على اسم المسيح ومن بيت لحم إلى قبر الخليل عم فرسخان، طور سينا يخرج الرجل من مصر إلى قلزم في ثلاثة أيام ومن قلزم

إلى الطور طريقان أحدهما في البحر والآخر في البر وهما جميعا يؤديان إلى فاران وهي مدينة العمالقة ثم يسير منها إلى الطور في يومين فإذا انتهى إليه صعد ست آلاف وست مائة وستا وستين مرقاة وفي نصف الجبل كنيسة لايليا النبي وفي قلة الجبل كنيسة مبنية باسم موسى عم بأساطين من رخام وأبواب من صفر وهو الموضع الذي كلم فيه الله عز وجل موسى وقطع منه الألواح للتورية ولا يكون فيها إلا راهب واحد للخدمة ويزعمون أنه لا يقدر أحد أن يبيت فيها فيهيئ له بيت صغير من خارج ينام فيه، مسجد الكوفة بناه سعد بن أبي وقاص رضه بأمر عمر بن الخطاب رضه بالآجر وزاد فيه المأمون ويقال من موضعه فار التنور من الغرق، مسجد البصرة بناه عتبة بن غزوان بالقصب ثم بناه عبد الله بن عامر بالطين ثم بناه زياد بن أبيه بالآجر وزاد فيه المأمون وفيه موضع الحكم الذي كان يقضي فيه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مسجد مصر بناه عمر بن العاص زمن إمارته بها، مسجد دمشق بناه الوليد بن عبد الملك ويقال أنه أحد عجائب الدنيا، مسجد الرملة يقال فيه قبر كذا نبي والله أعلم وأحكم

الطريق من العراق إلى مكة حرسها الله يقال من الكوفة إلى مكة مائتان وثلاثة وخمسون فرسخا والفرسخ ثلاثة أميال يخرج من الكوفة إلى القادسية ثم إلى العذيب وهي كانت مسلحة للفرس بينها وبين القادسية حائطان متصلان بينهما نخل وهي ستة أميال فإذا خرجت منها البادية ثم المغيثة ثم القرعا ثم واقصه ثم العقبة ثم القاع ثم زبالة وبها حصن وجامع ثم الشقوق ثم قبر العبادي ثم الثعلبية وهي ثلث الطريق ثم الخزيمية ثم الاجفر ثم فيد وهي نصف الطريق وبها حصن وجامع والبلد لطيئ ثم سميرا ثم الحاجر ثم النقرة ومنها يفترق الطريق إلى المدينة فمن أراد مكة أخذ المغيثة ثم الربذة ثم السليلة ثم العمق ثم معدن بني سليم ثم أفيعية ثم المسلح ثم الغمرة ومنها يحرم الناس إلا الجمالين فإنها يحرمون من ذات عرق ثم بستان بني عامر ومن البستان إلى مكة ثمانية فراسخ أربعة وعشرون ميلا ومن أراد المدينة من النقرة أخذ العسيلة ثم بطن النخل عمرها مصعب بن الزبير ثم الطرف ثم المدينة ومن المدينة إلى مكة ثلث طرق الجادة والساحل وطريق المخالف ولكل قوم طريق ومنازل مغدودة فلا فائدة في حفظها لغير أهلها، ذكر الثغور والرباطات أعلم أن لكل قوم عدوا يحاذرونهم فلأهل الشام واذربيجان والجزيرة عدوهم الروم وارمينية وثغورهم السواحل وطرسوس والمصيصة وعين زربة وقاليقلا وسميساط واخلاط وكذلك عدو المغاربة الروم وعدو أهل الجبل وجرجان والجيل والديلم الغزية الترك وكانت قزوين ثغر الديلم ودهستان ثغر الترك فأسلمت الديالمة وتباعدت عنهم الترك وعدو كرمان البلوص وعدو أهل بلخ وباميان وجوزجان الهند وأهل خراسان عدوهم الترك وعدو أهل مكران البارج وخاشت وثغورهم تيز وأهل زرنج وبست الغور وكثير من الثغور قد تباعد عنها العدو وأسلموا مثل قزوين أسلمت الديلم ومثل ويسكرد أسلمت راشت والتحرز من المسلمين أولى من غيرهم

ذكر ما يحكى من عجائب الأرض وأهلها قد ذكر في الكتب أن عجائب الدنيا أربع شجر الزرزور ومنارة الاسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق ومن العجائب الهرمان بمصر ارتفاعهما في السماء أربع مائة وخمسون ذراعا في انخراط مكتوب عليهما من ادعى قوة فليهدمهما فإن الهدم أسهل من البناء ومنها قنطرة بختن معقودة من رأس جبل إلى جبل عقدها أهل الصين في الدهر ومنها جبل تبت يقال له جبل السم إذا مر به الناس أخذ بأنفاسهم فمنهم من يموت ومنهم من ينغل لسانه ومنها أن قتيبة بن مسلم لما افتتح ويكند أصاب بها قدورا عظاما يصعد إليها بالسلاليم فتذكروا أنها مما عملته الشياطين لسليمان عم بقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ومنها ما يحكى أن في مطلع الشمس أرضا ينبت الذهب قطعا كالنبات يظهر عند انفجار الصبح كالسرج ثم يغوص إذا دنا طلوع الشمس وفي تلك الأرض دابة على صورة النمل تأكل الناس قالوا ولما

أغزى كشتاسب بت لهراسب اسفنديار فسار في أرض الترك حتى خرج من وراء الروم في أقصى الغرب وضع ثم صنما ونقش فيه ليس وراء هذا أحد يقاتل ولما فتح طارق بن زياد الأندلس في ولاية الوليد بن عبد الملك أصاب بها مائدة بثلاثة أطواق لؤلؤ وزبرجد وياقوت فذكر أهل الكتاب أنهما مما استخرجه الشياطين من البحر لسليمان بن داود ومنها أن من دخل تبت لم يزل مسرورا ضاحكا حتى يخرج كما يزعمون من غير علة ومنها أساطين انصنا مرأى الصعيد وغضائر السروج ومنها البحر المغربي لا تجري به السفن لأن فيه جبالا من حجر المغناطيس إذا انتهت إليه السفن جذبت ما فيها من المسامير فانتقضت قالوا وفي بحر الهند حيتان يبتلعون القارب وفيه سمك طيارة وفي بحر المغرب سمك على صورة الناس سواء وبأرض الهند شجر تقود فروعها إلى الأرض فتغوص فيها ثم تخرج رؤوسها من موضع آخر فإذا صارت شجرا عادت رؤوسها إلى الأرض ثم لا يزال كذلك حتى بلغت فراسخ ويغلب على بلدان كثيرة بعروقها وفروعها وزعموا أن قصب الخيزران يسير تحت الأرض خمسة فراسخ أو ستة وبها شجر يقال لها وقواق فيزعمون أن صورة ثمره على صورة وجوه الناس وأما الحمات والنيران الظاهرة ومخارق الريح التي لا تسكن أبدا ومساقط الثلوج التي لا تخلو طول السنة ومستنقعات المياه المختلفة والطعوم والأرائيح والتراب المختلفة التي لا تحصى ولا تعد وقد ذكر محمد بن زكريا في كتاب الخواص منه طرفا صالحا فمما زعموا أن بارض الترك جبلا إذا انتهوا إليه شدوا في حوافر دوابهم اللبد والصوف لئلا يثير عجاجا فيمطرون قالوا ويحملون معهم من حجارة ذلك الجبل فإذا عطشوا حركوها في الماء فيمطرون في الحال وفي كتاب المسالك والممالك حكاية أن بأقصى الترك مما يلي شمالهم نهرا عظيما يدخل في نقب جبل عظيم ولا يدري أحد أين مخرج ذلك الماء ومصبه وأن رجلا منهم اتخذ ضغثا ودخل في زق عظيم وأمر أن ينفخ فيه واستوثق من رأسه ثم شد الزق على الضغث وطرح في الماء قالوا أنه غاص يومين أو ثلثة ثم خرج ببسيط من الأرض فلما أحس بضوء النهار شق عنه الزق فإذا هو بأرض ذات شجر وحيوان لم يرى مثلها في طولها وعرضها وعظمها وناس طوال القامات عراض الأجسام على دواب عظام فلما بصروا به جعلوا يضحكون تعجبا منه ومن خلقته وجسمه هكذا الحكاية فلا أدري من أي طريق عاد إليهم هذا الرجل وأخبرهم بالخبر ومن أراد معرفة هذه الأشياء فلينظر في طبائع الحيوان وطبائع الأحجار وطبائع النبات ويزده علما ومعرفة وخبرة

ومن عجائب أصناف الناس قد جاء في الأخبار من صفة ياجوج وماجوج وما ذكرناه في موضعه وكذلك من صفة النسناس بأرض وبار وصنف منهم بناحية بامير وهي مفازة بين قشمير وتبت ووخان والصين ناس وحشية مشعرة جميع أبدانهم إلا الوجه ينقزون نقز الظباء وحدثني غير واحد من أهل وخان أنهم يصطادونه ويأكلونه قالوا وفي غياض سرنديب ناس وحشية يصفر بعضها لبعض وينفرون من الناس وبالزنج في أقاصيها قوم ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من دواب البحر عند غروبها ولا لهم لباس غير ورق الشجر ولا لهم بناء إلا أكنان تحت الأرض وهم يأكلون بعضهم بعضا ولا يعرف أحد منهم أباه ولا نكاح فيهم قالوا وفي ناحية الترك قوم إذا خرجوا إلى عدوهم أخذوا الملح معهم فمن قتلوه ملحوه وأكلوه وقالوا في نواحي خرخيز أمة وحشية لا يخالطون الناس ولا يفهمون عنهم لباسهم وأوانيهم من جلود الوحش يتناكحون على أربع كالوحش والبهائم وإذا مات منهم ميت علقوه على الشجر حتى يبلى قالوا وفي جهة الشمال أمة في طباع السباع والزعرة هم سباع الناس وحدثني غير واحد من الغواصين بأنهم يرون حيونا في البحر على صورة الناس يكلم بعضهم بعضا وفي كتاب المسالك أن في جزيرة من جزائر الهند قوما عظام الأجسام قدم أحدهم ذراع يأكلون الناس يقول الله عز وجل ويخلق ما لا تعلمون وروينا عن عبد الله بن عمر أنه قال ربع من لا يلبس الثياب من السودان أكثر من جميع الناس وقد قال رسول الله

صلعم ما أنتم بالناس إلا كالرقمة في ذراع البكر وروى إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود وروى أنه قال لما ذكر أهل النار أما ترضون أن يكون من ياجوج وماجوج تسع مائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد قالوا وأعدل أقسام الأرض وأصفاها وأطيبها إيران شهر وهو المعروف باقليم بابل ما بين نهر بلخ إلى نهر الفرات في الطول ومابين بحر عابسكين إلى بحر فارس واليمن في العرض ثم إلى مكران وكابل وطخارستان ومنتهى اذربيجان صفوة الأرض وسرتها لاعتدال ألوان أهلها واستواء أجسامهم وسلامة عقولهم وذلك أنهم سلموا من شقرة الروم وفظاظة الترك ودمامة الصين وقصر ياجوج وماجوج وسواد الحبشان وخبل الزنوج ولذلك سمي إيران شهر يعنون قلب البلدان وإيران هو القلب بلسان أهل بابل في القديم وهي أرض الحكماء والعلماء وفيهم السخاء والرحمة والتمييز والفطنة وكل خصلة محمودة التي عدمها الناس من سكان الأرض ويحسبك معرفة هذه البلاد أنه لا يحمل إليها أحد من غيرها ولا يقع إليها بنفسه فيشتاق بعد ذلك إلى أرضه أن يعود إليها وليس كذلك حال هذه البلاد والله أعلم

ذكر ما بلغنا من المدن والقرى ومن بناها ذكر في الأخبار أن أول قرية بنيت على وجه الأرض بعد الطوفان بقرذى وسوق ثمانين وذلك أن نوحا عم لما خرج إلى السفينة وكانوا ثمانين إنسانا هذه الرواية أربعون رجلا وأربعون امرأة بنى لهم تلك القرية وسموها سوق ثمانين وجاء أن أول بناء بني على وجه الأرض بيت الله الكعبة وبناه شيث بن آدم وفي كتب العجم أن المدائن بناها هوشنك وسماه كرد بنداذ معمولا وجد فكأنه كان بناء قبله ثم درس فبناه زاب الملك وهو الذي حفر الزابين ثم بناه الاسكندر ثم بناه شابور ذو الاكتاف قالوا وبنى طهمروث بابل وهي المدينة العتيقة وابريز بأرض اذربيجان واواق على رأس جبل شاهق بأرض الهند وقهندز مرو بأرض خرسان قالوا بنو جم شاذ همذان بأرض الجبل واصطخر بأرض فارس والمذار بأرض بابل وطوس بأرض خراسان قالوا وبني كيلهراسب الجبار بلخ الحسناء بأرض الهند وقهندز بأرض مكران قالوا وبني بهمن حول اصطخر بناء عجيبا وبنى دارا دارابجرد بأرض فارس وبنى دارا بن دارا دارا بأرض الجزيرة وبنى اوشهنج مدينة بابل ومدينة السوس بأرض الأهواز ومعناه حسن ثم بنى بعدها تستر ومعناه أحسن وبنى شابور بن اردشير جندى شابور بأرض الأهواز والأنبار بأرض العراق وبنى هرمز البطل دسكرة الملك وبنى يزدجرد الجشن بناء بباب ارمينية وبناء بأرض جرجان وبنى شابور ذو الاكتاف نيسابور بخراسان وبنى الاسكندر عشر مدن سرنديب بأرض الهند والاسكندرية بأرض اليونان وجى بأرض اصبهان وهراة ومروة وسمرقند بأرض خراسان ومن يحصي بناء المدن وواضعي القرى ومن يعلم مبادئ إنشائها إلا الله عز وجل وهبنا أخبرنا بمدن فارس على نحو ما نجده في كتبهم والمدن التي أحدثت في الإسلام بقرب العهد وجدة التأريخ فمن لنا بمدن الهند والصين والروم والترك وليس كل مدينة أو قرية مبنية منسوبة إلى بانيها لأنه قد تسمى المدينة باسم الباني أو باسم لها قبل حدوثها أو باسم ماء أو شجر أو شيء ما وقد يجوز أن يجتمع قوم بموضع من المواضع فيصير ذلك مدينة فهذا يبين لك أن كل مدينة لا يوجب بانيا لها قاصدا إليها وقد قيل أن قسطنطينية مدينة ملك الروم بناها قسطنطين فسميت به ونيسابور بناها سابور فسميت به وافريقية بناها افريقس فسميت به وحران نزلها هاران بن آزر أخو إبراهيم عم فسميت به وسمرقند خربها شمر ملك من ملوك اليمن فقيل شمر كند ثم عرب وغمدان بناها غمدان الملك باليمن فسميت به وصنعاء سميت بجودة الصنعة وعدن سميت بالمقام قالوا وسميت مكة لازدحام الناس بها وسميت المدينة لاجتماع الناس فيها وهي تسمى يثرب وسماها رسول الله صلع طيبة وسميت الجحفة بسيل أتى فيها فجحف من فيها والكوفة مصرها سعد بن أبي وقاص وكان بها رمل فسميت به ويقال لها الكوفان والبصرة مصرها عتبة بن غزوان وسماها بحجارة بيض كانت في موضعها وأواسط بناها الحجاج ويقال لذلك وسط القصب ويقال بل توسطت البصرة والكوفة وهي سهلية جبلية برية بحرية يوجد بها الرطب والثلج

والقمح والسمك وبغداد سميت باسم موضع كان قبلها ويقال لها الزوراء ويقال أبغ اسم صنم وسميتها الخلفاء مدينة السلام وأول من بناها أبو جعفر المنصور بنى بها قصر الخلد وسر من رأى بناها المعتصم وذلك أنه تنحى عن مدينة السلم ليبني في السراة الذين تجمعوا بديار ربيعة ومضر فنزلها وهي ضاحية على جهة مناخ العسكر لا سور عليها ولا خندق ولا ميرة ولا ماء ثم عطلت وكان أبو العباس نزل الأنبار فبناها وبنى المتوكل المتوكلية وانتقل إليها فقتل بها وطرسوس بني في أيام هارون الرشيد والمصيصة بناها المنصور وعسكر مكرم نزلها بن مطرف اللخمي فصارت مدينة ونسبت إليه فاعلم أن المدن تبنى على ثلاثة أشياء على الماء والكلاء والحطب فإذا فقدت واحدة من هذه الثلاثة لم تبق

ذكر ما جاء في خراب البلدان في كتاب أبي حذيفة عن مقاتل أنه قال قرأت في كتب الضحاك بعد موته وهي الكتب المخزونة عنده في قوله عز وجل وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا أما القرى مكة فيخربها الحبشان فذلك عذابهم وأما المدينة فالجوع يخربها وأما البصرة فالغرق وأما الكوفة فالترك وخراب الشام من قبل الملحمة بالكدى عند فتح القسطنطينية وخراب الأندلس وطنجة من قبل الريح وخراب الافريقية من قبل الأندلس وخراب مصر من انقطاع النيل وخراب اليمن من الجراد والحبش وخراب ارمينية من الصواعق والرواجف وخراب اذربيجان بسنابك الخيل وخراب الجبل بالصواعق وخراب الري واصفهان وهمذان على أيدي الديالمة والطبرية وهلاك حلوان بهلاك الزوراء قال وهلاك الزوراء بريح ساكنة تمر بها فيصبح أهلها قردة وخنازير وأما الكوفان فيخربهما رجل من آل عنبسة بن أبي سفيان يعني السفياني وخراب سجستان برياح ورمال وحيات وأما خراسان فانها تهلك بأصناف العذاب وبلخ يصيبها رجة وهدة فيغلب عليها الماء فتهلك وبذخشان يغلب عليها أقوام عليهم الدواويح المشقوقة فيتركونها كجوف الحمار والترمذ يموتون بجارف الصغانية تهلك بقتل صريع ولهم من عدو سمرقند والشاش وفرغانة واسبيجاب وخوارزم يغلب عليها بنو قيطورا بن كركر وأما بخارا فأرض الجبابرة يصيبهم نحو ما يصيب خوارزم ثم يموتون قحطا وجوعا ومن الجملة خراب ما وراء النهر بالترك قالوا ويضيق بهم الأمر حتى لو نبح كلب على شاطئ آمل من على شط الفرات أنه مكان ذلك الكلب وخراب كرمان وفارس واصفهان من قبل عدو لهم وخراب مرو بالرمل ونيسابور بالريح وخراب هراة بالحيات قال تمطر عليهم الحيات فتأكلهم وقال مقاتل وخراب السند من قبل الهند وخراب خراسان من قبل تبت وخراب تبت من قبل الصين وكذا الروية والله أعلم فقد روى من خراب البلدان عن الصحابة فمن ذلك ما روى أبو هريرة أن النبي صلعم قال للمدينة لتركها أهلها على حين ما كانت مذللة للعوافى وما روى عن علي عم أنه قال ليخرب البصرة وليفرقن حتى يصير المسجد كأنه جؤجؤ سفينة،

الفصل الرابع عشر

في ذكر أنساب العرب وأيامها

المشهورة على غاية هذا الكتاب من الإيجاز والاختصار

اختلف الناس في نسب العرب فقال بعضهم كلهم من ولد اسماعيل بن إبراهيم وقال آخرون ليست النمر من ولد اسماعيل ولكنها من ولد قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح فهم أنسب وأقرب من غيرهم ولذلك تفتخر أعراب اليمن على غيرها من العرب وقال ابن اسحق لم أجد أحد من نساب اليمن له علم إلا وهو

يزعم أنهم ليسوا من ولد اسماعيل ويقولون نحن العرب العاربة كنا قبل اسماعيل وإنما تكلم اسماعيل بلساننا لما جاورته جرهم إلا هاذين الحيين الأنصار وخزاعة فإنهم يزعمون أنهم من ولد اسماعيل عم قالوا أخو قحطان يقطر بن عامر بن عابر فولد يقطر جرهم وجزيلا فلم يبق في جزيل بقية فنزلت جرهم مكة فنكح فيها اسماعيل عم وقد قال رجل من قحطان بن هميسع بن نابت بن اسماعيل والنساب على أنه قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح والله أعلم وقحطان ونزار هما جرثومتان لأنه نسبة ولد اسماعيل من نزار ونسبة اليمن من قحطان هذا هو الأصل قال الشاعر

بجيلة حين جاءت ليس تدري ... أقحطان أبوها أم نزار

ونزار نزاران فهذا نزار بن معد بن عدنان والثاني نزار بن انمار ثم اختلفوا في نسب عدنان فقال بعضهم عدنان بن أدد بن يخنوخ بن مقوم بن ناحور بن تيرخ بن يعرب بن يشجب بن اسماعيل هذا قول محمد بن اسحق وقال بعضهم عدنان بن مبدع بن يسع بن الأدد بن كعب بن يشجب بن يعرب بن الهميسع بن حميل بن سليمان بن ثابت بن قيدر بن اسماعيل وقد روى ابن عباس رضه أن النبي صلعم انتسب فلما بلغ إلى عدنان وقف وقال كذب النسابون وقد روى ابن اسحق عن يزيد بن رومان عن عائشة أن النبي صلعم قال استقامت نسبة الناس إلى عدنان ويدلك على هذا القول لبيد

فإن لم نجد من دون عدنان والدا ... ودون معد فلترعك العواذل

فولد عدنان عك بن عدنان ومعد بن عدنان فأما عك فأول من تبدى في البادية والعدد في معد فولد معد بن عدنان ثمانية نفر يذكر منهم أربعة قضاعة بن معد واياد بن معد ونزار بن معد والعدد في نزار فولد نزار ثلثة نفر ربيعة ومضر وانمارا فأما انمار فإنه ولد خثعم وبجيلة فصاروا إلى اليمن فأما مضر فولد الياس ويقال لولد الياس خندف ينسبون إلى أمهم وولد الياس ثلثة نفر مدركة بن الياس وطابخه بن الياس وقمعة بن الياس فأما قمعة فزعم بعض الناس أنهم في اليمن ورجعت خندفها إلى مدركة وطابخة وأما الياس ابن مضر فهو قيس بن عيلان فمضر ترجع كلها إلى هاذين الحيين خندف وقيس وولد مدركة بن الياس هذيل وولد سعد تميم بن معاوية بن تميم وقد ولدوا غير ما نذكره غير أنا نذكر من له العدد وولد خزيمة بن مدركة أسد بن خزيمة فمنه تفرقت بطون العرب وهم بنو أسد والهون بن خزيمة فولد الهون القارة الذي يقال في المثل قد أنصف القارة من رماها ومن القارة عضل وديش وكنانة بن خزيمة فولد كنانة النضر بن كنانة ومالك بن كنانة وملكان بن كنانة وعبد مناة بن كنانة فأما النضر بن كنانة فهو أبو قريش كلها وولد النضر بن كنانة مالك بن النضر والصلت بن النضر فصارت الصلت في اليمن ورجعت قريش كلها إلى مالك بن النضر فولد مالك فهر بن مالك والحارث بن مالك فمن بني الحارث المطيبون والخلج وأما فهر فمنه تفرقت قبائل قريش وولد فهر غالب بن فهر ومحارب بن فهر فولد الغالب لؤي بن غالب وتميم بن غالب فأما تميم فهم بنو الادرم من أعراب قريش ليس منهم بمكة أحد وفيهم يقول الشاعر

إن بني الادرم ليسوا من أحد ... ولا توفاهم قريش في العدد

فأما لؤي بن غالب فإليه ينتهي عدد قريش وشرفها وولد لؤي سبعة نفر منهم كعب بن لؤي فولد كعب مرة بن كعب فمن عدي عمر بن الخطاب رضه ومن مرة أبو بكر الصديق رضه وولد مرة بن كعب كلاب بن مرة وولد كلاب قصي بن كلاب وزهرة بن كلاب فأما قصي فاسمه زيد وإنما سمي قصيا لأنه تقصى مع أبيه وتسمية قريش مجمعا لأنه جمع قبائل قريش وأنزلها مكة وبنى بها دار الندوة وأخذ مفتاح البيت من خزاعة وكان قريش قبل ذلك حلولا فمن ذلك قريش الاباطح كانوا ينزلون الأبطح ومنهم قريش الظواهر كانوا ينزلون بظاهر مكة فجمعهم

قصي وفيه يقول الشاعر

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر

وأنتم بنو زيد وزيد أبوكم ... به زيدت البطحاء فخرا على فخر

فتزوج قصي بن كلاب ابنة حليل بن حبش الخزاعي فولدت له أربعة نفر عبد مناف وعبد الدار وعبد العزي وعبدا فأما عبد فبادوا كلهم وعبد الدار فإنهم قتلوا يوم أحد إلا عثمان ابن طلحة فإنه أسلم ودفع بالنبي صلعم المفتاح إليه يوم فتح مكة ثم دفعه إلى شيبة فهو في ولده إلى اليوم وأما عبد العزي فبقوا ومنهم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي وأما عبد مناف فولد عشرة نفر منهم هاشم والحارث وعباد ومخرمة وعبد شمس والمطلب ونوفل واسم عبد مناف المغيرة وكانوا يسمونه القمر لجوده وفضله وإليه صار السودد بعد قصي فأما عبد شمس بن عبد مناف فانه ولد أولادا يسمون العبلات لأن اسم أمهم عبلة ويقال أيضا أمية الأصغر لأن لعبد مناف ولدا يقال له أمية الأكبر وولد يقال له عبد العزي والربيع يقال له جرو البطحاء وولد الربيع أبا العيص بن الربيع زوج بنت رسول الله صلعم ابن أخت خديجة وأما أمية الأكبر فإنه ولد حربا وأبا حرب وسفيان وعمروا وأبا عمرو يقال لهم العنابس شبهوا بالأسد والعاص وأبا العاص وأبا العيص ويقال لهم الأعياص فأما حرب بن أمية فولد أبا سفيان بن حرب وأما أبو العاص فولد أبا عثمان بن عفان وأما أبو العيص فقالوا ولد أسيدا أبا عتاب بن أسيد أمير مكة وأما هاشم بن عبد مناف فاسمه عمرو وسمي هاشما لأنه هشم الخبز ويقال كثر الخبز بالرحلتين بينهما في الصيف إلى الشام وفي الشتاء إلى اليمن وفيه يقول الشاعر

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنتون عجاف

وإليه صار السودد بعد عبد مناف وولد هاشم ولدا لم يعقب منهم أحد غير أسيد بن هاشم وعبد المطلب بن هاشم وهلك هاشم بغزة من أرض الشام وكان وافاها في تجارة له ومات المطلب بردمان من أرض اليمن ومات نوفل بسلمان من أرض العراق ومات عبد شمس بمكة وفيه يقول مطرود بن كعب

منيت بردمان ومنيت بسل مان ومنيت بين غزات

ومنيت أسكن اللحد لدى ... المحجوب شرقي البنيات

فهولاء بنو عبد مناف ثم صار الأمر إلى عبد المطلب بن هاشم بعد عمه المطلب بن عبد مناف، قصة عبد المطلب واسمه شيبة الحمد وذلك أن هاشم بن مناف خرج إلى الشام في تجارة فمر بالمدينة وتزوج بسلمى بنت عمرو النجارية فحملت بشيبة ورحل هاشم فمات بأرض الشام وولدته سلمى وترعرع الغلام وصار وصيفا فقدم ثابت بن المنذر أبو حسان بن ثابت الشاعر مكة فقال للمطلب بن عبد مناف لو رأيت ابن أخيك لرأيت جمالا وشرفا ورأيته بين آطام بني قنيقاع يناضل فتيانا من أخواله فيدخل في مرماتية جميعا في مثل راحتي هذه والمرماة السهام وكانوا إذ ذاك يرمون بسهمين فخرج المطلب حتى قدم المدينة ومكث يرقب شيبة فلما أبصره عرفه بالشيبة ففاضت عينه ثم دعاه فكساه حلة وردة إلى أمه وانشأ يقول

عرفت شيبة والنجار قد جعلت ... أناءها حوله بالنبل تنتضل

عرفت أجلاده منا وشيمته ... ففاض مني عليه واكف سبل

ثم أتي أمه فضنت به فلم يزل بها يقبل في الغارب والسنام حتى دفعه إليه فاحتمله وقفل راجعا إلى مكة وهو رديفه ولم يكن للمطلب ولد فقيل هذا عبده فنشب اللقب عليه ثم لما هلك المطلب بن عبد مناف قام بالأمر عبد المطلب بن هاشم وكثرت أمواله وتأثلت مواشيه فأجمع أن يحفر بئرا، قصة حفر عبد المطلب زمزم قد بينا في قصة اسماعيل

وهاجر ما ذكر من أمر زمزم فمن قائل أنها ركضة جبرئيل وآخر أنها همزة اسمعيل بكعبه ثم عورتها السيول وعفتها الأمطار روى ابن اسحق عن علي بن أبي طالب عم أن عبد المطلب بينا هو نائم في الحجر إذ أتي فأمر بحفر زمزم فقال ما زمزم فقال لا ينزف ولا يذم، لتسقى الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، وعند نقره الغراب الأعصم ، فغدا عبد المطلب ومعه الحارث ابنه ليس له يومئذ ولد غيره فوجد الغراب ينقر بين اساف ونائلة فحفر منه فلما بدا الطى كبر فاستشركته قريش وقالوا انها بئر أبينا اسمعيل ولنا فيها حق فأبى أن يعطيهم حتى تحاكموا إلى كاهنة بنى سعد بأشراف الشام فركبوا وساروا حتى إذا كانوا ببعض الطريق نفذ ماءهم فظمئوا وأيقنوا بالهلاك فانفجرت من تحت خف راحلة عبد المطلب عين من ماء فشربوا منه وعاشوا وقالوا قد والله قضى لك علينا لا نخاصمك فيها أبدا إن الذي سقاك الماء بهذه القلاة لهو الذي سقاك زمزم فانصرفوا وحفر زمزم فوجد فيها غزالين من ذهب كانت جرهم دفنتهما عند خروجهم من مكة ووجد فيها أسيافا قلعيه ودروعا فضرب الغزلين في باب الكعبة وأقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج وفيه يقول حذيفة بن غانم

وساقي الحجيج ثم للخبز هاشم ... وعبد مناف ذلكم سيد فهر
طوى زمزما عند المقام فأصبحت ... سقايته فخرا على كل ذي فخر

قصة ذبح عبد المطلب ابنه عبد الله أبا رسول الله صلعم قالوا وكان عبد المطلب نذر لله عز وجل حيث كان لقي من قريش ما لقي عند حفرة زمزم لئن ولد له عشرة نفر يمنعونه ممن يريده لينحرن أحدهم لله عز وجل عند الكعبة شكرا له فلما توافى بنوه العشرة جمعهم فأخبرهم بنذره قالوا شأنك وما نذرت قال ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم ليكتب فيه اسمه ثم ليأتني به ففعلوا فقام ودخل بهم على هبل في جوف الكعبة وضرب عليهم قداحهم فخرج قداح عبد الله أبي رسول الله وهو أصغرهم فأخذ بيده وحدد الشفرة وجره إلى المذبح فقامت قريش من أنديتها وقالوا لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه فما بقاء الناس على هذا ولكن انطلق إلى الحجاز فإن بها عرافة لها تابع فسلها فرحل عبد المطلب فقص عليها القصص فقالت صاحبكم وعشرا من الإبل ثم اضربوا عليها بالقداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا حتى يرضى ربكم فرجعوا إلى مكة وقربوا الإبل هبل ولم يزالوا يضربون عليها بالقداح وعلى عبد الله والقداح تخرج عليه حتى بلغت الإبل مائة ثم خرج على الإبل فأمر فنحرت بالبطحاء وفي شعاب مكة فجاجها وعلى رؤوس الجبال حتى أكلها الناس والطير وفيه يقول أبو طالب وتطعم حتى تترك الطير سورها ... إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد

ثم أخذ عبد المطلب بيده عبد الله حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وأم آمنة برة بنت عبد العزي ابن قصي ابن كلاب فحملت آمنة بالنبي صلعم وهلك أبوه عبد الله بالمدينة والرسول حمل في بطن أمه فرثته آمنة بنت وهب أم الرسول صلعم فما يروى

عفا جانب البطحاء من آل هاشم ... وجاور لحدا مدرجا بالغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشم

قي أبيات غيرها قالوا ثم مات وهب بن عبد مناف فرثته ابنة آمنة أم رسول الله صلعم

أني لباكية وهبا فمعولة ... وهب بن عبد مناف سيد الناس
فقد رزئت كريما غير مؤتشب ... ضخم الدسيعة حناسا لحناس
ماضي العزيمة لا يخشى غوائله ... من جوهر من قريش غير أنكاس

في أبيات أخر ثم توفي عبد المطلب ورسول الله صلعم ابن ثمان سنين أو أقل، نسب أهل اليمن لا خلاف أنهم من ولد

قحطان وإنما الخلاف في قحطان وهو قحطان أبو يعرب وولد يعرب يشجب وولد يشجب سبأ واسم سبأ عبد شمس بن يشجب وإنما سمي به لأنه أول من سبا بالعرب وولد سبأ سبعة نفر الأشعر بن سبأ ومنه رهط وأبي موسى الأشعري وحمير بن سبأ وانمار بن سبأ وعاملة بن سبأ ومرة بن سبأ فولد مرة بن سبأ شعبان بن مرة وولد الأشعر بن سبأ والأشعريين وولد عمرو بن سبأ عدي بن عمرو فولد عدي لخما وجذاما وجذام قبائلها وبطونها منهم جديس وغنم وجشم وغطفان ونفاثة ومدالة والدار التي تنسب إليها الداريون وولد انمار بن سبأ ولدا فخالفوا خثعما وبجيلة وقال نساب مضر أن خثعما وبجيلة ابنا انمار ابن نزار فجر انمار بن سبأ نسبهم باسم أبيهم يتمنى به وقد قال جرير بن عبد الله البجلي نافرا لفرافصة الكلبي إلى الأقرع بن حاجس

يا أقرع بن حابس يا أقرع ... إنك إن يصرع أخوك تصرع

وقال أيضا

ابنى نزار ابصر أخاكما ... إن أبي وجدته أباكما

لن يغلب اليوم أخ والاكما

وبجيلة امرأة نسبت القرية إليها ومن بطون بجيلة قسر رهط خالد بن عبد الله القسري وولد عاملة بن سبأ قبائل ويزعم نساب مضر إنهم من ولد قاسط وقال الأعشى

أعامل حتى متى يذهبن ... إلى غير والدك الأكرم

ووالدكم قاسط فارجعوا ... إلى النسب الأبلد الأقلم

وولد حمير بن سبأ ست نفر مالك بن حمير وعامر بن حمير وعوف بن حمير وسعد بن حمير ووائلة بن حمير وعمرو بن حمير فولد مالك بن حمير قضاعة بن مالك وولد قضاعة قبائل منها كلب بن وبرة ومصاد وبنوا القين وتنوخ وجرم بن زياد وراسب وبهراء وبلى ومهرة وعذرة وسعد هذيم وهذيم عبد حبشي نسب إليه والشائعة منه الكلاع وذو النواس وذو اصبح وذو وجدن وذو يزن وبطون كثيرة وفيها يقول الفاكهي

الحسب المعروف غير المنكر ... قضاعة بن ملك بن حمير

وولد كهلان بن سبأ زيد بن كهلان فولد زيد بن كهلان ملك بن زيد وادد بن زيد فولد ادد طى بن ادد والغوث بن ادد ومن طى بنو نبهان الذي يذكره أبو تمام الطائي

تنبهت لبني نبهان حين ثوى ... يد الزمان فعاثت فيهم وفمه

ويقول في افتخاره بهم

لنا جوهر زيدية اددية ... إذا نجمت ذلت لها الانجم الزهر

ومن طي بنمو ثعل الذي يذكره امرؤ القيس

رب رام من بني ثعل ... مخرج كفينه من ستره

ومن طي بنو سنبس الذين يذكرهم الأعشى

فصبحها القانص السنبسي ... فشلى كلابا بإسادها

وولد مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ يحابر بن مالك وقر ابن مالك ومربع بن مالك فولد يحابر مذحج وولد مذحج مرادا وجلدا وعنسا وسعد العشيرة وإنما سمي سعد العشيرة لأنه شهد الموسم ومعه بنون عشرة فقيل له من هولاء فقال هم العشيرة وولد سعد العشيرة جعفى بن سعد وحبيب ابن سعد وصعب بن سعد وعائذ الله بن سعد وفيه يقول مهلهل الشاعر

أنكحها فقدها الأراقم في ... جنب وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبها ... ضرج ما انف خاطب بدم

وفي الجملة اكثر قبائل العرب من اليمن فمنهم السكون وخولان والأزد ومازن بن الأزد وميدعان بن الأزد والهنو بن الأزد ورماد بن سلامان ومنهم آل العنقاء والفراهيد وقسامل وبلادس وثهلان وحرحنة وبطون كثيرة قد كتب دونت في كتب الأنساب حتى ما تسقط قبيلة ولا فخذ ولا رهط ولا بطن ، نسب الأوس والخزرج وهم الأنصار وهم من بلد كهلان بن سبأ الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة ابن ثعلبة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد بن غوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وأمهم قيلة فيقال للأنصار أبناء قيلة فولد الخزرج بن حارثة خمسة نفر جشم بن الخزرج وعوف بن الخزرج وهما الخرطومان يقال إن سرك العز فحجيج في جشم والحارث بن الخزرج وكعب بن الخزرج وعمرو بن الخزرج وكان يقال لهم القواقل وذلك أن الرجل كان إذا استجار بيثرب قيل له قوقل حيث شئت فقد أمنت ومن ولد عمرو بن الخزرج النجار ويقال لهم بنو النجار واسمه تيم اللات ابن ثعلبة ويقال سمي بذلك لأنه نجر وجه رجل بالقدوم ويقال اختتن بالقدوم وولد أوس بن حارثة مالك ابن أوس فمن مالك تفرقت قبائل الأوس كلها وبطونها فمنها عمرو بن عوف أهل قبا ومنهم جحجبي بن كلفه رهط أحيحة بن الجلاح زوج سلمى قبل هاشم ومنهم الجعادرة يقال لهم أوس الله ومنهم اليست وجردس وبنو عبد الأشهل وبنو الحبلى رهط عبد الله بن أبي ابن سلول ومنهم جفنة بن عمرو وآل القعقاع وآل محرق وهم ملوك غسان بالشام واسم محرق بالشام الحارث بن عمرو وإنما سمي محرقا لأنه كان يعاقب بالنار وفيهم يقول حسان

أولاد جفنة عند قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد الرحيق عليهم ... بردا يصفق بالرحيق السلسل
يؤتون منهم ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أخلاقهم ... شم الأنوف من الطراز الأول
إن التي ناولتني فشربتها ... قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

يزعمون أن عند ما أرسل الله عز وجل على أهل سبأ سيل العرم فلما قال عمرو بن عامر في كهانته ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج وقد قال سويد بن صامت

أنا ابن مزيقيا عمرو وجدي ... أبوه عامر ماء السماء

وقال المنذر بن حرام جد حسان بن ثابت بن المنذر في الجاهلية العمياء يذكر نسبهم إلى غسان ثم إلى نابت بن مالك ثم إلى نبت بن اسمعيل بن ابرهيم

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر ... وحارثة الغطريف مجدا موثلا
موارث من أبناء نبت بن مالك ... ونبت بن اسمعيل ما أن تحولا

قالوا وولد واثلة بن حمير الشكاشك بن واثلة والعدد من حمير في واثلة

ذكر قيس بن عيلان بن مضر بن النزار بن معد ومن قيس فهم وعلوان واعصر وغني بن اعصر وسعد بن أعصر وهو أبو باهلة وباهلة امرأة من همدان ومنبه بن اعصر فهم الطعاوه وبنو اصمع رهط الأصمعي ومن بني باهلة قتيبة بن مسلم ومن قيس بنو وائل ومن بني وائل وثقيف وهولاء كلهم من مضر، ذكر ربيعة وأما ربيعة بن نزار بن معد

فأنه ولد أسد بن ربيعة واكلب بن ربيعة وضبيعة بن ربيعة فهولاء قبيلة وبطون كثيرة فمنهم جديلة ودعمى وشن ولكيز ونكرة وهم أهل البحرين ومنهم الغدق وهنب بن افصى والاراقم وفدوكس رهط الأخطل الشاعر وبكر بن وائل وعجل وحنيفة وسدوس وقبائل كثيرة وبطون مشهورة مذكورة في الكتب ومن قبائل مضر بنو الأخيل رهط ليلى الأخيلية والمجنون الشاعر وعامر رهط لبيد بن ربيعة العامري ومنهم القرطاء قرط وقريط ومقرطة ومن يعد قبائلهم إلا النساب وفي مقدار ما ذكرناه كفاية فإن علم الأنساب من صناعة الأعراب والعرب كلها من قحطان وعدنان فأما قحطان فأبو اليمن ومن عددنا في جملتهم وأما عدنان فأبو سائر العرب وهم يرجعون إلى ابني نزار مضر وربيعة وقد ذكرنا بعضهم وثقيف بن مضر وهم فرقتان بنو مالك والأحلاف، ذكر رؤساء مكة جاء في الخبر أن إبراهيم عم لما حمل اسمعيل وأمه إلى مكة جاء جرهم وقطورا من اليمن وهما ابنا عم فرأيا بلد ذا ماء وشجر فنزلا ونكح اسمعيل في جرهم فلما توفى ولي البيت بعده نبت بن اسمعيل وهو أكبر ولده ثم ولي بعده مضاض بن عمرو الجرهمي خال ولد اسمعيل ما شاء الله أن يليه ثم تنافس جرهم وقطورا الملك فخرج جرهم في قعيقعان وهي أعلى مكة وعليهم مضاض بن عمرو وخرجت قطورا في اجياد وهي أسفل مكة وعليهم السميدع فالتقوا بفاضح واقتتلوا قتالا شديدا وقتل السميدع فسميت تلك البقعة فاضحا لأن قطورا فضحت وسمى اجيادا لما كان معهم من جياد الخيل وسميت قعيقعان لتقعقعة السلح ثم تداعوا إلى الصلح واجتمعوا في الشعب وطبخوا القدور واصطلحوا فسمي المطابخ قالوا ونشر الله عز وجل ولد اسمعيل فكثروا وربلوا ثم تنشروا في البلاد لا يطأون أرضا إلا ظهروا على أهلها بدينهم ثم أن جرهما بغوا بمكة واستحلوا حراما من الحرمة فظلموا من دخلها وأكلوا مال الكعبة وكانت مكة تسمى الناسة لا تقر ظلما ولا بغيا ولا يبغي فيها أحد على أحد إلا أخرجته وكانت بنو بكر بن عبد مناة وغبشان ابن خزاعة حلولا حول مكة فأدنوهم بالقتال فاقتتلوا عمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر وليس هو بمضاض الأكبر يقول، لا هم إن جرهما عبادك، الناس طرف وهم تلادك، فغلبتهم خزاعة ونفتهم عن مكة نفية يقول عمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فازالنا ... صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بباب البيت والخير ظاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة ... كذاك على الباقين تجري المقادر
وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة ... كما عضت الأولى السنون الغوابر

في أبيات أخر ووليت خزاعة البيت ثلاث مائة سنة يتوارثون ذلك كابرا عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن حبش الخزاعي وقريش اذذاك صريح ولد اسمعيل حلول وصرم وبيوتات متفرقة إلى أن أدرك قصي وتزوج بحبى بنت حليل بن حبش وولدت له عبد مناف وعبد العزي وعبدا وكثر ولده وعظم شرفه وهلك حليل بن حبش فرأى قصي أنه أولى بالكعبة من خزاعة فأخذ ما بأيديهم وقصي أول من أصاب ملكا من العرب من قريش بعد ولد اسمعيل وذلك في زمن المنذر بن النعمان على الحيرة والملك بهرام جور في الفرس فقطع قصي مكة أرباعا وبنى بها دار الندوة فلا يتزوج امرأة إلا في دار الندوة ولا يعقد لواء ولا يعذر غلام ولا تدرع جارية إلا فيها وسميت الندوة لأنهم يتندون فيها للخير والشر وكانت قريش تؤدي الرفادة إلى قصي وهي خرج يخرجونه من أموالهم يترافدون فيه فصنع طعاما وشرابا للحاج أيام الموسم وكانت صوفة وهي قبيلة من جرهم بقيت بمكة تلي الاجازة بالناس من عرفة وخزاعة كانت تحجب البيت فإذا أفاض الناس أخذت صوفة بجانبي العقبة وقالت اجيزي صوفة فإذا نفدت صوفة وجازت

خلوا سبيل سائر الناس حتى إذا كان العام الذي أراد الله عز وجل أن يظهر أمر قصي ففعلت صوفة كما يفعله فأتاهم قصي في من معه من قريش وقاتلوا صوفة فهزمهم وولي قصي البيت والرفادة والسقاية والندوة واللواء فلما كبر قصي ودق عظمه جعل الأمر إلى عبد الدار لأنه أكبر ولده وهلك قصي وأقامت على ذلك زمانا ثم إن بنى عبد مناف أجمعوا أن يأخذوا ما بأيدي عبد الدار وهموا بالقتال ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنو عبد مناف السقاية والرفادة وأن يكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار وتعاقدوا ذلك حلفا حلفا مؤكدا لا ينقضونه ما بل بحر صوفة فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملؤة طيبا وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين فأخرجت بنو عبد الدار جفنة من دم وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة فسموا الأحلاف ولم يزالوا على ذلك حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فقال النبي صلعم ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة فأول من أصاب قريش ملكا قصي بن كلاب ثم ابنه عبد الدار وبنوه إلى أن قاسمهم بنو عبد مناف ثم هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو وإنما سمي هاشما لهشمه الثريد اللحاج وذلك أنه قال يا معشر قريش أنتم جيران الله وأهل بيته يأتيكم في الموسم زوار الله شعثا غبرا من كل فج وعميق على ضوامر كأنهم القداح قد ارصفوا ونهكوا وثقلوا وارملوا فاكرموا ضيف الله فترافدت قريش مالا عظيما كل سنة حتى كان يخرج أهل اليسار منهم مائة دينار هرقلية فكان يأمر بالحياض فبضرب ويترع من البئار ويطعم الناس اللحم والسويق والتمر إلى أن صدروا وفيه يقول الشاعر

يا أيها الرجل المحول رحله ... هلا سالت عن آل عبد مناف

كانت قريشا بيضة فتفلقت ... فالمح خالصها لعبد مناف

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنتون عجاف

نسبت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

فهلك هاشم بأرض غزة فصار الأمر إلى عبد المطلب بن هاشم صاحب زمزم وساقي الحجيج ومطعم الوحش ثم هلك وولي الأمر أبو طالب ثم وليه العباس ثم أقر رسول الله صلعم المفتاح في يدي عثمان بن طلحة والسقاية في يدي العباس فهو في ولدهم إلى اليوم

ذكر رؤساء المدينة ووقوع قريظة والنضير إليها في الخبر أن ططوس بن استيانوس الرومي الكافر لما خرب بيت المقدس إحدى المرتين وتفرقت بنو إسرائيل جاءت قريظة والنضير وهما من صريح ولد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران حتى نزلوا يثرب في الفترة وكان نزول الأوس والخزرج إياها زمن سيل العرم لا شك ويقال أن مسقط يهود إليها من عهد موسى بن عمران عم وذلك أنه بعث جيشا إلى يثرب وأمرهم أن يقتلوا كل من وجدوا على قامة السوط قال فقتلوا إلا غلاما لم يروا أحسن منه فإنهم استبقوه وانصرفوا إلى الشام وإذا موسى قد هلك وتبرأت بنو إسرائيل من هذه الطبقة لمخالفة أمر موسى واستحيائهم من هذا الغلام فاقبلوا راجعين إليها واستوطنوا بها فإن كان هذا حقا فقد سبقوا الأوس والخزرج إلى يثرب والله أعلم قالوا وكان الملك في اليهود وملكهم قيطون وكان يبدأ بالعروس قبل زوجها حتى قتله مالك بن عجلان بن زيد بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج كما ذكرنا في قصة ملوك اليمن وملك مالك فصارت الرياسة له والشرف ثم جعلت الأوس والخزرج يتوارثون الرياسة إلى أن هاجر إليهم النبي صلعم فصارت الرياسة للإسلام وأهله والسلم،

الفصل الخامس عشر

في ذكر مولد النبي

صلى الله عليه وسلم ومنشأه ومبعثه إلى هجرته

هذا نسب رسول الله صلعم في رواية محمد بن اسحق المطلبي وقد بينا اختلاف الناس في نسبه عدنان وما فوقه في فصل الأنساب، محمد صلعم بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن ادد ابن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن اسمعيل بن ابراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروح بن رعو بن شالخ بن عابر بن فالج بن ارفخشد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلح بن اخنوخ بن يارد بن مهلايل بن قينان بن شيث بن آدم عم

ذكر مولد النبي صلعم ولد بمكة عام الفيل بعد قدوم ابرهة بخمسين ليلة وكان أول يوم من المحرم عام الفيل يوم الجمعة وقدم الفيل يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثماني مائة واثنين وثمانين للاسكندر الرومي وستة عشر ومائتين من تأريخ العرب الذي أوله حجة الغدر وسنة أربع وأربعين من ملك انوشروان بن قباذ ملك العجم فيما يروى وكان مولده صلعم يوم الاثنين لثماني ليال خلون من ربيع الأول وقال ابن اسحق لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول قالوا وكان طالع النبي صلعم برج الأسد والقمر فيه بثماني عشرة درجة ودقائق والشمس في الثور بدرجة وهو يوم السابع عشر من دى ماه ويوم العشرين في الأرض التي تعرف بابن يوسف بمكة فصيرتها الخيزران بنت عطاء امرأة المهدي مسجدا ويدل خبر عبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس رضه أن رسول الله صلعم وضع ليلا لأنه قال كان أهل الجاهلية إذا ولد لهم مولود من تحت الليل رموه تحت الإناء فلا ينظرون إليه حتى يصبحوا فلما ولد رسول الله صلعم رموه تحت البرمة فلما أصبحوا إذا هي قد انفلقت بيتين وعيناه إلى السماء فعجبوا من ذلك وأرسلوا إلى عبد المطلب فجاء فنظر إليه فقال ارفعوا ابني هذا فإنه منا ودفع إلى امرأة من بني سعد بن بكر فلما ارضعته دخل عليها الخير من كل جانب وكانت لها شويهات فنمت وازدادت زيادة حسنة هذا الصحيح من خبر حليمة قال ابن اسحق والتمس الرضعاء لرسول الله صلعم فاسترضع في بني سعد بن بكر بثدي حليمة بنت أبي ذؤيب وزوجها الحارث بن عبد العزي واخوة رسول الله صلعم من الرضاعة عبد الله بن الحارث وانيسة بنت الحارث والشيماء بنت الحارث فكان عند ظئره سنتين إلى أن فطمته وردته إلى أمه ثم عادت إلى بلادها فلما تمت له خمس سنين حملته إلى أمه فكان عند أمه سنة حملته إلى بني عدي بن النجار تريد اياهم للخؤولة التي كانت لهم فكان مصيرها به إلى منصرفها شهر وتوفيت آمنة بنت وهب أم رسول الله صلعم بالأبواء منزل بين مكة والمدينة وهي راجعة إلى مكة ورسول الله صلعم ابن ست سنين فحملته أم أيمن وهي حاضنته ومولاة أبيه إلى مكة فكان في حجر عبد المطلب فلما بلغ ثماني سنين توفي عبد المطلب وهلك انوشروان في هذه السنة كما يدل عليه التأريخ ثم ضمه أبو طالب إلى نفسه وأقام عنده أربع سنين فلما بلغ اثنتي عشرة سنة عرض لأبي طالب الخروج إلى الشام في تجارة فخرج بالنبي صلعم صبابة به ورقة قالوا حتى إذا كانوا ببصرى أشرف عليهم راهب يقال له بحيرا فرأى علامة من علامات النبوة فاتخذ طعاما ودعا الركب إليه فحضروه وخلفوا النبي في رحالهم لحداثة سنه فقال بحيرا لا يتخلفن أحد عن طعامي فدعوه فلما أبصره بحيرا توسم فيه مخائل النبوة وعرف دلائلها فاحتضنه وضمه إلى نفسه وقال لأبي طالب من هذا الغلام منك قال هو ابني قال ما ينبغي له أن يعيش أبوه قال ابن أخي قال ارجع بابن

أخيك واحذر عليه من اليهود فانه كائن لابن أخيك شأن عظيم فقضي أبو طالب تجارته وأسرع به إلى مكة وفيه يقول

ألم يكون لقريش آية عجب ... فيما يقول بحيرة وعداس

قالوا فشب رسول الله صلعم شبابا حسنا يكلؤه الله عز وجل ويحوطه من اقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته حتى كان اسمه في قومه الصدوق الأمين فلما بلغ عشرين سنة هاجت حرب الفجار في رواية ابن اسحق والواقدي وروى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال هاجت الفجار ورسول الله عليه الصلوات والسلم ابن أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة وقال النبي صلعم كنت أنبل إلى أعمامي في الفجار قالوا وإنما سميت هذه الحرب الفجار وكانت وقعات لما صنعوا فيها من الفجور في الشهر الحرام وذلك أن النعمان بن المنذر عامل ابرويز على الحيرة كان يبعث كل سنة بلطيمة إلى سوق عكاظ في جور رجل من العرب فلما كان في هذه السنة قال من يجير هذه العير قال عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب الرحال أنا أيها الملك وقال البراض بن قيس وكان خليعا والخليع من خلع حلفاءه فمن قتله فدمه هدر أنا أيها الملك فقال أتجيرها على أهل الشيح والقيصوم وأنت كالكلب الخليع إنما أنت أضيق إستا من ذلك فقال البراض أتجيرها على كنانة قال نعم وعلى الخلق جميعا فسلم النعمان اللطيمة إلى عروة وتبعه البراض حتى إذا كان بتيمن ذى طلال أصاب فرصة من عروة فوثب عليه فقتله في الشهر الحرام وقال في ذلك

وداهية يهم الناس قتلي ... شددت لها بني بكر ضلوعي

هدمت بها بيوت بني كلاب ... وأرضعت الموالى بالضروع

قتلت به بتيمن ذى طلال ... فخر يميد كالجدع الصريع

وتسامع الناس به فخرج كنانة وقريش بطلب ثأر عروة وخرجت قيس بن عيلان لأجل البراض واقتتلوا قتالا شديدا بعكاظ في الشهر الحرام ثم تحاجزوا وتداغشوا إلى الصلح ورهن حرب بن أمية ابنه أبا سفيان بن حرب في ذلك الصلح وفيه يقول الشاعر

قد بعثنا الحجار من كل حي ... وقمعنا الفجار يوم الفجار

قالوا أن رجلا تاجر قدم مكة وباع سلعته من العاص ابن وائل السهمي فمطلة حتى أجهده فصعد الرجل جبل أبي قبيس ونادى

يا للرجال لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الأهل والنفر

إن الحرام لمن تمت حرامته ... ولا حرام لمثوى لابس الغدر

فاجتمعت قريش في دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يكونوا يدا واحدا على المظلوم حتى يأخذوا له حقه فسمته قريش حلف الفضول وقد قال رسول الله صلعم لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعي به في الإسلام لاجبت وما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، خروج النبي صلعم إلى الشام في مال خديجة رضها قالوا وكانت خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزي بن قصي من مياسير قريش وتجارها تستأجر الرجال وتبعثهم في مالها وذكر الواقدي أن أبا طالب قال يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد الحت علينا سنون منكرة فلو جئت خديجة وعرضت عليها نفسك لأسرعت إليك بما يبلغها من صدقك وعظم أمانتك فقال رسول الله صلعم فلعلها ترسل إلي في ذلك وبلغ خديجة خبر أبي طالب وما فاوض ابن أخيه فارسلت وسألته أن يخرج معه ميسرة غلام لها فخرج وباع سلعتها واشترى ما أراد أن يشتري وأقبل قافلا إلى مكة فباعت الحمولات فأضعفت وأثمرت فرغبت في نكاح رسول الله صلعم

نكاح خديجة رضها قالوا ولما ظهر لها من بركة رسول الله صلعم وعظم أمانته وصدق وفائه رغبت في نكاحه قال الواقدي فأرسلت نفيسة مولاة لها دسيسا فقالت يا محمد ما يمنعك أن تتزوج قال ما بيدي شئ ما أتزوج فقالت نفيسة فإن كفيت ذلك ألا تجيب قال ومن هي قالت خديجة فذكر رسول الله صلعم لأعمامه ذلك فخرج معه حمزة بن عبد المطلب فخطبها إلى أبيها خويلد بن أسد ومعه ثمل فلما أصبح وصحا قال ما هذا الخلوق وهذه الحلة قالوا كساكها محمد ابن عبد الله فقد أنكحته خديجة ودخل بها فانتهرهم قال وأصدقها عشرين بكرة وروى الواقدي أنه أنكحها عمها عمرو بن أسد وكان رسول الله صلعم خمسة وعشرين سنة يوم تزوجها وخديجة بنت أربعين سنة ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت وكانت قبله تحت عتيق بن عبد الله ويقال ابن عابد وولدت له جارية ثم خلف عليها بعد عتيق أبو هالة هند بن زرارة فولدت له هند بن هند وولدت لرسول الله صلعم جميع ولده إلا ابرهيم بن مارية فإنه من القبطية فأكبر ولده القاسم وبه كان يكنى أبا القاسم ثم الطيب ثم الطاهر ثم رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة قال الواقدي ولم أر أصحابنا يثبتون الطيب ويقولون هو الطاهر وفي رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أنها ولدت لرسول الله صلعم عبد مناف في الجاهلية وولدت له في الإسلام غلامين وأربع بنات القاسم وعبد الله فماتا صغيرين وفي كتاب ابن اسحق أن إبنيه هلكا في الجاهلية وأن بناته أدركن الإسلام وهاجرن والله أعلم، ذكر بنيان الكعبة قالوا ولما بلغ رسول الله صلعم خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ليرفعوها ويقفوها وإنما كانت رضما فوق القامة فجاء سيل فهدمه وفي جوفها بئر يحرز فيه كنز الكعبة وما يهدى لها فسرق منها رجل يقال له دويك فقطعت قريش يده وتهيأوا لبناء الكعبة وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة فتحطت فأخذوا خشبها وكان بمكة رجل قبطي نجار فسوى لهم ذلك وبنوها ثماني عشرة ذرعا فلما انتهوا إلى موضع الركن اختصموا وأراد كل قوم أن يكونوا هم الذين يلونه ويرفعونه إلى موضعه وتفاقم الأمر بينهم وتوعدوا للقتال ثم تحاجزوا وتناصفوا على أن يجعلوا بينهم أول طالع من باب المسجد يقضي بينهم فكان ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلم فقال هلم ثوبا فأتى به فوضع الركن فيه ثم قال ليأخذ كل فئة بناحية من الثوب ثم ليرفعوه ففعلوا حتى إذا رفعوه إلى موضعه أخذ الحجر بيده فوضعه في الركن فرضوا بذلك وأنهوا عن الشر

ذكر المبعث ونزول الوحي قالوا فلما بلغ رسول الله صلعم أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين وهدى للخلق أجمعين وكان في مبتدأ الأمر يرى الرؤيا ويسمع الصوت ويتمثل له الخيال فراع لذلك وذعر وروينا عن عكرمة أنه قال أنزلت النبوة على محمد صلعم وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته اسرافيل ثلاث سنين فكان يترأى له ويلقى الكلمة إليه ولم ينزل القرآن على لسانه ثم قرن بنبوته جبريل عم فنزل القرآن عشرين سنة عشرا بمكة وعشرا بالمدينة وروى ابن اسحق عن الزهري عن عائشة أن أول ما ابتدى رسول الله صلعم من النبوة الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ثم حببت إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه أن يخلو وحده ثم جاءه الملك قالوا وكان قريش يتحنثون بحراء في رمضان وكان رسول الله صلعم يفعل ذلك لأنه من البر فبينما هو عاكف بحراء ومعه التمر واللبن يطعم الناس ويسقيهم إذ استعلق له جبرائيل ليلة السبت وليلة الأحد ثم أتاه بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان بقول الله تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وهو الخامس والعشرون من ابان ماه والتاسع من شباط وذلك في سنة عشرين من ملك ابرويز وأهل الأخبار على أن أول ما أنزل القرآن خمس آيات من سورة أقرأ باسم ربك الذي خلق إلى قوله علم الإنسان ما لم يعلم وذكر بعضهم أنه صلعم قال أتاني رجل وفي يده سمط ديباج وأنا نائم فركضني برجله وقال اقرأ ففعل ذلك مرة أو مرتين ثم قال باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ثم قال ابشر فأنا جبريل وأنت نبي هذه

الأمة وصلى به ركعتين وفي رواية عبيد بن عمير الليثي أنه أتاه وهو نائم ولم يذكر أنه ركضه برجله قال فأتيت وقد هالني من رأيت وكأنما كتاب كتب في قلبي وقلت أخشى أن أكون شاعرا أو مجنونا قالت وما ذاك ابن أخي فقصصت عليها القصة فقالت ابشر فانك تطعم الطعام وتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة لا يصنع الله بك إلا خيرا ثم جمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي ابن قصي وكان نصرانيا قد قرأ الكتب فقصت عليه الخبر فلما ذكرت جبريل قال قدوس قدوس مالك تذكرين الروح الأمين بهذا الوادي الذي أهله عبدة الأوثان لئن كنت صدقتني لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران فقولي له فليتثبت وإذا جاءه فتحسري بين يديه فإن كان شيطانا ثبت وإن كان ملكا لا تراه حينئذ فرجعت خديجة إلى رسول الله صلعم وقالت إذا أتاك صاحبك فناد بي فبينما هو عندها إذ جاءه جبريل عم فقال النبي عم هاهو يأخذ بي فقالت فقم واقعد على فخذى وحسرت عن رأسها وقالت تراه قال لا قالت ابشر فإنه والله ملك وما هو شيطان ولو كان شيطانا ما استحيى فآمنت به وصدقته وكثير من الناس يقولون أن أول الناس إيمانا بالنبي صلعم خديجة وروينا عن أبي رافع انه قال صلى رسول الله صلعم غداة يوم الاثنين وصلت خديجة في آخر ذلك اليوم قالوا ونزلت في هذه القصة ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون قال ورقة قال ورقة بن نوفل فيما روى ابن اسحق عنه

لججت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري ياخديجا
بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمدا سيسود يوما ... ويخصم من يكون له حجيجا
فيا ليتى إذا ما كان ذاكم ... شهدت فكنت أولهم ولوجا
ولوجا في الذي كرهت قريش ... ولو عجت بمكتها عجيجا
فإن تبقوا وأبق يكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفة خروجا

قال الزهري فهلك ورقة بن نوفل قبل الوحي وقبل إظهار النبي صلعم الدعوة والله أعلم بصدقه

انقضاض الكواكب رأيت في بعض كتب التأريخ أنه كان بين مبعث رسول الله صلعم وإلى أن رأت قريش النجوم يرمي بها في السماء عشرون يوما وقال الله عز وجل إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يستمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب ألا من خطف الخطفة فاتبعته شهاب ثاقب فدل بقوله حفظا من كل شيطان مارد أنها لم تزل محفوظة مذ خلقت الكواكب لها زينة وقد سئل الزهري عن انقضاض الكواكب في الجاهلية فقال قد كان ذلك فلما بعث رسول الله صلعم شدد وغلظ ألا ترى إلى قول الشاعر

فأنقض كالكوكب الدري يتبعه ... نقع يخال على أرجائه الطنبا

وقد روى أخبار هذا الباب والذي يشبه الحق أنه قد كان قبل ذلك انقضاض الكواكب وأنه قرن به عند الوحي ضرب من العذاب يقضى به الخاطف المستمع والله أعلم، ذكر فترة الوحي قالوا ثم فتر الوحي عن رسول الله صلعم حتى شق عليه مشقة شديدة وفي رواية ابن عباس رضه أنه كان يعدو مرة إلى ثبير ومرة إلى حراء يريد أن يلقى نفسه منها فبينا هو كذلك إذ سمع صوتا فرفع صوته فإذا هو بالملك الذي جاءه بحراء بين السماء والأرض قال فخشيت

رعبا ورجعت إلى أهلي فقلت زملوني فألقوا علي قطيفة سوداء وصبوا علي ماء بارد فنزل يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر، ذكر اختلافهم أول من أسلم قيل خديجة رضها صلى رسول الله صلعم غداة يوم الاثنين وصلت خديجة آخر اليوم وقيل علي بن أبي طالب صلى رسول الله صلعم يوم الاثنين وصلى يوم الثلثاء وقيل زيد بن حارثة وقيل أبو بكر الصديق رضه وأما ابن اسحق فإنه يقول أول من ذكر من الناس آمن بمحمد صلعم علي بن أبي طالب عم ثم زيد بن حارثة ثم أبو بكر الصديق وأسلم بدعائه عثمان بن عفان ثم سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله فهولاء النفر الثمانية الذين سبقوا بالإسلام وروى الواقدي أن سعد بن أبي وقاص قال لقد أتى على يوم واني لثالث الإسلام وعن عمرو بن عنبسة كنت ثالثا أو رابعا في الإسلام وعن خالد بن سعيد بن العاص كنت خامسا في الإسلام وممن سبق إسلامه أبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام وعثمان بن مظعون وقدامة بن مظعون وعبيدة بن الحارث وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد بن جحش وأبو سلمة بن عبد الأسد وواقد بن عبد الله وخنيس بن حذافة ونعيم بن عبد الله النحام وخباب بن الارت وعامر بن فهيرة رضهم أجمعين ومن النساء أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر ابن أبي طالب وفاطمة بنت الخطاب امرأة سعيد بن زيد بن عمرو وأسما بنت أبي بكر وعائشة وهي صغيرة فكان إسلام هولاء في ثلاث سنين ورسول الله صلعم يدعو في خفية قبل أن يدخل دار أرقم بن أبي الأرقم ثم أسلم صهيب بن سنان وعمار ابن ياسر وكان إسلامهما بعد إسلام بضعة وثلاثين رجلا ثم فشا بمكة وتحدث به وأمر الله عز وجل رسوله بإظهار الدعوة فقال فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين وذلك في السنة الرابعة من النبوة

ذكر إظهار الدعوة إلى الإسلام قالوا فجهر رسول الله صلعم بدينه ودعا الخلق إليه و أبدى الصفحة لهم فلم يبعد عليه قومه ولا عابوا عليه رأيه لما عرفوه من صدق الحديث وحسن الجوار وتحرى الخير والتواضع للخلق وكمال العقل والشرف وعلو البيت وطهارة النسب حتى سب آلهتهم و سفه أحلامهم وضلل أراءهم ونقض دينهم فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وقد حدب عليه عمه أبو طالب وقام يناضل دونه ويحامي عليه فتضاغن القوم وتوامروا ومشوا إلى أبي طالب منهم أشراف قريش عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف و أخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة و أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس و أبو جهل بن هشام بن المغيرة المخزومي وكنيته أبو الحكم و أبو البختري بن هشام و الوليد بن المغيرة بن عبد الله المخزومي والعاص بن وائل السهمي فقالوا يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا وإن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل أباءنا فإما أن تكفه وإما أن ننازله وإياك فقال له أبو طالب اتق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فظن رسول الله صلعم أن أبا طالب قد تركه وأنه قد ضعف عن نصرته وهو خاذله فاستعبر ثم قال يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله وأهلك دونه ما تركته فقال أبو طالب لا تخذله فمشوا إليه بعمارة بن الوليد فقالوا هذا أنهد فتى قريش وأجمله فخذه واتخذه ولدا وسلم إلينا ابن أخيك هذا الصابئ الذي خالف ديننا وفرق جماعتنا نقتله فقال أبو طالب تعطوني ابنكم أغذوه لكم و أعطيكم ابني تقتلونه هذا مما لا يكون فتنابذ القوم وتنادوا بعضهم بعضا وأقبلوا على من في القبائل من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ومنع الله عز وجل رسوله بعمه أبي طالب أن تخلصوا في شعره وبشره غير أنهم يرمونه بالسحر والشعر والكهانة والجنون والقرآن ينزل عليهم بتكذيبهم والرد عليهم ورسول الله صلعم قائم بالحق ما يثنيه ذلك عن الدعاء إلى الله عز وجل سرا وجهرا حتى لحق أبو طالب بالله عز وجل فتخطوا إليه بالمكروه ونالوا منه ما كانوا يجمحون عنه من جنانه قالوا ولما أسلم حمزة بن عبد المطلب عز به النبي صلعم و أهل الإسلام فشق ذلك على المشركين فعدلوا عن المنابذة إلى

المعاتبة وأقبلوا عليه يرغبونه في المال والأنعام ويعرضون عليه الأزواج فنزل قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة في القربى فلما أعياهم أمره ويئسوا أن يستنزلوه عن دينه بشئ من حطام الدنيا أخذوا في طلب الآيات والتماس المعجزات كما حكى الله عز وجل عنهم في القرآن وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا الآيات وتواصوا على من أسلم يعذبونهم جهارا ويقاتلونهم سرا فأمر رسول الله صلعم بالهجرة إلى الحبشة فرارا بدينهم وهي الهجرة الأولى سنة خمس من البعث، ذكر الهجرة الأولى إلى الحبشة قالوا فخرج أحد عشر رجلا وأربع نسوة و أميرهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلعم وخرجت قريش في أثرهم فلم يلحقوهم ومروا القوم إلى الحبشة فآمنوا واطمأنوا قالوا وتلا رسول الله صلعم سورة النجم فالقى الشيطان في أمنيته تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فسجد المشركين وسروا بذلك وقالوا ما إن لابن أبي كبشة يذكر آلهتنا بخير وبلغ الخبر عثمان بن عفان ومن معه بأن قريشا قد أسلموا فأقبلوا راجعين فلما دنوا من مكة أخبروا أن ذلك باطلا فلم يدخل منهم مكة أحد إلا مستخفيا أو بجواز فاشتد الأمر وأطبق البلاء بالمسلمين فأمرهم النبي صلعم بالخروج ثانيا إلى الحبشة، ذكر الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة قالوا فخرجوا وأميرهم جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلا فقال عبد الله بن الحارث بن قيس يذكر لهم ما فيه من الأمن والدعة

يا راكبا بلغن عني مغلغة ... من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرئ من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة ولا ... خزي الممات وعيب غير مأمون

وخرج أبو بكر الصديق رضه حتى بلغ برك الغماد فلقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال إلى أين يا أبا بكر قال أخرجني قومي فأسيح في الأرض وأعبد ربي فقال ابن الدغنة مثلك لا يخرج تكسب المعدوم وتصل الرحم و تقري الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق فرجع أبو بكر في جواره فقال ابن الدغنة يا معشر قريش إني أجرت أبا بكر قالوا فمره يعبد ربه في بيته ولا يفسد علينا صبياننا قالوا وبعثت قريش بعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة مع هدايا إلى النجاشي ملك الحبشة على أن يسلم المسلمين إليهما فقدما وأوصلا الهدية قال إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان من عندنا سفهاء فارقوا دينهم ولم يدخلوا في دينكم فبعثنا اشرافنا إليكم لتردهم إليهم فقال النجاشي حتى أسئلهم عما يقولون ثم استدعى أصحاب رسول الله صلعم فجآؤه وقد جمع أساقفته وبطارقته وفرشوا مصاجعهم فقال لهم ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم فقال جعفر ابن أبي طالب رضه إنا كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام و نأكل الميتة ونهريق الدماء ونأتي الفاحش حتى بعث الله عز وجل إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده و نعبده و نخلع الحجارة والأوثان و أمرنا بصدق الحديث وصلة الرحم و حسن الجوار ونهانا عن الفواحش و المحارم فعدوا علينا ليردونا إلى عبادة الأصنام و الأوثان فهربنا إلى بلادك واخترناك على من سواك فقال لهم انطلقوا فو الله لا أرسلكم إليهم أبدا فخرجا من عنده مقبوحين فقال عمرو لأتينه بما يستأصل به خضرآؤهم ثم غدا إليهم من الغد فقال أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولا عظيما فأرسل فاسألهمم ما يقولون في عيسى فقال جعفر بن أبي طالب رضه نقول فيه ما جاء به نبينا أنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم فضرب النجاشي يده إلى الأرض وتناول منها عودا وقال ما عدا عيسى ما قلتم هذا العود ثم قرأ عليه جعفر بن أبي طالب صدر سورة كهيعص فآمن بالنبي صلعم ورد هدية عمرو وعبد الله و صرفهما إلى مكة ثم لما هاجر رسول الله صلعم إلى المدينة وكان المسلمون يخرجون إليه وكان آخرهم جعفر أدرك النبي صلعم

وهو بخيبر قالوا ولما خرج رجع عمرو وعبد الله وجدوا أن عمر بن الخطاب رضه قد أسلم وكان رجلا ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره فامتنع رسول الله صلعم به وبحمزة بن عبد المطلب حتى عادوا قريشا و كاثروهم ثم وقع الحصار في السنة السادسة من النبوة وبقي ثلاث سنين، ذكر الحصار قالوا واجتمعت قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب وتعاقدوا على أن لا يبايعوهم ولا يخالطوهم و لا ينكحوا منهم و لا ينكحوهم حتى يتبرؤا من صاحبهم و يسلمونه للقتل و كتبوا صحيفة كاتبها منصور بن عكرمة بن عامر و علقوها في الكعبة فانحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب فدخلوا الشعب وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزي بن عبد المطلب وحده وضاق الأمر عليهم لا يصل إليهم شئ من الطعام إلا سرا وبقوا فيه ثلاث سنين فلما كان في السنة التاسعة من النبوة قال النبي صلعم لأبي طالب هل شعرت بأن ربي قد سلط الأرضة على الصحيفة فلم تدع لله اسما إلا اثبتته ونفت القطيعة والظلم فقام أبو طالب حتى أتى المسجد فقال يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا فهلموا صحيفتكم فإن كان كما قال فانتهوا عن ظلمنا وقطيعتنا فإن كان كاذبا دفعته إليكم قالوا رضينا فنظروا فإذا هو كما قال صلعم فزادهم ذلك شرا ثم اجتمع نفر من قريش وقالوا يا قومنا تأكلون الطعام وتشربون الشراب وتلبسون الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبايعون ولا يناكحون والله لا نقعد حتى نشق هذه الصحيفة الظالمة لقاطعة فقام إليها مطعم بن عدي فشقها فقال أبو طالب

الاهل أتى بحرينا صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود
ألم يأتهم أن الصحيفة مزقت ... وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
جزى الله رهطا بالحجون تبايعوا ... على ملأ يهدى لحزم ويرشد
قضوا ما قضوا من ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رقد
فخرجوا من الشعب

ذكر خروجهم من الشعب قال الواقدي مات أبو طالب وخديجة في السنة العاشرة من النبوة بعد خروج بني هاشم من الشعب بيسير وكان بين موت خديجة إلى أن مات أبو طالب شهر وخمسة أيام وقيل كان بينهما ثلاثة أيام فتشابعت على رسول الله صلعم المصائب واستكلبت عليه شوكة المشركين وبالغوا في الأذى وكان أشده عليه عمه أبو لهب عليه اللعنة وأبو جهل وعقبة وأبي بن خلف فمنهم من يقدر ببابه ومنهم من يطرح الأذى في برمته إذا نصبت ومنهم من يطرح رحم الشاة إذا سجد على ظهره ومنهم من يطأ برجليه على عنقه ومنهم من يذر التراب على رأسه ومنهم من يزق في وجهه وجعلوا يستهزؤن به ويتضاحكون منه ورسول الله صابر محتسب على الأذى ثم خرج رسول الله صلعم إلى الطائف يستنصره، خروج النبي صلعم إلى الطائف قالوا وخرج مع زيد بن حارثة على حمار من هذه الدناية يلتمس النصر والمنعة وأقام بها عشرة أيام فلم يدع أحد من أشراف ثقيف إلا جاءه وكلمه وكانت رؤساء ثقيف ثلاثة أخوة عبد ياليل بن عمرو وحبيب بن عمرو ومسعود بن عمرو فجاءهم رسول الله صلعم وسألهم أن يمنعوه حتى يبلغ من الله عز وجل أمره فقال أحدهم انا امرط ثياب الكعبة إن الله أرسلك نبيا وقال الآخر أما وجد الله أحدا يرسله غيرك وقال الثالث لا أكلمك أبدا فقام رسول الله صلعم وقد يئس من نصرتهم فقال أكتموا على وكره أن يبلغ ذلك قومه فيذأرهم عليه فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم وعبيدهم فجعلوا يسبونه ويغطغطون وراءه ويرمونه بالحجارة حتى التجأ إلى ظل حبلة في جنب حائط فجلس فيه ودعا دعوات فسأل ربه النصر والصبر وانصرف وكان مقامه بالطائف عشرة أيام فلما بلغ في منصرفه بطن نخل استمع إليه نفر من الجن، قصة الجن الأولى قالوا وقام رسول الله صلعم من خوف الليل يصلي فمر به سبعة نفر من

جن نصيبين يقال أسماءهم حسا ومسا وشارصه وناحر ولاورد وسار وسان والأحقب فآمنوا به ورجعوا إلى قومهم منذرين كما قال الله عز وجل وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن الآيات وسار رسول الله صلعم من نخلة يريد مكة حتى أتى حراء وبعث إلى سهيل بن عمرو والأخنس بن شريق أدخل في جواركما فأبيا عليه وأرسل إلى مطعم بن عدي فأجاره وأمر بنيه فلبسوا السلاح ووقفوا عند خروجه إلى البيت فدخل رسول الله صلعم مكة وكان غيبته من خروجه إلى مرجعه خمسة وعشرين يوما ويقال شهرا وفيه يقول حسان بن ثابت

فلو كان مجد يخلد اليوم واحدا ... من الناس أبقى مجده اليوم مطعما

أجرت رسول الله فيهم فأصبحوا ... عبيدك ما لبي ملب وأحرما

قصة الجن الثانية قالوا ولما انصرف النفر من نصيبين إلى قومهم وأنذروهم جاءت جماعة منهم زهاء ثلثمائة رجل وخرج رسول الله صلعم إلى الحجون فقرأ عليهم ودعاهم إلى الله عز وجل فآمنوا به وصدقوه ثم صلى بهم وقرأ في الصلاة تبارك الملك وسورة الجن وهي فسمي ليلة الجن ثم هاجت الأزمة وهي الجوع فدعا النبي صلعم عليهم حتى أكلوا العلهز والقد والعظام المحرقة والكلاب الميتة وحتى كان الرجل يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان فجاءه أبو سفيان بن حرب وقال يا محمد جئت بصلة الرحم وقومك قد هلكوا فادع الله لهم فلما دخلت سنة احدى عشرة سنة من النبوة دعا رسول الله صلعم فكشف عنهم بقول الله عز وجل إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ثم كان انشقاق القمر بقول الله عز وجل اقتربت الساعة وانشق القمر ثم غلبت الروم بقول الله عز وجل آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين

قصة الروم وذلك أن ابرويز لما انهزم من بين يدي بهرام جوبينة مضى إلى الروم واستنجد بملكهم موريقيس فأمده بالرجال و المال و زوجه ابنته مريم وانصرف وقاتل بهرام فنفاه إلى أقصى خراسان ووثبت الروم على ملكهم فقتلوه فسرح إليهم ابرويز شهرابراز الفارسي وجندا من الفرس فدخلوا قسطنطينة واحتووا على خزانتها وأموالها وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية وحملوا الخشبة التي يزعم النصارى أن المسيح عم صلب عليها وذلك في سنة احدى عشرة من النبوة قبل الهجرة بسنتين وأخبر الله عز و جل نبيه صلى الله عليه آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون وسر المشركين به وجادلوا المسلمين وقالوا تزعمون أنكم تغلبوننا لأنكم أهل كتاب وهذه المجوس قد ظهرت على الروم وهم أهل كتاب فنزل وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين فأنكروا ذلك و جحدوه فناجب أبو بكر أبي بن خلف على ذود من الإبل ليظهرن الروم على فارس إلى خمس سنين فقال النبي صلعم زده في الخطر ومده في الأجل فجعل الخطر ذودين والأجل سبع سنين فلما كان يوم الحديبية انكشف شهرابراز عن الروم حتى سار هرقل إلى العراق فأغار عليه وصدق وعد الله ثم كان بعد غلبة الروم المسرى، ذكر المسرى والمعراج أعلم أنه لا شيء أكثر من اختلاف هذه القصة أما المعراج فينكره بعض الناس وبعض يزعم أن المعراج هو المسرى ثم اختلفوا في كيفية المسرى فكانت عائشة ومغوية يقولان ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه ولكن الله أسرى بروحه وكان الحسن رضه يقول كانت رؤيا ويحتج بقوله وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس وبقول ابراهيم إني أرى في المنام أني أذبحك ثم مضى على ذلك فعرفت أن الوحي يأتي الأنبياء أيقاظا ونياما وكان النبي صلعم يقول تنام عيناي ولا ينام قلبي قال ابن اسحق والله أعلم أي ذلك كان ونحن نذكر في ذلك طرفا كما جاء في الخبر قال الواقدي أسرى به قبل الهجرة بسنة وكان المعراج قبل ذلك بثمانية عشر شهر قال النبي صلعم فاستلقاني على قفاي ثم شقا بطني واستخرجا حشوي ومعهما طست من ذهب يغسل فيه بطون الأنبياء فكان جبريل يختلف بالماء من زمزم وميكائيل يغسل جوفي فقال جبرائيل لميكائيل شق قلبه فشق قلبي فأخرج علقة سوداء فالقاها ثم أدخل هرمه ثم

ذر عليه من ذرور كان معه وقال وقلب وكيع له عينان بصيرتان وأذنان سميعتان أنتم قشر المغفل الحاشر ثم قال ببطني هكذا فالتأم وقالا ملئ حكمة وإيمانا ثم وثبت قائما فأتيت بالمعراج فإذا هو أحسن ما رأيت منظرا ألم تروا إلى ميتكم إذا احتضر كيف يشخص ببصره إليه فإنه إنما ينظر إلى حسن المعراج فقال عرجا بي إلى السماء الدنيا فلما انتهينا إلى باب الحفظة وعليه ملك يقال له اسمعيل تحت يده سبعون ألف ملك ما منهم ملك إلا وهو على مائة ألف فقال من هذا قالوا محمد قال وقد بعث قال نعم قال فتبادروا واجتمعوا وفتحوا ورحبوا ودعوا بالبركة قال ورأيت في السماء الدنيا رجلا أعظم الناس جهة فقلت من هذا يا جبريل قال أبوك آدم وإذا أرواح ذريته تعرض عليه فإذا عرض عليه روح المؤمن قال ريح طيبة وروح طيب جعلوا كتابه في عليين وإذا عرض عليه روح الكافر قال ريح خبيثة وروح خبيث جعلوا كتابه في سجين ثم وصف السموات ومن فيهن ووصف الجنة والنار وأهلها قال ثم انتهيت إلى السماء السابعة فلم أسمع شيئا إلا صرير الأقلام ورأيت جبريل يتضاءل حتى كان فرخ طائر ما أكاد أتأمله وسمعت وحيه فقال لي جبرائيل اسجد فسجدت ودنوت قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله إلى عبده ما أوحى ثم قال ارفع رأسك يا محمد وقد فرض الله عليك خمسين صلاة قال فرجعت إلى موسى عم ولم يزل يرده حتى حطه إلى خمس صلوات قال موسى ارجع إلى ربك واسئله أن يخفف عن أمتك فإن أمتك ضعيفة قال فقلت قد استحييت من ربي ولأصبرن على هذه الخمس قال فنوديت إني قد أمضيت فريضتي وخففتها على عبادي واجزي الحسنة بعشرة أمثالها هذا من رواية الواقدي وأما ابن اسحق فإنه روى أن النبي صلعم لما حدث عن المسرى وما بالمسجد الأقصى قال فلما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى المعراج ولم أر شيئا احسن منه وأصعدني صاحبي حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء ثم ساق قصة شبيهة بما ساق الواقدي وسنذكر اختلاف الناس والكشف عن وجه الحق في آخر هذا الفصل

قصة المسرى قال ابن اسحق ثم أسرى برسول الله صلعم وكان فيه بلاء وتمحيص وأمر من الله عز وجل فيه عبرة وهدى ورحمة وكيف شاء ليريه من آياته فكان ابن مسعود يقول أتى رسول الله صلعم بالبراق وهي الدابة التي كان يحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرها منتهى طرفها فحمل عليها ثم خرج صاحبه يريه الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس فوجد فيه ابراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء فصلى بهم ثم أتى بثلاث أوان اناء فيه لبن واناء فيه خمر واناء في ماء قال فسمعت حين عرضت علي قائلا يقول إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته وإن أخذ الخمر غوى وغويت أمته وإن أخذ اللبن هدي وهديت أمته قال فأخذت اللبن فشربته وكان الحسن يقول أن النبي صلعم قال بينما أنا نائم في الحجر إذ أتاني جبريل فهمزني برجله فجلست ولم أر فيه شيئا فعدت إلى مضجعي فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فأخذ بعضدي وخرج بي إلى باب المسجد فإذا أنا بدابة أبيض بين البغل والحمار وفي فخذيه جناحان ومضى في حديثه مثل حديث ابن مسعود وزاد قال لما شربت اللبن حرمت عليكم الخمر فلما أصبح عدا على قريش فقالوا إن هذا والله لبين أن العير ليطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرا مقبلة فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع فارتد كثير ممن كان أسلم وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا إن صاحبكم يزعم كذا وكذا فقال أبو بكر لئن كان قاله فقد صدق فما يعجبكم من ذلك أنه يخبر الخبر من السماء إلى الأرض في ساعة فأصدقه قال وقال رسول الله صلعم فرفع بي حتى نظرت إليه فجعل يصفه وأبو بكر يصدقه وروى الواقدي عن جابر بن عبد الله أن النبي صلعم قال لما كذبني قريش قمت بالحجر فخيل إلي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه وروى عن أم هاني بنت أبي طالب أنها قالت نام رسول الله صلعم عندي وفي بيتي تلك الليلة فلما كان الصبح أهبنا وقال لقد صليت عشاء الآخرة والفجر بهذا الوادي وصليت ما بينهما بالبيت

المقدس وقد نشر لي الأنبياء فصليت بهم ثم قص القصة والوجه في هذا وما أشبه أن لا يجاوز فيه نص الكتاب ومستفيض السنة مع المخالف المنكر المستعظم لما يخرج عن العادة المعهودة والطبع القديم قال الله سبحانه سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير فالمسرى قد يكون بالروح والجسم ثم قال ما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ولا خلاف بين أهل اللغة أن الرؤيا في المنام لا غير وإن كان جاء في التفسير أنه رؤية العين فحكم العاقل أن يخاطب كلا على قدر فهمه وأي تفضيل يلحق النبي في رفع جسمه وجثته أو ليس قد أخبر أنه قد رأى في السماوات ابراهيم وموسى وعيسى وآدم وغير مختلف أنهم لم يرفعوا بأجسامهم مع أنا لا ننكر أن يرفع الله ما يشاء من جبل وحجر فكيف أنبياءه ورسله ولكن ذكرنا ما ذكرنا ليهون عليك ما يرد من كلام الخصوم ولتقصيد الاشبه بالمتعالم المعروف والله أعلم

ذكر مقدمات الهجرة وأول من هاجر قالوا وكان رسول الله صلعم يوافي كل موسم سوق عكاظ وسوق ذي المجاز وسوق المجنة يتبع القبائل في رحالها ويغشاها في أنديتها يدعوهم إلى أن يمنعوه ليبلغ رسالة ربه فلا يجد أحدا ينصره حتى كانت سنة إحدى عشرة من النبوة لقي ستة نفر من الأوس عند العقبة فدعاهم الرسول صلعم إلى الإسلام وعرض عليهم أن يمنعوه فعرفوه وقالوا هذا النبي الذي يوعدنا يهودنا به وهموا يقتلوننا قتل عاد وإرم فأمنوا به وصدقوه وهم أسد بن زرارة وقطبة بن عامر بن حديدة ومعاذ بن عفراء وجابر بن عبد الله بن رئاب وعوف بن عفراء وعقبة بن عامر وأول من أسلم فيهم أسعد بن زرارة وقطبة بن عامر وكان يقول في الجاهلية لا إله إلا الله ويقال بل أول من أسلم أبو الهيثم بن التيهان وكان لا يقرب في الجاهلية الأوثان فانصرفوا إلى المدينة وذكروا أمر رسول الله صلى الله عليه فأجابهم ناس وفشا فيهم الإسلام لما كانت اثني عشرة من النبوة وافى الموسم منهم اثنا عشر رجلا هولاء الستة وستة أخر أسماءهم أبو الهيثم بن التيهان وعبادة بن الصامت وعويم بن ساعدة ورافع بن مالك وذكوان بن عبد القيس وأبو عبد الرحمن بن ثعلبة فآمنوا وأسلموا وواعدوا رسول الله صلى الله عليه العام القابل وسألوه أن يبعث معهم من يصلي بهم ويعلمهم القرآن فبعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف فتى قريش كلها يدعوا الناس إلى الإسلام وكان يدعى المهدي في زمن رسول الله صلعم فأسلم بدعائه بشر كثير وكان في من أسلم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيد الأوس والخزرج فلما كان سنة ثلاث عشرة من النبوة قدم من الأنصار سبعون رجلا وامرأتان أم عامر وأم منيع ورئيسهم البراء بن معرور فجاءهم رسول الله صلعم عند العقبة وبايعوه على المنع والنصرة قال الواقدي واختلفوا في أول من ضرب يده على يد رسول الله صلعم فقيل البراء بن معرور وقيل أسعد بن زرارة وقيل أسيد بن حضير وقيل أبو الهيثم بن التيهان فقال لهم النبي صلعم اخرجوا إلى اثني عشر نقيبا يكونوا على قومهم وأخذ عليهم الميثاق والعهد والوفاء كنقباء بني إسرائيل فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فمن الخزرج أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وسعد بن عبادة والبراء بن معرور وعبادة بن الصامت وعبد الله بن رواحة ورافع بن مالك بن عجلان والمنذر بن عمر بن خنيس ومن الأوس أسيد بن حضير وسعد بن خيثمة وأبو الهيثم بن التيهان فقال كعب بن مالك يذكر تلك البيعة في قصيدة طويلة

فابلغ أبيا أنه قال رأيه ... وحان غداة الشعب والحين واقع

وابلغ أبا سفيان أن بدا لنا ... بأحمد نور من الهدى الله ساطع

فلا تزهدن في حشد أمر تريده ... والب واجمع كل ما أنت جامع

ودونك فاعلم أن نقض عهودنا ... أباه عليك الرهط حتى يبايعوا

وانصرف الأنصار إلى المدينة وأمر رسول الله صلعم بالهجرة وكان هاجر إليها قبل بيعة العقبة أبو سلمة بن عبد

الأسد بسنة وهو أول من هاجر إلى المدينة ثم هاجر بعده عبيدة بن الحارث وعثمان بن مظعون ومسطح بن أثاثه ثم هاجر بعدهم عمر بن الخطاب رضه وعياش بن أبي ربيعة وهو أخو أبي جهل بن هاشم فنذرت أمه أن لا يظلها سقف بيت حتى يرتد فخرج أبو جهل ابن هشام والحارث بن هشام فرداه فلم يزالا يعذبانه حتى فتناه عن دينه وفيه نزلت ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ثم هاجر بعد ذلك وأسلم ثم خرج سائر المسلمين وبقي النبي صلى الله عليه وعلي بن أبي طالب وأبو بكر ومن لا قوة له في الحركة من ضعف وفاقة فلما رأت قريش أن شيعة النبي صلعم قد خرجوا فزعوا من ذلك وعلموا أنه إن خرج واقع بهم فاجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا في أمره وروى أن الشيطان صرخ على العقبة يا أهل الأخشاب هل لكم في محمد وأصحابه فقد اجتمعوا لحربكم

ذكر دار الندوة قالوا فاجتمع رؤساء قريش في دار الندوة ومنهم أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبه بن ربيعة والعاص بن وائل وأبو سفيان بن حرب ونبيه ومنبه ابنا الحجاج قال بعضهم فاعترض لهم ابليس في صورة شيخ جليل عليه إتب فقالوا من الشيخ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم فحضر ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا فقام خطيبهم فقال إن هذا الرجل قد كان من أمره ما كان وانا لا نأمنه على الوثوب بنا فاجمعوا فيه رأيا فقال قائل منهم أرى أن تقتلوه بحديد أو أن تغلقوا عليه الباب حتى يموت فقال ابليس ما هذا برأي لأنكم لو فعلتم ذلك لأوشك أن ينزعه أصحابه من أيديكم فقال آخر أرى أن تربطوه على ظهر راحلة ثم اضربوا وجهها تهيم في الأرض حيث شاءت فقال ابليس ما هذا برأي ألم تروا إلى حسن لفظه وحلاوة منطقه ولا يحل بحي ولا بلد إلا سحرهم بكلامه فقال أبو جهل أرى أن نجمع من كل قبيلة منا فتى شبيبا نشيطا ثم نعطي كل واحد منهم سيفا صقيلا فيعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد ويفرقون دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على الإقادة بجميع الناس فقال ابليس هذا الرأي وقد حكى في ذلك شعر ومنهم من ينسبه إلى ابليس

الرأي رأيان رأي ليس يعرفه ... غاو ورأي كحد السيف معروف

يكون أول بشرى لآخره ... حقا وآخره مجد وتشريف

فتفرقوا على هذا وجمعوا من فتيان قريش أربعين شابا وأعطوهم السيوف وأمروهم أن يغتالوا النبي صلعم ويقتلوه، ذكر ليلة الدار قالوا فأتوا داره وأحاطوا به يرصدونه حتى ينام فيبيتون به وأتاه الخبر من السماء فثبت حتى أمسى ثم اضطجع على فراشه وتجلل ريطة له خضراء والرصد يرون ما صنعه ويترقبون نومه فدعا عليا وقال نم على فراشي فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه وإن أتاك أبو بكر فاخبره أني قد خرجت إلى ثور أطحل وهو غار بأسفل مكة ومرة فليلحق بي وخرج رسول الله صلى الله عليه وقد أخذ حفنة من التراب فجعل ينثر على رؤوسهم وهو يتلوا هذه الآيات يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم إلى قوله فاغشيناهم فهم لا يبصرون ومر إلى الغار وقد أخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فأتاهم آت فقال ما مقامكم ننتظر نوم محمد لنثور عليه قال إن محمدا قد مر وما ترك أحدا منكم إلا وضع التراب على رأسه قالوا فها هو نائم قال ذاك علي بن أبي طالب فاقتحموا الدار ونصوا الحلة فإذا هو علي فسقط في أيديهم وفيه نزل وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، ذكر حديث الغار قالوا وكان أبو بكر قد ابتاع راحلتين وحبسهما في الدار يعلفهما إعدادا لذلك الأمر فاستأجر دليلا يقال له عبد الله بن اريقط الليثي ويقال ابن ارقد ليأخذ بهما على الجادة وأمر غلامه عامر بن فهيرة أن يروح عليه يستحثه مغسفا وسوت له أسماء سفرة فحملها ومر إلى الغار فأقاما فيه ثلاثا وروى ابن اسحق أن النبي صلعم لما خرج من داره أتى إلى دار أبي بكر وخرج معه من ظهر بيته إلى ثور

فاكتتما فيه قال قائل وصرخ صارخ أن محمدا قد خرج فخرج المشركون في إثرهما فكانا يريانهم ولا يرورنهما وروى الواقدي أن الله عز وجل بعث العنكبوت فضرب على باب الغار ونهى رسول الله صلعم عن قتل العنكبوت فلما أكدت قريش وخابت وجعلت مائة ناقة لمن رده فخرج سراقة بن مالك وكان من فرسان القوم وأشدائهم، ذكر خروج سراقة في إثرهما قالوا وخرج في إثرهما وروى بعد ما أسلم قال فلما بدى لي القوم عثر بي فرسي وذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه قال ثم انتزع يديه وتبعهما دخان كالإعصار فعرفت أنه حق فناديتهم انظروني أكلمكم فو الله لا آذيتكم فقال النبي صلعم لأبي بكر سل ما يطلب قال ما تبغي منا قال قلت تكتب لي كتابا يكون آية بيني وبينك فأمر أبا بكر فكتب لي كتابا في رقعة أو قال في عظم فلما كان يوم فتح مكة أتيته بالكتاب فقال اليوم يوم وفاء وبر ادن مني فأسلم فدنوت أسلمت وقد روى في هذا الخبر أنه ساخت قوائم دابته ثم خرجت ولها عثار

ذكر خروج النبي عم وأبي بكر من الغار إلى المدينة قال ابن اسحق وخرج بهما دليلهما أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل أسفل من عسفان فهبط بهما العرج ثم لزم الجادة إلى المدينة وذكر حديث أم معبد بطوله قال وكان المسلمون بالمدينة لما سمعوا بخروج رسول الله صلعم من مكة يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه فإذا ارتفع النهار وعلا انصرفوا إلى بيوتهم حتى كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلعم وكانوا قد انتظروه ورجعوا فرآه رجل من يهود فصرخ بأعلى صوته يا بني قيلة هذا جدكم قد جاء فخرج الناس وثاروا إلى أسلحتهم وأسرعوا يتلقونه وكان ذلك يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول فيما روى ابن اسحق حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل وكان الزبير بن العوام لقيه في الطريق مقبل من الشام فطرح على رسول الله صلعم ثيابا بيضا فنزل رسول الله صلعم وأبو بكر بقبا في ظل نخلة وهي قرية بني عمرو بن عوف

في ذكر اختلاف الناس في هذا الفصل أعلم أن ما كان في هذه الأخبار من المعجزات فكلها مصدقة مقبولة إذا صحت الرواية والنقل أو شهد لها نص القرآن والدلالة عليها كذهاب قوائم فرس سراقة في الأرض وكإنزال شاة أم معبد اللبن بعد يبسها وكأخذ الله بأبصار الفتكة عن نبيه وككلام ابليس في دار الندوة وكخبر المعراج والمسرى وقصة الروم والجن ولحس الأرضة الصحيفة ونزول جبريل بالوحي وتظليل الغمام والطير له في سفره وإخبار بحيرا وعداس وورقة بأمره وما ذكر من العجائب في مولده في ظئره حليمة من نزول اللبن في ضرعها وفي ضرع شائها وغير ذلك مما يوصف ويحكى مع ما ذكر من هذه الخصال كلها داخل في حد الجواز والإمكان بعد أن كنا مجيزين للممتنع في الطبع والعادة للأنبياء وفي أيامهم فكيف الممكن المتوهم من ذلك وقد ناقض المنكرون لهذه الحال لخروجها عن العادة المجيزين لها بأنه قد تسوخ القوائم في السهلة والسباخ وفي نافقاء اليرابع والجرذان ويعود اللبن في الضرع بعد ذهابه وجفوفه بتغير الطبع وزوال العلة ووجود قوة حادثة كما قد يبصر الإنسان بعد العمى ويسمع بعد الصمم بحدوث سبب أو معنى دواء الطعام ويأخذ الله بأبصار قوم بأن يأتي عليهم النعاس أو يخفي شخص المار بهم فلا يرونه وكلام ابليس غير عجيب لأنه قد يقال لمن عمل بعمل ابليس هذا ابليس وكذلك لمن تكلم بكلام ابليس يوسوس ابليس بمثله وقد سمى الله عز وجل من اقتدى بالشيطان شيطانا فقال وإذا خلوا إلى شياطينهم وابليس شيطان وأما المعراج والمسرى فكفاك حجة على الخصم عدم اختلاف أهل الملة فيه وخبر الروم ولحس الأرضة والصحيفة وغير ذلك مما أخبر النبي صلعم من أخبار الغيب فمن وحي الله وتنزيله ومع أن ذلك ممكن معرفته من جملة الخبر وأما كيفية نزول جبريل بالوحي وظهوره له فإن الواجب أن لا يكلم الخصم إلا بإيجاب الوحي كيف شاء لأن الوحي على وجوه وحي إلهام ووحي إلقاء ووحي تلقين ووحي رؤيا وقد سئل النبي صلعم كيف

يأتيك الوحي فقال أحيانا يأتيني مثل صلصة الجرس يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني رواه الواقدي ونحن بحمد الله مصدقون بكل ما جاء على ظاهره وجدنا له مثلا وشبها أو لم نجد ومقرون بنزول الملك على الأنبياء سفيرا بينهم وبين الله عز وجل وواسطة قال هذا المناقض في حجاجته فإن قال الملحد إذ كان الأمر كما زعمت وكان كل ذلك ممكنا لعامة الناس فلم سميتها معجزات الأنبياء وخصصتهم بها قيل قد يكون الشيء معجزة في وقت وهو بعينه غير معجزة في وقت آخر ويكون معجزة لقوم وغير معجزة لقوم ويكون الشيء باجتماع أجزائه معجزة ويكون كل جزء منه على الانفراد غير معجزة وقال ذلك قولنا أن النبي صلعم نصر ببدر في قلة عددهم فلو وجد مثله في زماننا أو في بلد الشرك لجاز ذلك وكان ممكنا ثم لا يجوز أن يسمى معجزة وقد كان لرسول الله صلعم معجزة عظيمة في زمانه لأنه قد يقع بالاتفاق ما لا يرجى كونه ووقوعه قال القرآن معجزة عظيمة لهم قال فاتفاق تلك المعاني للنبي صلعم وتناسقها في زمانه معجزة أتاحها الله عز وجل وقدرها علامة لنبوته هذا يرحمك الله باب كان الله أغنى هذا المتكلف عن الخوض فيه والتمرس به وما أراه ابلى عنا في الإسلام أو رد عنه عادية إن لم يكن فتح عليهم باب شنعة وتلبيس وسبيل المعجزات للأنبياء في خروجها عن العادة سبيل إيجاد أعيان الخلق لا من سابقه فكما أن إيجاد الخلق لا من شيء لا مفهوم ولا معقول ولكن بعرف وتعلم بقيام الأدلة عليه كذلك معجزات الأنبياء عم غير موهومة ولا معقولة وإنما بعلم بقيام الأدلة عليها ولذلك جعلت مسألة الرسالة تابعة لمسألة التوحيد ومرتبة عليها وقد مضى من هذا في فصله ما كفى وأغنى ولله الحمد والمنة والحول والقوة والتوفيق والهداية،

الفصل السادس عشر

في مقدم رسول الله

وسراياه وغزواته إلى وقت وفاته صلعم

قال قدم رسول الله صلعم المدينة يوم الاثنين حين اشتد الضحى لاثني عشرة خلت من ربيع الأول وكان خرج من الغار ليلة الخميس غرة شهر ربيع الأول ودخله يوم الاثنين وأقام فيه ثلاثا وبقى في الطريق اثنتي عشرة ليلة فكان من خروجه من مكة إلى دخوله المدينة خمسة عشر يوما فنزل تحت ظل نخلة بقبا فطفق الناس يأتونه وينظرونه وكان أبو بكر معه في مثل سنه فما كان يعرفه إلا من كان رآه فلما زال الظلم قام أبو بكر فأظله بردائه فعرفه حينئذ من لم يكن يعرفه ثم نزل على كلثوم بن هدم ويقال على سعد بن خيثمه وأقام عندهم يوم الاثنين والثلثاء والأربعاء والخميس ولم تكن المدينة يومئذ ممصرة وإنما كانت آطاما وحوائط وكان بنو عمرو بن عوف ينتابونه عند كلثوم بن هدم فأول ما أمر فيهم بالأصنام أن تكسر فجعلوا يكسرونها ويوقدون النار فيها وأسس مسجد قبا وصلى فيه ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في بطن الوادي وهي أول جمعة صلاها في الإسلام وبنى في مصلاه مسجدا واستقبله الناس فجعل يقول كل قبيلة اقم عندنا في العدة والعدد ويقول خلوا سبيلها فإنها مأمورة قالوا فلما انتهت إلى بيت أبي أيوب الأنصاري بركت ووضعت جيرانها في الأرض فنزل رسول الله صلعم على أبي أيوب وأقام عنده سبعة أشهر إلى أن بنى المسجد في فضل البلدان قالوا وبعث رسول الله صلى الله عليه أبا رافع مولاه وزيد بن الحارثة يقدمان بعياله وأعطاهما بعيرين وخمسة مائة درهم وأخذها من أبي بكر الصديق فقدما بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله وسودة بنت زمعه زوجة رسول الله صلعم وأما زينب بنت رسول الله فإن زوجها أبا العاص بن الربيع حبسها وأما رقية بنت رسول الله صلعم فإنها هاجرت قبله مع زوجها عثمان بن عفان وكانت

هاجرت معه إلى الحبشة وقدم عبد الله بن أبي بكر بأختيه عائشة وأسما بنتي أبي بكر وأم رومان امرأة أبي بكر وكان رسول الله صلعم لما خرج خلف عليا بمكة وأمره أن يرد الودائع التي كانت عند رسول الله للناس إلى أهلها ففعل علي وخرج في إثره بعد ثلاث وفرضت الصلاة أربعا أربعا بعد الهجرة بشهر وكانوا يصلون قبلها ركعتين ركعتين ثم آخى بين المهاجرين والأنصار وأقطع الدور وخط الخطط فلبثوا فيها وكتب كتابا وادع اليهود وأقرهم على دينهم وشرط لهم أن لا يهيجهم ولا يباديهم وشرط عليهم أن ينصروه ممن دهمه ولا يظاهروا عليه عدوا فلما رأت اليهود ظهور أمره واستجابة الناس له نقضوا العهد وأخفروا الذمة وناصبوه بغيا وحسدا فجعلوا يغشونه ويسألونه عن الأغلوطات منهم حي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب وجدي بن أخطب وزيد بن تابوة وعبد الله بن صورى ومحاض بن عابور والربيع بن أبي الحقيق وكعب بن الاشرف وشاس بن عمرو وفردم بن كردم وغيرهم من أشرافهم ونافق رهط من أهل المدينة وظاهروهم على ذلك منهم خذام بن خالد الذي أخرج مسجد الضرار من داره وجارية بن عامر وبحزج بن عمرو وعبد الله بن الأزعر وهم الذين بنوا مسجد الضرار ومجمع بن جارية وهو الذي كان يصلي بهم وأوس بن قيظي وهو الذي كان يوم الخندق إن بيوتنا عورة وأبيرق سارق الدرع ووديعة بن ثابت ومتعب بن قشير هما اللذان قالا إنما نخوض ونلعب وجد بن قيس الذي قال ائذن لي ولا تفتني وعبد الله بن أبي ابن سلول الخزرجي رأس النفاق وكان القرآن ينزل فيهم ويعبر عن خبث عقيدتهم ودرن سرائرهم إلى أن أذن الله لرسوله في السيف ونزل أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله فاخذ في تسريب السرايا وبعث الجيوش وكانت سراياه ووفائعه أربعا وسبعين غزاة ويقال خمسا وسبعين في مهاجرة عشر سنين منها التي غزا بنفسه سبع وعشرين وقع منها في تسع القتال في بدر وأحد والمريسع والخندق وقريظة وخيبر والفتح وحنين والطائف ويقال أنه قاتل في بني النضير وكانت سنو الهجرة عشر سنين السنة الأولى سنة الهجرة والثانية سنة الأمر بالقتال والثالثة سنة التمحيص والرابعة سنة الترفيه والخامسة سنة الزلازل والسادسة سنة الاستئناس والسابعة سنة الاستغلاب والثامنة سنة الاستواء والتاسعة سنة البراءة والعاشرة سنة حجة الوداع ثم دخلت سنة إحدى عشرة من الهجرة مضى منها شهران واثنا عشر يوما ولحق بربه صلعم أما السنة إحدى من الهجرة فإن رسول الله صلعم قدم

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

المدينة فاقام بها بقية ربيع وربيعا وجماديين ورجبا وشعبان فلما دخل رمضان عقد لواء أبيض لحمزة بن عبد المطلب وهو أول لواء عقد في الإسلام وبعثه في ثلاثين راكبا من المهاجرين والأنصار يعترض عير القريش جاءت من الشام فلقي أبا جهل بن هشام في ثلثمائة راكب وحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني فانصرفوا ولم يكن بينهما قتال فهذه أول سرية سرت بالإسلام وفي سبيل الله ولما دخل شوال بعث عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في ستين راكبا من المهاجرين والأنصار فلقي جمعا عظيما من قريش بسيف البحر وعليهم عكرمة بن أبي جهل فانصرفوا ولم يكن بينهما قتال إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى بسهم وهو أول سهم رمي في الإسلام ثم لما دخل ذو العقدة بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين فرجع ولم يلق كيدا وفي هذه السنة بنى بعائشة وكان تزوجها بمكة وفيها ولد عبد الله بن الزبير وهو أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة وفيها ولد النعمان بن بشير وهو أول مولود ولد في الأنصار بعد الإسلام وأما سنة اثنتين من الهجرة فإن رسول الله صلعم لما مضى المحرم منها ودخل صفر خرج غازيا بنفسه حتى بلغ ودان بينهما وبين الأبواء ستة أميال فوادعته بنو ضمرة فانصرف ولم يلق كيدا وهي أول غزاة غزاها رسول الله صلعم فلما دخل ربيع الأول غزا بواط وهو موضع في طريق الشام يعترض عيرا لقريش فرجع ولم يلق كيدا ثم أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة فخرج بإثره حتى بلغ سفوان من ناحية بدر الأولى فرجع ولم يدركه وذاك في جمادى الأول ثم غزا ذا العشيرة في جمادى الآخرة وفي تلك الغزاة قال لعلي يابا تراب أشقى الناس رجلان أحمر ثمود والذي يخضب هذا من هذا ووضع يده على رأسه ولحيته ثم بعث عبد الله بن جحش في ثمانية رهط من المهاجرين في شهر جمادى الآخرة منهم أبو حذيفة بن عتبة وسعد بن أبي وقاص وعكاشة بن محصن الأسدي وعتبة بن غزوان وواقد بن عبد الله وكتب له كتابا أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين حتى يقرأه على أصحابه ولا يستكره منهم أحد فسار عبد الله بن جحش يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم سر على اسم الله وبركته حتى تنزل نخلة فترصد بها عير قريش لعلك تأتينا منهم بخبر فسار عبد الله بأصحابه حتى نزلوا نخلة فمرت العير تحمل زبيبا وأدما وفيها عمرو بن عبد الله الحضرمي والحكم بن كيسان ونوفل بن عبد الله المخزومي وأخوه عثمان بن عبد الله فلما رآهم هابوا فتشاور أصحاب رسول الله صلعم قبل أن يهل الهلال وكان آخر يوم من جمادى الآخرة على زعم الكلبي فحلقوا رأس عكاشة بن محصن فأشرف لهم فلما رأوه أمنوا وقال قوم عمار ولا بأس عليكم فرمى واقد بن عبد الله الحنظلي عمرو بن الحضرمي فقتله واستاسر الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله وأعجزهم نوفل على فرس له وأقبل عبد الله بن جحش بالعير والأسارى وهو أول غنيمة غنمت في الإسلام وأول قتيل قتله المسلمون وأول أسير أسروه فخاض الناس في ذلك وقالوا استحل محمدا العير وأتى منه شيئا وقال ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام فقالوا يا رسول الله قتلناهم ثم نظرنا إلى رجب فنزلت يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل فأباح الله عز وجل القتل في الشهر الحرام وأبطل ما كان قبل ذلك قالوا وجعلت يهود يتفألون به ويقولون واقد وقدت الحرب والحضرمي حضرت الحرب وروى في المغازى هذا الشعر لأبي بكر الصديق رضه، فاقام بها بقية ربيع وربيعا وجماديين ورجبا وشعبان فلما دخل رمضان عقد لواء أبيض لحمزة بن عبد المطلب وهو أول لواء عقد في الإسلام وبعثه في ثلاثين راكبا من المهاجرين والأنصار يعترض عير القريش جاءت من الشام

فلقي أبا جهل بن هشام في ثلثمائة راكب وحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني فانصرفوا ولم يكن بينهما قتال فهذه أول سرية سرت بالإسلام وفي سبيل الله ولما دخل شوال بعث عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في ستين راكبا من المهاجرين والأنصار فلقي جمعا عظيما من قريش بسيف البحر وعليهم عكرمة بن أبي جهل فانصرفوا ولم يكن بينهما قتال إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى بسهم وهو أول سهم رمي في الإسلام ثم لما دخل ذو العقدة بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين فرجع ولم يلق كيدا وفي هذه السنة بنى بعائشة وكان تزوجها بمكة وفيها ولد عبد الله بن الزبير وهو أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة وفيها ولد النعمان بن بشير وهو أول مولود ولد في الأنصار بعد الإسلام وأما سنة اثنتين من الهجرة فإن رسول الله صلعم لما مضى المحرم منها ودخل صفر خرج غازيا بنفسه حتى بلغ ودان بينهما وبين الأبواء ستة أميال فوادعته بنو ضمرة فانصرف ولم يلق كيدا وهي أول غزاة غزاها رسول الله صلعم فلما دخل ربيع الأول غزا بواط وهو موضع في طريق الشام يعترض عيرا لقريش فرجع ولم يلق كيدا ثم أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة فخرج بإثره حتى بلغ سفوان من ناحية بدر الأولى فرجع ولم يدركه وذاك في جمادى الأول ثم غزا ذا العشيرة في جمادى الآخرة وفي تلك الغزاة قال لعلي يابا تراب أشقى الناس رجلان أحمير ثمود والذي يخضب هذا من هذا ووضع يده على رأسه ولحيته ثم بعث عبد الله بن جحش في ثمانية رهط من المهاجرين في شهر جمادى الآخرة منهم أبو حذيفة بن عتبة وسعد بن أبي وقاص وعكاشة بن محصن الأسدي وعتبة بن غزوان وواقد بن عبد الله وكتب له كتابا أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين حتى يقرأه على أصحابه ولا يستكره منهم أحد فسار عبد الله بن جحش يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم سر على اسم الله وبركته حتى تنزل نخلة فترصد بها عير قريش لعلك تأتينا منهم بخبر فسار عبد الله بأصحابه حتى نزلوا نخلة فمرت العير تحمل زبيبا وأدما وفيها عمرو بن عبد الله الحضرمي والحكم بن كيسان ونوفل بن عبد الله المخزومي وأخوه عثمان بن عبد الله فلما رآهم هابوا فتشاور أصحاب رسول الله صلعم قبل أن يهل الهلال وكان آخر يوم من جمادى الآخرة على زعم الكلبي فحلقوا رأس عكاشة بن محصن فأشرف لهم فلما رأوه أمنوا وقال قوم عمار ولا بأس عليكم فرمى واقد بن عبد الله الحنظلي عمرو بن الحضرمي فقتله واستاسر الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله وأعجزهم نوفل على فرس له وأقبل عبد الله بن جحش بالعير والأسارى وهو أول غنيمة غنمت في الإسلام وأول قتيل قتله المسلمون وأول أسير أسروه فخاض الناس في ذلك وقالوا استحل محمدا العير وأتى منه شيئا وقال ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام فقالوا يا رسول الله قتلناهم ثم نظرنا إلى رجب فنزلت يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل فأباح الله عز وجل القتل في الشهر الحرام وأبطل ما كان قبل ذلك قالوا وجعلت يهود يتفألون به ويقولون واقد وقدت الحرب والحضرمي حضرت الحرب وروى في المغازى هذا الشعر لأبي بكر الصديق رضه

يعدون قتل في الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودهم عما يقول محمد ... وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجهم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله في البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف في الإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما وابن عبد الله عثمان عندنا ... ينازعه غل من القد عاند

ولما دخل شعبان صرفت القبلة لنصف منه وقال ابن اسحق صرفت في رجب ورأى عبد الله بن زيد الأذان فلما دخل رمضان فرض الصيام وكان فيه بدر العظمى

ذكر قصة بدر قالوا بلغ رسول الله صلعم أن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام في عير لقريش زهاء ألف بعير لا أحد بمكة ممن له طعمة إلا وله فيها تجارة ومعها ثلاثون راكبا فندب المسلمين وقال اخرجوا لعل الله عز وجل أن ينفلكموها فخف بعض الناس وثقل بعض لأنهم لم يظنوا أنهم يلقون حربا وبلغ الخبر أبا سفيان بن حرب فبعث ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنفزهم ورأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم بمن عمرو بثلاث كأن واقفا وقف بالأبطح فصرخ بأعلى صوته الا أنفروا إلى مصارعكم إلى ثلاث يا أهل غدر ثم مشى به بعيره على ظهر أبي قبيس فصرخ مثل ذلك ثم حمل صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقيت دار من دور مكة إلا وقعت فيها فلقة وفشت الرؤيا بمكة فلقي أبو جهل العباس بن عبد المطلب فقال ما حدثت فيكم هذه النبية يا بني هاشم أما ترضون أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ولكن نتربص بكم هذه الثلاث فإن كان كما قالت وإلا كتبنا عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت في العرب قال فلما كان يوم الثالث إذا ضمضم بن عمرو ببطن الوادي قد جدع بعيره وثوبه و حول رحله يصرخ اللطيمة اللطيمة قد عرض لها محمد ألا أنفروا و ما أراكم تدركونها فخرجت قريش سراعا حتى نزلوا الجحفة وخرج رسول الله صلعم من المدينة لثمان خلون من شهر رمضان وبعث بعدي بن أبي الزغباء و بسبس بن عمرو يتجسسان خبر أبي سفيان فجاءا حتى نزلا ببدر فوجدا الخبر بأن العير يستقدم غدا وبعد غد فانصرفا بالخبر إلى النبي صلعم وأقبل سفيان حتى وقف على مناخهما ففت أبعار بعيريهما فقال علائف يثرب والله فانصرف وضرب وجه العير عن الطريق وساحل به ونزل بدرا على سيارة وأرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل لا نرجع و الله حتى نرد بدرا وكان موسما من مواسم العرب فنعكف عليها وننحر الجزور ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع العرب بنا وبمسيرنا هذا فلا يزالون يهابوننا أبدا فرجع طالب ابن أبي طالب والاخنس بن شريق في مائة رجل وسار الباقون وهم تسع مائة وخمسون رجلا أشراف قريش وأعلام العرب حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي وسار رسول الله صلعم وهم ثلثمائة وأربعة عشر رجلا حتى أتى بدرا ونزل بالعدوة الدنيا وكان معهم سبعون من نواضح يثرب يعتقبونها وكان رسول الله صلعم وعلي ومرثد بن أبي مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا ولم يكن من الخيل إلا فرس للمقداد بن الأسود الكندي ومن السلاح إلا سبعون سيفا فأمر النبي صلعم فبنوا حوضا وملؤوه ماء وقذفوا فيه الآنية وأمر بسائر القلب فعورت وضربوا له عريشا يكون فيه وجاءت قريش تضور من الكثيب فقال النبي صلعم هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها واستشار الناس في القتال فقام أبو بكر رضه فتكلم وأحسن ثم قام عمر فتكلم وأحسن فقال النبي أشيروا علي فقام المقداد بن الأسود فقال امض بنا فإنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عم فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له النبي صلعم خيرا ودعا له ثم قال اشيروا علي وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا بايعوه عند العقبة على أنا براء من ذمتك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت فأنت في ذمتنا وكان يتخوف أن الأنصار لا يرون له نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة فقام سعد ابن معاذ لعلك تريدنا يا رسول الله فقال نعم فقال إنا آمنا بك وصدقناك فامض بنا لما أردت فلو استعرضت بنا على هذا البحر لخضناه معك إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء فقال النبي صلعم تهيأوا و ابشروا فإن الله عز وجل قد وعدني احدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم فمشى القوم إلى القتال والتقوا وحميت الحرب بينهم ورسول الله صلعم يناشد ربه و يدعوه قالوا فخرج

الأسود بن عبد الأسد المخزومي و كان شرسا سيئ الخلق فقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم ولأهمدنه أو لأموتن دونه وقصد الحوض ليمنع المسلمين الماء فشد عليه أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب فضربه ضربة الحن قدمه فخر على وجهه وجعل يحبو إلى الحوض وقد قال بعض أهل العلم أن حمزة لما قطع رجله حملها الأسود فرمى بها رجلا من المسلمين فقتله والله أعلم ثم خرج عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ودعوا إلى البراز

فخرج إليهم عوف بن عفراء ومعوذ بن عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا لهم من أنتم قالوا نحن رهط من الأنصار قالوا لا حاجة بنا إليكم ونادوا يا محمد اخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فخرج عبيدة بن الحارث إلى عتبة بن ربيعة و حمزة بن عبد المطلب إلى شيبة بن ربيعة وعلى بن أبي طالب إلى الوليد ابن عتبة فتجادلوا وتطاردوا واختلف الضرب بينهم فأما علي فلم يمهل صاحبه أن قتله وقتل حمزة شيبة وكان عبيدة بن الحارث اسن القوم وأضعفهم وقد بارزه عتبة بن ربيعة فاختلف بينهما ضربتان أثبت كل واحد منهم صاحبه فكر علي وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة إلى أصحابهما ثم رمى المشركون مهجع بن عبد الله بسهم فقتلوه وهو أول من قتل في الحرب من المسلمين وخرج أبو جهل وهو يرتجزخرج إليهم عوف بن عفراء ومعوذ بن عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا لهم من أنتم قالوا نحن رهط من الأنصار قالوا لا حاجة بنا إليكم ونادوا يا محمد اخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فخرج عبيدة بن الحارث إلى عتبة بن ربيعة و حمزة بن عبد المطلب إلى شيبة بن ربيعة وعلى بن أبي طالب إلى الوليد ابن عتبة فتجادلوا وتطاردوا واختلف الضرب بينهم فأما علي فلم يمهل صاحبه أن قتله وقتل حمزة شيبة وكان عبيدة بن الحارث اسن القوم وأضعفهم وقد بارزه عتبة بن ربيعة فاختلف بينهما ضربتان أثبت كل واحد منهم صاحبه فكر علي وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة إلى أصحابهما ثم رمى المشركون مهجع بن عبد الله بسهم فقتلوه وهو أول من قتل في الحرب من المسلمين وخرج أبو جهل وهو يرتجز

ماتنقم الحرب العوان مني ... بازل عامين حديث سني

لمثل هذا ولدتني أمي

وحقق حقيقه فرأى الملائكة فانتبه وقال ابشر يا أبا بكر أتاك النصر هذا جبريل يقود فرسه على ثاياه النقع ثم خرج إلى الصفوف فحرضهم ورغبهم وأخذ حفنة من الحصا فاستقبل بها القوم وقال شاهت الوجوه و أذراها على وجوههم وقال لأصحابه شدوا فكان نفحهم بها ووضع المسلمون أيديهم يقتلون ويأسرون حتى أسروا اثنين وأربعين رجلا ويقال اثنين وسبعين رجلا وقتلوا سبعين رجلا ويقال خمسين رجلا وقال النبي صلعم إن فيهم رجالا من بني هاشم قد أخرجوا إكراها فمن لقي منهم أحدا فلا يقتله وأسروا من بني هاشم خمسة نفر العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ونعمان ابن عمرو بن علقمة بن عبد المطلب والسائب بن عدي بن زيد بن هاشم وأسروا أبا العاص زوج زينب بنت رسول الله صلعم وقال أبو جهل اللهم اقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فكان هو المستفتح بقول الله عز وجل أن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح الآية فأدركه معاد بن عمرو بن الجموح فضربه ضربة أطبقت قدمه فكر عليه عكرمة بن أبي جهل فضربه على عاتقه فطرح يده ثم مر بأبي جهل معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته ووجده عبده بن مسعود بآخر رمقه فوضع رجله على عنقه قال ففتح عينه وقال لقد ارتقيت مرتقى صعبا لمن الدبرة قال قلت لله ورسوله ألم يخزك الله يا عدو الله قال أعار على سيد قتله قومه ثم اختز رأسه وجاء به إلى النبي صلعم فألقاه بين يديه واستشهد ذلك اليوم من المسلمين ثمانية نفر ثم أمر رسول الله صلعم بالقتلى فالقوا بالقليب وهو يقول يابا جهل يا عتبة يا شيبة يا فلان ويا فلان يدعوهم بأسمائهم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربي حقا قال ابن اسحق حدثني حميد الطويل عن أنس أن أصحاب رسول

الله صلعم قالوا يا رسول الله تنادي قوما قد حنفوا فقال ما أنتم بأسمع ما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا وفيه يقول حسان

يناديهم رسول الله لما ... قذفناهم كباكب في القليب

فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا ... صدقت وكنت ذي رأي مصيب

ومر رسول الله في العسكر وكر راجعا إلى المدينة فملا خرج من مضيق الصفراء قسم هناك النفل وقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث من بين الأسارى وقدم المدينة واستشار أصحابه في الأسارى فقال أبو بكر أهلك عشيرتك وبنو أبيك ابق عليهم واستأن بهم وقال عمر بل انظروا واديا ملتفا أشبا فاضرمه عليهم فقال العباس قطعت رحمك يا ابن الخطاب ثم فاداهم وكان الفداء أربعين اوقية من النهب وألزم العباس فدائيين وقيل له افد ابن أخيك عقيلا فقال تركني يا محمد أسأل الناس ما عشت قال ما فعلت الدنانير التي دفعتها إلى أم الفضل عند خروجك وقلت إن حدث لي حادث كانت لك ولولدك فقال من أخبرك به فو الله ما كان غيري وغيرها ثالثا قال أخبرني بذلك ربي فأسلم العباس وافتدى واختلفوا في الغنائم والنفل فنزلت سورة الأنفال بأسرها في يوم بدر يقول حسان بن ثابت سرنا وساروا إلى بدر لحينهم ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقال إني لكم جار فأوردهم ... سرى الموارد فيه الخزي والعار

قالوا ولما رجع فل قريش إلى مكة قال عمير بن وهب الجمحي قبح الله العيش بعد قتلى بدر ولولا دين علي وعيال لي لرحت إلى محمد وقتلته فقال له صفوان بن أمية على دينك وعيالك ثم حمله وجهزه وصقل سيفا شحيذا وسمه وضرب راحلته حتى أتى المدينة فعقل بباب المسجد ودخل إلى رسول الله صلعم فصاح عمر بن الخطاب رضه وقال اتقوا الكلب فإنه حرش بيننا وحزرنا للمشركين يوم بدر فأخذوه وقدموه إلى النبي فقال ما أقدمك يا عمير قال قدمت لأجل أسيري قال فما بال السيف في رقبتك قال نسيته قال فماذا شرطت صفوان في دينك وعيالك ففزع عمير وعلم أن أمره الحق فآمن به وأسلم وحسن إسلامه وفي هذا الشهر هلك أبو لهب بمكة وأبو احيحة سعيد بن العاص بالطائف وكان أبو لهب فأمر أبا العاص بن هشام أخا أبي جهل ابن هشام فقعره ماله ونفسه وأسلمه حدادا ثم وجهه بدلا منه إلى بدر فقتل كافرا ومات أبو لهب بالعدسة ثم كانت سرية عصماء بنت مروان وكانت امرأة كافرة بذية اللسان وتهجو النبي صلعم وتحرض المسلمين فبعث النبي صلعم إليها عمير بن عدي الأنصاري فقتلها وقال عم لا ينتطح فيها عنزان وفي هذا الشهر أمر بإخراج زكوة الفطر قبل الفطر بيوم وخرج يوم الفطر إلى المصلى فصلى وخطب وهو أول عيد في الإسلام ثم بعث سرية سالم بن عمير إلى أبي عفك في شوال وعفك رجل منافق يهجو النبي صلعم ويحرض عليه ويقول ما أهدى قوم إلا رحالهم شرا من هذه الحرمى الذي أخرجته لحمته وبنو أبيه وهذه الأبيات من هجائه فيما يروى

لقد عشت دهرا وما إن أرى ... من الناس دارا ولا مجمعا

ابر عهودا وأوفي لمن ... تعاقد فيهم إذا ما رعى

من أولاد قيلة في جمعهم ... تهدى الخيال ولن أخضعا

فصدعهم راكب جاءهم ... حرام حلال لشيء معا

فلو أن بالعز صدقتم ... أو الملك بايعتم إن معا

قال النبي صلعم من لي بهذا الخبيث فخرج سالم بن عمير أحد البكائين فقتله على فراشه وكان قد بلغ من السن مائة وعشرين سنة وفيه يقول

حباك حنيف آخر الليل طعنة ... أبا عفك خذها على كبر السن

غزوة يهود بني قنيقاع في شوال وذلك أنه لما قدم الرسول إلى المدينة وادع اليهود وعاهدهم فكان هولاء أولهم نقضا وهاجروا بالعداوة وقالوا يا معشر المسلمين لا يغركم أنكم لقيتم قوما اغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبتم منهم إنكم لو خاصمتمونا لعلمتم أننا رجال الحرب فسار إليهم رسول الله صلعم وحاصرهم في ديارهم حتى نزلوا في حكمه فهم بضرب أعناقهم فقام عبد الله بن أبي وكانوا حلفاؤه فقال أربع مائة حاسر وثلاث مائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود أدعك تحصدهم في غداة واحدة فقال عم هم لك وكان لسعد بن عبادة من حلفهم مثل ما لعبد الله بن أبي ويقال لعبادة بن الصامت فقال إني أبرأ إلى الله ورسوله منهم ويقال فيهم نزلت إنما وليكم الله ورسوله واللذين آمنو الآية

ذكر غزوة السويق في ذي الحجة وذلك أن أبا سفيان جاء في مايتي راكب فحرق في اصوار من النخل وقتل رجلين من الأنصار ودخل المدينة فبات عند سلام بن مشكم سيد بني النضير فسقاه وقراه وبطن له من خبر الناس ثم رجع من الليل إلى مكة وخرج النبي في إثره ففاته وأصاب المسلمون من أزوادهم ما طرحوها يتخففون بها للنجاء فبذلك سميت غزوة السويق وفي هذا الشهر توفيت رقية بنت النبي وفيه بنى علي بفاطمة وفيه مات مطعم بن عدي بمكة وفيه ضحى رسول الله صلعم وذبح شاتين بيده ثم دخلت سنة ثلاث للهجرة وهي سنة التمحيص والبلاء فخرج رسول الله صلعم إلى بني سليم حتى بلغ الكدر ثم رجع ولم يلق كيدا تسمى غزاة الكدر وكانت في المحرم ثم بعث سرية محمد بن مسلمة الأنصاري إلى كعب بن الأشرف فقتله، ذكر مقتل كعب بن الأشرف قالوا ولما أصيب أهل بدر قال كعب قد قتل محمد أشرف الناس فبطن الأرض خير من ظهرها فنقض العهد وخرج إلى مكة في أربعين راكبا فناح على قتلى بدر وبكاهم وحرض المشركين على رسول الله صلعم فبعث النبي محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة في نفر فأتوه في جوف الليل وهو فوق حصنه فناداه سلكان إن هذا الرجل قد يطالبنا بالصدقة وجئتك برهن لتقرضني طعاما فوثب كعب بن ملحفته فتعلقت امرأته بناحية ثوبه إني لأرى حمرة الدم في هذا الصوت فقال دعيني فلو دعى ابن حرة بليل إلى طعنة لأجاب فنزل إليهم فأخذ سلكان تحت كشحة بداسه وضربوه بأسيافهم حتى برد وفيه يقول كعب بن مالك

فغودر منهم كعب صريعا ... فذلت بعد مصرعه النضير

ثم غزا رسول الله صلعم نجدا يريد غطفان حتى نزل بطن نخل وذلك في شهر ربيع الأول ولم يلق كيدا وفيه كان حديث دعثور بن الحارث المحاربي ثم غزا بني سليم في جمادى الأول فرجع ولم يلق كيدا ثم بعث سرية القردة وأميرهم زيد بن حارثة فأصاب عيرا لقريش مقبلة من الشام فأعجزه الرجال فقدم به وبلغ الخمس عشرين ألفا ثم كانت غزوة أحد لست خلون من شوال يوم الجمعة خرج من المدينة ويوم السبت كانت الواقعة

قصة أحد قالوا ولما أصيب المشركون ببدر ورجع فلهم إلى مكة مشي أشراف قريش إلى أبي سفيان بن حرب فقالوا إن محمدا وترنا وقتل خيارنا فأعلنا نطلب بثأرنا ونعين بهذا المال يعنون العير فاجتمعت قريش وجمعت أحابيشها ومن أطاعهم من القبائل وخرجت بظعنها التماس الحفيظة قائدهم أبو سفيان بن حرب ومعه زوجته بنت عتبة وقد نذرت لئذ أمكنها الله من دم حمزة لتشربنه ولتأكلن كبده وجاؤا حتى نزلوا بعينين موضع مقابل المدينة ورأى النبي صلعم في منامه رؤيا فقصها على أصحابه فقال رأيت بقرا يصرع ورأيت في ذباب سيفي ثلما ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينه قالوا وما تأويلها يا رسول الله قال أما البقرة فهم قوم من أصحابي يقتلون وأما السيف رجل من بيتي

يقتل وأما الدرع الحصينة فإني أولتها بالمدينة وكان رأيه أن يقيم بالمدينة وقالوا إن دخلوا قاتلناهم في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن نزلوا نزلوا بشر مجلس فقال رجال ممن أكرمهم الله بالشهادة وكان فاتهم بدر يتمنون ما وصف الله عز وجل به الشهداء من الثواب والحياة وأخرج بنا إلى أعداء الله لئلا يرون أنا جبنا عنهم وعن لقائهم وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فصلى بالناس ودخل منزله ولبس لأمته ثم خرج وقد ندم الناس فقال استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد فقال ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يخلعها حتى يقاتل وخرج من المدينة بألف رجل والمشركون ثلاثة آلاف وزيادة فسار حتى إذ كان بالشوط وهو على ميل من المدينة وانجزل عبد الله بن سلول رأس المنافقين بثلث الناس وقال أطاعهم وعصاني علام نقتل أنفسنا انصرفوا فتبعهم عمرو بن حرام وقال أناشدكم الله في حرمكم ونبيكم ما ثم قتال لو نعلم قتالا لاتبعناكم كما حكى عنهم وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف فعزم الله لهم على الرشد ثم ذكر نعمته عليهم فقال إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ومضى رسول الله صلعم بأصحابه حتى نزل الشعب من أحد وأمر عبد الله بن جبير أمير الرماة وكان في خمسين ناشبا أن يبيتوا على فم الشعب وأن ينضحوا الخيل بالنبل لئلا يأتيهم من ورائهم ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم ونشبت الحرب بين الفريقين فدعت هند بنت عتبة وحشيا غلام جبير بن مطعم بن عدي وكان طعيمة بن عدي قتل ببدر فقالت إن أنت قتلت حمزة بأبي عتبة بن ربيعة فلك قلبي وسواري وقلائدي وخلخالي وشنفي وقال له جبير بن مطعم إن أنت قتلت حمزة بعمى طعيمة ابن عدي فأنت عتيق ثم قامت هند في صواحباتها يضربن بالدفوف ويحرضن الرجال وهي تقول، ويها بني عبد الدار، ويها حماة الاذمار، ضربا بكل سيار، وقالت أيضا، نحن بنات الطارق، نمشي على النمارق، إن تقبلوا نعانق، أو تدبروا نفارق، فراق غير مواق، وحميت الحرب فقتل مصعب بن عمير فدفع النبي صلعم اللواء إلى علي بن أبي طالب عم فأنزل الله عز وجل نصره حتى كانت هزيمة القوم لا شك فترك الرماة مركزهم وأقبلوا على النهب غير أميرهم عبد الله بن جبير فإنه ثبت مكانه حتى استشهد وعطف عليهم خالد بن الوليد على الخيل فانقلبت الدبرة على المسلمين واكتمن الوحشي لحمزة حتى مر به فأتاه من ورائه وضربه بحربته فقتله وأصاب العدو من المسلمين وكان يوم بلاء وتمحيص وانثالوا على رسول الله صلعم ودث بالحجارة حتى وقع لشقه وشج وجهه وكلمت شفتيه وكسرت رباعيته ودخلت حلقة من الدرع في وجهه ووقع حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر الفاسق وكان مظاهر درعين وصرخ صارخ من أعلى الجبل الا أن محمد قد قتل فانهزم المسلمون وأخذ علي وطلحة بيد رسول الله صلعم فانتاشاه من الحفر وأكب أبو دجانة عليه بنفسه يقيه النبل وروى أن نشابة أصابت إصبعه فقال

هل أنت إلا إصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

وقال صلعم من رجل يشرى لنا نفسه فقام زياد بن السكن في نفر من الأنصار فقاتلوا دونه رجلا رجلا حتى قتلوا عن آخرهم ثم فاءت فيه المسلمون فكشفوهم عن رسول الله صلعم وهو يناول السهم سعد بن أبي وقاص وقال ارم فداك أبي وأمي والذي ضرب رسول الله صلعم أخوه عتبة بن أبي وقاص وفيه يقول حسان

فأخزاك ربي يا عتيب بن مالك ... ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق

بسطت يمينا للنبي محمد ... فأدميت فاه قطعت بالبوائق

ثم نهضوا بالشعب ومر على علي المهراس فملأ حجفته ماء وجاء يغسل الدم عن وجه رسول الله صلعم وهو يقول كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله عز وجل ثم قام مالك بن سنان الخدري أبو أبي سعيد فمص الدم من وجه رسول الله صلعم من مس دمه دمى لم تمسه النار ويقال أن النبي صلعم ضربه عبد الله بن قميئة وروى

بعضهم أنه قتل مصعب بن عمير وهو يظنه رسول الله صلعم ووقعت هند عليها اللعنة ومن معها على القتلى فمثلن بهم جدع الأنوف وتبك الآذان ويتخذان خدما وقلائد وعمدت إلى بطن حمزة فبعجتها واستخرجت حشوته وكبده ولاكته ولم تسغه ثم علت على صخرة وهي تقول

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات السعر

ما كان من عتبة لي من مضر ... ولا أخيه لا ولا من صهر

شفيت نفسي وقضيت نذري ... فشكر وحشي على عمر

حتى ترام أعظمي في قبري

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عبد المطلب

جزيت في بدر وبعد بدر ... يا أبنت وقاع عظيم الكفر

في أبيات وفيها يقول حسان بن ثابت

لعن الإلاه وزوجها معها ... هند الهنود طويلة البظر

ثم صرخ أبو سفيان انعمت وقال إنما الحرب سجال يوم بيوم أعل تعل فقال النبي لعمر بن الخطاب أجبه فقال الله أعلى وأجل ولا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فقال أبو سفيان أنشدك الله يا عمر هل قتل محمد قال لا والله ليسمع قال أنه قد كانت هناة ما أمرت بها ولا رضيت وإن موعدكم بدر فقال النبي لعمر قل إن شاء الله وألقى في قلوبهم الرعب فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة وتفرع المسلمون لقتلاهم يدفنونهم ووقف رسول الله صلعم على حمزة ونظر إلى ما مثل به فقال لن أصبت بمثلك أبدا ثم صلى على القتلى السبعين صلاة واحدة وانصرف إلى المدينة وأستشهد يوم أحد من المسلمين سبعون رجلا ويقال خمسة وستون رجلا منهم حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ومصعب بن عمير العبدي وعبد الله بن جبير أمير الرماة وحنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة وسعد بن الربيع أحد النقباء وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلا ورجع رسول الله إلى المدينة ثم خرج في أثرهم يوم الأحد مرهبا لهم ويريهم أن به قوة حتى بلغ حمراء الأسد في ستين راكبا منهم أبو بكر وعمر وعلي وعبد الله بن ابن مسعود فمر به معبد بن أبي معبد الخزاعي وكانت خزاعة عيبة رسول الله صلعم فلقى أبا سفيان بن حرب بالروحاء قد أجمع على الرجعة إلى المدينة وذلك أنهم لما انصرفوا سقط في أيدهم وقالوا قد كنا أجهضنا محمدا وأصحابه وأشرفنا على استئصالهم لو صبرنا فقالوا لمعبد بن أبي معبد ما وراءك قال لقد خرج محمد وأصحابه في جمع لم أر مثله يحرقون عليكم أنيابهم من الحنق قال وأين هم قال هم يصبحونكم من حمراء الأسد فثنى ذلك أبو سفيان عن عزمه وفت في عضده ومر به راكب من عبد القيس يقال له نعيم الأشجعي يريد المدينة للميرة فقال بلغ محمدا أنا قد أزمعنا المسير إليهم فلما قال ذلك للنبي قال النبي صلعم حسبنا الله ونعم الوكيل وانصرفوا إلى المدينة ونزلت ستون آية من سورة آل عمران في قصة أحد من قوله وإذ غدوت من أهلك تبؤ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم وقالوا في أحد أشعار كثيرة فمنها قول كعب بن مالك يذكر عزيمة أبي سفيان على الرجوع ومبلغ عددهم

إذا جاء منهم راكب كان قوله ... اعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع

ونحن أناس لا نرى القتل سبة ... على كل من يحمى الذمار ويمنع

بني الحرب أن نظفر فلسنا بمفحش ... ولا نحن في اظفارها نتوجع

فجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن نصيبه ... ثلاث مإين إن كثرنا وأربع

وفيه يقول ابن الزبعري

يا غراب البين أنعمت فقل ... إنما تنطق شيئا قد فعل

نضع الأسياف في أكتافهم ... وكذاك الحرب أحيانا دول

إن للخير وللشر مدى ... وكلا ذاك وجيه وقبل

والعطيات خساس بينهم ... وسواء قبر مثر ومقبل

كل عيش ونعيم زائل ... وبنات الدهر يلعبن بكل

أبلغنا حسان عنى آية ... فقريض الشعر يشفي ذا العلل

كم نرى بالحر من جمجمة ... وأكف قد أترت وحدل

وسرابيل حسان سريت ... عن حماة هلكوا في المنتزل

فسل المهراس من ساكنه ... بين أقحاف وهام كالجبل

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

حين ألقت بقباء بركها ... واستحر القتل في عبد الأشل

ثم خفوا عند ذاكم رقصا ... رقص الحنان تعلوا في الجبل

فقتلنا الضعف من أشرافهم ... وعدلنا مثل بدر واعتدل

فأجابه حسان بن ثابت في قصيدة طويلة

ذهبت يا بن الزبعري وقعة ... كان منا الفضل فيها لو عدل

ولقد نلتم ونلنا منكم ... وكذاك الحرب أحيانا دول

نضع السيف أكتافكم ... حيث نهوى عللا بعد نهل

نخرج الاصبع من استاهكم ... كسلاح النيب يأكلن العضل

إذا شددنا شدة صادقة ... فأجأنا كم إلى سفل الجبل

وتركنا في قريش عورة ... يوم بدر وأحاديث المثل

قالوا في هذه السنة ولد الحسن بن علي وعلقت فاطمة بالحسين وتزوج النبي صلعم زينب بنت خزيمة أم المساكين وزوج ابنته كلثوم من عثمان بن عفان ثم دخلت سنة أربع من الهجرة وهي سنة الترفيه فبعث في المحرم سرية إلى بني أسد أميرها أبو سلمة بن عبد الأسد فغنم وسبى ولم يلقي كيدا ولم يلقي أن يقيد هذه الحوادث بالشهور والأعوام لأنه مما يصعب ويفوت الحق لكثرة الاختلاف وتفاوت التاريخ فرأيت أن أجمعها وأضمها سنة سنة ليكون اقرب إلى الحق وأسهل في الحفظ شاء الله تعالى، قصة الرجيع وهو بأرض هذيل قال ابن اسحق لما رجع رسول الله صلعم من أحد جاءه رهط من عضل والقارة وقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهونا في الدين فبعث معهم ستة نفر منهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح وكان قتل يوم أحد ابنين لسلافة بنت سعد فنذرت لئذ قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه وكان أعطى الله عهدا ألا يمسه مشرك ومنهم خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فخرجوا بهم حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم واستصرخوا هذيلا فما راعهم إلا الرجال بأيديهم السيوف فأخذ القوم أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا والله لا نريد قتالكم ولكن نريد أن نصيب بكم من أهل مكة شيئا ولكم عهد الله وميثاقه قالوا لا نقبل من الشرك عهدا ولا عقدا وناصبوهم القتال فوتر عاصم قوسه وكان راميا وأنشأ يقول

ما علتي وأنا جلد نابل ... والقوس فيها وتر عنابل
تزل عن صفحتها المعابل ... الموت حتى والحيوة باطل
وكل ما حم الإله نازل ... بالمرء والمرء إليه آئل
إن لم أقاتلكم فأمي هابل
ثم قاتل حتى نفذت سهامه وأخذ سيفه وجحفته وقال
أبو سليمان وريش المقعد ... وضالة مثل الجحيم الموقد
ومجنأ من مسلك ثور أجرد ... مؤمن بما تلاه محمد
وقاتل حتى قتل رضه وأرادوا أن يأخذوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد فمنعه الدبر فقالوا ندعه إلى أن يمسى فلما أمسى جاء السيل فذهب به وقتلوا معه ثلاثة نفر من أصحابه وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق فلانوا ورغبوا في الحياة واعطوا بأيديهم وشدوا أكتافا وحملوهم إلى مكة وباعوهم ممن قتل أولياؤهم ببدر فصلبوا ورموهم بالنشاب وطعنوهم بالرماح وذكروا عجائب من أمر خبيب بن عدي وشعرا له في ذلك وقال ابن اسحق في أصحاب الرجيع نزلت ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد

قصة بئر معونة قالوا وبعث النبي صلعم المنذر بن عمرو الأنصاري في أربعين رجلا من خيار المسلمين كانوا من أهل الصفة يرضحون النوى بالنهار ويعلمون القرآن بالليل بعثهم إلى نجد يدعوهم إلى الإسلام في خفارة أبي براء ملاعب الأسنة فلما أتوا بئر معونة استصرخ عليهم عامر بن الطفيل عصية وذكوان فأحاطوا بهم وقتلوهم عن آخرهم إلا عمرو بن أمية الضمري فإنه كان في سرح القوم فأسره عامر وجز ناصيته وأعتقه في رقبة كانت على أمه فأقبل عمرو حتى أتى المدينة فإذا هو برجلين من بني عامر قد أقبلا من عند رسول الله صلعم ومعهما عهد فقتلهما بأصحابه وأخذ سلاحهما ثم جاء النبي صلعم وأخبره الخبر فقال بئس ما صنعت رجلين من أهل ذمتي قتلتهما لا لأجل ذنبهما وقد قيل أنه نزلت فيه يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله الآية وشق على رسول الله صلعم مقتل أصحابه وغدر عامر بن طفيل بهم فدعا على عصية وذكوان أربعين صباحا فيقال والله أعلم ما أسلم منهم واحد ولا أفلت، ذكر غزاة بني النضير قال فجاءهم رسول الله صلعم يستعينهم في دية دينك القتيلين اللذين أصابهما عمرو بن أمية وكان في العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلعم أن يتغاوثوا ويتحمل ما ينوب بعضهم عن بعض قالوا نعم يا أبا القاسم وهموا بالغدر به وخرجوا يجمعون الرجال والسلاح فقام رسول الله صلعم فانسل من بين أصحابه وما شعر به أحد إلا حين دخوله المدينة فمضى أصحابه في إثره حتى لحقوا به ونزل فيه سورة المائدة كما قال الله عز وجل يا أيها اللذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم وأمر أصحابه بالمسير إليهم فحاصرهم ست ليال حتى نزلوا على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال إلا الحلقة ولحقوا باذرعات من أطراف الشام وفيهم نزلت سورة الحشر، ثم غزاة ذات الرقاع والرقاع شجرة سميت بها تلك الغزاة ويقال بل سميت لأنهم كانوا رقعوا راياتهم ولقي رسول الله صلعم في تلك الخروج جمعا عظيما ومن غطفان وصلى صلاة الخوف وفيها كانت قصة غورث بن الحارث المحاربي وذلك أن بني محارب كانوا تحصنوا في رأس جبل فقال غورث لأفتكن بمحمد فجاء حتى وقف وكان سيف رسول الله محلى بفضة فقال أنظر إلى سيفك هذا قال نعم فأخذه وسله وهم به فمنعه الله عز وجل لذلك أنكب على وجهه فنزلت يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم الآية، ثم غزاة بدر الميعاد وذلك أن أبا سفيان لما ارتحل يوم أحد نادى موعدكم بدر فقال النبي صلعم لعمر قل إن شاء الله فخرج النبي للميعاد وخرج أبو سفيان حتى بلغ عسفان

ثم ألقى في قلبه الرعب وانصرف وفيه يقول عبد الله بن رواحة

وعدنا أبا سفيان وعدا لم نجد ... لميعاده صدقا ولا كان وافيا

وفي هذه السنة تزوج النبي صلعم أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة وفيها مات عبد الله بن عثمان بن عفان من رقية بنت رسول الله صلعم وله سنتان وفيها ولدت فاطمة الحسين صلى الله عليه ثم دخلت سنة خمس من الهجرة وهي سنة الزلازل فيها غزا رسول الله دومة الجندل وهي من حد الروم وذلك أن التجار والسابلة شكوا اكيدر الكندي عامل هرقل عليها فسار إليها في ألف رجل يسير الليل ويكمن النهار وأحس بذلك اكيدر فهرب واحتمل الرحل وخلى السوق وتفرق أهلها فلم يجد رسول الله صلعم أحد فرجع

ثم كانت غزاة بني المصطلق سار إليهم رسول الله صلعم فوجدهم على ماء يقال له المريسع فقاتلهم وسباهم وكان عليهم يومئذ الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية وزوجة النبي وفي غزاة المصطلق كان حديث الإفك قالوا وكانت عائشة مع رسول الله صلعم في هذه السفرة فخرجت من هودجها لحاجة وارتحل القوم فجاءت وليس في المناخ إلا صفوان بن المعطل فاحتملها على راحلته وسار بها فما لحقهم إلا بعد أن نزلوا وقد خاض الناس وماجوا يتكلمون فيها من مصدق ومكذب قالوا فلما قدم النبي صلعم المدينة أذن لعائشة في الانقلاب إلى أبيها ولا علم لها بشيء مما جرى فروى عنها أنها قالت خرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بن أثاثه خاله أبي بكر إذ عثرت في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت بئس لعمر الله وما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرا قالت أو ما بلغك الخبر فقلت لا فأخبرتني بما تحدث الناس فيه قالت فو الله ما قدرت أن أقضي حاجتي وما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع قلبي قالت وأتى على ذلك شهر ثم دخل علينا رسول الله صلعم وقال يا عائشة إن كنت قارفت سوءا فتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده فقلت والله لا توب ولكني أقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون فما برح رسول الله حتى نزل الوحي ببراءتي وذلك قوله عز وجل في سورة النور إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم إلى رأس ستة عشر آية وضرب رسول الله صلعم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وعبد الله بن الحد وفيه يقول قائلهم

لقد ذاق حسان الذي كان أهله ... وحمنة إذ قالوا هجيرا ومسطح

تعاطوا بظهر الغيب زوج نبيهم ... وسخطة ذي العرش الكريم فأبرحوا

وقال حسان يعتذر عن مقالته وينتقي منها

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم ... فلا رفعت سوطي إلى أناملي

وكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل

وأن الذي قد قيل ليس بلائط ... ولكنه قول امرئ بي ماحل

ثم الخندق وكنت في ذي القعدة وذلك أن نفرا من اليهود نقضوا العهد واخفروا الذمام وأتوا مكة فحالفوا قريشا على محاربة رسول الله صلعم منهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحي بن أخطب وكنانة بن الربيع ثم جاؤا إلى غطفان وقائدها عيينة بن حصن الفزاري فاستنزلوهم ودعوا إلى مثل ما دعوا إليه قريشا فتحزبت الأحزاب وتجمع الأحابيش وساروا إلى المدينة يقصدون النبي فاستشار النبي صلعم سلمان فيما يزعمون بأمر الخندق فضرب الخندق وعمل فيه بنفسه ينشطهم وخرج في ثلاثة ألف رجل حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع والخندق بينهم وبين الأحزاب ونزلت قريش بعشرة آلاف وقائدها أبو سفيان بن حرب ونزلت غطفان في من تبعها وأطاعها وحاصروا النبي

صلعم والمسلمين تسعا وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى إلا أنه اشتد الأمر وضاق كما قال إذ جاؤكم من فوقكم الأسدي ومن اسفل منكم الأعور السلمي وغطفان وناصبكم أبو سفيان وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واقتحمت فوارس الخندق منهم عمر بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب بن مرداس فخرج عليهم علي في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا الخيل منها وبارز علي عمرا فقال له عمرو وكان من مشهوري فرسان العرب ما أحب أن أقتلك يا ابن أخي قال أنا أحب أن أقتلك فحمى عمرو واحتدم ونزل عن فرسه فعقره ثم أقبل على علي فتنازلا وتطاردا وتجادلا واختلف بينها ضربتان فاصابته ضربة علي فقتلته فخرجوا منهزما من الخندق وفي ذلك يقول علي فيما يروى عنه

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ... ونصرت رب محمد بصواب
فصددت حين تركته متجدلا ... كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني ... كنت المقطر بزني أثوابي

ورمى سعد بن معاذ يومئذ فقطع منه الأكحل فقال اللهم إن كنت أبقيت من حرب شيئا فأبقني وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من قريظة لأنهم خانوا الأمانة وتركوا الوفاء ونقضوا عهد المسلمين قالوا ولما اشتد الأمر جاءه نعيم بن مسعود الأشجعي مسلما وكان من دواهي العرب فقال له النبي إن الحرب خدعة فاحتل لنا فخرج حتى أتى قريظة وقال قد عرفتم ودي لكم وتحقيقي بكم قالوا لست عندنا بمهتم قال والرأي أن لا تقاتلوا محمدا ما لم تأخذوا رهائن من قريش كي لا يتشمروا إلى بلادهم إن عضتهم الحرب وتحلوا بينكم وبين محمد قالوا هو الوجه ثم أتى قريشا فقال إن اليهود قد ندموا على نقض العهد وقد أرسلوا إلى محمد نرضيك منا أن نأخذ من قريش وغطفان مائة رجل فندفعهم إليك لتضرب أعناقهم فإن التمسوا منكم رجالا فلا تجيبوهم إليه قالوا هو الوجه ثم إن قريشا قالوا لقريظة إنا لسنا بدار مقامة وقد هلك الخف والحافر وأنتم أزعجتمونا عن بلادنا فاغدوا للقتال واخرجوا للميعاد فقالت قريظة إنا لا نأمن منكم أن تتشمروا إلى بلادكم إن عضتكم الحرب فإن أردتم ذلك فاعطونا رهائن تكون ثقة لنا قالت قريش صدق نعيم وقالت قريظة صدق نعيم ونصح فتخاذلوا وتواكلوا وأتت عليهم ليلة شاتية عاصفة الريح فجعل تكفأ قدورهم وتقطع أطناب خيامهم فارتحلوا وانصرفوا خائبين بقول الله عز وجل في سورة الأحزاب فساقهم رسول الله صلعم إلى المدينة وأمر فأخذت الأخائذ وضربت أعناق سبع مائة رجل منهم في غداة واحدة وفي هاتين الغزوتين نزلت سورة الأحزاب واستشهد من المسلمين فيها ستة نفر وقد ذكر ابن اسحق من أشعارهم فيها شيئا غير قليل فمنها قول ضرار ابن الخطاب بن مرداس

ومشفقة تظن بنا الظنونا ... وقد قدنا عرندسة طحونا
فلولا خندق كانوا لديه ... لدمرنا عليهم أخمصينا
وإن نرحل فانا قد تركنا ... لدى أبياتكم سعدا رهينا

في قصيدة طويلة فأجابه كعب بن مالك الأنصاري

وسائلة تسايل ما لقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرينا
رأتنا في فضافض سابغات ... كغدران الملا متسربلينا
سيعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأن الله مولى والمؤمنينا

كما قد ردكم فلا شريدا ... يغيظكم حزابا خائبينا
حزابا لن تنالوا ثم خيرا ... وكدتم أن تكونوا دامرينا
فاما تقتلوا سعدا سفاها ... فإن الله خير القادرينا
سيدخله جنانا طيبات ... تكون مقاما للصالحينا

في قصيدة طويلة واصطفى رسول الله صلعم من سبى قريظة ريحانة القريظة فلم تزل عنده إلى أن توفى وفي هذه السنة تزوج النبي زينب بنت جحش وأمها أميمة بنت عبد المطلب وقصتها في سورة الأحزاب مذكورة وفيها بعث عمرو بن أمية الضمري لقتل أبي سفيان فلم يظفر به ثم دخلت سنة ست من الهجرة وهي سنة الاستئناس فبعث رسول الله عبد الله بن أنيس سرية وحده إلى خالد بن سفيان بن نبيح وكان يجمع الجموع ليقاتل النبي فخلا به عبد الله بن أنيس ثم علاه بسيفه حتى قتله ثم بعث سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء ثم غزا بني لحيان ثم غزا الغابة ثم بعث سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر ثم بعث سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة ثم بعث سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة ثم بعث سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى ثم غزا لحيان يطلب بدم خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ومرثد بن أبي مرثد وعاصم بن ثابت بن ابي الأقلح أصحاب الرجيع ثم بعث سرية عبد الرحمن ابن عوف إلى دومة الجندل ثم سرية علي ثم سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة ثم بعث سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة ثم بعث سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى ثم غزا لحيان يطلب بدم خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ومرثد بن أبي مرثد وعاصم بن ثابت بن ابي الأقلح أصحاب الرجيع ثم بعث سرية عبد الرحمن ابن عوف إلى دومة الجندل ثم سرية علي بن أبي طالب عم إلى فدك فاحتازها ثم سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة ثم سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر فتطرقها وأصاب من أموالها ثم سرية بشر بن سويد الجهني إلى بني الحارث واعتصموا فأضرمها عليهم حتى احترقوا ثم سرية كرز بن جابر الفهري في إثر العرنيين وذلك انهم لما قدموا إلى المدينة اجتووها فأمر بهم النبي صلعم إلى إبل الصدقة فشربوا ألبانها حتى صحوا وانطوت بطونهم ثم وثبوا على الراعي فقتلوه وغرزوا الشوك في عينيه واستاقوا الإبل فبعث عليهم في إثرهم كرز بن جابر فأتى بهم وقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم بالحرة حتى ماتوا وقد قيل أن فيهم نزلت إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا الآية ثم غزا رسول الله صلعم ذا قرد وذلك أن عيينة بن حصن بن بدر الفزاري أغار على لقاح رسول الله صلعم فخرج في إثره وقاتل قتالا شديدا واستنفذ بعض اللقاح وفيه يقول حسان بن ثابت

أظن عيينة أن زارها ... بأن سوف يهدم منا قصورا
فعفت المدينة أن زرتها ... وألقيت للأسد فيها زئيرا
أمير علينا رسول الملي ك أحبب بذاك إلينا أميرا

ثم كانت عمرة الحديبية في ذي القعدة من سنة ست وذلك أن رسول الله صلعم رأى في المنام أنه دخل مكة فأخبر أصحابه وأحرم بعمره وخرج في سبع مائة رجل وساق الهدى حتى إذا كان بعسفان استقبله بشر بن سفيان الكعبي فقال إلى أين يا محمد هذه قريش قد أقبلت ومعها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله أن لا يدخلها عليهم وهذا خالد ابن الوليد قد قدموه إلى كراع العميم فقال النبي ويل أم قريش لقد أكلتهم الحرب فو الله لا أزال أجاهد على ما بعثني الله به حتى يظهر دينه وتنقرض هذه السالفة خالفوا بنا الطريق فأخذوا على طريق وعر حتى نزل الحديبية وبعث عثمان بن عفان يخبرهم أنه لم يأت لحرب ولا مكاشفة وإنما أتى زائرا لهذا البيت فحبسوا

عثمان وبلغ النبي أن عثمان بن عفان قد قتل فقال إن كان عثمان قتل فلا نبرح حتى نناجز القوم ثم دعا إلى البيعة وهي بيعة الرضوان تحت الشجرة وكانت البيعة على الموت ثم أتاه أن الذي ذكر من أمر عثمان كان باطلا وبعثت قريش سهيل بن عمرو ليصالح النبي على أن يرجع عنهم عامه هذا وأن تخلو له مكة عاما قابلا ثلاثة أيام ليقضي حاجته وأن يضع الحرب من بين الناس عشر سنين بكف بعضهم عن بعض وأن من أتى من قريش رده إليهم ومن أتى قريشا ممن مع محمد لم يردوه إليه وإن من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه اصطلحوا على هذا وكتبوا العقد بينهم وتواثبت خزاعة فقالوا نحن في عهد محمد وعقده وتواثبت بنو بكر فقالوا نحن في عهد قريش وعقدهم ثم قام رسول الله صلعم إلى هديه فنحره وحلق رأسه وفعل المسلمون مثل ذلك وأقبل راجعا إلى المدينة فنزل في الطريق إنا فتحنا لك فتحا مبينا فصار تصديق الرؤيا في العام القابل وفي هذه السنة ظهرت الروم على فارس وانكشف شهر ابراز عن طريق هرقل حتى سار إلى العراق فأفسدوا عليه وأغاروا وفيها جاء وفد السباع إلى رسول الله صلعم كما روى، ثم دخلت سنة سبع من هذه الهجرة هي سنة الاستغلاب وفيها كانت غزوة خيبر قالوا وسار رسول الله صلعم إليها في ألف وأربع مائة رجل ونزل بساحتهم ويفتتحها حصنا حصنا وهي حصون وآطام حتى انتهى إلى الطيح والسلالم فحاصرهم سبع عشرة ليلة فخرج مرحب وقد جمع عليه سلاحه وهو يقول

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

أطعن أحيانا وحينا أضرب

فأجابه كعب بن مالك

قد علمت خيبر أني كعب ... وأني ممن يشب الحرب

معي حسام كالعقيق عضب

وخرج إليه محمد بن مسلمة وتجاولا وتطاردا وعرضت بينهما شجرة فتجاولا يلوذان بها إلى أن قطعاها قم ضربه محمد بن مسلمة فقتله هذا رواية أصحاب الحديث وأما الشيعة فإنهم يختلفون أن عليا قتله وذلك مشهور في أشعارهم قالوا وبعث النبي صلعم أبا بكر إلى حصن من حصونهم فذهب وقاتل ثم رجع ولم يفتح فقال عم لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ليس بفرار وكان علي عم رمد العين فتفل في وجهه وأعطاه الراية فمضى إليه وخرج إليه أهل الحصن وألقى به فقاتل حتى فتح الله على يده قال سلمة بن الأكوع فلقد رأيتني في سبعة نفر نجتهد أن نقلب ذلك الباب فما نقدر أن نقلبه هذه الرواية الصحيحة فأما ما يقوله القصاص فلا نعرفه وبخيبر أهدت امرأة سلام بن مكشم الشاة المشوية إلى النبي صلعم وبها قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة ومعه من المسلمين وفيه يقول حسان

بئس ما قلت خيابر عما ... جمعت من مزارع ونخيل

كرهوا الحرب فاستبيح حماهم ... وأقروا فعل اللئيم الذليل

وذلك قول الله تعالى فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ثم غزا رسول الله صلعم وادي القرى بعد منصرفه من خيبر ويقال قايل فيئها ثم بعث سرية عمر بن الخطاب إلى تربة فرجع ولم يلق كيدا ثم بعث سرية غالب بن عبد الله الميفعة وفيها قتل أسامة بن زيد بن مرداس بن نهيك بعد ما شهد بالحق فنزل ولا يقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا الآية ثم بعث سرية بشير بن سعد إلى مرو جناب من فدك ووادي القرى ثم اعتمر رسول الله صلعم عمرة القضاء في ذي القعدة وهو الشهر الذي صده فيه المشركون ويقال لها عمرة القصاص فدخل مكة وأقام بها ثلاثا وتزوج ميمونة بنت الحارث وفيها نزل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق الآية ثم مبعث عبد الله بن

أبي حدرد إلى أضم سرية فقتلوا عامرا بن الاضبط بعد ما حياهم بتحية الإسلام فأنكر عليهم رسول الله صلعم وفي هذه السنة اتخذ الخاتم ونقش فصه محمد رسول الله وبعث رسله إلى الملوك يدعوهم إلى دين الله فبعث حذافة السهمي إلى كسرى ابرويز بن هرمز بن انوشروان فمزق كتابه وكتب إلى باذان عامل اليمن بأن يبعث بمحمد إليه مربوطا وقد ذكرنا قصته في موضعه فقال النبي صلعم مزق كتابي مزق الله عليه ملكته وبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل بن قيصر ملك الروم فوجده في حمص يمشي راجلا إلى بيت المقدس شكرا لله على ما منحه من الظفر على فارس وذلك وعد الله فيهم وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين فوضع كتاب رسول الله على وجهه ودعا الناس إلى اتباعه فأبوا عليه فلما أخبر النبي قال بقي ملكهم أو ثبت وبعث عمرو ابن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة فآمن وأسلم وبعث حاطب بن بلتعة إلى المقوقس ملك القبط والاسكندرية فأجاب بأن القبط لا يتابعني على اتباعك وأنا أظن بملكي وبعث إليه بمارية القبطية أم ابراهيم بن رسول الله صلعم وأصحبها خصيا وألف مثقال ذهبا وعشرين ثوبا ووهب لحطاب مالا عظيما وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين فاسلم وبعث سليط بن عمرو إلى هوذة الحنفي فرد ردا جميلا وبعث شجاع بن وهب إلى الحارث الأصغر وهو الحارث بن أبي شمر الغساني ملك دمشق فاستخف به ورمى بكتابه فقال عم باد ملكه وفي هذه السنة كانت وقعة ذي قار وقد مضت قصتها ثم دخلت سنة ثمان من الهجرة وهب الاستواء فبعث سرية غالب بن عبد الله إلى بني الملوح فأوقع بهم وقتل وسبى وساق نعما كثيرا وشاء وخرج صريخ القوم للقتال فسال وادي قديد من غير سحاب عندهم ولا مطر حتى حال بينهم وبين الصريخ فوقفوا ينظرون إليه وهم يسوقون نهبهم ثم بعث سرية شجاع بن وهب إلى بني عامر فلم يلق كيدا ثم بعث كعب بن عمير إلى ذات اطلاح ثم غزوة مؤتة وهي بأرض الشام، قصة مؤتة قالوا أن رسول الله صلعم بعث الحارث بن عمير رسولا إلى بني شرحبيل بن عمرو عامل هرقل فقتل رسول رسول الله صلعم ولم يقتل له رسول غيره فبعث إليها ثلاثة ألف رجل واستعمل عليهم زيد بن حارثة إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب وإن أصيب جعفر فبعد الله بن رواحة فصاروا حتى بلغوا موتة وهي قرية من حدود الشام فبلغهم أن هرقل نزل بأرض البلقاء في مائة ألف وانضم إليه من لخم وجذام مائة ألف فانحازوا إلى موتة وأتتهم هوادي الخيل وناوشهم القتال حتى استشهد زيد بن حارثة فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب وتقدم فقاتل حتى إذا ألجمه القتال نزل عن فرسه فعرقبه وهو يقول

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وطيب شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... على إذ لاقيتها ضرابها

فقطعت يمينه فأخذ الراية بشماله فقطعت شماله فاحتضن بصدره واستشهد وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة في سن عيسى عم فأبدله الله عز وجل منها جناحين يطير بهما في الجنة ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وهو يقول

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... قد طال ما قد كنت مطمئنة

هل أنت إلا بطنة في شنه

وقاتل حتى قتل رحمه الله فاجتمع المسلون إلى خالد بن الوليد فانحاز بهم حتى انصرف فتلقاهم الناس وجعل الصبيان يحثون عليهم التراب ويقولون يا فرار فررتم في سبيل الله فقال رسول الله صلعم ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله وفيه يقول حسان

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بموتة منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبد الله هم خير عصبة ... تواصوا وأسباب المنية تخطر

ثم بعث سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من ناحية الشأم فكتب إلى النبي يستمده فبعث إليه بسرية أميرها أبو عبيدة بن الجراح وفيها أبو بكر وعمرو رضهما فأصابوا شيئا كثيرا ثم سرية الخبط وأميرها أبو عبيدة إلى سيف البحر فجعلوا يختبطون لما أرملوا فأخرج الله لهم دابة أصابوا من لحمها وودكها شيئا حتى سمنوا وغلظوا ثم سرية أبي قتادة إلى خضيرة من أرض الشأم فلم يلق كيدا، فتح مكة في شهر رمضان وذلك أن خزاعة كانت دخلت في عقد النبي صلعم يوم الحديبية وبنو بكر في عقد قريش فعدت بنو بكر على خزاعة وهم على ماء بأسفل مكة يقال له الوتير فبيتوهم ورفدتهم قريش بالسلاح فقاتلوهم فخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف بين يدي رسول الله صلعم وذكر شأنهم وما كان من بني بكر وقريش من نقض العهد وقال

لا هم إني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الابلدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك الموكدا

هم بيتونا بالوتير هجدا ... نتلو القرآن ركعا وسجدا

فأمر رسول الله صلعم بالتجهيز إليهم فقال له أبو بكر اتنصرهم على قومك قال لا نصرت إن لم أنصرهم فخرج في عشرة آلاف رجل وسار حتى نزل بساحتهم ولا علم لهم بشيء من ذلك فأمر كل رجل أن يوقد نارين عظيمتين وخرج العباس بن عبد المطلب على بغلة رسول الله يلتمس أحدا يبعثه إلى قريش بالخبر وكانت قريش لما خفى عليهم أمر المدينة رابهم ذلك وخرج أبو سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء يتجسسان فلما أشرفا على العسكر والنيران هالهما ذلك فسمع العباس قول أبي سفيان لبديل ما رأيت عسكرا قط أكثر من هذا فناداه العباس يا أبا حنظلة هذا رسول الله صلعم ومصباح قريش قال فما الحيلة قال أن تركب في عجز البغلة حتى استأمن لك رسول الله صلعم فركب خلفه ومر حتى بلغ عمر بن الخطاب رضه فلما رأه قال الحمد لله الذي أمكن منك بلا عهد ولا عقد وخرج يشد نحو رسول الله صلعم فقال عمر وهذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه فدعني أضرب عنقه فقال له العباس لا سبيل لك عليه إني قد أجرته فبات عنده تلك الليلة فلما أصبح أتى النبي صلعم فقال ما آن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله فقال بأبي أنت وأمي ما أجملك وأكرمك وأوصلك للرحم لو كان معه غيره لقد أغنى عنا شيئا فقال له العباس إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا فقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن إلا عبد الله بن سعد بن أبي سرح ومقيس بن أبي ضبابة وحويرث بن نقيذ فاقتلوهم ولو وجدتموهم تحت أستار الكعبة فجاء أبو سفيان إلى مكة فنادى هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن حل داري فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن فتفرق الناس وأخذت بلحيته هند بنت عتبة وقالت بئس الشيخ والله اقتلوه هلا مت كريما ودخل رسول الله في عشر سرايا كل سرية ألف رجل وهو في كتيبة خضراء من المهاجرين والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق فأتى المسجد فطاف وحول الكعبة أصنام فجعل يشير إليها بقضب في يده وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وهي تخر لوجهها وفيه يقول بعضهم

وفي الأصنام معتبر وعلم ... لم يرجو الثواب والعقابا

وأقام بمكة خمسة عشر يوما يقصر الصلاة ثم خرج إلى حنين، ذكر غزوة حنين خرج رسول الله صلعم من مكة إلى هوازن وثقيف والطائف وقائدهم مالك بن عوف وقد جمعوا أحابيشهم ولفهم وساقوا نعمهم ونسأهم التماس الحفيظة وأخرجوا معهم دريد بن الصمة في شجار وهو شيخ كبير ليس فيه شيء غير التيمن برأيه فلما بلغوا أوطاس

قال دريد نعم مجال الخيل لا حزن ضرس ولا سهل دهس وأنشد
يا ليتني فيها جذع ... أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع ... كأنها شاة صدع

وخرج رسول الله في اثني عشر ألفا عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفين من طلقاء مكة ويقال أنه لما نظر إلى كثرة من معه قال لن نغلب اليوم من قلة فلما استقبلوا وادي حنين كان القوم قد كمنوا في الشعاب والاخبات وكسروا جفون سيوفهم فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد فانهمروا راجعين لا يلوى أحد على أحد ورسول الله ينادي هلموا أنا رسول الله ثم قال للعباس اصرخ في الناس وكان رجلا صيتا يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة ففاء فيه المسلمون وحمى الوطيس واشتدت الحرب واجتلدوا فانهزم المشركون وانحازوا إلى الطائف وأغلقوا باب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال من الدبابات والضبور والمجانيق وأصاب المسلمون من سبي هوازن ستة آلاف رأس ومن النعم والأموال ما لا يحصى وفيه يقول العباس بن مرداس السلمي
ونحن يوم حنين كان مشهدنا ... للدين عزا وعند الله مدخر
وقد ضربنا بأوطاس أسنتنا ... والله مكن يهدي وينتصر
وسار رسول الله صلعم من حنين إلى الطائف قال فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ورماهم بالمنجنيق ثم زحف نفر من أصحابه تحت الدبابة فأرسلوا عليهم الحديدة المحماة فأحرقوهم وقال النبي لأبي بكر رأيت أني أهديت إلى قعبة مملوءة زبدا فنقرها ديك فهراقت فقال أبو بكر رضه ما أظن أن تدرك هذه قال وأنا وارتحل من ساعته حتى نزل الجعرانة فأتاه وفد هوازن وفيهم ظئره حليمة بنت ذؤيب فقال يا رسول الله إنما في الحصار عماتك وخالاتك وحواضنك فأمنن علينا من الله عليك فقال أولادكم ونساءكم أحن إليكم أم أموالكم قالوا أولادنا ونساءنا قال إنما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وإذا صليت فتقدموا وقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين في أبنائنا ونسائنا ففعلوا ذلك قال النبي صلعم أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون وما كان لنا فهو لرسول الله فردوا إليهم أولادهم ونساءهم وأعطى رسول الله صلعم ذلك اليوم المؤلفة قلوبهم مائة مائة وأعطى أبا سفيان مائة وأعطى لمعاوية بن أبي سفيان مائة وأعطى صفوان بن أمية مائة وحويطب بن عبد العزي وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة وأعطى العباس بن مرداس أباعر فسخطها وقال
وكانت نهابا تلافيتها ... بكرى على المهر في الأجرع
فأصبح نهبي ونهب العبي د بين العيينة والأقرع
وما كنت دون امرئ منهما ... ومن يضع اليوم لا يرفع
فقال عم اقطعوا عني لسانه فاعطوه حتى رضي واعتمر رسول الله صلعم من الجعارنة وانصرف راجعا إلى المدينة وفي هذه السنة ولد ابراهيم بن رسول الله صلعم وأتاه جبريل فقال السلم عليك يابراهيم وفيها مات ملك دمشق الحارث بن أبي شمر الغساني فملك مكانه جبلة بن الأيهم وفيها ملكت بوران دخت بنت ابرويز فقال رسول الله عليه الصلاة والسلم حين بلغه الخبر لا يفلح قوم عليهم امرأة ثم دخلت سنة تسع من الهجرة وهي سنة براءة فبعث سرية قطبة بن عامر بن حديدة إلى خثعم فأغار وسبى وغنم ثم بعث سرية علقمة بن مجزز المدجلي إلى الساحل بمراكب الحبشة فلم يلق كيدا ثم سار إلى تبوك، ذكر غزوة تبوك وهي من حد الروم ويسمى جيش العسرة وكان سبب هذه الغزاة أن هرقل أظهر قصد رسول الله صلعم بنفسه فقال النبي تهيؤا لغزاة الروم وذلك في شدة الحر وجدب البلاد وقد طابت الظلال وأينعت الثمار وبين تبوك والمدينة تسعون فرسخا وما خرج رسول الله صلعم في

سفر إلا يورى بعيره إلى تبوك فإنه أفصح بها وبينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدد وأمر الناس بالنفقة والحملان في سبيل الله وهذه القصة مذكورة في كتاب الله في سورة براءة وخرج رسول الله في ثلاثين ألفا منهم عشرة آلاف فارس واثنا عشر ألف راكب وثمانية آلاف راجل وخلف عليا في أهله فقال رجل ما خلفه إلا استثقالا له فلما سمع علي أخذ سلاحه ومضى حتى أدركه فذكر له قول الناس فقال أما ترضى يابالحسن أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي فرضي علي ورجع وسار النبي حتى أتى تبوك وقد تفرقت جموع هرقل فلم يلق كيدا وبعث من تبوك خالد بن الوليد إلى دومة الجندل

سرية خالد بن الوليد إلى اكيدر صاحب دومة الجندل من تبوك وقد قال له النبي صلعم تجده يصيد البقر فاتاه خالد في ليلة مقمرة وهو على سطح فجاءت البقر تحك بقرونها باب القصر فخرج في فرسان وتلقاهم فأسروه وأتى به النبي صلعم فحقن دمه وصالحه على الجزية وخلى سبيله وفيه يقول

تبارك سائق البقرات أني ... رأيت الله يهدي كل هاد

فمن يك حائذا عن ذي تبوك ... فإنا قد أمرنا بالجهاد

وفي هذه السنة نزلت سورة براءة فبعث أبا بكر أميرا على الحاج وأتبعه علي بن أبي طالب مع تسع آيات من سورة براءة وأمره أن يقرأها على الناس ويؤذنهم بنقض العهد وقطع الذمة فانصرف أبو بكر إلى النبي صلعم فقال أنت الأمير وعلي المبلغ فإنه لا يبلغ رجل عني إلا مني فقام علي في الموسم والناس على سكناتهم من أهل الشرك فنادى أني رسول رسول الله إليكم قالوا بماذا قال إنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد من رسول الله فهو إلى مدته ومن لا عهد له فله المدة إلى مأمنه وتلا عليهم الآيات فقال المشركون انا نبرأ إلى الله من عهدك وعهد ابن عمك اللهم انا متعنا تبرك ثم دخلت سنة عشرة من الهجرة وهي سنة حجة الوداع فبعث سرية عكاشة بن محصن إلى الجناب فلم يلق كيدا ثم بعث سرية أسامة بن زيد إلى بلقاء من أرض فلسطين قال أثير بدم أبيك فقتل وسبى وأحرق ثم بعث سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن لقبض الصدقات ويقال كان مرتين ثم بعث سرية عبد الله بن حذافة السهمي وفي هذه ضربت الوفود إلى رسول الله صلعم وذلك أن الناس كانوا يتربصون بالإسلام فلما أسلمت قريش أسلمت العرب ودخلوا في دين الله أفواجا وفيها حج رسول الله صلعم لخمس بقين من ذي القعدة وأحج نساءه كلهن وساق الهدى وخطب خطبة الوداع ويقال خطبة البلاغ وهي مشهورة في العامة فقال يا أيها الناس اسمعوا قولي فأني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا أبدا وقفل إلى المدينة وفي هذه السنة كتب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله صلعم ثم دخلت سنة إحدى عشرة من الهجرة وهي سنة الوفاة فبعث عمرو بن العاص إلى جيفر بن جلندي الأزدي ملك عمان يدعوه إلى الإسلام وأمر أسامة بن زيد على البعث إلى الشام ومرض رسول الله مرضة قبضه الله فيها وذلك أنه نعي نفسه وأصحابه قبل موته بشهر ثم ابتدأ بشكواه في ليال بقين من ربيع الأول صلى الله عليه وعلى آله وصحابه إلى اليوم الدين أجمعين، آخر الجزء الثاني ويتلوه في الجزء الثالث الفصل السابع عشر في خلق رسول الله وخلقه صلعم والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين الطيبين وسلم تسليما كثيرا.

الجزء الخامس

الفصل السابع عشر

في صفة خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم

و خلقه و سيرته وخصائصه و شرائعه و مدة عمره و ذكر أزواجه وأولاده و

قراباته و خبر وفاته على سبيل الاختصار و الإيجاز.

ذكر خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم و خلقه قد أكثر الناس في صفته و اختلفت الرواية من طرق شتى و أحسن ما أراه حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه من رواية عيسى بن يونس عن مولى غفرة عن إبراهيم بن محمد عن رجل من ولد علي عن علي أنه كان إذا نعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لم يكن بالطويل المعط و لا القصير المتردد كان ربعه من القوم لم يكن بالجعد القطط و لا السبط كان جعداً رجلاً و لم يكن بالمطهم و لا المكلثم و كان في وجهه تدوير أبيض مشرب حمرة و أدعج العينين أهدب الأشفار جليل المشاش و الكتد أجرد ذو مسربة شثن الكفين والقدمين إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب و إذا التفت التفت معاً بين كتفيه خاتم النبوة أجود الناس كفاً و أحسن الناس صدراً و أصدق الناس لهجةً و أوفى الناس ذمةً و ألينهم عريكةً و أكرمهم عشرةً من رآه بديهة هابه و من خالطه معرفة أحبه لم يكن قبله و لا بعده مثله، هذا رواية علي كرم الله وجهه و هو أعلم به من غيره و قد فسر أبو عبيدة غريب ما في هذا الخبر و روى ابن إسحق عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها كانت إذا وصفت النبي صلى الله عليه وسلم قالت كما قال أبو طالب عمه

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به أفناء فهر بن مالك ... فهم عنده في نعمة و فواضل

و كان أصحابه يتعرفون فيه قول حسان بن ثابت

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت ... مثل النبي نبي الرحمة الهادي

ولا برى الله خلقا من خلائقه ... أوفى بذمة جار أو بميعاد

وروى عوف عن الحسن عن عائشة أنها سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه كما جاء في القرآن وإنك لعلى خلق عظيم و روى الزهري عن عروة عن ابن عباس أنه قال في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الناس خلائق و أجودهم كفاً و لقد دخل مكة عنوة بالسيف فقال ماذا تظنون ماذا تقولون فتبادروا نظن خيراً و نقول خيراً أخ كريم و ابن أخ كريم و قد قدرت فقال إني أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم فعفا عنهم جميعاً وفي رواية أنس خادم النبي صلى الله عليه أنه كان يلبس الصوف و يخصف النعل و يحلب الشاة و يكنس البيت و يركب الحمار ردفاً و يجيب دعوة العبد و لنا فيه صلى الله عليه أسوة و كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يثبت آية إلا بشهادة شاهدين عدلين فجاءه رجل بهذه الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم فقال هلم أجر شهادتك وحدك لأنه كان كذا فأما ما روى القصاص أنه كان يماشي الطوال فلا يقصر عنه و يماشي القصير فلا يطاوله و يقف في الشمس فلا يرى ظله و يسير مع الفرس الجواد فلا يسبقه و أنه كان إذا تعرى لم يقع البصر على عورته و ما خرج منه لم يوجد له رائحة فاشياً لم تصح الرواية بها و لا عرف في طباع الناس مثلها.

ذكر أباء رسول الله قد سبق من نسبه و اختلاف الناس فيه ما يغني عن الإعادة و التكرار فهو محمد النبي بن عبد الله الذبيح بن عبد المطلب شيبة الحمد و مطعم الطير و ساقي الحجيج بن عمرو هاشم الثريد و قاطع الأحقاد و

سان الائتلاف بن المغيرة عبد مناف بيضة قريش بن قصي مجمع القبائل و قصي أول من أصاب من قريش ملكاً.
ذكر أمهات رسول الله أمه التي ولدته آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر فرسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع إلى كلاب بخمسة آباء من قبل أبيه و من قبل أمه و لم يكن لأم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخ و لا أخت فيكون خال النبي و خالته و لكن بنو زهرة يزعمون أنهم أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن آمنة أمه منهم.
جدات رسول الله من قبل أبيه أم أبيه عبد الله فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم و أم أبي عبد الله عبد المطلب بن هاشم سلمى بنت عمرو من بني النجار و كانت قبل هاشم عند أحيحة بن الجلاح فولدت له عمرو بن أحيحة فهو أخو عبد المطلب لأمه و أم هاشم عاتكة بنت مرة من بني سليم و أم عبد مناف عاتكة بنت هلال و يقال حبى بنت حليل الخزاعي و قد رفعت النساب هذه الأنساب كلها إلى أصولها و لو اقتدينا بهم لبطل شرطنا الاختصار و لكن اكتفينا بما أودعت الكتب منها لأنها أشفى و أكفى إذ هي لها أفردت و لها وضعت و لكن الكتاب جامع الفنون و لا يحتمل الفن الواحد الاستقصاء و الاستكمال.
جدات النبي من قبل أمه أم أمه آمنة بنت وهب برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي و أم برة أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي و أم أم حبيب برة بنت عوف و أم عبد مناف أبي وهب زهرة و إليها ينسب ولدها دون الأب قال أبو عبيدة و لا يعرف اسم أبي عبد مناف بن زهرة و زهرة أمه و قد أقيمت في التذكير مقام الأب فقيل زهرة ابن كلاب بن مرة أخو قصي و أم زهرة و قصي فاطمة بنت سعد من أزد السراة فأما الأجداد فقد عرفتهم في نسبة الآباء.

ذكر عمومة النبي كان لعبد المطلب عشرة ذكور لصلبه و ستة إناث أما الذكور فعبد الله و الحارث و الزبير و ضرار و المقوم و حمزة و العباس و أبو طالب و اسمه عبد مناف و حجل و اسمه الغيداق و أبو لهب و اسمه عبد العزى و عاتكة و صفية و أميمة و برة و أروى و أم حكيم و هي البيضاء و لم يسلم من أعمامه غير حمزة و العباس و لا من عماته غير صفية و يقال أيضاً أروى أسلمت و الشيعة أيضاً أن أبا طالب أسلم و عبد الله أبا النبي أسلم و يزعم بعضهم أنه لم يكن في نسبه أحد كافر إلى آدم عليه السلام و كان هؤلاء لأمهات شتى ليس من عزمنا أن نذكرهن في هذا الموضع.
ذكر بني أعمامه لم يكن لعبد الله غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد و لم يعقب الغيداق و لا ضرار و لا المقوم و لا حمزة و كان لحمزة ابن يقال له عمارة و به يكنى أبا عمارة و بنت يقال لها بنت أبيها فلم يعقبوا فأما أبو لهب فولد عتبة و عتيبة و معاتباً و بنات أمهم أم جميل بنت حرب بن أمية عمة معاوية بن أبي سفيان و نوفلاً و المغيرة و ربيعة و عبد شمس و أروى أعقبوا و أسلموا و أما الزبير بن عبد المطلب فكان شاعراً ولد عبد الله بن الزبير فأسلم و لم يعقب و كانت للزبير بنات منهن ضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود و أم حكيم بنت الزبير و أما أبو طالب فولد علياً عليه السلام و عقيلاً و جعفراً و أم هانئ و أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف و أسلموا كلهم و أعقبوا غير طالب بن أبي طالب و أما العباس بن عبد المطلب فولد اثني عشر نفراً عبد الله و عبيد الله و الحارث و أمية و عبد الرحمن معبداً و قثم والفضل و ثماماً و كثيراً و صفية و أم حبيب أسلموا و أعقبوا إلا الفضل فإنه لم يعقب و سنذكر أخبارهم في موضعها.
ذكر عماته أما برة بنت عبد المطلب فكانت عند عبد الأسد رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم و أما صفية بنت عبد المطلب فكانت عند العوام بن خويلد بن عبد العزى فولدت له الزبير بن العوام و أما أميمة بنت عبد

المطلب فكانت عند جحش ابن رياب الأسدي فولدت له زينب بنت جحش و حمنة بنت جحش و عبد الله بن جحش.
ذكر أظاره يقال أن أول من أرضعته قبل حليمة بنت أبي ذويب امرأة بمكة من أهلها يقال لها ثويبة أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبا سلمة و أبا سلمة بن عبد الأسد هما رضيعاه ثم استرضع من حليمة بنت أبي ذويب واسم أبي ذويب عبد الله بن الحارث من بني بكر بن هوازن و اسم زوج حليمة الحارث بن عبد العزى من بني سعد و إخوة رسول الله من الرضاعة عبد الله بن الحارث و أنيسة بنت الحارث و جذامة بنت الحارث و لقبها الشيماء و كانت حليمة أرضعت أبا سفيان بن حرب فكان أخاه من الرضاعة و أسلم عام الفتح و كانت حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مولاة أم أسامة بن زيد وأسلمت حليمة و أولادها و زوجها.

ذكر زوجاته اختلفوا في عددهن فأكثر ما قالوا سبع عشر امرأة سوى السراري أولاهن خديجة بنت خويلد ثم سودة بنت زمعة ثم عائشة بنت أبي بكر ثم حفصة بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيبة ثم صفية بنت حيي بن أخطب ثم جويرية بنت الحارث بن ضرار وتزوج عمرة بنت زيد الكلابية وكانت قبله تحت الفضل بن عباس قال بن إسحق كانت حديثة العهد بالكفر فلما قدمت على رسول الله استعاذت منه فقال معاذ منيع فطلقها قبل أن يدخل بها أن رسول الله دعاها فقالت أنى تؤتى ولا نأتي فردها وقال قوم بل هي أميمة بنت النعمان بن شراحيل فلما دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم قال هبي لي نفسك قالت و هل تهب الملكة نفسها للسوقة فقال الحقي بأهلك و يقال بل هي مليكة الليثية والله أعلم وتزوج أسماء بنت كعب الجونية فلم يدخل بها حتى طلقها يقال رأى لمعة من برص و تزوج فاطمة بنت الضحاك فطلقها قبل الدخول وتزوج امرأة من بني بكر يقال لها عمارة وصفها له أبوها ثم قال و أزيدك أنها لم تمرض قط فقال ما لها عند الله من خلاق وطلقها ومن سراريه مارية القبطية وريحانة القرظية و لم يمت من نسائه قبله إلا اثنتان خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسع عائشة و حفصة و أم سلمة و أم حبيبة و صفية و جويرية و سودة و ميمونة و زينب بنت جحش، خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي وأمها فاطمة بنت زايدة من عامر بن لوى وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهي ابنة أربعين سنة ورسول الله ابن خمس وعشرين سنة وكانت قبله تحت عتيق بن عبد الله ويقال ابن عائذ وولدت له جارية ثم خلفه عليها أبو هالة هند بن زرارة فولدت له هند بن هند رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة وأما ابن إسحق فإنه يقول اسم أبي هالة النباش بن زرارة قال وولدت له رجلا وامرأة وولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلهم إلا إبراهيم بن مارية ومكثت عند النبي صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت و كانت وزير صدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم فآزرته بنفسها وأعانته بمالها و ظاهرته بعشرتها و كان لها جسم و جمال و شرف و عقل و قد قيل أنها أول من أسلم و صلى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن إسحق حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب قال عبد الملك بن هشام القصب اللؤلؤ المجوف قال ابن هشام حدثني من لا أتهمه أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرأ خديجة السلام من ربها فقالت الله السلام ومنه السلام ثم توفيت رضي الله عنها بعد خروجهم من الشعب بعد وفات أبي طالب بثلاثة أيام وقبل الهجرة بثلاث سنين فتزوج بعدها سودة بنت زمعة و دفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم و لم يصل عليها لأنه لم يكن سنة الموتى الصلاة عليهم، سودة كانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند السكران

بن عمرو من بني عامر بن لوي أخي سهيل بن عمرو صاحب صلح المشركين و كان السكران قد أسلم و هاجر بسودة إلى الحبشة فمات بها فخلفها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، عائشة تزوجها بمكة قبل الهجرة بسنة و هي ابنة سبع سنين و بنى بها بالمدينة و دخل بها بعد البناء بسنة و مات عنها و هي ابنة ثماني عشرة سنة و كانت بيضاء مشربة حمرة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها الحميراء و يكنيها أم عبد الله و لم يتزوج غيرها بكراً و كانت برزة من النساء جلدة لبيبة فصيحة راوية للشعر حافظة للأخبار و لها أحاديث نذكرها في قصة الجمل و أمها أم رومان و عبد الرحمن بن أبي بكر منها توفيت عائشة في زمن معاوية و قد قاربت السبعين فقال لها ألا ندفنك في بيتك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لا لأني قد أحدثت بعده و روي أنها بكت على ما كان منها حتى كف بصرها، حفصة كانت قبل النبي تحت حييش بن عبد الله بن حذافة السهمي و هي التي حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلها فأنزل الله يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك السورة و توفيت في زمن عثمان، زينب بنت خزيمة بن صعصعة و يقال لها أم المساكين لرحمتها و رقتها لهم وكانت

تحت عبيدة بن الحارث ويقال كانت تحت الحصين بن الحارث و ماتت قبله، زينب بنت جحش أمها أميمة بنت عبد المطلب فهي ابنة عمة رسول الله و كانت تحت زيد بن حارثة فطلقها و تزوج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصتها في سورة الأحزاب و كانت امرأة جسيمة و هي أول من لحق بالنبي من أزواجه بعده و أول من حملت في النعش و كانت خليقة فقال عمر نعم خبء الظعينة و صارت سنة و ذكروا أن عمر بعث إليها بعطائها مائة ألف ففرقته في الساعة ثم رفعت يديها و قالت اللهم لا تدركني عطاء لعمر بعد هذا فلم يدركها. أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب و من ها هنا يقال أن معاوية خال المؤمنين و كانت تحت عبيد الله بن جحش أخي زينب بنت جحش زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم و كان هاجر بها إلى الحبشة فتنصر عبيد الله بن جحش ثم مات بها و هو الذي كان يقول فقحنا و صأصأتم فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري فزوجها منه النجاشي فأصدقها عن النبي صلى الله عليه وسلم أربع مائة دينار و توفيت في أيام معاوية و قد قال بعض المفسرين في قوله عز وجل عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة أنها كانت حبيبته والله أعلكم وكان قدومها مع قدوم جعفر بن أبي طالب، أم سلمة بنت المخزومي اسمها هند كانت تحت أبي سلمة ابن عبد الأسد وولدت له عمرو بن أبي سلمة وزينب بنت أبي سلمة وتوفيت في أيام معاوية قال ابن إسحق تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصدقها فراشاً حشوه ليف و قدحاً و صحفة و محشة، ميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة أخت أم الفضل بنت الحارث كانت تحت العباس بن عبد المطلب أم عبد الله بن العباس تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء و أولم عليها بحيس و بنى بها بسرف و هو على عشرة أميال من مكة و ماتت بسرف و هي معتمرة في ولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه و كانت قبله تحت أبي إبراهيم بن قيس و يقال أبي سترة بن أدهم بن قيس.تحت عبيدة بن الحارث ويقال كانت تحت الحصين بن الحارث و ماتت قبله، زينب بنت جحش أمها أميمة بنت عبد المطلب فهي ابنة عمة رسول الله و كانت تحت زيد بن حارثة فطلقها و تزوج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصتها في سورة الأحزاب و كانت امرأة جسيمة و هي أول من لحق بالنبي من أزواجه بعده و أول من حملت في النعش و كانت خليقة فقال عمر نعم خبء الظعينة و صارت سنة و ذكروا أن عمر بعث إليها بعطائها مائة ألف ففرقته في الساعة ثم رفعت يديها و قالت اللهم لا تدركني عطاء لعمر بعد هذا فلم يدركها. أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب و من ها هنا يقال أن معاوية خال المؤمنين و كانت تحت عبيد الله بن جحش أخي زينب بنت جحش زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم و كان هاجر بها إلى الحبشة فتنصر عبيد الله بن جحش ثم

مات بها و هو الذي كان يقول فقحنا و صأصأتم فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري فزوجها منه النجاشي فأصدقها عن النبي صلى الله عليه وسلم أربع مائة دينار و توفيت في أيام معاوية و قد قال بعض المفسرين في قوله عز وجل عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة أنها كانت حبيبته والله أعلكم وكان قدومها مع قدوم جعفر بن أبي طالب، أم سلمة بنت المخزومي اسمها هند كانت تحت أبي سلمة ابن عبد الأسد وولدت له عمرو بن أبي سلمة وزينب بنت أبي سلمة وتوفيت في أيام معاوية قال ابن إسحق تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصدقها فراشاً حشوه ليف و قدحاً و صحفة و محشة، ميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة أخت أم الفضل بنت الحارث كانت تحت العباس بن عبد المطلب أم عبد الله بن العباس تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء و أولم عليها بحيس و بنى بها بسرف و هو على عشرة أميال من مكة و ماتت بسرف و هي معتمرة في ولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه و كانت قبله تحت أبي إبراهيم بن قيس و يقال أبي سترة بن أدهم بن قيس.

صفية بنت حيي بن أخطب النضرية كانت تحت كنانة بن أبي الربيع فلما افتتح خيبر أتي بكنانة و قيل أن عنده كنز بني النضير فدفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الزبير بن العوام و قال عذبة حتى نستأصل ما عنده فجعل الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على الموت ثم ضرب عنقه و أتي بامرأته صفية و بعينها أثر لطمة فقال رسول الله عليه السلام ما هذه قالت رأيت في المنام كان القمر من السماء وقع في حجري فقصصتها على كنانة فقال يمسي ملك الحجاز محمد فأعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم و جعل عتقها صداقها و توفيت في أيام عثمان بن عفان و كانت أعطيت من الجمال حظاً جسيماً، جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق سبيت فيمن سبيت في غزاة بني المصطلق فوقعت جويرية في قسم ثابت بن زيد شماس الأنصاري فكاتبته على نفسها و كانت امرأة حلوة الملاحة لا يراها أحد إلا أخذته بجامع قلبه فأتت النبي صلى الله عليه وسلم تستعينه في قضاء كتابتها فقال هل لك في خير من ذلك قالت و ما هو قال أقضي عنك كتابتك و أتزوجك قالت نعم ففعل و خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحارث فقالوا أصهار رسول الله فأرسلوا كل ما بأيديهم من سبي بني المصطلق فلم يكن امرأة أعظم منها على قومها و لا أدري تحت من كانت قبله و توفيت في أيام معاوية و اختلفوا في التي وهبت نفسها للنبي قال ابن إسحق هي ميمونة بنت الحارث فلما انتهت إليها خطبة النبي صلى الله عليه وسلم و هي على بعير فقالت للبعير و ما عليه لرسول الله و يقال خولة بنت حكيم و يقال بل كانت زينب بنت جحش و كانت تقول أنا زوجنيه الله بعد زيد و يقال أم شريك بنت جابر و روى شعبة عن الحكم عن مجاهد في قوله و امرأة مؤمنة أن و هبت نفسها للنبي قال ما تهب.

ذكر أولاد رسول الله كانوا سبعة و يقال ثمانية و كلهم من خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية و روى سعيد بن أبي عروة عن قتادة قال ولدت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبد مناف في الجاهلية و ولدت له في الإسلام غلامين و أربع بنات القاسم و به كان يكنى أبا القاسم فعاش حتى مشى ثم مات و عبد الله مات صغيراً و أم كلثوم و زينب و رقية و فاطمة و روى أبان عن مجاهد قال مكث القاسم سبع ليالٍ و مات و في كتاب ابن إسحق أكبر بنيه القاسم ثم الطيب ثم الطاهر و أكبر بناته رقية و زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة قال فأما أبناؤه فهلكوا في الجاهلية و أما بناته فأدركن الإسلام و هاجرن قال الواقدي لم أر أصحابنا يثبتون الطيب و يزعمون أن الطيب هو الطاهر و مات القاسم و الطاهر قبل النبوة و قال قوم بل سمي الطيب الطاهر لأنه ولد في الإسلام و الله أعلم و

أما إبراهيم بن رسول الله فأمه مارية القبطية و كان المقوقس ملك الاسكندرية بعث بها مع أختها شيرين فوهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت الشاعر عوضاً من الضربة التي ضربه صفوان بن المعطل في شأن الإفك فولدت له عبد الرحمن بن حسان فهو ابن خالة إبراهيم و توفي و هو ابن سنة و عشرة أشهر فقال النبي صلى الله عليه وسلم أن له مرضعة تتم رضاعه في الجنة و أنه من عصافير الجنة و كسفت الشمس في ذلك اليوم فقالت الناس إنما كسفت لموت إبراهيم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أن الشمس و القمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد و لا لحياته فإذا رأيتم فافزعوا إلى الصلاة و دفنه عند عثمان بن مظعون و قال العين تدمع و القلب يحزن و لا نقول ما يسخط الله و ماتت مارية في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان زوجها عتبة بن أبي لهب و زوج أم كلثوم عتيبة ابن أبي لهب فمشى إليهما قريش و قالوا طلقاها و نزوجكما من شئتما من أشراف قريش فطلقاها فزوج رسول الله رقية عثمان بن عفان و هاجرت معه في الهجرتين إلى الحبشة و أسقطت في الهجرة الأولى علقة في السفينة فهذا يدل أنها كانت ولدت في الجاهلية ثم ولدت لعثمان عبد الله بن عثمان و بلغ ست سنين فنقره ديك في عينه فطمر وجهه فمات و ماتت رقية بنت رسول الله سنة ثلاث من الهجرة بالمدينة فزوج النبي عثمان أم كلثوم فمكثت عنده خمس سنين و توفيت سنة ثمان من الهجرة فروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لو كانت عندنا ثالثة لزوجناها أبا عمر وبهما يكنى ذا النورين، زينب بنت الرسول كان زوجها أبا العاص القاسم بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس و أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة رضي الله عنها فكان أبو العاص ابن خالة زينب و هي ابنة خالته و لما طلق عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب رقية و أم كلثوم قالت قريش لأبي العاص طلق زينب بنت محمد و نزوجك ابنة سعيد بن العاص فقال لا أفارق صاحبتي و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثني على صهره خيراً فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم و بعث أبا رافع وزيد بن حارثة يحمل أهله و بناته حبس أبو العاص زينب عن الخروج إلى أبيها ثم أسر أبو العاص يوم بدر فبعثت زينب بمال في فدائه فيه قلادة لخديجة كانت حلتها ليلة أدخلت على أبي العاص فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك القلادة تذكر ما مضى ورق لها رقة شديدة وعلم أنه كان بيدها فضل ما بعثت بالقلادة فقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها و تردوا عليها هذه القلادة فأطلقوا عنه بغير فداءٍ فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسرح ابنته إليه فلما قدم مكة قال الحقي بأبيك فتجهزت و خرجت إلى المدينة ثم إن أبا العاص خرج في تجارة له في الشام فلقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا ما معه و أعجزهم هاربا بنفسه حتى دخل المدينة تحت الليل و أتى زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجارته فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم و كبر لصلاة الفجر صفقت زينب و صرخت من صف النساء و قالت أيها الناس إني أجرت أبا العاص بن الربيع فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل سمعتم ما سمعت قالوا نعم يا رسول الله قال أما و الذي نفسي بيده ما علمت أنه يجير على المسلمين أدناهم ثم دخل على ابنته و قال أكرمي مثواه و لا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له و بعث إلى السرية

فردوا ما أخذوا من ماله حتى الشنة و الشظاظ فاحتمله إلى مكة و أدى إلى كل ذي حق حقه ثم نادى يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي شيء قالوا جزاك الله خيراً فقد وجدناك مليا وفيا قال أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً عبده و رسوله ثم خرج إلى المدينة و كانت ولدت زينب غلاما اسمه علي بن العاص و بنتاً اسمها أمامة و كان علي مسترضعا في بني غاضرة فافتصله رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبوه يومئذٍ مشرك و قال و ما شاركني في ابني فأنا أحق به منه و أما أمامة فهي التي روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي و أمامه

على عاتقه فإذا سجد وضعها و إذا قام رفعها و توفيت زينب سنة عشرة من الهجرة فكانت أمامة في حجر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأوصى إلى المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب أن يزوجها و قال إني أخاف أن يتزوجها معاوية فتزوجها المغيرة و كان قاضي المدينة في زمن عثمان فولدت له يحيى بن المغيرة و لم يعقب، فاطمة هي أصغر بناته زوجها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد مقدمه المدينة بسنة و أصدقها ثمن درع له أربع مائة درهم و بنى بها بعد النكاح بسنة فولدت له الحسن سنة ثلاث من الهجرة و علقت بالحسين و كان بين العلوق و الوضع خمسون يوما و ولدت محسناً و هو الذي تزعم الشيعة أنها أسقطته من ضربة عمر و كثير من أهل الآثار لا يعرفون محسناً و ولدت أم كلثوم الكبرى و زينب الكبرى فكان جميع ما ولدت فاطمة خمسة نفر و توفيت فاطمة بعد النبي بمائة يومٍ و يقال بثلاثة أشهر و لم يبايع علي أبا بكر ما لم يدفن فاطمة و ذكر ابن دأب أنها ماتت عاتبة على أبي بكر وعمر والله أعلم و كانت أحب البنات إلى رسول الله و ألطفهن به و لم يتزوج علي عليها حتى ماتت رضوان الله عليهم أجمعين. ما أخذوا من ماله حتى الشنة و الشظاظ فاحتمله إلى مكة و أدى إلى كل ذي حق حقه ثم نادى يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي شيء قالوا جزاك الله خيراً فقد وجدناك مليا وفيا قال أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً عبده و رسوله ثم خرج إلى المدينة و كانت ولدت زينب غلاما اسمه علي بن العاص و بنتاً اسمها أمامة و كان علي مسترضعا في بني غاضرة فافتصله رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبوه يومئذٍ مشرك و قال و ما شاركني في ابني فأنا أحق به منه و أما أمامة فهي التي روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي و أمامه على عاتقه فإذا سجد وضعها و إذا قام رفعها و توفيت زينب سنة عشرة من الهجرة فكانت أمامة في حجر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأوصى إلى المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب أن يزوجها و قال إني أخاف أن يتزوجها معاوية فتزوجها المغيرة و كان قاضي المدينة في زمن عثمان فولدت له يحيى بن المغيرة و لم يعقب، فاطمة هي أصغر بناته زوجها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد مقدمه المدينة بسنة و أصدقها ثمن درع له أربع مائة درهم و بنى بها بعد النكاح بسنة فولدت له الحسن سنة ثلاث من الهجرة و علقت بالحسين و كان بين العلوق و الوضع خمسون يوما و ولدت محسناً و هو الذي تزعم الشيعة أنها أسقطته من ضربة عمر و كثير من أهل الآثار لا يعرفون محسناً و ولدت أم كلثوم الكبرى و زينب الكبرى فكان جميع ما ولدت فاطمة خمسة نفر و توفيت فاطمة بعد النبي بمائة يومٍ و يقال بثلاثة أشهر و لم يبايع علي أبا بكر ما لم يدفن فاطمة و ذكر ابن دأب أنها ماتت عاتبة على أبي بكر وعمر والله أعلم و كانت أحب البنات إلى رسول الله و ألطفهن به و لم يتزوج علي عليها حتى ماتت رضوان الله عليهم أجمعين.

حفدة رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عثمان و علي بن أبي العاص و أمامة بنت أبي العاص و الحسن و الحسين و محسن و أم كلثوم و زينب ثمانية نفر.

ذكر مماليكه وعبيده زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي و أبو رافع و اسمه سالم و سفينة و يسار و أبو مويهبة و ثوبان وشقران و أبو كبشة و أبو ضمرة و وهبة وفضالة و مدعم و انجشة و من الإماء ريحانة القرظية و مارية القبطية و صفية و أم أيمن و يقال ورثها من أبيه وكذلك يقال في شقران و أما أبو بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة طبيب العرب فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر الطائف قال أيما عبد نزل فهو حر فتدلى أبو بكرة وأمه سمية أم زياد بن أبي سفيان و مات أبو بكرة عن أربعين ولداً من بين ذكر و أنثى فغير معاوية ولاءه وجعله في ثقيف إلى أن رده المهدي إلى ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد نسب زياد بن عبيد من نسبهم إلى أبي سفيان إلى أبيهم عبيد و كتب به كتاباً إلى عمال النواحي و الأطراف حتى قرئت على المنابر و شاع ذلك في الناس، زيد بن حارثة قال بعض

الرواة أن خديجة ابتاعته من سوق عكاظ بأربع مائة درهم و وهبته للنبي صلى الله عليه وسلم فأعتقه و تبناه و كان يقال له زيد بن محمد حتى نزل ادعوهم لآبائهم الآية و زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مولاته فولدت له أسامة بن زيد و لأسامة ابنان يروى عنهما محمد بن أسامة و الحسن بن أسامة و روى ابن إسحق أن أخ لخديجة قدم من الشام برقيق فوهب لخديجة زيداً و كان ظريفاً لبقاً فاستوهبه منها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبته له فأعتقه و تبناه و كان حارثة أبوه قد جزع جزعاً شديداً فجاءه في طلبه وهو يقول

بكيت على زيد و لم ادر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فو الله ما أدري وإني لسائل ... أغالك عني السهل أم غالك الجبل
ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة ... فحسبي من الدنيا رجوعك إن بجل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... و يعرض ذكراه إذا غربها أفل
سأعمل نص العيس ما عشت جاهداً ... و لا أسأم التطواف أو يسأم الجمل
حياتي أو يقضى على منيتي ... فكل امرءٍ فانٍ و إن غره الأمل

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إن شئت فأقم عندنا وإن شئت فانطلق مع أبيك فقال أقيم عندك فلم يزل عنده إلى أن قتل بمؤتة رحمه الله، أبو رافع يقال أن العباس كان وهبه النبي صلى الله عليه وسلم فلما بشره بإسلام العباس أعتقه و زوجه مولاةً له اسمها سلمى فولدت له عبد الله وعبيد الله فأما عبد الله فكان من أشراف المدينة و أما عبيد الله فكان كاتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه و أرضاه،سفينة يقال اسمه مهران و يقال له رباح و سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفينة لأنهم كانوا في سفر فكان من أعيى و كل ألقى عليه بعض متاعه و يقال بل عبر بهم نهراً و هو الذي روى الخلافة بعدى ثلاثون ثم يكون الملك، شقران يقال ورثه من أبيه و يقال ابتاعه من عبد الرحمن بن عوف و أعتقه و هو الذي روى أنا الذي طرحت القطيفة تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر و اسمه صالح ثوبان يكنى أبا عبد و هو الذي روى في مسجد دمشق أنا الذي صببت الماء على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم و أعطيته قدحاً فأفطر و مات بحمص و له بها دار صدقة، يسار كان نوبياً وهو الذي قتله العرنيون حين أغاروا على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعوا رجليه و يديه وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه أبو كبشة اسمه سليم توفي أول يوم استخلف فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فصلى عليه و دفن، مدعم و هو الذي غل قطيفة من غنائم خيبر فقال النبي صلى الله عليه وسلم بعدما استشهد إن الشملة التي غلها يوم خيبر تحترق عليه في النار، أبو ضميرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو مما أفاء الله عليه و كتب له كتاباً في الانتماء فهو في أيدي ولده إلى اليوم، أبو مويهبة هو الذي خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع فاستغفر لهم فرجع ليلة ابتداء شكواه، وهبة و فضالة مما أفاء الله عليه، انجشة هو الذي كان يحدو بالظعن فقال له رويدا يا انجشة، و يقال سلمان من موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم و لذلك قال سلمان منا أهل البيت وأنس بن مالك خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين،ذكر دوابة و دوابة حفظ له ستة أرؤسٍ من الخيل السكب و لزاز و الظرب و الورد و اللحيف و المرتجز وهو الذي ابتاعه من الأعرابي ثم ساومه بأكثر من ذلك فأنكر الأعرابي أن يكون باعه رسول الله حتى شهد خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أتشهد على ما لم تره فقال بلى أشهد على الوحي و لا أراه فأقام شهادته مقام شهادتين و كانت له بغلة يقال لها دلدل بعثها المقوقس ملك الإسكندرية مع مارية و بقيت إلى زمن معاوية و حمار يقال له يعفور و كان له من النوق العضباء و الجدعاء و القصواء و كانت لقاحه التي أغارت عليها عيينة بن حصن عشرين لقحةً و كان اسم سيفه ذا الفقار و اسم درعه

الفاضلة و اسم عمامته السحاب و له من الضياع و قرى عريبة و فدك و النضير و كثير من خيبر و حمل إليه العلاء بن الحضرمي من مال البحرين مائة و ثمانين ألفاً و كان نفقته في تسع بيوت دارة.

ذكر معجزاته أعلم أن هذا الباب يستعظمه أهل الشك و الإلحاد لما فيه من مخالفة الطبع و الخروج عن العادة و قد جرى في الرد على منكري الرسل و الرسالة و إيجاب النبوة ما يغني عن الإعادة لأن سبيل نبينا صلى الله عليه وسلم في ذلك سبيل سائر النبيين عليه السلام غير أن في هذه الأخبار ما يتواتر به الرواية و منها ما ينفرد به راوٍ واحد و ينقطع عن الاتصال بالسند و منها ما ينطق به القرآن أو يدل عليه أثر و تشهد به كتب الله سبحانه المنزلة و قد صنف المسلمون في هذا كتبا كثيرة جمة أهل الأثر بالأثر و الأخبار و أهل النظر بالشواهد و الدلائل و لو قلت أنها تستغرق فصول هذا الكتاب أو توازيها لما اشتطت فأردت أن أضمن هذا الفصل منها قدراً لئلا يخلو الكتاب من ذكرها، روي أن النبي سئل متى كنت نبياً قال كنت نبيا و آدم بين الماء والطين و روي أنه قال و آدم في طينته و قد قال العباس في مدحه

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودعٍ حيث يخصف الورق

ثم هبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة و لا علق

بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسراً وأهله الغرق

تنقل من صالبٍ إلى رحم ... إذا انقضى عالم بدا طبق

و أنت لما ولدت أشرقت ... الأرض و ضاءت بنورك الأفق

و روى بعض الرواة أن آدم لما وقع الخطية لقي في الكلمات التي تلقاها من ربه اللهم بحق محمد إلا غفرت لي و يذكره بعض الشعراء في شعره يمدح أهل البيت

قد فاز آدم إذ كنتم وسيلته ... وكان من ذنبه مستشعراً فرقا

يقول الله عز و جل النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل الآية و قوله تعالى و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد و قال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم و قال تعالى قل فأتوا بالتورية فاتلوها إن كنتم صادقين و هذا مما لا يخالج عاقلاً فيه شك و لا تعترضه شبهة في أنه غير جائز للخصم المخالف أن يستشهد على خصمه بما في كتابه وينتصر بالتسمية عليه من غير أصلٍ ثابتٍ عنده أو مرجوع واضح لديه و هل الاستشهاد على هذا إلا بمنزلة الاستشهاد على المحسوس الذي لا يكاد يقع الاختلاف فيه فكفى بما تلونا من الآيات دلالة على صدق ما ادعينا و إن لم نأت بلفظها من التورية بالعبرانية ولا من الإنجيل بالسريانية و لو كان النبي مبطلاً في دعواه لما امتنع القوم من معارضته بالتكذيب في وجهه و قطع مادته و قد خرج العلماء علاماته و دلائله من التورية و الإنجيل و سائر كتب الله المنزلة.

ذكره صلى الله عليه وسلم في التوراة قرأت في نسخة أبي عبد الله المازني يا داود قل لسليمان من بعدك أن الأرض لي أورثها محمداً و أمته ليست صلاتهم بالطنابير ولا يقدسوني بالأوتار و مصداق ذلك في القرآن و لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر إن الأرض يرثها عبادي الصالحون و فيه أن الله عز و جل يظهر من صهيون إكليلا محموداً قالوا فالإكليل مثل الرياسة و الإمامة و المحمود محمد صلى الله عليه وسلم.

ذكره في الإنجيل في غير موضع قال المسيح عليه السلام للحواريين أنا أذهب و سيأتيكم الفارقليطا روح الحق الذي لا يتكلم من تلقاء نفسه و هو يشهد لي بما شهدت له و ما جئتكم به سراً يأتيكم به جهراً و قال أن الفارقليطا روح

الحق الذي أرسله أبي باسمي هو الذي يعلمكم كل شيء و قال الفارقليطا لا يحكم ما لم أذهب و قال ابن إسحق في الإنجيل ما أثبت يحنس الحواري حيث يسبح لهم من صفة النبي صلى الله عليه وسلم لابد أن يتم الكلمة التي في الناموس فلو قد جاء ابنحمنا بالسريانية محمداً و بالرومية البرقليطس و زعم العتبي أن محمداً بالسريانية مشفح و الله أعلم و في التوراة من ذكره و ذكر أمته شيء قليل يقول الله عز و جل في السفر الأول في مخاطبة إبراهيم عليه السلام حيث دعا لإسحق و إسماعيل و قد أثبتت هذا الحرف بخط العبراني و لفظه و بينت و وجوهه و معانيه و حروفه لأني رأيت كثيراً من أهل الكتاب يسرعون إلى تكذيب هذا الفصل بعد إطباقهم على مخالفة التأويل تقليداً منهم لأوائلهم و ذلك أن بخت نصر لما خرب بيت المقدس و أحرق التورية و ساق بني إسرائيل إلى أرض بابل ذهبت التورية من أيديهم حتى جددها لهم عزير فيما يحكون و المحفوظ عن أهل المعرفة بالتواريخ و القصص أن عزيراً أملى التورية في آخر عمره و لم يلبث بعدها أن مات و دفعها إلى تلميذ من تلامذته و أمره بأن يقرأها على الناس بعد وفاته فعن ذلك التلميذ أخذوها و دونوها و زعموا أن التلميذ هو الذي أفسدها و زاد فيها و حرفها فمن ثم وقع التحريف و الفساد في الكتاب و بدلت ألفاظ التورية لأنها من تأليف إنسان بعد موسى لأنه يخبر فيها عما كان من أمر موسى عليه السلام و كيف كان موته و وصيته إلى يوشع بن نون و حزن بني إسرائيل و بكاؤهم عليه و غير ذلك مما لا يشكل على عاقل أنه ليس من كلام الله عز و جل و لا من كلام موسى و في أيدي السامرة توراة مخالفة للتورية التي في أيدي سائر اليهود في التواريخ و الأعياد و ذكر الأنبياء و عند النصارى تورية منسوبة إلى اليونانية فيها زيادة في تواريخ السنين على التورية العبرانية ألف و أربع مائة سنة و نيف و هذا كله يدل على تحريفهم و تبديلهم إذ ليس يجوز وجود التضاد فيها من عند الله فكيف يحتجون بالنقل و هذا سبيل نقلهم و إنما بينت لك لئلا يفشلك قولهم ليس لمحمد في التورية ذكر و هذا موضع ذكره بالعبرية ثم نعجم تحتها بحروف العبرية ثم نعبر عنها بلفظها ألفاظ العبرية مؤداة بحروف العربية يقول الله تعالى لإبراهيم سمعت دعاك في إسماعيل هاه باركت يقول الله عز و جل و كثرت عدده و أنميته جداً جداً حتى لا تعد كثرته يقول الله عز و جل اثنا عشر ملكاً يولده و أظهره لأمة عظيمة، و هذا الفصل في تخريجات أصل الإسلام بلفظ العربية يقول الله عز و جل و قد أحببت دعاك في إسماعيل و باركت عليه و باركته و عظمته جداً جداً و سيلد إثنى عشر شريفاً و أجعله لأمة عظيمة، يقول الله عز و جل من يمانيه إنس لهم نار مشرقة و ساعير جبال فلسطين وهو من حد الروم وفاران جبال مكة بدلالة التورية أن إبراهيم أسكن هاجر و إسماعيل فاران و هذا الفصل في تخريجات أهل الإسلام بلفظ العربية جاء من سيناء و أشرق من ساعير و استعلن من جبال فاران قالوا و معنى مجيه من سيناء إنزاله التورية على موسى و إشراقة من ساعير إنزاله الإنجيل و استعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وكم في التورية والإنجيل من الدلائل عليه و على أصحابه و على مها جرتهم و بواديهم حتى ذكروا أصواتهم و قرآنهم و هيآتهم في صلاتهم و قتالهم و لكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نورٍ و اعلم أن حروفهم حروف أعجمية لا يمكن اللفظ بها إلا بعد تحويلها إلى العربية كالحرف الذي بين القاف والكاف و الحرف الذي بين الباء و الفاء ثم يقع في قراءتهم المد و الإمالة ما يسمع السامع واواً أو ياءً و لا صورة له في الخط و لابد أن في كتابتنا و قراءتنا مقصراً عمن يهمز كما يقع التقصير في لغتنا و المراعى من ذلك المعنى لا غير، و روى الواقدي بينا كسرى في بيته الذي يخلو فيه إذ وقف عليه شيخ أعرابي قد حنى ظهره و في يده عصا فقال يا كسرى إن الله عز و جل قد بعث رسولاً فأسلم تسلم و إن لم تسلم كسرت هذه العصا فذهب ملكك فقال أخر عني هذا إتراء ثم خرج فأرسل

إلى الحجاب و البوابين فقطع بعضهم و قتل بعضهم و قال يدخل علي العرب بغير إذنكم فنظر فإذا ذاك اليوم الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم و أوحى الله إليه ثم قال ثم جاءه في العام القابل إن أسلمت و إلا كسرت العصا فلم يسلم فكسر العصا و ذهب ملكه و دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلق إلى الله عز و جل وتلقاه ورقة بن نوفل في بعض طرق مكة فقال يا محمد إنه لم يبعث نبي قط إلا كانت له علامة فما علامة نبوتك قال عليه السلام لشجرة يا شجرة تعالى فأقبلت تخذى في الوادي خذياناً حتى وقفت بين يديه فقال ورقة إنك لرسول الله و روى ابن إسحق عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت إن أول ما ابتدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ثم حببت إليه الخلوة فكان يتحنث بحراء ثم أتاه الملك و في كتاب الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتاه الوحي أقبل منصرفاً إلى منزله فلم يمر بحجر و لا شجر إلا و كان وهبان السلمي يرعى في غنم له إذ هجم عليه ذئب فأخذ شاةً فشد عليه وهبان فاستنقذها منه فنحى الذئب و أقعى على ذنبه قال ويحك تأخذ مني رزقاً ساقه الله تعالى إلي فقال وهبان ما رأيت كاليوم ذئباً يخاطبني و الله إن كنا لنسمع أن هذا من أشراط الساعة فقال الذئب و أعجب مني أن رسول الله بين هؤلاء النخلات و هو يومئ إلى المدينة و يدعو الناس إلى عبادة الله و هم يلوون فأقبل وهبان حتى أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم و أسلم و أخبره بما رأى فقال إذا صلى الناس فحدثهم بذلك فأقبل وهبان بعد الصلاة فحدث الناس بما رأى فقال رجل من المنافقين كذبت فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق في أن آيات الساعة تكون قبل الساعة و الذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يخرج أحدكم من أهله و يخبره علاقة سوطه بما أحدث أهله بعده و ما من أعجوبة مضت إلا و سيكون في أمتي مثلها و قد قال بعض أهل التفسير أن في كلام الذئب نزلت هذه الآية هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها و بنو وهبان يسمون بني مكلم الذئب إلى اليوم و هو أمر مشهور و روى أن ظبية كلمته و كذلك الناضح و شاة القصاب و أنشدت قصيدة منسوبة إلى قطرب النحوي يذكر فيها عدة معجزات و يقول فيها الحجاب و البوابين فقطع بعضهم و قتل بعضهم و قال يدخل علي العرب بغير إذنكم فنظر فإذا ذاك اليوم الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم و أوحى الله إليه ثم قال ثم جاءه في العام القابل إن أسلمت و إلا كسرت العصا فلم يسلم فكسر العصا و ذهب ملكه و دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلق إلى الله عز و جل وتلقاه ورقة بن نوفل في بعض طرق مكة فقال يا محمد إنه لم يبعث نبي قط إلا كانت له علامة فما علامة نبوتك قال عليه السلام لشجرة يا شجرة تعالى فأقبلت تخذى في الوادي خذياناً حتى وقفت بين يديه فقال ورقة إنك لرسول الله و روى ابن إسحق عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت إن أول ما ابتدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ثم حببت إليه الخلوة فكان يتحنث بحراء ثم أتاه الملك و في كتاب الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتاه الوحي أقبل منصرفاً إلى منزله فلم يمر بحجر و لا شجر إلا و كان وهبان السلمي يرعى في غنم له إذ هجم عليه ذئب فأخذ شاةً فشد عليه وهبان فاستنقذها منه فنحى الذئب و أقعى على ذنبه قال ويحك تأخذ مني رزقاً ساقه الله تعالى إلي فقال وهبان ما رأيت كاليوم ذئباً يخاطبني و الله إن كنا لنسمع أن هذا من أشراط الساعة فقال الذئب و أعجب مني أن رسول الله بين هؤلاء النخلات و هو يومئ إلى المدينة و يدعو الناس إلى عبادة الله و هم يلوون فأقبل وهبان حتى أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم و أسلم و أخبره بما رأى فقال إذا صلى الناس فحدثهم بذلك فأقبل وهبان بعد الصلاة فحدث الناس بما رأى فقال رجل من المنافقين كذبت فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق في أن آيات الساعة تكون قبل الساعة و الذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يخرج أحدكم من أهله و يخبره علاقة سوطه

بما أحدث أهله بعده و ما من أعجوبة مضت إلا و سيكون في أمتي مثلها و قد قال بعض أهل التفسير أن في كلام الذئب نزلت هذه الآية هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها و بنو وهبان يسمون بني مكلم الذئب إلى اليوم و هو أمر مشهور و روى أن ظبية كلمته و كذلك الناضح و شاة القصاب و أنشدت قصيدة منسوبة إلى قطرب النحوي يذكر فيها عدة معجزات و يقول فيها

فمنها كلام الذئب للرجل الذي ... رأى الذئب في أغنامه يتردد
عجبت لأخذ الشاة مني رزقتها ... و هذا رسول الله يؤدي و تجحد
فخلى عن الشاة التي كان ضمها ... فأقبل للإسلام يسعى و يحفد
قالوا و مر بغنم لعبد القيس و هم يسمونها في وجوهها فنهاهم و أمرهم بالوسم في الآذان و وسم شاة منها فبقيت تلك السمة في أولادها إلى اليوم و فيها يقول
و شاة لعبد القيس مد بأذنها ... فلاحت سمات منه تبقى و تخلد
كأن على أولادها منه ميسماً ... يدين على أولادها حين تولد
و شاة أم معبد من العجائب و أمرها مشهور شائع و كذلك الشاة المصلية المسمومة التي أهدتها إليه امرأة سلام بن مشكم اليهودية فأخذ منها فلاكها و لم يسغها و قال إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم ثم لفظ بها و كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر حن الجذع حتى أتاه النبي عليه السلام فالتزمه و قال لو لم ألتزمه لحن إلى يوم القيامة و فيه يقول
و من ذاك جذع حن شوقاً إلى النبي ... فما زال ساعات يميد و يسند
و قد سمعوا صوتاً من الجذع نفسه ... فيا عجباً ممن يلط و يلحد
و وضع يده صلى الله عليه وسلم في ثردة كانت طعام رجلين فنزلت فيها البركة حتى صدر عنها ثلاث مائة و أكثر و فيها يقول
و منها ثريد كان قوتاً لواحدٍ ... فأشبع منه الخلق و الخلق شهد
ثلثمائة أطعموا منه فاكتفوا ... و ما كان يكفي واحداً يتزهد
و ألووا يوم حفر الخندق بعثت امرأة عبد الله بن رواحة بكف من تمر مع ابنتها إلى زوجها فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم فصبها في ثوب له ثم نادى يا أهل الخندق هلموا إلى الغداء فصدروا شباعاً و بقيت بقية صالحة و فيه يقول
و في مزود إحدى و عشرين تمرة ... به جاءت الأخبار تروى و تسند
ثلاثة آلاف قضوا منه شبعهم ... وما تركوا بعد امتلا منه مزود
قالوا و رمى الكفار يوم بدر بكف من تراب و قال شاهت الوجوه فولوا منهزمين و كذلك يوم حنين و فيه يقول
و رميته الكفار بالترب في الوغى ... غداة حنين فابذعروا و بددوا
قالوا و مسح وجه ابن ملجان بيده فصارت في وجهه مسحة ملك و فيه يقول
ووجه ابن ملجان أضاء بكفه ... فأشرق لما مسه يتورد
قالوا و انقطع سيف عكاشة بن محصن في بعض الحروب فأعطاه جريدة نخلٍ فصارت صفيحة يمانيةً فهي عند ولده إلى اليوم و فيه يقول
و أعطى عكاشاً شطر نخلٍ فهزه ... فصار يمانياً له يتوقد
قالوا وفي الخندق ظهرت كدية فأخذ المعول وضربها ثلاث ضرباتٍ رؤى فيها قصور الشام و اليمن و المشرق

ففتحها الله عليه و فيه يقول

وفي صخرة يوما علاها بمعول ... أضاءت له الآفاق و الناس حشد

قالوا و لما نزل الحديبية قالوا كيف تنزل و لا ماء فأخرج سهماً من كنانته و غرزه في بئرٍ عاديةٍ فجاشت بالماء و فيه يقول

و من ذاك بئر نازح فار ماؤها ... يجيش رواعاً زائداً يتزيد

و في الشارف الساني أدل دلالة ... و في جمل القصاب للذبح معتد

قالوا و أتاه أعرابي بضب فقال و الله لا أومن بك حتى يؤمن هذا الضب فشهد الضب بأنه رسول الله و فيه يقول

و في الضب إذ قال النبي محمد ... أتشهد لي يا ضب قال سأشهد

و في الغار قد لانت له الصخرة التي ... إليها التجا فيه و هو متوسد

وأظهر من عرج يريد علامة ... على صدقه حتى القيامة يشهد

روى أنه انتهى إلى عرج جبلٍ أخلق لا فج فيه ولا مسلك ففرجه الله له حتى صار طريقاً مهيعاً قالوا وأراد الشأم لبعض حاجاته فاعترض له سيل هاب القوم اقتحامه فتقدمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار طريقاً يبساً وفيه يقول

و قحم في السيل القعاف بعيره ... فصار طريقاً يابساً يتجرد

ذكر إخباره في الغيوب فمن ذلك قوله لعمار بن ياسر يقتلك الفئة الباغية فقتله أهل الشام بصفين و ذكر عمرو بن العاص ذلك لمعاوية فقال ما تزال تأتينا بهنةٍ تضدحض بها في بولك أنحن قتلناه إنما قتله علي حين جاء به و منها قوله لأبي ذرٍ الغفاري و قد تخلف في بعض مراحل تبوك تعيش وحدك و تموت وحدك فكيف بك إذا أخرجت من المدينة لقولك الحق فنفي في أيام عثمان إلى الربذة و مات بها وحده ومنها قوله بعليٍ عليه السلام ألا أخبرك بأشقى الناس قال نعم قال عاقر ثمود و الذي يخضب هذه من هذه و وضع يده على هامته و لحيته فضربه ابن ملجم على رأسه حين قتله و منها قوله كأني أنظر إلى سواري كسرى في يدي سراقة بن مالكٍ و الله لننفقن كنوزه في سبيل الله فلما حمل سعد بن أبي وقاص خزائن كسرى من المدائن إلى المدينة فصبت الأموال في صحن المسجد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه سراقة بن مالك أن يلبس سواري كسرى في يديه تصديقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظر الناس إليها و شهدوا بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم و منها ليلة قتل شيرويه أباه أبرويز أن الله قتل كسرى بعد مضي سبع ساعات من هذه الليلة فحسبوا التاريخ فكان كذلك و منها قوله لما ضلت ناقته قال المنافقون أنه يخبر عن السماء و لا يدري أين ناقته فصعد المنبر و حكى قولهم ثم قال إني لا أعلم إلا ما علمني ربي و أنها في وادي كذا قد تعلق زمامها بشجرة فبادر الناس فوجدوها كذلك و منها نعيه للنجاشي إلى أصحابه بالمدينة و هو بالحبشة و قال اخرجوا بنا حتى نصلي على أخينا ثم تتابعت الأخبار بموته في ذلك اليوم و منها ليلة أسري به سألوه عما رأى في طريقه فقال مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياما و لهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه فكشفته فرمى القوم بأبصارهم إلى الثنية فما ردوها حتى طلع العير يقدمهم جمل أورق.

في أخوات لهذه مشهورة في الناس يطول الكتاب بذكرها فإن قيل المنجمة و الكهان قد يخبرونا عن الكوائن قيل العادة قد جرت بمعرفة شيءٍ من ذلك بالتكهن و التنجيم من طريق الحساب و دلائله و ذلك عندنا باطل إلا بالاتفاق و البحث و إذا كان كذلك استوى فيه المنجم و غير المنجم و إنما الإعجاز في إصابة من يصيب في جميع ما يخبر به من غير استدلال بالحساب و لا بالنجوم و هكذا سبيل الأنبياء صلى الله عليهم أجمعين فيما يخبرون به لأنه

الوحي السماوي.
ذكر دعواته للمستجابة من ذلك دعاؤه على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف فنزل فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبينٍ وألحت عليهم سنوات منكرات حتى أكلوا الكلاب والجيف والقد و العلهز و منها دعاؤه على عتبة بن أبي لهب بعدما طلق ابنته معاداة له و قد نزلت سورة النجم فقال أنا كافر برب النجم فقال النبي عليه السلام اللهم سلط عليه كلباً من كلابك يمزق جلده و يمزع لحمه و يهشم عظمه فلما سمع ذلك أيقن بالهلاك فارتحل من ساعته إلى الشام فراراً من ذلك فلما كان في بعض المنازل أتاه السبع فاختطفه من بين أصحابه و هشم عظمه ومنها دعاؤه لما استسقى و هو على المنبر يوم الجمعة فرفع بيديه فما رجعهما حتى هطلت السماء فأرسلت إلى الجمعة القابلة فسألوه أن يدعو ربه فقد انقطعت السابلة و انهدمت البيوت فقال حوالينا و لا علينا قال أنس فتقور ما فوقنا كأننا في إكليل و كم مثل هذا لا يحصى مما وردت به الأخبار الصادقة من ذلك.

دلائل نبوته من القرآن أولها نفس القرآن و نظمه معجزة له ألا ترى كيف حداهم إلى معارضته و دعاهم إلى مناقضته بقوله فأتوا بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ فقال تعالى فأتوا بسورة من مثله ثم قال لأن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً فجعل القرآن له آية باقية و دلالة قائمة يقوم به الحجة على كل من سمع القرآن و عرف اللغة و البيان و هو من المعجزات التي أيد الله بها رسوله و دل بها على صدقه و صحة نبوته و منها قوله آلم غلبت الروم في أدنى الأرض و هم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين فكان كذلك و منا قوله سيهزم الجمع و يولون الدبر فكان كذلك و منها قوله وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه يعني خيبر فكان كذلك فتح الله عليهم الأرض و أعطاهم أموالها و خزائنها و منها قوله عز وجل هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله فكان كذلك ظهر دينه وعلت كلمته على كل دين بالسيف و الحجة و منها قوله عز وجل اقتربت الساعة و انشق القمر و لا يقال هذا لمن لم يشاهده و منها قوله عز و جل و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة و منها ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل و قصته من أعجب العجائب و أصدق الأمور المشاهدة شاهد كثير من الخلق ذلك و شهادة الموافق و المخالف بكونه وصحة التأريخ به و بوقته و هذا يرحمك الله باب يعجز كتابنا عن استيفائه ونجتزئ بما ذكرنا عن استقصائه و الله المعين برحمته.
ذكر شرائعه أعلم أن أصول شريعة الإسلام مأخوذة من الكتاب و السنة و هي مشهورة معروفة يغني والسنة عن تعدادها و تكلف القول في تكرارها لأن فقهاء الأمة قد قاموا بتدوينها و اجتهدوا في تأويلها و ناضل كل قوم عن مذهبهم و اعتلوا بصحة عقيدتهم غير أنا لم نستجز إخلاء هذا الكتاب عما يلائمه من ذلك لئلا يكون من طريق العجز ذكر شرائع أهل الأديان و السكوت عن شريعتنا و هي لمن أشرف الشرائع و أعلى المراتب و أعوده على الخلق في التقيد على الحرث و النسل و ابتغاء الزلفى إلى الله فيما فرض و أوجب و أحل و ندب و حتم ثم اعتراض هذه الشرذمة الخسيسة الموسوسة بالباطنية بالطعن على هذه الشرائع والقدح فيها و إيراد إغماد الحقد والضغينة للإسلام و أهله يصرف تأويلها عن الظلم المكشوف و الأمر بالمعروف إلى ما لا تعلق به و لا يوافقه بوجه من الوجوه و سبب من الأسباب.
مطلب ما كان عليه الصلاة و السلام يتعبد ربه قبل الوحي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الوحي يقوم بحراء و يعظم الباري سبحانه و يمجده و يسبحه من غير كفر بالله و لا إشراك شيءٍ به و كان يطوف بالبيت و يحج و يعتمر و يتحنث في حراء و يطعم الناس و يسقيهم و يأمر بصلة الرحم وحسن الجوار و كف الأذى و إيتاء ذي

القربى و كان يسمى في الجاهلية الأمين الصدوق لم يتدنس بشيءٍ من أدناسهم و لا قرب من أصنامهم حتى أتاه الوحي.

الطهارة واجبة بإيجاب العقل مشهورة بأطباق أهل الأرض لا ينكرها إلا ناقص أو جاهل وجاء في الخبر أن الملك أول ما جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الوضوء و هو غسل الأطراف ثم يصلي به ركعتين فجعل الطهور مفتاحاً للصلاة و لا يجوز إلا به و إنما جعلت الطهارة في حواشي الإنسان لأنها مرسلة منتشرة و تلاقي من النجاسات ما لا يلاقيها سائر أبعاض البدن فإن قيل فما بال الوجه يغسل و لا يباشر به من النجاسات شيء قيل إن النجاسة على ضربين نجاسة من خارج كالتي تلاقي ونجاسة من داخل كالتي تخرج من الجسد و الوجه فيه نقب و منافذ كالفم و العين و الأنف فتطهيره مستحب في العقل و مفترض في الشريعة تأكيداً و توفيقاً فإن عورض بعضو الثفل و هو منفذ النجاسة صير في الجواب إلى مذهب من يرى غسله بالماء إذا ظهر به أدنى شيء أو لصق به أثر واجبا مع أن ذلك موضع كامن خفي يمكن أن يجعل حكمه حكم البواطن التي لا يخلو الحيوان منها فإن قيل فلم حكمتم على الطهارة بالنقض عند حدوث الثفل قيل لما وجبت الطهارة بإيجاب العقل كما ذكرنا لم يكن بد من تحديد وقتٍ لابتدائها و انتهائها لأنه إذا لم يعرف ابتداء الشيء لم يعلم الشيء نفسه فجعل خروج الحدث وقتاً لانتهائها و حضور الصلاة وقت لابتدائها و هذه موجبة بموجب الشريعة إذ كان جائزاً أن يجعل الأكل علة لنقض الطهارة و طلوع الشمس أو غروبها أو الكلام أو المشي أو شيء ما أو جعلت الطهارة في بعض الأطراف دون بعض كما لم يفرض على النصارى دون غسل الوجه و اليدين و كما لم يفرض على اليهود مسح الرأس و لكن خولف بينهما للابتلاء و الامتحان و التمييز بين المنقاد إلى الشريعة موجبة بالعقل فأما مخالفة أركانها و هيئاتها فمجوزة له ألا ترى أن العقل لا يأبى غسل الأطراف عند وقوع الحدث و عند غير وقوع الحدث و إن لم يجب غسل ثفل الإنسان عند الحدث لم يأب غسل الوجه و اليدين عند الحدث فينبغي أن ينظر إلى ما يوجبه العقل و يجيزه إلى ما يأباه و يرده فليرنا المخالف شيئاً من شرائع ديننا يرده العقل أو ينكره و لن يقدر عليه بحمد الله ومنه و الوجه في هذا أن نكلم في إيجاب الطهارة بنفس العقل و وجوب مفتتح لها و مختتم و يرد ما سوى ذلك إلى ورود الشريعة للابتلاء و الامتحان فإن قيل فما بال المني يوجب الاغتسال و لا يوجبه البول والغائط فإن هذا سؤال مناقض على ما قدمنا من الاعتلال و لا يوجبه البول لأنه لو جعل البول موجباً للاغتسال والمني موجبا للوضوء لكان جائزاً و يمكن أن يقال أن المني يتجلب من جميع البدن و ينبع من عامة بشرة الإنسان ألا ترى أنه يلتذ بخروجه ما لا يلتذ بخروج غيره فلذلك أوجب عليه إمساس الماء بشرته و قد حكى بعض السلف أنه احتج بأن المني كائن منه شيء مثله و غير كائن من بوله مثله فلذلك وجبت عليه الطهارة ولست أقف على المعنى فيه، فإن قيل فلم جعل التراب عوضاً عن الماء عند العوز فلا يقع به الطهارة كما يقع بالماء قيل هذا أيضاً ساقط لأنه بعيد من موجبات الشريعة و لو كان مكانه شيء آخر لكان سواء إلا أن التراب أعم و أجدر بالماء في تكفير القاذورات و لها أطم و قد قيل لأنه أصل الماء و منه استحال و قيل لأنه يطفئ النار كما يطفئها الماء.

الصلاة خضوع و تواضع و تذكر حال تحث على الخير و تزجر عن الفساد يقول الله عز وجل إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر و جاء في الخبر أن الصلاة فرضت أولاً ركعتين للصبح و ركعتين للعصر فزيدت للحضر و أقرت للسفر قيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم و المسلمون يصلون ركعتين ركعتين شيئاً غير موقت و لا مقدر اثني عشرة سنة بمكة ثم كانت ليلة المسرى فرض فيها خمس صلوات في خمس أوقات فلم يزالوا يصلونها ركعتين

ركعتين سنة إلى أن هاجروا إلى المدينة فجعلوا يتنفلون في أدبارهم و رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اقبلوا تخفيف ربكم فيأبون عليه حتى كان بعد مقدمه بشهر يوم الثلاثاء لأثني عشرة خلت من ربيع الآخر صلى بهم الظهر أربعاً وصار فرضاً و لو جعل ستاً أو ثمانيا أو ثلاثاً أو خمساً أو فرض في اليوم و الليلة مرة أو مرتين أو أكثر أو لم يفرض أو جعل فيها سجدة واحدة و ركوعان أو ثلاث سجدات أو لم يفرض فيها القيام و القراءة أو أمر بتحويل الوجه إلى المشرق أو إلى الجنوب أو ما فعل من شيءٍ لكان جائزاً كما فرض على اليهود ثلاث صلوات إلا في يوم السبت و على النصارى سبع صلوات أو جعل الصلوات على غير هذه الهيئات كالنوم مثلا أو كالقعود أو كالمشي لكان جائزاً كيف ما تعبد الخلق به أن يعلم أن التواضع للحق والاعتراف بالفضل واجب بإيجاب العقل و لابد لذلك من علم و من آية يعلم بها أهله ويتخذها المتقرب ذريعة إلى الوصول إليها فجمع في هذه الصلاة من الخصال الموضوعة لباب الخضوع المتعارفة بين الناس كقيام العبيد بين يدي أربابهم و كقيام الصغار للعظماء و كتقبيلهم الأرض و إلصاق الخدود بها و ينبغي رحمك الله أن تعلم أن العقل لا يرد الجهر بالقراءة في صلاة الليل و لا التخافت بها في صلاة النهار و لا لم يقصر المغرب عن ثلاث و لا الفجر عن اثنتين و لا تضيع كلامك بالإكثار في غير موضعه فإن العي في الابتداء خير من العجز في العقبى و هؤلاء الباطنية قوم قصدوا بتمويههم نقض الدين و استئصال المسلمين فليس ينبغي أن يتمكنوا من الكلام في مذاهبهم ليتسعوا فيه و يتكثروا به و لكن يسد عليهم الباب من وجهه و الله المستعان على ذلك و هو خير معين و متى كان كلامك معهم في هذه الجملة التي شرحتها لك لم يزيلوك بحمد الله عن دينك و لا أرحلوك عن عقيدتك و بذلك يخابون عن جميع ما يسألون عن إعداد الفرائض و أوقات الشرائع و كيفياتها و كمياتها بما ذكرنا في الصلاة و الطهارة ومتى اعتل أحدهم لصلاة النهار لمخافته القراءة عورض بصلاة العيدين و الجمعات والكسوف والاستسقاء أو اعتل بصلاة الليل يجهر فيها عورض بالركعتين الآخرتين منها و أشفي ما يكشف عن عوار مذهبهم إذا أخذ أحدهم يتأول لركعتي الفجر وثلاث المغرب و أربع الظهر و العصر و العشاء و أشباه ذلك أن يلح عليه في السؤال عن اختلاف الناس فيها وأما تأويل من زعم أنه يقرأ خلف الإمام و تأويل من نهى عن القراءة و بنى و من زعم أنه لا يبني و يبتدي و من قال بجهر بسم الله الرحمن الرحيم و من قال لا يجهر بها فيأخذه بتصحيح ذلك كله و يطالبه بتأويله ليتبين لك ضعف قوله وسخافة نيته.

الزكاة الزكاة مواساة و معونة و إفضال و العقل يوجب الإفضال و التفضل بالائثار هذه جملة هذا الباب. و لقد تغيرت حال الزكاة غير مرة حتى استقرت على ما هي عليه اليوم لأنهم أمروا بالزكاة عند الأمر بالصلاة ثم قيل يسألونك ماذا ينفقون فكان الرجل يتصدق بما فضل من قوته و لما نزلت فرض الزكاة في سورة البراءة سنة تسع من الهجرة بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الوقت والمقدار.

الصيام رياضة و تذليل و قمع للشهوة و إطفاء للشره و قد ينفع كثيراً من الناس و يعقبهم الصحة و الخفة مع ما يجد الإنسان فيه من رقة القلب وصفاء النفس و أول ما فرض صوم يوم عاشوراء ثم نسخ و فرض صوم شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة و العقل يوجب رياضة النفس و تذليلها.

الحج عامة ما فيه من المناسك ابتلاء و امتحان و هو من أعظم وثائق الله عز و جل على عباده و أكشف شيءٍ عن عقائدهم و لا يزال مكائد الشيطان لدى الإسلام من دنيته تمثل الوسوسة إليه من هذا الباب مع أنه لا خصلة من خصالها إلا وهي تدل على فائدةٍ أو يوجد لها سبب من المعقول فمنها التجرد للإحرام و في التجرد تواضع وتذليل و فيه يستحسن العقل التجرد للاغتسال و دخول الحمام لما فيه من الفائدة فقد تبين أن نفس التجرد ليس بهزء و لا عبث إذ كان المراد به بعض ما ذكرنا و منها السعي و الهرولة في الطواف الذي جعل عبادةً كما جعلت الطهارة و

الصلاة عبادة و العقل يوجب الإسراع و العدو فيما يجدي أو يخشى فوته مع ما قد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة هرول ليري أعداءه القوة في نفسه فصار سنة مقتفاة و ما من أمة إلا و هم مقتدون بإمامهم فيما شرع لهم و أما رمي الجمار فلو رأينا رجلاً يرمي طيراً يذبه عن شجرٍ أو يرمي شجراً يستنزل به الثمر لما جاز لنا الحكم عليه بالجهل و السفه لما له من النفع العائد و كذلك رمي الجمار قد رجا راميه الثواب العظيم لامتثاله ما مثل له و استنانه بمن كان قبله و أما الذبح والنحر فلا يخفى نفعه على الضعفاء و المساكين و في الحلق و التقصير الطهارة والنظافة و استلام الحجر تعظيما له اعتراف بحق الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين الذين أبقوا ذلك تذكرة لمن بعدهم و قد يشغف الإنسان ببقايا القدماء و آثارهم وذلك الحجر بقية من بقاياهم فإذا اتجهت المناسك لما ذكرنا فلا معنى للتسرع إلى تخطئة الأمة و تجهيلهم فيما ثبتوا عليه من هذه المناسك و لم يحجج النبي صلى الله عليه وسلم في الإسلام إلا حجة واحدة و هي التي تسمى حجة الوداع فبين فيها معالم الحج وسننه والناس يتوارثونها إلى آخر الدهر.

النكاح و الطلاق و المواريث النكاح تملك بمنزلة البيع و الطلاق تخلية بمنزلة الفسخ و فيه حكم عظيمة في إثبات الأنساب و إلحاق الأولاد و لولا ذلك لكان النكاح و السفاد سواء و هذا يوجبه العقل و أما تفضيل الذكر في القسمة على الأنثى فلما ينوب الذكر من النوائب و الأنثى مؤنتها على من ينكحها فمن أخذ بناصيتها أقام بأودها.

الجمعة و الأعياد جعلت مجمعا للأمة يتلاقون و يتزاورون و يفضلون على الضعفى و المساكين و يستريحون عن كد الكدح و الحركة و يريحون مماليكهم و بهائمهم و هذا ضرب عظيم من النفع لمن عقل أمر الله عز وجل و اعتبر و ما من أمة في الأرض إلا و لهم عيد و مجمع.

السنن العشر في الرأس و الجسد و تحريم الميتة و الدم لا شك أن كلها طهارة و نظافة و استعظم قوم الختان لما فيه من الألم و الخطر و لم يعلموا ما يتأذى به الأقلف من احتباس البول في قلفته و يتولد فيها الدواب حتى يبلغ الجهد و المشقة و في الختان اكتناز الآلة و نماء الجسم و لذلك يقال الختان منعثة للصبي ثم يقال هو سنة فيه ابتلاء و تسليم فأما تحريم الميتة و الدم ففي كراهية النفس و نفار الطبع ما يوجب الامتناع منه دون خطر الشرع مع أن أهل الأرض يجمعون على نجاسته إلا من لا يعبأ به في عدةٍ أو عددٍ و أهل الطب ينهون عنه لوخيم مغبته و شر أغذيته فهذه الأشياء مما يعييها أهل الإلحاد و فيها من الحكمة ما لا يعلمها إلا الله تعالى.

ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر في بيته بمكة قبل أن يهاجر أن يدعو بهذا الدعاء فقال ربي أدخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق و اجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً فلما خرج إلى المدينة نزل عليه بالجحفة في طريقه أن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معادٍ فلما أتم أمره و أنجز وعده و رده إلى معاد أنزل عليه إذا جاء نصر الله و الفتح إلى آخر السورة فقال صلى الله عليه وسلم نعيت إلى نفسي فنعى نفسه إلى أصحابه قبل موته بشهرٍ ثم ابتدأ بشكواه في ليالٍ بقين من صفر و توفي يوم الاثنين لاثنتي عشرةً خلت من شهر ربيع الأول و كان مرضه أربع عشرة ليلة أو خمس عشر و روي عن أبي مويهبة أنه قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوف الليل فقال يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي قال فانطلقت معه حتى وقفت بين أظهرهم فقال السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه غيركم أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها و للآخرة شر من الأولى ثم قال يابا مويهبة إني قد أعطيت خزائن الدنيا و الخلد فيها ثم الجنة فخيرت بين ذلك و بين لقاء ربي فقلت بأبي أنت و أمي فخذ خزائن الدنيا و الخلد ثم الجنة فقال يا با مويهبة قد اخترت لقاء ربي و الجنة ثم استغفر لأهل البقيع و انصرف و هي ليلة الأربعاء محموماً

ليلتين بقيتا من صفر و ابتدئ بوجعه في بيت ميمونة بنت الحارث فكان آخر ما خرج و صلى بالناس و إذا وجد ثقلاً قال مروا الناس فليصلوا فلما اشتد وجعه استأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فخرج بين علي بن أبي طالب و بين الفضل بن العباس رضي الله عنهما تخط رجلاه الأرض حتى أتى بيت عائشة فقال أهريقوا علي من سبع قرب لم يحلل وكاءهن لعلي أعهد إلى الناس قالت عائشة فأجلسناه في مخضب من صفر لحفصة ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب فجعل يشير إلينا أن قد فعلتن فخرج عاصباً رأسه يمشي بين العباس و علي تخط رجلاه الأرض حتى جلس على المنبر فأحدق الناس به و استكفوا فكان أول ما نطق به أن استغفر للشهداء الذين قتلوا بأحدٍ وصلى عليهم ثم قال إن عبداً من عباد الله بين الدنيا و بين ما عند الله ففطن لها أبو بكرٍ رضوان الله عليه وعرف أنه يريد نفسه صلى الله عليه وسلم فبكى أبو بكرٍ وقال بل نفديك بآبائنا و أمهاتنا فقال على رسلك يا با بكر انظروا إلى هذه الأبواب اللافظة إلى المسجد فسدوها إلا باب أبي بكرٍ و إني لا أعلم أحداً كان أفضل عندي في الصحبة منه و لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً و لكن صحبة و إخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده من رواية محمد بن إسحق و روى الواقدي أنه قال سدوا هذه الأبواب الشوارع إلى المسجد إلا باب أبي بكرٍ فإن أمن الناس في صحبته و ماله أبو بكر و روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة فتشدد لنا و قال حياكم الله و آواكم و أوصيكم لتقوى الله و أوصى الله بكم و استخلفه عليكم إني لكم نذير مبين أن لا تعلو على الله في بلاده وعباده فإنه قال تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض و لا فساداً و العاقبة للمتقين قلنا يا رسول الله متى أجلك قال قد دنا الفراق و المنقلب إلى الله عز وجل و إلى جنة المأوى و سدرة المنتهى والرفيق الأعلى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أسامة بن زيد على جيشٍ و أمره أن يوطئ الخيل أرض البلقاء فتكلم الناس فيه و قالوا أمر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين و الأنصار فلما استوى على المنبر قال انفذوا جيش أسامة انفذوا جيش أسامة انفذوا جيش أسامة ثلاثاً ولعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه وانه لخليق للإمارة و إن كان أبوه خليقاً لها ثم نزل وانكمش الناس في جهازهم و ضرب أسامة عسكره على فرسخ من المدينة و سائر الناس ينتظرون ما يقضي الله في رسوله صلى الله عليه وسلم و روى الواقدي عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنه قال لما اشتد وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ائتوني بدواة و صفحة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً فتنازعوا و لا ينبغي التنازع عند رسول الله فقال بعضهم ما لكم أهجر فاستعيدوه و قال عمر قد غلبه الوجع من لفلانة و

فلانة حسبنا كتاب الله فلما لغطوا عنده قال دعوني أخرجوا المشركين من جزيرة العرب و أجيزوا الوفود بمثل ما رأيتموني أجيزهم و انفذوا جيش أسامة قوموا فقاموا و قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين أن يكتب ذلك الكتاب قالوا و استعر برسول الله صلى الله عليه وسلم المرض و ناداه بلال بالصلاة فقال مر عمر فليصل بالناس فخرج عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب فقدم عمر لأن أبا بكر كان غائباً فلما كبر عمر و كان مجهراً سمع رسول الله فقال أين أبو بكرٍ يأبى الله ذلك و المسلمون و بعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس و روي عن عائشة أنها قالت لما استعر رسول الله بالمرض قال مروا أبا بكرٍ فليصل بالناس فقلت إن أبا بكرٍ رجل ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس قالت و الله ما أقول ذلك إلا إني كنت أحب أن يصرف عنه ذلك و قلت إن الناس لا يحبون رجلاً قام مقام النبي يتشأمون به و روى ابن إسحق عن الزهري فقال حدثني أنس أنه كان يوم الاثنين الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الناس و هم يصلون الصبح فرفع الستر و فتح الباب و وقف على باب عائشة فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم

فرحاً لما رأوا رسول الله فأشار إليهم أن اثبتوا و تبسم سروراً بما رأى من صلاتهم و انصرف قال ابن إسحق حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مليكة أنه لما كان يوم الاثنين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه بين العباس و علي إلى صلاة الصبح و أبو بكر يصلي بالناس فتفرج الناس و علم أبو بكرٍ أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله فنكص عن صلاته فدفع رسول الله في ظهره و قال صل بالناس و جلس إلى جنبه فصلى على يمين أبي بكر فلما فرغ أقبل على الناس فكلمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد و قال أيها الناس سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم إني و الله ما تمسكون علي بشيءٍ إني لم أحل إلا ما أحل القرآن و لم أحرم إلا ما حرم القرآن و قال أبو بكر إني أراك قد أصبحت من الله بخير و اليوم يوم ابنة خارجة فآتيها قال نعم فخرج أبو بكرٍ إلى أهله بالسنح و انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته وتفرق الناس و روى الواقدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف دعا فاطمة فسارها فبكت ثم دعاها فسارها فضحكت فسئلت عن ذلك بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم قالت قال لي إن القرآن يعرض علي في كل عام مرة و عرض علي العام مرتين ولا أراني إلا ميتاً في مرضي هذا قالت فبكيت ثم دعاني ثانياً و قال لي أنت أسرع أهلي لحوقاً بي فضحكت فمكثت بعده ستة أشهر و يقال مائة و خمسين يوماً و الله أعلم.فلانة حسبنا كتاب الله فلما لغطوا عنده قال دعوني أخرجوا المشركين من جزيرة العرب و أجيزوا الوفود بمثل ما رأيتموني أجيزهم و انفذوا جيش أسامة قوموا فقاموا و قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين أن يكتب ذلك الكتاب قالوا و استعر برسول الله صلى الله عليه وسلم المرض و ناداه بلال بالصلاة فقال مر عمر فليصل بالناس فخرج عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب فقدم عمر لأن أبا بكر كان غائباً فلما كبر عمر و كان مجهراً سمع رسول الله فقال أين أبو بكرٍ يأبى الله ذلك و المسلمون و بعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس و روي عن عائشة أنها قالت لما استعر رسول الله بالمرض قال مروا أبا بكرٍ فليصل بالناس فقلت إن أبا بكرٍ رجل ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس قالت و الله ما أقول ذلك إلا إني كنت أحب أن يصرف عنه ذلك و قلت إن الناس لا يحبون رجلاً قام مقام النبي يتشأمون به و روى ابن إسحق عن الزهري فقال حدثني أنس أنه كان يوم الاثنين الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الناس و هم يصلون الصبح فرفع الستر و فتح الباب و وقف على باب عائشة فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم فرحاً لما رأوا رسول الله فأشار إليهم أن اثبتوا و تبسم سروراً بما رأى من صلاتهم و انصرف قال ابن إسحق حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مليكة أنه لما كان يوم الاثنين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه بين العباس و علي إلى صلاة الصبح و أبو بكر يصلي بالناس فتفرج الناس و علم أبو بكرٍ أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله فنكص عن صلاته فدفع رسول الله في ظهره و قال صل بالناس و جلس إلى جنبه فصلى على يمين أبي بكر فلما فرغ أقبل على الناس فكلمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد و قال أيها الناس سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم إني و الله ما تمسكون علي بشيءٍ إني لم أحل إلا ما أحل القرآن و لم أحرم إلا ما حرم القرآن و قال أبو بكر إني أراك قد أصبحت من الله بخير و اليوم يوم ابنة خارجة فآتيها قال نعم فخرج أبو بكرٍ إلى أهله بالسنح و انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته وتفرق الناس و روى الواقدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف دعا فاطمة فسارها فبكت ثم دعاها فسارها فضحكت فسئلت عن ذلك بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم قالت قال لي إن القرآن يعرض علي في كل عام مرة و عرض علي العام مرتين ولا أراني إلا ميتاً في مرضي هذا قالت فبكيت ثم دعاني ثانياً و قال لي أنت أسرع أهلي لحوقاً بي فضحكت فمكثت بعده ستة أشهر و يقال مائة و خمسين يوماً و الله أعلم.

ذكر وفاة النبي عليه السلام قالت عائشة و لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد يوم الاثنين اضطجع في حجري ثم وجدته يثقل فذهبت أنظر إلى وجهه فإذا بصره قد شخص إلى السماء و هو يقول بل الرفيق الأعلى و كان يقول لنا لم يقبض نبي إلا خير فقلت خيرت فاخترت فقبض رسول الله بين سحري و نحري حين اشتد الضحى من يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة و شهرين واثني عشر يوماً قالت فمن سفهي و حداثة سني وضعت رأسه على وسادة و قمت ألتدم مع النساء و أضرب وجهي قالوا و ارتجت المدينة بالصراخ و البكاء و اقتحم الناس يقولون مات رسول الله محمد مات محمد فجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام على الباب و قال إن المنافقين يزعمون أن محمداً قد مات و أن رسول الله لم يمت و لكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم عاد إليهم بعد أن قيل قد مات و ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال و أرجلهم يزعمون أن رسول الله قد مات و قال عمر نظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت حتى يفتح الأرض لوعد الله فلذلك قال ما قال و بلغ الخبر أبا بكر فأقبل مسرعاً على فرسٍ و عمر يكلم الناس فلم يلتفت إليه حتى دخل بيت عائشة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى عليه برد حبرة فكشف عن وجهه وقبله و قال بأبي أنت و أمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها فلا تذوق بعدها أبداً ثم خرج إلى الناس و عمر يكلمهم فقال على رسلك يا عمر أنصت فأبى إلا أن يتكلم فلما رآه أبو بكر لا ينصت إليه أقبل على الناس فلما سمع الناس كلام أبي بكر تركوا عمر و أقبلوا عليه فحمد الله و أثنى عليه و صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال يا أيها الناس إن الله قد نعى نبيكم إلى نفسه و هو حي بين أظهركم و نعاكم إلى أنفسكم فقال إنك ميت و إنهم ميتون فعلم الناس حينئذ أن رسول الله قد مات و روي عن عمر أنه قال فما هو إلا أن سمعتها من أبي بكر فعقرت حتى وقعت على الأرض ما نقلني رجلاي ثم تلا أبو بكر و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ثم قال يا أيها الناس من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمداً أو يراه إلهاً فإن محمداً قد مات و وعظ الناس و حضهم على التقوى ونزل عن المنبر وأخذوا في جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم و دعوا من يحفر له قبره و كان أبو طلحة الأنصاري يلحد في القبر و هو عمل الأنصار و كان أبو عبيدة بن الجراح يسوي في القبر و هو عمل المهاجرين فبعثوا إليهما و قال العباس اللهم فيض لنبيك ما ترضاه فسبق الرسول إلى أبي طلحة فجاء و اختلفوا أين يدفنونه فقال قوم في البقيع مع أصحابه و قال آخرون بل في مسجده فقال أبو بكر سمعته يقول ما مات نبي إلا دفن حيث قبض فخط حول الفراش على قدره ثم حول عنه رسول الله و أخذوا يحفرون له و وقع الاختلاف في الناس فانحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج و اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة و انحاز علي و طلحة و الزبير في بيت فاطمة و انحاز سائر المهاجرين إلى أبي بكر كل يدعي الإمارة لنفسه فجاء المغيرة بن شعبة فقال إن كان لكم بالناس حاجة فأدركوهم فتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو و أغلقوا الباب دونه و أسرع أبو بكر و عمر و أبو عبيدة بن الجراح إلى سقيفة بني ساعدة فقالت الأنصار نحن أنصار الله و كتيبة الإسلام و أنتم يا معشر العرب رهط منا و قد دفت دافة من قومكم يريدون أن يحتازونا من أصلنا و يكسروا الأمر فقال أبو بكر أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل و لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش أوسط العرب نسباً و داراً و قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم و أخذ بيد عمر و أبي عبيدة بن الجراح فقال الحباب بن المنذر أنا جذيلها المحكك و عذيقها المرجب منا أمير و منكم أمير فكثر اللغط و ارتفعت الأصوات حتى خيف الاختلاف فقال عمر لأبي بكر ابسط يدك أبايعك فبسط يده

فبايعه المهاجرون و الأنصار و نزو على سعد بن عبادة فضربوه فقال قائلهم قد قتلتم سعد بن عبادة فقال عمر رضي الله عنه قتل الله سعد بن عبادة ثم عادوا إلى المسجد و

صعد أبو بكر المنبر فقام عمر فحمد الله و اثنى عليه ثم قال أيها الناس إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما وجدتها في كتاب الله و لا كانت عهداً عهده إلي رسول الله و لكني كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا و يكون آخرنا فإن الله عز و جل قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله فمن اعتصم به هداه كما كان هداه له و إن قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله و ثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه بيعة العامة في المسجد بعد السقيفة فبايعوه و لم يبايعه علي ستة أشهر.د أبو بكر المنبر فقام عمر فحمد الله و اثنى عليه ثم قال أيها الناس إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما وجدتها في كتاب الله و لا كانت عهداً عهده إلي رسول الله و لكني كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا و يكون آخرنا فإن الله عز و جل قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله فمن اعتصم به هداه كما كان هداه له و إن قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله و ثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه بيعة العامة في المسجد بعد السقيفة فبايعوه و لم يبايعه علي ستة أشهر.

ذكر بيعة أبي بكر رضي الله عنه قال ابن إسحق لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبد المطلب لعلي انطلق بنا إلى رسول الله فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه و إن كان في غيرنا أوصى المسلمين بنا فقال علي عليه السلام إني و الله لا أفعل لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده قال ابن إسحق و لولا مقالة قالها عمر عند وفاته لم يشك المسلمون أنه استخلف أبا بكر و لكنه قال عند وفاته إن أستخلف فقد أستخلف من هو خير مني و إن أتركهم فقد تركهم من هو خير مني فعرف الناس أن رسول الله لم يستخلف أحداً و كان عمر غير متهم على أبي بكر قالوا و لما فرغ عمر من مقالته قام أبو بكر خطيباً بعدما ضربوا على يده فقال الحمد لله فاحمدوه و أستعينكم على أمره كله سره و علانيته و نعوذ بالله مما يأتي في الليل و النهار و أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً عبده و رسوله أرسله بالحق بشيراً و نذيراً قدام الساعة من أطاعه رشد و من عصاه هلك أما بعد فإني قد وليت أمركم و لست بخيركم فأعينوني و إن زغت فقوموني الصدق أمانة و الكذب خيانة لا يدع قوم الجهاد إلا ضربهم الله بالذل و لا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء فأطيعوني ما أطعت الله و رسوله فإذا عصيت الله و رسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله فصلوا ثم أخذوا في جهاز رسول الله قال الواقدي كانت بيعة العامة يوم الثلثاء بعدما دفن و قال بعضهم بويع ثم دفن و اختلفوا في الوقت الذي دفن فيه فروى ابن إسحق أنه دفن ليلة الأربعاء و قال الواقدي و الثبت عندنا أنه دفن يوم الثلثاء عند زوال الشمس و الله أعلم و أحكم.

ذكر غسل رسول الله صلى الله عليه قالوا غسله علي و العباس و الفضل و قثم و أسامة و شقران أما علي فأسنده إلى صدره و جعل العباس و الفضل و قثم يقلبونه معاً و كان أسامة و شقران يصبان عليه الماء و غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه و لم يجرد من ثيابه و كفن في ثلاثة أثواب سحولية ثوبين منبجانيين و برد حبرة أدرج فيه إدراجاً ليس فيها عمامة و لا قميص ثم وضعوه على السرير و جعل الناس يدخلون و يصلون إرسالاً صلى الرجال ثم النساء ثم الصبيان و دفن صلى الله عليه و كان الذي دخل القبر علي و الفضل بن العباس و شقران روينا عن شقران أنه قال أنا الذي طرحت القطيفة تحت رسول الله و نضد عليه اللبن و الإذخر و هالوا التراب هيلاً و سطحوا قبره و رشوا عليه الماء صلى الله عليه وسلم و اختلفت الرواية في سنه و مدة عمره إلا أن الأكثر الأشهر أنه توفي و هو ابن ثلاث و ستين سنة ولد يوم الاثنين و توفي يوم الاثنين صلى الله عليه وسلم و روى أصحاب الأخبار شيئاً كثيراً من الشعر في مراثيه فمن ذلك قول عربي إلى فاطمة رضي الله عنها

قد كان بعدك أنباء و هنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... و اختل قومك فارجع ثم لا تغب
و قال حسان بن ثابت
بطيبة رسم للرسول و معهد ... منير و قد تعفو الرسوم و تهمد
فلا تمتحي الآيات من دار مربع ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد

و واضح آثار و باقي معالم ... و ربع له فيه مصلى و مسجد
معارف لم تطمس على النأي أنها ... أتاها البلى و الآي منها مجدد
ظللت بها أبكي الرسول و أسعدت ... عيون و مثلاها من الجن يسعد
فبوركت يا قبر الرسول و بوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
و بورك لحد منك ضمن طيباً ... عليه بناء من صفيح منضد
و هل عدلت يوماً رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد
و ما فقد الماضون مثل محمد ... و لا مثله حتى القيامة يفقد
تقطع عنهم منزل الوحي و الهدى ... و قد كان ذا نور يغور و ينجد
في قصيدة طويلة.
الفصل الثامن عشر

في ذكر أفاضل الصحابة

و أولي الأمر من المهاجرين و الأنصار و صفة حلاهم و مدة أعمارهم و ابتداء

إسلامهم و ذكر أولادهم و من أعقب منهم و من لم يعقب
اعلم أن هذا الباب من صناعة أصحاب الحديث و هو علم برأسه منفرد بمعرفته صاحبه مرجعه إلى جودة الحفظ و كثرة الروايات و قد وضعوا فيه كتباً كثيرةً موسومةً بسمات مختلفة كالتواريخ و الطبقات و المعارف و ما أعلم أحداً منهم و إن غزر علمه و اتسعت درايته أنه ضبط أسماء الصحابة كلهم أو حصر أيامهم و أخبارهم و لا أعلم ذلك ممكناً لأن آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك و قد صحبه فيها ثلاثون ألف رجلٍ سوى من خلفه و تخلف عنه و سنذكر المشهورين منهم المعروفين بالإمارة و الولاية و التقدم و الآثار المذكورة إن شاء الله ونبتدئ بذكر من بدأ بالإسلام وسبق إليه فإن كثيراً من المصنفين قد خرجوهم على حروف المعجم تقريباً من الفهم وحيلة في تسهيل الحفظ، اختلف الناس في أول من أسلم فقال بعضهم أولهم خديجة و قال آخرون أولهم علي وقيل أبو بكر وقيل زيد بن حارثة و قد مضى خبر زيد و خديجة في باب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وباب مواليه و أخبرني أحمد بن مالك قال حدثني القتبي عن إسحق بن راهويه أنه قال الخبر في كل ذلك صحيح أما أول من أسلم من النساء فخديجة و أول من أسلم من الموالي فزيد بن حارثة و أول من أسلم من الصبيان فعلي عليه السلام و أول من أسلم من الرجال فأبو بكر رضي الله عنهم أجمعين.

علي بن أبي طالب عليه السلام ابن عبد المطلب بن هاشم و أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم و هي أول هاشمية ولدت لهاشمي و أسلمت و ماتت بمكة قبل الهجرة قال بن إسحق أسلم علي و له عشر سنين و ذلك أنه كان في حجر النبي عليه السلام قبل الوحي لأن قريشاً لما أصابتهم الأزمة قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس بن عبد المطلب إن أبا طالب رجل ذو عيال فانطلق بنا نخفف من عياله فأخذ النبي عليه السلام علياً و أخذ العباس جعفراً و بقي عنده عقيلاً و طالباً فلما بعث الله محمداً آمن به و اتبعه و روى الواقدي أن علياً أتى النبي و هو يصلي عند خديجة فقال ما هذا يا محمد فقال دين الله الذي اصطفاه لنفسه أدعوك إليه فقال علي إن هذا دين ما سمعت به و لست بقاطع أمراً حتى أذاكر أبا طالب فكره النبي صلى الله عليه وسلم أن يفشى أمره فقال إن لم تسلم فاكتم فمكث علي تلك الليلة و ألقى الله في قلبه الإسلام فغدا على رسول الله ثم إن أمه فاطمة بنت أسد أنكرت شأنه و اختلافه إلى رسول الله فقالت لأبي طالب إني أرى ابنك قد صبأ و كان النبي و خديجة و زيد يخرجون إلى شعاب مكة فيصلون مستخفين من الناس فتبعهم أبو طالب حتى عثر عليهم و هم يصلون فقال ما هذا يا بن أخي فقال دين الله الذي ارتضاه لنفسه و بعث به رسله أدعوك إليه فقال إني أكره أن أفارق دين آبائي و لكن امض لما أردت فلا يخلص إليك بما تكره فقال لعلي الزمه فإنه لم يدعك إلا إلى خير و قد قيل أن علياً أسلم و هو ابن ست سنين و اختلفوا في حليته قال الواقدي كان آدم شديد الأدمة عظيم البطن عظيم العينين إلى القصر ما هو و قد تسميه الشيعة الأنزع البطين قال الحارث الأعور و كان علي أفطس الأنف دقيق الذراعين كأن على كاهله سنام ثور لم يصارع أحداً إلا صرعه و روي عن الحسن أنه قال رأيت علياً أسود الشعر أبيض اللحية قد ملأت لحيته ما بين منكبيه و روى أن امرأة رأته و لم تعلم من هو فقالت من هذا الذي كسر و جبر على عيب و اختلفوا في سنه فقال ابن إسحق قتل و هو ابن ثلاث وستين سنة كان في مثل سن النبي صلى الله عليه وسلم و أبي بكر يوم ماتا و هذا يصح على مذهبه لأنه قد أسلم و هو ابن عشر سنين و عاش في الإسلام ثلاثاً وخمسين سنة و قتل سنة ثلاثين من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم و قال بعضهم مات و هو ابن ثمان و خمسين سنة.

ذكر ولده عليه السلام كان له من الولد ثمان و عشرون ولداً أحد عشر ولداً و سبعة عشر أنثى منهم من فاطمة عليه السلام خمسة الحسن و الحسين و محسن و أم كلثوم الكبرى و زينب الكبرى و الباقون من أمهات شتى من الحرائر و الإماء فمنهم محمد بن علي أمه خولة بنت جعفر بن قيس و يقال أمه سوداء من سبى اليمامة و لذلك يقال له محمد بن الحنفية لأن خالد بن الوليد كان سباها من بني حنيفة في الردة و منهم عمر و رقية من أمته و منهم أبو بكر و عبيد الله و جعفر و العباس و أم كلثوم الصغرى و رملة و أم الحسن و جمانة و ميمونة و خديجة و فاطمة و أم الكرام و نفيسة و أم سلمة و أمامة و أم أبيها.

الحسن بن علي رضي الله عنهما أكبر ولد علي و يكنى أبا محمد و كان يوم قبض النبي صلى الله عليه وسلم ابن سبع سنين لأنه ولد في سنة ثلاث من الهجرة و مات سنة سبع و أربعين فكان عمره خمساً و أربعين سنة و روى عن النبي حديثين من صلى الغداة و جلس في مجلسه حتى تطلع الشمس ستره الله من النار و الثاني التخلية من إذا ذكرت عنده فلم يصل علي و كان أرخى ستره على مأيتي حرة و قال علي عليه السلام لا تزوجوا ابني هذا فإنه مطلاق و ولد الحسن سبعة أنفار الحسن بن الحسن و الحسين بن الحسن و زيد بن الحسن و طلحة بن الحسن و أم عبد الله بنت الحسن و أم الحسن بنت الحسن.

الحسين بن علي رضي الله عنهما و كان أصغر من الحسن بعشرة أشهر وعشرين يوماً و قتل يوم عاشوراء سنة اثنتين و ستين بعد الحسن بسبع عشرة سنةً و هو ابن ثماني وخمسين سنةً و ولد الحسين أربعة نفر علياً الأكبر و علياً

الأصغر و فاطمة و سكينة و عقب الحسين من علي الأصغر فأما الأكبر فإنه قتل مع أبيه و قد روي أن الحسين قتل معه سبعة عشر نفراً من أهل بيته و الله أعلم فأما محسن بن علي فإنه هلك صغيراً.

محمد بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهما كان أسود شديد السواد كثير العلم فاضلاً شجاعاً و مات بالطائف زمن الحجاج و كان يقول الحسن و الحسين أفضل مني و أنا أعلم منهما و ولد ثمانية ذكور منهم عبد الله بن محمد أبو هاشم كان عظيم القدر عند الشيعة فلما حضرته الوفاة بالشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس و قال أنت صاحب هذا الأمر و ولدك و ليس لأبي هاشم عقب.
بنات علي بن أبي طالب عليه السلام زوج علي أم كلثوم الكبرى من عمر بن الخطاب رضي الله عنه فولدت له زيد بن عمر و فاطمة بنت عمر وزوج زينب الكبرى من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فولدت له أولاداً و كان سائر بناته عند ولد عقيل و ولد العباس ما خلا أم الحسن فإنها كانت عند جعدة بن هبيرة المخزومي.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه عتيق بن أبي قحافة و كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله عبد الله تيمناً باسم أبيه و عتيق لقبه لحسن وجهه و عتقه و اسم أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة و تيم أخو كلاب بن مرة فهو في العدد إلى مرة لأن كل واحد ينتهي إلى مرة عند السابع من آبائه. ذكر حليته عليه السلام كان ابيض البشرة مشرباً حمرة نحيف الجسم خفيف العارضين معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة عاري الأشاجع أحنى لايستمسك إزاره ويسترخي عن حقويه وكان من مياسير قريش و ذوي الفضل منهم و الصنيعة فيهم محبباً في قومه مألوفاً و انفق جل ماله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو بكر و أمه و أخواته أبوه أبو قحافة أسلم يوم فتح مكة و قد كف بصره و بقي إلى زمن عمر و مات أبو بكر فورثه و أم أبي بكر أم الخير سلمى بنت صخر ابنة عليه السلام أبي قحافة و لا يعرف لأبي بكر أخ و لكن له أختان أم فروة بنت أبي قحافة تزوجها تميم الداري ثم لما رجع الأشعث بن قيس إلى الإسلام ردته زوجها منه أبو بكر و قريبة بنت أبي قحافة كانت تحت قيس بن سعد بن عبادة، إسلام أبي بكر عليه السلام زعم بعض الرواة أنه كان في تجارة له بالشام فأخبره راهب بوقت خروج النبي بمكة و أمره باتباعه فلما رجع سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله فجاء وأسلم فلذلك قال ما أحد عرضت عليه الإسلام إلا وجدت عنده كبوة إلا أبا بكر فإنه لم يتلعثم و زعم آخرون أنه رأى رؤيا و قيل هتف به هاتف فلما أسلم أبو بكر دعا عشيرته و أقاربه فأسلم بدعائه رهط منهم عثمان بن عفان و الزبير بن العوام و طلحة بن عبيد الله و سعد بن أبي وقاص و عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، ذكر ولده رضي الله عنه كان له من الولد ستة نفر عبد الله بن أبي بكر وأسماء بنت أبي بكر أمهما سدة من بني عامر و عبد الرحمن و عائشة أمهما أم رومان ومحمد بن أبي بكر أمه أسماء بنت عميس و أم كلثوم أمها بنت زيد خارجة رجل من الأنصار أما عبد الله بن أبي بكر فإنه هلك في خلافة أبيه ولا عقب له وأما عبد الرحمن فمات بمكة بعد وقعة الجمل و كان شهدها و له عقب و أما محمد بن أبي بكر فكان ممن أعان على عثمان و بعثه علي بن أبي طالب والياً على مصر فقاتله أصحاب عمرو بن العاص و قتلوه و جعلوا جثته في حمار ميت ثم أحرقوه و من ولده القاسم بن محمد بن أبي بكر فقيه أهل الحجاز، بنات أبي بكر أما عائشة فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصتها مشهورة ولا عقب لها وأما أسماء فإنها يقال لها ذات النطاقين و ذلك أنها شقت نطاقها و شدت به السفرة التي كانت هيأتها لهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبي بكر إلى المدينة و يقال لما نزلت آية الخمار ضربت يدها إلى نطاقها فشقته نصفين و اختمرت بنصفه وتزوجها الزبير بن العوام بمكة فولدت له عدة ولد و ولدت

بالمدينة عبد الله بن الزبير أول مولود ولد في الإسلام و عاشت حتى عميت و ماتت بعد قتل ابن الزبير ببرهة و أما أم كلثوم فخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكرهته ونكحها طلحة بن عبيد فولدت له، وفاة أبي بكر رضي الله عنه اتفقوا أنه مات ابن ثلاثٍ وستين سنة و كان أصغر سناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدر خلافته و هو سنتان وثلاثة أشهر و تسع ليالٍ و قال ابن إسحق مات يوم الجمعة لسبع ليالٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة و قال أبو اليقظان مات يوم الاثنين و اختلفوا في سبب موته فقال قوم سم فمات و قال قوم بل اغتسل في بارد فحم فمات رضي الله عنه.

عثمان بن عفان رضي الله عنه عثمان والنبي صلى الله عليه وسلم في العدد سواء و كان حبراً فاضلاً تقول قريش أحبك الرحمن حب قريش عثمان وزوجه النبي صلى الله عليه وسلم ابنتيه رقية و أم كلثوم، ذكر حليته كان رجلاً ربعةً حسن الوجه رقيق البشرة ريان الخد أسمر اللون عظيم اللحية بعيد المنكبين و كان يشد أسنانه بالذهب، أبو عثمان و أمه و أخواته أما عفان فإنه هلك في تجارة الشام و أم عثمان أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس و أخوات عثمان أمة بنت عثمان و لا يعرف لها عقب، إسلام عثمان قال الواقدي إن عثمان و طلحة أسلما معاً ذكر أن عثمان قال أقبلت من الشام في تجارة حتى إذا كنا بين معان و الزرقاء و نحن كالنيام إذا منادٍ ينادي أيها النيام هبوا فإن محمداً قد خرج فلما رجع دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وأخذه الحكم بن أبي العاص و أوثقه رباطاً و قال لا أحلك حتى تدع دينك فقال عثمان و الله لا أدعه أبداً فلما رآه لا يدعه تركه قال و راغمته أمه وقالت و الله لا ألبس لك ثياباً و لا أذوق لك طعاماً و لا شراباً حتى تدع دين محمد و تحولت إلى بيت أختها حولاً فلما رأت عثمان لا يدع دينه رجعت إلى منزله، ذكر ولده رضي الله عنهم كان له من الولد الذكران عشرة نفر عبد الله الأكبر و عبد الله الأصغر و خالد و أبان و عمرو و سعيد و المغيرة و عبد الملك و الوليد و عمر و من البنات ثلاث أم أبان و أم عمرو وأم سعيد وقد يقال لإحداهن عائشة أو رابعة فأما عبد الله الأكبر فإنه كان يلقب المطرف لحسنه و جماله و أما عبد الله الأصغر فإنه كان من رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم و هلك في صغره و أما أبان بن عثمان فكان أبرص و كانت أمه حمقاء تجعل الخنفساء في فيها ثم تقول أحاجيك ما في فمي و أما سعيد بن عثمان فقتله الرهائن الذين حملهم من سمرقند في حائطه بالمدينة و قتلوا أنفسهم و أما الوليد ابن عثمان فكان صاحب شرابٍ و لهوٍ وقتل عثمان و هو علق في حجلته و رحم الله من نظر في كتابنا هذا بعين الإنصاف فبسط عذرنا فيما اشترطنا من الاختصار و الإيجاز، مقتل عثمان اختلفوا في يوم قتله فقال ابن إسحق قتل يوم الأربعاء و دفن يوم السبت و قال الواقدي قتل يوم الجمعة سنة خمس و ثلاثين و هو ابن اثنتين و ثمانين سنة و قيل قتل و هو ابن تسعين سنة و قال غيره قتل و هو ابن ثمان و ثمانين سنة و دفن بالبقيع.
طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن سعد بن تيم بن كعب بن تيم بن مرة و يكنى أبا محمد و يقال له طلحة الخير و طلحة الفياض و طلحة الطلحات لجوده و كثرة خيره و أمه الصعبة بنت الحضرمي، إسلام طلحة وذلك أنه كان جالساً في نادي قريش فتذاكروا إسلام أبي بكر و مخالفته دين آبائه فائتمروا بينهم بالفتك به فانتدب طلحة و كان له شديداً أيداً فأتاه و أخذه بضبعه و قال قم يا أبا بكر قال إلام إلى عبادة اللات و العزى قال و من اللات و العزى قال بنات الله قال أبو بكر و من أمهم فسكت طلحة و علم أنه باطل ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم و روى الواقدي عن طلحة أنه قال كنت بسوق بصرى فسمعت راهباً في صومعته يقول سلوا أهل هذا الموسم هل ظهر أحمد فقلت له و من أحمد قال ابن عبد الله هذا شهر خروجه قال فقدمت مكة فسمعت الناس يقولون تنبى محمد بن عبد الله و تبعه ابن أبي قحافة فأتيت أبا بكر فأخذني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأسلمت فلما خرجا من عنده أخذهما نوفل بن حارث و كان أشد قريش فشدهما في حبلٍ فلذلك سمي أبو بكر و طلحة القرينين، سن طلحة حليته قيل كان أبيض مربوعاً يضرب إلى الحمرة ضخم القدمين لا أخمص لهما حسن الوجه دقيق العرنين و يقال كان آدم كثير الشعر وقتله مروان بن الحكم يوم الجمل بسهمٍ رماه به و هو ابن ستين سنة و قال الواقدي ابن أربعٍ وستين سنة، ذكر ولده كان له عشرة بنين و أربع بنات لأمهات شتى منهم محمد بن طلحة أمه حمنة بنت جحش و أم حمنة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم و كان يقال له السجاد لكثرة صلاته و شهد الجمل مع أبيه فنهى علي عن قتله فقتله رجل وأنشأ يقول

و أشعث قوامٍ بآيات ربه ... قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

يناشدني حاميم و الرمح شاجر ... فهلا تلا حاميم قبل التقدم

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى و يكنى أبا عبد الله و هو ابن أخي خديجة و قتل أبوه في الفجار و أمه صفية بنت عبد المطلب، إسلام الزبير قال الواقدي كان إسلام الزبير بعد إسلام أبي بكر رابعاً أو خامساً و لم يذكر فيه سبباً و لا قصة و رأيت في بعض الأخبار أن الزبير أسلم و هو ابن ثمان سنين أو عشر فجعل عمه يعذبه بالدخان على أن يترك دينه فلما يئس منه تركه، حلية الزبير قال الواقدي كان رجلاً ليس بالطويل و لا بالقصير خفيف اللحية أسمر اللون كثير الشعر و يقال كان طوالاً تخط رجلاه الأرض إذا ركب و قتل سنة ست وثلاثين و هو ابن أربع و ستين سنة، ذكر ولده له سبع بنين غير البنات منهم عبد الله بن الزبير يكنى أبا بكر قتله الحجاج بمكة بعد فتنة سبع سنين و مصعب بن الزبير قتله عبد الملك بن مروان و كان شجاعاً سخياً تزوج عائشة بنت طلحة بن عبيد الله فأعطاها ألف ألف درهم و المنذر بن الزبير كان سيداً حليماً و كان يقول ما قل سفهاء قوم إلا ذله وإذا مشى في الطريق أطفيت النيران و المصابيح تعظيماً له و عروة بن الزبير كان فقيهاً فاضلاً ورعاً و وقعت الأكلة في رجله فقطعت و كويت و منهم عبيدة بن الزبير و عاصم بن الزبير.

سعد بن أبي وقاص هو سعد بن مالك بن وهب بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة و يكنى أبا إسحق و أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس و له أخوان عتبة و عمير فأما عتبة فهو الذي ضرب النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد و أما عمير فاستشهد يوم بدرٍ و سعد من العشرة المشهود لهم بالجنة و توفي سنة خمس وخمسين و هو ابن بضع و سبعين سنة أو بضع و ثمانين سنة و هو الذي فتح العراق و ما يليها، إسلام سعد رضي الله عنه روى الواقدي عنه أنه قال أتى علي يوم و أنى لثلث الإسلام قال و كان سبب إسلامه أنه رأى في المنام قال كأني في ظلام فأضاء قمر فأتبعته فإذا أنا بزيد وعلي قد سبقاني إليه و روي فإذا أنا بزيد و أبي بكر قال بلغني أن رسول الله يدعو إلى الإسلام مستخفياً فجئت إليه فلقيته بأجياد فأسلمت و رجعت إلى أمي و قد سبق إليها الخبر فأجدها على بابها تصيح و تصرخ ألا أعوان من عشيرته و عشيرتي فأجلسه في بيت و أطبق عليه الباب حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث قال و أسلمت و أنا ابن سبع عشر سنة، حلية سعد وسنه قالوا كان رجلاً قصيراً دحداحاً غليظاً ذا هامة شثن الأصابع جعد الشعر و ذهب بصره في آخر عمره و اختلفوا في مدة عمره فالذي يدل عليه تأريخ إسلامه أن يكون زيادةً على سبعين سنة و روى شعبة أن سعداً والحسن بن علي ماتا في يومٍ واحدٍ قال و يروى أن معاوية سمهما، ذكر ولده مصعب بن سعد و عمر بن سعد قاتل الحسين بن علي رضي الله عنه فقتله المختار بن أبي عبيد.

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن رياح بن قرط بن عدي ابن عليه السلام عمر بن الخطاب الواقدي قال نفيل ولد عمراً و الخطاب قال الواقدي كان سعيد رجلاً آدم طوالاً أشعر و أسلم

قبل عمر بن الخطاب و توفي سنة إحدى و خمسين و هو ابن بضع و سبعين سنة و دفن في المدينة و أبوه زيد بن عمرو و من ولده محمد بن سعيد يقول ليزيد بن معاوية يوم الحرة

لست منا و ليس خالك منا ... يا مضيع الصلوات في الشهوات

و عقب سعيد رضي الله عنه عنه في الكوفة كثير.

عبد الرحمن بن عوف بن الحارث و يكنى أبا محمد و هو من العشرة المشهود لهم بالجنة و الستة المذكورين في الشورى، حلية عبد الرحمن قال الواقدي كان رجلاً طوالاً حسن الوجه رقيق البشرة فيه خال أبيض مشرباً حمرة وقال غيره كان أعين أفتى جعد الشعر ضخم الكفين و مات في خلافة عثمان و هو ابن خمس و ستين سنة لأنه ولد بعد الفيل بعشر سنين و مات لسبع من سني عثمان و بلغ ثمن ماله ثلثمائة و عشرين ألفاً و قسم لأربع نسوة لكل واحدة ثمانون ألف درهم، ذكر ولده محمد بن عبد الرحمن و زيد و إبرهيم و حميد و عثمان و المسور و أبو سلمة الفقيه الذي يروى عنه الحديث ومصعب و كان شجاعاً شديداً و سهيل بن عبد الرحمن و هو الذي تزوج امرأة يقال لها الثريا من بني أمية الصغرى فقال عمر بن أبي ربيعة

أيها المنكح الثريا سهيلاً ... عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت ... و سهيل إذا استهل يمان

أبو عبيدة بن الجراح هو عامر بن عبد الله بن الجراح فنسب إلى جده و روي أنه سمع أباه يسب النبي فقطع رأسه و جاء به إلى النبي و أخبره الخبر وفتح الشام في أيام أبي بكر و مات بالطاعون في أيام عمر و لا عقب له، حليته قال الواقدي كان رجلاً طوالاً نحيفاً معروق الوجه خفيف العارضين أثرم الثنيتين و ذلك أنه انتزع نصلاً من جبهة النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد بأسنانه فهتم قال الواقدي أسلم أبو عبيدة بن الجراح و عبيدة بن الحارث بن المطلب و عثمان بن مظعون و أبو سلمة بن عبد الأسد كلهم معاً.

ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه و أرضاه أعلم أن عمر أخره تأخيره في الإسلام و قدمته فضائله عن درجته و ذلك أنه أسلم بعد إسلام أربعين سوى من هاجر إلى الحبشة لأنه أسلم سنة ست من النبوة و هو ابن خمسٍ وعشرين سنة وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رياح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب ينتهي إلى الشجرة التي منها النبي صلى الله عليه وسلم و أبو بكر و عثمان بثمانية آباء و يكنى أبا حفص و أمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومي، إسلام عمر رضي الله عنه روي أن النبي دعا فقال اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب و كان عمر رجلاً شديد الشكيمة لا يرام ما وراء ظهره وقد أسلمت أخته فاطمة بنت الخطاب وهي تحت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل و كان خباب بن الأرت ينتابها ويقرئها القرآن قال فتذاكرت قريش في ناديها أمر النبي صلى الله عليه وسلم و ما يحدث من التفرق والالتيام فانتدب عمر له و خرج من بينهم متوشحاً بسيفه و هو يريد رسول الله وقد ذكر أنه في بيت الأرقم بن الأرقم عند الصفا فلقيه نعيم بن عبد الله النحام فقال له أين تريد يا عمر قال أريد هذا الصبي الذي فرق أمر قريشٍ فأقتله فقال له نعيم لقد غرتك نفسك أترى أن بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض و قد قتلت ابن عمهم أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم قال عمر أي أهلي قال أختك و ختنك فعدل عمر عن الطريق إليهما فإذا عندهم خباب يقرئهم القرآن و معه صحيفة فيها سورة طه فلما أحسوا بعمر غيبوا خباباً وخبئوا الصحيفة فقال عمر ما هذه الهيمة التي سمعتها و أنا على الباب قالوا ما سمعت إلا خيراً قال بلى و إني قد أخبرت أنكما صبوتما و بطش بخباب فقامت أخته تكفه عنه فأصابتها شجةً فدبرا لذلك و أظهرا إسلامهما و قالا بلى قد أسلمنا فاصنع ما بدا لك فارعوي عمر و قال لأخته

أعطني هذه الصحيفة أنظر ما فيها و كان عمر كاتباً فقالت إني أخشاك عليها فأعطاها عهد الله و ميثاقه أنه يردها فقالت إنك نجس و إنه لا يمسها إلا طاهر فقام عمر فاغتسل و أخذ الصحيفة و قرأ صدراً من السورة فأعجب به و ألقى الله في قلبه الإسلام فخرج إليه خباب و قال يا عمر إني لا أرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه قال عمر فأين محمد يا خباب قال في دار الأرقم عند الصفا فجاء عمر حتى قرع عليهم الباب فقام رجل من الصحابة فنظر من خلل الباب فرجع و هو فزع مذعور فقال هذا عمر متوشحاً بسيفه فقال حمزة بن عبد المطلب إن كان جاء يريد خيراً بذلناه و إن كان يريد شراً قتلناه بسيفه فأذن له ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيه و أخذ بحجزته ثم جذبه جذبة شديدة فقال ما جاء بك يا بن الخطاب فو الله ما أراك تنتهي حتى ينزل الله بك قارعةً قال جئت لأومن بالله و رسوله فقال النبي الله أكبر و أسلم عمر و قال كم أنتم قال أربعون قال و الله لا نعبد الله بعده سراً فخرج إلى الناس و أظهر الإسلام فقال ابن مسعود إن إسلام عمر كان فتحاً و إن هجرته كانت نصراً و إن خلافته كانت رحمة و ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر.

حلية عمر و سنه اختلفوا في ذلك فروى أهل الحجاز أنه كان أبيض أمهق طوالاً تعلوه حمرة و روى أهل العراق أنه كان آدم شديد الأدمة و لا يختلفوا أنه كان أعسر يسر و هو الأضبط الذي يعمل بكلتي يديه وأنه كان أروح الذي إذا مشى يتدانى عقباه و أنه كان طوالاً حتى كأنه راكب و الناس يمشون و استشهد سنة ثلاث وعشرين قال ابن اسحق وهو ابن خمس وخمسين سنة و زعم قوم أنه مات ابن ثلاث و ستين سنة و الله أعلم.

ذكر ولده عبد الله بن عمر وعبيد الله بن عمر و عاصم بن عمر و زيد بن عمر و مجبر بن عمر و أبو شحمة بن عمر أما عبد الله فإنه يكنى أبا عبد الرحمن أسلم مع أبيه بمكة و هو صغير و شهد المشاهد غير بدرٍ و أحد لأنه رد لصغره و توفي بمكة زمن الحجاج و هو ابن أربع و ثمانين سنةً سنة ثلاثٍ و سبعين من الهجرة في العام الذي قتل فيه عبد الله بن الزبير و يقال أن الحجاج دس إلى رجل فسم زج رمحه ثم طعن به في ظهر قدمه فمات و له بنون و بنات منهم عبد الله بن عبد الله بن عمر أمه صفية بنت أبي عبيد أخت المختار بن أبي عبيد و عاصم و واقد و بلال و حمزة و سالم كان فقيهاً فاضلاً و فيه يقول عبد الله بن عمر و كان محباً له

يلومونني في سالمٍ و ألومهم ... و جلده بين العين و الأنف سالم

و أما عبيد الله بن عمر بن الخطاب فكان شديد البطش و جرد سيفه يوم قتل عمر و استعرض العجم بالمدينة فقتل الهرمزان و ابنته و أبا لؤلؤة و جفينة رجلاً فلما صارت الخلافة إلى علي عليه السلام أراد أن يقتص عنه فهرب إلى معاوية و قتل بصفين و أما عاصم بن عمر بن الخطاب فولد أولاداً منهم أم عاصم تزوجها عبد العزيز بن مروان فولدت له عمر بن عبد العزيز و أما زيد بن عمر فأمه أم كلثوم بنت علي مات هو وأم كلثوم في يومٍ واحد و أما أبو شحمة بن عمر فقتله الحد في الشراب و مجبر بن عمر مات فهؤلاء العشرة الذين شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة والرضا و منهم الخلفاء القائمون بالحق والعاملون به و نعود الآن إلى تقديم من قدمه إسلامه.

عمرو بن عبيسة هو أبو نجيح السلمي من بني سليم روى الواقدي أنه قال كنت ثالثاً في الإسلام أو رابعاً وكان سبب إسلامه أنه كان يرغب عن عبادة الأوثان و الأصنام فسأل حبراً من الأحبار عن دينٍ يدين به الله عز و جل فأخبره أنه سيخرج نبي بمكة يدعو إلى دين الله فلما سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم جاء فقال من اتبعك هذا الأمر فقال حر و عبد أراد بالحر أبا بكر و بالعبد بلالاً فأسلم و رجع إلى بلاده فلما قبض النبي عليه السلام سكن بالشام وبها توفي.

أبو ذر الغفاري جندب بن السكن ويقال ابن جناده و روى الواقدي أنه قال كنت خامساً في الإسلام و كان رجلاً

شجاعاً نصب في الطريق يقطع على أهله وحده و يغير على الصرمة في عماية الصبح و يسبق على قدميه الركاب و كان يتأله في الجاهلية و يقول لا إله إلا الله قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم فمر به ركب من ضلة فقالوا يا أبا ذر إن ابن عبد المطلب يقول كما تقول فأخذ شيئاً من بهش يعني المقل و تزوده حتى قدم مكة قال فانتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم و هو راقد فنبه فقال أنعم صباحاً ما أقول الشعر و لكنه قرآن أقرأه فقال اقرأ فقرأ عليه سورة فشهد أبو ذر شهادة الحق فأسلم و رجع إلى بلاده فجعل يعترض لعيرات قريش فيقطعها و يقول و الله لا أرد عليكم شيئاً ما لم تشهدوا بالحق فمن أسلم رد عليه ماله و لم يشهد بدراً و لا أحداً لأنه قدم المدينة بعدهما و كان مختصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم قال ما أقلت الغبراء و لا أظلت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر كيف بك إذا أخرجت عن المدينة لقول الحق و قال إذا بلغ البناء سيفاً من المدينة و لا أظن أمراؤك يدعونك قال أفلا أضرب بسيفي قال لا ولكن تسمع وتطيع فلما بلغ البناء سيفاً خرج إلى الشام فمال الناس إليه يقولون أبو ذر أبو ذر فكتب معاوية إلى عثمان أن الشام ليست لي بأرض ما دام أبو ذر فيها فكتب إليه عثمان أن أقدم فقدم و قال أخفتني قال أقم عندي تغدو عليك اللقاح و تروح قال لا حاجة لي فيها ائذن لي فأتي الربذة فسيره إليها فمات بها لقول النبي صلى الله عليه وسلم تعيش وحدك و تموت وحدك قالوا و لما حضرته الوفاة قال لامرأته و غلامه إذا أنا مت فاغسلوني و كفنوني و احملوني حتى تضعوني على قارعة الطريق فأي ركب طلع عليكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا بدفنه قالوا ففعلا ذلك فكان أول ركب طلع عليهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه و أرضاه فقال صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في غزوة تبوك تموت وحدك و تعيش وحدك فنزل و صلى عليه و واراه و كانت وفاته سنة اثنتين و ثلاثين و لا يعرف مبلغ سنه و لا عقب له.

خالد بن سعيد بن العاص بن أمية روى الواقدي قال كنت خامساً في الإسلام و هو من المهاجرين الأولين إلى الحبشة و كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة والمدينة واستعمله على صدقات أهل اليمن فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرجع إليه فلما رجع لم يبايع أبا بكر ثلثة أشهر ثم بايع وقتل بأجنادين في أيام أبي بكر رضي الله عنه وزعم أبو اليقظان أنه أسلم قبل أبي بكر و كان سبب إسلامه أنه رأى في المنام أنه على شفير نارٍ وأبوه يدفعه فيها ومحمد يدفعه عنها فلما أصبح عبر على أبي بكرٍ فقصها عليه فقال هذا رسول الله فاتبعه و كان أبوه أبو أحيحة سعيد بن العاص مريضاً فدخل عليه وذكر له الرؤيا فقال لئن رفعني الله من مضجعي هذا لا يعبد إله ابن أبي كبشة بمكة فقال خالد فقلت اللهم لا ترفعه ثم جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت و لم يرفع الله أبا أحيحة حتى هلك وممن تقدم إسلامه أبو سلمة بن عبد الأسد اسمه عبد الله كان أخا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة و هاجر قبله إلى المدينة بسنةٍ.

مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف كان فتى قريش جمالاً و شباباً و عطراً و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم فجعلت أمه تعذبه بأنواع العذاب ليدع دينه فما تركه حتى ظهر به الشحوب و أثر فيه الجوع فهاجر إلى الحبشة و رجع ثم بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مع الأنصار إلى المدينة يعلمهم القرآن فيقال أنه أول من جمع بالمدينة و استشهد بأحد و قيل أن فيه نزلت و أما من خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى قال الواقدي ما نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا دمعت عيناه.

عبد الله بن مسعود بن الحارث بن سمح بن مخزوم من هذيل روي عن ابراهيم النخعي أنه كان رجلا قليلاً قضيفاً فطناً يكاد الجلوس تواريه و هو أول من أفشى القرآن بمكة و ذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا إن أحدنا يشري نفسه لله فيجهر بهذا القرآن حتى تقر في أسماع قريش فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

أنا أفعل ذلك و كان حسن الصوت فتوجه إلى الكعبة و رفع صوته بسورة الرحمن ثم انصرف و في وجهه ما شاء الله و هو الذي جاء برأس أبي جهل بن هشام يوم بدرٍ و توفي في المدينة سنة اثنتين في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه و من ولده عبد الرحمن و عتبة و قد نسلوا و أعقبوا و لعبد الله أخ يقال له عتبة بن مسعود و هو أيضاً قديم الإسلام ومن ولده عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان صاحب فقه و حديث و هو الذي قال

و أول ما نفارق غير شكٍ ... نفارف ما تقول المرجئونا

و ممن سبق إسلامه من بني هاشمٍ أسلم بمكة و شهد بدراً حمزة بن عبد المطلب أسد الله و أسد رسوله رضي الله عنه ويكنى أبا عمارة و أبا يعلى واستشهد بأحد رضي الله عنه قتله وحشي غلام حرب بن مظعون و كان له ابن يقال له عمارة مات و لم يعقب قال الواقدي كان حمزة رجلاً قانصاً كان يوماً في مصيده و رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج إلى الحجون في حاجة له إذ تبعه أبو جهلٍ في رجلٍ من سفهاء قريشٍ فنالوا منه وآذوه و ذر أبو جهلٍ التراب على رأسه و وطئ برجله على عاتقه فلما نزل حمزة نادته امرأته يابا عمارة لو رأيت ما نال عمرو بن هشامٍ من ابن أخيك فأقبل حمزة مغضباً حتى وقف على ناديهم فلما نظر إلى أبي جهلٍ ضربه بالقوس فأوضحت في رأسه الشجة و قال و أشهد أن محمداً رسول الله فاصنعوا ما بدا لكم فلما أسلم حمزة عز به الدين والنبي صلى الله عليه.

جعفر بن أبي طالب ذو الجناحين أسلم و هو دون ابن عشرين سنة و كان أمير القوم في الهجرة الثانية إلى الحبشة و قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو بخيبر فاستقبله و قبل ما بين عينيه و قال لا أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أو بقدوم جعفر وقتل بمؤتة رحمه الله ورضي عنه و هو ابن ثلاث و ثلاثين سنة و ولدت له أسما بنت عميس الخثعمية بالحبشة أحمد بن جعفر و عدي بن جعفر و عبد الله بن جعفر و قد قال بعض الناس أن إسلام جعفر أقدم من إسلام حمزة و أما عقيل بن أبي طالب فإنه أسر يوم بدر مع العباس رضي الله عنه ثم أسلم.

و ممن سبق إلى الإسلام من بني عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة ابن ربيعة بن عبد مناف أسلم و هاجر إلى الحبشة و معه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو فولدت له محمد بن أبي حذيفة فرخ قريش و هو الذي ألب على عثمان و ذلك أنه كان تكفل به فلما أفضى الأمر إلى عثمان خرج محمد بن أبي حذيفة إلى مصر عارياً و تنسك و أظهر الطعن على عثمان ثم قتله معاوية و لا عقب له.

و ممن سبق إسلامه من الناس المقداد بن الأسود بن عبد المطلب مات بالمدينة سنة ثلاث و ثلاثين و هو ابن سبعين سنة و روي أنه ما كان مع المسلمين من فرس يوم بدر إلا فرس المقداد بن الأسود.

عمار بن ياسر يكنى أبا اليقظان قال الواقدي أسلم عمار و صهيب بعد إسلام بضعة و ثلاثين رجلاً في دار الأرقم كان أبوه ياسر قدم من اليمن و حالف بني مخزوم ثم أسلم و أسلمت أمه سمية فجعل بنو مخزومٍ يعذبونهم بالرمضاء إذا حميت الظهيرة و يمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة فقتلوا ياسراً و شدوا رجل سمية بين بعيرين قبلها بالرماح حتى قتلوها بعد ياسر بزمانٍ طويلٍ و عمار أعطاهم بلسانه ما طلبوا و فيه نزلت إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان و قتل بصفين و من ولده محمد بن عمار و له عقب.

وأما صهيب بن سنان بن مالك فزعم بعض الناس أنه من النمر ابن قاسط و زعم آخرون أن أباه كان غلاماً لكسرى على الأبلة فأسرته الروم أعني صهيباً و نشأ عندهم ثم اشتراه عبد الله بن جدعان و بعث به إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أهدي إليه تمر فوقع صهيب يأكل و به رمد فقال النبي عليه السلام أ تأكل التمر و بك رمد قال إنما أمضغ بالناحية الأخرى فضحك النبي صلى الله عليه وسلم و له عقب.

خباب بن الأرت و هو من بني سعد زيد مناة أصابه سبي فبيع بمكة و أمه كانت ختانة و قيل مقطعة البظور و خباب

من فقراء المسلمين و خيارهم و كان به برص و ابنه عبد الله بن خباب قتله الخوارج فبذلك استحل علي قتلهم.
الأرقم بن الأرقم هو الذي آوى رسول الله صلى الله عليه وسلم في داره عند الصفا حتى تكاملوا أربعين و كان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب و أرقم ممن هاجر و شهد بدراً.
بلال بن رباح و أمه حمامة أسلم فجعل مولاه أمية بن خلف الجمحي يعذبه و يطرحه على ظهره في نصف الظهيرة و يضع صخرة عظيمة على صدره و يقول لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد و ربه و هو يقول أحد أحد فمر به أبو بكر يوماً فقال إلى متى تعذب هذا المسكين قال أمية بن خلف أنت أفسدته فأنقذه قال نعم عندي غلام على دينك أجلد منه و أقوى فخذه مكانه فأخذه أبو بكر فأعتقه و كان رجلاً أسود جهوري الصوت و مات بدمشق سنة عشرين.
أبو موسى الأشعري و اسمه عبد الله بن قيس قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأشعريين من اليمن فأسلموا قال ابن إسحق فيما يروي زياد بن عبد الله البكائي عنه أنه أسلم و هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين و توفي سنة اثنتين و خمسين و يقال اثنتين و أربعين و له أولاد منهم أبو بردة بن أبي موسى و كان قاضياً و بلال بن أبي بردة و كان قاضياً بالبصرة و فيه يقول ذو الرمة
فقلت لصيدح انتجعي بلالا
العلاء بن الحضرمي و اسم الحضرمي عبد الله بن ضمار و بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صاحب البحرين المنذر بن ساوي فأسلم و عبر العلاء إلى دارين فخاض البحر على فرسه و انتجع أسياف فارس و حمل من مال البحرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ألف و ثمانين ألف درهم و توفي في أيام عمر رضي الله عنهما.
عثمان بن مظعون من بني جمح يكنى أبا السائب قديم الإسلام و هو الذي افتتح الأبلة في خلافة عمر و اختط البصرة و أسس مسجدها و روي عنه أنه قال رأيتني و أنا سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم و ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا فما أصبح منا اليوم أحد حياً إلا و هو أمير على مصر فهؤلاء المشهورون من مهاجري الصحابة السابقين إلى الإسلام و الهجرة و روي عن قتادة أنه قال من صلى إلى القبلتين فهو من المهاجرين الأولين.
و ممن تأخر إسلامه من الصحابة النعمان بن مقرن أمير المسلمين يوم نهاوند و بها قتل و نبت الشقائق على قبره فقيل شقائق النعمان.

جرير بن عبد الله البجلي كان ينقل في ذروة البعير لطول قامته و يقال له يوسف هذه الأمة لجماله و كماله و حسن فعاله.
عثمان بن العاص الثقفي كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم و استعمله على الطائف و هو الذي افتتح أسياف فارس و بني توج بفارس و بها ولد.
عكاشة بن محصن الأسدي و هو ممن يدخل الجنة بغير حساب و قتله طليحة يوم بزاخة.
المغيرة بن شعبة من ثقيف و كان أعور من دواهي العرب و مات بالكوفة بالطاعون و كان أميرها من قبل معاوية و كان يزعم أنه أحدث الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه ألقى خاتمه في قبره ثم نزل ليأخذه و كذبه علي و ابن عباس و قالا بل كان ذلك قثم بن العباس لأنه كان أصغر القوم و من ولد المغيرة عروة من أم الحجاج بن يوسف كانت تحته و العقار و حمزة ابنا عروة بن المغيرة و أخو المغيرة عروة بن مسعود أسلم و دعا قومه فقتلوه فقال النبي عليه السلام و هو من السابقين.

العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه يكنى أبا الفضل كان ولد قبل الفيل بثلاث سنين و عاش تسعاً و ثمانين سنة ثم كف بصره و مات بالمدينة في زمن عثمان بن عفان و كان قصير القامة طويل اللحية و أسر يوم بدر فافتدي و أسلم و ولد اثني عشر نقيباً قال أبو صالح ما رأينا بني أب قط أبعد قبوراً من بني العباس مات الفضل بالشام و مات عبيد الله بالمدينة و مات عبد الله بالطائف و مات قثم بسمر قند.

عبد الله بن العباس رضي الله عنه بحر هذه الأمة يكنى أبا العباس و توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو ابن خمس عشرة سنة و يقال ثلاث عشرة و عاش ثلاثاً وسبعين سنة و مات بالطائف في فتنة ابن الزبير بعد ما كف بصره سنة ثمان وستين فضرب محمد بن الحنفية فسطاطاً على قبره و روى طائر جاء حتى دخل في كنفه فقيل فيه إنما الطير علمه زال معه ... ذاك فينا اليقين و البرهان

و ولد عبد الله بن العباس ثمانية نفر منهم علي بن عبد الله أبو الخلفاء و اختلفوا في مولده فروى أنه ولد ليلة قتل فيها علي ابن أبي طالب رضي الله عنه و روي أنه ولد قبل ذلك فحنكه علي بيده و سماه علياً و قال هاك أبو الأملاك و كان سيداً شريفاً يصلي كل يوم ألف ركعة تحت الشجر و ذلك أنه كان له حائط فيه خمسمائة أصل زيتون فجعل يصلي كل يومٍ إلى كل أصلٍ ركعتين و كان يسمى ذا الثفنات وضربه الوليد بن عبد الملك بالسياط مرتين لقوله أن هذا الأمر سيكون في ولدي و ولد علي بن عبد الله بن العباس محمداً و عبد الله و كان بينه و بين أبيه أربع عشرة سنة فولد محمد بن علي أبا العباس السفاح و أبا جعفر المنصور من الحارثية و هي امرأة من بني الحارث بن كعب.

عمرو بن العاص الثقفي أبو الأبناء المشهورين أسلم هو و خالد بن الوليد سنة ست من الهجرة و كان سبب إسلام عمرو أنه لما خرج إلى الحبشة في شأن جعفر و من هاجر معه من المسلمين فقال للنجاشي ادفع إلي هؤلاء لأضرب أعناقهم فقال النجاشي تسألني أن أعطيك رهط نبي الله الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران عليه السلام لتقتلهم فوقع في قلبه الإسلام فلما كان وقت إسلامه خرج قاصداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلقيه خالد بن الوليد و هو يريد الإسلام فقال إلى أين يا أبا سليمان قال لقد استقام أمر الميم وأن الرجل لنبي الله فأسلم فقال عمرو و الله ما جئت إلا لذلك فقدما المدينة و بايعا و كان عمرو من دواهي العرب و مات سنة اثنتين و أربعين بمصر في أيام معاوية و يقال إحدى و خمسين و هو ابن ثلاث و تسعين فصلى عليه ابنه عبد الله بن عمرو يوم الفطر ثم صلى بالناس العيد.

عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن سهم بن هصيص بن كعب بن لؤي و كان يقرأ بالسريانية ويضرب بسيفين و مات بمكة و يقال بمصر و من ولده محمد بن عبد الله بن عمرو و من ولد محمد شعيب بن محمد و من ولد شعيب عمرو بن شعيب يروي الحديث عن أبيه عن جده.

و ممن أسلم عام الفتح و بعده عتاب بن أسيد بن العيص بن أبي العيص بن أمية أسلم عام الفتح واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم حتى خرج إلى حنين و من ولده عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد يعسوب قريش شهد الجمل مع عائشة و احتملت عقاب كفه لما قطع و طرحته باليمامة فعرف بخاتمه و مات عتاب يوم مات أبو بكر رضي الله عنه.

أبو سفيان صخر بني حرب بن أمية بن عبد شمس أسلم قبل الفتح وذهبت إحدى عينيه بحنين و الأخرى باليرموك و مات بالمدينة في خلافة عثمان بن عفان و هو ابن ثمانٍ وثمانين سنة و من ولده معاوية بن أبي سفيان أسلم عام الفتح و ولى الشام لعمر و عثمان عشرين سنة و أمر عليها عشرين سنة و مات بدمشق سنة ستين من الهجرة و هو ابن اثنين وثمانين سنة.

و المؤلفة قلوبهم كلهم أسلموا عام الفتح و بعده و منهم أبو سفيان و معاوية و سهيل بن عمرو و حويطب بن عبد العزى و صفوان بن أمية و عكرمة بن أبي جهل و الحارث بن هشام أخو أبي جهل بن هشام و عيينة بن حصن بن بدر و الأقرع بن حابس و العباس بن مرداس و جبير بن مطعم و الزبرقان و قيس بن مخرمة.

و ممن أسلم من الوفود حجر بن عدي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم و شهد القادسية و الجمل و صفين و كان من شيعة علي فقتله معاوية بعد ما أعطى الحسن بن علي الأمان لشيعة علي و لحجر خاصة، عدي بن حاتم الطائي شهد مع علي الجمل و مات أيام المختار بن أبي عبيد وقد بلغ من السن مائة وعشرين سنة.

لبيد بن ربيعة العامري الشاعر وفد فأسلم و لم يقل بعد الإسلام بيتاً من الشعر و مات و هو ابن مائة و سبع و خمسين سنة.

عمر بن معد ي كرب وفد فأسلم ثم ارتد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم و قتل بنهاوند رحمه الله و رضي الله عنه.

الأشعث بن قيس من كندة وفد فأسلم ثم ارتد ثم أسلم و زوجه أبو بكر أخته فروة بنت أبي قحافة و ابنه عبد الرحمن بن الأشعث خرج على الحجاج بن يوسف و خرجت القرامطة و كان الأشعث أسر فافتدي بثلاثة آلاف بعير و مات سنة أربعين .

قيس بن عاصم المنقري سيد بني تميم وفد على الرسول فأسلم و قال له النبي صلى الله عليه وسلم أنت سيد أهل الوبر و فيه يقول الشاعر

و ما كان قيس هلكه واحد ... و لكنه بنيان قوم تهدما

عمرو بن الحمق أسلم في حجة الوداع و كان من شيعة علي عليه السلام قتله عامل معاوية بالموصل.

عبد الله بن عامر بن كريز ابن خالة عثمان بن عفان و هو الذي فتح عامة فارس و خراسان و كابل و اتخذ النباج و القريتين بالمدينة و روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً واحداً و هو من قتل دون ماله فهو شهيد.

يعلى بن منية ويقال بن أمية فأمية أبوه و منية أمه و أسلم عام الفتح و جاء بابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال بايعه على الهجرة فقال لاهجرة بعد الفتح.

إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه و هو يكنى أبا عبد الله و مات بالمدائن في خلافة عثمان و كان والياً عليها و روى ابن إسحق و الواقدي و غيرهما أنه قال كنت ابن دهقان قرية جي من أصبهان و بلغ من حب أبي إياي أن حبسني في البيت كما تحبس الجارية و اجتهدت في المجوسية حتى صرت قطن بيت النار قال و أرسلني أبي يومئذ إلى ضيعة له فمررت بكنيسة النصارى فدخلت إليهم فأعجبني صلاتهم فقلت دين هؤلاء خير من ديني فسألتهم أين أصل هذا الدين قالوا بالشام فهربت من والدي حتى قدمت الشام و دخلت على الأسقف و جعلت أخدمه و أتعلم منه حتى حضرته الوفاة فقلت إلى من توصي بي فقال قد هلك الناس و تركوا دينهم إلى رجل بالموصل فالحق به فلما قضى نحبه لحقت بالرجل الذي أوصى به فلم يلبث ذلك إلا قليلاً حتى مات فقلت إلى من توصي بي قال ما أعلم رجلاً بقي على الطريقة المستقيمة إلا واحداً بنصيبين قال فلحقت بصاحب نصيبين و تلك الصومعة اليوم باقية بعد و هي التي تعبد فيها سلمان قبل الإسلام قال واحتضر صاحب نصيبين فبعثني إلى رجل بعمورية من أرض الروم قال فأتيته فأقمت عنده و اكتسبت بقيرات وغنيمات فلما نزل به سلطان الموت قلت له بمن توصي بي قال قد ترك الناس دينهم و ما بقي أحد على الحق وأنه لقد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبرهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بها نخل قلت و ما علامته قال يأكل الهدية و لا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة قال و مر بي

ركب من كلب فخرجت معهم فلما بلغوا وادي القرى ظلموني وباعوني من يهودي فكنت أعمل له في زرعه و نخله فبينا أنا عنده إذ قدم ابن عليه السلام له فابتاعني منه و حملني إلى المدينة فو الله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها وبعث الله محمداً بمكة ولا أسمع بشيءٍ منه فبينا أنا في رأس نخلة إذ أقبل ابن عليه السلام لسيدي فقال قاتل الله بني قيلة قد اجتمعوا على رجلٍ بقباء قدم عليهم من مكة يزعمون أنه نبي فأخذتني العرواء و الانتفاض و نزلت عن النخلة و جعلت استقصي في السؤال قال فما كلمني سيدي كلمة بل قال أقبل على شأنك و دع ما لا يعنيك قال فلما أمسيت أخذت شيئاً كان عندي من التمر فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بلغني أنك رجل صالح و أن لك أصحاباً غرباء ذوي حاجة و هذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم فقال النبي صلى الله عليه وسلم كلوا و أمسك فقلت في نفسي هذه واحدة و انصرفت فلما كان من الغد أخذت ما كان بقي عندي من التمر فأتيت به و قلت إني رأيتك لا تأكل الصدقة و هذه هدية مني فقال عليه السلام كلوا و أكل معهم فعلمت أنه هو فأكببت عليه أقبله و أبكي فقال ما لك فقصصت عليه القصة فأعجبه ثم قال يا سلمان كاتب صاحبك فكاتبته على ثلاثمائة نخلة أحييها بالفقير و أربعين أوقية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعينوا أخاكم فأعانوني بالنخل حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية فقال يا سلمان اذهب ففقر لها ثم اذني ففقرت ثم آذنته فجاء فوضعها بيده فو الله ما ماتت منها ودية و أتاه من بعض المغازي مال فأعطاني منه فقال أد كتابك فأديت و عتقت و فاتني بدر و أحد لشغلي برقي و شهدت الخندق و زعم قوم أن سلمان عاش مائتي سنة ونيفاً و سأم اليهودية و المجوسية و النصرانية.
إسلام أبي هريرة أتى النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر سنة سبع من الهجرة فأسلم و اختلفوا في اسمه فقال الواقدي اسمه عبد الله بن عمرو و قال غيره عبد شمس و قيل عبد الرحمن بن صخر و يقال غير ذلك ولقب أبا هريرة بهرة صغيرة كان يلعب بها فاستعمله مروان بن الحكم على المدينة و مات في أيام معاوية و كان يقول نشأت يتيماً و هاجرت مسكيناً و كنت لبشر بن غزوان أجيراً بطعام بطني و عقبة رجلي فكنت أخدم إذا نزلوا و أحدو إذا ركبوا فروحنيها الله فالحمد لله الذي جعل الإسلام قواماً و جعل أبا هريرة إماماً.

ذكر من أسلم من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين أولهم أسعد بن زرارة أسلم عند العقبة بمنى و قطبة بن عامر و معاذ بن عفراء و عوف بن عفراء و عقبة بن عامر و جابر بن عبد الله هؤلاء الستة ثم أسلم في العام القابل اثنا عشر نفراً أولهم أبو الهيثم بن التيهان و أبو عبد الرحمن بن ثعلبة و ذكوان بن عبد القيس و رافع بن مالك و عويم بن ساعدة و عبادة بن الصامت ثم قدم في العام الثالث سبعون رجلاً منهم رئيسهم البراء بن معرور فأسلم و بعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير و كان يقال له المهدي فأول من أسلم بدعائه بالمدينة سعد بن معاذ و أسيد بن حضير ونشأ الإسلام بالمدينة و اسعد بن زرارة من الأنصار وأسلم عند العقبة وبايع على النصرة و هو رأس النقباء و كان يقول في الجاهلية بالتوحيد فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة لم يلبث إلا قليلاً حتى مات فأوصى ببناته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكن في حجره حتى أدركن وزوجهن قال الواقدي خطب نبيط بن جابر الفارعة بنت أسعد بن زرارة فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم و جهزها و قال لهم ليلة الزفاف قولوا أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم و لولا الحنطة السمراء لم تسمن عذاريكم و لولا الذهب الأحمر لم نحلل بواديكم.
سعد بن عبادة سيد الخزرج كان يسمى الكامل في الجاهلية لأنه كان يحسن الكتابة و الرمي و العوم و هو الذي تلكأ عن بيعة أبي بكر و اعتزل في سقيفة بني ساعدة و قال منا أمير و منكم أمير ثم خرج إلى الشام و مات بها في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه و يقال نهشه الحية و من ولده قيس بن سعد بن عبادة الداهي الشجاع الفطن و هو من شيعة علي عليه السلام و كان للنبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة الشرطي يهابه الناس ما لا يهابون غيره و

كان صاحب راية الأنصار يوم بدر.
سعد بن معاذ أصابه يوم الخندق نشابة فقطعت منه الأكحل فلما قضي في بني قريظة بقتل الرجال و سبي النساء انفجر عليه و انبعث حتى مات و قال صلى الله عليه وسلم لقد اهتز العرش لموت سعد.
عبادة بن الصامت عقبي بدري أحدي مات بالرملة زمن معاوية جابر بن عبد الله قال جابر أنا و أخي و خالي من أصحاب العقبة و ذهب بصره في آخر عمره و هو من مات بالمدينة من الصحابة في قول بعضهم.
ذكر من أسلم من الأنصار بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم روى الواقدي أن زيد بن ثابت قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة و أنا ابن إحدى عشر سنة و أول هدية دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قصعة مثرودة خبزاً وسمناً ولبناً بعثتها أمي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بارك الله فيك قال و أمره أن يتعلم كتاب يهود فعلمه في بضع عشرة ليلة و كتب لأبي بكر و عمر و مات في زمن معاوية و من ولده خارجة بن زيد بن ثابت قال رأيت في المنام كأني بنيت سبعين درجة لي قد أكملتها فمات بالمدينة .
أبي بن كعب الأنصاري يكنى أبا المنذر كان يكتب في الجاهلية والإسلام و توفي في خلافة عثمان فصلى عليه و قيل اليوم مات سيد المسلمين.
أبو طلحة الأنصاري اسمه زيد بن سهل قتل يوم حنين عشرين و هو يقول
أنا أبو طلحة و اسمي زيد ... وكل يوم في سلاحي صيد
و كانت أم سليم أم أنس بن مالك تحته و مات أبو طلحة في خلافة بالمدينة.
أنس بن مالك كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حمزة قال أنس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة و أنا ابن عشر سنين فخدمته عشر سنين و مات وأنا ابن عشرين سنة و عاش أنس مائة وأربع سنين و هو آخر من مات بالبصرة في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي ولم يمت حتى رأى من صلبه مائة ذكرٍ.
أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ببابه فنزل عليه سبعة أشهر حتى بنى بيوته و مات بأرض الروم غازياً مع يزيد بن معاوية أشقى الأشقياء فدفن في أصل سور القسطنطينية فالروم إذا قحطوا كشفوا عن قبره فيمطروا و له عقب.
عويم بن مالك مات بالشام زمن عثمان و كان آخر داره إسلاماً.

معاذ بن جبل الخزرجي شهد بدراً و مات بالشام في طاعون عمواس و هو ابن ثمانٍ وستين سنة كان سبب إسلامه أن عبد الله بن رواحة كان أخاً له في الجاهلية و كان لمعاذ بن جبل صنم فأتى عبد الله منزل معاذ و معاذ غائب ففلذ صنمه فلذاً فلما رجع معاذ وجد امرأته تبكي فقال ما وراءك فأخبرته بصنيع ابن رواحة بإلهه ففكر معاذ في نفسه و قال لو عند هذا طائل لامتنع ثم جاء إلى عبد الله بن رواحة و قال انطلق بنا إلى رسول الله فانطلق به فأسلم و لم يبق مع عقب معاذ أحد.
عبد الله بن سلام اسمه الحصين وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله و هو من شيعة عثمان بن عفان روي عنه أنه قال كان أبي يدرسني التوراة فأتينا على ذكر رسول الله صله فقال لي إن كان من بني إسرائيل فاتبعه وإن كان من العرب فلا تتبعه فلما نظرت إلى وجه رسول الله صله علمت أنه ليس بوجه كذاب فجاء و سأل النبي عن ثلاثة أشياء عن أول نزل أهل الجنة وعن السواد في وجه القمر و عن آية الشبه من أين هو فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما نزل أهل الجنة فلام و نون و أما السواد الذي في القمر فإنهما كانا شمسين فمحاه الله عز و جل أما آية الشبه فأي النطفتين سبقت إلى الرحم فالولد شبيه به فأسلم عبد الله ثم قال يا رسول الله إن اليهود قوم خبث

بهت و إن علموا بإسلامي بهتوني عندك فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبار يهود وغيب عبد الله عنهم و قال كيف عبد الله بن سلام فيكم قالوا سيدنا وحبرنا وعالمنا فإن أسلم تسلمون قالوا هو لا يترك دينه اخرج يا عبد الله بن سلام فخرج و قال أشهدكم الله أتعرفون كذا و كذا يقررهم بأمور فقالوا قد ذهب عقلك.

حسان بن ثابت الأنصاري شاعر و أبوه شاعر و ابن حسان بن عبد الرحمن شاعر و ابن عبد الرحمن سعد شاعر و انقرض ولده و كان حسان يضرب بعذبة لسانه روثة أنفه و عاش مائة و عشرين سنة ستين في الجاهلية و ستين في الإسلام و لم يشهد حرباً قط من جبنه .

سهل بن حنيف الأنصاري و هو الذي لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أمره أن يكسر الأصنام فجعل يكسرها يستوقد بها و كان من شيعة علي عليه السلام و مات بالكوفة وصلى عليه وكبر ستاً أو خمساً و أخوه عثمان بن حنيف استعمله على البصرة و كان بعثه عمر رضي الله عنه على العراق فمسحها و جعل الخراج عليه.

خوات بن جبير صاحب ذات النحيين الخزرجي وأخوه عبد الله بن جبير أمير الرماة يوم أحد و قال النبي صلى الله عليه وسلم لخوات ما فعل بعيرك الشارد قال ما شرد منذ أسلمت.

محمد بن مسلمة الأنصاري قاتل كعب بن الأشرف و اتخذ سيفاً من خشب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشهد شيئاً من حروب الفتن إلى أن مات وله من البنين عشرة و من البنات ست و قد قلنا لك يرحمك الله في صدر هذا الفصل أن هذا من صناعة أصحاب الحديث و أن استيفاء عددهم غير ممكنٍ و إنما أتينا بما أتينا به لحاجة الناظر في الفصول التي تتلو هذا الفصل في أيام الخلافة و حوادث الفتن إلى معرفة أسماء من ذكرنا قصته و خبره و إلا لذهب بهاء ذلك الكلام و انقطع نظامه و خرج عن القصد الذي أردناه من الإيضاح و الإيجاز فليعرف الناظر مرادنا في سوق هذه الأسامي و الله الموفق و المعين ويتبع هذا الفصل اختلاف أهل الإسلام في مذاهبهم و تباين مقالاتهم و آرائهم ليبين بعده تأريخ الخلفاء من الصحابة و أيام بني أمية و ولد العباس و يكون خاتمة الكتاب على موجب الحال إن شاء الله تعالى.

الفصل التاسع عشر

في مقالات أهل الإسلام

أعلم أن الاختلاف في هذه الأمة وقع مبتدئاً من الصدر الأول ثم هلم جراً إلى يومنا هذا و لا يدرى ما هو كائن بعد.

ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم و أهل الأرض كفار على اختلاف ما بينهم من اليهودية و النصرانية و الشرك و الإلحاد إلا بقايا متفرقين بقيت منهم بقية من الذين يمسكونها و أفراد يدكوا ما هم فيه من الضلالة و جعلوا يطلبون ديناً فمنهم من لم يخترم حتى أدرك ما طلب مثل أبو الهيثم بن التيهان و أسعد بن زرارة و أبي ذر الغفاري و سلمان الفارسي و أبي قيس صرمة بن أبي أنس و منهم من مات على هدى مثل زيد بن عمرو بن نفيل و ورقة بن نوفل و قس بن ساعدة و بحيرا وأرباب و عداس سمعوا منادياً ينادي قبل مبعث النبي صله خير أهل الأرض أرباب و بحيرا الراهب وآخر لم يأت بعد يعني النبي صلى الله عليه وسلم و منهم من طلب و تنصر ثم غلب عليه الشقاوة فارتكس و عاد إلى الضلالة مثل أبي عامر الراهب و أبي حنظلة العقيلي و أمية بن أبي الصلت الثقفي و لكل واحدٍ قصة نذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى، فلما خرج رسول الله صله و دعا الخلق إلى الله آمن من أجابه و كفر

من رده و صاروا فرقتين مؤمن و كافر ثم لما خرج إلى المدينة حسده قوم فنافقوه فأظهروا الإسلام و أسروا الكفر فصار الناس ثلاث فرقٍ كافر و مؤمن و منافق و ارتد قوم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله بن أبي سرح القرشي و مقيس بن صبابة الفهري و كعب بن الأشرف و ادعى قوم النبوة مثل مسيلمة الكذاب و الأسود العنسي هذا ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكله باقٍ إلى يومنا هذا الكفر و النفاق و التنبي فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الإمامة فتنازعها المهاجرون و الأنصار ثم رجعوا إلى قول أبي بكر رضي الله عنه أن الأيمة من قريش إلا سعد بن عبادة فإنه قال و الله لا أبايع قرشياً أبداً و بقي ذلك الاختلاف إلى يومنا هذا فمنهم من يجيز الإمامة من أفناء الناس و منهم من يقصرها على قريش ثم الخلاف الثاني و قع في شأن الردة فرأى أبو بكرٍ رضي الله عنه جهادهم بالسيف و رأى المسلمون خلاف ذلك ثم رجع أكثرهم إلى قول أبي بكرٍ وبقي الخلاف فإن من الناس من يقول كان قتالهم خطأً ثم الخلاف الثالث زمن عثمان رضي الله عنه أعانه قوم و قعد عن نصرته قوم و رأوا قتله حقاً فهذا الخلاف باقٍ و من العثمانية من يفضلونه على أبي بكرٍ و عمر ثم الخلاف الرابع وقع في خروج طلحة و الزبير و عائشة و أم حبيبة وزيد بن ثابت و النعمان بن بشير وكعب بن عجرة و أبو سعيد الخدري و محمد بن مسلمة و الوليد بن عقبة و عمرو بن العاص في بيعة علي عليه السلام و قولهم لا نراك أهلاً لهذا الأمر فلما انقضى أمر الجمل و قتل طلحة و الزبير بن العوام بايعوه كلهم إلا معاوية و عمرو كان من أمرهم ما كان .

ذكر فرق الشيعة منهم الغالية، و الغرابية، و الكرنبية، و الروندية، و المنصورية، و الربعية، و الزيدية، و اليعفورية، و الشمطية، و السراجية، و الكيسانية، والسبائية، و القحطبية، و الخطابية، و الجعفرية، و اليانية، و القطعية، و الطيارة، و الحلاجية، و المختارية، و الخشبية، و الكاملية، و الواقفية، و المسلمية، و منهم الباطنية، و الاسماعيلية، و القرامطة و الشراحة، و الكاغذية، و الرمية، و المبيضة، و الكيالية، و يجمعهم كلهم الزيدية و الإمامية و لقبهم المذموم الرافضة.

تفصيل هذه المراتب و تفسيرها أعلم أن الشيعة أتوا في حياة علي بن أبي طالب ثلاث فرقٍ فرقة على جملة أمرها في الاختصاص به و الموالات له مثل عمار بن ياسر و سلمان و المقداد و جابر و أبي ذر الغفاري و عبد الله بن العباس و عبد الله بن عمر و جرير بن عبد الله البجلي و دحية بن خليفة و نظرائهم من الصحابة الذين لا يظن بهم غير الحق و لا نجد للطعن فيهم موضعاً و فرقة تغالوا قليلاً في أمر عثمان و تميل إلى الشيخين رضوان الله عليهم بعض الميل مثل عمرو بن الحمق و محمد بن أبي بكر و مالك الأشتر و قد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب يخيب الوليد بن عقبة

وكان ولي الأمر بعد محمد ... علي و في كل المواطن صاحبه

و كانوا يظهرون هذا المقدار في زمن أبي بكر و عمر وعثمان رضي الله عنهم و فرقة تغلو غلواً شديداً و تقول قولاً عظيماً وهم أصحاب عبد الله بن سبا يقال لهم السبائية قالوا لعلي أنت إله العالمين أنت خالقنا و رازقنا و أنت محيينا و مميتنا فاستعظم علي ذلك من قولهم و أمر بهم فأحرقوا بالنار فدخلوا النار وهم يضحكون ويقولون الآن صح لنا أنك إله إذ لا يعذب بالنار إلا رب النار و زعم إخوانهم بعد ذلك أنهم لم تمسهم النار و إنما صارت عليهم برداً و سلاماً كما صارت على إبرهيم عليه السلام و عند ذلك قال رضي الله عنه

إني إذا رأيت أمراً منكراً ... أججت ناراً و دعوت قنبرا

فلما استشهد رضوان الله عليه افترقت الشيعة فقالت فرقة من الإمامية كان الإمام بعد النبي صله علي ثم الحسن ثم

الحسين ثم علي بن الحسن ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن جعفر ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم علي بن محمد ثم الحسن بن علي ثم المهدي و هو الذي يذكره الحسين بن منصور المعروف بالحلاج في كتابه الموسوم بالإحاطة و الفرقان ثم نسق الأئمة نسق الأهلة إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً و فيه أنشدت لبعضهم

أدين بدين المصطفى و وصيه ... و الطاهرين وسيد العباد

و محمد و بجعفر بن محمد ... وسمي مبعوث بشط الوادي

وعلى المرضى ثم محمد و علي ... المعصوم ثم الهادي

حسن و أكرم بعده بإمامنا ... بالقائم المستور للميعاد

و أنشدت أيضاً

أنا مولى للنبي ثم للهادي علي ... وثمانٍ بعد سبطية و مستور خفي

فهؤلاء جل الإمامية يقولون بالأئمة الإثنى عشر و أن الأمة كفرت كلهم برد علي عليه السلام إلا ستة نفر سلمان و المقداد و جابر و أبو ذر الغفاري و عمار و عبد الله بن عمر وأن علياً يعلم كل ما يحتاج الناس إليه وكذلك هؤلاء الأئمة و كلهم معصومون لا يجوز عليهم السهو والخطأ و الغلط وفيه يقول الشاعر الناشي

أحاط بالعلم و لا يصلح أن ... يسوس أمراً من بعلم لم يحط

و يرون أن الدار دار كفرٍ حتى لو رمى رامٍ في جامعٍ من جوامع المسلمين لم يقع على مسلمٍ و أن سكوتهم للتقية و المداراة و ينتظرون خروج الثاني عشر فيخرجون على الأمة بالسيف و السبي و يتأولون قوله تعالى يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل إنما هو قيام المهدي ولهم في ذلك أشعار كثيرة و أسطار بعيدة فمنها قول دعبل

فلولا الذي نرجوه في اليوم أو غدٍ ... تقطع نفسي إثرهم حسراتي

خروج إمام لا محالة خارج ... يقوم على اسم الله البركات

فإن قرب الرحمن من ذاك مدتي ... و أخر من عمري و وقت وفاتي

سغبت و لم أترك لنفسي ريبة ... و رويت منهم منصلي و قناتي

و منهم القطعية قطعوا الإمامة عند وفاة موسى بن جعفر وأثبتوا لعلي بن موسى فسموا القطعية و منهم الواقفية وقفوا عند موت موسى بن جعفر قالوا إنه لم يمت و هو القائم و منهم الكرنبية أصحاب ابن كرنب الضرير زعم أن الإمام بعد علي الحسن ثم محمد ابن الحنفية و أن محمداً لم يمت و لا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً و احتج بالخبر لو لم يبق من الدنيا إلا عصر لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يواطي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً قالوا و هو مقيم بجبل رضوى بني أسد قالوا و ثم يخبر شأنه إلى وقت خروجه يأتيه رزقه بكرة وعشيا و منهم من يقول أن للأسد عقوبة لركوبه إلى عبد الملك بن مروان و فيه يقول الشاعر

ألا قل للإمام فدتك فنسي ... أطلت بذلك الجبل المقاما

أضر بمعشر و إلا آل منا ... و سموك الخليفة و الإماما

و عادوا فيك أهل الأرض طراً ... مقامك عندهم سبعين عاما

و قالوا و المقال لهم عريض ... أترجون أمر ألقى الحماما

و ما ذاق ابن خولة طعم موت ... و لا وارت له أرض عظاما
لقد أمسى و ضل بشعب رضوى ... تراجعه الملائكة الكراما

و أما السراجية فهم أصحاب حسان السراج و هم يزعمون أن ابن الحنفية ميت بجبال رضوى و أنه يبعث إذا بعث الخلق و يملأ الأرض عدلا حينئذ بالرجعة و أما الناووسية فأصحاب ابن ناووس البصري يزعمون أن جعفر بن محمد لم يمت و لا يموت و هو المهدي و أما السبائية فإنهم يقال لهم الطيارة يزعمون أنهم لا يموتون و إنما موتهم طيران نفوسهم في الغلس و أن علياً لم يمت و أنه في السحاب و إذا سمعوا صوت الرعد قالوا غضب علي و قال عبد الله بن سبأ للذي جاء ينعى علياً لو جئتنا بدماغه في صرة لعلمنا أنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه و من الطيارة قوم يزعمون أن روح القدس كانت في النبي كما كانت في عيسى ثم انتقلت إلى علي ثم إلى الحسن ثم إلى الحسين ثم كذلك في الأئمة و عامة هؤلاء يقولون بالتناسخ و الرجعة و منهم من يزعم أن الأئمة أنوار من نور الله تعالى و أبعاض من أبعاضه و هذا مذهب الحلاجية و أنشدني أبو طالب لنفسه

كادوا يكونون ... لولا ربوبية الرحمن لم يكن
فيا لها أعينا بالغيب ناظرة ... ليست كأعين ذات الماق و الجفن
أنوار قدس لها بالله متصل ... كما يشاء بلا وهم و لا فطن
هم الأظلة و الأشباح إن بعثوا ... لا ظل كالظل من فئ و من سكن

فأما المغيرية فأصحاب المغيرة بن سعيد أثبتوا له النبوة و زعموا أن محمد بن الحنفية لو شاء أحيا الخلق حتى عاداً و ثموداً فأخذه خالد بن عبد الله فقتله و صلبه و أما البيانية فإنهم أقروا بنبوة بيان و هو رجل من سواد الكوفة تأول قول الله عز و جل هذا بيان للناس أنه هو و كان يقول بالتناسخ و الرجعة فقتله خالد بن عبد الله القسري و فيهما يقول الشاعر

طال التجاوز عن بيان واقفاً ... و عن المغيرة عند مرج العاشر
يا ليته قد شال جذعا نخلةٍ ... بأبي حنيفة و ابن قيس الماصر

و أما البزيغية فأصحاب بزيغ الحائك أقروا بنبوته و زعموا أنهم كلهم أنبياء يوحي الله إليهم و احتجوا بقوله تعالى و ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله يعني بوحي الله و زعموا أنهم لا يموتون و لكنهم يرفعون إلى الملكوت و ادعوا رؤية موتاهم كما يدعيه الهنود و زعم بزيغ أنه صعد إلى السماء و أن الله مسح على رأسه و مج في فيه و أن الحكمة تنبت في صدره كما تنبت الكمأة في الأرض و أنه رأى علياً قاعداً على يمين الرب جل جلاله و أما الكيسانية فأصحاب المختار بن أبي عبيد الثقفي و كان يلقب بكيسان و كان يدعي أنه يوحى إليه و أنه يعلم الغيب و يقولون بإمامة محمد ابن الحنفية و يحتجون بأن علياً دفع الراية إليه بالبصرة و أما الخطابية فهم أصحاب ابن الخطاب يرون الشهادة بالزور على من خالفهم بالدماء و الأموال و من ها هنا لم يجز الفقهاء شهادة الخطابية و منهم المنصورية و هم أصحاب منصور الكسف يزعمون أنه هو الذي قال الله تعالى و إن يروا كسفاً من السماء ساقطاً و أما الغرابية فيزعمون أن علياً أشبه بالنبي عليه السلام من الغراب بالغراب فغلط جبريل لشبهه به و أما الروندية أصحاب أبي هريرة الروندي و يقال هم الهريرية زعموا أن الإمام بعد النبي صله العباس عليه السلام ثم بنوه لأن العم أولى من ابن العم و نبغت فرقة منهم في أيام أبي جعفر المنصور بمدينة الهاشمية و جعلوا يطوفون بقصره و يقولون أن أبا جعفر خالقهم و رازقهم و أن روح آدم صار في عثمان بن نهيك و أن جبريل هو الهيثم بن معاوية

فأخذ المنصور جماعة منهم و حبسهم فنقم الباقون و استعرضوا الناس يمرجونهم بالسيف فخرج إليهم المنصور فاصطلمهم و مضت طائفة منهم إلى حلب و استغووا ذوي العقول الضعيفة و زعموا أنهم بمنزلة الملائكة و خيطوا الحرير على مثال الأجنحة و غرزوا فيه الريش و صعدوا تلاً عظيماً بحلب و طاروا منه فتكسروا و هلكوا و أما اليمانية فإنهم أصحاب يمان بن رباب زعموا أن الله عز و جل على صورة إنسان يهلك كل شيءٍ إلا وجهه و كفروا بالقيامة و زعموا أن الدنيا لا تفنى استحلوا الميتة و الخمر و زعموا أنها أسماء رجال كره الله ولايتهم يعنون أبا بكر و عمر و عثمان و أما الهشامية و فإنهم أصحاب هشام بن الحكم يقولون بالجبر و التشبيه و أن الله عز وجل نور يتلألأ على صورة المصباح وهو من متكلميهم و شطارهم و منهم الشيطانية أصحاب شيطان الطاق قريب قوله من قول هشام و منهم الجعفرية أجهروا القول بأن جعفر هو الله و أنه ليس بالذي يرى و لكنه يشبه الناس بهذه الصورة الذميمة القبيحة للاستئناس و أما القرامطة فأصحاب القرمط و هو رجل من سواد الكوفة أباح لهم قتل من خالفهم فلذلك خرجت القرامطة على الحجاج غير مرة و أما الزيدية فإنهم أصناف منهم الجارودية أصحاب سليمان بن جرير الجارود قالوا أن النبي نص على علي بالوصف لا بالتشبيه ثم الحسن ثم الحسين فكل من خرج من هذين البطنين شاهراً سيفه عالماً بالكتاب و السنة فهو الإمام و منهم الجريرية أصحاب سليمان بن جرير الرقي قالوا كانت الإمامة لعلي و أن بيعة أبي بكر و عمر كانتا خطأً من جهة التأويل فلا يستحقان الكفر و الفسق و لكن من حارب علياً فهو كافر وأما الزيدية يزعمون أن أبا بكر و عمر كانا مستحقين للإمامة لأن علياً سلم ذلك إليهما و وقعوا في عثمان و أما الروندية فإنهم قوم يقولون أن الأمة كفرت بدفع علي و أما الخشبية فإنهم أصحاب إبراهيم بن مالك الأشتر قتلوا عبيد الله بن زياد و كان عامة سلاحهم ذلك اليوم الخشب و أما الباطنية فأصناف و فرق و أسماؤهم مختلفة لدعوة كل ناجم منهم إلى نفسه و عامتهم يظهرون الإمامة ويدعون للقرآن تأويلاً و من أراد الظهور على وهن مذهبهم و خطأ دعواهم فلينظر في كتبهم فإنه يجد الوقت الذي ضربوه لخروج ملتهم و اعتلاء شأنهم قد فات منذ ثلاثين سنة و للمسلمين عليهم مستخف بجوابهم لأن عقائد الناس إما كفر وإما إيمان و هم يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً فأي امرئٍ يعجز عن تأويل ما غيروه عن ظاهره إلى ما أحب و أراد و ما بلغ أحد منهم ما بلغ ابن رزام فإنه أظهر عورتهم و ملأ جلودهم مساءةً و عيباً و يذكر قوم أن بدو أمرهم ظهر في أيام أبي مسلم فإن الخرمية احتالوا في إزالة الملك إلى العجم فموهوا هذه النحلة و زينوها للجهال و دعوا إليها في السر و محصول

أمرهم التعطيل و الإلحاد و أما اليعفورية و الشمطية و الأقحطية فأصناف منسوبون إلى يعفور و الأشمط و الأقحط.رهم التعطيل و الإلحاد و أما اليعفورية و الشمطية و الأقحطية فأصناف منسوبون إلى يعفور و الأشمط و الأقحط.

ذكر فرق الخوارج منهم الأزارقة، و النجدات، و الراسبية، والإباضية، و القطوية، و المبهوتية، و الصفرية، و العجردية، و الكوزية، و الأيادية، و البهيسية، و الحازمية، و الخلفية، والأخنسية، و المعبدية، و الصلتية، و الخمبرية، و المكرمية، و البدعية، و السابية، و الثعلبية،ويجمعهم كلهم اسم الخوارج و الشراة و الحرورية و الحكمية ولقبهم المذموم المارقة و أصل مذهبهم إكفار علي بن أبي طالب رضي الله عنه و التبرء من عثمان بن عفان رضي الله عنه في الست سنين و التكفير بالذنب و الخروج على الإمام الجائر.

تفصيل هذه المذاهب و تفسيرها روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسم قسماً فجاء ذو الخويصرة حرقوص بن زهير التميمي فقال ما عدلت منذ اليوم فقال عمر ائذن لي اضرب عنقه فقال دعه يا عمر فإن له اصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم و صيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون

من الدين كما يمرق السهم من الرمية يؤمهم رجل أسود له ثدي كثدي المرأة و يروى فيهم نزل و منهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا الآية و روي عن أبي سعيد أنه قال أشهد أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن علياً حين قتلهم جيء بالرجل على النعت و كان بدء أمرهم حين حكم على الحكمين بصفين فنادت الخوارج لا حكم إلا لله فلما رجع علي إلى الكوفة اعتزل عبد الله بن الكواء و شبيب بن ربعي في اثني عشر ألفاً ويقال في ستة آلاف فنزلوا حروراء قرية من السواد و بها سموا الحرورية فبعث علي عبد الله بن العباس إليهم فكلمهم و ناظرهم بأن الله عز و جل قد حكم في فدية أرنب ذوي عدلٍ فما يضر إن حكم في دماء المسلمين فرجع عبد الله بن الكواء في ألفي رجل و بقي الباقون و أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي ثم سموا الراسبية ثم أخنوا في الفساد فقال علي عليه السلام دعوهم حتى أخنوا الأموال و سفكوا الدماء فمروا بالمدائن و لقيهم عبد الله بن خباب بن الأرت و كان والياً عليها فقالوا له حدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثهم بحديث في الفتن يوجب القعود عن الحرب و أن يكون الرجل عبد الله بن المقتول ولا يكون عبد الله القاتل فتأولوا عليه أنه يدين بتخطيتهم في الخروج فقتلوه و بقروا عن بطن امرأته و قتلوا نسوةً و ولداناً فخرج علي إليهم وقالوا ادفعوا إلينا قتلة إخواننا و نحن تاركوكم فأبوا عليه و ثاروا به فتهيأ علي لقتالهم و دعا المسلمين إليهم فقتلهم بالنهروان و لم يخطئ السيف منهم عشرة آلافٍ و كان المخدج ذو الثدية قد دخل القنطرة و التاط بسقفها فقال علي اطلبوه فو الله ما كذب رسول الله فحمحمت البغلة فنظروا فإذا هو تحت القنطرة فأخرج و قتل و رجع عبد الله بن وهب قبل القتال و خرج مسعر بن فدكي إلى البصرة و مر أبو مريم السعدي إلى شهرزور و مر فروة بن نوفل إلى بند نيجين و هو يقول و من ها هنا ثبت مذهب الخوارج في الأرض

كرهنا أن نريق دماً حراماً ... و هيهات الحرام من الحلال

و قلنا في التي بقولٍ ... معاذ الله من قيلٍ و قال

نقاتل من يقاتلنا و نرضى ... بحكم الله لا حكم الرجال

و فارقنا أبا حسنٍ علياً ... فما من رجعةٍ إحدى الليال

فحكم في كتاب الله عمراً ... وذاك الأشعري أخا الضلال

و منهم الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق أخنوا الناس بالبراءة ممن قصد عسكرهم و أما البهيسية أصحاب أبي بيهس

هيصم بن جابر كان يرى الدار دار شرك و استحل دماء أهل القبلة و هرب من الحجاج إلى المدينة فأخذه عامل الوليد بن عبد الملك فقطع يديه و رجليه و أما الميمونية فإنهم يجيزون نكاح بنات الابن و بنات البنات و بنات بني الإخوة و بنات الأخوات قالوا لأن الله عز و جل يقول و أحل لكم ما وراء ذلكم و قالوا ليست سورة يوسف من القرآن و لا حاميم عين سين قاف و أما البدعية فإنهم يزعمون أن الصلاة صلاتان بالغداة ركعتان و بالعشي ركعتان لا غير و أما الحمزية فإنهم أصحاب حمزة الشاري و حمزة غرق في وادي كرمان و يزعمون أنه راجع إليهم بعد مائة وعشرين سنة و أما العجاردية فهم أصحاب ابن عجرد يزعمون أنه يجب البراءة من الطفل حتى يبلغ فإذا وجب أن يدعى إلى الإسلام فإن أجاب تولى حينئذٍ وأما المعلومية فإنهم يقولون من لم يعلم الله بجميع أسمائه فإنه كافر و منهم الأباضية أصحاب الحارث بن أباض و من ولده ماهرت سلم عليه بالخلافة و الصلتيه أصحاب الصلت بن أبي الصلت و الأخنسية أصحاب الأخنس و كل فرقة منهم منسوبة إلى إمامهم الذي يتوالونه فمنهم من يقول لا حجة إلا لله على خلقه في التوحيد إلا بالخير ومنهم من يقول من قال بلسانه أن الله واحد وعنى المسيح فهو صادق بلسانه

مشرك بقلبه و أفضلهم النجدات و هم أصحاب نجدة الحنفي كان من نافع بن الأزرق فلما أخذ نافع الناس بالبراءة و المحنة فارقه و قال إذا أخطأ الرجل في حكم من الأحكام من جهله فهو معذور وإذا أذنب رجل منهم خرج من الإيمان وإن كان من غيرهم كفر و من نظر نظرة أو كذب كذبة بإصرار فهو مشرك و إن زنا أو سرق من غير إصرارٍ فهو مسلم قالوا وأطفال المشركين في الجنة و هذا لا يقبله من الخوارج غيرهم.

ذكر فرق المشبهة، الهشامية، و المغيرية، و اليمانية، و المقاتلية، و الكرامية، و الجواربية، و كثير من أصحاب الحديث و أصحاب الفضاء و عامة النصارى و اليهود إلا العنانية.

تفصيل هذه المذاهب أما هشام بن الحكم فإنه يزعم أن الله جسم طويل عريض نور من الأنوار له قدر من الأقدار مصمت ليس مجوفاً ولا متخلخلاً كأنه سبيكة تلألأ من جميع جهاتها و مثل ذلك من الدرة تكون من كل أطرافها واحدة و أن لونه هو الطعم و هو الرائحة و هو المحس و أنه قد كان لا في مكانٍ ثم حدث المكان بحدوث الحركة و أنه ذو أبعاضٍ و أجزاءٍ و أنه سبعة أشبارٍ و أما المغيرية فإنهم أصحاب المغيرة بن سعد زعم أن الله عز و جل على صورة رجلٍ من نورٍ عليه تاج من نورٍ و له من الأعضاء ما للرجل و له جوف و قلب ينبع منه الحكمة و أن حروف أبي جادٍ على عدد أعضائه فالألف موضع قدميه و الميم موضع رأسه و السين صورة أسنانه و العين و الغين صورة أذنيه و الصاد و الضاد صورة عينيه و زعم أنه عرج إلى السماء فمسح الرب رأسه و قال اذهب يا بني إلى الأرض وقل لهم أن علياً يميني وعيني، وأما اليمانية فهم أصحاب يمان بن زياد زعم أن الله على صورة إنسان يهلك كله إلا وجهه، و أما الجواربية أصحاب داود الجواربي زعم أن الله جسم منصف من فمه إلى صدره أجوف و من صدره إلى أسفله مصمت و أما المقاتلية فهم أصحاب مقاتل ابن سليمان زعم أن الله جسم من الأجسام لحم و دم و أنه سبعة أشبارٍ بشبر نفسه، و أما الكرامية فإنهم أصحاب محمد بن كرام و هم سكان الخانقة يزعمون أن الله تعالى جسم لا كالأجسام بسيط مكان الأشياء كلها و أما أصحاب الحديث فإنهم يصفونه بكل ما جاء في الخبر و دل عليه القرآن من اليد و الرجل و الجنب و العين و الأصابع و السمع و الأذن و غير ذلك، و من الصوفية من يزعم أنه ربما يلقاه في بعض الطرق و يعانقه و يقبله جل البارئ عن صفةٍ لا تليق به ليس كمثله شيء و هو السميع البصير سبحان الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً و قد مضى على النقض على أهل التشبيه في فصله ما فيه كفاية و ما أحسن ما يقوله الناشي

ما في البرية أخزى عند فاطرها ... ممن يقول بإجبارٍ و تشبيه

ذكر فرق المعتزلة منهم العبادية، و الذمية، و المكاسبة، و البصريون و البغداديون، وأصل مذهبهم القول بالأصول الخمس و هي التوحيد و العدل و الوعيد و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و المنزلة بين المنزلتين فمن خالفهم بالتوحيد سموه مشركاً و من خالفهم في الصفات سموه مشبهاً و من خالفهم في الوعيد سموه مرجئاً وإنما سموا معتزلةً لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري رحمه الله و ذلك أن الناس اختلفوا في مرتكبي الكبائر فقالت الخوارج كلهم كفار و قالت المرجئة هم مؤمنون و قال الحسن هم منافقون فاعتزل واصل بن عطاء و من تبعه و قالوا هم فساق و ليسوا بمؤمنين و لا منافقين و لا كافرين و هذه المنزلة بين المنزلتين و أجمعت المعتزلة على أنه لا يجوز القول بجواز الرؤية على الله عز و جل إلا أبا بكر الإخشيدي صاحب أبي علي الجبائي فإنه قال بالرؤية من غير تحديدٍ و تكييفٍ و أجمعوا بأنه لا يجوز القول بأن القرآن غير محدث إلا رجلاً يقال له عبد الله بن محمد الأبهري كان قاضي نهاوند يزعم أنه لا يجوز القول بأن القرآن محدث و أجمعوا بأن الله عز و جل ما قدر المعاصي و لا قضاها إلا جعفر بن حربٍ فإنه أجاز القول بأن الله أراد الكفر على معنى أنه أراد أن يكون الكفر مخالفاً للإيمان و أن يكون قبيحاً غير

حسنٍ و أما العبادية فإنهم أصحاب عباد بن سليمان كان يزعم أن الأعراض لا تدل على الله عز و جل و إنما الأجسام هي التي تدل عليه و كان يمنع من القول بأن الله عز و جل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها لأن المعدوم عنده ليس بشيءٍ فلا يجوز أن يعلم و يرى قبل من خالفه أن أمكن و أما الذمية فإنهم أصحاب أبي هاشم و أبي علي الجبائي يزعمون لو أن رجلاً أصر على مائة ذنب فتاب و انتزع من تسعة و تسعين منها أن توبته غير مقبولة ما لم يرجع عن جميعها و هو مستحق للذم على توبته و أما المكاسبة فإنهم لهم ذريات في حدود مهرجان قذق لا يرون الكسب لأن الدار عندهم دار كفر و أما البصريون فإنهم الذين أصلوا هذا المذهب مثل واصل بن عطاء و عمرو بن عبيد و أبي الهذيل ابن العلاف و أبي إسحق النظام و البغداديون يخالفونهم في أشياء من اعتلالهم دون الأصول منهم ثمامة بن أشرس و الجعفران و زعم ابن الروندي في كتاب فضائح المعتزلة أن جعفر العتبي منهم يحل الخضخضة و أن عقار منهم يحل شحم الخنزير و تفخيذ الصبيان و حدثت عن أبي عثمان الجاحظ أنه كان يقول الكلام للمعتزلة و الفقه لأبي حنيفة و البهت للرافضة و ما بقي فللعصبية و أنشدت لأبي محمد بن يوسف السوري

ما ملة فوق ظهر الأرض من ملل ... إلا تميب عن تسآل معتزل
قوم إذا ناظروا صالوا بعلمهم ... صول البزاة على الدراج و الحجل
لله درهم فهماً و معرفةً ... و فطنة بلطيف القول و الجدل

ذكر فرق المرجئة منهم الرقاشية، و الزيادية، و الكرامية، و المعاذية، و أصل مذهبهم ترك القطع على أهل الكبائر إذا ماتوا غير تائبين بعذاب أو عفو و أرجؤوا أمرهم إلى الله عز و جل و لهذا سموا المرجئة و منهم صنف يقولون بتحرير الخصوص و ذلك أن كل آية نزلت في وعيد أهل الصلاة قالوا يجوز أن يكون في المستحلين لها دون غيرهم و صنف يقولون بالاستثناء ومعناه أن يكون مقروناً بالاستثناء عند الله عز و جل لم يظهره لخلقه كأنه قال و من يقتل مؤمناً متعمداً فجزؤاه جهنم خالداً فيها أن جازاه و إن لم يتب فأما الرقاشية فإنهم أصحاب الفضل الرقاشي قال لا يعذب الله أحداً من أهل التوحيد على ذنب و هو قول المعاذية أصحاب يحيى بن معاذ الرازي يرون ان الله عز و جل من جوده و فضله و رحمته لا يعذب أحداً على ذنب ما لم يبلغ الكفر و أما الزيادية فإنهم أصحاب محمد بن زياد الكوفي زعم أن من عرف الله عز و جل و أنكر الرسول فهو مؤمن كافر مؤمن بالله عز و جل كافر بالرسول و أما الكرامية فإنهم أصحاب محمد بن كرام يزعمون أن الإيمان قول مجرد و المنافق مؤمن ثم يفترقون فمنهم الصواكية و منهم المعية و منهم الذمية و ليس في ذكرهم و ذكر مذهبهم كثير فائدة أو معنى و قالوا كلهم لو أن الله عفا عن واحد من مرتكبي الكبائر عفا عن كل من هو في مثل حاله و كذلك إن عاقب واحداً منهم عاقب كلهم إلا أن أبا حنيفة فإنه يقول يجوز أن يغفر لبعض و يعاقب بعضاً و قال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود

و أول ما نفارق غير شك ... فارق ما تقول المرجئونا
و قالوا مؤمن دمه حرام ... و قد حرمت دماء المؤمنينا
هو القرآن حقاً غير خلق ... كلام الله رب العالمينا
و إن الله حرم كل خمر ... إذا غطت عقول الشاربينا

ذكر فرق المجبرة و المجورة منهم الجهمية، و الضرارية، و النجارية، و الصباحية، فأما الجهمية فأصحاب جهم بن صفوان الترمذي قتله بمرو سلم بن أحوز قاتل يحيى بن يزيد رحمه الله و كان لا يقول إن الله شيء لأن الشيء عنده محدث و لكنه منشئ الشيء و إن علمه شيء غيره و هو محدث و إن الجنة و النار يفنيان لا يدومان و الإيمان بالمعرفة و القلب فقط دون الإقرار و العمل و لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله عز و جل و إن العباد فيما ينسب

إليهم من الأفعال كالشجرة تحركها الريح و هي فعل الله عز و جل على الحقيقة فأفعالها منسوبة إليهم على المجاز، و أما الضرارية فإنهم أصحاب ضرار بن عمرو يقول بفعل فاعلين على الحقيقة و أن الله خلق فعل العبد و العبد فاعله على الحقيقة دون المجاز الذي يقول جهم، و أما النجارية فهم أصحاب الحسين النجار يقول بفعل فاعلين الله فاعله و العبد مكتسبه، و أم الصباحية فهم أصحاب الصباح بن السمرقندي زعم أن الخلق و الأمر من الله لم يزالا كما لم يزل الخالق و مثل ذلك بالنائم يرى أنه بالشام أو بمكة أو يأكل أو يشرب من غير أن يكون شيء من ذلك قال و كل هؤلاء مجمعون أن الكفر و المعاصي بقضاء الله و قدره و مشيته و علمه و قدرته لا يرضاه و لا يحبه إلا رجلاً من المتأخرين يقال له محمد بن بشير الأشعري فإنه يزعم أن الله يرضى و جعل قوله و لا يرضى لعباده الكفر على الخصوص و أنشدت أبا العباس السامري بمرو و كان يجهر القول بأن الله عز و جل خلق كافراً و مؤمناً حين خلق

اصفع المجبر الذي ... بقضا السوء قد رضي
فإذا قال لم صفع ... ت فقل هكذا قضي

و أنشد

بلى ربنا الجبار و الجبر فعله ... و مجبوره في الخلق يلقى به الحشرا

ذكر فرق الصوفية منهم الحسنية، و الملامتية، و السوقية، و المعذورية، و جملة أمرهم انهم لا يحملون على مذهب معلوم و لا عقيدة مفهومة لأنهم يدينون بالخواطر و المخائيل و ينتقلون من رأي إلى رأي فمنهم من يقول بالحلول كما سمعت واحداً منهم يزعم أن مسكنه بين عوارض المرد و منهم من يقول بالإباحة و الإهمال و لا يدعون للوم اللائمين و منهم من يقول بالعذر و معنى ذلك أن الكفار عندهم معذورون في كفرهم و جحودهم لأنه لا يتجلى لهم و احتجب دونهم و منهم من يقول أن الله لا يعذب أحداً و لا يعبأ بخلقه و منهم من يقول بالتعطيل المحض و الإلحاد البحت و مرجوع أمرهم إلى الأكل و الشرب و السماع و اتباع الهوى و متابعة النفس.

ذكر فرق أصحاب الحديث و يلقبون بالحشوية و المخلوقية و اللفظية و النصفية و الفاضلية و الصاعدية و الساوية و المالكية و يجمعهم القول بأن الإيمان قول و عمل و معرفة يزيد بالطاعة و ينقص بالمعصية و إن خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي عليهم السلام و اختلفوا بعد ذلك فروي عن أحمد بن حنبل انه قال فلو قال قائل ثم علي لرجوت و ذهبت إلى حديث ابن عمر و أن معاوية خال المؤمنين و خليفة رب العالمين و أن من قال القرآن مخلوق فهو كافر بالله عز وجل، و أما المخلوقية فيزعمون أن الإيمان مخلوق و حدثني محمد بن خالويه بالسوس قال حدثني أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال من قال القرآن مخلوق فهو كافر بالله لأن الإيمان من القرآن و روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال و من يكفر بالإيمان قال بالله و أما النصفية فيزعمون نصفه مخلوق و أم اللفظية فإنهم أصحاب الحسين الكراييسي يزعمون أن اللفظ بالقرآن غير مخلوق و أما الفاضلية فإنهم يفضلون النبي صلى الله عليه وسلم على القرآن و أما الصاعدية فهم أصحاب ابن صاعد يجيزون خروج أنبياء بعد نبينا صلى الله عليه وسلم لأنه روي لا نبي بعدي إلا ما شاء الله و المالكية يقولون بمحاش النساء و السراوية يكرهون أن يزيدوا الوتر على الركعة الواحدة لأن فيها مخالفة للسنة و الساوية يقولون نحن مؤمنون إن شاء الله فيعقدون الاستثناء على المراضي و يلقب هؤلاء بالشكاك و أما البربهارية فإنهم يجهرون بالتشبيه و المكان و يرون الحكم بالخاطر و يكفرون من خالفهم و الكلابية أصحاب أبي عبد الله بن كلاب مناظرهم و لسانهم و صدرهم و أنشدت لبعضهم

و جاهل يدعي علماً و ليس له ... علم يوازن عندي قشرة البصل

يقول من جهله الإيمان أجمعه ... بالله ليس سوى قول ولا عمل
لو كان حقاً نجا إبليس من لهب ... بقوله رب أنظرني إلى أجل
تم الفصل التاسع عشر بتوفيق الله و حسن تأييده
الفصل العشرون

في مدة خلافة الصحابة

و ما جرى فيها من الحوادث و الفتوح إلى زمن بني أمية

خلافة أبي بكر رضي الله عنه قالوا و لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم انفض نظام الجماعة و تشتت الكلمة و اضطرب حبل الألفة و انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سقيفة بني ساعدة و قالوا منا أمير و منكم أمير و اعتزل علي بن أبي طالب رضوان الله عليه و طلحة و الزبير ابن العوام في بيت فاطمة عليه السلام فأتاهم أبو بكر قبل أن يفرغ من جهاز النبي عليه الصلاة و السلام و قد ذكرت قصة البيعة في ذكر وفاة النبي و ارتدت العرب قاطبة إلا ثلاثة مساجد المدينة و مكة و البحرين وناساً من نخع و كندة فمنهم من أبى أن يعطي الزكاة و منهم من أنكر الزكاة و منهم من أنكر كفره و ناصب المسلمين.

سرية أسامة بن زيد رضي الله عنه و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لأسامة لواء و استعمله على المهاجرين و الأنصار و أمره أن ينتهي إلى حيث قتل أبوه و جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فيغير عليهم فيقتلوا و يحرقوا و يسبي فتربص الناس بذلك لشكوى النبي صله من مرضه فتكلموا فيه و قالوا استعمل غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين و الأنصار فخرج رسول الله صله في مرضه و قال أيها الناس أنفذوا جيش أسامة فلما نبغ الكفر و اشرأب النفاق و رمتهم العرب عن قوس واحدة قالوا لأبي بكر لو حسبت جيش أسامة يكون ردءاً للمسلمين فأنا لا نأمن على المدينة الغارة فقال أبو بكر رضي الله عنه و الله لو لم يبق بها غيري ما حبسته لأنه كان صله يقول أنفذوا جيش أسامة و الوحي ينزل عليه و لكن أكلم أسامة أن يخلف عمر و كان عمر ممن خرج مع تلك السرية فتخلف عمر و سار أسامة في ثلاثة آلاف حتى أوطأ الخيل أرض البلقاء و شن الغارة على فلسطين و قتل قتلة أبيه و أصاب من العدو و نكى فيه و ذلك في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة فرجع فبعثه في إثر خالد بن الوليد إلى اليمامة فلحقه و شهد معه القتال.
ذكر الردة و لما ارتدت العرب انتدب أبو بكر لقتالهم فقال له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقاتل قوماً يشهدون بالحق و رسول الله صله يقول أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم و أموالهم إلا بحقها فقال أبو بكر لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة و الله لو منعوني عناقاً لقاتلتهم و يروى عقالاً فرجع المسلمون إلى قوله استصوبوا رأيه قال سعيد بن المسيب و كان أفقههم وأمثلهم رأياً يعني أبا بكر رضي الله عنه و أرضاه.
قصة الأسود بن كعب العنسي الكذاب روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال رأيت في المنام كأن في يدي سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فوقع أحدهما باليمامة والآخر بصنعاء قالوا فما أولتهما يا رسول الله قال كذابين يخرجان بهما فأما الأسود فإنه قتل في أيام النبي صله في قول بعض أهل العلم و روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال سمعت النبي صله في مرضه يقول قتله الرجل الصالح فيروز الديلمي و قال بعضهم بل قتل بعد

موت النبي صلى الله عليه وسلم بسنين و أما مسيلمة فإنه ورد على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد بني حنيفة و كاتبه ثم قتله خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر رضي الله عنه و كان العنسي يدعي النبوة و لا ينكر نبوة محمد عليه السلام و يقال له ذا الخمار و ذلك أنه كان يلقي خماراً دقيقاً على وجهه و يهمهم فيه و يزعم أن سحيقاً و شقيقاً ملكين يأتيانه بالوحي و جعل يتلو عليهم و المايسات ميساً و الدارسات درساً يحجون عصباً و فراداً على قلائص حمر و صهب و كان له حمار يقول له اسجد فيسجد ويقول اجث فيجثو فافتتن الناس بخماره وحماره و تبعه خلق كثير و سار إلى نجران فغلب عليها و استنكح المرزبانة امرأة باذان غصباً و هي من الأبناء ابناه هرن ثم صار إلى صنعاء فخرج الأبناء و كانوا قد أسلموا عند ورود كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بانومه فقاتلوا قتالاً شديداً ثم فرجوا له إذ لم يقاوموه قالوا ووقع العنسي في الخمر يشربها ولا يصلي و لا يغتسل من جنابه و كان يزعم أن سحيقاً يقول له لا غسل عليك في وادي صنعاء و احتالت المرزبانة و كانت مسلمة دينة فعملت سرباً تحت الأرض يفضي إلى خارج القصر و واعدت فيروز الديلمي ليلةً وسقت العنسي حتى امتلأ خمراً فجاء فيروز و داود و قيس بن المكشوح المرادي للميعاد فدخل فيروز من البيت فإذا العنسي ثمل نائم و المرزبانة قاعدة على رأسه و كان يحرسه ألف رجلٍ كل ليلة قال فأشارت المرزبانة أين السيف قال و كنت نسيته فقلت في نفسي أرجع فأحمل السيف فاستيقظ عند ذلك العنسي و عيناه تبصان قال فبركت على صدره وأخذت برأسه و لحيته فجعلت وجهه في قفاه و ذلك أني كنت أخاف أن يصيح ثم أردت أن أخرج فقالت المرزبانة أنشدك الله أن تخرج و تدعني فإني لا آمن على نفسي قال فخرجت بها من السرب و حملتها إلى حصن غمدان و دخل قيس بن مكشوح فحز رأسه و خرج فرمى به إلى الناس و أذن بصلاة الفجر و فرغ الله من الكذاب العنسي و كفى المسلمين شره و ضره قال الواقدي الثبت عندنا أنه قتل في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

ذكر ردة الأشعث بن قيس الكندي بحضرموت كان وفد على النبي صلى الله عليه وسلم و كان النبي عليه السلام بعث زيادة بن لبيد مصدقاً عليها فلما أتاهم خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتد الأشعث بن قيس و منع الزكاة و قال فيه الحارث بن سراقة بن معدي كرب

أطعنا رسول الله ما دام بيننا ... فيا قوم ما شأني و شأن أبي بكر

أيورثها بكراً إذا كان بعده ... و تلك لعمر الله قاصمة الظهر

فقاتلهم زياد بن لبيد و قتل منهم مقتلةً عظيمةً و استأمن الأشعث ابن قيس فبعثه إلى أبي بكر موثقاً في الحديد فقال و الله ما كفرت بعد إسلامي و لكن شحت بمالي فأطلق لي إساري و استبقني لحربك و زوجني أختك أم فروة بنت أبي قحافة ففعل أبو بكر ذلك ثم خرج الأشعث مع سعد بن أبي وقاص إلى العراق فشهد القادسية و شهد مع علي عليه السلام صفين و هو الذي دعا إلى الحكمين.

ذكر خروج أبي بكر رضي الله عنه لقتال أهل الردة و اشتد رعب المسلمين بالمدينة لإطباق العرب على الردة فآووا الذراري و العيال إلى الآطام و الشعاب و خرج أبو بكر مع أصحابه من المهاجرين و الأنصار حتى نزل ذا القصة و هي على أميال من المدينة فكلمه علي في الرجوع ليكون فئةً للمسلمين فأمر خالد بن الوليد على الناس و بعثه في أربعة آلاف و خمس مائة رجل و امرأة أن يقتل أهل الردة بالسيف و أن يحرقهم بالنار و أن يسبي الذراري ويقسم الأموال فسار خالد بن الوليد و رأى خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري قلتهم مع أبي بكر بذي القصة فحمل عليهم في الفوارس فانهزموا و لاذ أبو بكر بشجرة فأرقى طلحة بن عبيد الله على شرفٍ فنادى أيها الناس هذه الخيل فتراجع الناس و انكشف خارجة و رجع أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة و فيه يقول الحطيئة

فدىً لابن بدرٍ يوم قدم خيله ... و قد حام أقوام طريفي و تالدي
ليمحو ما منت قريش نفوسها ... فوارس أبطال طوال السواعدي
قصة طليحة بن خويلد الأسدي و كان ممن وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم تنبى و زعم أن ذا النون يأتيه بالوحي و آمن به عيينة بن حصن و اتبعه و كان يتلو عليهم إن الله لا يضيع تعفيركم و تذليل وجوهكم وفتح أدباركم شيئاً اذكروا الله عز و جل اعفه قياماً فإني أشهد أن الصريح تحت الرعوة يعني بذلك الركوع و السجود فسار خالد حتى دنا من بزاخة و بعث بن أقرم طليعةً فخرج إليهما طليحة فقتلهما و فيه يقول
زعمتم بأن القوم لا خير عندهم ... أليس و إن لم يسلوا برجال
عشية غادرت ابن أقرم ثاوياً ... و عكاشة العميمي عند مجالي
نصبت له صدر الحمالة إنها ... معودة قول الكماة نزال
فيوماً تراها في الجلال مصونةً ... و يوماً تراها غير ذات جلال
و يومان يوم المشرفية نحرها ... و يوماً تراها في ظلال عوالي
فأناخ خالد بزاخة و ناوشهم القتال و ضربهم الجدل فجاء عيينة بن حصن إلى طليحة فقال هل أتاك ذو النون قال نعم قال فما قال لك قال قال إن لك يوماً ستلقاه ليس لك أوله ولك آخره و رحاه و حديثاً لن تنساه فقال عيينة سيكون لك حديثاً لن تنساه يا بني فزارة إن هذا الرجل كذاب ما بورك له و لا لنا فيه فانصرف عيينة و فزارة و ركب طليحة فرسه و أردف نزار امرأته فقال له الناس ما تأمرنا فقال من استطاع منكم أن يفعل كما فعلت فليفعل و نجا بأهله و قدم الشام فأقام بها إلى أن مات أبو بكر رضي الله عنه ثم خرج محرماً بالحج و أسلم إسلاماً لم يغمص عليه و استشهد بنهاوند و كان قال في قتله عكاشة
ندمت على ما كان من قتل ثابت ... و عكاشة العيمي ثم ابن معبد
و أعظم من هذين عندي مصيبة ... رجوعي عن الإسلام رأي التعمد
فهل يقبل الصديق أني مراجع ... و معط بما أحدثت من حدثٍ يدي
و إني من بعد الضلالة شاهد ... شهادة حقٍ لست فيها بملحد
بأن إله الناس ربي و أنني ... ذليل و أن الدين دين محمد

ذكر مقتل مالك بن نويرة اليربوعي قال و سار خالد بن الوليد حتى أحاط بيوتات مالك بن نويرة و هم مسلمون و كانت لمالك امرأة وسيمة فمال إليها خالد و أمر بقتل مالك فنهاه عبد الله بن عمر و أبو قتادة الأنصاري فأحضر خالد المالك و قال ألست القائل
ألا عللاني قبل جيش أبي بكر ... لعل المنايا قد دنون و ما ندري
فقال مالك ما قلت ذاك و لو سمعني صاحبكم أقوله ما قتلني فقال خالد تقول لرسول الله صاحبكم اضربوا عنقه فالتفت مالك إلى امرأته و قال يا خالد هذه قتلتني و لما قدم خالد قال عمر رضي الله عنه لأبي بكر اقتله فإنه قتل و زنا قال تأول فأخطأ قال اعزله قال ما كنت لأشيم سيفاً سله الله تعالى.
قصة مسيلمة بن حبيب الكذاب و يكنى أبا ثمامة كان هذا رجلاً يحسن شيئاً من الشعوذة و النيرنجات و كان يصل جناح الطير و يدخل البيض في القارورة و كان يدعي النبوة و رسول الله بمكة قبل أن يهاجر و يسمى برحمان اليمامة و كان يبعث بناس إلى مكة فيسمعون القرآن و يأتونه فيقرأوه على الناس ثم وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد بني حنيفة فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه يقول لو جعل الأمر لي بعده لاتبعته فجاءه رسول الله

صله و في يده مسحة من نخل قاله الواقدي و قال ابن إسحق عسيب من سعف النخل في رأسه خويصات فقال إن أقبلت ليغفرن الله لك و لئن أدبرت ليقطعن الله دابرك و ما أراك إلا الذي رأيته يعني رؤياه و لو سألتني هذه الشطبة ما أعطيتك فلما أراد الوفد الرجوع أجازهم رسول الله صله و قال هل بقي منكم أحد قالوا رجل تنصر و خالفنا قال ليس ذاك بشركم مكاناً و أمر له بمثل ما أمر لهم فلما انصرفوا ادعى الشركة في النبوة و احتج بقوله أنه ليس بشركم مكاناً فلما شهد له الرحال بن عنفوة وافتتن الناس به فكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى محمد رسول الله من مسيلمة رسول الله سلام عليك أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك وأن لنا نصف الأرض و لقريش نصفها و لكن قريشاً يعتدون و كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين فلما ورد عليه الجواب افتعل كتاباً يزعم أن جبريل يأتيه من عند الله و يتلو عليهم من أسجاعه المزورة سبح اسم ربك الأعلى الذي يسر على الحبلى فأخرج منها نسمة تسعى من بين أحشاءٍ و تبلى فمنهم من يموت و يدس إلى الثرى و منهم من يبقى إلى أجل مسمىً و الله يعلم السر و أخفى مع أشبه و نظائر كثيرة و كان يدعي الشركة في النبوة فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم سار إليه خالد بن الوليد و التقى المسلمون و بنو حنيفة و اقتتلوا قتالاً شديداً لم يكن في الإسلام يوماً أشد منه حتى كسروا بنو حنيفة جفون سيوفهم و قتل من المسلمين ألفان و مائتان و جرح أكثر من بقي و قتل زيد بن الخطاب صاحب راية المسلمين و انهزموا حتى خلص بنو حنيفة إلى فسطاط خالد بن الوليد و كان البراء بن مالك إذا حضرت الحرب أخذته العرواء حتى يقعد عليه الرجال فإذا رقد و بال مثل نعاعة الحناء ثم ثار كالأسد فأصابه ذلك ثم حمل عليهم فانكشفوا و تبعهم حتى أدخلهم فانكشفوا و تبعهم حتى أدخلهم حديقة الموت ثم غلقوا الباب دونه فقال البراء احملوني درقةً و ألقوني فيهم فضاربهم حتى فتح الباب و دخل المسلمون فقتلوا و قتلوا مسيلمة و كان رويجلاً أصيغر أخينس شرك في قتله وحشي و عبد الله بن زيد فمر به رجل فقال أشهد أنك نبي و لكنك شقي و فتح الله ذلك على المسلمين و قتلوا محكم بن الطفيل سيد بني حنيفة و قائدهم و كان ثمامة بن مالك قال لمسيلمة لما ادعى الشركة في النبوة

مسيلمة ارجع و لا تمحك ... فإنك في الأمر لم تشرك
كذبت على الله في وحيه ... هواك هوى الأحمق الأنوك
فما في السما لك من مصعدٍ ... و مالك في الأرض من مبرك

و رثى رجل من بني حنيفة مسيلمة بعد ما قتل

لهفي عليك أبا ثمامة ... لهفي على ركني شمامه
كم آية لك فيهم ... كالشمس تطلع في غمامه

حديث الرحال بن عنفوة قالوا أنه قدم المدينة و تعلم السنن و قرأ سورة من القرآن إذ مر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحد هؤلاء في النار فلما ادعى مسيلمة الشركة في النبوة شهد الرحال بن عنفوة بذلك فافتتن به أهل اليمامة و فيه يقول الشاعر

يا سعاد الفؤاد بنت أثال ... طال ليلي بفتنة الرحال
إنها يا سعاد من حدث الده ... ر عليكم كفتنة الدجال

قصة سجاح و تكنى أم صادر و زوجها أبو كحيلة كان كاهن اليمامة و قال و تنبت سجاح و كانت ساحرة و تبعها الزبرقان بن بدر و عطارد بن حاجب و ناس كثير من تميم و قالت إن رب السحاب يأمركم أن تغزو الرباب

فغزتهم فهزموها فذلك الذي يقول عمرو بن لجأ

تقودهم سجاح ترامیتها ... فشدد یا سجاح من تقود

ثم أتت سجاح مسيلمة فقالت له ما أوحي إليك فتلا بعض أساطيره المزورة فقالت و ما ذا أيضاً فتلا عليها إن الله خلق النساء أفراجاً و جعل الرجال لهن أزواجاً فنولج فيهن إيلاجا فينتجن لنا سخالاً إنتاجاً فقالت أشهد أنك نبي فقال لك أن أتزوجك فآكل بقومي و قومك العرب قالت نعم قال

قومي و ادخلي المخدع ... فقد هيئ لك المضجع

فإن شئت سلقناك ... و إن شئت على أربع

وإن شئت بثلثيه ... و إن شئت به أجمع

فقالت بل به أجمع فهو للشمل أجمع و أجدر أن ينفع فتزوجها و أقامت عنه ثلاثاً و أصدقها ترك صلاتي الفجر و العشاء الآخرة و رخصت سجاح للمرأة في زوجين على النصف مما للرجل و أذن شبث بن الربعي بأن مسيلمة نكح سجاح وأصدقها ترك صلاتين و فيها يقول عطارد بن حاجب

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها ... و أصبحت أنبياء الله ذكرانا

و اختلفوا في هلاكها فقال قوم ماتت و قال آخرون قتلت.

ذكر الفتوح في أيام أبي بكر بعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين فافتتح حصن جواثا و أجلى المخارق بن النعمان عامل كسرى عنها و عن أراس و حاصر الخليج و افتتحه و لم يزل يركض على الفرس راسباً في البحر حتى مات و كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد لما فرغ من اليمامة يأمره بالمسير إلى العراق فمر بالمذار ففض جنودها و مر بنهر المرأة فصالحه جابان الفارسي و صار إلى هرمزجرد فافتتحها و أتي الحيرة فخرج إليه عبد المسيح بن صلوبا الغساني و كان أتي عليه أكثر من مائتي سنة فصالحه على الجزية و أدى إليه ماية ألف درهم و صالح أهل بلقاء على ألفِ ألف درهم و طيلسان و هذه النواحي التي كان ينظر فيها و يحوم حولها من آطار البادية و حافاتها و بعث أبو بكر أبا عبيدة بن الجراح في سبعة آلاف و سبع مائة من الصحابة إلى الشام و هرقل بحمص في جنوده فكتب يستمده فأمده بعمرو بن العاص ثم كتب يستمده فكتب إلى خالد بن الوليد و هو بالحيرة يأمره بالمسير إليهم فسار و استخلف على العراق المثنى بن حارثة الشيباني فأتى بصرى فافتتحها و هي أول مدينة افتتحت من مدائن الشام ثم اجتمع مع أبي عبيدة و عمرو بن العاص و حاصروا دمشق و بها نسطاس البطريق في جمع كثيف فهزموهم و هذا فتح جاذر من أرض فلسطين و هرب هرقل حتى صار إلى أنطاكية فنزلها فهذا ما كان من الفتوح في زمن أبي بكر ثم مرض خمسة عشر يوماً ثم مات رضي الله عنه و أرضاه و خلافته سنتان و ثلاثة أشهر و عشرة أيام و يقال أربعة أشهر إلا عشرة أيامٍ.

ذكر استخلاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه و لما مرض أبو بكر شاور الناس في الأمر و كانوا لا يشكون أن عمر هو الذي يلي الخلافة بعده إلا أن منهم من كان يكره ذلك لشدته و عنفه فدعاه أبو بكر و عهد إليه و استخلفه على الناس فلما خرج من عنده قال اللهم إني وليته بغير أمر من نبيك و لم أرد بذلك إلا صلاحهم فقال له بعض القوم فماذا تقول لله عز و جل إذا لقيته و قد وليت أمر المسلمين فظاً غليظاً قال أقول اللهم لم آلهم خيراً و توفي سنة ثلاث عشرة من الهجرة فرثاه حسان بن ثابت

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقةٍ ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها و أعدلها ... بعد النبي و أوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمود شيمته ... و أول الناس طراً صدق الرسلا

خلافة عمر رضي الله عنه و أرضاه فلما دفن أبو بكر بايعه الناس و سمي أمير المؤمنين و كان أبو بكر يقول له خليفة رسول الله أول من سمي بأمير المؤمنين عمر عدي بن حاتم الطائي و أول من سلم عليه بالإمارة المغيرة بن شعبة ففتح الشام و مصر و الجزيرة و العراق و الجبل و أرمينية و الأهواز و فارس و اصطخر و الري وأذربيجان و أصبهان و دون الدواوين و أرخ التأريخ و جند الأجناد و أول من دعا له على المنبر بالصلاح أبو موسى الأشعري و صار إليه خاتم النبي صله و رداؤه و في سنة سبع من خلافته فرض للناس العطايا و فضل بعضهم على البعض فبدأ بالعباس ففرض له في اثني عشر ألفاً و لعلي بن أبي طالب في ثمانية آلاف ثم الأقرب فالأقرب من بني هاشم و خلفائهم و مواليهم و أعدادهم ثم سائر بني عبد مناف ثم قبائل قريش ثم المهاجرين ثم الأنصار و مواليهم ممن شهد بدراً لكل واحدة في خمسة آلاف وفرض لزواج النبي صلى الله عليه وسلم لكل واحدة في اثنى عشر ألفاً و فرض لمضر ثلاثمائة و لربيعة في مئتين و خمسين و قال إنما هاجروا من أطناب بيوتهم و فرض لأشراف العجم لكل واحد في ألفين.
وقعة الجسر و لما أفضت الخلافة إلى عمر سار إليه المثنى بن حارثة فقال إنا قد قاتلنا الفرس و اجتزأنا عليهم فابعث معي ناساً من المهاجرين و الأنصار نجاهدهم فقام عمر خطيباً فقال أيها الناس إنكم قد أصبحتم في غير دار مقامة بالحجاز و قد و عدكم الله على لسان نبيكم كنوز كسرى و قيصر فسيروا إلى أرض فارس فاسكت الناس لما سمعوا من أمر فارس فقان أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي فقال أنا أول من ينتدب فانتدب الناس بعده فأمره عليهم و ساروا إلى العراق مع المثنى بن حارثة فلما سمعت به بوران دخت بنت كسرى و كان الملك يزدجرد إلا أنه صبي لم يطق الحرب أرسلت إلى رستم أصفهبذ أذربيجان تدعوه إلى محاربة العرب فإن هو ظهر زوجته نفسها فأرسل رستم جالينوس في جيش عظيم فهزمهم أبو عبيد ثم بعث رستم ذا الحاجب في أربعة آلاف مجفجف دارع ناشب و فيل مقاتل فأمر أبو عبيد حتى عقدوا جسراً على الفرات و جاز بالناس و أخذوا في القتال فهال المسلمين أمر الفيل و ما يصنع فشد عليه أبو عبيد و قال أما لهذه الدابة من مقتل قالوا بلى إذا قطع مشفرها لم تعش فضربه على خرطومه فقطعه و برك الفيل عليه فقتله و قتل يومئذ من الأنصار سبعون رجلاً و انهزم الباقون حتى رجع فلهم إلى المدينة فقال لهم عمر لا تجزعوا أنا فئتكم إنما الحريم إلي و فيه يقول حسان بن ثابت
لقد عظمت فينا الرزية إننا ... جلاد على ريب الحوادث و الدهر
على الجسر يوم الجسر لهفي عليهم ...غداة إذٍ ما ذا لقينا على الجسر

وقعة القادسية ثم بعث عمر سعد بن أبي وقاص في ثلاثة آلاف رجلٍ إلى العراق و بعث بعصمة بن عبد الله في جيش و كتب إلى المثنى بن حارثة بأن يجتمع إلى سعد و كتب إلى العلاء بن الحضرمي و هو بالبحرين يأمره بالمسير إلى سواد بابل فسار العلاء و استخلف أبا هريرة على البحرين فمات في الطريق و مات المثنى بن حارثة و بعث عتبة بن غزوان إلى ناحية البصرة فافتتح الأبلة و جاء سعد فيمن معه من الجموع فنزلوا فشربوا مما يلي سواد الحيرة و شتوا به و جعلوا يغيرون على السواد وتضرب خيلهم إلى سوق بغداد وإلى باب ساباط فتوجه رستم في جمع عظيم للقائهم و كتب سعد إلى عمر بالخبر يستمده بالرجال فبعث إليه المغيرة بن شعبة في أربعمائة و أمده بقيس بن مكشوح في سبع مائة و كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن أمد سعداً بألف رجلٍ ففعل ذلك و اجتمعوا إليه و جاء سعد فنزل ما بين العذيب إلى القادسية و جاء رستم فنزل الحيرة في ستين ألفاً من المقاتلة سوى الأشياع و الأتباع و

الشاكرية و استولى على كل ما كان صار بأيدي المسلمين مما افتتحوه صلحاً و عنوةً حتى ضاق الأمر على المسلمين في الطعام و العلوفة ثم بعث سعد بن أبي وقاص رسلاً إلى يزدجرد و منهم حنظلة بن ربيعة الأسدي و النعمان بن مقرن المزني و عمرو بن معدي كرب الزبيدي و طليحة بن خويلد الأسدي و المغيرة بن حبيب بن زرارة و فرات بن حيان و شرحبيل بن السمط و ليد بن عطارد فجوزهم رستم إلى المدائن مع صاحب له فوقفوا بباب يزدجرد ببرودٍ على خيلٍ و إبلٍ عليهم ونعال و سلاح رثة فخرج الآذن فقال لهم ابن كسرى ما كانت أمة في الأرض أبعد عندنا مما طلبتم و ما كان يخطر لنا ببالٍ إنكم تعرضون بمثل هذا و ظننت الذي حملكم على هذا سوء الحال و ضيق العيش فانصرفوا فإني أحسن إليكم وآمر لكم بحملان وطعامٍ و كسوةٍ فقال النعمان بن مقرن و هو أميرهم ليس لما عرضت علينا أتيناك و لكن ندعوك إلى دين الإسلام قال هذا دين لا أدخل فيه قال فالجزية تؤديها و أنت صاغر قائم و السوط على رأسك قال لولا أنكم رسل لقتلتكم قالوا فإنا نأخذ أرضك و نجليك عنها قال و ما علمكم قالوا أخبر بذلك نبينا صله و ما أخبرنا بشيءٍ قط إلا و كان كما قال فراطن بعض شاكريته فجاء يسعى و معه مكتل فيه تراب فقال خذوا هذا فليس لكم عندي غيره فبسط عمرو بن معدي كرب رداءه فأخذه و خرجوا فقال له أصحابه أخذت تراباً فقال قد أمكنكم الله من أرضه فجاء به إلى سعد وتفألوا به و أرسل يزدجرد إلى رستم أن ناهض القوم فشت غارتهم على الناس فبعث رستم إلى سعد أن ابعث إلي منكم رجلاً أكلمه فبعث المغيرة بن شعبة فجاء و قد فرق شعره أربع فرقٍ فقال له رستم أنكم كنتم معشر العرب أهل شقاءٍ و جهدٍ و كنتم تواتوننا من تاجر و أجير فأكلتم من طعامنا و شربتم من شرابنا فذهبتم فدعوتم أصحابكم فإنما مثلكم مثل رجل له حائط فرأى فيه ثعلباً فقال و ما ثعلب واحد فذهب الثعلب و جمع الثعالب في حائطه فجاء صاحبه فسد عليه الحجر فقتلهن جميعاً و قد نعلم أن الذي حملكم على هذا الجهد والمشقة فانصرفوا نوفر لكم برادتكم و نأمر لكم بكسوة فقال المغيرة لم تذكر شيئاً من جهدنا إلا و قد كنا في أشدٍ منه كنا نأكل الميتة و الدم و العظام حتى بعث الله فينا نبياً صله فأمرنا أن نقاتل من خالفنا و ندعو الناس إلى متابعته والإيمان به فإن آمنت كان لك بلادك لا ندخلها عليك إلا بإذنك وإن أبيت فالجزية وإلا قاتلناك حتى يحكم الله بيننا قال رستم ما ظننت أني أعيش حتى أسمع مثل هذا و لا أمسي غداً أفرغ منكم و أمر بالعتيق فسكر و طم الوادي بالتراب و القصب حتى صار طريقاً واسعاً ثم زحف إليهم في ستين ألفاً مدججين شاكين في السلاح التام والآلة المعدة عليهم الذهب والحرير و اليلامق و الديباج و عامة جند المسلمين براذع الرحال قد عرضوا فيها الحرائر ولووا على رؤوسهم الأنساع و الأعاجم قد قدموا الفيلة و بثوا الحسك و استعمل سعد ذلك اليوم خالد بن عرفطة لأنه كان به جراح فقامت الحرب بينهم أربعة أيام و قتلوا من المسلمين ألفين و خمس مائة فلما كان اليوم الرابع حمل هلال بن علفة التيمي على رستم فانهزم وولت الفرس و اتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى امتنع الناس من شرب الماء بالقادسية ثلاث ساعات لما كان يجري فيه من الدم و قتل زهرة بن حاوية جالينوس صاحب جيش

الفرس و باع منطقته بثلاثين ألفاً و اختلفوا في من قتل رستم فقيل هلال بن علفة و قيل عمرو بن معدي كرب و ذلك أن رستم كان على فيل فعقره عمرو فسقط عنه رستم و سقط من تحته خرج فيه أربعون ألف دينار و قيل غرق في العتيق و جمعوا من الأموال مثل الآطام و التلال وأصحاب رجل من بني نخع راية كانت للفرس تسمى درفش كاويان موصولة بالدر و اليواقيت فقومت ألفي ألف درهم و هي التي يذكرها البحتري في قصيدته فرس و باع منطقته بثلاثين ألفاً و اختلفوا في من قتل رستم فقيل هلال بن علفة و قيل عمرو بن معدي كرب و ذلك أن رستم كان على فيل فعقره عمرو فسقط عنه رستم و سقط من تحته خرج فيه أربعون ألف دينار و قيل غرق في

العتيق و جمعوا من الأموال مثل الآطام و التلال وأصحاب رجل من بني نخع راية كانت للفرس تسمى درفش كاويان موصولة بالدر و اليواقيت فقومت ألفي ألف درهم و هي التي يذكرها البحتري في قصيدته

والمنايا مواثل و أنو شر ... وان يزجي الصفوف تحت الدرفش

و كتب سعد إلى عمر بالفتح و بعث إليه بالغنائم والأموال و صفت له السواد إلا المدائن فإن يزدجرد تحصن و نزل المسلمون الأنبار فاحتووها فكتب عمر إلى سعد إن العرب لا يصلح لهم إلا ما يصلح للبعير و الشاء فانظر إلى فلاةٍ فأنزل المسلمين بها و أقم مكانك و ابعث جنداً إلى أرض الهند يعني البصرة و جنداً إلى الجزيرة و اتخذ منزلك دار هجرتك ولا تجعل بيني و بين المسلمين بحراً فطلب سعد حتى نزل الكوفة اليوم و هي رمال و مصرها و خط مسجدها و بعث عتبة بن غزوان في خيل إلى البصرة فاختطها و أسس مسجدها ثم استخلف عتبة المغيرة بن شعبة على البصرة و سار إلى عمر فمات في الطريق و أقر عمر المغيرة على البصرة ثم شهد عليه أربعة بالزنا خالف أحدهم و هو زياد بن عبيد فأمر عمر فجلدوا و عزل المغيرة عن البصرة و استخلف عليها أبا موسى الأشعري فافتتح الأهواز و تستر و السوس و رام هرمز و بعض نواحي فارس و كان سعد لما بعث عتبة بن غزوان إلى البصرة بعث أبا موسى إلى الجزيرة فافتتح الموصل و نصيبين صلحاً و عاد إلى سعد و بعث عثمان بن أبي العاص الثقفي إلى أرمينية و أذربيجان فصالحهم على الجزية و أقام سعد بالكوفة ثلاث سنين ثم كان فتح المدائن و كان سعد يوم القادسية في قصر لجراح كان به فقال رجل من المسلمين

ألم تر أن الله أنزل نصره ... وسعد بباب القادسية معصم

فإوبنا و قد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعدٍ ليس فيهن أيم

فقال سسعد اللهم اكفني لسانه ويده فزعموا أنه خرس لسانه وشلت يده و قال جرير

أنا جرير كنيتي أبو عمرو ... قد نصر الله و سعد في القصر

فقال سعد

وما أرجو بحيلة غير أني ... أؤمل فوزهم يوم الحساب

فتح المدائن و لما استولى المسلمون على العراق و ساروا إلى ساباط نقل يزدجرد خزائنه من الذهب و الفضة و الجوهر و السلاح و قطع الجسور و عبأ السفن و أغلق أبواب المدائن فأتى سعداً قوم من الفرس فدلوه على موضع من دجلة قليل الغمر يقال له ديلساً فانتدب أربعمائة فارس فاقتحموا دجلة و خرجوا من الفرضة و لم يغرق منهم إلا رجل واحد و أخذوا السفن المعبأة ليزدجرد و عبروا المسلمين و حاصرهم سعد سبعة أشهر فلما اشتد عليهم الحصار تحملوا ليلاً بما خف من أموالهم و خرج يزدجرد إلى حلوان و خلف بجلولا خرزاد بن هرمز في جمع عظيم ليدافع عنه العرب إن لحقوا به و افتتح سعد المدائن و أصاب من الخزائن ما بقي من الأموال و أواني الذهب و الفضة أربع مائة جمل فبعث بها إلى عمر مع سبى كثير فأمر بها عمر فصبت في صحن المسجد و جمع المسلمين و قال ألا صدقكم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال إن كنوز كسرى و قيصر تنفق في سبيل الله ثم نظر إلى سوار كسرى فقال لسراقة بن مالك أنشدك الله ألا قمت إلى ذلك السوار فلبسته و كان ذراعاه شحتين شعراوين فقال عمر رضي الله عنه صدق رسول الله صله قال كأني أنظر إلى سوار كسرى في يدي سراقة بن مالك و إن عجائب المعجزات للنبي صله عليه أفضل الصلاة و السلام .

وقعة جلولا و لما مر يزدجرد إلى حلوان و خلف خورزاد بجلولا ليدفع من يأتيه من العرب من ورائه بعث سعد اثني عشر ألفاً فقاتلوا خورزاد و هزموه و أصابوا من صامت أموالهم ما بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم و ثمانية

أرؤس من الدواب و الجارية سوى سائر الآثار و الأواني و الفرش و سوى ما أخرج من الخمس و كانت أم الشعبي من سبي جلولا فلما انتهت الهزيمة إلى حلوان بعث يزدجرد الهرمزان في جيش عظيم إلى الأهواز ليشغل العرب و يكون رداء للفرس و خروج يزدجرد من حلوان إلى اصطخر و تحصن بها و صار الهرمزان و نزل تستر لأنها أحسن مدنها فقصده أبو موسى الأشعري إلى عمر بذلك فكتب بالجواب أن استنزله على حكمي.

فتح تستر و خرج الهرمزان على حكم عمر رضي الله عنه فبعث به إلى المدينة فلما دخل المدينة لبس التاج و الديباج و أخذ منطقته و سواريه و طوقه و قد طول شاربه و قصر لحيته على زي العجم و هذا كله تصنع منه للقاء عمر فانتهى إليه و هو قاعد في ناحية المسجد عليه برد خلق و بين يديه درة فقال الهرمزان من هذا فقالوا أمير المؤمنين فسقط الهرمزان في يده لما كان من التزين و التصنع ثم تكفر لعمر فقال هذا لا يصلح في ديننا فقال له عمر أأسلمت قال لا قال إن لم تسلم قتلتك قال لا تقتلني حتى تسقيني الماء فأتي بقدح من خشب عظيم فقال لو مت عطشاً ما شربت من هذا ما لكم قدح من زجاج و ذلك أن الفرس لا يأكل في الخشب و الخزف لقبولهما النجاسات فأخذه و يده ترعد و هو مرعوب فقال له عمر لا بأس عليك و لست بقاتلك حتى تشربه فألقى القدح من يده فانكسر فظن عمر أنه سقط من يده فقال ائتوه بقدح آخر قال لا حاجة لي في الماء قال عمر أسلم و إلا قتلتك قال أما ديني فلست أدعه و أما أنت فقد أمنتني فقال عمر لم ائمنك يا عدو الله فقيل له بلى قد آمنته فقال أخذ منا أماننا و ما نشعر فأقام برهة ثم رغب في الإسلام فأسلم ففرض له عمر في من فرض من العجم ثم لما قتل عمر رضي الله عنه اتهمه عبيد الله بن عمر في ذلك فقتله و شكا أهل الكوفة سعداً و قالوا أنه لا يحسن الصلاة فعزله عمر و استعمل عمار بن ياسر على الصلاة و عثمان بن حنيف على الخراج و عبد الله بن مسعود على القضاء و بيت المال و فرض لهم في كل شاة واحدة بين ثلاثتهم.

ذكر فتح الفتوح بنهاوند قالوا و اجتمعت الأعاجم و الأساورة و عظماء الفرس و عزموا على غزاة عمر في عقر داره و تعاقدوا على ذلك و تحالفوا و جمعوا من الجموع ما لا يبلغه الإحصاء و العدد وبلغ ذلك عمر فجمع المهاجرين و الأنصار فاستشارهم و أراد الخروج بنفسه فأشار عليه علي بن أبي طالب بالمقام بالمدينة و توجيه من يقوم بمناظرتهم فبعث حينئذ جيشاً عظيماً و استعمل عليهم النعمان بن مقرن المزني و قال إن أصيب النعمان فأمير الناس حذيفة بن اليمان و إن أصيب حذيفة فأمير الناس جرير بن عبد الله البجلي فإن أصيب جرير فالمغيرة بن شعبة فالأشعث بن قيس و كتب إلى عمار بن ياسر أن استنفز ثلث أهل الكوفة و كتب إلى أبي موسى الأشعري أن استنفر ثلث أهل البصرة فاجتمعوا و ساروا حتى نزلوا على فرسخين من نهاوند و بها جموع من الفرس يقال مائة ألف و يقال أربع مائة ألف و عليهم ذو الحاجب مردانشاه و قد تحالفوا على الصبر و الثبات فارتبط بعضهم ببعض و جعلوا لكل عشرة سلسلة لكيلا يهربوا و ألقوا الحسك و أقاموا الفيلة بينهم و بين المسلمين فناهضهم المسلمون يوم الأربعاء و يوم الخميس فلما كان يوم الجمعة قال المغيرة بن شعبة إن العدو قد سئم القتال و ضعف فنبادرهم القتال فقال النعمان نصلي الظهر ثم نلقى عدونا فإن أبواب السماء تفتح مواقيت الصلاة فلما صلى قال لهم النعمان إذا أنا كبرت الثانية فسلوا السيوف و أشرعوا الرماح و أوتروا القسى فإذا أنا كبرت الثالثة فاحملوا عليهم حملة رجل واحد و أخذ الراية النعمان و تقدم و كبر فلما كان في الثانية و الثالثة حملوا عليهم فهزموهم و قتل النعمان بن مقرن فأخذ الراية حذيفة بن اليمان و قتلوا منهم ما الله أعلم به و أصابوا من الغنائم و الأموال ما لم يذكر في كتاب مبلغها و قتل ذو الحاجب مردانشاه ولم يكن للأعاجم بعد ذلك جماعة فسمى ذلك فتح الفتوح و استشهد ذلك اليوم النعمان بن مقرن و عمر بن معدي كرب و طليحة بن خويلد في نفر من الصحابة و استصفى

عمر من أموال الفرس ما كان لكسرى و أهل بيته و بلغ خراجه سبعة آلاف درهم حتى إذا كان يوم الجماجم أحرق الديوان فأخذ كل إنسان ما يليه قالوا و احتال المغيرة بن شعبة على عمار بن ياسر فرفع إلى عمر أنه يخاطر بالديكة فعزله عمر و ولى الكوفة المغيرة بن شعبة فافتتح آذربيجان صلحاً و يقال افتتحها هاشم بن عتبة.

ذكر ما افتتح من فارس في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه و كان يزدجرذ مقيماً بأصطخر في هذه الوقائع فوجه عمر عثمان بن أبي العاص الثقفي و كان ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف إلى البحرين و عزل عنها أبا هريرة و كان وافاها مع العلاء بن الحضرمي مؤذناً له فلما سار إلى العراق استخلفه على البحرين فدوخ عثمان البلاد بالأزد و عبد القيس و عبر بهم البحر إلى أسياف فارس و جعل يركض على كورها و قراها و يغير عليها و مصر توج و جعلها دار الهجرة و يزدجرد لما رأى من غلبة العرب بعث بخزائنه و كنوزه إلى الصين و عزم على قصده إن هزم و وجه شهرك للقاء عثمان بن أبي العاص الثقفي و كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بأن يلتقي مع عثمان فاجتمعا و واقعا شهرك و كان في مائة و عشرين رجل فهزماه و قتلا من أصحابه زهى ثلاثين ألفاً و فتحوا كورة أردشير و هذا هو الأصطخر الأولى و لم يفتح اصطخر و يقال أن الذي فتحها قرط بن كعب الأنصاري و أصبهان فتحها عثمان بن أبي العاص بعد حصار ثلاثة أشهر و كاتب الرجال من الأهواز و أميرها المغيرة بن شعبة.

ذكر ما افتتح في الشام في أيام عمر رضي الله عنه قالوا و كان أبو عبيدة بن الجراح و خالد بن الوليد بأرض الشام عند موت أبي بكر رضي الله عنه يركضون و يغيرون فلما صار الأمر إلى عمر حاصروا دمشق ستة أشهر حتى افتتحوها صلحاً و كذلك حمص و بعلبك ثم كانت وقعة اليرموك.

وقعة اليرموك و كان هرقل ملك الشام والروم بأنطاكية ألجأه إليه المسلمون في حياة أبي بكر فجمع الجموع و استمد من الرومية و القسطنطينية و جاءه جبلة بن الأيهم الغساني في من معه من لخم و جذام فتكاملوا أربعمائة ألف فيما يزعمون و أمر عليهم هرقل دمشق ماهان فلقيهم أبو عبيدة بن الجراح و خالد بن الوليد في أيام ذي ضباب و رذاذ بموضع يقال له اليرموك فهزموهم و فض الله جموعهم فتساقط في هوة ثمانون ألفاً لا يشعر آخرهم بما لقي أولهم فغدوا من الغد بالقصب و سميت تلك الهوة هوة اليرموك و قتلوا بالسيف سبعين ألفاً و كان المسلمون يومئذ خمسة و ثلاثين ألفاً و انتهت الهزيمة إلى هرقل و هو بأنطاكية فخرج إلى القسطنطينية بأهله و رحله و ماله و أشرف على الشام فقال السلام عليكم سلام مودع لا يرى أنه يرجع إليك أبداً و استشهد الفضل بن العباس باليرموك.

فتح بيت المقدس و افتتح أبو عبيدة بعد اليرموك الجابية من أعمال دمشق و قنسرين و حاصر أهل مسجد إيليا فأبوا أن يفتحوا له و سألوه أن يرسل إلى صاحبه عمر ليقدم فيكون هو الذي يتولى مصلحتهم فكتب بذلك أبو عبيدة إلى عمر فوافى الشام و استخلف عثمان بن عفان على المدينة و صالح أهل إيليا على أن لا يهدم كنائسها و لا يجلي رهبانها و بنى بها مسجداً و أقام أياماً ثم رجع إلى المدينة و في أيامه افتتح شرحبيل بن حسنة سروج و الرها صلحاً و افتتح عياض بن غنم داراً و الرقة و تل موزن صلحاً و افتتح عمرو بن العاص الثقفي مصر عنوة و افتتح الاسكندرية صلحاً و يقال عنوة و صالح أهل برقة و افتتح أيضاً بالس و افتتح معاوية عسقلان و قيسارية صلحاً و أغزى عمر عمير بن سعد الأنصاري فقطع دروب الروم و أوغل في بلادهم حتى انتهى إلى عمورية و هو أول من خربها و دخلها و به يضرب المثل أخرب من جوف الحمار فهذا ما كان من الفتوح في أيام عمر رضي الله عنه و أرضاه.

طاعون عمواس و عمواس موضع في سنة سبع عشرة من الهجرة و خمس من خلافة عمر وقع الطاعون قد اشتعل

بالشام و خرج عمر لقتال الروم حتى بلغ سرغ فقيل أن الطاعون قد اشتعل بالشام فرجع عمر فقال له أبو عبيدة أفراراً من قدر الله قال نعم أفر من قدر الله إلى قدره و مات في ذلك الطاعون من المسلمين بضع و عشرين ألفاً منهم أبو عبيدة بن الجراح و معاذ بن جبل و شرحبيل بن حسنة و يزيد بن أبي سفيان و فيه يقول الشاعر

رب خرق مثل الهلال و بيضا ... ء حصان بالجزع من عمواس

قد لقوا الله غير راد عليهم ... و أقاموا في غير دار أساس

عام الرمادة و هو عام الجوع و القحط و في هذه السنة كانت الرمادة و هي القحط و الجدب و المجاعة حتى رعيها و عطلت النعم فقال كعب الأحبار لعمر إن بني إسرائيل كان إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء فقال عمر هذا العباس عليه السلام النبي صله و صنو أبيه و سيد بني هاشم فمشى إليه و كلمه و خرج معه الناس إلى المستمطر و دعا عمر و العباس رضي الله عنهما فسقوا و في ذلك يقول حسان بن ثابت

سأل الإمام و قد تتابع جدبنا ... فسقى الغمام بغرة العباس

عم النبي و صنو والده الذي ... ورث النبي بذاك دون الناس

أحيا البلاد به الإله فأصبحت ... مهتزة الأجناب بعد إياس

فتح السوس قال و حاصرهم أبو موسى الأشعري حتى أجهدهم الحصار فاستأمن دهقانهم لمائة نفس و قال أبو موسى الأشعري اللهم أنسه نفسه فلما نزلوا قال اعزل المستأمنين فعزل مائة و لم يعزل نفسه فأمر به أبو موسى فضرب عنقه و أصابوا جثة دانيال في تابوت من رخام يستصرخون به و يستمطرون فكتب إلى عمر بذلك فكتب في الجواب إني أراه نبياً فادفنه حيث لا يشعر الناس به قال أنس في روايته فكان طول أنفه ذراعاً و قام رجل يقاومه فكانت ركبته محاذية رأسه فدفنوه تحت الماء و وجلوا معه صحفاً بيعت بأربعة و عشرين درهماً فوقعت إلى الشام و حج بالناس عمر عشر سنين متوالية ثم صدر إلى المدينة و قتل سنة ثلاث و عشرين من الهجرة و كانت ولايته عشر سنين و ستة أشهر و خمس ليال رضي الله عنه.

ذكر مقتل عمر رضي الله عنه قالوا و كان للمغيرة بن شعبة غلام نصراني يقال له أبا لؤلؤة عليه لعاين الله تترى مرة بعد أخرى فجاء إلى عمر يشكوه مولاه المغيرة في ضربه و تثقيل وظائفه و يسأله أن يكلم المغيرة في التخفيف عنه فإنه ذو عيال فقال له عمر اتق الله و رسوله و أطع مولاك ثم لقي المغيرة فأوصاه به خيراً و عاد الغلام شاكياً و سائلا فقال له مثل مقالته الأولى و سأله أن ينصب له رحىً فقال الغلام لأنصبن لك رحى يتحدث بها العرب فقال عمر لولا أن الناس يقولون هابه عمر لقلت يوعدني هذا الكلب و ضغن عليه أبو لؤلؤة حيث لم يسامحه المغيرة و ظن ذلك من فعل عمر فاتخذ خنجراً له رأسان و المقبض بينهما و أزمع على قتل عمر و رأى عمر تلك الليلة في المنام كأن ديكاً أبيض نقره نقرتين فأصبح مهموماً و قال ما الديك إلا عجمي و ما النقرة إلا طعنة ثم تطهر و خرج لصلاة الصبح فجاء أبو لؤلؤة الملعون لعنه الله حتى وقف في الصف مما يلي عمر فلما افتتح عمر الصلاة طعنه في خاصرته طعنتين أجافت و خرق أمعاءه فقال عمر رضي الله عنه آه و التأث المسلمون به فحملوه و قبضوا على أبي لؤلؤة الملعون بعدما قتل رجلا أو رجلين و جرح جماعةً و قال مروا عبد الرحمن بن عوف فليصل بالناس فصلى بهم و قرأ في الركعة الأولى بقل يا أيها الكافرون و في الثانية بقل هو الله احد ثم دخل إليه و دخل الناس و جرحه ينبعث دماً فقال لابن عباس اخرج فانظر من قتلني فخرج ثم دخل فقال هذا أبو لؤلؤة الملعون النصراني فقال الحمد لله الذي لم يجعل خصمي ذا سجدتين ثم دعا له بطبيب لينظر فسقاه نبيذاً فخرج و لم يدر أهو نبيذ أم دم ثم دعا بطبيب آخر فسقاه لبناً فخرج اللبن لبناً فقال أعهد يا أمير المؤمنين فجمع الناس للشورى.

قصة الشورى و موت عمر قالوا فلما أيقن عمر بالموت دعا بعهده و جعل الأمر فيه إلى ستة نفر و هم عثمان بن عفان و علي بن أبي طالب و سعد بن أبي وقاص و عبد الرحمن بن عوف و الزبير بن العوام و طلحة بن عبيد الله ثم جعل معهم عبد الله بن عمر و قال ليس له في الإمارة نصيب و إنما له الاختيار و الرأي و جعل أجل اختيارهم ثلاثة أيام و قال يصلي بالناس صهيب حتى يصطلحوا على أحدهم و أمر عدة من الأنصار أن يستحثوهم على ذلك كيلا يتفرق كلمة المسلمين و قال إن اجتمع ثلاثة على واحد و أبى اثنان فخذوا بقول الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف و كان قال لعبد الله بن عباس اذكر لي من أعهد إليه فقال عثمان فقال ذاك كلف بأقاربه يحمل بني ابن أبي معيط على رقاب الناس قال فعبد الرحمن بن عوف قال مسلم ضعيف و أميرته امرأته قال فسعد قال ذاك فارس يكون في مقنب من مقابنكم قال فالزبير قال مؤمن الرضا كافر الغضب قال فطلحة قال فيه باء وعجب قال فعلي قال فيه دعابة و أنه لأخلقهم أن يحملهم على المحجة ثم جعل الأمر في هؤلاء الستة باختيارهم و قال إن بيعة أبي بكر كانت فلتةً وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها من غير مشورة فاقتلوه و مات عمر رضي الله عنه و أرضاه يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث و عشرين و كان طعن يوم الأربعاء فمكث بعده ثلاثاً هذا في رواية الواقدي فلما أخرجوه ليصلي عليه الناس قام علي عند رأسه و قام عثمان عند رجليه فقال عبد الرحمن بن عوف ما أسرع ما اختلفتم تقدم يا صهيب فتقدم فصلى عليه ثم دفنوه في حجرة عائشة مع النبي صلى الله عليه وسلم و أبي بكر رضي الله عنه فانصرفوا عنه و تنازعوا الأمر و اختلفوا فيه و جاءت الأنصار يستحثونهم و بنو هاشم و بنو أمية يخطب كل قوم إلى صاحبهم فقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح إن أردتم أن لا يختلف قريش فولوها عثمان فقام عمار بن ياسر فقال إن أردتم أن لا يختلف الناس فولوها علياً ثم قال لعبد الله بن سعد بن أبي سرح يا فاسق بن فاسق أ أنت ممن تستنصح المسلمين أو يستشيرونك في أمورهم و استسب بنو هاشم و بنو أمية و ارتفعت الأصوات حتى تخوف الاختلاف فكان في الشورى ثلاثة أيام وعلي يناشدهم بالرحم أن يخرجوه من هذا الأمر فلما كان يوم الثالث بايعوا عثمان.

ذكر بيعة عثمان بن عفان رضي الله عنه قالوا و أقبل عبد الرحمن بن عوف إلى علي بن أبي طالب فقال عليك عهد الله و ميثاقه و أشد ما أخذ الله على النبيين من عهد و عقد إن أنا وليتك هذا الأمر لتعملن بكتاب الله و سنة نبيه فقال نعم طاقتي و جهدي و مبلغ رأيي ثم أقبل على عثمان فقال له عليك عهد الله و ميثاقه و أشد على ما أخذ الله على النبيين من عهد و عقد إن أنا و ليتك هذا العمل لتعملن فيه بكتاب الله و سنة نبيه قال نعم لا أزول عنها و لا أدع منها شيئا وبسط يده و كرر عبد الرحمن هذه الكلمة على علي مراراً و على عثمان مراراً كل ذلك يجيبانه مثل الأول و بسط عثمان يده و بنو هاشم و بنو أمية قيام ينتظرون ما يكون فضرب عبد الرحمن على يد عثمان و بايعه على الأمر ثم تتابع الناس على ذلك و خرج عثمان و وجهه يتهلل و علي كاسف اللون أربد لم يبايعه و دخل منزله و رفع عمار عقيرته يقول

يا ناعي الإسلام قم فانعه ... قد مات عرف و أتى منكر

هكذا رأيته في بعض التواريخ و ما أظنه حقاً و الله أعلم و قد روي أن سلمان جعل يقول ذلك اليوم كردند نكردند كردند نكردند ثم قام عثمان على المنبر خطيباً فحمد الله و أثنى عليه و أرتج عليه الكلام فقال إن هذا مقام ما كنا نرى أن نقومه وإن أول مركب صعب و إن مع اليوم أياماً و ما كنا خطباءْ و سيعلمنا الله ولا آلو أمة محمد خيراً و نزل و مشى أهل الشورى إلى علي و قالوا قم فبايع قال فإن لم أفعل قالوا نجاهدك فجاء فبايع و لما طعن أبو لؤلؤة عمر أخذه الناس فقتلوه و سل عبيد الله بن عمر فقتل ابناً لأبي لؤلؤة و قتل الهرمزان و أراد أن يستعرض

السبي بالمدينة فمنعه المهاجرون و الأنصار و مما رثى به عمر بن الخطاب قول الشماخ

أبعد قتيل بالمدينة أصبحت ... له الأرض تهتز العضاه بأسوق

جزى الله خيراً من أمام و باركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزق

فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ... ليدرك ما قدمت بالأمس تسبق

و ما كنت أخشى أن يكون وفاته ... بكفي سبنتي أزرق العين مطرق

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها ... نوافج في أكمامها لم تفتق

و يروى عن بعضهم عن رجل من الرافضة أنه قال رحم الله أبا لؤلؤة فقيل سبحان الله ترحم على رجل مجوسي قتل عمر بن الخطاب فقال كانت طعنته إسلامه.

خلافة عثمان بن عفان بايعه الناس و صار إليه خاتم رسول الله صله و رداؤه و أول فتح كان في خلافته ماه البصرة و ما كان بقي من حدود أصفهان و الري على يد أبو موسى الأشعري ثم بعث عثمان بن عفان عبد الله عامر بن كريز إلى اصطخر و بها يزدجرد فخرج يزدجرد إلى دارابجرد و خلف ماهك الأصفهبذ على أصطخر فنزل عبد الله بن عامر بن كريز يقاتل ماهك و أرسل مجاشع بن مسعود السلمي في إثر يزدجرد فركب يزدجرد المفازة إلى كرمان و فتح مجاشع دارابجرد صلحاً و سار في إثر يزدجرد إلى كرمان فافتتحها و أخذ يزدجرد على طريق سجستان حتى أتى مرو الشاهجان يريد الصين و قد قدم إليه ذخائره و خزائنه و ذكر ابن المقفع أنه كان في تلك الذخائر من الذهب التي كان قباذ ضربها سبعة آلاف آنية كل آنية اثنا عشر ألف مثقال سوى ما كان من ضرب سائر الملوك و مواريثهم و أنه كان فيها ألف حمل سبائك غير المضروبة و جاء مجاشع إلى سجستان فأصاب منها و افتتح سجستان ثم انصرف لما لم يدرك يزدجرد و عاد إلى فارس و افتتح عبد الله بن عامر بن كريز أصطخر الثانية و سار إلى خراسان حتى أتى الطوس فافتتحها صلحاً و بلغ الخبر يزدجرد فاشتد خوفه و استمد الترك فجاءه الترك و طرخان التركي لنصرته فقال له وزيره خرزاذ إن أمر العرب شيء ظاهر فدعني أصالحهم على مال يدعوا لك بعض ممالك قال افعل فكتب خرزاذ الوزير إلى عبد الله بن عامر يراوده على الصلح عن كور الجبل و خراسان على ثمانين ألف ألف درهم فأراد ابن عامر أن يجيبه إلى ذلك إذ ورد إليه خبر قتل يزدجرد.

مقتل يزدجرد قالوا و لما ورد مرو سب ماهوى مرزبان مرو بما مضى من المسلمين و بالغ في الاستقصاء عليه و أظهر السخط فخافه ماهوى على نفسه و كان ورد ترك طرخان مدداً له فاستخف بهم يزدجرد و طردهم لكلام تكلم به بعضهم فتصدى القوم لمحاربته فواقعهم و هزمهم و خرج في أثرهم فأرسل ماهوى إلى طرخان أن كر عليهم فإني أظاهرك و آتي من ورائه و خرج ماهوى في أساورته و أمر ابنه برار أن يغلق أبواب المدينة دونه كي لا يدخلها فكر على يزدجرد طرخان فولى ظهره يريد المدينة فاستقبله ماهوى فمزقه كل ممزق و انهزم يزدجرد لا يهتدي لوجهه فطرح نفسه في مرغاب ثم اختلفوا في هلاكه فزعم أنه غرق في الماء و زعم آخرون أنه لحقته الخيل فقتلوه و حملوه في تابوت إلى أصطخر و في كتاب خذاي نامه أن يزدجرد انتهى إلى طاحونة بقرية زرق من قرى مرو فقال للطحان أخفني و غم مكاني و لك منطقتي و سواري و خاتمي و كان فيها خراج فارس فقال الرجل إن كرى الطاحونة كل يوم أربعة دراهم فإن أعطيتني أربعة عطلت الطاحونة و إلا فلا فقاتل يزدجرد قد قيل لي أنك تحتاج أربعة دراهم و لا تقدر عليها فبينا هو في مراجعته غشيته الخيل فقتلوه و لم يكن بمرو يومئذ أحد من المسلمين و كان معه ثلاثة آلاف رجل من الحشم منهم ألف أسوار و أبناء الأساورة و ألف مغنٍ و ألف طباخ و فراش و ابنان له فيروز و بهرام و ثلث بنات أدرك و شهره و مرواريد و قتل سنة إحدى و ثلاثين من الهجرة و هو ابن خمس و ثلاثين

سنة و كان ملكه عشرين سنة في تشتت و اضطراب فلما قتل تفرقت الحشم فنزلت الأساورة بلخ و نزل المغنون هراة و أقام القراشون بمرو و بعث ماهوى بخزائنه و ما كان له من الأموال إلى عبد الله بن عامر و بقي ما كان قدمه إلى الصين في أيدي أهله و وجه عبد الله بن عامر الجيوش إلى خراسان فافتتح أميرشهر صلحاً و سار ابن عامر حتى أتى نيسابور فافتتحها صلحاً وبنى في قهندزها الجامع و كتب إلى عثمان فأرسل عثمان أثواباً خلعاً للجامع فكسينه فمنها إلى اليوم شظايا باقية و صالح أهل سرخس على مال و صالح دهقان هراة على مائة بدرة و بعث الأحنف بن قيس إلى قتال الهياطلة و هم أهل جوزجان و بلخ و طخارستان فجاء فصالح أهل مرو و أهل طالقان و صالح كيلان مرو الروذ على ستين ألف درهم و بنى بمرو الروذ قصراً يقال له قصر الأحنف ثم ولى عبد الله بن عامر قيس بن الهيثم السلمي خراسان و توجه محرماً بالحج إلى مكة فلم يعد إلى خراسان و في أيام عثمان افتتح جرير بن عبد الله البجلي الأرمينية و غزا سعيد بن العاص طبرستان و معه الحسن و الحسين ابنا علي عليهم السلم فافتتحها صلحاً و افتتح أبو موسى الأشعري ما بقي من أعمال الري و طالقان و دماوند صلحاً و انتفضت الاسكندرية في أيام عثمان فافتتحها عمرو بن العاص و بعث بسببها إلى المدينة فردهم عثمان إلى ذمتهم لأنهم كانوا صلحاً و لأن الذرية لم تنقض العهد فهذا بدو الشر بين عثمان و عمرو فانتزعه من مصر و أمر عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخاه لأمه فغزا إفريقية و افتتح طرابلس و هي من القيروان على سبعين ميلاً و سار حتى بلغ دمقلة مدينة السودان فأصاب من الأموال ما بلغ سهم الفارس من العين ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار و حدثني هارون بن كامل بمصر قال كان مع عبد الله بن سعد سبعون ألفاً من فارس و راجل و في أيام عثمان غزا معاوية قبرص و أنقرة من أرض الروم فافتتحها صلحاً و كان بعث عثمان معاوية إلى فارس مع عبد الله بن عامر فأصاب من أطرافها فافتتح بعض كورها و نواحيها فهذا ما كان من الفتوح في زمن عثمان بن عفان.

ذكر حصار عثمان حوصر عشرين يوماً و قتل في ذي الحجة سنة خمس و ثلاثين من الهجرة و كان سبب ذلك أن الناس نقموا عليه أشياء فمن ذلك كلفه بأقاربه كما قاله عمر رضي الله عنه كما قاله عمر رضي الله عنه فآوى الحكم بن أبي العاص بن أمية طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم و كان سيره إلى بطن وج و لأنه كان يفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم و يطلع الناس عليه و منها أنه أقطع الحارث بن الحكم مهرقته موضع شرقي المدينة و كان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم إلى المدينة و وصل إلى ذلك الموضع ضرب برجله و قال هذا مصلانا و مستمطرنا و مخرجنا لأضحانا و فطرنا فلا تقضوها و لا تأخنوا عليها كرى لعن الله من نقض من بعض سوقنا شيئاً و منها أنه أقطع مروان بن الحكم فدك قرية صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم و أعطاه خمس الغنائم من إفريقية فقال عبد الرحمن بن حنبل الجمحي

أحلف بالله رب العبا ... د ما ترك الحق شيئاً سدى
و لكن خلقت لنا فتنة ... لكي نبتلى بك أو تبتلى
فما أخذا درهما غيلةً ... و لا أعطيا درهماً في هوى
و أعطيت مروان خمس العباد ... فهيهات شاؤك ممن سعى

و منها أنه أعطى عبد الله بن خالد بن أسيد بن رافع أربعمائة ألف درهم و أعطى الحكم بن أبي العاص مائة ألف درهم و منها أن عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان بأبيه عمر و قتل ابنين لأبي لؤلؤة عليه اللعنة فلم يقده و منها أنه عزل عمال عمر و ولى بني أمية و انتزع عمرو بن العاص عن مصر و استعمل عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح و انتزع سعد بن أبي وقاص عن الكوفة و استعمل الفاسق الوليد بن أبي معيط و هو أخوه لأمه فوقع في الخمر

فشربها و يصلي الصلاة لغير وقتها فصلى بالناس يوماً الفجر أربعاً و هو ثمل فلما انصرف قال أزيدكم فإني نشيط فشغب الناس و حصبوه و فيه يقول الحطيئة

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... ان الوليد أحق بالعذر

نادى و قد تمت صلاتهم ... أ أزيدكم ثملاً و ما يدري

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين

فلما شكاه الناس عزله و استعمل عليهم شراً منه سعيد بن العاص فقدم رجل عظيم الكبر شديد العجب و هو أول من وضع العشور على الجسور و القناطر و منها أن ابن سرح قتل سبعمائة رجل بدم رجل واحد فأمر بعزله و لم ينكر عليه و منها أنه جعل الحروف كلها حرفاً واحداً و أكره الناس على مصحفه و منها أنه سير عامر بن قيس من البصرة إلى الشام لتنزهه عن أعماله و سير أبا ذر الغفاري إلى الربذة و ذلك أن معاوية شكاه أنه يطعن عليه فدعاه و استعتبه و لم يعتب فسيره إلى الربذة و بها مات رحمه الله و منها أنه تزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فأعطاها مائة ألف من بيت المال و أخذ سفطاً فيه حلي فأعطاه بعض نسائه و استسلف من بيت المال خمسة آلاف درهم و كان اشترط عليه عند البيعة أن يعمل بكتاب الله و سنة رسوله و بسيرة الشيخين رضي الله عنهما فسار بها ست سنين ثم تغير كما ذكر و نبرأ إلى الله من عيب الصحابة قدس الله أرواحهم أجمعين و منها أنه لما ولي صعد المنبر فتبسم ذروته حيث كان يقعد رسول الله صله و كان أبو بكر ينزل عنه درجة تعظيما لقدر النبي صله فلما ولي عمر نزل عن مقعد أبي بكر بدرجة فصارت رجلاه في الأرض لأن المنبر درجتان فتكلم الناس في ذلك و أظهروا الطعن فخطب عثمان و قال هذا مال الله أعطيه من أشاء و أمتعه من أشاء فأرغم الله أنف من رغم أنفه فقام عمار بن ياسر فقال أنا أول من رغم أنفه من ذلك فقال له عثمان لقد اجترأت علي يا بن سمية فوثبوا بنو أمية على عمار فضربوه حتى غشي عليه فقال ما هذا بأول ما أوذيت في الله و ضرب عبد الله بن مسعود في مخالفته قرأته فسار الأشتر النخعي قي مائتي راكب من أهل الكوفة و سار حكيم بن جبلة العبدي في مائتي راكب من أهل البصرة و سار عبد الرحمن بن عنبس البلوي و كانت له صحبة في ستمائة راكب من أهل مصر فيهم عمرو بن الحمق و محمد بن أبي بكر حتى نزلوا بذي خشب فرسخاً من المدينة و بعثوا إلى عثمان من يكلمه ويستعتبه فقال ما تنقمون علي فقال ننقم عليك ضربك عماراً قال فو الله ما أمرت به و لا ضربت فهذه يدي بعمارٍ فليقتص قالوا و ننقم عليك إذ جعلت الحروف حرفاً واحداً قال جاءني حذيفة فقال ما كنت صانعاً إذا قيل قراءة فلان و قراءة فلان فيختلفون كما اختلف أهل الكتاب فإن يكن صواباً فمن الله و إن يكن خطاءً فمن حذيفة و قالوا ننقم عليك أنك استعملت السفهاء من أقاربك قال فليقم أهل كل مصر فليسألوني صاحبكم فأوله عليهم فبعث علي رضي الله عنه إلى ذي خشبٍ فأرضاهم وردهم فانصرفوا حتى بلغوا حسمي مر بهم راكب معه كتاب إلى ابن أبي سرح بقتل القوم و لما انصرف الراكب تكلم الناس أمرهم و أرجفوا بالأراجيف فخطب عثمان و قال قد بلغني ما تحدثتم و إنما جاؤوا في صغير من الأمر فقال عمر بن العاص بل جاؤوا في كبير من الأمر و قد ركبت ما بك فابر فإما أن تعتدل و إما أن تعتزل فقال عثمان يا بن النابغة هذا الآن عزلتك عن مصر قالوا و لما أعطي عثمان القوم ما أرادوا قال مروان بن الحكم لحمران بن أبان كاتب عثمان فكان خاتم عثمان مع مروان بن الحكم إن هذا الشيخ قد وهن و خرف وقم فاكتب إلى ابن أبي سرح أن يضرب أعناق من ألب على عثمان ففعلا و بعث الكتاب مع غلام لعثمان يقال له مدس على ناقة من نوقه فمر بالقوم و هم نزول بحسمي فاتهموه و أخذوه و قرروه و أخرجوا الكتاب من إداوة له و انصرفوا إلى المدينة و بدؤوا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنه كان راوضهم و ضمن لهم فجاء علي معهم إلى عثمان فقالوا فعلت و فعلت فأنكر ذلك لعن الله الكاتب و المملي و الآمر به فقالوا فما تظن قال أظن كاتبي غدر و ارتجت المدينة برجوع القوم فحنق بنو مخزوم لضربه عمار و حنق بنو زهرة لحال عبد الله بن مسعود و حنق بنو غفار لمكان

أبي ذر الغفاري و كان أشد الناس طلحة و الزبير و محمد بن أبي بكر و عائشة و خذلته المهاجرون و الأنصار و تكلمت عائشة في أمره واطلعت شعرة من شعر رسول الله صله و نعله و ثيابه و قالت ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم فقال عثمان في آل أبي قحافة ما قال و غضب حتى ما كاد يدري ما يقول فقال عمر بن العاص سبحان الله و هو يريد أن يحقق طعن الناس على عثمان فقال الناس سبحان الله ثم صعد عثمان المنبر و هو يريد أن يتكلم بعهده فقام رجل فشتمه و عابه و قال فعلت و فعلت و عثمان يلتفت

إلى الناس حوله فلا يرد عليه أحد ثم قام الجهجاه بن سنام الغفاري فأخذ القضيب من يده و كسرها فنزل عثمان و حوله ناس من بني أمية و دخل داره فحاصروه عشرين يوماً فلما اشتد الحصار كتب كتاباً و أطلع رأسه من داره و ترسوه بالترسة و قرأه بأعلى صوته إني أنزع عن كل شيءٍ أنكرتموه و أتوب إلى الله عز و جل من كل قبيح علمته كذا و كذا و أحذركم سفك دمي بغير حق فقالوا إن كنت مغلوباً على أمرك فاعتزل و ادفع إلينا مروان فأبى و قال لا أنخلع من قميص قمصنيه الله تعالى و لا أبلكم سعيكم و استأذنوا غلمانه في محاربة القوم فناشدهم أن لا يراق فيه محجمة دم و قال من كف يده فهو حر و كتب إلى علي رضوان الله عليه الناس حوله فلا يرد عليه أحد ثم قام الجهجاه بن سنام الغفاري فأخذ القضيب من يده و كسرها فنزل عثمان و حوله ناس من بني أمية و دخل داره فحاصروه عشرين يوماً فلما اشتد الحصار كتب كتاباً و أطلع رأسه من داره و ترسوه بالترسة و قرأه بأعلى صوته إني أنزع عن كل شيءٍ أنكرتموه و أتوب إلى الله عز و جل من كل قبيح علمته كذا و كذا و أحذركم سفك دمي بغير حق فقالوا إن كنت مغلوباً على أمرك فاعتزل و ادفع إلينا مروان فأبى و قال لا أنخلع من قميص قمصنيه الله تعالى و لا أبلكم سعيكم و استأذنوا غلمانه في محاربة القوم فناشدهم أن لا يراق فيه محجمة دم و قال من كف يده فهو حر و كتب إلى علي رضوان الله عليه

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكلي ... و إلا فأدركني و لما أمزق

أترضى أن يقتل ابن عمك و يسلب ملكك قال علي عليه السلام لا و الله و بعث بالحسن و الحسين إلى بابه يحرسانه فتسور محمد بن أبي بكر مع رجلين في حائط عثمان من دار رجل من الأنصار فأخذه محمد بن أبي بكر بلحيته حتى سمع وقع أضراسه قال ابن عثمان خل يا بن أخي فو الله لو رآك أبوك لساءه مكانك فتراخت يده و ضربه عمرو بن بديل بمشقص في أوداجه و قتله سنان بن عياض و المصحف في حجره لعشر مضين من ذي الحجة سنة خمس و ثلاثين و لبث في داره مقتولاً يوماً أو يومين ثم دفن في موضع يقال حش كوكب قال ابن إسحق قتل يوم الأربعاء لثمان خلون من ذي الحجة و قال حسان بن ثابت فيما يرثيه

خذلته الأنصار إذ حضر المو ... ت و كانت حماته الأنصار

من عذيري من الزبير و من ط ... لحة هذا أمر له إعصار

و قال أيضاً في مرثيته

ضجوا أبا شمط عنوان السجود ب ... ه يقطع الليل تسبيحاً و قرآنا

لتسمعن و شيكاً في ديارهم ... الله أكبر يا ثأرات عثمانا

و قال الوليد بن عقبة

بني هاشم أنا و ما كان بيننا ... كصدع الصفا ما يومض الدهر شاعبه

بني هاشم كيف الترحم بيننا ... و سيف بن أروى عندكم و حرائبه

فأجابه الفضل بن العباس

سلوا أهل مصر عن سلاح أخيكم ... فعندهم أسلابه و حرائبه
و كان ولي الأمر بعد محمد ... علي و قي كل المواطن صاحبه
وقد أنزل الرحمن أنك فاسق ... فما لك في الإسلام سهم تطالبه

ذكر بيعة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه و كان الناس لا يشكون أن ولي الأمر بعد عثمان علي بن أبي طالب و كان يحدو الحادي لعثمان فيقول

إن الأمير بعده علي ... ثم الزبير خلفه مرضي

فلما قتل عثمان جلس طلحة في داره يبايع الناس و كانت مفاتيح بيت المال عنده و جاءه ناس يهرعون إلى علي رضي الله عنه فدخل داره و قال ليس ذاك إليكم ذاك إلى أهل بدر فما بقي بدري إلا أتاه فجاء علي فصعد المنبر فبايعوه و أمر بيوت الأموال فكسرت أغلاقها و جعل يفرقها في الناس بالسوية و يقال أن علياً لما قتل عثمان أرسل إلى طلحة و الزبير أن أحببتما أن أبايعكما بايعت فقالا بل نبايعك فبايعا ثم نكثا و بويع على سنة خمس و ثلاثين و يقال أول من بايعه طلحة و كانت إصبعه شلاء فتطير منها علي و قال يد شلاء و أمر أن لا يتم ما أخلقه أن ينتكث و تخلف من بيعة علي بنو أمية و مروان بن الحكم و سعيد العاص و الوليد بن عقبة ولم يبايعه العثمانية من الصحابة حسان بن ثابت و كعب بن عجرة و كعب بن مالك و النعمان بن بشير و رافع بن خديج و زيد بن ثابت و محمد بن مسلمة ثم بايعوه بعد أيام و كانت عائشة تولب على علي و تطعن فيه و ترى أنه سينخلع و كان هواها في طلحة فبينا هي قد أقبلت من الحج راجعة استقبلها راكب فقال ما وراءك قال قتل عثمان قالت كأني أنظر إلى الناس يبايعون طلحة و أن إصبعه يحسن أيديهم فجاء راكب آخر فقالت ما وراءك قال بايع الناس علياً قالت وا عثماناه ما قتله إلا علي ولليلة من عثمان خير من علي على الدهر كله و انصرفت إلى مكة و ضربت فسطاطاً في المسجد و أراد علي أن ينزع معاوية من الشام فقال له المغيرة بن شعبة أقره على الشام فإنه يرضى بذلك و سأل طلحة و الزبير أن يوليهما البصرة فأبى و قال تكونان عندي أتحمل بكما فإني أستوحش لفراقكما و أستأذناه في العمرة فأذن لهما فقدما على عائشة و عظما من أمر عثمان و قالا ما كنا نرى في التألب عليه أن يقتل فأما إن قتله فلا توبة لنا إلا الطلب بدمه و نقضا البيعة و أقاما بمكة و بث علي عماله فبعث عثمان بن حنيف الأنصاري إلى البصرة و انتزع عنها عبد الله بن عامر و أمر عبيد الله بن العباس على اليمن و نزع عنها يعلى بن منية و أمر قثم بن العباس على مكة و ولى جعدة بن هبيرة المخزومي ابن عمته على خراسان و قال لعبد الله بن عمر سر إلى الشام قالوا و لما بلغ الخبر معاوية قال إن خليفتكم قد قتل مظلوماً وأن الناس بايعوا علياً و لست أنكر أنه أفضل مني و أولى بهذا الأمر و لكن أنا و لي هذا الأمر و ولي عثمان و ابن عمه و الطالب بدمه و قتله عثمان معه فليدفعهم إلي أقتلهم بعثمان ثم أبايعه فرأى أهل الشام أنه قد طلب حقاً و هم قوم فيهم غفلة و قلة فطنة إما أعرابي جاف و إما مدني مغفل ثم لما سمع معاوية بقول عائشة في علي و نقض طلحة و الزبير البيعة ازداد قوة و جرأة و بعثت أم حبيبة بنت أبي سفيان بقميص عثمان مع النعمان بن بشير إلى معاوية فجعل يغري الناس و يحرضهم.

ذكر وقعة الجمل قالوا ولما قدم عثمان بن حنيف البصرة والياً طرد عبد الله بن عامر قدم إلى مكة بخير الدنيا و يعلى بن منية بمال كثير فاجتمعوا عند عائشة و أداروا الرأي بينهم أن يسيروا إلى البصرة فإنهم شيعة عثمان ويطلبوا بدمه و كتب معاوية إلى الزبير إني بايعتك و لطلحة من بعدك فلا تفوتكما العراق و أعانهما ابن عامر و ابن منية بالمال و الظهر و الكراع و خرجوا بعائشة حتى قدموا البصرة فلما بلغوا بحوءب و هو ماء لبني كلاب سمعت عائشة نباح

الكلب فقالت ما هذا قالوا الحوءب قالت إنا لله و إنا إليه راجعون ما أراني إلا صاحبة الحديث قالوا و ما ذاك يا أمتاه قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليت شعري أيتكن تنبح كلاب الحوءب سائرة في كتيبة نحو المشرق و هممت بالرجوع فحلفوا لها أنها ليست بالحوءب فمرت و مر حتى قدموا البصرة فأخذوا عثمان بن حنيف و هموا بقتله ثم خشوا غضب الأنصار على من خلفوا بالمدينة فنالوا من شعره و بشرته و نتفوا لحيته و شعر حاجبيه و أشفاره و قتلوا من خزنة بيت المال خمسين رجلاً فانتهبوا الأموال و قام طلحة و الزبير خطيبين فقالا يا أهل البصرة توبة لحوبة إنما أردنا أن نستعتب أمير المؤمنين و لم نرد قتله و بلغ الخبر علياً فخرج من المدينة واستعمل عليها سهل بن حنيف و سار في سبع مائة رجل منهم سبعون بدرياً و أربع مائة من المهاجرين حتى نزل بذي قار و كتب إلى أهل الكوفة يستنفرهم فجاءه منهم ستة آلاف رجل و كانت الوقعة بالخريبة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست و ثلاثين فبرز القوم للقتال و أقاموا الجمل و عائشة في هودج و اسم ذلك الجمل عسكر فقال علي عليه السلام لا تبدؤهم بالقتال حتى يقتلوا منكم وإن هزموا فلا تأخذوا من أموالهم شيئاً ولا تجهزوا على جريح و لا تتبعوا مدبراً و من ألقى سلاحه فهو آمن فقتلوا من أصحاب علي ستة وشبت الحرب بينهم فخرج علي و دعا الزبير فجاء حتى وقف قال له علي ما جاء بك قال ما أراك لهذا الأمر أهلاً قال له أتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقاتلنك ابن عمتك و هو لك ظالم فانصرف الزبير فجاءه ابنه عبد الله بن الزبير و حثه و احفظه حتى عاد فوقف في الصف ثم سار علي حتى أتى طلحة فقال جئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم و خبأت عرسك في بيتك و استعرت الحرب فقال علي أيكم يعرض هذا المصحف عليهم و يقول هذا بيننا و بينكم فأخذه فتى شاب و تقدم فقطعوا يده و أخذه بيده اليسرى ثم تقدم علي فناشدهم الله عز و جل في دمه فأبوا إلا القتال و ارتجزت بنو ضبة

نحن بني ضبة أصحاب الجمل ... ننزل بالموت إذا الموت نزل

ننعي ابن عفان بأطراف الأسل ... ردوا علينا شيخنا ثم بجل

وارتجزت امرأة منهم

يا رب فاعقل لعلي جمله ... و لا تبارك في بعير حمله

و كان ابن عتاب يقول

أنا ابن عتاب وسيفي ولول ... والموت دون الجمل المجلل

فحمل علي عليهم فانكشفوا و ولى الزبير فتبعه عمار بن ياسر و قال يا أبا عبد الله ما أنت بجبان و لكني أراك شككت قال هو ذاك قال يغفر الله لك فانطلق حتى أتى وادي السباع و ولى طلحة ظهره فرماه مروان بن الحكم بسهم و مروان منهزم فشك ساقه بساقه الأخرى فقتله و قال لأبان بن عثمان قد كفيتك أحد قتلة أبيك و قتل سبعون على زمام الجمل يأخذه واحد بعد واحد و قد شكت السهام الهودج حتى صار كأنه جناح نسر فقال علي عليه السلام ما أراكم يقاتلكم غير هذا الهودج فقال عمار لمحمد بن أبي بكر عليك مقدمه حتى تكون أنت تلقاها و عطف عمار على مؤخر الجمل و هذا الناس مكانه حتى وقف عليه و قال لمحمد بن أبي بكر انظر أحيت هي أم لا فأدخل محمد رأسه في الهودج فقالت من هذا الذي أطلع على حرمة رسول الله صله فقال محمد أبغض أهلك إليك ثم أخرج رأسه و قال ما أصابها إلا خدش لساعدها فقال علي صدق رسول الله صله ثم قال يا هذه استفززت الناس و ألبت بينهم في كلام كثير فقالت يا بن أبي طالب إذا ملكت فاسحج و جاء ابن عباس فقال إنما سميت أم المؤمنين بنا قالت نعم قال أولسنا أولياء زوجك قالت بلى قال فلم خرجت بغير إذننا قالت قضاء و أمر و أمر حذيفة إلى

المدينة و قد روينا أنها قالت لو علمت أن يكون قتال ما حضرت و إنما أردت أن أصلح بين الناس حتى كف بصرها و كانت تقول ليتني كنت نسياً منسياً و لم أحضر الجمل و بعث الزبير إلى الأحنف بن قيس و كان اعتزل الفريقين يخبره بمكانه فسمع به عمرو بن جرموذ فأتاه فلما رآه الزبير و قام إلى الصلاة فأتاه ابن جرموذ من ورائه فضربه بسيفه فقتله و جاء بخاتمه إلى علي عليه السلام فقال علي بشر قاتل ابن صفية بالنار و إنما قال ذلك و الله أعلم لأن الزبير كان راجع و تاب و الباغي إذا ولى حرم دمه و أيضاً فإنه غدر به حيث آمنه ثم قتله و يروى أبيات لابن جرموذ هذا منها

لسيان عندي قتل الزبير ... و ضرطة عير بذي الجحفة

و يقال أنه قتل في وقعة الجمل اثني عشر ألفاً و الله أعلم و دخل علي البصرة و خطبهم فقال يا هل السبخة يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلها ثلاثاً و على الله الرابعة يا جند المرأة يا تباع البهيمة رغا فأجبتم و عقر فانهزمتم أخلاقكم رقاق أعمالكم نفاق و ماؤكم زعاق ثم ولاها عبد الله بن العباس بحر الأمة و ولى مصر قيس بن سعد بن عبادة و ولى خراجها ماهوى دهقان مرو قاتلي يزدجرد و خرج علي إلى الكوفة وفي وقعة الجمل أشعار و قصائد كثيرة فمنها قول بعضهم

شهدت حروبا وشيبتني ... فلم أر يوماً كيوم الجمل

فليت الظعينة في بيتها ... وليتك عسكر لم ترتحل

ذكر صفين و هو موضع بين العراق و الشام و قامت الحرب بين الفريقين أربعين صباحاً قالوا و لما بلغ معاوية خبر الجمل دعا أهل الشام إلى القتال على الشورى و الطلب بدم عثمان فبايعوه أميراً غير خليفة و بعث علي جرير بن عبد الله البجلي رسولاً إلى معاوية يدعوه إلى البيعة فكتب إليه معاوية إن جعلت لي الشام و مصر طعمة أيام حياتك و إن حضرتك الوفاة لم تجعل لأحد بعدك في عنقي بيعة بايعتك فقال علي عليه السلام لم يكن الله عز و جل يراني اتخذ المضلين عضداً و خرج من الكوفة في تسعين ألفاً و جاء معاوية في ثمانين ألف رجل فنزل صفين يسبق علياً إلى شرعة الفرات و أمر أبا الأعور السلمي أن يحميها و يمنع أصحاب علي الماء فبعث علي الأشتر النخعي فقاتلهم و طردهم و غلبهم على الشرعة فأرسل إليه علي لا تنع عباد الله الماء و جرت الرسل و المخاطبات بينهما أياماً ثم ناوشوا القتال أربعين صباحاً كلما وقدت الحرب رفعوا قميص عثمان ويقول معاوية ادعوا لها جوازها حتى قتل سبعون ألفاً خمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق و خمسة و أربعون ألفاً من أهل الشام و كان علي يخرج كل يوم خيلاً قالوا فخرج يوماً عبيد الله بن عمر و كان هرب إلى معاوية خوفاً من قصاص علي و هو يقول

أنا عبيد الله ينميني عمر ... خير قريش من مضى و من غبر

حبر رسول الله و الشيخ الأغر ... قد أبطأت في قصر عثمان مضر

و الربعيون فلا أسقطوا المطر

فناداه علي على ماذا تقاتلني فو الله لو كان أبوك ما قاتلني قال طلبا بدم عثمان بن عفان قال علي عليه السلام و الله يطلبك بدم الهرمزان فخرج إليه الأشتر النخعي و هو يقول

إني أنا الأشتر معروف الشتر ... إني أنا الأفعى العراقي الذكر

و أنت من خير قريش من نفر ... هذر مشائيم من أولاد عمر

فانصرف عبيد الله و كره مبارزته ثم قتل بعد ذلك و خرج عمار فقتله أبو عامر العاملي و قد ذكرت في فصل الصحابة قصته و قيل فيه

يا للرجال لعين دمعها جاري ... قد هاج حزني أبو اليقظان عمار
قال النبي له تقتلك شرذمة ... سيطت لحومهم بالبغي فجار
فاليوم يعلم أهل الشام أنهم ... أصحاب تلك و فيها الخزي و العار

فلما قتل عمار انتبه الناس و كادوا يختلفون على معاوية فقال معاوية إنما قتله علي حيث عرضه للقتل ثم خرج علي فقال علام يقتل الناس بيني و بينك أحاكمك إلى الله عز و جل فأينا قتل صاحبه استقام الأمر له فقال عمرو بن العاص له أنصفك و الله يا معاوية فقال معاوية تعلم و الله أنه لم يبارزه أحد إلا قتله فيزعم قوم أن معاوية قال فابرز أنت يا عمرو فلبس مدرعة ذات فرجين من قدامها ووراءها و بارز علياً فلما حمل عليه و تمكن من ضربه رفع عمرو رجله فبدت عورته فيصرف عنه علي وجهه ويتركه قالوا و خرج يوماً علي في كتيبة و على مقدمته الأشتر النخعي فصدقوهم القتال حتى لم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض و قتلوا منهم جماعة كثيرة و كسفت الشمس و أشرف علي عليه السلام على الفتح فقال عمرو لمعاوية إني لأعلم كلمة لو قلتها لاستقام لك الأمر أفتجعل مصر لي طعمة فقال قد أطعمتك قال مرهم فلينشروا المصاحف ففعلوا و نادى ابن يا أهل العراق بيننا و بينكم كتاب الله ندعوكم إليه فقالوا قد أنصفك معاوية فقال علي عليه السلام و يحكم هذا مكر إنما قاتلناكم ليدينوا بحكم كتاب الله قالوا لابد لنا من الموادعة والإجابة إلى كتاب الله و كان ناشدهم في ذلك الأشعث بن قيس و هو يقول

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خير قرآن
و نادوا علياً يا بن عليه السلام محمد ... أما تتقي أن يهلك الثقلان

قال علي عليه السلام هذا كتاب الله فمن يحكم بيننا فاختار أهل الشام عمرو بن العاص و اختار أهل العراق أبا موسى الأشعري فقال علي عليه السلام هذا ابن عباس فقال الأشعث بن قيس لا نرضى به و الله لا يحكم فينا مضري أبداً فقال الأحنف إن أبا موسى رجل قريب القعر اجعلني مكانه آخذ لك بالوثيقة وأضعك من هذا الأمر بحيث تحب فلم يرض به أهل اليمن و فيه يقول الشاعر

لو كان للقوم يعصمون به ... عند الخطوب رموكم بابن عباس
لكن رموكم بوعر من ذوي يمن ... لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس

فكتبوا القضية على أن يحكم الحكمان بكتاب الله و السنة و الجماعة غير الفرقة فإن فعلا غير ذلك فلا حكم لهما و صيروا الأجل شهر رمضان على أن يجتمع الحكمان في موضع عدلٍ بين الكوفة و الشام و يحكما بذلك القضية فخرج الأشعث بن قيس و جعل يقرؤها على الناس فمر به عروة بن أدية التميمي فسل سيفه و ضرب به عجز دابته و قال تحكمون الرجال و لا حكم إلا لله و فيه يقول الشاعر

أعلى الأشعث المعصب بالتا ... ج شهرت السلاح يا بن أدية

ذكر خروج الخوارج على علي كرم الله وجهه و أمر علي بالرحيل من صفين فما ارتحلوا حتى فشا فيهم التحكيم و رحل معاوية إلى الشام و قد أصاب ما أراد من إيقاع الخلاف و الفرقة بين علي عليه السلام فلما دخل علي الكوفة اعتزله اثنا عشر ألفاً من القراء و زالوا برايتهم حتى نزلوا حروراء و هي قرية من السواد و أمروا على القتال شبث بن ربعي و على الصلاة عبد الله بن الكواء فناظرهم علي عليه السلام ستة أشهر و هم ينادونه جزعت من البلية و رضيت بالقضية و قبلت الدنية لا تحكم إلا الله عز و جل فيقول علي عليه السلام انتظر بكم حكم الله فيقولون لئن أشركت ليحبطن عملك فيقول فاصبر إن وعد الله حق ثم بعث علي عبد الله بن عباس و صعصعة بن صوحان يدعونهم إلى الجماعة فقال علي أنا موادعكم إلى مدة نتدارس فيها كتاب الله عز و جل لعلنا نصطلح فما دوه تسعة

عشر ليلة ثم قال ابعثوا إلى خطباء يقومون بحجتكم فبعثوا فقام علي فحمد الله و أثنى عليه ثم قال لم أكن أحرصكم على هذه القضية و التحكيم و لكنكم و هنتم في القتال و تفرقتم علي و دعاني القوم إلى كتاب الله عز و جل فخشيت أن يتأولوا على قوله تعالى ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم و هم معرضون قالت خطباء الحرورية دعوتنا إلى كتاب الله عز و جل فأجبناك حتى قتلتنا و قتلنا بالجمل و صفين ثم شككت في أمرك الذي تركت و أنت على غيره و لا نرجع إلا أن تتوب و تشهد على نفسك بالضلالة فقال معاذ الله أن أشهد على نفسي بالضلالة و بنا هداكم الله عز و جل و استنقذكم من الضلالة و إنما حكمت الحكمين أن يحكما بكتاب الله عز و جل و السنة الجامعة غير المفرقة فإن حكما بغير ذلك لم يكن علي و لا عليكم و إنما تقع القضية في عام قابل فقالوا نخشى أن يحدث أبو موسى شيئاً يكون كفراً قال فلا تكفروا أنتم العام مخافة كفر عام قابل فرجع بعضهم إلى الجماعة ثم بعث إليهم ابن عباس رضي الله عنه فقال ما نقمتم على ابن عليه السلام رسول الله قالوا ثلاث خصال إحداهن أنه حكم الرجال في دين الله و الله يقول إن الحكم إلا لله و الأخرى أنه غير اسمه من إمارة المؤمنين و إن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين و الثالثة أنه قتل و لم يسب و لم يغنم فإن كانوا كفاراً حل سبيهم و إن كانوا مؤمنين فلم قتلتم فقال ابن عباس رضي الله عنه أما قولكم حكم الرجال في دين الله فإن الله عز و جل قد حكم في أرنب قيمته ربع درهم مسلمين عدلين وحكم في نشوز امرأة مسلمين فأناشدكم الله عز و جل أحكم الرجال في أرنب أفضل أم حكمهم في دماء الأمة و إصلاح ذات البين و أما قولكم أنه قاتل و لم يسب و لم يغنم فإن الله تعالى يقول إن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم و أزواجه أمهاتهم فهل كنتم تسبون أمكم و تستحلون منها ما تستحلون من غيرها و أما قولكم أنه أخرج اسمه من إمارة المؤمنين فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج اسمه يوم الحديبية من النبوة و وَ الله لرسول الله أفضل من علي فرجع منهم ألفان مع عبد الله بن الكواء و أمر الباقون عبد الله بن وهب الراسبي عليهم و أخذوا في الفساد فقال علي عليه السلام دعوهم حتى يأخذوا مالاً و يسفكوا دماً و كان يقول أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال الناكثين و القاسطين و المارقين فالناكثون أصحاب الجمل و القاسطون أصحاب صفين و المارقون الخوارج فوثب الخوارج على عبد الله بن خباب فقتلوه و بقروا بطن امرأته و قتلوا نسوة و ولداناً فقال لهم علي ادفعوا إلينا قتلة إخواننا و أنا تاركككم فثاروا به و ناوشوه القتال فقال علي عليه السلام أن يغلب منهم عشرة و أن يقتل منهم عشرة فكان كذلك و هو يوم النهروان بموضع يقال له رميلة الدسكرة و قتل المخدج ذو الثدية و قد ذكرت هذه القصة في فصل مقالات أهل الإسلام فذكر قوم أنه قتل يوم النهروان أربعة آلاف و قيل جملة من قتل علي من الخوارج بالنهروان و غيره ستون ألفاً فهذا ما كان من أمر الخوارج و قد قال السيد الحميري

إني أدين بما دان الوصي به ... يوم الخريبة من قتل المضلين
و ما به دان يوم النهر دنت به ... و شاركت كفه كفي بصفينا
تلك الدماء معاً يا رب في عنقي ... ثم اسقني مثلها آمين آمينا

خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه و لما قتل عثمان رضي الله عنه بويع علي عليه السلام بيعة العامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم و بايع له أهل البصرة و أهل الكوفة مع أبي موسى الأشعري و بايع طلحة و الزبير بالمدينة و لم يبق أحد إلا بايعه إلا معاوية بالشام في أهلها ثم نكث طلحة و الزبير و خرجا بعائشة إلى البصرة فسار إليهم علي عليه السلام فقاتلهم و هي وقعة الجمل ثم سار إلى أهل الشام بصفين ثم حكموا الحكمين و انصرفوا و خرجت عليهم الخوارج فقتلهم بالنهروان و كان علي بعث قيس بن سعد بن عبادة إلى مصر والياً عليها

فأجهض معاوية بدهائه و مكايدته و لم يكن لعمرو بن العاص التوصل إليها و قد أطعمها إياه معاوية عند تعليمهم التحكيم فاحتالوا في إزالة قيس عنها و ذلك أن معاوية كتب إلى بعض بني أمية أن جزى الله قيس بن سعد خيراً فإنه قد كف عن إخواننا من أهل مصر الذين قاتلوا في دم عثمان و اكتموا ذلك علياً فإني أخاف إن بلغه ذلك عزله فشاع ذلك في الناس فقالوا بدل قيس قال علي عليه السلام معاذ الله قيس لا يبدل فما زالوا به حتى كتب إليه أن اقدم فعلم أنه مكر من معاوية فقال لولا الكذب لمكرت بمعاوية مكراً يدخل عليه بيته و أقبل على علي فبعث علي الأشتر النخعي مكانه فلما انتهى إلى عريش كتب معاوية عليه اللعنة إلى دهقان عريش إن أنت قتلت الأشتر فلك خراجه عشرين سنة فأخرج له سويقاً و جعل فيه سماً فلما شربه الأشتر يبس مكانه فقال معاوية لما بلغه ما أبردها على الفؤاد إن لله جنوداً من عسل و بلغ الخبر علياً فبعث محمد بن أبي بكر إلى مصر مكانه و بعث معاوية عمرو بن العاص إليها فاقتتلا بالمسناة و قتل محمد بن أبي بكر و جعلوا جثته في جيفة حمار و أحرقوه بالنار.

ذكر الحكمين و كان ذلك بعد صفين بثمانية أشهر و اجتمع أبو موسى الأشعري و عمرو بن العاص للتحكيم بموضع يقال له دومة الجندل بين مكة و الكوفة و الشام و أحضروا جماعة من الصحابة و التابعين منهم عبد الله بن عمر و عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث و المسور بن مخرمة في صلحاء أهل المدينة و بعث علي ابن عباس من الكوفة في جماعة فقال ابن عباس لأبي موسى أنك قد رميت بحجر الأرض و داهية العرب فمهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر و عمر و عثمان و ليست فيه خصلة واحدة تباعده من الخلافة وليس في معاوية خصلة واحدة تدانيه من الخلافة فلما اجتمع أبو موسى و عمرو للحكومة ضربا فسطاطاً و قال عمرو يجب أن لا نقول شيئاً إلا كتبناه حتى لا نرجع عنه فدعيا بكاتب و كان قال عمرو قبل ذلك ابدأ باسمي فلما أخذ الكاتب الصحيفة و كتب بسم الله الرحمن الرحيم بدأ باسم عمرو فقال له عمرو أمحه و ابدأ باسم أبي موسى فإنه أفضل مني و أولى بالتقديم و كانت خديعة منه ثم قال ما نقول يا أبا موسى في قتل عثمان قال قتل و الله مظلوماً قال عمرو أكتب يا غلام ثم قال يا أبا موسى إن إصلاح الأمة و حقن الدماء و إبقاء الذماء خير مما وقع فيه علي و معاوية فإن رأيت أن نخرجهما و يستخلف على الأمة من يرضى المسلمون به فإن هذا أمانة عظيمة في رقابنا قال لا بأس بذلك قال عمرو أكتب يا غلام ثم ختما على ذلك الكتاب و قاما ذلك اليوم و قد تطاول النهار و سيم الكلام و قد ظفر عمرو بما أراد من إقرار أبي موسى بقتل عثمان ظلماً و إخراج علي و معاوية من الأمر فلما كان من الغد و قعدا للنظر قال عمرو يا أبا موسى قد أخرجنا علياً و معاوية من هذا الأمر فسم له ما شئت قال أسمي الحسن بن علي قال عمرو تراه تخرج أباه من الأمر و تجلس مكانه ابنه قال فعبد الله بن عمر قال هو أورع من أن يدخل في شيء من هذا و سمى أبو موسى عدة لا يرضيهم عمرو ثم قال سم أنت يا أبا عبد الله قال معاوية بن أبي سفيان قال ما هو أهل لذلك فابني عبد الله بن عمرو فعرف أبو موسى أنه يتلعب به فقال أفعلتها لعنك الله إنما مثلك كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فقال له عمرو بل أنت لعنك الله إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً ثم قال عمرو إن هذا قد خلع صاحبه و أخرج عمرو خاتمه و أنا أيضا خلعته كما خلعت هذا الخاتم من يدي ثم أدخل خاتمه في يده الأخرى و قال أدخلت معاوية في الأمر كما أدخلت خاتمي في يدي و قال قوم خلع علياً و لم يدخل معاوية حتى أتى الشام ثم ركب أبو موسى راحلته إلى مكة و ركب عمرو إلى الشام و فيه يقول الشاعر

أبا موسى بليت و كنت شيخا ... قريب القعر مجرور اللسان
رمى عمرو صفاتك يا بن قيس ... بأمر لا تنوء به اليدان
فأعطيت المقادة مستجيبا ... فيا لله من شيخ يمان

و لما قدم عمرو الشام ولي عمرو الشام و بايعوه الناس و بلغ الخبر علياً فقال كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فمن دعا إليها فاقتلوه و عزم على المسير إلى معاوية و بايعه ستون ألفاً على الموت فشغلته الخوارج و قتالهم إلى أن قتل رضوان الله عليه و أخذ معاوية في تسريب السرايا إلى النواحي التي تليها عمال علي عليه السلام و شن الغارات و قتل الرجال و نهب الأموال و بعث بسر بن أرطاة إلى المدينة و على المدينة أبو أيوب الأنصاري فنحي عنها و صعد بسر المنبر و توعد أهل المدينة بالقتل حتى أجابوا إلى بيعة معاوية و أتى مكة و بها عبد الله بن العباس فهابه و خرج نحو علي و قتل بسر جماعة من شيعة علي عليه السلام و أخذ ابنين صغيرين لعبد الله بن عباس فقتلهما في حجر أمهما و فيهما تقول أمهما

ها من أحس بنيي اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف

ها من أحس بنيي اللذين هما ... سمعي و عيني فقلبي اليوم مختطف

نبيت بسراً و ما صدقت ما زعموا ... من قولهم و من الكذب الذي وصفوا

و بلغ الخبر علياً فبعث في إثره جارية بن قدامة ففاته و لم يدركه و كان لبسر هذا ابنان بأوطاس فخرج إليهما رجل من قريش فقتلهما و قال فيهما

ما قتلتهما ظلماً فقد شرفت ... من صاحبينك قناتي دون أوطاس

فاشرب بكأس ذوي ثكل كما شربت ... أم الصبيين أو ذاق بن عباس

مقتل علي عليه السلام قالوا تعاقد ثلاثة نفر من الخوارج على قتل علي رضي الله عنه و معاوية و عمرو بن العاص منهم عبد الرحمن بن ملجم عليه لعائن الله تترى مرة بعد أخرى قال أنا أقتل علياً و البرك قال أنا أقتل معاوية عليه اللعنة و داود مولى لبني العنبر قال أنا أقتل عمرو بن العاص فاجتمعوا بمكة و شروا أنفسهم على أن يريحوا العباد من أئمة الضلال و مضوا لطيتهم فأما داود فأتى مصر و دخل المسجد و قام في الصلاة فخرج خارجة بن حذافة و كان على شرطة عمرو و عمرو يشتكي فضربه داود فقتله و هو ظنه عمراً فقال عمرو أردت عمراً و الله يريد خارجة فذهبت مثلا و أخذوا داود به فقتل و أما البرك و اسمه الحجاج فإنه مضى إلى الشام و دخل المسجد فخرج معاوية فافتتح الصلاة فضربه البرك و كان معاوية عظيم العجز فأصابت الضربة فقطعت منه عرقاً انقطع منه الولد فأخذ البرك فقطعت يداه و رجلاه و خلي عنه فعاش و قدم البصرة و نكح امرأة فولدت له فلما كان في أيام زياد بن أبيه أخذه فقال يولد لك و لم يولد لمعاوية فضرب عنقه و أما ابن ملجم عليه لعنة الله فإنه أتى الكوفة و جعل يختلف إلى علي عليه السلام و علي يلاطفه و يواصله و يتوسم فيه الشر و فيه يقول

أريد حياته و يريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

قالوا و شعف ابن ملجم عليه اللعنة بامرأة يقال لها قطام من الخوارج فخطبها فقالت الصداق قتل علي و كذا و كذا و كان قتل أباها و أخاها بالنهروان فضمن لها ذلك و سم سيفه و شحذه و جاء فبات تلك الليلة بالمسجد هو و روي عن الحسن بن علي عليهما السلام أنه قال لما أصبح اليوم الذي ضربه الرجل فيه فقال لقد سنح لي الليلة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك قال ادع الله أن يريحك منهم قالوا و دخل علي المسجد و نبه النيام فركل ابن ملجم برجله و هو ملتف بعباءة و قال له قم فما أراك إلا الذي أظنه و افتتح ركعتي الفجر فأتاه ابن ملجم عليه لعائن الله فضربه على صلعته حيث وضع النبي صلى الله عليه وسلم يده و قال أشقى الناس أحيمر ثمود و الذي يخضب هذه من هذه و روي أنه كان ضربه عليه عمرو بن عبد ودٍ يوم الخندق و لم يبلغ الضربة مبلغ القتل و لكن عمل فيه السم فثار الناس إليه و قبضوا عليه فقال علي لا تقتلوه فإن عشت رأيت فيه

رأياً و إن مت فشأنكم به فعاش ثلاثة أيام ثم مات يوم الجمعة لسبع عشرة من رمضان و هو اليوم الذي أوحى فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم و اليوم الذي فتح الله عليه بدراً فقتل ابن ملجم عليه لعنة الله و دفن علي رضي الله عنه و اختلفوا أين دفن فقال قوم دفن بالغري و قال قوم دفن بالكوفة و عمي مكانه و قال قوم جعل في تابوت و حمل على بعير يريدون المدينة فأخذه طيء و هم يظنونه مالا فلما رأوا الميت دفنوه عندهم و الله أعلم و مما رثي به عليه السلام قول أم الهيثم بنت أبي الأسود الدؤلي

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا

أفي الشهر الحرام فجعتمونا ... بخير الناس طراً أجمعينا

رزئنا خير من ركب المطايا ... و خيسها و من ركب السفينا

و قيل في ابن ملجم و قصته

فلم أر مهراً ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام بين غير مبهم

ثلاثة آلاف و عبد و قينة ... و قتل علي بالحسام المسمم

فلا مهر أغلى من علي و إن علا ... و لا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

و يقول عمران بن حطان في ابن ملجم لعنهما الله

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوما فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

و روي أن علياً عليه السلام كان يقنت على معاوية إلى أن مات و معاوية يلعن علياً و ولده و كتب الوليد بن عقبة الفاسق إلى معاوية يهنئه بقتل علي رضوان الله عليه

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فإنك من أخي ثقة مليم

قطعت الدهر كالسدم المعنى ... تهدر في دمشق فما تريم

ليهنئك الإمارة كل ركب ... بأنضاء العراق لها رسيم

فإنك و الكتاب إلى علي ... كدابغة و قد حلم الأديم

و كانت خلافة علي عليه السلام خمس سنين لم يتفرغ إلى أن يحج بنفسه شغلته الحروب.

خلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما ثم بويع الحسن بن علي رضي الله عنهما بالكوفة و بويع معاوية بالشام في مسجد إيليا فقدم الحسن قيس بن سعد في اثني عشر ألفاً للقاء معاوية و جاء معاوية حتى نزل جسر منبج و خرج الحسن حتى ساباط المدائن في أربعين ألفاً قد بايعوا على الموت و أحبوه أشد من حبهم لأبيه فأغذ السير حتى إلى مسكن من أرض الكوفة في عشر ليالٍ و رجلان يقرآن القرآن عن يمينه و عن شماله و فيه يقول كعب بن جعيل من جسر منبج أضحى غب عاشره ... في نخل مسكن تتلا حوله السور

و قدم معاوية بسر بن أرطاة فكانت بينه و بين قيس مناوشة ثم تحاجزوا ينتظرون الحسن قالوا و نظر الحسن ما يسفك من الدماء و ينتهك من المحارم فقال لا حاجة لي في هذا الأمر و قد رأيت أن أسلمه إلى معاوية فيكون في عنقه تباعة هذا الأمر و أوزاره فقال له الحسين أنشدك الله أن تكون أول من عاب أباه و رغب عن رأيه فقال الحسن لتتابعني على ما أقول أو لأنشدنك في الحديد حتى أفرغ منه فقال له الحسين فشأنك به و إني لكاره فقام الحسن رضي الله عنه خطيباً فذكر رأيه و إئثاره السلامة فقال الناس هو خالع نفسه لمعاوية فشق عليهم ذلك و قد بايعوه على الموت فثاروا به و قطعوا عليه كلامه و خرقوا عليه سرادقه و طعنه رجل في فخذه أشوته و انصرفوا عنه

إلى الكوفة فحمل الحسن إلى المدائن و قد نزف دمه فعولج و بعث إلى معاوية يذكر تسليمه الأمر إليه فكتب إليه معاوية أما بعد فأنت أولى بهذا الأمر و أحق به لقرابتك و كذا و كذا و لو علمت أنك أضبط له و أحوط على حريم هذه الأمة و أكيد للعدو لبايعتك فاسأل ما شئت و بعث بصحيفة بيضاء مختومة في أسفلها أن اكتب فيها ما شئت فكتب الحسن أموالاً و ضياعاً لشيعة علي و أشهد على ذلك شهوداً من الصحابة و كتب في تسليم الأمر كتاباً على أن يعمل بكتاب الله و سنة نبيه و سيرة الخلفاء الماضين و أن لا يعهد بعده إلى أحد و يكون الأمر شورى و أصحاب علي آمنين حيثما كانوا و قيس بن سعد نازل و على منازلته عازم فبعث إليه معاوية على طاعة من تنازعني و قد بايعني صاحبك و بعث إليه بصحيفة بيضاء و وضع خاتمه أسفلها و قال سل ما شئت فلم يسأل قيس غير الأمان له و لمن معه فآمنهم و انصرفوا و التقى معاوية مع الحسن على منزل من الكوفة فدخلا الكوفة معاً ثم قال يا أبا محمد نعرض به لقد جدت بشيءٍ لا تجود بمثله نفوس الرجال فقم و أعلم الناس ذلك فقام الحسن فحمد الله و أثنى عليه ثم قال أيها الناس لو طلبتم ما بين جابلق إلى جابلص رجلاً جده رسول الله ما وجدتموه غيري و غير أخي و أن الله تعالى هداكم بأولنا و حقن دماءكم بآخرنا و إن معاوية نازعني حقاً لي دونه فرأيت أن أمنع الناس الحرب و أسلمه إليه و إن لهذا الأمر مدة و تلا و إن أدرى لعله فتنة لكم و متاع إلى حين فلما تلا الحسن هذه الآية خشي معاوية الاختلاف فقال له معاوية اقعد ثم قام خطيبا فقال كنت شروطاً في الفرقة أردت بها نظام الألفة و قد جمع الله كلمتنا و أزال فرقتنا و كل شرط شرطته فهو مردود و كل وعد وعدته فهو تحت قدمي هاتين فقام الحسن فقال إلا وأني اخترت العار على النار ليلة القدر خير من ألف شهر و سار إلى المدينة و قام بها إلى أن مات سنة سبع و أربعين من الهجرة رضوان الله عليه و كانت خلافته خمسة أشهر و يقال ستة أشهر و صحت رواية سفينة عن النبي صله الخلافة بعدي ثلاثون ثم يكون الملك و روى الحسن عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم إن ابني هذا سيد و سيصلح به بين فئتين.

الجزء السادس

القصل الحادي و العشرون

في ولاية بني أمية إلى آخر أيامهم

على الاختصار و ما كان فيه من فتنة ابن الزبير و المختار بن أبي عبيد

ولاية معاوية بن أبي سفيان و صار الأمر إلى معاوية سنة أربعين من الهجرة و كان ولي لعمر و عثمان عشرين سنة و لما سلم الحسن الأمر إليه ولى الكوفة المغيرة بن شعبة و ولى البصرة و خراسان عبد الله بن عامر بن كريز و ولى المدينة مروان بن الحكم و انصرف معاوية إلى الشام و في هذه السنة افتعل المغيرة كتاباً من معاوية إلى أهل الموسم في الإمارة و حج بالناس فوقف يوم التروية و نحر يوم عرفة خوفاً أن يفطن الناس بكتابه ثم نزع معاوية عبد الله بن عامر عن البصرة و ولاها زياد بن أبيه ثم لما مات بن شعبة جمع له العراقين و هما الكوفة و البصرة و هو أول من جمع العراقان.

قصة زياد بن أبيه قالوا أن معاوية أول من ادعى إلى غير أبيه فادعى زياداً أخاً من جلده و نفاذه و زياد هو ابن عبيد من ثقيف و أمه سمية و قد قال الحسن و الشعبي أن سرك أن لا تكذب فقل زياد بن أبيه و فيه يقول ابن المفرغ العبد للعبد لا أصل و لا شرف ... ألوت به ذات أظفارٍ و أنياب

و كان زياد كاتباً للمغيرة بن شعبة ثم كتب لأبي موسى الأشعري ثم كتب لابن عامر ثم كتب لابن عباس ثم كتب لعلي بن أبي طالب عليه السلام و كان له من الولد ثلاثة و أربعون منهم عشرون ذكراً و ثلاث و عشرون أنثى و مات زياد بالكوفة سنة ثلاث و خمسين من الهجرة و ذلك أنه كان غشوماً ظلوماً هصوماً جبى العراق مائة ألف ألف و جعل يخطب الحجاز و يهدد أهله بالقتل و كتب إلى معاوية إني قد ضبطت العراق بيميني و شمالي فارغة فضم إليه الحجاز فاجتمع أهل المدينة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم و دعوا عليه فخرجت في يده الآكلة فشغله عن ذلك و كان يناله من علي عليه السلام فضربه النقاد ذو الرقبة يعنى الفالج فقتله بالكوفة.

موت المغيرة بن شعبة وقع الطاعون بالكوفة فهرب المغيرة بن شعبة ثم لما سكن عاد فطعن فمات فقال أعرابي

ارسم ديار للمغيرة تعرف ... عليه دواني الإنس و الجن تعزف

فإن كنت قد لاقيت هامان بعدنا ... و فرعون فاعلم أن ذا العرش منصف

وفاة عمرو بن العاص و مات عمرو بن العاص بمصر يوم الفطر فصلى عليه ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص ثم صلى بالناس صلاة العيد و خلف عمرو من المال ثلاثمائة ألف دينار و خمسة و عشرين ألف دينار و من الغلة ما يبلغ ارتفاعها في السنة مائتى ألف دينار و من الورق ألفي ألف درهم و فيه يقول الشاعر

ألم تر أن الدهر أذكى عيونه ... على عمرو السهمي تجبى له مصر

و لم يغن عنه كيده و احتياله ... و حيلته حتى أتيح له الدهر

قالوا و ولى معاوية خراسان الحكم بن عمرو الغفاري و كانت له صحبة و افتتح جبال الغور و مات بمرو ثم ولاها عبيد الله بن زياد فغزا طخارستان و ملكتها فتح خاتون فقاتلها و هزمها و انتهب مملكتها سبعاً ثم صارت إلى الصلح فصالحها على مال و خلى لها ملكها و نواحيها ثم غزا ما وراء النهر و أغار على بخارا و غنم منها غنائم كثيرة و عاد إلى البصرة ثم ولاها سعيد بن عثمان بن عفان و غزا ما وراء النهر و صالح أهل سمرقند على أن يدخل باباً من أبوابها و يخرج من الآخر و أخذ منهم رهائن أن لا يغدروا به فدخل و خرج و انصرف بالرهائن و غدر بهم و حملهم إلى المدينة و جعل يستغلهم في النخيل و الطين و هم أولاد الدهاقين و أرباب النعم فلم يطيقوا ذلك العمل و سئموا عيشهم فوثبوا عليه في حائط له فقتلوه ثم قتلوا أنفسهم بالحبل خنقاً ثم ولاها أسلم بن زرعة و كان غشوماً ظلوماً فأخذ أهل مرو بأن يكفوا عنه نقيق الضفاضع فأخبروه بأن ذلك غير ممكن فضاعف عليهم الخراج مائة ألف درهم و في أيام معاوية افتتح من الروم روذوس و هو على يومين من القسطنطينية و أقام المسلمون بها سبع سنين و افتتح من خراسان سمرقند و كش و نسف و بخارا و افتتح الربيع بن زياد الحارثي بلخ و ما يليها و كان والياً من عند معاوية فمات بمرو فلما حج معاوية جاءه الحسن و الحسين وابن عباس رضي الله عنهم و سألوه أن يفي لهم بما ضمن فقال أما ترضون يا بني هاشم أن نوفر عليكم دماءكم و أنتم قتلة عثمان و لم يعطهم مما في الصحيفة شيئاً.

وفاة الحسن بن علي رضي الله عنهما

و توفي الحسن في سنة تسع و أربعين و هو ابن سبع و أربعين سنة و اختلفوا في سبب موته فزعم قوم أنه زج ظهر قدمه في الطواف بزجٍ مسمومٍ و قال آخرون أن معاوية دس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس بأن تسم الحسن و يزوجها يزيد فسمته و قتلته فقال لها معاوية إن يزيد منا بمكان و كيف يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله و عوضها منه مائة ألف درهم و في أيام معاوية ماتت عائشة رضي الله عنها وأم سلمة و أبو هريرة و سعد بن أبي وقاص و عبد الله بن عمر و أبو أيوب الأنصاري بالقسطنطينية و كان معاوية قد أذكى العيون على شيعة علي عليه السلام يقتلهم أين أصابهم فقتل حجر بن عدي و عمرو بن الحمق في جملة من قتل و قال سعيد بن المسيب أن

معاوية أول من غير قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم و أول من خطب قاعداً لأنه كان بطيناً بادناً و أول من قدم الخطبة على الصلاة خشي أن ينفرق الناس عنه قبل أن يقول ما بدا له و أول من نصب المحراب في المسجد و توفي و له من الأموال التي استصفاها من مال كسرى و قيصر خمسون ألف ألفَ درهم.

أخذ البيعة ليزيد بن معاوية ثم دعا الناس إلى بيعة يزيد فأول من بايع يزيد معاوية و كتب إلى مروان بن الحكم بأخذ بيعة أهل المدينة ليزيد عليه اللعنة فغضب مروان إذ لم يجعل إليه الأمر فسار إلى الشام فكلمه و جعله ولي عهد يزيد بعده و رده إلى المدينة فامتنع أهل المدينة من بيعته فجاء معاوية حاجاً في ألف فارس إلى المدينة و تلقاه الحسين و عبد الرحمن بن أبي بكر و عبد الله بن الزبير فسلموا عليه فلم يرد جواب سلامهم و أغلظ بهم في القول و عنف و ذلك حيلة منه فتوجه القوم إلى مكة لما رأوا من جفائه و دخل معاوية المدينة و لم يبق بها أحد لم يبايعه و أخذ بيعة أهلها ليزيد و فرق فيهم أموالاً عظيمةً ثم خرج إلى مكة فتلقاه الحسين بن علي فلما وقع بصره عليه قال مرحباً بابن رسول الله و سيد شباب أهل الجنة دابةً لابن عبد الله ثم طلع عليه عبد الله بن الزبير فقال مرحباً بابن حواري رسول الله و ابن عمته دابةً لأبي خبيب ثم كذلك كلما طلع عليه طالع حياه و أمر له بدابةٍ وصلةٍ ثم دخل مكة و هداياه و جوائزه يروح عليهم و يغدو حتى أنماهم الأموال ثم أمر برواحله فعلقت بباب المسجد و جمع الناس و أمر بصاحب حرسه أن يقيم على رأس كل رجل من الأشراف رجلاً بالسيف و قال إن ذهب واحد منهم إلى أن يراجعني في كلامي فاضربوا عنقه ثم صعد النبر و خطب فقال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين و خيارهم و لا يبتز أمر دونهم و لا يقضى أمر عن غير مشورتهم و قد بايعوا يزيد فبايعوه بسم الله فأما الأشراف فلم يكن يمكنهم تكذيبه و مراجعته و أما سائر الناس فلا جرأة لهم على الكلام و لا علم لهم بشيء مما يقول فأخذ البيعة و ركب رواحله و ضرب إلى الشام و كان يقول لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي و فيه يقول بعضهم

فإن تأتوا برملة أو بهند ... نبايعها أميرة مؤمنينا

إذا ما مات كسرى قام كسرى ... بنوه بعده متناسقينا

خشينا الغيظ حتى لو سقينا ... دماء بني أمية ما شفينا

وفاة معاوية رضي الله عنه و مات معاوية بدمشق سنة ستين وهو ابن ثمانين سنة و كان رجلاً طوالاً جسيماً بادناً أبيض جميل الوجه إذا ضحك انقلبت شفته العلياء و بايع أهل الشام يزيد بن معاوية على الوفاء بما أخذ له معاوية من بيعتهم.

بيعة يزيد بن معاوية عليه اللعنة قالوا مات معاوية و على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان و على العراق عبيد الله بن زياد فلما ورد نعي معاوية قال مروان بن الحكم للوليد بن عتبة أبعث إلى الحسين بن علي و عبد الله بن الزبير فإن بايعا وإلا فاضرب أعناقهما فاستدعاهما في جوف الليل و نعى إليهما معاوية و أخذهما بالبيعة ليزيد فقالا حتى نصبح و انصرفا من عنده و خرجا من تحت الليل إلى مكة و أبيا أن يبايعا و بلغ أهل الكوفة تلكؤ الحسين في بيعة يزيد فكتبوا إلى الحسين في القدوم عليهم و بعثوا بحمل بعير و كتبوا البيعة فأرسل الحسين مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليأخذ البيعة من أهلها فجاء حتى نزل على هانئ بن عروة و اجتمع إليه خلق كثير من الشيعة يبايعون الحسين و خرج الحسين بأهله و ولده و بلغ الخبر عبيد الله بن زياد عليه اللعنة و هو بالبصرة فهم إلى الكوفة فسار إليه الشيعة و قاتلوه حتى دخل قصره و أغلق بابه فلما كان عند المساء و تفرق الناس عن المسلم بن عقيل بعث عبيد الله بن زياد خيلاً في خفية فقبضوا على مسلم و على هانئ و رفعوا مسلما بين شرف القصر و قتل أدناه من العضادة ثم ضربوا عنقه و فيه يقول

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانئ في السوق و ابن عقيل
ترى رجلاً قد جدع السيف أنفه ... و آخر يهوي من طمارٍ قتيل
ترى جسداً قد غير الشمس لونه ... ونضح دم قد سال كل مسيل

مقتل أبي عبد الله الحسين بن علي رضي الله عنهما و لما بلغ الحسين قتل مسلم بن عقيل هم بالرجوع إلى المدينة فبعث إليه عبد الله بن زياد الحر بن يزيد التميمي في ألف فارس فلقي الحسين بزبالة فقال له الحسين لم آتكم حتى انتهت إلي كتبكم فإن كان رأيكم على غير ما نطقت به كتبكم انصرفت فقال الحر بن يزيد إني لم أؤمر بقتالك و لكن أمرت أن لا أفارقك حتى تقدم الكوفة فإذا أتيت فخذ طريقاً يدخلك الكوفة و لا نزول إلى المدينة حتى أكتب إلى ابن زياد فانثنى الحسين عن طريق العذيب و الحر بن زياد يسايره حتى انتهى إلى الغاضرية فنزل بها و هو يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم سنة إحدى و ستين و قدم عليه يوم الجمعة عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف و زعم قوم أن عبيد الله بن زياد قال له إن قتلت الحسين فلك عمل الري و بعث معه بشر بن ذي الجوشن و قال إن لم يقتله فاقتله و أنت على الناس فنزلوا بين نهري كربلا وجرت الرسل بينهم و بين الحسين و منعوه و من معه الماء أن يشربوا فقال الحسين لعمر بن سعد اكتب إلى صاحبك فاعرض أن أرجع إلى الموضع الذي أقبلت منه أو آتي ثغراً من ثغور المسلمين إلى أن ألحق بالله عز و جل أو يبعث بي إلى يزيد بن معاوية فيرى في رأيه فإن الرحم تمنعه قتلي فكتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد بذلك فلم يقبل من ذلك شيئاً و قال لا إلا أن ينزل على حكمي فقال الحسين و الله لا أنزل على حكم مرجانة أبداً يعني عبيد الله بن زياد و ناهضهم القتال يوم عاشوراء و هو يوم الجمعة و معه تسعة عشر إنساناً من أهل بيته و انحاز إليه الحر التيمي تائباً من ذنبه فقاتل معه فقتل الحسين عطشان و قتل معه سبعة من ولد علي عليه السلام و ثلاثة من ولد الحسين و تركوا علي بن الحسين و هو علي الأصغر لأنه كان مريضاً فمنه عقب الحسين عليه السلام إلى اليوم و قتلوا من أصحابه سبعة و ثمانين إنساناً و زعم قوم الحسين رضي الله عنه قتل بعدما قتل منهم عدة و لولا الضعف الذي أدركه من العطش لكان يأتي على أكثرهم قالوا فرماه الحصين بن تميم في حنكه و ضرب زرعة بن شريك كفه و طعنه سنان بن أنس بالرمح ثم نزل فاجتز رأسه وأوطأ الخيل جثته و ساقوا علي بن الحسين مع نسائه و بناته إلى عبيد الله بن زياد فزعموا أنه وضع رأس الحسين في طست و جعل ينكت في وجهه بقضيب و يقول ما رأيت مثل حسن هذا الوجه فقط فقال أنس بن مالك أما أنه كان يشبه النبي صلى الله عليه وسلم ثم بعث به وبأولاده إلى يزيد بن معاوية فذكر أن يزيد أمر بنسائه و بناته فأقمن بدرجة المسجد حيث توقف الأسارى لينظر الناس إليهن و وضع رأسه بين يديه و جعل ينكت بالقضيب في وجهه و هو يقول
ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا و استهلوا فرحاً ... و لقالوا يا يزيد لا تسل
فقام أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه فقال أما و الله لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذاً لربما رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يرشفه و قتل الحسين عليه السلام سنة إحدى و ستين من الهجرة يوم عاشوراء و هو يوم الجمعة و كان بلغ من السن ثمانياً و خمسين سنة و كان يخضب بالسواد رضي الله عنه ثم بعث يزيد عليه اللعنة بأهله و بناته إلى المدينة و رثته ابنة عقيل بن أبي طالب
ماذا تقولون أن قال المليك لكم ... ماذا فعلتم و أنتم آخر الأمم
بعترتي و بأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى و قتلى ضرجوا بدمي

قال و سمع أهل المدينة ليلة قتل الحسين في نهارها هاتفاً يهتف

مسح الرسول جبينه ... فله بريق في الخدود

أبواه من عليا قريش ... و جده خير الجدود

و اعلم أن للروافض في هذه القصة من الزيادات و التهاويل شيئاً غير قليل و في مقدار ما بيناه سقط كثير لأن من الناس من ينكر أن يكون يزيد أمر بقتله أو رضي به و الله أعلم بذلك قصة عبد الله بن الزبير بن العوام و هو ابن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم و أول مولود ولد بالمدينة في الإسلام . قالوا و لما بويع يزيد تلكأ الحسين و عبد الله بن الزبير عن بيعته و لحقا بمكة فأما الحسين فخرج إلى الكوفة حتى استشهد بكربلا و أما عبد الله بن الزبير فامتنع بمكة و لاذ بالكعبة و دعا الناس إلى الشورى و جعل يلعن يزيد و سماه الفاسق المتكبر و قال لا يرضى الله بعهد معاوية إلى يزيد و إنما ذاك إلى عامة المسلمين فأجابه الناس إلى ذلك و رأوا الحق فيه و أظهر ابن الزبير التألد و التنسك و جعل يصوم و يصلي حتى أثر فيه و مال الناس إليه و كتب إلى أهل المدينة أن اخرجوا بني أمية من أظهركم فأخرجوهم و بلغ الخبر يزيد فبعث مسلم بن عقبة المرى في جيش كثيف و جعل يرتجز

أبلغ أبا بكر إذا الجيش سرى ... و مرت الخيل على وادي القرى

عشرين ألف بين كهل وفتى ... أجمع نشوان من القوم ترى

وقعة الحرة قال فجاء مسلم بن عقبة فأوقع بالمدينة و قتل أربع آلاف رجل من أفناء الناس و سبعين رجلاً من الأنصار و بقر عن بطون النساء و أباح الحرم و أنهب المدينة ثلاثة أيام و بايعهم على أنه فيء ليزيد و جعل يفعل فيهم ما شاء و كانت الوقعة بالحرة و هي ضاحي المدينة و بتلك سميت الحرة و سموا مسلم بن عقبة مسرف بن عقبة و كان يسمى ابن الزبير الملحد و قد قال محمد بن أسلم الساعدي

فإن يقتلونا يوم حرة واقمٍ ... فنحن على الإسلام أول من قتل

ثم سار مسلم نحو مكة يريد ابن الزبير فطعن بقديد لدعوة أهل المدينة و استخلف على الجيش الحصين بن نمير اليشكري أوصاه يزيد بذلك و قال له يا برذعة الحمار لولا أن أمير المؤمنين أمرني باستخلافك ما استخلفتك فإذا أنا مت فامض بالجيش عني حتى تواقى الملحد و لا تجعل أذنك قمعاً لقريش فأنهم سحرة بالكلام و لكن عليك إذا وافيت بالوقاف ثم النقاف ثم الانصراف و مات مسرف فسار الحصين حتى أتى مكة و حاصر ابن الزبير أياماً و رمى بالمنجنيق و النفاطات الركن فأحرق الأستار فبعث الله على أصحاب المنجنيق صاعقة فأحرقت منهم بضعة عشر رجلاً و كان المختار بن أبي عبيد الثقفي بايع ابن الزبير على أن لا ينفرد برأي و لا يقضي أمراً دونه فوجه المختار إلى الحصين و قاتله فردهم عن مكة فبيناهم كذلك إذ أتاهم نعي يزيد فانصرفوا إلى الشام و كان يزيد ولى سلم بن زياد بن أبيه خراسان و سجستان فغزا ما وراء النهر و امرأة تملك بخاراً يقال لها خاتون فكتبت إلى طرخان ملك الترك تستمده و تستجده على أن تزوجه نفسها و جاء طرخان في جيش عظيم من الترك و السغد و ناهضهم القتال فهزمهم و غنم من أموالهم و أولادهم ما يفوت الإحصاء و في سلم يقول يزيد بن معاوية

عتبت على سلم فلما فقدته ... و جربت أقواماً بكيت على سلم

موت يزيد بن معاوية

و لما احتضر يزيد بن معاوية ولى ابنه معاوية بن يزيد و سلم الأمر إليه و كان ولد يزيد بالماطرون و مات بحوارين و هو ابن ثمان و ثلاثين سنة و كان ملكه ثلاث سنين و ثمانية أشهر و ذكر أنه تمثل عند موته بهذين البيتين

فيا ليتني لم أغن بالناس ساعةً ... و لم أغن في لذات عيش مفاخر

و كنت كذي طمرين عاش ببلغةٍ ... من العيش حتى صار رهن المقابر

و فيه يقول الشاعر

يا أيها القبر بحوارينا ... ضممت شر الناس أجمعينا

ولاية معاوية بن يزيد بن معاوية و لما مات يزيد صار الأمر إلى ولده معاوية بن يزيد و كان قدرياً لأنه أشخص عمراً المقصوص فعلمه ذلك فدان به و تحققه فلما بايعه الناس قال للمقصوص ما ترى قال إما أن تعتدل و إما أن تعتزل فخطب معاوية فقال إنا بلينا بكم و ابتليتم بنا و إن جدي معاوية نازع الأمر من كان أولى به و أحق فركب منه ما تعلمون حتى صار مرتهناً بعمله ثم تقلده أبي و لقد كان غير خليق به فركب ردعه و استحسن خطاءه و لا أحب أن ألقى الله بتبعاتكم فشأنكم و أمركم ولوه من شئتم فوالله لئن كانت الخلافة مغنماً لقد أصبنا منها حظاً و إن كانت شراً فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها ثم نزل و أغلق الباب في وجهه و تخلى للعبادة حتى مات بالطاعون في سنة أربع و ستين اثنتي وعشرين سنة و كانت ولايته عشرين يوماً و يقال أربعين يوماً و يقال ثلاثة أشهر فوثب بنو أمية على عمرو المقصوص و قالوا أنت أفسدته و علمته فطمروه و دفنوه حياً و كان قيل فيه

تلقفها يزيد عن أبيه ... فخذها يا معاوي عن يزيد

و قال آخر

إني أرى فتنة تغلي مراجلها ... و الملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

ابن الزبير ومروان بن الحكم فتنة ابن الزبير كان يدعو الناس في زمن يزيد بن معاوية إلى الإمارة و الشورى فلما مات يزيد دعاهم إلى البيعة لنفسه و ادعى الخلافة بالحجاز و العراق و خراسان و اليمن و مصر و الشام إلا الأردن فإنهم أرادوا أن يكون الأمر لخالد بن يزيد بن معاوية و دعوا له على المنبر و بويع بالخلافة فلما تسمى ابن الزبير بالخلافة فارقه المختار بن أبي عبيد من أعماله و قدم الكوفة و دعا الشيعة و قال أنا رسول الله أبي القاسم محمد بن علي بن أبي طالب و أخذ بيعة الناس له على أن يطلبوا بدم الحسين رضي الله عنه و خرج الضحاك بن قيس الفهري الخارجي و استمال الناس و صلى بهم ينتظر استقرار الخلافة و بويع مروان بن الحكم بالأردن و بويع خالد بن يزيد بن معاوية بعده واجتمع أهل البصرة على عبيد الله بن زياد و كان واليها في أيام معاوية و يزيد و نصبوه أميراً وسألوه أن يطلق عن الخوارج الذين في السجون فأطلقهم و فيهم نافع بن الأزرق و عبيد الله بن الماخور و قطري بن الفجاءة المازني فعاثوا في الأرض و أفسدوا و خافهم عبيد الله بن زياد على نفسه فهرب إلى الشام.

مروان بن الحكم و أخذ بيعة أهل الشام له،بويع له بالأردن سنة أربع و ستين و هو أول من أخذ الخلافة بالسيف و كان يلقب خيط باطل لطول قامته و اضطراب خلقه و فيه يقول الشاعر

لحى الله قوماً أمروا خيط باطلٍ ... على الناس يعطي من يشاء و يمنع

و سار إليه الضحاك بن قيس فاقتتلوا بمرج راهط من غوطة دمشق فقتل الضحاك و خرج سليمان بن صردٍ الخزاعي من الكوفة في أربعة آلاف من الشيعة يطلبون بدم الحسين فبعث إليه مروان عبيد الله بن زياد و الحصين بن نمير فالتقوا برأس عين فقتلوا سليمان بن صرد و تفرق أصحابه فمالت الشيعة إلى المختار بن أبي عبيد و قوي أمره فأظهره الدعوة إلى محمد بن الحنفية و الطلب بدم الحسين و مات مروان بدمشق و كانت ولايته سبعة أشهر و أياماً وبايع أهل الشام عبد الملك بن مروان.

موت مروان بن الحكم ذكروا أنه تزوج أم خالد بن يزيد بن معاوية و جرى بينه و بين خالد كلام فقال له يا بن الطرطبة فأحقدت المرأة فسقته سماً في الشراب فأبطأ القضاء عليه فلما كان في الليل و ضعت وسادة على وجهه و

قعدت عليه حتى مات و صار إلى جهنم و مروان يعد من قتلى النساء و اختلفوا في حليته فقيل كان طوالاً وقيل كان قصيراً و كان لدة الحسين بن علي بن أبي طالب و الحسين و لد بعد الهجرة بسنتين.

ما جرى بين المختار و بين ابن الزبير و قالوا و غلب المختار على الكوفة و وجه عماله على كور الجبل و أرمينية و أفسدت الخوارج بالبصرة فولى أهلها المهلب بن أبي صفرة قتالهم إذ لم يكن لهم أمير يدفع عنهم و بعث عبد الله بن الزبير عبد الله بن المطيع والياً على الكوفة فخرج المختار بن أبي عبيد في جماعة من القراء منهم أبو إسحق الثقفي و جابر الجعفي و واقع بن المطيع فطرده و انكفى عنهم و فيه يقول

ابن مطيع لج في الشقاقيقول لما ضيق في الخناقيا قوم هل لي فيكم من واق

وبلغ الخبر ابن الزبير فأخذ محمد بن الحنفية بالبيعة له و الانقياد فقال محمد بن الحنفية أنا أولى بهذا الأمر منك إن كانت خلافة فجمع أصحاب ابن الحنفية و حبسهم معه في المسجد و أعطى الله عهداً أن يحرقهم بالنار إن لم يبايعوه فكتب محمد بن الحنفية إلى المختار بن أبي عبيد بالخبر فأرسل المختار مدداً و مالاً فدخلوا مسجد الحرام بغتةً لا علم لأحد بهم ينادون يا ثارات الحسين حتى انتهوا إلى ابن الحنفية و أصحابه قد حسبوا في الحظائر و وكل بهم الحرس يحفظونهم و جمعوا الكثير من الحطب و أعد لإحراقهم فأشعلوا النار في الحطب و أخرجوا ابن الحنفية و أصحابه معه إلى شعب علي بن أبي طالب و اجتمع عليه أربعة آلاف رجل فبايعوه ففرق فيهم الأموال التي حملها المختار إلى عبيد الله بن زياد إبرهيم الأشتر النخعي في اثني عشر ألفاً فالتقوا بالزاب من أرض الموصل فقتل عبيد الله بن زياد عليه اللعنة و الحصين بن نمير و شمر بن ذي الجوشن و عمر بن سعد و كل من شرك في قتل الحسين بن علي عليه السلام و حملت رؤوسهم إليه قال و كان ابن عمر بن سعد قائماً على رأس المختار لما دخلوا برأس أبيه فقال له المختار أتعرف هذا الرأس قال أي و الله رأس أبي حفص قال المختار الحقوا حفصاً بأبي حفصٍ فضرب عنقه و في عبيد الله بن زياد يقول يزيد بن المفرغ

إن الذي عاش ختاراً بذمته ... و مات عبداً قتيل الله بالزاب

العبد للعبد لا أصل و لا شرف ... ألوت به ذات أظفار و أنياب

ما شق جيب و لا قامتك نائحة ... و لا بكتك جياد عند أسلاب

ثم بعث ابن الزبير أخاه مصعباً على العراق فقدم البصرة و أعطاها أهلها الطاعة و أمضى للمهلب بن أبي صفرة ما كان أهلها و لوه من قتال الأزارقة و خرج إلى الكوفة و كان المختار يحتال في استمالة الناس بضروب من الحيل و كان يروي الروايات و يستعمل المخاريق و يدعي المعجزات و يزعم أن جبريل و ميكائيل يأتيانه و يأمر بعض أصحابه أن يشهد له أنه رأى الملائكة نزلت لنصرته و فيه يقول

أ لا أبلغ أبا إسحق عني ... بأن الخيل كعت مصميات

أرى عيني ما لم تبصرا ... كلانا عالم بالترهات

فزحف إليه مصعب بن الزبير فبيته المختار و قتل من أصحابه ستة آلاف و قتل عبيد الله بن علي بن أبي طالب و محمد بن الأشعث بن قيس و كانا محبوسين في عسكر مصعب و لم يشعر بهما فلما كان من الغد جد مصعب في قتاله فلجأ إلى قصر الكوفة فحاصره مصعب إلى أن قتله و قتل من كان معه في القصر و هم ست آلاف و ثمان مائة رجل و أخذ عمرة بنت النعمان بن بشير و كانت تحت المختار بن أبي عبيد و عرض عليها البراءة من المختار فأبت فضرب عنقها و فيها يقول عبد الرحمن بن حسان

كتب القتل و القتال علينا ... و على الغانيات جر الذيول

و استولى مصعب على العراقين فسار إليه عبد الملك بن مروان فالتقوا بمسكن و قتل مصعب و بعث برأسه إلى عبد الملك بن خازم بخراسان و قد بايع لابن الزبير و دعا له و كتب إن بايعتني أطعمتك خراسان عشر سنين فكتب إليه ابن حازم

أعيش زبيري الحياة فإن أمت ... فإني موص هامتي بالتزبر

واستقام العراق لعبد الملك بن مروان قال عبد الملك بن عمير الليثي دخلت قصر الإمارة بالكوفة و عبد الملك بن مروان قاعد في الإيوان على سريره و بين يديه ترس و عليه رأس مصعب بن الزبير فتبسمت فقال مما تبسمت فقلت يا أمير المؤمنين أتيت عبيد الله بن زياد في هذا الإيوان بين يديه رأس الحسين بن علي ثم رأيت المختار وبين يديه رأس عبيد الله بن زياد في هذا الإيوان ثم أتيت بن الزبير في هذا الإيوان و بين يديه رأس المختار بن أبي عبيد ثم أراك و بين يديك رأس مصعب فقام عبد الملك فزعاً و أمر بهدم الإيوان قال و كذلك لما بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد و عمر بن سعد إلى محمد بن الحنفية لينصبهما في المسجد الحرام كان محمد يأكل فقال محمد الحمد لله أتي ابن زياد برأس الحسين و هو يأكل و أتينا برأس ابن زياد و نحن على هذه الحالة و في مصعب بن الزبير يقول ابن قيس الرقيات

إن الرزية يوم مسك ... ن و المصيبة و الفجيعة

بابن الحواري الذي لم ... يعده يوم الوقيعة

و لما قتل مصعب لاذ عبد الله بن الزبير بالكعبة و أظهر الزيادة في نسكه و جعل يقول بطني شبر و ما عسى أن يشبع شبر و هو أشره خلق الله و أحرصه فقيل

لو كان بطنك شبراً قد شبعت و قد ... أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين

فإن أتتك من الأيام جائحة ... لم ينل منك شياء من دنيا و لا دين

و لا نقول إذا يوماً نعيت لنا ... إلا بآمين رب العرش آمين

مازال في سورة الأعراف يقرأها ... حتى يوارى مثل الخز في اللين

و كان يخرج للناس من تمور الصدقة و يكنز الذهب و الفضة و يقول أكلتم تمري و عصيتم أمري و خرج عبد الملك من الكوفة إلى الشام و كان الحجاج على شرطته فولاه الساقة ينزل بنزوله و يرحل برحيله فرأى عبد الملك من نفاذه و جلادته ما أعجب به و ولى الكوفة خالد بن عبد الله القسري و ولى البصرة أخاه بشراً و رجع إلى الشام و لا هم له إلا ابن الزبير فأتاه الحجاج فقال ابعثني إليه فإنه أرى في المنام كأني أقتله و أسلخ جلده فبعثه إليه فقتله و سلخ جلده و صلبه و كانت فتنة ابن الزبير تسع سنين منذ موت معاوية إلى أن مضت ست سنين من ولاية عبد الملك.

مقتل ابن الزبير قالوا و بعث عبد الملك الحجاج إلى مكة فحاصر ابن الزبير فنزل ببئر ميمون وفسد على الناس حجهم تلك السنة لأنهم وقفوا بعرفات و لم يصلوا إلى البيت و اشتد الحصار فقال له أخوه عروة بن الزبير أن لك في الصلح لإسوة بالحسن فركضه برجله و قال ما أنت بابن أبٍ و عرض عليه الحجاج الأمان و بذل له العهد فأبى أن يقبله و كان شحيحاً بخيلاً فقيل فيه

رأيت أبا بكر وربك غالب ... على أمره بغي الخلافة بالتمر

ثم اقتحم الحجاج المسجد في أصحابه و شددوا على ابن الزبير فقتلوه و من معه و سلخوا جلده و حشوه تبناً و صلبوه ويقال أصابه رمية فمات وهو ابن ثلاث و سبعين سنة و ولي الحجاج الحجاز و اليمامة و بايع أهل مكة لعبد

الملك بن مروان.

ولاية عبد الملك بن مروان

يكنى أبا الذبان لبخر فمه و يلقب برشح الحجر لبخله و كان معاوية بن أبي سفيان جعله مكان زيد بن ثابت على ديوان المدينة ثم ولاه أبوه مروان هجر ثم جعله ولي عهده بعده و بويع سنة خمس و ستين بالشام و بايعه أهل مكة بعد قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين و كتب إليه ابن عمر ببيعته و كتب إليه محمد بن الحنفية يستوثق لنفسه و أصحابه و توفي بدمشق سنة ست وثمانين و كانت ولايته من يوم مقتل ابن الزبير إلى أن مات تسع سنين و عشرة أيام ومن يوم بويع بالشام إحدى و عشرين سنة و كتب إلى عبد الله بن خازم بخراسان إن بايعتني أطعمتك خراسان عشر سنين فأبى إلا التزبر و كان بعث إليه برأس ابن الزبير فأخذه و رده إلى المدينة فكتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح خليفة عبد الله بن خازم على مرو يأمره بالوثوب بعبد الله بن خازم فسار إليه فواقعه فقتله و ولى بكيراً خراسان و صفت المملكة لعبد الملك بن مروان و مات بشر بن مروان بالبصرة و اشتدت شوكة الخوارج بالعراق و الأهواز و المهلب يقاومهم و يدافعهم فولى عبد الملك الحجاج بن يوسف العراقين و كان العراق إذ ذاك من فم الرقة إلى أقصى خجند بخراسان و منها السند و الهند.

خبر الحجاج بن يوسف زعم قوم أن الحجاج بلاء صبه الله عز و جل على أهل العراق بدعوة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال اللهم أن أهل العراق قد ليسوا على ما ليس لهم اللهم عجل لهم الغلام الثقفي الذي يحكم بحكم الجاهلية لا يقبل من محسنهم و لا يتجاوز عن مسيئهم فإن الشيطان قد باض فيهم و فرخ و روى هذا الخبر أبو عرفة الحضرمي من أهل الشام و روى أن عمر أتاه خبر العراق و أنهم حصبوا أمامهم و سمعت غير واحد يقول بل كانت دعوة علي عليه السلام قال اللهم كما نصحتهم و غشوني و آمنتهم فخانوني أبعث فيهم فتى يحكم بحكم الجاهيلة هكذا الرواية و الله أعلم لأن مثل هذا من المحال إذ لا يجوز لمسلم أن يسأل ربه الجور و الظلم.

حلية الحجاج و نسبه و حرفته قالوا كان الحجاج رجلاً أخفش حمش الساقين منقوص الجاعرتين صغير الجثة دقيق الصوت أكتم الحلق و هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل بن مسعود بن عامر من أجلاف ثقيف و كنيته أبو محمد و أمه سمته كليباً و كان أول أمره أن يعلم الصبيان بالطائف و أول ولاية وليها تبالة بالحجاز فلما أشرف عليها احتقرها و انصرف فمن ثم يقال في المثل أهون من تبالة على الحجاج ثم ولي على شرط أبان بن مروان ثم جعله عبد الملك على ساقته عند رجوعه إلى الشام ثم بعثه لقتال ابن الزبير فقتله و ولاه الحجاز ثلاث سنين ثم ولاه العراق.

قدوم الحجاج العراق و أخباره إلى أن مات قالوا و لما دخل الحجاج العراق دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى أكثر وجهه متقلدا سيفاً متوكئاً قوساً فصعد المنبر و سكت ساعة حتى قال بعض الناس قبح الله بني أمية حين يستعملون مثل هذا على العراق و قال عمير بن ضابئ البجمي ألا أحصبه لكم فقالوا امهل حتى ترى فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام و نهض قائماً

أنا ابن جلا و طلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

و الله يآهل العراق إني أرى رؤوساً قد أينعت و حان قطافها و إني لصاحبها فكأني أنظر إلى دماء من فوق العمائم و اللحى

هذا أوان الحرب فاشتدي زيم ... قد لفها الليل بسواق حطم

ليس براعي إبل و لا غنم ... و لا بجزار على ظهر و ضم

قد شمرت عن ساقها فشدوا ... و جدت الجرب بكم فجدوا
و القوس فيها وتر عرد ... مثل ذراع البكر أو أشد

إني و الله ما يقعقع لي بالشنان و لقد فرزت عن ذكاء و فتشت عن تجربة و إن أمير المؤمنين مثل كنانته فعجم عيدانها عوداً أعور فوجدني أشدها عوداً و أصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم بالفتنة و اضطجعتم في مراقد الضلال و الله لأحرصنكم حرص السلمة و لأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعونه إني و الله ما قلت إلا وقيت و لا أهم إلا مضيته وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً بتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا وضربت عنقه يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقام الغلام و قال بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئاً فقال الحجاج يا غلام اكفف يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه هذا أدب ابن نهية أما و الله لأؤدبنكم غير هذا اقرأ يا غلام فقرأ ثم نزل و وضع للناس إعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتى شيخ قد انحنى كبراً فقال أيها الأمير إن بي من الضعف ما ترى وأن ابني هو أقوى على الأسفار مني افتقبله بدلاً مني فقال نفعل أيها الشيخ فلما ولى قيل له هذا عمير بن ضابئ البرجمي دخل على عثمان مقتولاً فوطئ بطنه حتى كسر ضلعين من أضلاعه فقال أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان يوم الدار بدلاً إن في قتلك لصلاحاً للمسلمين يا حرسي اضربا عنقه و فيه يقول عبد الله بن الزبير الأسدي

تجهز فإما أن تزور بن ضابئ ... عميراً وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ... ركوبك حولياً من الثلج أشهبا

يحذر الناس عن التخلف إلى الخروج إلى قتال الأزارقة و نادى الحجاج في الناس أن عميراً أتانا بعد ثالثة قتلناه فمن وجدناه بات بعد هذه الليلة فقد برئ الله من دمه فلم يبق أحد إلا لحق بالمهلب و جد المهلب في قتال الأزارقة و هم الخوارج إلى أن مات نافع بن الأزرق فولى أصحابه عليهم عبيد الله بن ماحوز و قال شاعرهم

فلئن أمير المؤمنين أصابه ... ريب المنون ومن يصبه يعلق
نعم الخليفة من حذانا نعله ... ذاك ابن ماحوز بقية من بقي

و لما رآهم المهلب بالأمداد التي وردت عليه من جهة الحجاج أجلاهم إلى حدود الأهواز و فارس و فيه يقول

قد نفينا العدو أمس عن الجس ... ر و قد زحزحوا عن الأهواز

و طعان يهولك القرب منهواشك الخطف للنفوس العزاز و سار المهلب في إثر الخوارج إلى خراسان فوقع قطري بن الفجاءة المازني إلى طبرستان و كتب عبد الملك إلى المهلب بعهده على خراسان و قد كان وفاها مع الحكم بن عمرو الغفاري أيام معاوية ولما غرق شبيب بن يزيد الخارجي في دجيل بعد إذٍ افترقت الأزارقة فرقتين مع قطري بن فجاءة المازني و فرقة مع عبد الرب الكبير و مضوا حتى أتوا سجستان وأصل الخوارج بها منهم إلى اليوم فلحقهم المهلب و قاتلهم و قتل عبد الرب الكبير و صار قطري إلى سجستان فبعث الحجاج سفيان الكلبي في إثره حتى قتله و حمل إليه رأسه و كان يكنى أبا نعامة و قاتلهم عشرين سنة يدعي الخلافة و كان شبيب هذا أحد الرجال المذكورين بالبأس و النجدة و بلغه تهدد الحجاج إياه فجاء مع امرأته غزالة في فوارس دون عشرين حتى دخلوا الكوفة و وقفوا بباب قصر الحجاج و نادته غزالة يا حجاج هل لك في البراز فهابها و تحصن و كانت غزالة نذرت نفسها أن تبول على منبره فدخلت مسجد الكوفة و بالت على المنبر و قام شبيب في الصلاة فصلى ركعتي الفجر

قرأ في أحديهما بالبقرة و في الأخرى بآل عمران و لم يجسر الحجاج أن يفتح باب قصره إلى أن انصرفوا ثم جعل الناس يقولون

أوفت غزالة نذرها ... يا رب لا تغفر لها

وقيل فيما يهجا به الحجاج بن يوسف

غزالة في مائتي فارس ... يئط العراقان منها أطيطا

و خيل غزالة تخوي النهاب ... وتسبي السبايا و تجبي النبيطا

و كتب عمران بن حطان إلى الحجاج و كان يمشي متوارياً لأنه كان يطلبه

أسد علي و في الحروب نعامة ... ربداء تجفل عن صفير الطائر

صدعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت منابره كأمس الدائر

هلا خرجت إلى غزالة في الوغى ... أم كان قلبك في جوانح طائر

و سار المهلب إلى ما وراء النهر و غزا السغد فصالحه ملكهم طرخان على مال و انصرف عنه و بعث موسى بن عبد الله بن خازم إلى الترمذ فأغار عليها و على ما يليها و ولى عبد الملك بن مروان عبيد الله بن أبي بكرة سجستان و كان جواداً شجاعاً فغزا كابل فدهمهم العدو في مضيق التجؤا إلى عقر دوابهم فأكلوها و بلغ الرغيف سبعين درهماً فمات عبيد الله و الخلق معه بالجوع و السيف و لم يلق جيش في الإسلام ما لقوا و فيه يقول أعشى همدان

أسمعت بالجيش الذين تمزقوا ... و أصابهم ريب الزمان الأعوج

لبثوا بكابل يأكلون جيادهم ... في شر منزلة و شر معرج

لم يلق جيش في البلاد كما لقوا ... فلمثلهم قل للنوائح تنشج

ثم بعث الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس على العمال التي كان يليها عبيد الله بن أبي بكرة و جاء و غزا رتبيل بناحية بست و صالحه على مال و غزا كابل و افتتح قصوراً من قصور العجم و أصاب سبايا و غنائم و كتب إلى الحجاج فكتب إليه أن توغل في البلاد يريد بذلك هلاكه فاستعصى ابن الأشعث و جمع الجموع و توجه نحو الحجاج.

خبر عبد الرحمن بن الأشعث جمع الجموع و دعا القراء إلى مناجزة الفاسق الحجاج بن يوسف و صاحبه عبد الملك بن مروان فأجابه الخلق و أقبل إلى العراق في جمع مثل عدد النمل فيهم الشعبي و سعيد بن جبير و ابن القرية و ابن أبي ليلى و سويد بن غفلة و جابر الجعفي و أبو إسحق السبيعي و أبو عيدة بن عبد الله بن مسعود و أعشى همدان و غلب على ما وراء دجلة و نفى عمال الحجاج و تسمى القحطاني و كتب إلى النواحي من عبد الرحمن ناصر أمير المؤمنين و خطب الناس فقال ألا إني قد خلعت أبا ذبان عبد الملك بن مروان فقيل فيه

خلع الملوك وسار تحت لوائه ... شجر القرى و عراعر الأقوام

و سار ابن الأشعث حتى أتى تستر و جاءه الحجاج في مثل جمعه فقاتلهم ابن الأشعث و قتل منهم ثمانية آلاف رجل وانهزم الحجاج و عاد إلى البصرة و قطع القناطر و الجسور و خرج إلى الكوفة.

خروج الزنوج بالبصرة قالوا و اضطرب الأمر بخروج ابن الأشعث و نجمت النواجم و تجمع السودان فغلبوا على البصرة وأحرقوا الأسواق و انتهبوا الأموال و السلاح فبعث إليهم الحجاج فقتلهم و سباهم ثم سار ابن الأشعث حتى دخل البصرة و طالت المناهضة بينه و بين الحجاج فواقعه ثمانين و قعة بالكوفة و البصرة و أمد عبد الملك بن مروان الحجاج بأخيه محمد بن مروان و ابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان فبعث ابن الأشعث بماله و أهله إلى

البصرة و أسر الحجاج من أصحابه ثلاثة آلاف رجل فضرب أعناقهم صبراً و هم ابن الأشعث إلى سجستان و انحاز إلى ناحية رتبيل بألفِ ألف درهم و أربعمائة ألف درهم مع عمارة بن تميم في ثلاثين فارساً على أن يسلم عليه عبد الرحمن بن الأشعث فغدر به رتبيل و سلمه إليهم فأوثقوه بالحديد على أن يحملوه إلى الحجاج فقال ابن الأشعث و الله لا يتلاعب بي الحجاج تلعب الهرة بالفأرة فرمى نفسه من فوق قصر كانوا عليه بالرخج فمات فحملوا رأسه إليه فبعثه إلى عبد الملك بن مروان فبعثه عبد الملك إلى مصر و فيه يقول الشاعر

يا بعد مصرع جثة من رأسها ... رأس بمصر و جثة بالرخج

و مات المهلب بخراسان و قد استخلف ابنه يزيد بن المهلب فعزله الحجاج و بعث قتيبة بن مسلم الباهلي مكانه و كان على الري فسار إلى خراسان و أقبل يزيد حتى إذا كان ببعض الطريق هلك عبد الملك بن مروان و صار الأمر إلى الوليد بن عبد الملك فقبض الحجاج على يزيد و أكب عليه يعذبه و ينتهب ماله فهرب من حبسه و استجار بسليمان بن عبد الملك فشفع له إلى الوليد فكف عنه و كان يزيد سرياً و قتيبة شجاعاً و فيهما يقال

كانت خراسان إذ يزيد بها ... و كل باب من الخيرات مفتوح

فاستبدلت بعده جعداً أناملة ... كأنما وجهه بالخل منضوح

الجوع يهبط في عمياء مظلمة ... لا متع الله أهل الجوح ما الجوح

قالوا كان رجلاً عيوفاً لفوعاً خبيث الولاية فأقر العمال على النواحي و في ولايته خرج قتيبة بن مسلم إلى ما وراء النهر و صار إلى مدينة بخارا و كانوا قد ارتدوا فجاشت الترك و السغد و الشاش و فرغانة و أحدقوا به أربعة أشهر ثم هزمهم و قتل منهم خمسين ألف فارس و افتتح بخارا ثم مضى حتى أناخ على سمرقند صيفية حتى افتتحها صلحاً و قتل طرخان التركي الذي جاء إلى مرو لنصرة يزدجرد و بعث برأسه و منطقته إلى الحجاج و هي المنطقة التي كانت على يزدجرد يوم قتل ثم غزا فرغانة و عاد منها إلى خوارزم فبلغ سبى هاتين مائة ألف رجل و ليس في ذكورهم و لا إناثهم كهل.

مقتل سعيد بن جبير و كان سعيد بن دبير من أفاضل الناس و كان من أفاضل التابعين كتب لعبد الله بن عتبة بن مسعود ثم كتب لأبي بردة و هو على القضاء و خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث فلما انهزم ابن الأشعث من دير الجماجم هرب سعيد إلى مكة فأخذه خالد بن عبد الله القسري و كان عاملاً للوليد عليها فبعثه إلى الحجاج فقال له الحجاج يا شقي بن كسير ألم أولك القضاء فضج أهل الكوفة و قالوا لا يصلح القضاء إلا لعربي فاستقضيت أبا بردة و امرأته أن لا يقطع أمراً دونك قال بلى قال أوما أعطيتك من المال كذا و كذا لتفرقه في ذوي الفاقات و ذوي الحاجات ثم لم أسألك عن شيء منه قال بلى قال فما أخرجك علي قال بيعة كانت لابن الأشعث في عنقي فقال كانت بيعة أمير المؤمنين أولى بك لأقتلنك فاعتذر سعيد رحمه الله و تضرع و ترحمه بصغار بناته فقال اختر أي قتلةٍ شئت قال بل اختر أنت لنفسك فإن القصاص أمامك فقتله ثم لم ينتفع بعده بعيش إلى أن مات.

موت الحجاج ذكر أنه أخذه السل و هجره الرقاد فلما أحتضر قال لمنجم عنده هل ترى ملكاً يموت قال أرى ملكاً يموت اسمه كليب فقال أنا و الله الكليب بذلك سمتني أمي قال المنجم أنت و الله تموت كذلك دلت عليه النجوم قال له الحجاج لأقدمنك أمامي فأمره فضرب عنقه و مات الحجاج في ولاية الوليد بن عبد الملك بن مروان و قد بلغ من السن ثلاثاً و خمسين سنة و ولى الحجاز و العراق عشرين سنة و كان قتل من الأشراف و الرؤساء المذكورين مائة ألف و عشرين ألفاً صبراً سوى عوام الناس و من قتل في معارك الحروب و كان مات في حبسه خمسون ألف رجل و ثلاثون ألف امرأة و مات قبل موته ابنه محمد بن يوسف في ليلة واحدة فقيل في ذلك

في ليلتين و ساعتين ... دفن الأمير محمدين
فلما مات الحجاج قالت امرأته هند بنت أسماء
ألا أيها الجسد المسجى ... لقد قرت بمصرعك العيون
و كنت قرين شيطان رجيم ... فلما مت سلمك القرين
و كان الحجاج استخلف قبل موته يزيد بن أبي كبشة السكستكي فأقره الوليد عليها و في أيام الوليد فتح طارق بن زياد مدينة الأندلس و عبر عليها من طنجة من البحر و غزا مدينة طليطلة و أصاب بها مائدة ذكر أهل الكتاب أنها كانت لسليمان بن داود عليه السلام كان حملها بعض ملوك العرب من بيت المقدس حين ظهر على بني إسرائيل و كانت خليطين من ذهب و فضة بثلاثة أطواق من لؤلؤ و ياقوت و زبرجد و كان استعمل خالد بن عبد الله القسري على مكة فأمره أن يحفر بها بئراً فحفر فخرج عليه ماء عذب فكتب إلى الوليد إن خليفة الله أكرم على الله من رسوله ابراهيم لأن ابراهيم عليه السلام استسقاه فسقاه ماء غير عذب و أمير المؤمنين سقاه ماء عذباً فراتاً و مات الوليد سنة تسع و ستين و كانت ولايته تسع سنين و ثمانية أشهر و خلف من الولد الذكور أربع عشر نفراً منهم يزيد بن الوليد الناقص ولي خمسة أشهر ومات وكان حسن السيرة محمود الطريقة وابراهيم ولي شهرين ثم خلع نفسه و دخل في طاعة مروان و عمر بن الوليد يقال له فحل بن مروان و كان يركبون وراءه ستون رجلاً لصلبه.
ولاية سليمان بن عبد الملك بن مروان قالوا و كان حبراً فصيحاً نشأ بالبادية عند أخواله بني عبس فافتتح بخير و اختتم بخير و رد المظالم و آوى المسيرين و أخرج المحبسين و استخلف عمر بن عبد العزيز و عزل ابن أبي كبشة عن العراق و استعمل عليها يزيد بن المهلب فاستخلف يزيد على العراق مروان بن المهلب أخاه و سار إلى خراسان فهابه قتيبة بن مسلم فتوجه إلى فرغانة فوثب عليه و كيع ابن حسان فولاه سليمان خراسان و فيه يقول الفرزدق

و نحن قتلنا الباهلي بن مسلم ... و نحن قتلنا قبل ذاك ابن خازم
كأن رؤوس الناس إذ سمعوا بنا ... مدمغة هاماتهم بالأهائم
ثم عزل وكيع بن حسان عن خراسان و وفاها يزيد بن المهلب فافتتح جرجان.
فتح جرجان و طبرستان قالوا و كان أهل جرجان يصالحون أهل الكوفة على مائة ألف و مائتي ألف فجاءهم ابن المهلب و صالحهم على مال كثير و استخلف عليهم رجلاً من أصحابه و صار إلى دهستان و قد كان غلب عليها و على جرجان الترك فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه فقتل أربعة عشر ألفاً منهم صبراً و مضى إلى طبرستان فصالح الأصفهبذ على مال عظيم و أربع مائة حمار موقرة زعفراناً و أربع مائة رجل على رأس كل رجل منهم ترس و طيلسان و جام من ذهب و كذا فعل عبد الرحمن بن سمرة القرشي لما حاصر زرنج صالحهم على ألف ألف درهم و ألف وصيف على رأس كل رجل جام من ذهب و كان عبد الرحمن هذا بعثه أبو موسى الأشعري إليها في أيام عثمان قالوا و قد نقض أهل جرجان العهد فحلف يزيد بن المهلب ألا يبرح حتى يقاتل المقاتلة و يسبي الذراري و تحصن القوم منه فأناخ بناحيتهم مدة لا يجد فيهم حيلة قال فخرج رجل من العسكر يتصيد فاتبع وعلاً يتوقل في جبل حتى أشرف على عورة البلد فجاء فأخبر يزيد بذلك فلما كان من الليل احتال الرجل في طائفة فاقتحموا البلد من النقرة و فتحوا باب المدينة و استولوا عليها و وكل يزيد بأبوابها و طرقها و منافذها الرجال يحفظونها و أمر بالجنوع فنصب على الطريق فراسخ ثم أخرج المقاتلة فصلبهم كلهم ثم سبي الذراري و نهب الأموال فلم يبق من الناس بجرجان إلا من هرب أو توارى إلا شيخ لا منة فيه و من المال إلا ما دفن أو لم يؤمر به فيحمل.
غزاة مسلمة بن عبد الملك الصائفة و جهز سليمان مسلمة فسار حتى بلغ القسطنطينية في مائة ألف و عشرين ألفاً

و كان استصحب اليون المرعشي ليدله على الطريق و العورات و أخذ عهوده و مواثيقه على الوفاء و المناصحة فعبروا الخليج و حاصروا القسطنطينية فلما برح بهم الحصار عرضوا الفدية على مسلمة فأبى أن يفتحها إلا عنوة قالوا فابعث إلينا اليون فإنه رجل منا و يفهم كلامنا فبعثه إليهم فسألوه عن وجه الحيلة فقد ضاق عليهم الأمر فقال يا أهل القسطنطينية إن ملكتموني عليكم لم أفتحها لمسلمة فبايعوه على الملك و الأمرة فخرج اليون و قال لمسلمة قد أجابوني إلا أنهم لا يفتحون ما لم يتنح عنهم قال مسلمة أخشى و الله أن هذا منك غدر فحلف له اليون أنه يدفع كل ما في قسطنطينية من ذهب و فضة و ديباج و سبي فارتحل مسلمة فتنحى إلى بعض الرساتيق و دخل اليون فلبس التاج و قعد على سرير الملك و أمر بنقل الطعام و العلوفات من خارج فملئوا الأهراء و شحنوا المطامير و بلغ الخبر لمسلمة فعلم أنه كان غدر فأقبل راجعاً فأدرك شيئاً من الطعام و أغلقوا الأبواب دونه و بعث إلى اليون يناشده الوفاء بالعهد فأرسل إليه اليون ملك الروم لا يبايع بالوفاء و نزل مسلمة بفنائهم ثلاثين شهراً ثم رحل و انصرف و توفي سليمان بن عبد الملك بدابق سنة تسع و تسعين و كان بايع ابنه أيوب بن سليمان فمات قبله فاستخلف عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم و لما احتضر سليمان قيل له أوص فقال

إن بني صبية صيفيون ... أفلح من كانت له ربعيون

إن بني صبية صغار ... أفلح من كانت له كبار

و فيه يقول الشاعر

لم يأخذ الولي بالولي ... و هدم الديماس و النسي

يا أيها الخليفة المهدي ... خليفة سمية النبي

و آمن الشرقي و الغربي

و كانت ولايته ثلاث سنين.

ولاية عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه و أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول إن من ولدي رجلاً يملأ الأرض عدلاً و كثير من الناس يقولون أنه كان المهدي و فيه يقول الشاعر

من أبوه عبد العزيز بن مروا ... ن و من كان جده الفاروقا

و كان أخوه الأصبغ بن عبد العزيز عالماً بخبر ما يكون و ابنته حبيبة عالمة بخبر ما يكون و ذلك لعلم وقع إليهم و يقال لعمر أشج بني أمية و ذلك أنه ضربته دابة في وجهه فلما رآه الأصبغ أخذه و قال الله أكبر أشج بني مروان الذي يملك قال الأصمعي هو في كتاب دانيال الدردق الأشج فلما بايعوه و صعد المنبر أمر برد المظالم و وضع اللعنة عن أهل البيت رضي الله عنهم و حض على التقوى و التواصل و قال و الله ما أصبحت و بي على أهل القبلة موجذة إلا على إسراف و مظلمة ثم تصدق بثوبه و نزل فكتب إليه عمر بن الخارجي

لئن قصدت سبيل الحق يا عمر ... أخاك في الله أمثالي و أشباهي

و إن لحقت بقوم أنت وارثهم ... وسرت سيرتهم فالحكم لله

و عزل عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب عن خراسان و طالبه بالأموال التي أصابها من جرجان و كان يقول لا أحب آل المهلب لأنهم جبابرة و يزيد ين المهلب كان يقول إني لأظنه مرائياً و ولى خراسان عبد الرحمن بن نعيم الغفاري و العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب و كان ينزل خناصرة من أرض الشام فلما مرض دخل عليه بعض بني أمية فرآه على فراش من ليف تحته وسادة من أدم مسجى بشملة ذابل الشفة كاسف اللون فسبح الله و بكى و قال يرحمك الله لقد خوفتنا بالله عز و جل و أيقنت لنا ذكراً في الصالحين و مات رحمه الله بدير

سمعان و هو ابن تسع و ثلاثين سنةً سنة إحدى و مائة و كانت ولايته سنتين و خمسة أشهر و أياماً فقيل فيه
قد غيب الدافنون اللحد إذ دفنوا ... بدير سمعان قسطاس الموازين
من لم يكن همه أرضاً يفجرها ... و لا النخيل و لا ركض البراذين
و لما مات عمر بن عبد العزيز هرب يزيد بن المهلب عن حبسه و صار إلى البصرة و استجاش و دعا إلى التبرئ من بني أمية و الرجوع إلى الكتاب و السنة و في أيام عمر بن عبد العزيز تحركت دولة بني هاشم.
مروان صاحب حبابة و لما ولى استعمل على العراقين و خراسان عمرو بن هبيرة الفزاري و بعث زيد بن مسلمة بن عبد الملك لقتال يزيد بن المهلب فقتله و بعث برأس يزيد إلى يزيد و كان يزيد صاحب لهو و قصف و شعف لحبابة و استهتر بذكرها ثم عزم على الرشد و التشبه بعمر بن عبد العزيز فخشيت حبابة على حظها منه فسألت الأحوص أن يعمل لها أبياتاً تزين اللهو و الطرب فقال
ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا ... فقد غلب المحزون أن يتخلدا
ركبت الصبي جهدي فمن شاء لامني ... و من شاء آسا في البلاء و أسعدا
إذا كنت عزهاة عن اللهو و الصبى ... فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
فما العيش إلا ما تلذ و تشتهي ... و إن لام فيه ذو الشنان و فندا
فلما غنته بهذه الأبيات أقبل يرددها و عاد إلى ما كان عليه ثم خلى يوماً بحبابة و قال لحجابه و خدمه لا تأذنوا علي اليوم لأحد و لا تنهوا إلي خبراً و لا تفتحوا علي باب المقصورة و إن أمرتكم و صحت بكم لأنفرد اليوم و آخذ حظي منها فلما استقر بهما المجلس و أخذ الشراب منهما غنته عمرك إني لاحب سلعاً فقال لو شئت لنقلت إليك حجراً حجراً فقالت إنما أحب من به لا حجره ثم فلقت رمانة فتنقل بها فغصت بها فماتت فجعل ينادي الخدم و الحشم و يناشدهم و هم عنه معرضون لأمره الأول فبقي معها و هي ميتة طول نهاره إلى أن أمسى ثم خرج في جنازتها يحملها على عاتقه و عاش بعدها خمسة عشر يوماً و مات سنة خمس و مائة و كانت ولايته أربع سنين و شهراً.
ولاية هشام بن عبد الملك يقال له أحول بني أمية و يكنى أبا الوليد و لما بويع له عزل عمرو بن هبيرة عن العراق و ولاها خالد بن عبد الله القسري ثم ولاها يوسف بن عمر و في أيامه خرج زيد بن علي بن أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم.

مقتل زيد بن علي بن الحسين وذلك أنه قدم الكوفة و أسرعت إليه الشيعة و قالوا إنا لنرجو أن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية و جعلوا يبايعونه سراً وبلغ الخبر يوسف بن عمر فأمر زيداً بالخروج و بايعه أربعة عشر ألفاً على جهاد الظالمين و الدفع على المستضعفين و يوسف بن عمر جاد في طلبه و تواعدت الشيعة بالخروج و جاؤوا إلى زيد فقالوا ما تقول في أبي بكر و عمر فقال ما أقول فيهما إلا خيراً فتبرؤوا منه و نكثوا بيعته و سعوا به إلى يوسف بن عمر فبعث في طلبه قوماً فخرج زيد ولم يخرج معه إلا أربعة عشر رجلاً فقال جعلتموها حسينية ثم ناوشهم القتال فأصابه سهم بلغ دماغه فحمل من المعركة و مات تلك الليلة و دفن فلما أصبحوا استخرجوه من قبره و صلبوه فأرسل هشام إلى يوسف بن عمر أن حرق عجل العراق فحرقوه و هرب ابنه يحيى بن زيد حتى أتى بلخ و قال
خليلي عني بالمدينة بلغا ... بني هاشم أهل النهى و التجارب
لكل قتيل معشر يطلبونه ... و ليس لزيد بالعراقين طالب

و قال الكميت و كان دعاه زيد عند خروجه إلى نصرته فلم يجبه

دعاني ابن الرسول فلم أجبه ... ألا يا لهف للرأي الوثيق

حذار منيةٍ لا بد منها ... و هل دون المنية من طريق

و رأيت في كتاب تأريخ خورزاذ أن شريكاً قال رأيت سفيان الثوري متأبطاً يحرس جذع زيد و رزقه ثلاثة دراهم في كل يوم وكان من أعوان الشرط و الله أعلم و مات هشام برصافة من أرض قنسرين سنة خمس و عشرين و ماية و كانت ولايته عشرين سنة إلا شهراً.

ولاية الوليد بن يزيد بن عبد الملك و يقال له الخليع بن الفاسق و كان صاحب لعب و لهو الذي يقول

أشهد الله و الملائكة الأب ... رار و العابدين أصل الصلاح

أنني أشتهي السماع و شرب الب ... راح و العض في الخدود الملاح

و قال يوم أتاه نعي هشامٍ

طاب نومي و طاب شرب السلافة ... إذ أتاني نعي من بالرصافة

و كان يكتب إلى الناس

ضمنت لكم إن لم تعقني منيتي ... بأن سماء الضر عنكم ستقلع

ولما صار الأمر إليه ولي عشور المدينة و سوقها ابن حرملة و هو لعثمان بن عفان فكان إذا تزوج رجل امرأة أخذ الزكاة من مهرها و إن مات أحد أخذ الزكاة من ميراثه فقالوا فيه

و لما وليت السوق أحدثت سنة ... و حيدية يعتادها كل ظالم

و شاركت نسواناً لنا في مهورها ... و من مات منا غنى و عادم

مقتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام و لما قتل زيد بالكوفة هرب يحيى بن زيد حتى أتى بلخ فكتب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يأمره بطلبه و أذكى عليه العيون حتى ظفر به و كان نصر يتشيع سراً فكتب إلى الوليد فسار حتى إذا كاد يخرج من حدود خراسان خشي اغتيال يوسف بن عمر فكر راجعاً إلى شابوركرد فاحتشد سلم بن الأعور و قاتلهم فهزمهم و سار حتى إذا كان بأرض الجوزجان لحقه سلم فقتله و صلبه و حدثني أبو طالب الصوفي باخميم أن الوليد هذا لعنه الله كان ماجناً سفيهاً قليل الديانة يستهدف المصحف و يرميه و يقول

تهدد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشرٍ ... فقل يا رب خرقني وليد

وكان نصر بن سيار كتب إليه يخبره أمر علي بن الكرماني و اجتماع الشيعة فكتب في جوابه أن كل خراسان واكفيه فإني مشغول بالغريض و معبد و ابن عائشة و كانت ولايته سنة و شهرين.

ولاية يزيد بن الوليد بن عبد الملك و إنما سمي الناقص لأنه نقص الجند من أرزاقهم و كان محمود السيرة مرضي الطريقة و كانت ولايته خمسة أشهر و مات فلما ولي مروان استخرجه من قبره و صلبه و يقال أنه مذكور في الكتب بحسن السيرة و العدل كما قال بعضهم يا مبذر الكنوز يا سجاداً بالأسحار كانت ولايتك و وفاتك فتنة أخذوك فصلبوك.

ولاية إبرهيم بن الوليد بن عبد الملك و ولاية عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، بويع إبرهيم و بويع بعده عبد العزيز و لم يبايعهما مروان بن محمد و طلب الخلافة لنفسه

و كان سبب ذلك أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك جعل ولي عهده من بعده ابنه الحكم بن الوليد فقتل مع أبيه الوليد يوم قتل و كان قال

فإن أهلك أنا و ولي عهدي ... فمروان أمير المؤمنينا

فقاتلهم مروان و هزمهم ثم جاء إبرهيم بن الوليد و خلع نفسه و دخل في طاعة مروان فلما رأى ذلك عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعث يزيد بن خالد بن عبد الله القسري إلى السجن و قتل يوسف بن عمر بن هبيرة بخالد بن عبد الله و كانت ولاية إبرهيم شهرين و نصفاً.

ولاية مروان بن محمد بن مروان بن الحكم يقال له مروان الجعدي و يلقب بحمار الجزيرة و كانت بنو أمية يكرهون الإماء لأنه بلغهم أن ذهاب ملكهم على رأس أمة و مروان أمة كردية و قيل له الجعدي لأن جعد بن درهم الزنديق كان غلب عليه و فيه يقول الشاعر

أتاك قوم برجال جرد ... مخالفاً ينثر دين الجعد

مكذباً يجحد يوم الوعد

وبويع مروان سنة سبع و عشرين و صار الأمر إلى بني العباس سنة اثني و ثلاثين و مائة و قتل مروان في هذه السنة و كانت ولايته خمس سنين و خرج عليه الضحاك بن قيس الخارجي من شهرزور فقاتله و استعمل مروان على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة و أقر نصر بن سيار على خراسان ثم أنتفض أمر بني أمية بظهور أبي مسلم الخرساني.

القصلالفصل الثاني و العشرون

في صفة بني هاشم و عدة خلفاء بني العباس

من اثنتي و ثلاثين و مئة إلى سنة خمسين و ثلاثمائة

ابتداء أمرهم

روي في بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلم العباس استيلاء ولده على الخلافة و استأذنه العباس في أن يختص أو يجب مذاكيره فقال لا فإنه أمر كائن و الله أعلم بالحق و الصدق و مات العباس رضي الله عنه في خلافة عثمان بن عفان و دفن بالبقيع و جلس عثمان على قبره حتى دفن و مات عبد الله بن العباس بالطائف في فتنة بن الزبير سنة ثمان و ستين و من ولده علي بن عبد الله أبو الخلفاء و يقال له السجاد لأنه كان يصلي كل يوم و ليلة ألف ركعة و روي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه افتقد يوماً عبد الله بن العباس في وقت صلاة الظهر فسأل عنه فقالوا ولد له مولود فقضى علي صلاته فقال امضوا بنا إليه فأتاه و هنأه وقال ما سميته فقال ما يجوز لي أن أسميه حتى تسميه فأخذه و حركه و دعا له ثم رده إليه و قال خذ إليك أبا الأملاك و يقال هاك أبا الخلفاء و قد سميته علياً و كنيته أبو محمد و كان يدعى السجاد ذات الثفنات لأنه له خمس مائة أصل زيتون و كان يصلي كل يوم إلى كل أصل ركعتين وضربه الوليد بن عبد الملك بالسياط مرتين إحداهما في تزويجه بنت عبد الله بن جعفر و كانت عند الملك بن مروان فطلقها لأنه عض على تفاحة ثم رمى بها إليها فأخذت سكيناً فقال ما تصنعين قالت أميط الأذى عنها فكان عبد الملك أبخر فطلقها فقال له الوليد لم تزوجت بها قال لأني ابن عمها و قد أرادت الخروج من هذا البلد فزوجتها لأكون لها محرماً فقال الوليد إنما تتزوج بأمهات الخلفاء لتضع منا لأن مروان بن الحكم تزوج أم خالد بن يزيد بن معاوية لتضع منه و الثانية في قوله إن هذا الأمر يكون في ولدي قال ابن الكلبي فضربه سبع مائة سوط

وحمله على بعير و وجهه مما يلي ذنب البعير و صائح يصيح عليه هذا علي بن الله الكذاب فأتاه آت فقال ما هذا الذي نسبوه إليك فقال بلغهم قولي أن هذا الأمر سيكون في ولدي قال و الله ليكونن حتى يملكهم عبيدهم الصغار الأعين العراض الوجوه يعني الترك و قد روى الواقدي أن علي بن عبد الله ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه و كانت بنو أمية يمنعون بني هاشم من تزويج الحارثية للخبر المروي أن هذا الأمر يتم لابن الحارثية فلما قام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بالأمر أتاه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فقال إني أريد أن أتزوج ابنة خالي من بني الحارث بن كعب أفتأذن لي قال تزوج من شئت فتزوج ريطة بنت عبد الله بن عبد المدان فأولدها أبا العباس و كان بين محمد و أبيه علي أربعة عشر سنة قالوا و دخل علي بن عبد الله بن العباس على هشام بن عبد الملك و معه الخليفتان أبو العباس و أبو جعفر فقال هشام إن هذا الشيخ قد اختل و اختلط يقول أن هذا الأمر ينتقل إلى ولده فسمع علي فالتفت إليه فقال و الله ليكونن و يملكن هذان و أشار إليهما و كان محمد بن الحنفية أخبر محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أن الخلافة صائرة إلى ولده فقال له إذا مضت مائة سنة فوجه دعاتك و اعلم أن الأمر يتم لابن الحارثية من ولدك فابتدأ الإمام محمد بن علي في دعاء الناس سنة مائة فأول من استجاب له أربعة نفر من أهل الكوفة المنذر الهمداني و أبو رياح النبال و أبو عمر البزاز و مصقلة الطحان و أمرهم أن يدعو الناس إلى إمارته و لا يجوز الكوفة فاستجاب لهم نفر بكر بن ماهان المروزي و أبو سلمة الخلال و غيرهما فاستأذنوه في بث الدعوة فقال محمد الإمام الكوفة شيعة علي و البصرة شيعة عثمان و الشام لا يعرفون إلا آل أبي سفيان و مكة و المدينة قد غلب عليها أبو بكر و عمر لكن عليكم بخراسان فإني أتفاءل إلى مطلع الشمس سراج الدنيا و مصباح الخلق و كان هذا في سنة مائة من الهجرة في ولاية عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه و في سنة إحدى و مائة وجه أبو رياح النبال دعاته إلى خراسان يدعون إلى إمامة بني هاشم و ولاية أهل البيت فجعلوا يدعونهم سراً و استجاب لهم ناس فلما كان سنة أربع و مائة قدم أبو عكرمة من خراسان على محمد بن علي الإمام في جماعة من أصحابه و قد مهدوا الأمر له و في هذه السنة ولد أبو العباس فأخرجه إليهم محمد في خرقة و قال إن الأمر يتم لهذا و يقوم به حتى تدركوا آثاركم من عدوكم و كان في ولاية هشام بن عبد الملك بن مروان وجه أبو هاشم بكر بن ماهان المروزي أبا محمد الصادق في جماعة من الشيعة إلى خراسان دعاة

فنزلوا مرو الروذ فاستجاب لهم قوم فنقبوا عليهم اثني عشر نقيبا منهم سليمان بن كثير الخزاعي و قحطبة بن شبيب الطائي و لاهز بن قريظ التميمي فوشى بهم واشٍ إلى أسد بن عبد الله القسري أخي خالد بن عبد الله و كان خليفة على خراسان لهشام بن عبد الملك فقبض عليهم فقطع أيديهم و أرجلهم و صلبهم و عفا أثر القوم إلى سنة سبع عشرة و مائة ثم تحولوا و أفشوا الدعوة فأخذ أسد بن عبد الله لاهز بن قريظ فضربه ثلاثمائة سوط و ألجم موسى بلجام ثم جذبه فحطم أسنانه و ضرب من أصحابه و من تباعهم و خلى سبيلهم و في سنة ثمان عشرة و مائة مات أبو محمد علي بن عبد الله بن العباس بالحميمة من أرض الشام و في هذه السنة وجه بكر بن ماهان عمار بن بديل واليا على الشيعة بخراسان فجاء حتى نزل مرو و غير اسمه و تسمى بخداش فسارع الناس إلى الاستجابة له ثم لم يلبث أن غير ما دعاهم إليه و مثل لهم الباطل في صورة الحق فرخص لبعضهم في نساء بعض و هو أول من أبدأ مذهب الباطنية في الأرض و زعم أنه أمر الإمام محمد بن علي و دينه و شريعته فأخذه أسد بن عبد الله القسري فقطع يديه و رجليه و لسانه و سمل عينيه و فعل من ظفر به من أصحابه كذلك ثم كتبت الشيعة من خراسان إلى الإمام محمد بن علي بأن يقدم عليهم و الإمام مشمئز منهم لاتباعهم رأي خداش فكتب إليهم كتاباً فلما فكوه لم يجدوا فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم فهالهم ذلك و عرفوا أن ما جاءهم به خداش باطل ثم وجه الإمام بكر بن

ماهان و كتب معه أن خداشاً حمل الشيعة على غير منهاجه فكذبه من بقي منهم على رأس خداش و استخفوا به فرجع و رده إليهم ثانياً و معه عصياً و أمره أن يدفع إلى كل رجل من الرؤساء و الدعاة و النقباء عصىً يكون علامة بينه و بينهم لأن أبا رياح النبال كان وعدهم ذلك من الإمام فلما أتاهم بها عرفوا أنه الحق تابوا و رجعوا و في سنة خمس و عشرين و مائة سار النقباء من خراسان إلى الكوفة فأتوا يونس بن عاصم العجلي و هو في حبس ابن هبيرة و أبو مسلم غلامه يخدمه و قد فهم الدعوة و سارع إليها فلما رأته النقباء و فيه العلامات تفرسوا فيه ارتفاع الأمر على يديه ثم سارت النقباء إلى مكة فلقوا الإمام إبرهيم بن محمد بن علي فأخبروه بخبر أبي مسلم و أعطوه مالاً كانوا حملوه من خراسان فقال لهم إبرهيم إن كان أبو مسلمٍ عبداً فاشتروه وإن كان حراً فخذوه معكم و في سنة ثمان و عشرين و مائة في ولاية مروان بن محمد وجه إبرهيم الإمام أبا مسلم إلى خراسان و كتب معه إلى الشيعة بتأميره عليهم فوقعت الفتنة بخراسان و ذلك أنه لما قتل يحيى بن زيد بن علي رضي الله عنهم اختلف الناس فحبس نصر بن سيار علي بن الكرماني في قهندز مرو و احتال بن الكرماني و انسل من مجرى الماء و جمع الناس و احتشد و زعم أنه يطلب الكتاب و السنة و الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لا يرضى بنصر و عماله ولاة على المسلمين.زلوا مرو الروذ فاستجاب لهم قوم فنقبوا عليهم اثني عشر نقيبا منهم سليمان بن كثير الخزاعي و قحطبة بن شبيب الطائي و لاهز بن قريظ التميمي فوشى بهم واشٍ إلى أسد بن عبد الله القسري أخي خالد بن عبد الله و كان خليفة على خراسان لهشام بن عبد الملك فقبض عليهم فقطع أيديهم و أرجلهم و صلبهم و عفا أثر القوم إلى سنة سبع عشرة و مائة ثم تحولوا و أفشوا الدعوة فأخذ أسد بن عبد الله لاهز بن قريظ فضربه ثلاثمائة سوط و ألجم موسى بلجام ثم جذبه فحطم أسنانه و ضرب من أصحابه و من تباعهم و خلى سبيلهم و في سنة ثمان عشرة و مائة مات أبو محمد علي بن عبد الله بن العباس بالحميمة من أرض الشام و في هذه السنة وجه بكر بن ماهان عمار بن بديل واليا على الشيعة بخراسان فجاء حتى نزل مرو و غير اسمه و تسمى بخداش فسارع الناس إلى الاستجابة له ثم لم يلبث أن غير ما دعاهم إليه و مثل لهم الباطل في صورة الحق فرخص لبعضهم في نساء بعض و هو أول من أبدأ مذهب الباطنية في الأرض و زعم أنه أمر الإمام محمد بن علي و دينه و شريعته فأخذه أسد بن عبد الله القسري فقطع يديه و رجليه و لسانه و سمل عينيه و فعل من ظفر به من أصحابه كذلك ثم كتبت الشيعة من خراسان إلى الإمام محمد بن علي بأن يقدم عليهم و الإمام مشمئز منهم لاتباعهم رأي خداش فكتب إليهم كتاباً فلما فكوه لم يجدوا فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم فهالهم ذلك و عرفوا أن ما جاءهم به خداش باطل ثم وجه الإمام بكر بن
ماهان و كتب معه أن خداشاً حمل الشيعة على غير منهاجه فكذبه من بقي منهم على رأس خداش و استخفوا به فرجع و رده إليهم ثانياً و معه عصياً و أمره أن يدفع إلى كل رجل من الرؤساء و الدعاة و النقباء عصىً يكون علامة بينه و بينهم لأن أبا رياح النبال كان وعدهم ذلك من الإمام فلما أتاهم بها عرفوا أنه الحق تابوا و رجعوا و في سنة خمس و عشرين و مائة سار النقباء من خراسان إلى الكوفة فأتوا يونس بن عاصم العجلي و هو في حبس ابن هبيرة و أبو مسلم غلامه يخدمه و قد فهم الدعوة و سارع إليها فلما رأته النقباء و فيه العلامات تفرسوا فيه ارتفاع الأمر على يديه ثم سارت النقباء إلى مكة فلقوا الإمام إبرهيم بن محمد بن علي فأخبروه بخبر أبي مسلم و أعطوه مالاً كانوا حملوه من خراسان فقال لهم إبرهيم إن كان أبو مسلمٍ عبداً فاشتروه وإن كان حراً فخذوه معكم و في سنة ثمان و عشرين و مائة في ولاية مروان بن محمد وجه إبرهيم الإمام أبا مسلم إلى خراسان و كتب معه إلى الشيعة بتأميره عليهم فوقعت الفتنة بخراسان و ذلك أنه لما قتل يحيى بن زيد بن علي رضي الله عنهم اختلف الناس فحبس نصر بن سيار علي بن الكرماني في قهندز مرو و احتال بن الكرماني و انسل من مجرى الماء و جمع الناس و احتشد و

زعم أنه يطلب الكتاب و السنة و الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لا يرضى بنصر و عماله ولاة على المسلمين.

ابتداء خروج أبي مسلم فتشوشت لذلك واضطربت فأصاب أبو مسلم الفرصة و جد في إقامة الدعوة و نصر بن سيار يناوش ابن الكرماني لا يتفرغ لأبي مسلم و قد بث الدعاة في الأقطار فدخل الناس أفواجاً أفواجاُ و فشت الدعوة ثم كتب الإمام إبرهيم إلى أبي مسلم أن يوافي الموسم و يحمل ما جبى من الأموال فخرج أبو مسلم و حمل ثلاثمائة و ستين ألف درهم سوى الأمتعة و الحمولات و خرج معه النقباء و عدة من الشيعة فلقيه كتاب الإمام في الطريق و لواء عقده له يأمره بالانصراف إلى خراسان و إظهار الدعوة فبعث قحطبة بن شبيب بالمال و عاد أبو مسلم حتى قدم مرو مستخفياً و واعداً الشيعة في الآفاق و النواحي أن يوافوه يوم الفطر فخرج و أمر قاسم بن مجاشع أن يصلي بهم و هي أول جماعة بني العباس ثم كتب أبو مسلم إلى الشيعة في الكوفة بإظهار الدعوة و مكاشفة أعمال أعوان بني أمية وأقبل أبو مسلم حتى نزل خندق نصر بن سيار و عند خندق علي بن الكرماني و كثرت جموعه و هو يظهر لكل واحد منهما و يعده النصر على صاحبه فلما قوي أمره و تكاشف بؤسه هابه الفريقان و كتب نصر بن سيار إلى مروان يخبره بذلك

أرى خلل الرماد وميض جمر ... و يوشك أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعودين تدكى ... وإن الشر ينتجه الكلام

أقول من التعجب ليت شعري ... أيقاظ أمية أم نيام

فكتب إليه مروان أما بعد فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فاحسم الثؤلول قبلك فقال نصر لأصحابه قد أعلمكم صاحبكم أنه لا قوة عنده فاحتالوا لأنفسكم ثم لم يلبث نصر إلا قليلاً حتى خرج هارباً إلى نيسابور و بعث أبو مسلم في إثره ففاته و بعث في الليل إلى منازل قواده و نقبائه فاستحضرهم و ضرب أعناقهم و نصب رؤوسهم في المسجد فلما أصبح الناس و نظروا إليها هالهم ذلك و دخلهم رعب عظيم و عظم أبو سلم في نفوسهم و انكسرت مضر و بعث قحطبة بن شبيب الطائي في أثر نصر بن سيار و خرج قحطبة على طريق جرجان و فيها ابن حنظلة عامل لمروان فخرج إليه فقاتله قحطبة فقتله و خرج نصر بن سيار إلى ساوة فمات بها و سار قحطبة إلى الري و وافى أبو مسلم نيسابور ليكون ردءاً لقحطبة و جعل يمده بالأموال و الرجال فبعث ابنه الحسن بن قحطبة إلى نهاوند فاستنزلهم و بذل لهم الأمان إلا من كان من أهل خراسان فإنه قتلهم كلهم لأنهم خرجوا من خراسان عند ظهور أبي مسلم و سار قحطبة إلى العراق و جاء يوسف بن عمر بن هبيرة خليفة مروان على العراق حتى نزل جلولاء وخندق بها و نزل قحطبة حلوان و قدم ابنه إلى خانقين و أبو مسلم يقدم ابن الكرماني في هذه الأحوال كلها و يسلم عليه بالإمارة و يريه أنه يتبعه و يعمل برأيه استظهاراً منه على ربيعة و مضر فلما أفنى ربيعة و مضر وثب على ابن الكرماني فقتله و صفت المملكة له و أمد قحطبة بالأموال و الرجال فلما ترادفت الامداد إليه سار إلى جلولاء وانصرف يوسف بن عمر بن هبيرة إلى العراق و استولى قحطبة على ما وراء دجلة و أبو سلمة السبيعي رأس النقباء بالكوفة في جمع كثير من العرب و الخراسانية و هي سنة إحدى وثلاثين و مائة و حج في هذه السنة الإمام إبرهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس و معه أخواه أبو العباس و أبو جعفر و ولده و مواليه على ثلاثين نجيباً عليهم الثياب الفاخرة و الرحال و الأثقال فشهره أهل الشام و أهل البوادي و الحرمين معما انتشر في الدنيا من ظهور أمرهم و بلغ مروان خبر حجهم فكتب إلى عامله بدمشق الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم يأمره بتوجيه خيل إليه و كان مروان بأرض الجزيرة يقاتل الشراة فوجه إليه الوليد خيلاً فهجموا على إبرهيم

فأخذوه و حملوه إلى سجن حران و أثقلوه بالحديد و ضيقوا عليه الحلقة حتى مات فدفن بقيده و لما أحس إبرهيم بالطلب أوصى إلى أبي العباس و نعى نفسه إليه و أمره بالمسير إلى الكوفة بأهل بيته فسار أبو العباس و أخوه أبو جعفر و عماه داود بن علي و عبد الله بن عبد الله بن العباس و ابن عمه موسى بن داود بن علي ستة رجال شايعهم يحيى بن جعفر بن شمام بن العباس حتى قدموا الكوفة مستخفين و جاء الشيعة نعي إبرهيم الإمام فقال أبو هدبة

ناع نعى لي إبرهيم قلت له ... شلت يداك و عشت الدهر حيرانا

نعى الإمام و خير الناس كلهم ... أخنت عليه يد الجعدي مروانا

و أنزلهم أبو سلمة في دار و كتم أمرهم و قال ينبغي أن يتربصوا فإن الناس بايعوا إبرهيم و قد مات و لعل يحدث بعده أمر و أراد أن يصرف الأمر إلى علي بن أبي طالب لأن أول الأمر كان دعوا الناس إليهم فكانوا في حصنه نحواً من شهرين و عسكر أبو سلمة بحمام أيمن و فرق عماله في السهل و الجبل و كتب إلى جعفر بن محمد وإلى عبد الله بن الحسين و إلى عمر بن الحسين بن علي و دفعها إلى رجل و أمره أن يلقى جعفر بن محمد فإن قبل ما كتب به إليه مزق الكتابين و إن لم يقبل لقي عبد الله بن الحسين بن الحسن فإن قبل مزق الكتاب الثالث فإن لم يقبل لقي عمر بن علي بن الحسين بن علي فقدم الرسول المدينة و لقي جعفر بن محمد بالكتاب ليلاً فقرأ الكتاب وسكت فقال له الرسول ما تجيب فقدم الكتاب من السراج و أحرقه و قال هذا جوابه فلقي الرسول عبد الله بن الحسين بن الحسن و أوصل الكتاب إليه فقبل و أجاب إلى ذلك فأشار عليه جعفر بن محمد بالإعراض عنه فإن أبا سلمة مخدوع مقتول و إن هذا الأمر لا يتم لكم فإن أبا هاشم أخبرهم أنه يكون في ولد العباس و فات الوقت الذي كان قوم ينتظرونه بخروجهم فارتاب أهل خراسان فاجتمعوا إلى أبي سلمة و قالوا قد خرجنا من قعر خراسان إليك و قد مضى من الوقت ما ترى فإما أن تخرج إلينا الإمام الذي دعوتنا إليه و إما أن نعود إلى أوطاننا و كان الناس يسمونهم المسودة لسواد ثيابهم و كتب أبو مسلم إلى قحطبة أن صادم ابن هبيرة فالتقيا بفم الزاب و هو على عشرين فرسخاً من الكوفة فانهزم ابن هبيرة و مضى إلى واسط و تحصن فيها و فقد قحطبة فلم يدر أقتل أم غرق و ولى أمر المسودة حميد بن قحطبة فسار في إثر ابن هبيرة فحاصره و كان أبو مسلم واعد إبرهيم الخروج يوم كذا من شهر كذا و بعث معهم القواد و النقباء الذين كانوا استجابوا له و تابعوه إلى الكوفة لذلك اليوم و بعث معهم بالسواد و السيف و المراكب و ما يحتاج الإمام إليه من المال و الفرش و الأثاث و السلاح ففات الوقت و لم يروا من ذلك شيئاً لموت إبرهيم و غدر أبي سلمة و كان يقال لأبي سلمة وزير آل محمد فناظروا بأبي سلمة في ذلك و ألحوا عليه فقال أبو سلمة لا تعجلوا و جعل ينتظر ورود من كاتبهم من العلوية و كان أبو حميد السمرقندي أحد القواد أهدى غلاما خوارزمياً يقال له سابق إلى الإمام إبرهيم فلقيه في بعض الطريق فسأله عن الإمام فأخبره أنه في دار بني فلان و أن أبا سلمة ينهاه عن الظهور و الخروج فقال له أبو حميد خذني إليه لا أفعل إلا بإذنه قال فاستأذنه و أعلمني فذهب سابق إليهم فأخبرهم بخبر أبي حميد فخشوا و هابوا و قالوا لا نأمن إن أظهرنا حميداً على أمرنا أن يقتلنا أبو سلمة لأنه كان يحذرهم الخروج فقال أبو العباس إلى متى نحن في خفية و قد أوعدنا أبو هاشم أن الأمر صائر إلينا فهات أبا حميد فخرج سابق إلى أبي حميد فجاء به فلما بلغ الدار قال له سابق ألق عنك سلاحك و سوادك فإنهم يهابونك فألقى سلاحه ثم دخل فلما رأى شيعتهم سلم عليهم و وقف و قال من إبرهيم الإمام منكم قالوا ذاك قد مضى لسبيله فاسترجع و ترحم عليه و عزاهم عنه ثم قال من ابن الحارثية منكم فأشاروا إلى ابن العباس فسلم عليه بالخلافة و قبل الأرض بين يديه و قال هذا إمامكم و خليفتكم و خرج فأخبر القواد و النقباء فأسرعوا إليه و سروا

به و سلموا عليه بالخلافة وبلغ الخبر أبا سلمة فانتفض عليه تدبيره و جاء فاعتذر و قال إنما أردت بما فعلت الخير فقال له أبو العباس قد عذرناك غير معتذر حقك لدينا معظم و سالفتك في دولتنا مشكورة و زلتك مغفورة فارجع إلى معسكرك لا يدخله خلل.

ابتداء خلافة بني العباس و خرج أبو العباس ليلة الجمعة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول في مثل مولد النبي صلى الله عليه وسلم يوم هجرته سنة اثنتين وثلاثين و مائة و عليه دراعة سوداء و كساء أسود فصلى المغرب في مسجد بني أيوب فهي أول صلاة صلاها في الخلافة و دخل منزله فلما أصبح غدا القواد في التعبية و الهيبة و قد أعدوا له السواد و المركب و السيف فخرج أبو العباس في من معه إلى قصر الإمارة ثم خرج إلى المقصورة و صعد المنبر و جلس و صعد معه عمه داود بن علي و كان فصيحاً بليغاً و قد اجتمع القواد و أعيان الناس فقال و الله ما قام على منبركم هذا أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق به من علي بن أبي طالب رضي الله عنه و أمير المؤمنين هذا أبسط يدك أبايعك فبسط يده فقال داود أنا داود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب و قد بايعتك ثم نزل فصعد أبو جعفر أخوه فبايعه ثم بايعه أهل بيته و بنو هاشم ثم القواد ثم الرعايا و لم يزالوا يضربون على يده إلى أن أذن للصلاة قام أبو العباس فخطب و صلى ثم ركب حتى أتى معسكر أبي سلمة حفص بن سليمان فنزل و جاء أبو سلمة فبايعه و بايعه أهل عسكره فوجه أخاه أبا جعفر لمعاضدة ابن قحطبة و وجه عمه عبد الله بن علي إلى مروان و هو نازل بالزاب و ولى خالد بن برمك الخراج ابن أبي ليلى القضاء و سابق الخوارزمي الشراب و أكمن رجالاً ففتكوا بأبي سلمة و أرجفوا بأن الخوارج قتلته ثم ارتحل أبو العباس من الهاشمية إلى الحيرة فنزلها و بعث الوفود ببيعته في سلطانه و استأمن ابن هبيرة فآمنوه و قتلوه و واقع عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس مروان بن محمد فهزمه و انتهب معسكره فمر مروان على وجهه حتى أتى الموصل فلم يفتح له و مضى فعبر جسر الفرات فوق حران و أحرق السفن فنزل عبد الله بن علي على الفرات يصلح السفن ليعبر و فتح الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان الخزائن و فرض للناس و اجتمع إليه خمسون ألفاً من المقاتلة بدمشق و جمع مروان جمعاً عظيماً بنهر فطرس من أرض فلسطين و بعث أبو العباس أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم بخراسان يخبره بغدر أبي سلمة و يعتذر من قتله فبايعه أبو مسلم ببيعة أهل خراسان له و وصل أبا جعفر بمال له خطر و مقدار و حمل إلى أبي العباس خيلاً و رقيقاً و سلاحاً و هدايا جمة و عبر عبد الله بن علي الفرات و حاصر دمشق حتى افتتحها و قتل من بها من بني أمية و هدم سورها حجراً حجراً و نبش عن قبورهم فأحرقهم و أحرق عظامهم بالنار و لم يجد في قبر معاوية عليه اللعنة إلا خطاً أسود كأنه رماد و لا في قبر يزيد لعنه الله إلا فقارة ظهره فأحرقه و بعث بمن ظفر به من أولادهم و مواليهم إلى أبي العباس فقتلهم و صلبهم كلهم بالحيرة و ارتحل عبد الله بن علي نحو مروان فهزمه و استباح عسكره و نزل في مناخ الاستراحة و اجتمع رؤساء بني أمية اثنان و ثمانون رجلاً و جاؤوا يستأذنون على عبد الله معتذرين فأذن لهم و قد أكمن رجالاً من المسودة و معهم الكافر كوبات و قال إذا ضربت بقلنسوتي الأرض فابرزوا و دخل القوم فسلموا عليه بالخلافة فنادى يا حسن بن علي يا حسين بن علي يا زيد بن علي يا يحيى بن زيد ما لكم لا تجيبون و تجيب بنو أمية فأيقن القوم بالهلاك و أنشأ عبد الله يقول

حسبت أمية أن استرخي هاشم ... عنها و ينهب زيدها و حسينها

كلا و رب محمد و كتابه ... حتى يشار كفورها و خؤونها

ثم ضرب بقلنسوته الأرض و قال يا ثارات الحسين فخرجت المسودة و دقوهم بالكافر كوبات حتى شدخوهم عن آخرهم ثم دعا بالبسط و الأنطاع و فرشها عليهم و دعا بالطعام فأكل فوق هامهم و إن منهم لمن يأن أسى و قال ما أكلت طعاماً مذ سمعت بقتل الحسين أطيب من هذا قالوا ما أكلت طعاماً مذ سمعت بقتل الحسين أطيب من هذا قالوا و حلف ناس من أهل الشام أنهم ما علموا لرسول الله قرابة غير بني أمية و بعث عبد الله بن علي في أثر مروان فلحقوه ببوصير من حدود مصر فقتله و بعث برأسه إلى أبي العباس فبعثه أبو العباس إلى أبي مسلم و أمره أن يطيف به في خراسان و قالوا و لما أيقن مروان بالهلاك دفن قضيب رسول الله صلى الله عليه وسلم و مخصفته في رمل كي لا يعثر عليه أحد و لا ينال فلهم عليه خصي من خصيانه فاستخرجا و بعثا بهما إلى أبي العباس ويقال أن الذي قتل مروان عامر بن إسماعيل من أهل مرو.

خروج السفياني على أبي العباس و في السنة الثانية من ولاية أبي العباس و هي سنة ثلاث و ثلاثين و مائة خرج زياد بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بحلب و بيضوا ثيابهم و أعلامهم و ادعى الخلافة فبعث أبو العباس أخاه فأتاه من جانب الجزيرة و جاءه عبد الله بن علي من فوقه فواقعاه و هزماه و مزقوا جموعه كل ممزق و قتلوا ما لا يحصى ثم اذكوا العيون على الأمويين يقتلون رجالهم و نساءهم و ينبشون عن قبورهم فيحرقونهم فمن سمى عبد الله بن علي السفاح و فيه يقول الشاعر

و كانت أمية في ملكها ... تجول و تظهر طغيانها

فلما رأى الله أن قد طغت ... و لم تطق الأرض عدوانها

رماهم بسفاح آل الرسول ... فحز بكفيه أذقانها

و في السنة الثالثة من ولاية أبي العباس انفض أمر بخارا بنجوم شريك بن شيخ القهري في ثلاثين ألفاً من فلال العرب و سائر الناس و نقموا على أبي مسلم سفكه الدماء بغير حق و إسرافه في القتل فنهض إليهم أبو مسلم وعلى مقدمته زياد بن صالح و أبو داود خالد بن إبرهيم الذهلي فناجزهم و قتل شريك بن شيخ و افتتح بخارا و السغد ثانيا و أمر ببناء حائط سمرقند ليكون حصناً لهم إن دهمهم عدو و بعث زياد بن صالح فافتتح كور ما وراء النهر حتى بلغ طرازاً و اطلخ فتحرك أهل الصين و جاؤوا أكثر من مائة ألف و تحصن سعيد بن حميد في مدينة الطراز و أقام أبو مسلم في معسكره بسمرقند و استمد العمال و حشر المطوعة إلى سعيد بن حميد فواقعهم دفعات و قتل منهم خمسة و أربعين ألفاً و أسر خمسة و عشرين ألفاً و انهزم الباقون فاستولى المسلمون على عسكرهم و انصرف إلى بخارا و بسط يده على ملوك ما وراء النهر و دهاقينها فضرب أعناقهم و سبى ذراريهم و استصفى أموالهم و عبر النهر من السبى غير مرة بخمسين ألفاً خمسين ألفاً و هم أبو مسلم بغزو الصين و هيأ أهبة لذلك فشغله عنه إظهار زياد بن صالح كتاباً من أبي العباس بولايته على خراسان من غير أن كان لذلك أصل فعمل أبو مسلم في ذلك حتى قتل زياداً و بعث برأسه إلى أبي العباس و كتب إليه يستأذنه في الحج و اختار من جلة رجاله خمسة آلاف فقدمهم أمامه و خرج و استخلف على خراسان أبا داود فلما انتهى إلى الري تلقاه كتاب أبي العباس بتخليف من معه من الجنود بالري و أن تقدم في خمسمائة رجل فكتب إني قد وترت الناس و لا آمن على نفسي ألا أن أكون في كنف قوي فكتب إليه أن أقبل في ألف فلما بلغ أبو مسلم الحيرة تلقاه أبو العباس في بني هاشم و سائر القواد من العرب و الموالي و بالغ في إلطافه و تكرمته وشكر صنيعه و أشار أبو جعفر عليه بقتله فقال أبو العباس يا أخي قد عرفت بلاءه عندنا و قيامه بأمرنا و سابقته في دولتنا قال إن في رأسه و إنما بلغ ما بلغ بدولتنا و أيامنا فتغد به قبل أن يتعش بك قال و كيف الحيلة فيه قال إذا دخل عليك فاشغله بالكلام حتى آتيه من ورائه فأضربه عنقه قال

دونك فاصنع ما أنت صانع و دخل أبو مسلم للسلام فأخذ أبو العباس يسأله عن وقائعه و حيله إذ أدركته حالة صرفته عما هم به فقال لبعض شاكريته قل لأبي جعفر لا يفعل ذلك ثم قال لأبي مسلم لولا أن أبا جعفر ولى ابن أخيه أميراً على الحاج لكنت أنت فخرج أبو جعفر و أبو مسلم بتقدمته حتى إذا بلغ صفينة موضعاً بين البستان و ذات عرق بلغه خبر وفاة أبي العباس فسار حتى حج بالناس و أقبل منصرفاً إلى الحيرة.

خروج عبد الله بن علي على أبي جعفر

و لما مات أبو العباس ادعى الخلافة عبد الله بن علي و بايعه أهل الشام و الجزيرة و ذلك أن أبا العباس لما ظهر أمره وضع سيفاً و قال من تقلد هذا السيف و سار إلى مروان فله الخلافة بعدي فتحاماه الناس و قام عبد الله بن علي فتقلده و سار فقاتل مروان فقتله فلما مات أبو العباس قام بالخلافة و بايعه الناس على ذلك و كان أجلدهم و أشجعهم فهال ذلك أبا جعفر و استشار أبا مسلم فقال الرأي إن تعاجله و لا تتأنى به فأنهض أبا مسلم و جعل له الشام و ما وراءه من الخراسانيات فسار أبو مسلم إلى نصيبين و قد وافاها عبد الله بن علي في مائة ألف مقاتل و مائة ألف من الفعلة و حفر الخندق من جبل نصيبين إلى نهرها و جعل فيه ما يحتاج إليه من العدة و الآلة و نصب المجانيق و العرادات و بث الحسك و سد الطريق على من يقصده من العراق و جعل الخصب و القرى وراءه فلما نظر أبو مسلم إلى ذلك و أنه قد بلغ الخصب و القرى و الميرة و العلوفات و أن لا مقام للعسكر بأذائه احتال في إخراجه فعدل عن عبد الله و أخذ في طريق الشام فخشي عبد الله أن يستولي أبو مسلم على الشام فوجه أخاه المنصور بن علي في جيش عظيم فهزمهم أبو مسلم و قتل منهم مقتلة عظيمة و مر على وجهه يظهر أنه يريد الشام فخرج عبد الله في أثره كلما ارتحل أبو مسلم من منزل نزل عبد الله فيه حتى علم أبو مسلم أنه خرج جميع عساكره عن الخندق و ضيعوا العورة عطف أبو مسلم على نصيبين ركضاً فغلب على الخندق و صار في يده جميع ما فيه و أقبل عبد الله حتى نزل على أربعة فراسخ من نصيبين في موضع ليس فيه ماء إلا ماء الآبار فبسط الأمان للناس و بذل الأموال ثم لم يمكن عبد الله المقام فهرب ليلاً و استولى أبو مسلم على خزائنه و أمواله و ما كان احتواه من نهب بني أمية و كنوز الشام ثم أسر عبد الله بن علي و حمل إلى أبي جعفر فخلده الحبس إلى أن مات و أقام أبو مسلم بنصيبين و استقامت له أمور الشام و سرح أبو جعفر أمناء على الأفياض و الخزائن و بعث يقطين بن موسى و أمره بإحصاء ما في العسكر فغضب أبو مسلم و شتم أبا جعفر و قال أمناء على الدماء خونة على الأموال و أقبل من الجزيرة مجمعاً على الخلاف معارضاً بخراسان و خرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن و كتب إلى أبي مسلم بالمصير فكتب إليه أبو مسلم أما بعد فإنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه و قد كنا نروي عن ملوك ساسان أن أخوف ما تكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت حريون بالسمع و الطاعة غير أنهما من بعيد حيث يقارنهما السلامة فإن أرضاك ذلك فأنا أحسن عبيدك و إن أبيت ألا تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت ضناً بنفسي فكتب إليه المنصور قد فهمت كتابك و ليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة الذين اضطراب حبل الدولة إليهم لكثرة جرائمهم و إنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم و أنت في طاعتك و مناصحتك و اضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر بحيث أنت و قد حمل أمير المؤمنين رسالة لتسكن إليها إن أصغيت نحوها فاسأل الله تعالى أن يحول بين الشيطان و بين نزغاته منك و وجه بجرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي و كان أوحد زمانه في المكر و الخداع و الدهاء و التلبيس و اللسان فخدعه بكلامه و سحره بمواعيده و حلف له أبو جعفر بكل عين يحلف بها ذوو الأديان من الطلاق و العتاق و الأيمان و ضمن له بن موسى و جرير بن يزيد بن جرير الوفاء من أبي جعفر بالعهد و كتبوا له كتب الأمان و كان

أبو مسلم يقول لأقتلن بأرض الروم و أقبل منصرفاً من الري إلى العراق.

مقتل أبي مسلم

قالوا و لما أخذ أبو مسلم على طريق الجبال من أرض الجزيرة اشتد رعب أبي جعفر و خشي إن هو سبقه إلى خراسان أن يقاتله بما لا قبل له به فاجتمع الرأي و عمل المكائد و هجر النوم و جعل يقعد و حده و يخاطب نفسه و أتاه أبو مسلم و هو بالرومية في مضاربه فأمر الناس بتلقيه و إنزاله و إكرامه غاية الكرامة أياماً ثم أخذ في التجني عليه فهابه أبو مسلم و كان استشار بانويه رجلاً من أصحابه بالري عند ورود الرسل عليه فأشار عليه بالامتداد إلى خراسان و ضرب أعناق الرسل فقال أبو مسلم هوذا أرى يرميني فما الرأي قال تركت الرأي بالري فذهبت مثلاً و لكن الحيلة أن تبدأ به فإنك مقتول فإذا دخلت عليه فأعله بسيفك و نحن على الباب ثم إن أمكنك أن تدافع عن نفسك إلى أن نصل إليك و أجمع أبو جعفر على قتله وأعد من أصحاب الحرس أربعة نفر فأكمنهم في البيوت منهم شبيب المروزي و أبو حنيفة حرب بن قيس و قال إذا أنا صفقت بيدي فشأنكم و بعث إلى أبي مسلم يدعوه في غير وقت فجاء إليه باستدعائه عيسى بن موسى وهو صاحب عهده و ذمته فقال له عيسى تقدم و أنا ورائك فقال له أبو مسلم أنا أخافه على نفسي فقال عيسى أنت في ذمتي و جواري و كيف تظن بأمير المؤمنين أن ينقض عهدك و أرسل أبو جعفر إلى عيسى أن تخلف عن المجيء و جاء أبو مسلم فقام إليه البواب و قال ليعطيني الأمير سيفه قال ما كان يفعل هذا قبل قال هذا لا بد منه فأعطاه و دخل فشكا إلى أبي جعفر ذلك و قال و من أمره ذلك قبحه الله ثم أقبل عليه يعاتبه و يذكر عثراته فمما عد عليه أن قال ألست الكاتب إلي تبدأ بنفسك و دخلت إلينا فقلت أين ابن الحارثية و جعلت تخطب آمنة بنت علي بن عبد الله بن العباس و تزعم أنك سليط بن عبد الله بن عباس ما دعاك إلى قتل سليمان بن كثير الخزاعي مع أثره في دعوتنا و سعيه في دولتنا قبل أن يدخلك في شيء من هذا الأمر فجعل أبو مسلم يعتذر إليه و يقبل الأرض بين يديه و يقول أراد الخلافة علي فقتلته فقال أبو جعفر يعصيك و حاله عندنا حاله فتقتله فتعصينا فلا نقتلك قتلني الله إن لم أقتله ثم ضربه بعمود في يده و صفق فخرج الحرس فضربوه بسيوفهم و هو يستصرخ و يستأمن و يقول أبو جعفر ما تزيد يا بن اللخنا إلا غيظاً المقتل قتلكم الله اقتلوه فقتلوه و لفوه في بساط و نحوه ناحية ثم استأذن إسماعيل بن علي الهاشمي فأذن له فلما قام قال إني رأيت في المنام كأنك ذبحت كبشاً و إني توطأته برجلي قال صدقت رؤياك قتل الله عز و جل القاسق قم فتوطأه برجلك و أمر أبو جعفر أن لا يؤذن عليه و نام نومة ثم قام و قال ما تهيأت للخلافة إلى اليوم و بانويه في ثلاثة آلاف من الخراسانية و وقوف على الباب لا يدرون ما الخبر فقال أبو جعفر فرقوا هؤلاء العلوج عني أنشأ يقول

زعمت أن الدين لا يقتضى ... فاستوف بالكيل أبا مجرم

سقيت كأسا كنت تسقى بها ... أمر في الحلق من العلقم

و كتب أبو جعفر إلى أبي داود بعهده على خراسان.

خروج سنفاد المجوسي و لما قتل أبو مسلم خرج سنفاد المجوسي بنيسابور يزعم أنه ولى أبي مسلم و الطالب بثأره و سار حتى غلب على الري و ما وراء النهر من النواحي و قبض خزائن أبي مسلم و فرقها في الفروض و بلغت جموعه تسعين ألفاً فبعث المنصور جمهور العجلي في عشرة آلاف فالتقوا بين همذان والري فقتل منهم ستين ألفاً و سبي من نسائهم و أولادهم ما الله به عليم و قتل سنفاد فكان بين مقتله و مخرجه سبعون يوماً.

موت أبي داود خالد بن إبرهيم و هم أبو داود بالمسير إلى ما وراء النهر و قاد العساكر إلى مرو فبينا هو نازل للاستراحة في قصر بكشمهن إذ ثار الجند ليلاً تشويشاً فأشرف عليهم أبو داود ليلاً من القصر معتمداً على أجرة

فزلت الأجرة فسقط أبو داود على رقبته فانكسر فولى المنصور ابنه المهدي و أمره أن ينزل الري و يستعمل على خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن الحارثي.

خروج الروندية و خرج ناس من أهل خراسان بمدينة الهاشمية و قالوا قولاً عظيماً و هو أن أبا جعفر إلاهنا يحيينا و يميتنا و يطعمنا و يسقينا قالوا بتناسخ الأرواح و أن روح آدم تحولت في عثمان بن نهيك و أبو الهيثم بن معاوية هو جبريل و جاءوا إلى قصر أبي جعفر يطوفون به و يقولون هذا قصر ربنا فأنكر ذلك أبو جعفر و خرجوا إلى الناس يهرجونهم بالسيوف فخرج المنصور في مواليه فقتلهم أبرح قتل فأبلى معن بن زائدة ذلك اليوم بين يديه بلاء حسناً.

خروج محمد و إبرهيم من ولد الحسين بن علي على أبي جعفر قال و كان أبو العباس ملاطفاً لعبد الله بن الحسن باراً به فأخرج يوماً سفطاً من جوهر و قاسمه فأنشأ عبد الله يقول

ألم تر حوشباً أمسى يبني ... قصوراً نفعها لبني نفيله

يؤمل أن يعمر عمر نوح ... و أمر الله ينزل كل ليله

فغضب أبو العباس من قوله و نفاه إلى المدينة ثم لما ولي أبو جعفر ألح في طلب ابنيه محمد و إبرهيم فتوارى عن الطالبين و تغيبوا عنه و حج أبو جعفر و أمر بطلب أبيهما عبد الله بن الحسن و داود و إبرهيم فأتي بهم و هم بالربذة فسأله عبد الله بن الحسن و هو شيخ كبير أن يأذن له فلم يأذن و بسطوا عليهم العذاب حتى دلوا على من كان اختفى منهم بجبلى طيءٍ فبعث في طلبهم فأخذوا اثني عشر إنساناً و رحلهم كلهم إلى الكوفة و حبسهم في بيت ضيق لا يتمكن أحدهم من مقعده يبول بعضهم عل بعض و يتغوط لا يدخل عليهم روح الهواء و لا يخرج عنهم رائحة القذر حتى ماتوا عن آخرهم فخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة و جمع الجموع و فرض الفروض و تسمى بالمهدي فبعث إليه أبو جعفر عيسى بن موسى و حميد بن قحطبة بن شبيب في الخرسانية و حاصروا المدينة أياماً و واقعوهم مراراً ثم خرج محمد بن عبد الله و قال لأهله إن قطرت السماء قطرة فأحرقوا الديوان فأتى مقتول و واقف القوم و قال يا أهل فارس يعني الخرسانية اخترتم الدينار و الدرهم على ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أنا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فانتفضت الخرسانية و خاف عيسى بن موسى الخلاف فنادى حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي إن كنت محمد بن عبد الله فأنا حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي سلمان كشند فحملوا عليه حملة واحدة فقتلوه و حزوا رأسه من أصل رقبته معلقاً به أحشاءه و ما يتصل به و حملوه إلى أبي جعفر قالوا و لما خرج محمد بن عبد الله هاجت سحابة فمطرت فأحرق الديوان.

ثم خروج أخيه إبراهيم بن عبد الله بالبصرة في ثلاثين ألفاً و يقال في سبعين ألفاً و اشتدت مخافة أبي جعفر وأعد الرواحل للهرب و نقل ديوانه و أهل بيته إلى دمشق و بعث عيسى للقاء إبرهيم ويئس أبو جعفر من الأمر و قال أترون أن هذا الذي بلغنا باطلاً إن الأمر لا يزال فينا حتى تلعب به صبياننا فقال له سهل لا بأس فإن الظفر لكم فلم يلبث أن جاء عيسى برأس إبرهيم فتمثل بقول الشاعر

فألقت عصاها و استقر بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

ومن ثم مر إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المغرب فهم بها إلى اليوم.

خروج استادسيس قالوا و اجتمع من الغزية نحو ثلاثمائة ألف مقاتل من أهل هراة و باذغيس و كنج رستاق و سجستان و نواحيها و معهم المرور و المساحي و الفؤوس و رئيسهم استادسيس وغلبوا على عامة خراسان فوجه

أبو جعفر خازم بن خزيمة فقاتلهم قتالاً شديداً و قتل منهم في المعركة تسعين ألفاً و هزمهم و فرق جمعهم وسبى ذراريهم.

قتل عمر بن حفص بن أبي صفرة بإفريقية كان أبو جعفر ولاها إياه فخرج عليه أبو عادي و أبو حاتم الأباضيان في أربع مائة ألف رجل من البربر و المغاربة منهم ثلثمائة و خمسة عشر ألفاً رجالاً و خمسة و ثمانون ألفاً فرساناً فغلبوه و قتلوه وغلبوا على المغرب فوجه أبو جعفر يزيد بن حاتم في خمسين ألفاً وأنفق على ذلك الجيش ثلاثة و ستين ألف ألفَ درهم يكون بالأوقار ألفي وقر و ثمانين و قراً و كل و قر ثلاثون ألفاً فقتل أبو عادي و أبو حاتم و حمل رؤوسهما إليه واستوت له بلاد المغرب و بنى أبو جعفر مدينة بغداد سنة خمس و أربعين و مائة و بنى قصر الخلد سنة سبع و خمسين و مائة و نقل الأسواق من مدينة السلام إلى باب الكرخ و باب المحول و خندق على الكوفة و سورها و كذلك البصرة و خندق عليها و خلع عيسى بن موسى و عقد البيعة لابنه محمد المهدي و لعيسى بن موسى من بعده و مات أبو جعفر في طريق مكة ببئر ميمون وفي أيامه صار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ستين إلى الأندلس فملكها ثم ابنه هشام بن عبد الرحمن عشرين سنة و كان وقوع عبد الرحمن إليها سنة ثمان و ثلاثين فهم ولاتها إلى اليوم.

خلفاء بني العباس أولهم أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بويع يوم الجمعة لاثني عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين و ثلاثين ومائة و هو أبو العباس أمير المؤمنين المرتضى بن محمد بن علي السجاد ذي الثفنات بن عبد الله الحبر بن العباس ذي الرأي بن عبد المطلب شيبة الحمد و أم أبي العباس ريطة بنت عبيد الله بن عبد المدان و هو الذي انتشرت الأخبار بإفضاء الخلافة إليه و كان أبو العباس رجلاً طوالاً أبيض اللون حسن الوجه ولد بالشراة في أيام هشام بن عبد الملك و لما قدم الكوفة نزل بحمام أعين في موضع عسكر أبي سلمة فسمى الهاشمية ثم تحول من الهاشمية إلى الحيرة ثم تحول من الحيرة إلى الأنبار و بنى بها مدينة و مات سنة ست و ثلاثين و ماية و كانت ولايته أربع سنين و ثمانية أشهر و كان سنة أربعاً و عشرين سنة و خلف أربعة أقمصة و خمس سراويلات وأربع طيالسة و ثلاث مطارف خز و رثاه أبو دلامة

من مجمل في الصبر عنك فلم يكن ... جزعي و لا صبري عليك جميلا
يجدون أبدالاً و إني عالم ... ما عشت دهري ما وجدت بديلا
إني سألت الناس بعدك كلهم ... فوجدت أجود من سألت بخيلا

فقالت له امرأة أبي العباس ما أصيب به غيري وغيرك فقال أبو دلامة و كان مزاحاً و لا سوء لك منه ولد و لا ولدي منه و كانت ولدت له محمد بن أبي العباس و دفن في قصره بالأنبار و في تأريخ خرزاد أنه بلغ من السن ثلاث و ثلاثين سنة و الله أعلم و كان يكره الدماء و يحابي على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم و كان مختصاً بسليمان بن هشام ابن عبد الملك و عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب و كان يقعد عبد الله بن الحسن عن يمينه و الأموي عن يساره فلما أنشده عبد الله ألم تر حوشباً نفاه إلى المدينة ثم لما أنشأ يقول سديف

لا يغرنك ما ترى من رجالٍ ... إن تحت الرجال داء دويا
فضع السيف و ارفع السوط عنهم ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

ثم أمر بسليمان فقتل أبو جعفر المنصور بويع أخوه أبو جعفر المنصور و هو عبد الله بن محمد بن العباس سنة سبع وثلاثين و مائة و أمه بربرية يقال لها سلامة ولد بأرض الشراة في أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان و كان أكبر من أبي العباس بثماني عشرة سنة و ذكروا أنه كان رجلاً أسمر نحيفاً طويل القامة قبيح الوجه و دميم الصورة ذميم

الخلق أشح خلق الله و أشده حباً للدينار و الدراهم سفاكاً للدماء ختاراً بالعهود غداراً بالمواثيق كفوراً بالنعم قليل الرحمة و كان جال في الأرض و تعرض للناس و كتب الحديث و حدث في المساجد و تصرف في الأعمال الدنية و الحرف الشائنة و قاد القود لأهلها و ضربه سليمان ابن حبيب بالسياط في الجملة و التفصيل كان رجلاً دنياً خسيساً كريهاً شريراً فلما أفضى الأمر إليه أمر بتغيير الزي و تطويل القلانس فجعلوا يحتالون لها بالقصب من داخل فقال أبو دلامة في هجوه

و كنا نرجي من إمام زيادة ... فزاد الإمام المصطفى بالقلانس
تراها على هام الرجال كأنها ... ديار يهود جللت بالبرانس

و أمر بعدد أهل الكوفة و وظف خمسة دراهم على كل دار فلما عرف عددهم جباهم أربعين درهماً أربعين درهماً فقالوا

يا لقوم ما لقينا من أمير المؤمنينا ... قسم الخمسة فينا و جباها أربعينا

و حج غير مرة و زار القدس و بنى مدينة المصيصة و مدينة الرافقة بالرقة على قدر مدينة السلام و وسع طرق المدينة و أرباضها و أمر بهدم ما شخص عنها و وسع المسجد الحرام و جمع من المال ما لم يجمعه أحد قبله و لذلك قيل له أبو الدوانيق و خرج محرماً بالحج فعرض له وجع ببثر ميمون هاض له بطنه ثم انقض كوكب في إثره إلى طلوع الشمس و مات فحمل إلى مكة فدفن مكشوف الرأس و خلف من الصامت تسع مائة ألف ألف درهم و ستين ألف ألف درهم سوى سائر الأصناف و لم يروا منها بشيء و زعم زاعم أنه وقف عليه أعرابي في طريقه قبل موته بست أيام فأنشده

أبا جعفر حانت وفاتك و انقضت ... سنوك و أمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم ... بحيلته عنك المنية دافع

و يقال بل هتف به في نومه و رثاه مروان بن أبي حفصة

أبا جعفر صلى عليك إلاهنا ... لموتك أمسى أعظم الحدثان
بكى الثقلان الإنس و الجن إذ ثوى ... و لم يبك ميتاً قبلك الثقلان

خبر أبي مسلم صاحب الدعوة اختلف الناس في اسمه و بلده فأكثرهم على أنه أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم ولد بأصبهان و نشأ عند إدريس بن عيسى جد أبي دلف فكان مع ولده في المكتب إلى أن حفظ القرآن و روى الأشعار و قال بعضهم هو أبو إسحق إبرهيم بن عثمان و أمه وشيلة بنت فلان و زعم قوم أنه كان من قرية من قرى مرو و يقال بل كان من العرب و قيل كان عبداً و أما أبو دلامة فإنه نسبه إلى الأكراد حيث هجاه و قالوا في حليته و هيأته أنه كان قصير القامة أسمر اللون دقيق البشرة حلو المنظر طويل الظهر قصير الساق لم ير ضاحكاً و لا ممازحاً يأتيه الفتوح العظام فلا يعرف بشره في وجهه و ينكب النكبة العظيمة فلا يرى مكتئباً لها قليل الرحمة قاسي القلب سوطه سيفه قتل من الأصناف كلها بدأ بمضر في خراسان فأفناهم ثم اليمن ثم الربيعة ثم القضاة ثم القراء ثم الملوك ثم الدهاقين و المرازبة و النصارى و الدماوندية و النهاوندية و اليهود و قتل ستمائة ألف ممن يعرف صبراً سوى من لا يعرف ومن قتل في الحروب و الهيجات و قتل و لم يترك داراً و لا عقاراً و لا عبداً و لا أمةً و لا ديناراً و لا درهماً و كانت عنده ثلاث نسوة و كان لا يطأ المرأة منهن في السنة إلا مرة واحدة و يقال يكفي الإنسان أن يختن نفسه في السنة مرة و كان من أغير الناس لا يدخل قصره أحد غيره و فيه كوى يطرح لنسائه منها ما يحتجن إليه قالوا وليلة زفت إليه أمرأته أمر بالبرذون الذي ركبته فذبح و أحرق سرجه لئلا يركبه ذكر بعدها قال ابن شبرمة دخلت

على أبي مسلم ليلاً فرأيت في حجره مصحفاً و في يده سيفاً فقال يا بن شبرمة إنما هما و أشار إليهما أترهب هذا أم السيف قلت أصلح الله الأمير من أشجع الناس فقال كل قوم في إقبال دولتهم و كان أقل الناس طمعاً و أكثرهم طعاماً يخبز في مطبخه كل يوم ثلاثة آلاف مآزف و يطبخ مائة شاة سوى البقر و الطير و كان له مائة طباخ و آلة المطبخ تحمل على ألف و مائتين من الدواب و لما حج نادى في الناس برئت الذمة ممن أوقد ناراً فكفى العسكر و من معه أمر طعامهم و شرابهم في ذهابهم و منصرفهم و هربت الأعراب فلم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا سمعوا به من ولوعه بسفك الدماء و تناشدوا له بيتاً قال نصر بن سيار

فمن يكن سائلاً عن دين قومهم ... فإن دينهم أن يقتل العربا

و كان مروان بن محمد كتب إلى أهل مكة يهجو أبا مسلم و أنه يحرق المصاحف و يهدم المساجد فلما سمعوا بقدومه خرجوا ينظرون إليه فلما بلغ الحرم نزل عن دابته و خلع نعليه و مشى حافياً على رجليه إعظاماً للبيت و قضى نسكاً قل ما قضاه أحد من الملوك غيره فقالوا ما رأينا سلطاناً أعظم الحرم إعظامه و ولد سنة مائة و اثنتين و قتل سنة سبع و ثلاثين و هو ابن خمس و ثلاثين سنة و خلف بنتاً يقال لها فاطمة بت أبي مسلم يتولاها الخرمية و يزعمون أنه يخرج من نسلها رجل يستولي على الأرض كلها و يسلب بني العباس ملكهم و فيه يقول

أبا مجرم ما غير الله نعمة ... على عبده حتى يغيرها العبد

و في دولة المهدي حاولت غدرة ... إلا إن أهل الغدر آباؤك الكرد

أبا مجرم خوفتني الفتك فانتحي ... عليك بما خوفتني الأسد الورد

المهدي محمد بن أبي جعفر و بويع ابنه المهدي محمد بن أبي جعفر سنة تسع و خمسين و مائة و صار إليه خاتم الخلافة و قضيب النبي صلى الله عليه وسلم و بردته فكان كما سمي هادياً مهدياً رد المظالم و شهد الصلوات في جماعة و فرق خزائن المنصور في سبل الخير و رد ولاء آل أبي بكرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و رد ولاء آل زياد من نسبهم إلى أبي سفيان إلى عبيد من ثقيف و كتب بذلك إلى المدن و الأمصار و وسع المسجد الحرام و مسجد المدينة و فرق في حجه بمكة و المدينة ثلاثين ألف ألف درهم سوى ما حمل إليه من مال مصر و اليمن و حمل إليه محمد بن سليمان الثلج من أرض الموصل و لم يحمله أحد قبله و أمر بنزع المقاصير عن المسجد و تقصير المنابر إلى الحد الذي كان عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم و وضع دور المرضى و أجرى على العميان و المجذمين و الضعفى و أغزى الصائفة ابنة هارون بن المهدي في مائة ألف من المسترقة سوى المطوعة والأتباع و أهل الأسواق و الغزاة فقتلوا من الروم خمسة و أربعين ألفا وأصابوا من المال ما بيع البرذون بدرهم و الدرع بدرهم و عشرون سيفاً و ألزموهم الجزية كل سنة سبعين ألف دينار و فيه يقول ابن أبي حفصة

أطفت بقسطنطينية الروم مستنداً ... إليها القفاء حتى اكتسى الذل سورها

و ما رمتها حتى تفيك ملوكها ... بجزيتها و العرب تغلي قدورها

و كثير من الناس يرون ذلك الفتح الفتح الذي وعد الله به وفي أيامه خرج رجل يقال له يوسف البرم و استغوى خلقاً كثيراً و جمع بوشا و أدعى النبوة فبعث إليه جيشاً ففضوا جموعه فأسروه فأمر به المهدي فصلب و خرج حكيم المقنع و قال بتناسخ الأرواح و اتبعه ناس كثير و كان حكيم هذا رجلاً قصيراً أعور من قرية من قرى مرو يقال لها كاره و كان لا يسفر عن وجهه لأصحابه فلذلك قيل له المقنع و زعم أن روح الله التي كانت في آدم تحولت إلى شيث ثم إلى نوح ثم إلى إبرهيم ثم إلى موسى ثم إلى عيسى ثم إلى محمد بن الحنفية ثم إليه و كان يحسن شيئاً من الشعبذة و النيرنجات فاستغوى أهل العقول الضعيفة فاستمالهم فبعث المهدي في طلبه فصار إلى ما وراء النهر و

تحصن في قلعة كش و جمع فيها من الطعام و العلوفة و بث الدعاة في الناس و ادعى إحياء الموتى و علم الغيب و ألح المهدي في طلبه فحوصر فلما اشتد الحصار عليه سقى نساءه و غلمانه كلهم السم و شرب هو منه فماتوا عن آخرهم و حمل إلى المهدي و كان وعد أصحابه أن يتحول روحه إلى قالب رجل أشمط على برذون أشهب و أنه يعود إليهم بعد كذا سنة و يملكهم الأرض فهم ينتظرونه و يسمون المبيضة و في أيامه خرج المحمرة بخراسان و عليهم رجل يقال له عبد الوهاب فغلب على خرسان و ما يليها و قتل خلقاً كثيراً من الناس فانهض إليه المهدي عمرو بن العلاء فقتله و فض جموعه و في أيامه ظهرت الزنادقة فقتل المهدي بعضهم و استتاب بعضها و عقد البيعة لابنه موسى الهادي و بعده لأخيه هارون الرشيد و اعتل المهدي فحمل إلى ماسبذان يتروح إلى ذلك بالهواء فمات فحمل درابة إذ لم يجدوا جنازة فجزت حسنة عبيدها و لبست المسوح في وصائفها ولم تزل كذلك إلى أن فارقت الدنيا و كانت من أجمل النساء فقال أبو العتاهية

رحن في الوشي وأصبح ... نَ عليهن المسوح
كل نطاح وإن عا ... ش له يوم نطوح

نح على نفسك يا مس ... كين إن كنت تنوح
لتموتن و لو عم ... رت ما عمر نوح
بين عيني كل حيٍ ... علم الموت يلوح
كلنا في غفلة و ... الموت يغدو و يروح

و توفي المهدي ست و ستين و مائة و كان ابن ثمان و أربعين سنة و ولايته عشر سنوات و شهر و قيل فيه

و أفضل قبر بعد قبر محمد ... نبي الهدى قبر بما سبذان
عجبت لأيد حثت الترب فوقه ... غداة فلم يرجع بغير بنان

الهادي و بويع الهادي و تولى له البيعة هارون و هو بجرجان فأقبل إلى بغداد على دواب البريد و خرج عليه الحسين بن علي بن الحسن بن أبي طالب بالمدينة في الطالبيين يحيى و إدريس و إسماعيل الذي يقال له طباطبا و علي و عمر الذي يقال له الأفطس و أخرجوا عامل المدينة و نهبوا بيت المال ثم قصد الحسين بن علي على مكة و بعث الهادي موسى بن عيسى فأدركه على فرسخ من مكة فقتله و حمل رأسه إلى المهدي و تفرق من كان معه من آل أبي طالب فوقع إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى الأندلس و غلب عليها و أخوه يحيى بن عبد الله إلى جبال الديلم فأما إدريس فولى إلى تلك الناحية و ولده إلى اليوم بها و أما يحيى فإنه آمنة هارون و أخرجه ثم غدر به و بنى على بطنه اسطوانة و غضب الهادي على موسى بن عيسى في قتل الحسين بن علي من غير موفقة و تركه أن يقدم به عليه فيرى فيه رأيه فقبض على أمواله و ضياعه و تتبع الهادي الزنادقة فقتلهم أبرح قتلٍ منهم

ازدياذار كاتب يقطين بن موسى نظر إلى الناس في الطواف يهرولون فقال ما أشبههم ببقر تدوس البيدر فقال الشاعر فيه

ماذا ترى فر رجل كافر ... يشبه الكعبة بالبيدر

و قال آخر

قد مات ماني منذ أعصارٍ ... و قد بدا إزدايادار
حج إلى البيت أبو خالد ... مخافة القتل أو العار
وود والله أبو خالد ... لو كان بيت الله في النار

لا يقتل الحيات في دينه ... كفراً ولا العصفور في الدار
و ليس يؤذي الفأر فيحجره ... يقول روح الله في الفأر
فقتله الهادي و صلبه فسقطت خشبته على رجل من الحاج فقتله و قتلت حماره و مات الهادي بعيسى آباذ سنة سبعين و مائة و كان بلغ من السن ثلاثاً و عشرين سنة و ولي سنة و شهراً.
هارون الرشيد و بويع هارون الرشيد يوم توفي الهادي و ولد له المأمون فمات خليفة و ولى خليفة و ولد خليفة و لما بويع الرشيد ولي الوزارة يحيى بن خالد بن برمك و ولى خرسان جعفر بن محمد بن الأشعث بن قيس و بذل الأمان للطالبيين و أخرج الخمس لبني هاشم و قسم للذكر ألفاً وللأنثى خمس مائة و ساوى بين صليبتهم و مواليهم و فرض لأبناء المهاجرين و الأنصار و عمر طرسوس وأنزل فيها أبا سليمان الخادم في جماعة من الموالي و خرج عليه بن طريف الوليد بن طريف الشاري بأرض الجزيرة و استولى عليها و على و على أرمينية و آذربيجان و هزم عدة جيوش لهارون و فتك بهم و يقول
أنا الوليد بن الطريف الشاري ... أخرجني ظلمكم من داري
و دامت فتنته قريباً من عشر سنين ثم انتهز بعض الأعراب منه الفرصة فقتله غيلة و حمل رأسه إلى هارون فاعتمر شكراً لله عز و جل على ما أبلاه و كفاه و ذلك في سنة تسع و سبعين و مائة و رثته أخته الفارعة بنت الطريف
ألا يا لقوم للحيوف وللبلى ... و للدار لما أزمعت بخسوف
و للبدر من بين الكواكب إذ هوى ... و للشمس همت بعده بكسوف
و لليث فوق النعش إذ يحملونه ... إلى وهدة ملحودة و سقوف
بكت جشم لما استقلت على العلى ... و عن كل هولٍ بالرجال مطيف
أيا شجر الخابور ما لك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن الطريف
فتى لا يعد الزاد إلا من التقى ... و لا الكال إلا من قنى و سيوف
و خرج عليه حمزة الشاري بخراسان فعاش بباذغيس فأفسد و وثب على عيسى بن علي بن عيسى ففض جموعه و قتل فيهم أبرح قتل و انتهت الهزيمة لعيسى إلى كابل و قندهار فقال أبو العذافر

كاد عيسى يكون ذا القرنين ... بلغ المشرقين و المغربين
لم يدع كابلاً و زابلستا ... ن وما حولها إلى الرخجين
ثم غرق حمزة في واد بكرمان و تسمى طائفته الحمزية و خرج أبو الخصيب بنسا و غلب عليها أبيورد و طوس و سرخس و نيسابور و خرب و أفسد و كثفت جموعه و قوي أمره فبعث إليه هارون عيسى بن علي فقتله و سبى أهله و ذراريه و حمل إليه رأسه و استقامت أحوال خراسان و تحركت الخرمية بأذربيجان فانتدب لهم عبد الله بن مالك فقتل منهم ثلاثين ألفاً و سبى نساءهم و صبيانهم و وافى بهم هارون بقرميسين فأمر بقتل الأسارى و بيع السبى و خطب الفضل بن يحيى إلى خاقان ابنته فحنق لذلك خاقان و خرجت الخزر من باب الأبواب و أوقعوا بالمسلمين و أهل الذمة و سبوا مائة ألف وأربعين ألف إنسان و قتلوا من الرجال و النساء و الولدان ما لا يعلم عددهم إلا الله عز و جل و أحرقوا المدن والقرى و انتهكوا من الإسلام ما لم يذكر مثله قبله و لا بعده.
قصة البرامكة قيل أنهم كانوا من أهل بيوتات بلخ ممن يتولون البهار و بيت النار فقيل لهم البرامكة على معنى أنهم سدنة البيت و حجابه فأول ما ولوا من الأعمال في أيام أبي العباس ولي الخراج خالد بن برمك ثم صار يدور فيهم إلى أيام الرشيد فولى الوزارة يحيى بن خالد بن برمك و ولي خراسان و ما دون باب بغداذ مما يليها ابنه الفضل بن

يحيى و ولى ابنه الآخر جعفر بن يحيى الخاتم قال بعضهم الوزارة برمكية لا بقي منهم بقية ثم سخط عليهم هارون فأفناهم و اختلفوا في السبب الذي حمله على ذلك فقال قوم أنهم أرادوا إظهار الزندقة و إفساد الملك و نقله إلى عثمان بن نهيك الفاسق فقتلهم هارون على ذلك و قال آخرون إن هارون كان مختصاً بجعفر بن يحيى بن برمك حتى أمر فخيط له قميص ذو جيبين يلبسه هارون و جعفر لثقته به و اختصاصه به و كان باراً بأخته عباسة مولعاً بها لا يكاد يصبر عنها فزوجها من جعفر بن يحيى على أن لا يمسها و لا يلم بها ليكون لها محرماً إذا حضرت المجلس فقضى من القضاء إن حملت منه و ولدت توأمين فغضب هارون لذلك و أمر بضرب عنق جعفر بن يحيى وحبس أخاه الفضل و أباه بالرقة حتى ماتا في الحبس و أمر بجثة جعفر و رأسه إلى مدينة السلام فقطعت بنصفين و صلبت به ثم أحرقت بالنار و كتب إلى العمال في جميع النواحي و البلدان بالقبض على البرامكة و حاشيتهم و أولادهم و مواليهم فكل من هو منهم يسئل و الاستيثاق منهم و اجتياح أموالهم و استصفائها منهم و إذكاء العيون على من اختفى منهم و تغيب و الاحتيال في القبض عليه حتى إذا علم أنه قد أحاط بهم أو بأكثرهم كتب إلى كل عامل كتابا مدرجاً مختوماً بأمره أن ينظر فيه يوم كذا من سنة كذا فيمثل ما مثل له فيه فوافق قتلهم كلهم في يوم واحد ثم أمر بعباسة فحطت في صندوق و دفنت في بئر و هي حية و أمر بابنيها كأنهما لؤلؤتان فأحضرا فنظر إليهما ملياً و شاور نفسه و بكى ثم رمى بهما إلى البئر و طمها عليهم و قال الأصمعي في البرامكة

إذا ذكر الشرك في مجلسٍ ... أنارت وجوه بني برمك

و إن تليت عندهم سورة ... أتوا بالأحاديث من برمك

و حج هارون بابنيه محمد الأمين وعبد الله المأمون و كتب كتاباً بالعهد و البيعة للأمين و بعده للمأمون و أشهد عليه و علقه على الكعبة فقال إبرهيم الموصلي

خير الأمور مغبة ... و أحق أمر بالتمام

أمر قضى أحكامه ... في الكعبة البيت الحرام

و كان عقد العهد لمحمد و سماه الأمين و هو ابن خمس سنين و ذلك في سنة خمس و سبعين و مائة فقال سلم الخاسر

قد وفق الله الخليفة إذ بنى ... بيت الخلافة للهجان الأزهر

قد بايع الثقلان في مهد التقى ... لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

و قال أبان بن حميد اللاحقي

و ما قصرت سن به أن ينالها ... و قد خص عيسى بالنبوة في المهد

و في سنة ست و ثمانين و مائة أخذ البيعة للقاسم ابنه بولاية العهد بعد المأمون و سماه المؤتمن فصاروا بعهده ثلاثة الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن و خرج رافع بن ليث بن نصر بن سيار بسمرقند و غلب على ما وراء النهر فولى الرشيد هرثمة بن أعين خراسان و استكفاه أمر رافع و قدم المأمون إلى مرو و سار بنفسه فلما بلغ طوس توفي بها فدفن في سنة ثلاث و تسعين و مائة و قد بلغ من السن سبعاً و أربعين سنة و كانت ولايته ثلاثاً و عشرين سنة و شهرين و أياماً فرثاه أبو الشيص

غربت في المشرق الشم ... س فقل للعين تدمع

ما رأينا قط شمساً ... غربت من حيث تطلع

فلما مات هارون بايع الناس لولده الثلاثة على الوفاء بالعهد بعضهم لبعضٍ.

محمد الأمين

و بويع محمد الأمين فنكث و غدر و ولى ابنه موسى العراق و هو طفل و لقبه الناطق بالحق و أمر بالدعاء له على المنابر و نهى عن الدعاء للمأمون و أمر بإبطال ما ضرب المأمون من الدراهم و الدنانير بخراسان و أغرى الفضل بن الربيع بينه و بين المأمون و زين له بكر بن المعتمر خلع المأمون فولى بن عيسى بن هامان الحرب و أخذ البيعة لابنه الناطق بالحق و صيره في حجره و ندبه للقاء المأمون و دفع إليه قيداً من ذهب و قال أوثق المأمون و لا تقتله حتى تقدم به علي و أعطاه من الصامت ألفي ألف دينار سوى الأثاث و الكراع و بلغ الخبر المأمون فتسمى بأمير المؤمنين و قطع الخراج عن الأمين و ألقى اسمه من الطراز و الدراهم و الدنانير و انهض طاهر بن الحسين و هرثمة بن أعين إلى علي بن عيسى فالتقوا بالري و قتلوا جيوشه و احتووا على أمواله و كتب طاهر بن الحسين إلى الفضل بن سهل وزير المأمون كتبت إليك و رأس علي بن عيسى في حجري و خاتمه في يدي و الحمد لله رب العالمين فنهض الفضل بن سهل و دخل على المأمون و سلم عليه بالخلافة فبعث المأمون إلى طاهر بالهدايا و الأموال و أمده بالرجال و القواد و سماه ذا اليمينين و صاحب خيل الدين و أمره أن يمضي إلى العراق فأخذ طاهر على طريق الأهواز و أخذ هرثمة على طريق حلوان و رفع المأمون قدر الفضل بن سهل و عقد له على المشرق من جبل همذان إلى جبل سقين و تبت طولاً و من بحر فارس و الهند إلى بحر جرجان و الديلم عرضاً و عقد له لواء على سنان ذي شعبتين و سماه ذا الرياستين رياسة الحرب و رياسة التدبير ولما صار طاهر إلى الأهواز و استولى عليها ثم امتد إلى واسط و تمكن هرثمة من حلوان شغب الجند على محمد الأمين فأعطاهم رزق أربعة و عشرين شهراً ثم و ثبوا عليه و هو في قصر الخلد فأخرجوه و خلعوه و حبسوه مع أمه و ولده في مدينة أبي جعفر فقال جاء الخبر من العجب لأحد عشر من رجب ثم أخرجوه و بايعوه و كان حبسه يومين ثم تشوشت الدنيا فخرج ابن طباطبا العلوي بالكوفة و بيض و معه أعرابي من بني شيبان يقال له أبو السرايا و غلبوا على الكوفة و السواد ثم مات ابن طباطبا وهو محمد بن إبرهيم بن اسمعيل بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين ونقش الخاتم و الدراهم إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص و في وسطه الفاطمي الأصغر و خرج بالبصرة علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فغلب و بيض و خرج بمكة ابن الأفطس الحسين بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام فغلب و بيض و حج بالناس سنة مائتين و خرج بالمدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب سلام الله عليهم فغلب و بيض و خرج باليمن إبرهيم بن موسى بن جعفر بن محمد و غلب و بيض و خرج بالشام على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية يدعو إلى نفسه و حاصر طاهر و هرثمة محمداً الأمين و جعلا يحاربان أصحابه سنة ببغداد فقتل أصحابه و خفت يده من المال و ضعف أمره و كتب طاهر إلى المأمون يستأمره في قتل محمد فبعث إليه بقميص غير مقور فعلم أنه يأمره بقتله و خلص الجيش إلى قصر محمد و أحدقوا به فوجه إلى هرثمة يسأله الأمان فآمنه و ضمن له الوفاء من المسلمين فجاء طاهر مسرعاً و حمل على الحراقة بالنفط و الحجارة فانكفأت بمن فيها فأما هرثمة فإنه ركب زورقاً قريباً منه وأما محمد فسبح حتى خرج بشط البصرة فأخذه أصحاب طاهر و جاؤوا به فقتله من ليلته و بعث برأسه إلى خراسان و خلص الأمر للمأمون و بعث المأمون إلى علي بن موسى بن جعفر فأقدمه خراسان و عقد له العهد من بعده و سماه الرضا و زوجه ابنته أم حبيبة بنت المأمون و خضر الثياب و اللباس و الرايات و أمر بطرح السواد فشق ذلك على بني هاشم و غضب بنو العباس و قالوا يخرج الأمر منا إلى أعدائنا فخلعوا المأمون و بايعوا إبرهيم بن المهدي و سموه المبارك و توجه المأمون نحو العراق فلما بلغ سرخس قتل الفضل بن سهل في الحمام غيلة و مات علي بن موسى الرضا بطوس و دفن عند قبر هارون و اختلفوا في سبب موته فمن قائل أنه سم وآخر أنه أكل عنباً فمات

و جاء المأمون حتى دخل بغداذ و عليه الخضرة فأمر بطرحها و أمر بإعادة السواد و خلع القاسم المؤتمن و قتل محمد الأمين سنة

ثمان و تسعين و مائة و كان سنة ثمان و عشرين سنة و أياماً ولايته أربع سنين و أربعة أشهر و أياماً و يقال خمس سنين و فيه يقولثمان و تسعين و مائة و كان سنة ثمان و عشرين سنة و أياماً ولايته أربع سنين و أربعة أشهر و أياماً و يقال خمس سنين و فيه يقول

أضاع الخلافة غش الوزير ... و فسق الأمير و جهل المشير

فبكر مشير و فضل وزير ... يزيدان ما فيه حذف الأمير

و بويع إبرهيم بن المهدي سنة اثنتين و مائتين فخرج إلى الحسن بن سهل فألحقه بواسط ثم بايع بغداذ المأمون و كانت أيام إبرهيم بن المهدي سنة وأحد عشر شهراً و دخل المأمون بغداذ سنة أربع و مائتين.

المأمون و بويع عبد الله المأمون سنة أربع و مائتين و كانوا بايعوه بمرو عندما خلعه أخوه فأحسن السيرة و تفقد أمور الناس و قعد للقضاء و الصلاة و الخطبة و خلع أخاه القاسم و أخذ البيعة لأخيه أبي إسحق المعتصم من بعده و كتب الناس من عبد الله المأمون أمير المؤمنين و أخيه الخليفة من بعده أبي إسحاق المعتصم و أمر بامتحان القضاة و المحدثين و نادى مناديه بربث الذمة ممن ذكر معاوية بخير و فضله على أحد من الصحابة و أحيا العلم القديم و نقل إلى لسان العرب و أظهر علم النجوم و الفلسفة و كان فاضلاً في نفسه فطيناً ذكياً أبيض البشرة تعلوه حمرة أعين طويل اللحية دقيقها في خده خال أسود و أمر أبو إسحق باتخاذ الأتراك للخدمة و كان يشتري الواحد منهم بمئة ألف ومئتي ألف و في أيامه تحركت الخرمية و ادعى بابك أن روح جاويذان دخلت فيه فبعث إليه المأمون محمد بن حميد فقتل محمد بن حميد و عامة أصحابه و أصاب الناس مجاعة حتى بلغ المد عشرين ديناراً و رؤي قبله الكوكب ذو الذنب ثم وقع بعده موت ذريع أفنى كثيراً من الناس و ظفر المأمون بإبرهيم بن المهدي في زي امرأة يمشي بين امرأتين فعفا عنه و آمنه و نادمه فقال إبرهيم

إن الذي قسم المكارم حازها ... من صلب آدم للإمام السابع

فعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو و لم يشفع إليك بشافع

و غزا الروم غير مرة فافتتح منها حصوناً و قلاع و مات بها فحمل إلى طرسوس و قال الشاعر

خلفوه بعرقوة طرسوس ... مثلما خلفوا أباه بطوس

هل رأيت النجوم أغنيت عن المأ ... مون أو عن وزير المألوس

و توفي سنة ثمان عشر و مئتين و كانت خلافته منذ قتل محمد عشرين سنة و عمره ثمانيا و أربعين سنة و كانت أم المأمون باذغيسية تسمى مراجل و كان المأمون ضربه أبوه في شيء فقال الرقاشي يهجوه

لم تلد أمة تع ... رف في السوق التجارا

لا ولا حدولا خا ... ن ولا في الحكم جارا

أبو إسحق المعتصم بالله و بويع أبو إسحق المعتصم بالله و هو محمد بن هارون سنة ثمانٍ عشر و مئتين فنخرم كثير من أهل الجبال من مشاهير همذان و ماسبذان و مهرجان و تجمعوا فبعث إبرهيم بن إسحق بن مصعب و قتل منهم ستين ألفاً و سبى ستين ألفاً و هرب الباقون إلى بلاد الروم و خرج العباس بن المأمون و دعا إلى نفسه و بايعه كثير من القواد فحبسه وأمر بلعنه على المنابر و سماه اللعين فمات بالحبس و شغب عليه الأتراك فأمر برد المقاصير في

مساجد الجماعة ثم مضى بإنزاله إلى سر من رأى فابتني فيها و اتخذها داراً و قتل بابك الخرمي سنة ثلاث و عشرين و مائتين.

قصة بابك الخرمي ذكروا أنه كان لغير رشده و أن أمه كانت امرأة عوراء فقيرة من قرى أذربيجان فشغف بها رجل من نبط السواد يقال له عبد الله فحملت منه و قتل الرجل و بابك حمل فوضعته أمه و جعلت تكتسب عليه إلى أن بلغ مبلغ السعي و صار غلاماً حنوراً و استأجره أهل قريته على سرحه بطعام بطنه و كسوة ظهره فزعموا أن أتته ذات يوم بطعامه و هو قائل في ظل حائط فرأت شعر بدنه قد اقشعر يقطر من رأس كل شعرة قطرة دم فقالت إن لابني هذا شأناً عظيماً و كان في تلك الجبال قوم من الخرمية و عليهم رئيسان يتكافحان و يخالف أحدهما الآخر يقال لأحدهما جاويذان و الآخر عمران فمر جاويذان في بعض حاجاته بقرية بابك فرآه فتفرس فيه الجلادة فاستأجره من أمه و حمله إلى ناحيته قالوا فمالت إليه امرأة جاويذان و أفشت إليه أسرار زوجها و أطلعته على دفائنه و كنوزه فلم يلبث إلا قليلاً حتى وقعت حرب بين جاويذان و عمران فأصابت جاويذان جراحة فمات منها فزعمت امرأة جاويذان أن بابك قد استخلف هذا على أمره و تحولت روحه إليه و إن الذي كان وعدكم من الظفر و النصرة كله صائر إليكم على يدي هذا و ذلك أن الخرمية لا يصبحون و لا يمسون إلا على توقع الحركة فأتبعوه قومه و صدقوا المرأة على شهادتها و أمر بابك أصحابه من النواحي و القرى و كان في قلة و ذلة و أعطاهم سيوفاً و خناجر و أمرهم أن يرجعوا إلى قراهم و منازلهم و ينتظروا ثلث الليل الأخير فإذا كان ذلك الوقت يخرجوا على الناس فلا يدعوا رجلاً و لا امرأة و لا صبياً و لا طفلاً من قريب و بعيد إلا قطعوه و قتلوه ففعل القوم ذلك فأصبح أهل تلك القرى قتلى بيد الخرمية و لا يدرون من أمرهم بذلك و لا ما السبب فيه و دخل الناس رعب شديد و هول عظيم ثم لم يمهل أن بعثهم إلى ما نأي عنه من النواحي فيقتلون من أصابوا من الناس من أي صنف كان صغيراً كان أو كبيراً أو مسلماً أو ذمياً حتى مرن القوم على القتل و انضوى عليه القطاع و الحراب و الذعار و أصحاب الفتن و أرباب النحل الزائغة و تكاثفت جموعه حتى بلغ فرسان رجاله عشرين ألف فارس سوى الرجالة و احتوى على مدن و قرى و أخذ بالتمثيل بالناس و التحريق بالنار و الانهماك في الفساد و قلة الرحمة و المبالاة و هزم جيوشا كثيرةً للسلطان و قتل عدة قواد له و ذكر في بعض الكتب أنه قتل فيما حفظ ألف ألفَ إنسان من بين رجل و امرأة و ذكر في التاريخ أن جميع من قتل بابك مائتا ألف إنسان و خمسة و خمسون ألف إنسان و خمس مائة إنسان و الله أعلم فندب المعتصم الإفشين للقاء بابك و عقد له على الجبال كلها و وظف له كل يوم يركب فيه عشرة ألف درهم صلة و يوم لا يركب خمسة آلاف درهم سوى الأرزاق و الأنزال و المعاون و ما يصل إليه من عمل الجبال و أجازه عند خروجه بألف ألف درهم فقاومه الإفشين سنة و انهزم بابك من يديه غير مرة و عاوده بابك يلتجئ إلى البذ و هي مدينة حصينة فلما قرب أجله و ضاق أمره خرج هارباً بأهله و ولده إلى أرمينية في زي التجار فعرفه سهل بن سنباط النصراني أحد بطارقة أرمينية و كان في إساره فافتدى نفسه منه بمال عظيم فلم يقبل منه بعد ما ركب من أمه و أخته و امرأته الفاحشة بين يديه و كذا كان الملعون يفعل بالناس إذا أسرهم مع حرمهم فقبض عليه و بعثه إلى الإفشين و كان المعتصم جعل ألفي ألف لمن جاء برأسه و ألف ألفَ لمن جاء به حياً فحمل إلى سهل بن سنباط ألفي ألف و سوغ له عمال ناحيته و حمل الإفشين بابك إلى المعتصم و هو بسر من رأى فأمر به فقطعت يداه و رجلاه و صلب سنة ثلاث و عشرين و زعم قوم أن بابك الملعون لما قطعت يده لطخ وجهه بدمه و ضحك يري الناس أنه لم يؤلمه القطع و أن روحه ليست تحس بشيء من ذلك و كان ذلك من أعظم الفتوح في الإسلام و يوم قبض عليه كان عيداً للمسلمين و كان يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رمضان سنة ثلاث و

عشرين و مائتين فرفع المعتصم قدر الإفشين و توجه و ألبسه وشاحين منطومين بالدر و الجواهر و سوره سوارين و وصله بعشرين ألف ألفَ درهم و أمر الشعراء بمدحه و جعل صلتهم عنده فمما قيل فيه

كل مجد غير ما أثله ... لبني كاووس أولاد العجم

إنما الإفشين سيف سله ... قدر الله بكف المعتصم

لم يدع في البذ من ساكنه ... غير أمثال كأمثال إرم

و في أيامه خرجت الروم فنزلت زبطرة فتوجه المعتصم إليهم و فتح عمورية و قتل ثلاثين ألفاً و أسر ثلاثين ألفاً و في ذلك الفتح يقول الطائي

السيف أصدق أنباء من الكتب

و قال غيره في ذلك

أقام الإمام منار الهدى ... و أخرس ناقوس عمورية

فقد أصبح الدين مستوثقاً ... و أضحت زناد الهدى مورية

و خرج عليه أبو حرب المبرقع بالشام فوجه إليه جيشاً فقتلوا من أصحابه عشرين ألفاً و حملوه إلى المعتصم و هو بسر من رأى و صلبوه و كان يقول بتناسخ الأرواح ثم غضب المعتصم على الإفشين و ذلك أنه كاتب مازيار اصفهبذ طبرستان وسأله الخلاف والمعصية وأراد أن ينقل الملك إلى العجم فقتله وصلبه بأذاء بابك و وجده بقلفته لم يختن و أخرجوا من منزله أصناماً فأحرقوها و مات المعتصم سنة ست و عشرين و مائتين و كانت خلافته ثمان سنين و ثمانية أشهر و خلف ثماني بنين و ثماني بنات و هو الذي امتحن أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه و ضربه بالسياط و في أيامه مات ابراهيم بن المهدي و كان عمر المعتصم ثمانياً و أربعين سنة.

هارون الواثق بالله و بويع هارون الواثق بالله و هو الذي يقول فيه الطائي هارون فيه كأنه هارون و مات و في أيامه انفرد البحتري بالرياسة في الشعر و في أيامه أقبلت نار من المشرق فيها دوي كدوي الريح فأحاطت ببيوتات فأحرقت ثم تبعها ريح عاصف فهدمت بيوتاً و مات خلق كثير من الفزع و مات الواثق سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين و كانت خلافته خمس سنين و تسعة أشهر و سنه اثنين و ثلاثين سنة.

جعفر بن أبي إسحق المتوكل على الله و بويع جعفر بن أبي إسحق المتوكل على الله فأخذ البيعة لولده الثلاثة لمحمد بن جعفر المنتصر بالله و لإبرهيم بن جعفر المؤيد بالله و لأبي عبد الله بن جعفر المعتز بالله و جعل العهد للمنتصر و بعده للمعتز و بعده للمؤيد و عقد لكل واحد منهم لواء و ولى المنتصر العراق و الحجاز و اليمن و ولى المعتز خراسان و الري و الجبال و ولى المؤيد أجناد الشام و في أيامه امتنع إسحق بن اسمعيل بتفليس فبعث إليه بغا الكبير فقتل اسحق و أحرق المدينة و كانت كلها من خشب الصنوبر و أحرق أكثر من خمسين ألف إنسان و هاجت الزلزلة و تقطع الجبل الأقرع و سقط في البحر فمات أكثر أهل اللاذقية من تلك الهدة و تناثرت الكواكب و أخرج أحمد بن حنبل من الحبس و وصله و صرفه إلى بغداد و نفى أحمد بن دؤاد و قبض على أمواله فقال أبو العتاهية

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشد ... و كان عزمك عزماً فيه توفيق

لكان في الفقه شغل لو قنعت به ... من أن يقال كتاب الله مخلوق

و كتب المتوكل إلى أهل بغداد كتاباً قرئ على المنبر بترك الجدل في القرآن و أن الذمة برئة ممن يقول بخلق أو غير خلق و ولى يحيى بن أكثم قضاء الشرقية حسان بن قيس و كان أعور و ولى قضاء الغربي سوار بن عبد الله و كان أعور فقال بعض الشعراء

رأيت من الكبائر قاضيين ... هما أحدوثة في الخافقين
هما اقتسما العمى نصفين قسماً ... كما اقتسما قضاء الجانبين
وفي أيامه ظهر رجل بسر من رأى يقال له محمود بن الفرج النيسابوري وزعم ذو القرنين و معه مصحف قد ألف كلاماً و تبعه على ذلك سبعة عشر رجلاً فقيل له كيف ذهبت إلى ذي القرنين من بين الناس قال لأن رجلين ببغداذ يدعيان النبوة فكرهت أن أكون ثالثهما فصفع صفيعات و تاب هو و أصحابه و بنى المتوكل و تحول إليها و اتخذها وطناً فاغتيل ليلاً وهو ثمل فقتل فقيل فيه
حانت منيته و العين هاجعة ... هلا أتته المنايا و القنا قصد
هلا أتته أعاديه مهاجرة ... و الحرب تسعر و الأبطال تجتلد
و قتل سنة سبع و أربعين و مائتين و كانت ولايته أربع عشرة سنة و عشرة أشهر و أياماً و عمره أربعين سنة و يقال أن ابنه المنتصر دس لقتله فعاش بعده ستة أشهر و روى دعبل بن علي الخزاعي عن الحسن ليلة قتل فيها المتوكل و بويع المنتصر قائلاً يقول
خليفة مات لم يأسف له أحد ... و قام آخر لم يفرح به أحد
فمر ذاك ومر الشؤم يتبعه ... و قام هذا فقام النحس و النكد

و لما بويع المنتصر خلع المعتز و المؤيد و مات بعد ستة أشهر و كان بن أربع و عشرين سنة ثم بويع أحمد بن محمد ابن المعتصم فحبس المعتز و المؤيد و أطلق الحسن بن الأفشين و إخوته و مواليه من الحبس و خلع عليهم و عقد لمحمد بن طاهر بن عبد الله على خراسان فشغب الوالي و الشاكرية و كسروا باب السجن و أنزلوا المعتز و خلعوا المستعين و كانت أيامه سنتين و تسعة أشهر و في أيامه خرج الحسن بن زيد بطبرستان.
أبو عبد الله المعتز و بويع أبو عبد الله المعتز ثم اجتمعت الأتراك و الفراعنة فخلعوا المعتز و كانت أيامه أربع سنين و تسعة أشهر.
المهتدي بالله محمد بن هارون الواثق و بويع المهتدي بالله محمد بن هارون الواثق سنة خمس و خمسين و مائتين و قتل سنة ست و كانت أحد عشر شهراً من أيامه إلى أن توفي المعتز بالله و ظهر البرقعي بالبصرة و جمع الزنج الذين كانوا يكنسون السباخ و قوي أمره.
المعتمد على الله و بويع المعتمد على الله و هو أحمد بن جعفر المتوكل سنة ست و ستين و مائتين و بايعه ممن أبوه خليفة بنو الواثق و بنو المعتز و بنو المتوكل و بنو المنتصر و بنو المستعين و بنو المعتصم و بنو المعتمد و توفي سنة تسع و سبعين و مائتين و كانت ولايته ثلاثاً و عشرين سنة و في أيامه قوي أمر الزنج بالبصرة و غلب الحسن بن زيد على الري و جرجان و طبرستان و خرج يعقوب بن الليث بسجستان و غلب أحمد بن عبد الله الخجستاني على خراسان و خرج سرحب الجمال في إخوته منصور و نعمان فغلبوا مرو و سرخس و خرج علويان بالمدينة اسم أحدهما محمد واسم الآخر حسن و قتلا من أهل المدينة مقتلةً عظيمةً و طالبوهم بعشرة آلاف دينار و مات نسوانها و ولدانها و ضعفاؤها جوعاً ولم يصل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعات و وثب الأعراب على كسوة البيت فنهبوها و صاروا إلى الزنج بالبصرة و خرجت فزارة و قيس و طيء على الحاج فانتهبوهم و سبوا حرمهم و استاقوا إبلهم و قتلوا منهم خلقاً كثيراً و لم يفلت أحد إلا بقطع أو جراحة و خرج علوي بأذربيجان و تسمى الرافع بالله و تغلب عليها و جمع الأكراد و استغواهم و خرج أحمد بن طولون بمصر واستعصى على السلطان و عاث رافع بن أعين في أقاصي خراسان و أفسد و صار عبد الله بن الواثق إلى يعقوب بن الليث يستعينه

على المعتمد فذلك الذي أطعمه في قصد بغداذ و كوتب نصر بن أحمد بن أسد شاهان خذاي بولاية ما وراء النهر و لكل واحد ممن ذكرنا قصة و خبر و أخذ المعتمد البيعة لابنه جعفر بن أحمد و سماه المفوض إلى الله و جعل ولي العهد بعده أخاه أبا أحمد الموفق بالله فلما توفي الموفق خلع المعتمد ابنه المفوض إلى الله و أثبت العهد لأبي العباس بن الموفق و سماه المعتضد بالله و توفي المعتمد سنة تسع و سبعين و مائتين.

المعتضد بالله و بويع المعتضد بالله في هذه السنة و مات سنة ست و ثمانين و مائتين فكانت ولايته ست سنين و ستة أشهر و عشرين يوماً و في أيامه خرج زكرويه بن مهرويه في كلب على الحاج فقتلهم و سباهم و قصد الكوفة فأنهض إليه السلطان جيشاً فمارسهم خمسة أشهر ثم ظفروا به فحملوه إلى بغداذ على طريق الشهرة و النكال و حبس فمات في الحبس ثم أخرج فصلب فسرقه القرامطة عن خشبته.

المكتفي بالله علي بن أحمد وبويع المكتفي بالله علي بن أحمد ولي خمس سنين و سبعة أشهر و أياماً و توفي سنة أربع و تسعين و مائتين و كنيته أبو محمد، وبويع المقتدر بالله أبو الفضل جعفر و لم يلي الخلافة أصغر منه و في أيامه فسدت أمور الخلافة و كانت أيامه خمساً و عشرين سنةً، القاهر بالله وسلمت عيناه بويع القاهر بالله و سلمت عيناه و كانت ولايته عاماً واحداً و ستة أشهر، و بويع الراضي محمد بن جعفر المقتدر و كانت ولايته سبع سنين، و بويع المتقي بالله إبرهيم بن جعفر المقتدر و كان صالحاً، و بويع المستكفي خلع وسلمت عيناه، و بويع المطيع لله لثمان بقين من جمادى الآخر سنة أربع و ثلاثين و خلع نفسه يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي القعدة فلج و نزع نفسه غير مكره.

هذا آخر كتاب البدء و التأريخ و الحمد لله و صلواته على سيدنا محمد النبي و آله و سلم،و كتبه العبد الضعيف الفقير الراجي رحمة ربه اللطيف خليل بن الحسين الكردي الولاشجرضي غفر الله له و لجميع المسلمين في شهور سنة ثلاث و ستين و ستمائة و الحمد لله و حده و الصلوة على محمد و آله.

ISLAMICBOOK.WS ٢٠١٠ | جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين